
روايات الهلال
إمرأة من روما
البرتو مورافيا

روايات الـهـلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمي

تصدر عن مؤسسة
دار الهلال

العدد ٥٠٢ اكتوبر ١٩٩٠
ربيع اول ١٤١١ هـ
No. 502 Oc. 1990

الاشتراكات

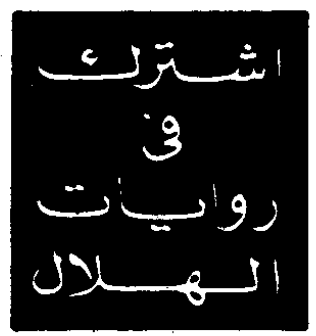
قيمة الاشتراك السنوى واحد وعشرون جنيها فى ج . م . ع . تدفع مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وسبعة عشر دولارا فى البلاد العربية وخمسة وعشرون دولارا لباقى دول العالم والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسس دار الهلال ويرجى عدم أرسال عملات نقدية بالبريد .

الادارة : القاهرة ـ ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات : ص . ب . ٦١ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١ ـ تلغرافيا : المصور ـ القاهرة ج . م . ع .

تلكس : TELEX 92703 HILAL U . N
فاكس : FAX 3625469

أسعار البيع للعدد فئة ٤٠٠ قرش

لبنان ٢٥٠٠ ليرة ، الأردن ١٥٠٠ فلسا ، الكويت ١٥٠٠ فلسا ، العراق ٢ دينار ، السعودية ١٥ ريال .



الكويت : السيد عبد العال بسيونى زغلول الصفاة ـ ص . ب رقم 13079٢١٨٣٣ ـ تليفون ـ ٤٧٤١١٦٤

للحصول على نسخ من روايات الهلال
اتصل بالتلكس : 92703 HILAL. U. N.

الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ـ القاهرة
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

الغلاف بريشة الفنانة
سميحـــة حسنيـــــن

إمرأة من روما

بقلم

البرتو مورافيا

ترجمة

زغلول فهمى

دار الهلال

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية
LA ROMANA
تأليف
ALBERTO MORAVIA

نشرت هذه الرواية لاول مرة فى روايات الهلال فى أغسطس وسبتمبر ۱۹۷۱ ونعيد نشرها اليوم كاملة بمناسبة رحيل مؤلفها البرتومورافيا فى الشهر الماضى .

مقدمة المؤلف

قد يعترض بعض قراء « امرأة في روما » بأن امرأة بسيطة غير متعلمة من عامة الشعب لن تكون قادرة على سرد قصة حياتها بالاسلوب الادبى السليم الذى أعرتها اياه • وفى الواقع فان هذه هى المشكلة التى واجهتنى منذ البداية • اذ فتح أمامى طريقان لسرد الترجمة الذاتية الخيالية لتلك الشخصية التى شئت أن أصورها ـ فاما أن أتخذ أسلوبا واقعيا تصويريا مستخدما فى الحديث يمثل امرأة تنتمى الى طبقة آدريانا وتحترف مهنتها وهى لهجة خشنة فقيرة لا يمكن التعبير بها الا عن مشاعر وأحداث معدودة محدودة أو أن أجعـــل شخصياتى تتحدث بأسلوبى المعهود كما فعلت فى جميع كتبى الاخرى• فاخترت الطريق الثانى لســــببين أولهما أننى لم أجد ضرورة لتغيير أسلوبى بسبب تغيير شخصياتى وثانيهما أن لغة الادب أصدق دائما وأقدر على التعبير بطريقة شاعرية من لغة الحديث • ولا يمكننى أن أنكر أن النساء من صنف آدريانا لا يتحدثن عادة كما تتحدث آدريانا ولا يعبرن عن المشاعر والافكار التى تعبر عنها • ومع ذلك فانى لم أنسب اليها سوى تلك المشاعر والافكار التى يمكن أن يعبر عنها من كن على شاكلة آدريانا آذا ما وهبن القدرة اللغوية والعقلية اللازمة لذلك • وبعبارة أخرى فعلى الرغم من اختلاف القدرة العقلية ومدى المعرفة عند الناس فلديهم جميعا عالمهم الاخلاقى الخاص بكامله حتى من كان منهم فى أشد حالات البؤس والتعاسة • وقد اقتصرت فى محاولتى هذه على تصوير عالم آدريانا الاخلاقى وذلك بأن أديت لها نفس الخدمة التى يؤديها الكتبة العموميون عنـــدما يترجمون عن عواطف الخادمات الاميات التى تفتقر الى الصياغة والتعبير الدقيق ويقومون بتدوينها •

القسم الأول

الفصل الأول

كنت وأنا فى السادسة عشرة من عمرى قطعة من الجمال الحق ـ فقد ضاق وجهى البيضاوى عند الصدغين وازداد عرضه أسفلهما بقليل . واتسعت عيناى الرقيقتان المستطيلتان . كما صنع أنفى خطا مستقيما مع جبهتى . أما فمى فكان واســـعا ذا شفتين جميلتين حمراوين ممتلئتين ـ وكنت عندما أضحك أكشف عن ثغر نضـــيد ناصع البياض . وقد اعتادت أمى أن تشبهنى بمريم العذراء . كما لفت نظرى ماكان بينى وبين نجمة سينمائية ذاع صيتها حينذاك من تشابه . فبدأت أحاكيها فى طريقة تصفيف شعرها . وكذلك زعمت أمى أن قوامى كان يبز فى رشاقته جمال وجهى مائة مرة وأن قدى المشوق لم يكن له نظير فى روما بأسرها . ولكننى فى تلك الايام لم أكن أعبأ بقوامى بل كان اعتقادى أن الوجه الجميل هو كل مايهم . أما اليوم فيجب أن أعترف بأن أمى كانت على حق . فقد استقامت ساقاى القويتان وتقوس ردفاى واســـتطال ظهرى وضمر خصرى وعرض منكباى . كما برز بطنى قليلا وهكذا كان دواما . أما سرتى فلشد ما عمق تجويفها فى بدنى حتى كادت تختفى . ولكن أمى كانت تزعم أن هذا مزيد من الجمال لان بطن المرأة فى نظرها ينبغى أن يكون بارزا الى حد ما لا مستويا كما هو سائد الآن . كذلك استوى صدرى ناهدا ممتلئا ولكن فى قوة ولدونة حتى أنه لم تكن بى حاجة الى ارتداء مشد للصدر . وكانت أمى كلما شكوت اليها من أن صدرى أكبر حجما مما ينبغى ترد بأنه جميل حقا وبأن صدور النساء منعـــدمة فى هذه الايام . وكنت عندما أتجرد من ملابسى أبدو طويلة القامة فى تناسب جميل أشبه بالتمثال . هكذا قالوا لى فيما بعد . أما وأنا فى كامل هندامى فكنت أبدو فتاة صغيرة جميلة ولا يخطر ببال أحد أنى على هذه الصورة فى تكوينى الجسمانى . وقد أخبرنى الفنان الذى وقفت له لاول مرة أن ذلك يرجع الى ماكان بين أجزاء جسدى المختلفة من تناسق وتناسب .

وقد اكتشفت لى أمى ذلك الرسام ، اذ أنها كانت تعمل نموذجا قبل زواجها واشتغالها بحياكة القمصان ، فلما كلفها أحد الفنانين

ذات يوم بأن تحيك له بعض القمصان تذكرت مهنتها القديمة واقترحت عليه أن أقف له ليرسمني . وعندما ذهبت الى مرسمه لاول مرة اصرت أمي على اصطحابي اليه رغم احتجاجي بأنني استطيع وحدي الذهاب اليه دون عناء . ولم يعترني الخجل لاضطراري لاول مرة فى حياتي الى التجرد من ملابسي أمام رجل بقدر ما اعتراني لما توقعت أن تقوله أمي كيما تقنعه باستخدامي . وفي الواقع فانها بعد أن فرغت من معاونتي على خلع ملابسي من فوق رأسي أوقفتني عارية فى وسط الغرفة ثم راحت تخاطب الفنان فى حماسة قائلة : « ما عليك الا أن تتأملها . ياله من صدر ! ويالهما من ردفين ! أنظر الى ساقيها ! أين يمكنك أن تجد مثل هاتين الساقين وهذين الردفين وهذا الصدر ؟ » وبينما كانت تفوه بتلك العبارات ظلت تتحسس جسدي تماما كما يتحسس الباعة الحيوانات فى السوق لاقناع الراغبين بشرائها . وراح الرسام يضحك فتولاني الخجل . ولما كان الوقت شتاء فلشد ما أحسست بالبرد . ولكنني أدركت أن أمي لم تكن تتكلم على هذه الصورة بدافع من الحقد بل كانت فخورا بجمالي لانها أمي ولانني ان كنت على شيء من الجمال فاني مدينة لها به . كما بدا لي أن الفنان أدرك شعورها وأنه لم يكن له من باعث على الضحك سوى الود الصادق فشعرت بالطمأنينة . وما ان تغلبت على خجلي حتى سرت على أطراف أصابعي الى الموقد طلبا للدفء . كان من الواضح أن ذلك الفنان يناهز الاربعين من العمر وهو رجل بدين ذو أسلوب مرح سمح . وأحسست أن نظرته الى خلت من الرغبة وكأنه ينظر الى شيء جامد فأطمأن اليه قلبي . ولما توثقت بعد ذلك عرى المعرفة بيننا صار يعاملني دائما فى رقة واحترام معاملته لكائن بشري ولم أعد فى نظره جمادا فحسب . وقد انجذبت اليه فى الحال بل كان من الممكن أن أقع فى حبه بدافع من العرفان فحسب لا لشيء الا لرفقه بي وحدبه علي . ولكنه لم يطلق العنان لشهواته قط . بل كان يسلك نحوي سلوك الفنان لا الرجل . ولم تتجاوز العلاقة بيننا قط ماكانت عليه من البعد والنظافة يوم وقفت له ليرسمني لاول مرة .

وعندما انتهت أمي من اطراء مفاتني اتجه الفنان دون أن ينبس ببنت شفة الى كومة من الاوراق كانت مكدسة على أحد المقاعد ففحصها ثم سحب من بينها صورة مطبوعة ملونة وعرضها على أمي قائلا فى صوت خافت « هاهي ابنتك » فابتعدت عن الموقد لأنظر الى الصورة المطبوعة . فاذا بها لامرأة عارية ترقد على فراش مكسو

بأغطية فاخرة . ومن خلف الفراش تدلى ستار من المخمل كان يدف في ثناياه طفلان مجنحان أشبه بملاكين صغيرين . وكانت تلك المرأة تشبهني الى حد كبير . غير أن أغطية الفراش الفاخرة والخواتيم التي تحيط بها اصابعها قد أظهرت في وضوح على الرغم من عريها أنها كانت بلا ريب ملكة أو شخصية هامة في حين انني لم أعد أن أكون فتاة عادية . ولم تفهم أمي شيئا في أول الامر بل حملقت في الصورة في دهشة وفزع . وفجأة بدا عليها أنها ترى وجه الشبه بيننا . فهتفت قائلة في انفعال : « ما أشبهها بهذه ! انها ابنتي ادريانا بعينها ! اترى كم كنت على حق ؟ ومن تكون هذه المرأة ؟ »

فأجابها الفنان مبتسما :

ـ« دانيه » (١)

ـ « ومن هى دانيه ؟ »

ـ « دانيه ـ الهة وثنية » .

فارتبكت أمي قليلا اذ أنها كانت تتوقع أن تسمع اسم شخص حقيقي . ولكي تخفي ارتباكها أخذت توضح لي أنني يجب أن أستجيب لرغبات الفنان فأرقد كما ترقد المرأة في الصورة مثلا أو أقف أو أجلس وألا احرك ساكنا طوال الوقت الذي يعمل فيه . فقال ضاحكا : ان خبرة أمي بهذا العمل تفوق خبرته هو . ومالبثت أمي أن بدات تتكلم عن نفسها عندما كانت تعمل نموذجا واشتهرت بأنها من أجمل النماذج في روما بأسرها وعما ألحقته بنفسها من أذى بزواجها وتخليها عن عملها . وفي تلك الاثناء كان الفنان قد أرقدني على أريكة في نهاية المرسم حيث جعلني أتخذ وضعا معينا مسويا ذراعي وساقي على الصورة التي يريدها . ولكنه فعل ذلك في رقة وهو شارد الذهن مستغرق في التفكير . ولم يكد يلمسني بيديه كما لو كان قد رآني بالفعل في ذلك الوضع الذي شاء أن يرسمني فيه . وعلى الرغم من ثرثرة أمي المستمرة بدأ يضع الخطوط الاولى على لوحة بيضاء نصبت فوق حامل . ثم لاحظت أمي أنه لم يكن ينصت اليها لاستغراقه في رسم صورتي .

فسألته قائلة ـ « وكم تنقد ابنتي في الساعة ؟ »

فحدد الرسام مبلغا معينا دون أن يرفع عينيه عن اللوحة . فالتقطت أمي ملابسي التي كنت قد رتبتها على المقعد وقذفتني بها قائلة :

ـ « هيا ! ارتدى ملابسك ـ يحسن بنا أن ننصرف »

---

(١) Danae : انها أم برسيوس في اساطير الاغريق وقد زارها زيوس في صورة مرشة من الذهب .

فسألها الفنان فى دهشة متوقفا عن عمله قائلا ـ « والآن ماذا دهاك ؟ »

فأجابته أمى متظاهرة بأنها فى عجلة شديدة من أمرها قائلة ـ « لاشيء . هيا بنا يا آدريانا ـ فثمة أمور كثيرة علينا أن ننجزها » .

فقال الرسام ـ « ولكن : أنصتى . ان شئت الاتفاق فلتقدمى عرضا ـ مامعنى هذا كله ؟ »

ثم بدأت أمى فى تمثيل مشهد رهيب وهي تصيح بأعلى صوتها متهمة اياه بالجنون اذا ماخيل له أنه يستطيع رسمى بذلك الاجر الضئيل كما قالت له انني لست نموذجا منبوذا من تلك النماذج الهرمة وأننى فى السادسة عشرة من عمرى وأن هذه أول مرة أقف فيها أمام رسام . وكانت أمى كلما أرادت شيئا أخذت فى الصياح وتظاهرت بالغضب الشديد . ولكنها فى الواقع لم تكن غاضبة مطلقا بل كانت خلف ذلك المظهر هادئة كالزيت كما أعلم من خبرتى التامة بها . ومع ذلك فانها لاتفتأ تصيح كنساء السوق عندمايعرض عليهن المشترى فى مقابل سلعهن ثمنا بخسا للغاية . وكانت تصيح فى معظم الاحيان مع المهذبين من الناس لعلمها بأن آدابهم الحسنة لن تفتأ تجعلهم يذعنون لها .

وفى الواقع فان الفنان قد استسلم فى النهاية .ولم تفارقه ابتسامته طوال الوقت الذى ظلت أمى تتشاجر فيه ولكنه كان من وقت لآخر يأتى اشارة باحدى يديه وكأنه يريد أن يقول شيئا . وأخيرا توقفت أمى لتلتقط انفاسها فعاد يسألها عن الاجر الذى تريده . ولكنها لم تشأ أن تصرح بذلك على الفور . بل صاحت بغتة قائلة : « أريد أن أعلم كم دفع الرسام الذى رسم تلك الصورة التى عرضتها على لنموذجه ! »

فضحك الفنان قائلا : « وماعلاقة ذلك بما نحن فيه ؟ تلك أيام أخر ـ فربما أعطاها قفازا أو زجاجة من النبيذ » .

وبدا الارتباك على أمى كما عراها من قبل عندما أخبرها بأن الصورة للالهة دانيه . كان الفنان يتلهى قليلا فى هدوء بحديثها فى غير حقد بالطبع ولكنها لم تدرك ذلك فعاودت الصياح متهمة اياه بالشح ومفاخرة بجمالى . ثم تظاهرت فجأة بالهدوء واخبرته بالاجر الذى تريده . فجادلها الفنان قليلا ولكنهما اتفقا اخيرا على مبلغ يقارب الاجر الذى طلبته أمى . واتجه الفنان الى منضدة فتح احد أدراجها ونقدها الاجر . فتناولت النقود وقد بدت عليها الفرحة الشديدة ثم

فارقتنا بعد تزويدى ببعض الملاحظات . فأغلق الفنان الباب ثم عاد الى لوحته وهو يخاطبنى قائلا :

ـ « أتصيح أمك دائما ؟ »

فأجبته قائلة : « ـ انها تحبنى » .

فقال فى هدوء وهو يباشر عمله ـ « يخيل الى أن حبها للمال يفوق كل ماعداه » .

فأجبته فى حماسة قائلة ـ « لا . لا . هذا غير صحيح . فحبها لى لا يعدله حب آخر ولكن ما يؤسفها اننى ولدت فقـــيرة فهى تريدنى أن أكسب أجرا مرتفعا » .

لقد تحريت الدقة فى سرد كل ماحدث مع الفنان أولا لاننى يومئذ بدأت العمل مع أننى احترفت بعد ذلك مهنة أخرى وثانيا لان سلوك أمى فى تلك المناسبة يوضح شخصيتها وطبيعة حبها لى .

وما ان انتهت ساعة مثولى أمام الفنان حتى ذهبت لاقابل أمى فى أحد محال اللبن حيث أوصتنى بالمرور عليها . وسألتنى عما حدث وجعلتنى أروى لها كل مادار بينى وبين الفنان الصموت أثناء جلوسى له . وأخيرا نصحتنى بالحذر الشديد فربما لم تكن لذلك الفنان نوايا دنيئة ولكن الكثيرين منهم كانوا يستخدمون النماذج بقصـــد اتخاذهن خليلات . فكان على أن أصد محاولاتهم بكافة الوســائل . وقالت مفسرة رأيها : « انهم جميعا مفلسون ولا تتوقعى أن تحصلى منهم على شىء . اذ يمكنك بجمالك أن تطمحى الى ماهو أسمى من ذلك بكثير . أسمى بكثير » .

وكانت هذه أول مرة تحدثنى فيها أمى على هذه الصورة . وكانت تتكلم بلهجة حاسمة كمن يتحدث فى شى كان قد فكر فيه بعض الوقت .

فسألتها فى دهشة قائلة ـ « ماذا تعنين ؟ »

فأجابت قائلة فى شىء من الغموض ـ « هؤلاء القوم كثيرو الكلام ولكنهم مفلسون فى حين أن فتاة جميلة مثلك ينبغى أن ترافق السادة »

ـ « أية سادة ؟ انى لا أعرف أحدا منهم ! »

فنظرت الى قائلة فى مزيد من الغموض : « يمــكنك فى الوقت الحاضر أن تكونى نموذجا وبعد ذلك سنرى ... فكل درجة تؤدى الى أخرى ! »

ولكن نظرتها الطامعة المتأملة التى ارتسمت على وجهها بعثت فى نفسى الذعر . فلم أعد أسألها عن شىء فى تلك المناسبة .

ولكنني على أية حال لم أكن فى حاجة الى نصيحة امى لاننى كنت رغم حداثة سنى غاية فى الجد . فقد التقيت بآخرين بعد لقائى بذلك الفنان وما لبث أن ذاع صيتى بين الفنانين . ويجب أن أعترف بأنهم يمتازون عادة باللباقة والاحترام رغم أن بعضهم كان يكشف عن عواطفه نحوى . ولكننى صددتهم جميعا فى جفاء شديد حتى أننى لم ألبث أن عرفت بينهم بالعفة التى لايمكن أن تمس . وقد سبق أن قلت ان معظم الفنانين كانوا يعاملوننى باحترام فى أغلب الاحيان . ولعل السبب فى ذلك أنهم كانوا لايهدفون الى مضاجعتى بل الى رسمى وتصويرى . وكانوا طوال ادائهم هذا العمل لايروننى بعينى الرجل بل بعينى الفنان كما لو كنت مقعدا أو أى شىء آخر . فقد الفوا النماذج وكان جسدى العارى رغم شبابه الفض ونضوجه التام لايؤثر فيهم الا بقدر مايتأثر الطبيب . ولكن أصدقاء الفنانين كثيرا ماكانوا يوقعوننى فى الحيرة والارتباك فقد كان من عادتهم الدخول الى المرسم والتحدث الى الفنان . ولكننى مالبثت أن لاحظت أنهم كانوا رغم تظاهرهم بعدم الاكتراث قدر امكانهم يعجزون عن تحويل أبصارهم بعيدا عنى . وكان بعضهم لايعرف الحياء فقد اعتادوا أن يتجولوا فى أرجاء المرسم ليتمكنوا من مشاهدتى من جميع الزوايا . وكانت تلك النظرات فضلا عن تلميحات أمى المقنعة تثير فى نفسى احساسا بالدلال وتشعرنى بجمالى وبالمزايا التى يمكننى أن أستمدها منه . وأخيرا وجدتنى لم أتعود صفاقتهم فحسب بل ماكادت تمضى فترة وجيزة حتى صرت لا أتمالك نفسى من الشعور بالفرح كلما رأيت انفعال الزوار ومن الشعور بالخيبة كلما رأيتهم معرضين عنى غير مبالين بى . وهكذا قادتنى خيلائى على غير وعى منى الى الاعتقاد بأننى أستطيع وقتما أشاء تحسين مركزى باستغلال جمالى تماما كما قالت أمى .

ومع ذلك فقد كان الزواج حينذاك هو هدفى الرئيسى . اذ ان حواسى كانت لاتزال نائمة . وكان الرجال الذين يراقبوننى اثناء وقوفى للرسامين لا يثيرون فى نفسى سوى الزهو والكبرياء . وكنت أعطى أمى كل ما أكسبه من نقود . كما كنت فى الوقت الذى لا اقف فيه للرسامين الازمها فى المنزل حيث أعاونها على قص القمصان وحياكتها ــ ذلك العمل الذى كان مصدر رزقنا الوحيد منذ وفاة والدى العامل بالسكة الحديد . وكنا نسكن شقة صغيرة فى الطابق الثانى من مبنى خفيض ممتد أقيم خصيصا لعمال السكة الحديد قبل ذلك بخمسين عاما . وكان المنزل يقع فى أحد الشوارع الواسعة

التى تجمع بين مظهر الريف والمدينة ، تظلله أشجار الدلب على صورة بهيجة ويقوم على أحد جانبيه صف من المنازل المماثلة لمنزلنا • وكانت جميعها متشابهة تتألف من طابقين وواجهة طوبية عارية من طلاء المصيص فى كل منها اثنتا عشرة نافذة ست منها لكل طابق ولكل منزل باب رئيسى . أما فى الجانب الاخر فقد امتدت أسوار المدينة من برج الى برج وكانت حينذاك سليمة تغطيها الخضرة . وعلى مسافة غير بعيدة من منزلنا ثمة بوابة كانت تقوم فى تلك الاسوار وتمتد من الداخل بالقرب منها مساحة مسورة من الارض تضم متنزها للتسلية .

« لونابارك » — كانت أضواؤه وموسيقاه تبعثان الحياة فى أشهر الصيف . وكنت عندما أمد بصرى من خلال نافذتى فى نظرة جانبية أرى حبال الزينة التى تتدلى منها المصابيح الملونة وسطوح الاكشاك المختلفة المزينة بالاعلام وزحام الناس حول المدخل الذى تظلله أغصان الدلب . وكانت أنغام الموسيقى التى طالما سهرت الليل أصغى اليها تبلغ سمعى فى وضوح تام . وقد فتحت عيناى على سعتهما فيما يشبه الحلم فتبدو لاذنى على الاقل كأنها منبعثة من عالم بعيد المنال بينما يقوى فى نفسى ذلك الشعور ظلام الغرفة وضيقها .

فكان يخيل لى أن جميع سكان المدينة قد تجمعوا فى لونابارك وأنه لم يتخلف منهم سواى . وكنت أتوق الى مغادرة الفراش والانضمام اليهم ولكنى أظل ساكنة فى مكانى لا أتحرك . أما الموسيقى التى لاتنقطع ضوضاؤها طوال الليل فكانت تجعلنى أحس بخسارة معينة تكفيرا عن ذنب لم أدر حتى أننى اقترفته . بل كنت أحيانا انخرط فى البكاء وأنا أنصت الى تلك الموسيقى . فلشد ما حز فى نفسى أن أبقى وحيدة • وكنت حينذاك سريعة التأثر الى حد كبير، وسرعان ماتفيض عيناى بالدموع لأتفه الاسباب : لجفوة من صديقة — أو ملامة من أمى — أو لمشهد مؤثر فى السينما . ولعلنى كنت لا أحس بالحرمان من عالم تسوده السعادة لو لم تحرم على أمى فى طفولتى الاقتراب من اللونابارك أو التمتع بأية وسيلة أخرى من وسائل اللهو . ولكن ترملها وفقرها وعداءها على الاخص لكل وسائل الترفيه التى حرمها منها القدر — كل ذلك كان يجعلها تأبى السماح لى بالذهاب الى اللونابارك أو أى مكان آخر للتسلية الا بعد مضى وقت طويل عندما اكتمل نضوجى وتكونت شخصيتى فعلا . ولعل هذا هو مرجع ذلك الظن الذى لازمنى طوال حياتى بأننى مبعدة على صورة ما عن عالم السعادة المشرق المرح وهو ظن لاسبيل الى التخلص منه حتى ولو

علمت حقا أني سعيدة .

سبق أن قلت اننى حينذاك لم أكن أفكر الا فى الزواج ويمكننى كذلك أن أذكر كيف نشأت تلك الفكرة فى ذهنى . كان الشارع الريفى الذى يقع فيه منزلنا يؤدى على مسافة غير بعيدة الى حى انتر تراء حيث يقوم عدد من البيوت الصغيرة المحاطة بالحدائق بدلا من بيوت عمال السكة الحديد الممتدة الخفيضة التى تبدو كعديد من العربات القديمة الغبراء المستهلكة . لم تكن بيوتا فاخرة — فقد كان يسكنها الكتبة وبعض أصحاب المحال — ولكنها بمقارنتها بمنزلنا الحقير كانت توحى الى بحياة أيسر وأبهج . فقد كان كل منها أولا يختلف عن الآخر . وثانيا لم تكن كلها مشققه ملوثه عاريه من الملاط فى بعض أجزائها — ذلك المظهر الذى جعل منزلنا ومنازل أخرى شبيهة بهتبدو وكأن سكانها قد أهملوها زمنا طويلا لا لسبب الا لعدم مبالاتهم بها . وأخيرا فان الحدائق الصغيرة المزهرة المحيطة بها كانت توحى بالحب الغيور المنزوى بعيدا عن فوضى الطريق وهرجه ومرجه — فى حين أن مسكنى كان على النقيض من ذلك تقتحمه فوضى الطريق فى كل جزء منه : ردهة المدخل الفسيحة الشبيهة بمخزن السلع والدرج الواسع العارى القذر بل حتى الغرف التى كان أثاثها المتداعى يذكر المرء بمحال « الخردة » حيث تعرض على الارصفة تلك القطع نفسها للبيع .

وفى احدى أماسى الصيف بينما كنت أسير مع أمى فى الطريق رأيت من خلال نافذة احدى هذه الفيللات مشهدا عائليا ترك فى نفسى تأثيرا عميقا اذ بدا أنه يتفق من كل الوجوه مع الفكرة التى كونتها عن الحياة الطبيعية المهذبة . رأيت غرفة صغيرة نظيفة يكسو جدرانها الورق المزهر وكان بها « بوفيه » ومصباح أوسط يتدلى فوق المائدة المعدة لتناول الطعام . ومن حول المائدة جلس خمسة أشخاص او ستة بينهم ثلاثة أطفال تتراوح أعمارهم فيما أظن بين الثامنة والعاشرة . وقد توسط المائدة وعاء كبير للحساء أخذت تقدم منه الام وهى واقفة . وقد يبدو غريبا أن يلفت نظرى أكثر من اى شىء آخر ذلك المصباح الاوسط أو الاحرى ذلك التعبير الذى اتسم به كل شى فى الضوء وكان هادئا طبيعيا على صورة خارجة عن المألوف . وقد حدثت نفسى فيما بعد وأنا أقلب ذلك المشهد فى ذهنى قائلة فى تأكيد انه ينبغى أن أجعل هدفى فى الحياة سكنى منزل كهذا فى يوم من الايام وتكوين أسرة كهذه وأن أعيش فى مثل هذا الضوء الذى بدا لى أنه

يكشف عن وجود عواطف ثابتة باقية لا حصر لها . لعل الكثيرين من الناس يعتقدون أن مطامحي كانت متواضعة للغاية . ولكن مركزى آنذاك يجب ان يؤخذ فى الاعتبار . فلما كنت قد ولدت فى احد منازل عمال السكة الحديد فقد كان تأثير تلك الفيللا الصغيرة على ذهنى كتأثير المنازل الفخمة الفاخرة المقامة فى الاحياء المترفة من المدينة على سكان تلك الفيللا انفسهم . فما أراه نعيما يراه غيرى جحيما .

ولكن أمى كانت قد وضعت خططا محكمة لمستقبلى . ومالبثت أن أدركت أنها تحول تماما دون تنفيذ تلك الامانى التى لتهد ما تعلق بها قلبى . فكان يخيل لها أننى يمكننى بجمالى أن أهدف الى النجاح أيا كان نوعه الا أن أصير امراة متزوجة لها أسرة شأن الناس جميعا . كنا نعيش فى فقر مدقع وبدا لها أن جمالى هو راسمالنا الوحيد الذى كان فى متناول يدنا ولذا فانه لم يكن يخصنى انا وحدى فحسب بل يخصها هى ايضا لا لسبب الا لانها أنجبتنى كما قلت من قبل ... وكان على أن أستغل ذلك الراسمال كما قضت هى لتحسين مركزنا دون اعتبار للمظاهر . ولعل المشروع كله كان مرجعه الافتقار الى الخيال . فكان أول ماتبادر الى ذهنها ونحن فى مثل مركزنا ان تحول جمالى الى راسمال . ثم توقفت أمى فجأة عند هذه الفكرة ولم تعبأ بالنظر فيما وراءها .

ولكن لشد ما قصر ادراكى حينذاك عن فهم خطط أمى وطبيعتها . ومع ذلك فانى لم أجسر قط فيما بعد عندما استبانت لى خططها تماما على سؤالها عما أدى بها الى مثل ما كانت عليه من فاقة وهى زوجة عامل فى السكة الحديد رغم اعتناقها تلك الآراء . ولكننى أدركت من تلميحات مختلفة لأمى اننى كنت السبب فى فشلها لانها رزقت بى على غير رغبة منها وعلى غير انتظار اى ان امى بمعنى آخر قد حملت بى عرضا ولم تجسر على الحيلولة دون مولدى (كما كان ينبغى لها ان تفعل على حد قولها) . فاضطرت الى الزواج من والدى وقبول كافة النتائج المترتبة على ذلك ـ وغالبا ماكانت تقول لى ـ « لقد حطمت حياتى » عندما تشير الى مولدى . وهى عبارة كانت فى وقت من الاوقات تسىء الى وتستغلق على مداركى . ولكننى فيما بعد أدركت معناها تماما . وهى تعنى مايلى « لولاك لما تزوجت ذلك الرجل ولكانت لدى الآن سيارتى الخاصة » . وكان من الواضح وهى تفكر فى حياتها الخاصة بهذه الطريقة الا تريد لابنتها التى لشد ما فاقتها جمالا أن ترتكب نفس الخطأ وتلقى نفس المصير . واليوم

لايمكنني حقا وأنا أرى الاشياء من بعد معين أن أحمل نفسي على اتهامها بالخطأ . فالاسرة فى نظرها كانت تعنى الفقر والعبودية وبعض المتع القليلة النادرة التي تنتهي فجأة بوفاة الزوج . ولهذا كان من الطبيعي أن تعد الحياة العائلية المهذبة كارثة كبرى فكانت لى دائما بالمرصاد حتى لايجذبنى ذلك السراب الذى قادها الى الهاوية .

ولشد ما كانت أمى مشغوفة بى على طريقتها الخاصة . فما ان بدأت أتردد على المرسم مثلا حتى حاكت لى ثوبين احدهما يتألف من قطعتين : سترة وازار والآخر ثوب كامل . ولكننى فى الواقع كنت افضل بعض الملابس الداخلية وذلك لخجلى من خشونة ثيابى التى اعرضها على الانظار ومن رثاثتها واتساخها فى أحيان كثيرة كلما اضطررت الى التجرد منها أمام الناس . ولكن أمى كانت تزعم أننى حتى لو لبست خلقا بالية فذلك لا أهمية له ما دام المظهر لائقا . وقد اختارت لى قطعتين من قماش رخيص ذى ألوان فاقعة ورسوم تلفت الانظار وقصت بنفسها الثوبين . ولكنها لما كانت صانعة قمصان ولم تصنع ثيابا قط من قبل فقد حاكتهما بطريقة خاطئة . فكان الثوب فيما أذكر خبخابا من الامام يكشف عن نهدى مما كان يضطرنى دائما الى رفعه الى أعلى بمشبك صغير . أما سترة الثوب الاخر فكانت قصيرة ضيقة للغاية مما جعلها تضغط على صدرى وردفى . كما قصر الكمان عن رسغى . وكان الازار من الناحية الاخرى فضفاضا للغاية مما جعله يتغضن من الامام فى ثنايا . ولكنهما كانا فى نظرى ثوبين فاخرين لاننى كنت حتى ذلك الحين ارتدى ما هو أسوأ من ذلك كالصدارى والازر الصغيرة القصيرة التى تكشف عن فخذى والوشح الهزيلة الضئيلة . كما ابتاعت لى أمى زوجين من الجوارب الحريرية الطويلة . وكنت دائما من قبل ارتدى الجوارب القصيرة فتتعرى ركبتاى . فامتلأت بهذه الهدايا زهوا وغبطة . ولم أمل قط النظر اليها أو التفكير فيها . بل كنت أسير فى الطرقات يراودنى احساس بالذات ناصبة قامتى كما لو كنت أرتدى ثوبا لا يقدر بثمن من صنع احدى الحائكات العصريات لا ذلك الخلق التعس .

وكانت أمى لا تفتأ تفكر فى مستقبلى فما لبثت ان ضاقت بمهنتى كنموذج لاعتقادها أن مكاسبها كانت نزيرة للغاية . كما أن الفنانين وأصدقاءهم كانوا فقراء معدمين ولم يكن ثمة أمل فى التعرف فى مراسمهم الى شخصيات نافعة . وفجأة خطر لامى أن تجعل منى راقصة . وكانت ذخيرتها من المشروعات الطامحة لا تنضب قط فى حين

أنني كنت لا أفكر الا فى حياة وادعة مع زوج وأطفال . وتشبثت بفكرة الرقص عندما طلب اليها أحد مؤسسى فرق العرض المسرحى وكان يقدم متنوعات بين الافلام أن تحيك له بعض القمصان . لم يخطر لها أن مهنة الرقص ستكون مجزية فى حد ذاتها ولكنها « درجة تؤدى الى أخرى » كما كانت تقول فى كثير من الاحيان . فان مجرد ظهورى على المسرح سوف يتيح لى الفرصة فى لقاء أحد السادة .

وذات يوم أخبرتنى أمى أنها تحدثت الى ذلك المنتج وشجعها على احضارى لمقابلته . فذهبنا ذات صباح الى الفندق حيث كان يقيم مع الفرقة بأسرها . وكان الفندق كما أذكر قصرا منيفا قديما بالقرب من المحطة . ورغم أن الوقت كان قرابة الظهر فان دهاليز الفندق جميعها كانت لا تزال غارقة فى الظلام . وقد افعم جو المكان بانطباع يحبس الانفاس هو أن النزلاء فى مائة غرفة كانوا لا يزالون ينشدون النوم ويتوددون اليه . وأخذنا طريقنا مجتازين عدة دهاليز حتى بلغنا فى النهاية غرفة انتظار معتمة كان يتدرب فى ضوئها الخافت ثلاث فتيات وموسيقى وكأنهم على خشبة المسرح . وقد وضع البيان فى احدى زوايا الغرفة بالقرب من النافذة الزجاجية المعتمة لدورة المياه . وتكدست فى الزاوية المقابلة كومة من الاوراق القذرة . وكان الموسيقى وهو رجل متهدم مسن يعزف من الذاكرة و كأنه يفكر فى شىء آخر أو غاف وسنان . أما الراقصات الثلاث فكن صغيرات السن وقد خلعن ستراتهن ووقفن فى أزرهن عاريات الاذرع والنهود . وقد احاطت كل منهن خصر زميلتها بذراعها وكن عندما يعزف الموسيقى لحنا يتقدمن ثلاثتهن نحو كومة الاوراق القذرة وقد رفعن أرجلهن الى اعلى ثم يلوحن بها ذات اليمين وذات اليسار . وأخيرا يدرن ظهورهن بينما تهز كل منهن أردافها فى حركات مثيرة شد ما كانت تتنافى مع تلك الخلفية القذرة المعتمة . وقد توقف قلبى عن الخفقان وانا أراقبهن فى حركتهن الايقاعية وهن يضربن الارض بأقدامهن ضربات ثقيلة كئيبة. كنت أعلم جيدا اننى على الرغم من ساقى الطويلتين المفتولتين لم أكن موهوبة فى الرقص فقد سبق لى أن تلقيت دروسا بمدرسة فى حينا مع صديقتين لى . فما لبثت كلتاهما بعد الدروس القليلة الاولى أن تعلمت الخطو الموقع والرفس بساقيها وهز أردافها كراقصة خبيرة . بينما لم أستطع أنا الا ان أجر نفسى هنا وهناك وكأن قوامى من الخصر حتى قدمى قد صنع من الرصاص . وبدا لى أن تكوينى الجسمانى ليس كغيرى من الفتيات فقد كان به ثمة ثقل ضخم لم تستطع حتى الموسيقى

أن تبدده . وفضلا عن ذلك ففي المرات القليلة التي رقصت فيها كنت كلما التفت ذراع حول خصري أحس بنوع من الاستسلام المسترخي حتى أنني لم أكن أحرك ساقي بقدر ما كنت أجرهما . وكذلك قال لي الفنان : « كان ينبغي يا أدريانا أن تولدي منذ أربعة قرون ! فقد كانت النساء وقتذاك على شاكلتك . أما اليوم فالنحافه هي مقياس الجمال . فأنت كالسمكه في خارج الماء . ولن تمضي أربعة اعوام أو خمسة حتى تصيري جونو (١) . » ومع ذلك فقد أخطأ التقدير ،لانني اليوم وبعد مضي خمس سنوات لم يزد وزني عن ذي قبل . ولكنه كان محقا في أنني لم أخلق لذلك العصر الذي تسود فيه النحافة بين النساء . وكنت أشعر بالتعاسة لثقل حركتي كما كنت على استعداد للتضحية بأي شيء في سبيل الفوز بالنحافة والقدرة على الرقص كغيري من الفتيات . ولكنني رغم قلة طعامي كنت دائما قوية البنية ممتلئة الجسم كالتمثال . وكنت عندما أرقص أعجز تماما عن اللحاق بالايقاع السريع المهتز للموسيقى العصرية .

وقد صارحت أمي بكل ذلك لانني كنت أعلم أن مقابلتي بمنتج عرض المتنوعات لن نؤوب منها الا بالفشل وكانت فكرة الخيبة تبعث في نفسي المذلة . ولكن أمي بدأت على الفور في الصياح زاعمة أنني أجمل بكثير من كل هؤلاء الفتيات التعسات اللاتي يستعرضن أنفسهن على المسرح وأن المنتج ينبغي أن يشكر السماء لو أتيح له أن يضمني الى فرقته وما الى ذلك . وكانت أمي لا تدري شيئا عن الجمال العصري بل كانت تؤمن في صدق بأن المرأة . كلما نهد صدرها في امتلاء واستدار ردفاها ازدادت بلا ريب فتنة وجمالا .

كان المخرج ينتظر في غرفة تفضي اليها حجرة الانتظار ولعله من خلال الباب المفتوح كان يراقب راقصاته أثناء تدريبهن . كان يجلس في متكأ عند طرف الفراش الاشعث الذي تعلوه صينية فقد كان موشكا على الانتهاء من تناول أفطاره . كان رجلا مسنا بدينا ولكن أناقة ملبسه المفرطة ودهان رأسه ونظافته التي لا تشوبها شائبة كل ذلك أحدث تأثيرا غريبا بانعكاسه على ملاء الفراش المقلوبة في ذلك الضوء الخافت الذي يشيع في الغرفة الخانقة . وكانت بشرته الحمراء تبدو لي كأنها مطلية . وذلك لان حمرة وجنتيه الوردية كانت تبدو من تحتها بقع مرضية قاتمة غير مستوية . وكان يضع منظارا على

---

(١) Juno : ربة الزواج في أساطير الرومان كما كانت زوجة جوبيتر وملكة الآلهة .

احدى عينيه وهو لا يفتأ يزفر ويلهث كاشفا عن أسنان ناصعة البياض ولعلها زائفة . كان شديد الاناقة فى ملبسه كما قلت . فما زلت أذكر رباط عنقه (بابيونه) الذى حاكى فى لونه ورسمه دلت المنديل الذى دسه فى جيب سترته العلوى· كان يجلس وقد برز كرشه الى الامام· وما ان انتهى من تناول طعامه حتى مسح فاه وقال فى لهجة ساخطة ملول : « هيا اكشفى عن ساقيك » ·

فرددت أمى قائلة فى قلق « اكشفى للسيد عن ساقيك » .

وكان الخجل قد زايلنى بعد عملى فى المراسم فرفعت ثوبى الى أعلى وكشفت له عن ساقى ثم وقفت ساكنة ممسكة بثوبى وقد تعرى ساقاى وهما رائعتان طويلتان مستقيمتان ولكن فخذى فوق الركبة تماما تأخذان فى الامتلاء والاستدارة فى قوة ومتانة مع ازدياد سمكهما تدريجيا حتى الردفين . وهز المخرج رأسه وهو ينظر الى قائلا :

ــ « كم تبلغين من العمر ؟ »

فأسرعت أمى باجابته قائلة ــ « لقد أتمت الثامنة عشرة فى شهر أغسطس الماضى » ·

فنهض فى صمت وهو يلهث قليلا ثم اتجه الى حاك كان يتوسط كومة من الاوراق والملابس فوق احدى المناضد فملأه واختار فى عناية احدى الاسطوانات ووضعها على الحاكى قائلا ــ « والانحاولى أن ترقصى على هذه الموسيقى ــ ولكن دون أن تسترى ساقيك » ·

فقالت أمى ــ « انها لم تتلق فى الرقص سوى بضعة دروس · لقد أدركت أمى أن هذه هى اللحظة الحاسمة · فساورها الخوف من النتيجة لعلمها بمدى ارتباكى وثقل حركتى ·

ولكن المخرج أشار اليها بالصمت وأدار الاسطوانة ثم دعانى باشارة أخرى للبدء فى الرقص · فامتثلت لامره رافعة ازارى ·وفى الواقع فانى لم آزد على تحريك ساقى أولا الى اليسار ثم الى اليمين فى شىء من البطء والتثاقل · وكنت أدرى أننى لاأساير الايقاع · وكان لا يزال واقفا بجانب الحاكى متكئا بمرفقيه على المنضدة وهو ينظر فى اتجاهى · فاذا به يقف الحاكى فجأة ويذهب ليعاود جلسته فى المتكأ مشيرا بيده الى الباب اشارة لا يخطئها النظر ·

فسألته أمى قائلة فى قلق وقد تهيأت فعلا للحرب ــ « ألا يجدى هذا ؟ »

فأجابها قائلا دون أن ينظر اليها وهو يتحسس جيوبه بحثا عن

علبة السجائر .

ــ « كلا . هذا لا يجدى » .

كنت أعلم أن أمى عندما تتخلل صوتها نبرة معينة تكون قد اعتزمت أثارة شجار ولذا فقد جذبتها من ذراعها . ولكنها تملصت منى ورددت قولها بصوت أعلى مركزة عينيها اللامعتين على المخرج قائلة ــ « هذا لا يجدى هه ؟ ولماذا ــ ان كان لى أن أسأل ؟ »

وعندئذ كان المخرج الذى عثر على علبة سجائره يبحث عن الثقاب ــ وكانت كل حركة تكلفه جهدا كبيرا لبدانته .

فأجابها قائلا فى هدوء وهو يلهث ــ « هذا لايجدى . لانها تفتقر الى ملكة الرقص . ولانها لا تملك القوام المناسب لهذا العمل » .

وحدث ما كنت أخشاه . فقد انطلقت أمى تصيح بحججها المعهودة بأعلى صوت قائلة ــ اننى قطعة من الجمال الحق وأن وجهى يحاكى وجه السيدة مريم العذراء . وأن ما عليه الا أن يتأمل صدرى وردفى وساقى ! ظل الرجل فى مكانه هادئا تماما ثم أشعل سيجارته وأخذ يدخن وهو يراقبها منتظرا أن تنتهى من صياحها .

ثم قال بلهجته الملول الحزينة ــ « لعل ابنتك تصلح لان تكون مرضعة ناجحة بعد عام أو اثنين ــ ولكنها لن تكون راقصة » .

كان لا يدرى مدى ما يمكن أن تصل اليه أمى من درجات الحنق الجنونى . فتولته الدهشة على صورة جعلته يخرج سيجارته من فمه ويقف أمامها فاغرا فاه. كان يريد أن يتكلم ولكنها لم تمكنه من ذلك. كانت أمى نحيلة لاهثة مما يتعذر معه الوقوف على مصدر كل هذه الضوضاء وقد فاهت بعدد من الاساءات لشخصه وللراقصات اللاتى رأيناهن فى الدهليز . وأخيرا اختطفت بعض قطع من حرير القمصان التى كان قد عهد بها اليها وقذفته بها صائحة : « اختر من شئت لصنع هذه القمصان .... وربما صنعتها لك راقصاتك ... أما أنا فلن ألمسها ولو أعطيتنى ذهب العالم بأسره ! » ولشد ما تولاه الارتباك لهذه النهاية غير المتوقعة فوقف فى مكانه مذهولا مشلول اللسان وقد التف جسمه بقماش القمصان . وكنت فى تلك الاثناء لا أبرح اجذب أمى من كمها وقد أوشكت على البكاء من شدة الخجل والمذلة . وأخيرا انقادت لى فغادرنا الغرفة وتركنا المخرج ليخلص نفسه من قطع الحرير .

وفى اليوم التالى رويت للفنان الذى أصبح أمين سرى الى حد ما كل ما حدث . فضحك كثيرا من العبارة التى قالها المخرج عن

امكانياتي كمرضعة · ثم علق قائلا ـ « يالك من مسكينة يا آدريانا !
ـ فطالما قلت لك ذلك من قبل ! فما كان ينبغي أن تولدى فى عصرنا
الحاضر · بل منذ أربعة قرون · فما يعاب اليوم كان يعد ميزة وقتذاك
والعكس بالعكس · والمخرج محق تماما من وجهة نظره · فهو يعلم
أن الجمهور يريد فتيات شقراوات نحيفات ذوات نهود صغيرة واعجاز
دقيقة ووجوه صغيرة ماكرة مثيرة · أما أنت فانك سمراء ممتلئة تماما
فى غير بدانة ذات صدر ناهد ممتلىء ـ وكذلك عجزك ! ـ ووجهك
حلو رقيق · ماذا يسعك أن تفعلى فى ذلك ؟ انك بغيتى المنشوده
بالضبط ! أستمرى فى عملك كنموذج ··· وذات يوم ستتزوجين
وتنجبين عددا كبيرا من الاطفال السمر الممتلئين مثلك ذوى وجوه
رقيقة » ·

فقلت فى تأكيد ـ « هذا هو ما أنشده بالضبط » ·

فأجابنى قائلا ـ « حسنا ! والان اتكئى قليلا على أحد جنبيك ··
هكذا ···· » لشد ما كان ذلك الفنان مغرما بى على طريقته الخاصة
ولعله كان يمدنى ببعض نصائحه المفيدة التى كان يمكننى بها ان
أتجنب أحداثا كثيرة لو انه بقى فى روما وظللت آتمنه على أسرارى ·
ولكنه كان لايفتا يشكو من اعراض الجمهور عن صوره · وأخيرا
انتهز فرصة اقامة معرض فى ميلان ورحل الى هناك ليستقر فيها
دواما ـ وظللت أعمل نموذجا طبقا لنصيحته · ولكن الفنانين
الاخرين كانوا لا يتصفون بمثل ما اتصف به من رقة وعطف ولم
أشعر بميل للتحدث اليهم عن حياتى ـ التى كانت قبل كل شىء
حياة خيالية من نسيج الاحلام والامانى والآمال فقد خلت وقتذاك
من كل شىء ·

الفصل الثانى

وهكذا واصلت عملى كنموذج رغم تذمر أمى التى كانت ترى أن مكاسبى منه ضئيلة للغاية . وكانت أمي وقتذاك لا يكاد يفارقها السخط والتبرم . وكنت أعلم ــ رغم تكتمها ــ أننى مصدر ذلك السخط بصفة أساسية . فانها كانت تتوقع كما قلت من قبل أن يحقق لى جمالى نجاحا وثراء يفوقان الخيال . أما عملى كنموذج فلم يكن سوى خطوة أولى ومن بعدها خطوة تؤدى الى أخرى كما تعودت أن تقول . فلما رات أننى لم أزد على أن أكون نموذجا ولا شيء غير ذلك احست نحوى بالمرارة والسخط وكأنى بافتقارى الى الطموح قد خدعتها وأضعت عليها مكسبا معينا . ولكنها بالطبع لم تترجم قط عن خواطرها فى ألفاظ بل كانت تلميحاتها ووقاحتها وتنهداتها وعبوسها وكل ما بقي من حركاتها التمثيلية الشفافة تعبر عن خواطرها . فكان ذلك نوعا من الابتزاز الذى لا نهاية له . وادركت لماذا ينتهى الامر بكثير من الفتيات اللاتي لا تبرح أمهاتهن الطموحات ينغصن حياتهن على هذه الصورة وقد خاب فيهن رجاؤهن الى الهرب من البيت والاستسلام لاول رجل يصادفنه فى الطريق لا لشىء الا للتخلص من الوضع الذى لا يطاق . وكان من الطبيعي أن تنحو أمى بسلوكها هذا النحو لانها تحبنى ولكنه حب من ذلك النوع الذى تحس به ربة الدار نحو دجاجة كثيرة البيض ــ فاذا ما توقفت عن وضع البيض أخذت تفحصها وتزنها بيدها وتقدر ما اذا كان من الاجدر أن تلوى عنقها .

ما أكثر صبرنا وجهلنا ونحن صغار ! فقد كنت وقتذاك أعيش حياة تعسة ولكننى فى الواقع لم الحظ ذلك قط . فقد تعودت أن أعطى أمى كل ما كنت اكتسبه من نقود بالوقوف فى المراسم ساعات طويلة شاقة مملة . وفيما بقي من الوقت حين لا يدعوني وقوفى للرسم الى أن أكون عارية متصلبة متألمة كنت أجلس حانية الظهر على ماكينة الخياطة لا أرفع عن الابرة بصرى وذلك لمعاونة أمى فى عملها . كنت أواصل الحياكة حتى ساعة متأخرة من الليل ثم أستيقظ فى الصباح عند مطلع النهار لبعد هذه المراسم عن منزلنا ولان الجلسات كانت تبدأ فى ساعة مبكرة للغاية . ولكننى كنت قبل ذهابى الى العمل أرتب

فراشي وأعاون أمي فى تنظيف الشقة . وكنت فى الواقع طيعة صبورا لا أعرف الكلل وفى نفس الوقت هادئة مرحة معتدلة المزاج . أما الحسد والمرارة والغيرة فلم يكن لهـــا مكان فى قلبى بل كانت نفسى ممتلئة بالعرفان الرقيق الذى لشد ما يزهر تلقائيا فى سن الشباب ولا يعرف له سبب . كما لم ألحظ قط قذارة شقتنا .

وكنا نؤدى عملنا فى غرفة فسيحة عارية تتوسطها منضدة كبيرة لا تفتأ تكسوها قصاصات وفضلات من الاقمشة بينما تتــدلى بعض الاشياء الاخرى التافهة من مسامير دقت فى الجدران القاتمةحيث كان الجير الابيض فى سبيله الى الزوال . كما صفت بالغرفة بضعة مقاعد محطمة من الخيزران . ثم كانت هناك غرفة النوم التى تعودت أن آوى اليها مع أمى حيث أنام فى فراشها العريض الذى تعلوه فى السقف مباشرة رقعة كبيرة من البلل . فقد كان المطر يتساقط علينا من تلك البقعة عندما يسوء الجو . وكذلك كان هناك مطبخ صغير معتمتكدست فيه الصحاف والطاسات التى لم توفق أمى قط بسبب كسلها الى غسلها كما ينبغى . ولم ألحظ مطلقـــا كم كانت حياتى تضحيــة فى الحقيقة بلا لهو أو حب أو عطف حتى ابنى عندما أفكر فى صباى وأتذكر وداعتى وسذاجتى لاأتمالك نفسى من الشعور بالاسى فى حدة وعجز ـ كذلك الشعور الذى يراودك عندما تقرأ فىكتاب عنالكوارث التى ألمت بشخص خلاب وتتمنى لو أمكنك أن تبعدها عنه ولكنك تعلم أن ذلك ليس فى امكانك . غير أن هذه هى الحال ! فالناس يضيقون بالوداعة والسذاجة ولعل هذا ليس أبسط أسرار الحياة ـ ان السجايا الحميدة التى تجود علينابها الطبيعة فى سخاء شديد لاتؤدى فىالواقع الا الى زيادة ما نعانيه من شقاء .

كان يخيل لى آنذاك أن ظمئى الى الزواج والى اقامة حياة عائلية سوف يرتوى يوما ما . وكان من عادتى كل صباح أن استقل الترام من الساحة التى لا تبعد كثيرا عن منزلنا حيث لفت نظرى بين عدد من المبانى المقامة حديثا مبنى ممتد خفيض ملاصق لاسوار المدينة كان يستخدم « كجراج » . وفى ذلك الموعد دائما كنت أرى شابا يحدجنى بنظرات حادة للغاية وهو يغسل سيارته أو ينظفها . وكان وجهه شــاحبا نحيلا رائع القســمات ذا أنف دقيق مســـتقيم وعينين سوداوين وفم جميل للغاية وأسنان بيضاء . ولشد ما كان يشبـــه نجما سينمائيا أمريكيا ذاع صيته حينذاك مما لفت نظرى اليه حتى خلته فى الواقع شيئا آخر عما كان عليه فى الحقيقة لاناقة ملبســـه

ومظهره الذى ينبىء بحظه الوافر من التعليم وسلوكه المهذب ـ كما خيل لى أن السيارة لابد أن تكون ملكا له وأنه فى سعة من العيش وانه احد السادة الذين طالما تحدثت عنهم أمى . وقد استهوانى مظهره الى حد ما . ولكننى لم اكن أفكر فيه الا عندما اراه . ثم لاتلبث صورته بعد ذلك أن تفارق ذاكرتى وانا فى طريقى الى المراسم . ومع ذلك فلابد أننى على غير وعى منى قد فتنت بطلعته فحسب . اذ أننى ذات صباح بينما كنت أنتظر الترام سمعت شخصا يحاول فى وضوح أن يجذب انتباهى بصوت أشبه بدعاء الناس للقط فاستدرت نحوه وعندما رأيته يشير الى من السيارة لم اتردد مطلقا بل اتجهت نحوه فى انقياد أعمى أثار دهشتى . وما ان فتح الباب حتى لاحظت أثناء دخولى السيارة ان يده الممدودة الى النافذة المفتوحة كانت غليظة خشنة ذات أظافر سوداء مهشمة وبنصر ملوثة من اثر النيكوتين كأيدى العمال اليدويين . ولكننى لم أنبس بكلمة بل ركبت السيارة على الرغم من ذلك . فسألنى وهو يغلق الباب قائلا ـ « أين تريديننى أن أصحبك ؟ »

فذكرت له عنوان المرسم . ولاحظت صوته الهادىء ، كما خيل لى أنه لطيف الى حد ما رغم أننى لم أتمالك نفسى من أن أحس بشىء من الزيف والتكلف فى سلوكه ..

فأجاب قائلا ـ « حسنا . فلنقم بجولة بالسيارة . فالوقت مبكر ثم أصحبك بعد ذلك الى حيث شئت . » وتحركت السيارة .

وغادرنا الحى الذى كنت أسكنه مجتازين الطريق المحاذى لاسوار المدينة ثم اخترقنا طريقا واسعا تحف به المخازن والاكواخ الصغيرة من الجانبين . واخيرا بلغنا الريف حيث اخذ يقود السيارة كالمخبول فى ممر جانبى بين صفين من أشجار الدلب . وكان يقول لى من وقت لآخر دون أن يلتفت الى « نحن نسير الان بسرعة ثمانين كيلومترا فى الساعة والان تسعين كيلومترا ثم مائة ثم مائة وعشرين ثم مائة وثلاثين » . لقد اراد أن يبهرنى بسرعة السيارة ولكن قلقى كان مرجعه بصفة خاصة اننى مضطرة الى الذهاب للوقوف أمام الرسامين وخشيت انَ يطرأ خلل على السيارة لسبب او آخر ونحن فى وسط الريف . وفجأة وقف السيارة وأسكت المحرك ثم استدار نحوى قائلا :

ـ « كم تبلغين من العمر ؟ »

فأجبته قائلة ـ « الثامنة عشرة » .

ـ « ثمانية عشر عاما ـ خلتك أكبر من ذلك » .
كان يتكلم فى الواقع بصوت متكلف لايفتأ يخفت بين الحين والحين لتأكيد كلمة ما وكأنه يحدث نفسه او يسر بشىء الى .
ـ ما اسمك ؟
ـ آدريانا . وأنت ما اسمك ؟
ـ جينو .
فسألته قائلة ـ وما عملك ؟
فأسرع باجابتى قائلا :
ـ من رجال الاعمال .
ـ وهل هذه سيارتك ؟
فنظر الى السيارة بنوع من الاحتقار قائلا ـ « نعم . سيارتى » .
فقلت له فى صراحة ـ أنا لا أصدقك . »
فردد قولى فى لهجة ساخرة مدهوشة دون أن يحرك ساكنا قائلا ـ « الا تصدقيننى ؟ حسنا . حسنا . حسنا . حسنا ـ ولم لا ؟ »
ـ « بل أنت السائق » .
فزادت دهشته الساخرة وضوحا .
ـ « والآن حقا ما اغرب ماتقولين ! حسبك أن تتخيلى هذا الان حقا .. السائق ! وماذا بالله أوحى اليك بذلك ؟
ـ « يداك » .
فنظر الى يديه دون أن يحمر وجهه غضبا أو يتولاه الارتباك . ثم قال :
ـ « الا يمكننى أن أخفى شيئا عن سيدتى الصغيرة ؟ انك لفتاة ذكية . حسنا ـ أنا السائق . هل يرضيك ذلك ؟ »
فأجبته فى حدة قائلة :
ـ « لا . لا يرضينى . وأرجو أن تعود بى الى المدينة فى الحال » .
ـ « لماذا ؟ أأغضبك منى انى ادعيت أننى من رجال الاعمال ؟ »
وكنت غاضبة منه حقا فى تلك اللحظة دون أن أدرى لذلك سببا . فقد بدا الامر وكأننى لم أتمالك نفسى من ذلك .
ـ « كفى حديثا فى هذا الموضوع ـ وعد بى » .
ـ «انها دعابة فحسب . ولم لا ؟ انكف حتى عن المزاح ؟ »
ـ « لايروقنى هذا النوع من المزاح . »
ـ « ما أحد طبعك ! كنت احدث نفسى قائلا « لعل هذه السيدة

الصغيرة من الاميرات ـ فاذا ما اكتشفت أننى سائق مسكين فحسب فلن ترمقنى حتى بنظرة ـ ولذا فسأقول لها اننى من رجال الاعمال »

كانت هذه الكلمات على جانب كبير من الفطنة واللباقة لانها أرضت كبريائى وكشفت لى فى نفس الوقت عن مشاعره نحوى . وعلى أية حال فان أسلوبه الجذاب فى التعبير قد استمالنى تماما .

فأجبته قائلة :

ـ « أنا لست من الاميرات ـ ولكننى أعمل نموذجا كما تعمل أنت سائقا لكسب القوت » .

ـ « نموذجا ؟ ماذا تعنين ؟ »

ـ « أذهب الى مراسم الفنانين حيث أتجرد من ملابسى ليرسموا صورى » .

فسألنى بحدة ـ « أليست لك أم ؟ »

ـ « بالطبع . لماذا ؟ »

ـ « وهل تسمح لك أمك بالتجرد من ملابسك أمام الرجال ؟ »

لم يخطر ببالى قط أن فى مهنتى مايدعو الى الخجل . وليس ثمة مايدعو الى ذلك فى الواقع . ولكننى سررت لما أبداه من شعور . فقد أظهر لى انه ذو احساس خلقى جاد . وكما قلت من قبل فانى كنت عطشى الى الطريق الطبيعى فى الحياة . وقد تكهن بدهائه ـ ولست أدرى حتى الآن كيف أمكنه ذلك ـ بما ينبغى أن يقوله وما لاينبغى . ولم أتمالك نفسى من الاعتقاد انه لو كان فى مكانه أى رجل آخر لسخر منى أو كشف عن نوع من الفلمة المسيئة لتصورى عارية . وهكذا فقد تغير على غير وعى منى ذلك الانطباع الاول الذى أحدثه كذبه فى نفسى وخيل لى أنه شخص صادق مهذب على الرغم من كل شىء بل هو بالضبط ذلك الرجل الذى تخيلته فى أحلامى زوجا لى .

فأجبته فى بساطة قائلة ـ « ان أمى هى التى أوجدت لى هذا العمل » .

ـ « اذن فمعنى هذا أنها لاتحبك » .

فاحتججت قائلة ـ « كلا . انه لايعنى ذلك . فلاشك أنها تحبنى ـ ولكنها هى نفسها كانت تعمل نموذجا فى صباها . والواقع أنه لا عيب فى ذلك . فمثلى كثيرات يؤدين هذا العمل وهن فى نفس الوقت فتيات مهذبات » .

فهز رأسه فى غير اقتناع ثم قال واضعا يده على يدى ـ « أتعلمين

انى سعيد بلقائك ــ سعيد حقاً » .
فقلت فى صراحة ــ « وأنا كذلك » .
عندئذ أحسست بميل نحوه . وكدت أتوقع منه أن يقبلنى . فلاشك أنه لو فعل لما احتججت عليه . ولكنه بدلا من ذلك قال لى فى صوت حازم كمن يحمينى :
ــ « لو كان من حقى أن أتدخل لما صرت نموذجا قط » .
وراودنى احساس بأنى ضحية وغشينى نحوه شعور بالعرفان . ثم واصل حديثه قائلا ــ « ففتاة مثلك ينبغى أن تبقى فى منزلها وتعمل ان شاءت عملا مهذبا لاتعرض فيه شرفها للضياع ــ ان فتاة مثلك ينبغى أن تتزوج ويكون لها بيتها الخاص وأطفالها وأن تبقى مع زوجها . »
كانت هذه بالضبط هى طريقتى فى التفكير ولا يمكننى أن اعبر عن مدى سعادتى عندما وجدته يفكر أو بدا لى أنه يفكر بنفس طريقتى .
قلت ــ « انك محق فى ذلك ــ ولكنك مع هذا يجب ألا تسىء الظن بأمى . فقد ارادت أن تجعل منى نموذجا لانها تحبنى » .
فأجاب قائلا فى حزم تحدوه شفقة غاضبة ــ « ذلك أمر لايقره أحد » .
ــ « نعم . لاشك أنها تحبنى ــ ولكن تفكيرها يقصر عن ادراك اشياء معينة » .
وظللنا نتحدث على هذه الصورة ونحن جالسان خلف حاجز الريح فى السيارة المغلقة . وأذكر أننا كنا فى شهر مايو وكان النسيم عليلا وظلال أشجار الدلب على مدى البصر تتلاعب على سطح الطريق . وقد خلا المكان الا من سيارة تمرق من وقت لآخر بسرعة فائقة كما اقفر من حولنا الريف الاخضر المشمس . واخيرا نظر الى ساعته وقال انه عائد بى الى المدينة . ولم يزد طوال هذا الوقت على أن لمس يدى مرة واحدة . وكنت أتوقع منه على الاقل أن يحاول تقبيلى فخالجنى مزيج من الخيبة والسرور لحصافته وفطنته . أحسست بالخيبة لاننى أعجبت به ولم أتمالك نفسى فى الواقع من الحملقة فى شفتيه الرقيقتين الحمراوين . وسررت لانه عزز رأيى فيه وهو أنه شاب يتسم تفكيره بالجدية تماما كما تمنيته أن يكون .
وصحبنى الى المرسم حيث أخبرنى أنه منذ ذلك اليوم فصاعدا لن يبرح يصحبنى فى السيارة كلما وجدنى على محطة الترام فى ميعاد معين اذ انه عندئذ لايجد مايفعله . فقبلت دعوته بسرور ومرت يومئذ

ساعات وقوفى الطويلة على جناح السرعة . فقد بدا لى أننى وجدت لحياتى هدفا . كما سرنى امكانى التفكير فيه دون استياء أو ندم كشخص لم أنجذب اليه شكلا فحسب بل توفرت لديه السجايا الخلقية التى كنت أعدها جوهرية .

لم أذكر لأمى شيئا عنه . فقد خشيت الا تسمح لى بالتورط فى علاقة مع رجل فقير لايملك سوى مستقبل متواضع . وفى الصباح التالى جاء ليصحبنى حسب وعده . ولكنه يومئذ حملنى مباشرة الى المرسم . أما فى الايام التالية فكان يصحبنى أحيانا للنزهة عندما يكون الجو صحواً جميلا فى طرقات المدينة الواسعة أو فى الشوارع التى يخف فيها الزحام فى ضواحى المدينة فيمكنه أن يتحدث الى فى راحة وطمأنينة . ولكنه كان فى حديثه دائما يتسم بالحزم والجد ويتميز أسلوبه بالاحترام الشديد المتعمد ليأسر به قلبى — ولشد ما كنت عاطفية حينذاك حتى أن كل مايتصل بالخير والفضيلة والخلق الكريم والحب العائلى كان يحرك مشاعرى على صورة غريبة الى حد البكاء فتفيض عيناى لأتفه الاسباب بالدموع التى تبعث فى نفسى شعورا غامرا مسكرا بالعزاء والثقة والتعاطف .وهكذا تدريجيا صرت أومن بكماله المطلق . بل كنت فى الواقع أسائل نفسى أحيانا « ماذا فيه من عيوب ؟» كان شابا وسيما ذكيا أمينا جادا فى تفكيره. وفى الواقع فانه ماكان يمكن أن يقال ان به عيبا واحدا . وكانت تلك الخواطر تثير فى نفسى الدهشة لاننا لانصادف الكمال فى حياتنا كل يوم . وكاد يساورنى الخوف . فرحت أسائل نفسى قائلة اى رجل هذا الذى لا عيب فيه ولا مأخذ عليه مهما اختبرته ؟ وحقيقة الأمر أننى كنت على غير وعى منى قد وقعت أسيرة هواه ونحن نعلم جميعا أن الحب مرآة يبدو فيها الوحش ذا سحر وفتنة .

وقد بلغ من هيامى به انه عندما قبلنى لاول مرة فى الطريق حيث دار بيننا أول حديث لنا أحسست بالارتياح وكأننى انتقلت بطريقة طبيعية للغاية من مرحلة الرغبة الناضجة الى مرحلة اشباعها لاول مرة . ومع ذلك فان الدفعة التلقائية الغلابة التى ضمت شفاهنا فى تلك القبلة بثت فى نفسى بعض الخوف لاننى ادركت أن فعالى لم تعد تتوقف على ارادتى بل على تلك القوة الجبارة اللذيذة التى كانت تدفعنى نحوه فى الحاح شديد . ولكنه بث فى نفسى الطمأنينة التامة عندما أخبرنى لحظة افتراقنا أنه ينبغى علينا منذ ذلك الوقت فصاعدا أن نعد كلينا خطيبين . ولم يسعنى حينئذ أيضا الا أن ارى انه قد

قرأ أعمق خواطري وفاه بنفس الالفاظ التي كنت أبغى سماعها .
وهكذا لم يلبث أن تلاشى فى الحال ذلك القلق الذي بعثته في نفسي قبلتي الاولى . وظللت طوال مابقي من الوقت الذي أمضيناه هناك على جانب الطريق أقبله دون تحفظ يراودني شعور بالاستسلام الحلال المطلق العنيف .

وما أكثر مامنحت وتلقيت من القبل منذ ذلك الوقت ويعلم الله انني مامنحتها أو تلقيتها الا كقطعة النقود القديمة التي تداولتها أيد كثيرة تعطيها وتأخذها أي دون مشاركة وجدانية او جسمانية ولكنني لن أنسى ماحييت تلك القبلة الاولى لما اتسمت به من عنف يوشك أن يكون مؤلما وقد بدا لي أنني لم أكن اعبر بها عن حبي لجينو فحسب بل عن حال من الترقب يدوم حياة بأسرها . وأذكر أنني احسست وكأن العالم أجمع يدور من حولي وأن السماء من تحتي والارض من فوقي . وفي الواقع فاني كنت أتكىء قليلا الى الخلف وفمه على فمي حتى يطول عناقه . واحسست بشىء بارد حي يضغط على أسناني حتى اذا ما انفرجت شعرت بلسانه الذي طالما دغدغ أذني بحلو حديثه وهو يلج فمي فى الآن في صمت ليكشف لى عن لذة أخرى لم تخطر لي على بال . لم أكن أدري أن التقبيل يمكن أن يطول على هذه الصورة .
وما لبثت أنفاسي أن انبهرت ، وقد عرتني شبه نشوة حتى أنني اضطررت فى النهاية عندما انفصل كلانا عن الآخر الى الاتكاء قليلا الى الخلف على ظهر المقعد وقد أغمضت عيناى وغشي عقلي ضباب وكأنني على وشك الاغماء . وهكذا اكتشفت أن فى الدنيا متعا أخرى تضاف الى حياة المرء فى كنف أسرته فى سلام . ولكني فى حالتي لم أحلم أن تستأثر تلك المتع بحياتي مستبعدة غيرها من المتع الطبيعية التى كنت أصبو اليها حتى ذلك الحين . وما ان قطع جينو على نفسه عهداً بخطبتي حتى تأكدت من أنه سيتاح لى فى المستقبل أن أتذوق مباهج المتعتين معا بلا خطيئة أو ندم .

ولشد ما كنت مقتنعة بصحة سلوكي وشرعيته حتى أنني في ذلك المساء نفسه كاشفت أمي بكل شيء ولعلني تعرضت فى ذلك لرعشة وفرحة شديدتين . وجدتها جالسة الى ماكينة الخياطة بجانب النافذة فى ذلك الضوء الباهر الذى يرميه المصباح العارى من الغطاء قلت وقد التهبت وجنتاى بحمرة الخجل ــ « انى مخطوبة يا أماه . »

فرأيت وجهها كله يلتوي فى تعبير عن الضيق والاستياء وكأن

نضيضا من الماء المثلج أخذ يتقاطر منزلقا على ظهرها .
قالت ـ « لمن ؟ »
قلت ـ « لشاب قابلته أخيرا » .
قالت ـ « وما عمله ؟ »
قلت ـ « سائق » .
أردت أن أواصل حديثى ولكننى لم أجد الوقت لذلك . فقد وقفت ماكينتها وقفزت من متعدها ـ ثم أمسكت بى من شعرى قائلة « هل قلت انك مخطوبة ؟ ... دون أن تخبرينى بشىء ـ ولسائق ! آه يا الهى ! يا الهى ! ... سألقى حتفى على يديك ! » وكانت فى أثناء ذلك تحاول أن تضربنى ولكننى لم أفتأ أحتمى منها بيدى ما استطعت الى ذلك سبيلا . وأخيرا تخلصت من قبضتها ولكنها تبعتنى ـ فانطلقت أركض حول المائدة فى وسط الغرفة ولكنها ظلت تطاردنى وهى تصيح فى يأس . ولشد ما أفزعنى وجهها النحيل وقد اندفع الى الخارج نحوى يعلوه تعبير ينطق بالغضب الاليم . صاحت قائلة : « سأقتلك . سأقتلك هذه المرة . » وبدا لى ان غضبها كان يزداد تأججا وتهديدها يزداد واقعية كلما صاحت قائلة « سأقتلك . » ظللت عند طرف المائدة أرقب كل حركة من حركاتها لاننى كنت أعلم أنها لا ضابط لها مطلقا عندما تعتريها هذه النوبات وأنها خليقة حقا بأن تقذفنى بأول شىء يقع تحت يدها ولو أردتنى قتيلا . وبالفعل فقد بدأت فجأة تلوح بمقص الخياطة الكبير وماكدت أمرق جانبا كالسهم حتى مر بى المقص وارتطم بالحائط . وقد فزعت هى نفسها لذلك وجلست فجأة الى المائدة محتقنة وجهها براحتيها وانفجرت فى نوبة من البكاء العصبى الخانق وقد تجلى فيه الغضب أكثر مما تجلى فيه الاسى والاسف .
وقالت بين شهقاتها ـ « ما أكثر ما أعددت لك من الخطط . فقد أردت لك بكل مالك من جمال أن تنعمى بالثـراء ـ فاذا بك الآن تخطبين لفتى مفلس » .
فقاطعتها فى وجل قائلة ـ « انه ليس مفلسا ! »
فهتفت قائلة وهى تهز كتفيها ـ « سائق ! سائق ! ـ انك عاثرة الحظ وسوف ينتهى بك المطاف كما انتهى بى » . قالت هذه الكلمات فى بطء وكأنها تتذوق كل ما فيها من مرارة . ثم أضافت قائلة بعد لحظة ـ « فانه سيتزوجك وتصبحين خادمته ثم خادمة لاطفالك ـ وتلك هى خاتمة المطاف » .

فقلت مطلعة اياها على احدى خطط جينو ـ « سنتزوج عندما يتجمع لديه من المال مايكفى لشراء سيارته الخاصه » .

فصاحت فجأة وهى ترفع وجهها الملوث بالدموع قائلة ـ « بضعة آمال ! ولكن لاتحضريه الى هنا ـ لا تحضريه الى هنا ـ فأنا لا أريد ان أراه . افعلى ماشئت . والتقى به حيثما أردت ـ ولكن لاتحضريه الى هنا . »

وفى ذلك المســـاء أويت الى فراشى دون عشاء يغمرنى الحزن والتعاسة . ولكننى قلت لنفسى ان أمى ماسلكت هذا السبيل الا لانها تحبنى وقد وضعت لمستقبلى جميع الخطط التى انقلبت بخطبتى راسا على عقب . وفيما بعد حتى عندما عرفت كنه تلك الخطط لم أستطع فى الحقيقة أن ألومها . فانها لم تنعم بشىء ســوى المرارة والعناء والفقر فى مقابل حياتها الشاقة الشريفة . فكيف يمكن أن نعجب لأملها فى حياة مختلفة تماما لابنتها ؟ ولعله ينبغى أن أقول أنها لم تكن خططا معدة بقدر ماكانت أحلاما غامضة وامضة يمـكن أن يتشبث بها المرء دون أن يشعر بكثير من الندم لتألقها وغموضها . ولكن هذا هو رأيى الشخصى فحسب . ولعل أمى بدلا من ذلك قد استقر رايها حقا بسبب ما أصاب ضميرها من تبلد طوال حياتها على ان تضعنى يوما فى ذلك الطريق الذى قدر لى على أية حال أن أسلكه فيما بعد على مسئوليتى الخاصة ـ وأنا لاأقول هذا بدافع من الحقد على أمى بل لان ادراكى مازال حتى الآن قاصرا عن أستيعاب ما كان يدور بخلدها حينذاك . وقد علمتنى التجربة أن أشد الأشياء تناقضا يمكن أن تخطر على الذهن وتخالج الوجدان فى لحظة واحدة بعينها دون أن نلاحظ تناقضها أو نؤثر احداها على الاخرى .

لقد اقسمت انها لاتبغى رؤيته واحترمت رغبتها بعض الوقت . ولكن بدا لى أن جينو بعد أن منحنى قبله القليلة الاولى كان يتوق الى الصراحة فى كل شىء والى اظهار كل شىء على متن السفينة على حد تعبيره . ولم يفتأ يلح على فى كل يوم اننى يجب ان اقدمه الى أمى . ولم أجسر على مصـــارحته بأنها تأبى أن تعرفه لاحتقــارها عمله . فحاولت تأجيل اللقاء متلمسة مختلف المعاذير . واخيرا ادرك جينو اننى اخفى عنه شيئا فشدد الحاحه على حتى اضطرنى الى مصارحته بالحقيقة .

قلت ـ « ان أمى لاترغب فى التعرف اليك لانها تزعم أن قرينى كان ينبغى ان يكون سيدا مهذبا لا سائقا » .

كنا فى السيارة فى الطريق الريفي المعهود . فنظر الى فى حزن ثم أطلق تنهدة . ولشد ما كنت مفتونة به حتى أننى لم الحظ مدى ما كان فى أساه من زيف وبهتان .

ثم هتف قائلا فى حدة ـ « هذه هى نتيجة الفقر . »

وصمت بعض الوقت .

وأخيرا سألته قائلة ـ « أتبالى بذلك ؟ »

فأجاب قائلا وهو يهز رأسه ـ « أنى أشعر بالتحقير . فلو أن رجلا آخر فى مكانى لما طلب لقاءها البتة بل لما ذكر الخطبه قط ـ هذا هو جزاؤنا لقاء محاولتنا أن نسلك سواء السبيل . »

قلت ـ « ولماذا تنزعج ؟ فأنا أحبك ـ وهذا هو كل مايهمك » .

ـ « كان يجب أن أذهب اليها محملا بالنقود ولكن دون أن أحدثها عن الخطبة بالطبع ! وعندئذ كان يسر أمك أن ترحب بى . »

لم أجسر على معارضته لاننى كنت أعلم أن مايقوله حقيقة لا ريب فيها .

ولم ألبث أن قلت ـ « أتعــرف ماذا نفعل ؟ ســأصحبك يوما ونفاجئها . وعندئذ ستضطر الى لقائك ـ فلا يمكنها أن تغمض عينيها . »

وحددنا يوما لذلك . وفى المساء صحبت جينو الى غرفة الجلوس كما اتفقنا . وكانت أمى قد انتهت فى التو من عملها وأخذت تنظف طرف المائدة لتضع المفرش .

قلت وأنا أقوده الى الداخل ـ « هاهوذا جينو يا أماه » .

كنت أتوقع شـــجارا وقد حذرت جينو من ذلك . ولكن أمى لدهشتى قالت باختصار وهى تنظر اليه نظرة جانبية ـ « يسعدنى لقاؤك . » ثم غادرت الغرفة .

قلت لجينو ـ « سترى أن كل شىء سيسير على ما يرام . » ثم اقتربت منه رافعة وجهى اليه ثم قلت ـ « أعطنى قبلة » .

فأجاب فى صوت خفيض وهو يدفعنى بعيدا ـ « كلا . كلا . والا كانت أمك على حق فى اساءتها الظن بى . »

كان يعرف دائما كيف يتخير الالفاظ الدقيقة التى تناسب كل مقام ولا يفتأ يفوه بها فى اللحظة المناسبة . ولم يسعنى الا أن أعترف بينى وبين نفسى بأنه كان على حق . وعادت أمى دون أن تنظر الى جينو :

ـ « ليس هناك من الطعام سوى مايكفى شخصينا ـ فانك فى الحقيقة لم تخبرينى ـ انى ذاهبة لكى ... »

ولم تتم عبارتها . فقد تقدم جينو وقاطعها قائلا ـ « يا الهى ! انى لم أحضر الى هنا لأدعو نفسى للعشاء ، بل لأدعوكما كلتيكما أنت وآدريانا للعشاء فى الخارج » .

كان يتكلم فى أدب كشخص متعلم . ولكن أمى لم تألف هذا الاسلوب فى مخاطبتها ولم تألف أن يدعوها أحد للخروج . فترددت لحظة ووقفت تنظر الى ثم قالت :

ـ « أما فيما يخصنى فان شاءت آدريانا أن ... »

فاقترحت قائلة ـ « فلنذهب الى حانة النبيذ القريبة من هنا . »

فأجاب جينو قائلا ـ « حيثما شئت » .

وقالت أمى انها يجب أن تذهب لتخلع وزرتها فمكثنا وحدنا . كانت الفرحة الساذجة ملء جوانحى فقد شعرت أننى فزت فى معركة هامة فى حين أنها لم تعد أن تكون مهزلة واننى الشخص الوحيد الذى لم يشارك فيها . فاتجهت الى جينو وقبلته باندفاع تلقائى قبل أن يتمكن من صدى عنه . وكانت تلك القبلة تعبيرا عن ارتياحى من كل ذلك القلق الذى طالما أمضنى وأزعجنى وعن اقتناعى بأن الطريق الى الزواج صار ممهدا منذ ذلك الوقت فصاعدا وعن عرفانى لجينو بسبب موقفه المهذب من أمى . لم تكن فى نفسى غاية خفية بل كنت مخلصة الاخلاص كله فى حبى لجينو وعطفى على أمى . كنت ساذجة مخلصة واثقة بالناس شأن كل فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها قبل أن تزول الغشاوة عن عينيها فتذوى نضارتها . ولم أتعلم الا بعد زمن طويل أن القلة القليلة من الناس يعجبون بهذا اللون من الصراحة او يتأثرون به لانها تبدو مثيرة للسخرية فى نظر معظمهم بل تثير فى نفوسهم الرغبة فى الايذاء قبل كل شىء .

وذهبنا ثلاثتنا الى الحانة الواقعة على ناصية الطريق وراء أسوار المدينة تماما . وعندما جلسنا لم يعد جينو يعيرنى انتباها بل أسلم نفسه لأمى كلية يحدوه فى ذلك غرض واضح هو استمالتها اليه . ولشد ما بدت لى رغبته فى التودد الى أمى صائبة محققة ، فلم أعبأ كثيرا بأغلظ أساليب الملق والمداهنة التى راح يبذلها لها . فكان يدعوها « سنيورا » (١) وهى صيغة فى الخطاب لم تعهدها أمى قط وقد حرص على تكرارها ما أمكنه ذلك سواء فى مستهل عباراته أو فى وسطها وكأنها قرار موسيقي . كما كان يخاطبها قائلا بطريقة عارضة تماما : « انك فطنة للغاية وستفهمين ... » أو يقول لها « لقد مرت

(١) : لقب ايطالى بمعنى سيدة

بك التجارب وليس ثمة ما يدعو في الحقيقة الى مصارحتك ببعض الاشياء .. » او يقول لها مرة اخرى في مزيد من الايجاز : « وبما اوتيت من ذكاء .. » بل استطاع ان يقول لها انها كانت بلا ريب تفوقني جمالا وهي في مثل سني . فسألته قائلة في شيء من الضيق : « وكيف يمكنك ان تعرف هذا ؟ » فأجابني في لهجه غامضة متملقة قائلا « هذا واضح لكل ذي عينين ... فثمة أشياء أوضح من أن تقال . » وكانت أمي المسكينة تحملق فيه وقد برزت عيناها من رأسها وهو يداهنها على هذه الصورة وقد تألق وجهها للغاية بينما هجعت لتهويده جميع شبهاتها ووساوسها . ثم أراها تارة أخرى وهي تحرك شفتيها مرددة في صمت ما أمطرها به من مجاملات تعافها النفس . كان واضحا أنها تخاطب على تلك الصورة لاول مرة في حياتها . وبدا قلبها الظامىء قادرا على تشرب كلماته الى الابد . أما عن نفسي فقد بدا لي كما قلت من قبل أن تلك الاكاذيب كانت لاتكشف الا عن احترامه المحب لأمي وتقديره الرقيق لي . وهكذا لم يعد أمامي الا أن أضيف لمسة أخرى للصورة التي تمثل نواحي الكمال في جينو وقد حملت بأكثر مما تطيق .

وفي أثناء ذلك دخلت جماعة من الشبان وجلسوا الى مائدة قريبة منا . وكان أحدهم يبدو مخمورا الى حد ما ولم يفتأ يحملق في ثم رماني بعبارة نابية ولكنها تنطوي في نفس الوقت على المديح والاطراء . وسمعه جينو فنهض على الفور واتجه نحو الشاب .

وهتف قائلا ـ « هلا سمحت بترديد ماقلت !؟ »

فسأله الشاب قائلا وكان واضحا أنه مخمور ـ « وما شأنك بهذا بحق الجحيم ؟ »

فقال جينو رافعا صوته ـ « هذه السيدة وهذه الفتاة جالستان معي . ومادامتا معي فشأنهما هو شأني . هل فهمت الأن ما اعني ؟ »

فأجاب الشاب في شي من الوجل ـ « فهمت . هدىء من روعك ... لا تؤاخذني . لا تؤاخذني ... » وبدا لي أن الآخرين كانوا ينظرون في عداء الى جينو ولكنهم لم يجسروا على الانحياز لصديقهم الذي ملأ قدحا من النبيذ وقدمه الى جينو متظاهرا بمزيد من السكر فرفضه الاخير بحركة من يده . فصاح الشاب المخمور قائلا « الا تشرب ؟ الا تحب النبيذ ؟ انك مخطىء ... فهو نبيذ جيد . وسأشربه أنا نفسي . ثم أفرغ القدح في جوفه في جرعة واحدة . فحملق فيه جينو لحظة متجهما ثم عاد الينا .

قال وهو يجلس مسويا سترته بحركات عصبية - « قوم لا خلاق لهم » .
فقالت أمي وقد أشبع غرورها الى حد كبير - « ما كان ينبغى أن تكترث لهم صبية أرذال » .
ولكن جينو شد ما أدارت رأسه تلك الفرصة لاستعراض شهامته . فأجابها قائلا « وكيف كان يمكننى أن أفعل غير ذلك ؟ فلو أننى كنت مع امرأة من أولئك ... وأنت تفهمين من أعنى ياسنيورا اذن لاختلف الامر ... لاختلف الامر تماما مع أنه ... ولكننى لما كنت مع سيدتين محترمتين فى محل عام - فى مطعم ... وعلى أية حال فقد أدرك الشاب أننى جاد وامسك عن الكلام فى الحال » .
وقد استمال أمي تماما بذلك الحادث . كما استمالها بما كان يقدمه اليها من شراب وجدت فيه نشوة تعادل نشوة المداهنة والملق . ولكنها رغم استسلامها لسحر جينو لم تفتأ تغذى فى نفسها مشاعرها السيئة قبل خطبتنا كما يحدث فى أغلب الاحيان لمن يفرط فىالشراب . وانتهزت أول فرصة لتوضح له أنها على الرغم من كل شيء لم تنس ماحدث .
وسنحت لها الفرصة أثناء حديث دار عن مهنتى كنموذج . ولم اعد اذكر كيف حدث انى تكلمت عن فنان جديد كنت اقف له فى ذلك الصباح .
فقاطعنى جينو قائلا - « ربما كنت سخيفا أو رجعيا أو ماشئت ولكننى فى الحقيقة لايمكننى ان استسيغ تجرد آدريانا من ملابسها كل يوم أمام هؤلاء الفنانين » .
فسألته أمي قائلة فى صوت أجشانذرنى - لخبرتى بها - بالعاصفة التى كانت تعتمل فى نفسها - « ولم لا ؟ »
- « لانه باختصار أمر لا أخلاقى » .
ولن أذكر هنا اجابة أمي بكاملها لانها امتلأت بالسباب والعبارات النابية التى كانت لاتفتأ تستخدمها كلما أفرطت فى الشراب أو استبد بها الغضب . ولكن اجابتها حتى مع تخفيف لهجتها كانت تعكس آراءها ومشاعرها حول الموضوع .
بدات تصيح قائلة بأعلى صوتها الى حد جعل جميع الجالسين الى الموائد الاخرى يتوقفون عن تناول طعامهم ويستديرون نحونا - « لا اخلاقى . أليس كذلك ؟ لا أخلاقى - ولكننى أحب أن أعرف ما الذى تعده أخلاقيا ؟ ربما كان من الاخلاق أن تكدح طوال النهار

حتى توهي أصابعها فتغسل الثياب وتحيكها وتطهو الطعام وتكوى الملابس وتكنس الارض وتزيل ماتراكم عليها من القـذارة ثم يأتي زوجها بعد ذلك فى المساء منهوك القوى فيأوى الى فراشه حالما ينتهى من تناول طعامه ثم يدير لها ظهره ويستغرق فى النوم ؟ أهذا هو ماتسميه أخلاقيا ؟ أمن الاخلاق أن تضحى بنفسـها فلا يتسع لها الوقت لالتقاط أنفاسها ثم تطعن فى السن ويذوى جمالها وتموت ؟ أتريد أن تعرف رأيى ؟ اعتقد أننا لانعيش سوى مرة واحدة وعندما نموت ينتهى كل شيء ثم نذهب نحن وأخلاقنا الى الشيطان . ولاشك أن آدريانا لديها كل الحق فى ظهورها عارية اذا مانقدها الناس أجرا لقاء ذلك . بل انها تحسن عملا لو .. » ثم أعقبت ذلك سلسلة من العبارات النابية التى جعلتنى أتلوى من الخجل لانها صاحت بهـا جميعا بنفس الصوت النفاذ الذى قالت به بقية كلامها ـ ثم أردفت قائلة وكأنها قد خطرت لها فكرة لاحقة ـ « ولو أنها فعلت ذلك لما رفعت اصبعا لأمنعها عنه . ليس هذا فحسب بل لعاونتها عليه ـ نعم أعاونها عليه ـ مادام الناس ينقدونها أجرها بالطبع » .

فقال جينو دون أن يبدو عليه أثر للانزعاج ـ « انى واثق انك لن تستطيعى حقا اقناع نفسك بذلك » .

« ألا أستطيع ؟ هذا هو ما تزعمه أنت ! ماذا يخيل لك بحق الشيطان ؟ اتحسبنى فرحة بخطبة آدريانا لتافه مثلك ـ سائق !؟ الا اكون أسـعد حالا ألف مرة لو انطلقت آدريانا تبيـع الهوى فى الشوارع ؟ أيخيل لك أنه يعجبنى أن تصير آدريانا ـ بكل جمالها الذى يمكن أن يدر عليها الآلاف ـ خادمة لك مابقى من حياتها ؟ انك مخطىء ـ بل مخطىء تماما » .

وواصلت صياحها حتى أننى أحسست بالخجل الشديد عندما رأيت الناس جميعا يولوننا انتباههم ولكن جينو كما سبق أن قلت لم يرتبك قط . بل انتهز اللحظة التى اضطرت فيها امى للتوقف عن الكلام لتلتقط أنفاسها وهى مبهورة مجهدة فتناول زجاجة النبيذ ثم ملأ قدحها قائلا : اتشربين مزيدا من النبيذ ؟ »

ولم يسع أمى المسكينة الا ان تشكره وقبلت القدح الذى قدمه اليها . وعندما رآنا الناس نشرب معا وكأن شيئا لم يحدث على الرغم من ذلك الانفجار العنيف واصلوا احاديثهم الخاصة .

قال جينو ـ « ان آدريانا بـكل جمالها ينبغى أن تحيـا حياة مخدومتى » .

فسألته قائلة فى حماسة لرغبتى فى ابعاد الحديث عنى ـ « أى نوع من الحياة ؟ »

فقال فى صوت مزهو أحمق وكأنه يسبح فى المجد الذى يعكسه ثراء مخدوميه ـ « فى الصباح تستيقظ فى الساعة الحادية عشرة أو الثانية عشرة . فيحمل اليها طعام الافطار فى الفراش على صينية من الفضة وفى أوان فضية ثقيلة . ثم تأخذ حماما . ولكن الخادمة أولا تضع بعض الاملاح فى الماء لتزكو رائحته . وعند الظهر أصحبها فى السيارة الى حيث تتناول قدحا من شراب « الفرموت » أو الى حيث تبتاع بعض الحاجيات . ثم تعود الى المنزل فتتناول غداءها وتضطجع قليلا .وبعد ذلك تقضى ساعتين فى ارتداء ملابسها. ينبغى أن ترى كم تملك من الثياب ! ملء خزائن ! ثم تخرج للزيارة فى سيارتها أو تمكث فى المنزل لاستقبال الزوار . وعندما يلتئم شملهم يلعبون الورق ويشربون الخمر ويسمعون الموسيقى . انهم قوم ذوو ثراء عريض ولا ريب أن مخدومتى تملك من المجوهرات وحدها ماقيمته عدة ملايين » .

كان من اليسير تشتيت أفكار أمى كما هى الحال مع الطفل الصغير الذى يصلح مزاجه شىء تافه . فقد نسيت الآن كل شىء عنى وعن قسوة مصيرى وراحت تحملق فى تلك الصورة ذات البهاء والرونق الفخم .

فرددت قائلة فى نهم ـ « ملايين ! وهل هى حسناء ؟ »

فقال جينو الذى كان يدخن غليونه ويتفل ذرة من التبغ فى احتقار ـ « حسنا ! انها دميمة حقا ـ فهى نحيلة تبدو كساحرة عجوز » .

واستمرا يتحدثان عن ثروة مخدومة جينو أو بالاحرى لم يفتأ جينو يتغنى بامتداح ثروتها وكأنها ثروته الخاصة . ولكن أمى لم يكد يثار فضولها لحظة حتى عاودها تبرمها وانقباضها ولم تنطق بكلمة أخرى طوال المساء . لعلها خجلت من انفجارها . ولعلها شعرت بالحسد ازاء ذلك الثراء كله فأخذت تفكر باستياء فى خطبتى لرجل فقير .

وفى اليوم التالى سألت جينو فى وجل عما ان كانت أمى قد اساءت اليه . فأجابنى بأنه رغم عدم مشاركته آراءها فقد فهمها جيدا لانها كانت من وحى حياة تعسة أذلها الحرمان . وقال انه ينبغى أن يرثى لها . كما قال انه كان من الواضح على أية حال انها لم تتكلم على تلك الصورة الا لانها تحبنى .وكان ذلك هو رأيى ايضا فشعرت بالامتنان لجينو لفهمه اياها جيدا ـ وقد خشيت أن يكون انفجار أمى قد أفسد علينا

كل شيء ، ولم يملأني ترفق جينو فى الحكم عليها بالعرفان فحسب بل كان سجية جديدة أضيفت الى قائمة نواحي الكمال فى شخصيته . ولو كنت أكثر تبصرا بالامور وأكثر خبرة لادركت أنه لا يمكن ان يهدف الى خلق مثل هذا الاحساس بالكمال سوى الخداع المرسوم المدبر وحده وأن الاخلاص الحقيقى يخلق صورة بها اخطاء كثيرة الى جانب بعض السجايا الجميدة .

وحقيقة الامر انني أصبحت الان اجد نفسى بالقياس الى جينو فى حال من النقص الدائم . وبدا لى اننى لم أكد أعطيه شيئا فى مقابل صبره وحسن ادراكه . ولعل احساسى بأنى تلقيت كثيرا من المعروف وبأنى مطالبة برد الصنيع يفسر عدم مقاومتى اياه عندما ازدادت مداعباته جراة ـ تلك المقاومة التى كان يمكننى أن أبديها من قبل . ولكننى يجب أيضا أن أعترف كما سبق أن اعترفت عندما قبلنى لاول مرة انى أحسست بنفسى مدفوعة للاستسلام له بقوة لشد ما كانت جبارة ولكنها كانت فى نفس الوقت لذيذة للغاية . انها قوة قريبة من سلطان النوم الذى يغرينا احيانا بالاغفاء عن طريق حلم يتراءى لنا فيه أننا ما زلنا مستيقظين بغية قهر ارادتنا التى تقاومه . وهكذا نستسلم لسلطانه لاقتناعنا بأننا ما زلنا نقاومه .

وانى لاذكر على وجه الدقة جميع مراحل اغوائى . اما احساسى فكان مزيجا من المتعة والندم لما كنت اشعر به ازاء كل خطوة خطاها جينو فى سبيل اغوائى من رغبة وصدود فى نفس الوقت . كما كانت كل خطوة تتخذ تدريجيا بطريقة مدبرة مرسومة فى غير ما عجلة أو نفاد صبر كما لو كان قائدا عسكريا يغزو بلدا لا عاشقا استثارت فيه الرغبة حماسته الشديدة وهو يستكشف جسدى المستسلم من شفتى حتى فخذى . ومع ذلك فانى لا اقصد أن ألمح أن جينو لم يقع اسير هواى حقيقة فيما بعد عندما حلت بالفعل محل تخطيطه وتدبيره رغبة عميقة لا تعرف الشبع حتى ولو لم تكن حبا .

وكان حتى ذلك الوقت قانعا بتقبيل فمى وعنقى أثناء نزهتنا بالسيارة ولكنه ذات صباح بينما كان يقبلنى أحسست بأصابعه تعبث بأزرار سترتى . ثم راودنى احساس بالبرد . وما ان نظرت من فوق كتفه تجاه المرآة المثبتة فوق حاجز الريح حتى رأيت أحد نهدى عاريا ـ واعترانى الخجل ولكنى لم أشأ أن أستر نفسى مرة أخرى . فما كان من جينو عندما خمن سبب ارتباكى الا أن بادر بضم طرفى سترتى على صدرى مرة أخرى ووثق أزرارها جميعا بنفسه. وشعرت بالامتنان

لحركته تلك . ولكننى فيما بعد عندما عدت الى المنزل وفكرت فيما حدث استثارنى ذلك وانجذبت اليه . وفى اليــوم التالى كــرر نفس الحركة وعندئذ احسست بمزيد من اللذة وقليل من الخجل . ومنذ ذلك الحين الفت ذلك المظهر من مظاهر رغبته . واعتقد أنه لو امتنع عن تكرار تلك الحركة لساورنى الخوف من انه لم يعد يحبنى بنفس القدر .

وفى أثناء ذلك راح يسرف فى الحديث عن حياتنا بعد الزواج . كما أخذ يتحدث عن أسرته التى كانت تقيم فى الريف وتنعم بحياة لا بأس بها لانها كانت تملك بضع مساحات من الارض . وأعتقد أنه فى النهاية شأن معظم الكذابين صار يصدق اكاذيبه بالفعل ولا شك أن مشاعره نحوى كانت قوية للغاية ولعلها أيضا كانت تزداد اخلاصا كلما توثقت العلاقة بيننا يوما بعــد يوم . أما عن نفسى فكان حــديثه يهود قلقى ويبث فى نفسى احساسا بالسعادة المطلقة الساذجة التى لم أعد أعرفها قط فى حياتى منذ ذلك الحين . فقد وجدت من أهوى ويهوانى وخيل لى أننى لن ألبث أن أتزوج وحسبت أن ذلك منتهى آمالى .

وأدركت أمى فى الحال أن نزهتنا الصباحية لم تكن بريئة تمــاما وأفهمتنى أنها تعلم ذلك بمثل ما يلى من العبارات : « لست أدرى ماذا تفعلان أنت وجينو عندما تخرجان للنزهة فى تلك السيارة كما أننى لا أريد أن أعلم .. » أو : « أنت وجينو تعتزمان شرا . لاوفقكما الله . » وما الى ذلك . ولكنه لم يسعنى عندئذ الا أن ألحظ أن تعنيفها اياى بدا لطيفا هينا على صورة مدهشة . فانها لم تبد مسلمة بما بينى وبين جينو من حب فحسب بل راغبة فيه فى قرارة نفسها . وانى الان واثقة بأنها كانت تتحين الفرصة لفسخ خطبتى .

الفصل الثالث

وذات يوم من أيام الاحاد أخبرني جينو أن مخدوميه قد رحلا الى الريف وان الخادمات قد ذهبن جميعا فى اجازة الى قراهن وان الفيللا تركت فى عهدته هو والبستاني . فهل أبغي القاء نظرة عليها ؟ ولما كان قد تحدث عنها مرارا وتكرارا بعبارات متالقة جعلتني أتوق الى زيارتها فقد قبلت دعوته فى سرور . ولكنني فى نفس اللحظة التى قبلت فيها الدعوة أحسست فى أعماق نفسي باثارة مشتاقة جعلتني أدرك أن رغبتي فى مشاهدة الفيللا لم تكن سوى ذريعة وأن الدافع الحقيقى وراء زيارتي كان شيئا آخر يختلف تمام الاختلاف . ومع ذلك فقد تظاهرت أمام نفسي وأمام جينو بتصديق ذريعتي كما نفعل دائما عندما تهفو نفوسنا الى شيء ما ونحاول فى نفس الوقت أن نمتنع عنه .

ولكنني حذرته قائلة وأنا أركب السيارة :

ــ « انى أعلم أنه ما كان ينبغى أن أذهب . ولكننا لن نمكث طويلا . أليس كذلك ؟ »

احسست أني أقول تلك الكلمات بطريقة مثيرة ولكنها كانت فى نفس الوقت مذعورة الى حد ما .

فقال جينو ليطمئنني :

ــ « ما يكفى من الوقت لمشاهدة المنزل فحسب ــ ثم نذهب بعد ذلك الى السينما » .

وكانت الفيللا تقع فوق منحدر فى شارع صغير بين عدد من الفيللات الاخرى فى حى جديد تبدو عليه مظاهر الثراء . كان يوما هادئا وكانت جميع تلك الفيللات المخططة على جانب التل قريبا من صفحة السماء الزرقاء بواجهاتها الطوبية الحمراء أو الحجرية البيضـــاء وممراتها المزدانة بالتماثيل ومراصد الشمس فيها وشرفاتها و « فراندتها » المزدهية بالعتر واشجارها السامقة المورقة فى الحدائق التى تفصل احداها عن الاخرى ــ كل هذه الأشياء كانت تبعث فى نفسي احساسا بالتجديد والاكتشاف وكأني استشرف عالما تطيب فيه الحياة ويسوده مزيد من الحرية والجمال . ولم يسعني الا أن أذكر ذلك الحي الذى كنت أقطنه ــ والطريق المحاذي لاسوار المدينة ومنازل عمال السكة

الحديد ــ فقلت لجينو ــ « لقد أخطأت بمجيئى الى هنا » .
فسألنى قائلا فى فتور :
ــ « لماذا ؟ فاننا لن نمكث طويلا ــ لا تنزعجى » .
فأجبته قائلة :
ــ « انك لا تفهم ما أعنيه ! لقد أخطأت لاننى فيما بعد سأخجل من منزلى ومن الحى الذى أقطنه » :
فقال بارتياح :
ــ « أنت محقة فىذلك . ولكن ماذا يسعك أن تفعلى ؟ كان ينبغى أن تولدى من ذوات الملايين ــ فأصحاب الملايين وحدهم يقيمون هنا » .
فتح بوابة الفيللا ثم قادنى فى ممر مغطى بالحصباء بين صفين من الشجيرات المشذبة على شكل دوائر ومكعبات . ودخلنا الفيللا من باب بلورى فاذا بنا فى بهو عار لامع ذى أرضية من الزخام على شكل مربعات سوداء وبيضاء كانت مصقولة كالمرآة . ومن هنا دلفنا الى بهو اخر اكبر منه كان فسيحا مضيئا يؤدى الى غرف الطابق الارضى . وفى طرف البهو كان هناك درج أبيض يؤدى الى الطابق العلوى . ولشد ما تولانى الذعر من منظر ذلك البهو حتى أننى أخذت أمشى على أطراف أصابعى . وما ان لاحظ جينو ذلك حتى قال لى ضاحكا انه يمكننى أن أحدث ما شئت من ضوضاء اذ ان المنزل ليس به أحد .
ثم أرانى غرفة الاستقبال وهى مكان فسيح به كثير من المرايا وأطقم المتكآت والارائك . أما غرفة الطعام التى كانت تصغرها بقليل فقد زودت بمائدة بيضاوية ومقاعد و « بوفيه » صنعت جميعها من خشب جميل أسود مصقول . وقد ملئت غرفة المفارش بخزائن بيضاء مصقولة داخل الجدران . وفى غرفة جلوس أخرى صغيرة أقيم (١) « بار » داخل كوة فى الحائط ــ « بار » حقيقى ذو رفوف لزجاجات الخمر وماكينة لصنع القهوة مكسوة بالنيكل ومنضدة من الزنك . وكان ذلك الركن أشبه بمعبد صغير وخاصة بسبب مدخله الخفيض ذى اللون الذهبى الذى كان يعزله عن بقية الغرفة . وسألت جينو أين كانوا يطهون طعامهم فأخبرنى ان المطبخ وغرف الخدم كانت فى « البدروم » . وكانت هذه أول مرة فى حياتى أدخل فيها منزلا من هذا النوع فلم أتمالك نفسى من لمس الاشياء بأصابعى وكأنى لا أستطيع أن أصدق عينى . كان كل شىء يبدو جديدا فى نظرى وقد صنع من مواد ثمينة ــ كالزجاج والخشب والرخام والمعادن والمنسوجات . ولم

(١) Bar كلمة انجليزية بمعنى مشرب الخمر

يسعني الا أن أقارن بين تلك الجدران وذلك الاثاث وبين ما فى منزلى من أرضيات قذرة وجدران علاها السواد واثاث واه متداع . وقلت لنفسى ان أمي كانت محقة عندما قالت ان المال هو كل ما يهم في هذه الدنيا . وخيل لى أن من يعيش بين كل هذه الاشياء الجميلة لا يتسيه بحال الا أن يكون هو نفسه جميلا خيرا . فأهل هذه الدار لا يمكنهم بحال أن يسكروا أو يتشاتموا أو يتصايحوا أو يتضاربوا أو يرتكبوا شيئا مما رايته فى منزلى وفى منازل أخرى شبيهة به .

وفى تلك الاثناء كان جينو للمرة المائة يشرح لى فى كبرياء خارجة عن المألوف أسلوب الحياة في مكان كهذا وكأنه يسبح فى المجد الذى يعكسه كل هذا الترف والثراء قائلا — « انهم يتناولون طعامهم فى صحاف من الخزف ولكنهم يملكون صحافا فضية للفاكهة والحلوى . أما السكاكين والشوك فكلها من الفضة . وهم يتناولون خمسة ألوان مختلفة من الاطعمة ويحتسون ثلاثة انواع من النبيذ . وفى المساء ترتدى سيدة الدار ثوبا مفتوح الصدر كما يرتدى السيد حلة سوداء للعشاء . وعندما يفرغون من تناول العشاء تقدم خادمة المائدة على صينية من الفضة سبعة أنواع من السجائر وكلها أصناف أجنبية بالطبع . ثم يغادرون غرفة الطعام الى حيث يتناولون القهوة و « الليكير » بأنواعه التى تقدم اليهم على تلك المائدة الصغيرة هناك ذات العجلات .. ولا يخلو المنزل مطلقا من الضيوف .. ويبلغ عددهم أحيانا اثنين وأحيانا أربعة ... وتملك السيدة بضع ماسات كبيرة هكذا ! وقلادة عجيبة من اللؤلؤ ... فلابد أنها تملك من المجوهرات ما قيمته بضعة ملايين ! »

فقاطعته قائلة فى تبرم :

— « لقد قلت لى ذلك من قبل » .

ولكنه لشد ما كان متحمسا حتى انه لم يلحظ ضيقى وتبرمى . ثم أردف قائلا :

— « والسيدة لا تهبط مطلقا الى « البدروم » — بل تصدر أوامرها بالتليفون . أما المطبخ فكل ما فيه يدار بالكهرباء . و المطبخ هنا انظف من غرف النوم عند معظم الناس . ولكن ليس المطبخ فحسب ! بل ان كلاب السيدة أكثر نظافة وأسعد حالا من أناس كثيرين » كان يتحدث في اعجاب بمخدوميه واحتقار للفقراء . ولشد ما شعرت بالفقر تارة بسبب تلك المقارنات التى لم أفتأ اعقدها بين ذلك المنزل ومنزلى وتارة بسبب كلامه .

ثم صعدنا الدرج الى الطابق العلوى . وكان جينو يحيط حصرى

بذراعه ويضمني اليه بقوة • ولسبب لا أدريه كان يخالجنى شعور باني سيدة الدار واني صاعدة مع زوجي الى الطابق العلوى فى طريقي لقضاء الليل معه في الفراش عقب حفل استقبال أو عشاء • فقال جينو وكأنه قد تكهن بما يدور في خلدى (وكان يمتاز دائما بسرعة البديهة) ـ « والآن دعينا نذهب للنوم معا ـ وغدا سيحملون الينا القهوة فى الفراش • » فأخذت اضحك ولكن كاد يراودنى الامــل فى أن يتحقق ذلك •

وكنت يومئذ مرتدية أفخر ثيابى للخروج مع جينو وكذلك اجمل ما عندى من الاحذية والسترات والجوارب الحريرية • وأذكر أن ثوبى كان يتألف من قطعتين : سترة سوداء وازار ذى مربعات سوداء وبيضاء • ولم يكن قماش الثوب بالغ السوء ولكن الخياطة التى قصته ـ وكانت تقيم فى حينا ـ لم تكن تفوق امى خبرة بكثير • فقد صنعت لى ازارا قصيرا للغاية كان من الخلف يقصر عنه من الامام حتى أنه على الرغم من تغطيته ركبتى كان يكشف من خلف عن فخذى اللتين تعرضتا للانظار • أما السترة فقد جعلتها ضيقة للغاية ذات طيتين عريضتين وكمين ضيقين للغاية كانا يؤلمان ابطى • فأحسست وكأنها ستنشق عن بدنى وقد برز صدرى الى الخارج كما لو كانت السترة تنقصها قطعة • وأما قميصى فكان بسيطا للغاية صنع من قماش أحمر رخيص وقد خلا تماما من التطريز كما بدا من خلاله شعارى القطنى الداخلى الابيض وكان أجمل ما أملك • وقد صنع حذائى الاســود اللامع من جلد جيد ولكن شكله كان قديم الطــراز • وكنت عارية الرأس فتهدل شعرى الكستنائى المموج على كتفى • ولشد ما كنت مزهوة بثوبي الذى أرتديه لاول مرة • وخيل لى أننى آية فى الاناقة ولم أتمالك نفسى من الاعتقاد أن كل من فى الطريق كان يستدير نحوى ليتأملنى • ولكننى ما كدت أدخل مخدع مخدومة جينو وأرى فراشها الوثير الضخم بغطائه الحريرى المطرز وملائه الكتانية المطرزة وكل هذه الستائر الهفهافة التى كانت تنسدل فى رفق ويسر فوق رأس الفراش .وما كدت أرى صورتى منعكسة ثلاث مرات فى المرآة الثلاثية القائمة فوق خوان الزينة فى طرف الحجرة حتى أدركت أننى أشبه فى ملبسى فزاعة الحقول • واذا بزهوى بما أرتديه من خلق يصبح مثيرا للسخرية والرثاء • وخيل لى أننى لن أســتطيع ادعاء السعادة مرة أخرى ما لم أرتد ثيابا جميلة وأسكن منزلا كهذا وكادت تراودنى الرغبة فى البكاء فجلست علي الفراش تنتابنى الحيرة ولا

أنبس ببنت شفة ٠
وسألني جينو قائلا وهو يجلس الى جانبي ممسكا بيدى ـ « ماذا دهاك ؟ »
فقلت ـ « لا شيء ٠ كنت أتأمل ابنة عم لى أعرفها من الريف ٠ »
فسألنى قائلا فى دهشة ـ « من هى ؟ »
فقلت مشيرة الى المرآة التي أمكننى أن أرى فيها صورتى جالسة على الفراش بجانب جينو ٠
ـ « ها هى ذى » والواقع أننا كنا نبدو كهمجيين أشعرين دخلا خطأ منزلا متمدينا ولكننى كنت أبشع منه منظرا ٠
وعندئذ أدرك جينو ذلك الشعور بالكآبة والحسد والغيرة الذى كان يعذبنى ٠
فقال لى وهو يحيطنى بذراعيه ـ « لا تنظرى الى صورتك فى تلك المرآة ٠ » كان يخشى على خططه أن تفسد ولم يدر أنه ما من شيء يمكن أن يلائم خططه أكثر من احساسي الحالى بالمهانة والتحقير ٠ وتبادلنا قبلة أحيت فى نفسى الشجاعة لاننى أحسست بأن هناك من أحبه ويحبنى قبل كل شيء ٠
ولكن ما لبث أن عاودنى احساسى بالحسد وشعورى بالفقر مما بعث فى نفسى اليأس الشديد عندما أرانى غرفة الحمام وكانت فسيحة فى حجم غرفة عادية بقرميدها الابيض اللامع وحوضها المثبت فى الحائط تعلوه صنابيره المكسوة بالنيكل وكذلك عندما فتح احدى الخزائن وأرانى ثياب مخدومته وقد ضاق بها المكان ٠ وفجأة استبدت بى الرغبة عن التفكير فى تلك الاشياء ٠ وأردت عن وعى أن أصير خليلة جينو لاول مرة وذلك أولا لكى أنسى حالتى وثانيا لكى أقنع نفسى بحريتى أنا أيضا وبقدرتى على أن أفعل ما أشاء على الرغم من ذلك الاحساس بالعبودية الذى كنت أرزح تحت عبئه ٠ فلم يكن فى امكانى أن أرتدى ملابس جميلة أو أقتنى منزلا كهذا ولكننى كنت أستطيع على الاقل أن أمارس الحب كما يمارسه الاغنياء وربما تفوقت عليهم فى ذلك ٠
فسألت جينو قائلة ـ « لماذا ترينى كل هذه الملابس ؟ ففيم تهمنى ؟ »
فأجابنى قائلا فى شيء من الارتباك ـ « خلتك تشتاقين الى رؤيتها ٠ »
فقلت ـ « لا يهمنى مرآها مطلقا ٠ انها جميلة ولكننى لم أحضر الى هنا لارى ملابس سيدتك ٠ »

ورأيت عينيه تتألقان وأنا أتكلم ٠
ثم أردفت قائلة فى عدم اكتراث ـ « أفضل أن أرى غرفتك ٠ »
فأجابنى قائلا فى حماس ـ « انها فى البدروم » ٠ هل نهبط اليها ؟ »
فتأملته لحظة فى صمت ثم سألته قائلة فى لهجـــة صريحة لم أعهدها فى نفسى وكانت بغيضة الى قلبى :
ـ « لماذا تدعى البلاهة معى ؟ »
فبدأ يتكلم فى قلق وقد استولت عليه الدهشة قائلا ـ « ولكننى »
فقلت ـ « انك أعلم منى باننا لم نأت الى هنا لمشاهدة المنزل أو للاعجاب بثياب مخدومتك بل لنأوى الى غرفتك حيث نمارس الحب ـ حسنا اذن فلنفعل ذلك دون مزيد من المواربة ٠ »
وبهذه الطريقة اذا بى بعد مشاهدتى المنزل أتبدل فى لحظة واحدة فأصير فتاة أخرى غير تلك الفتاة الخجول الساذجة التى دخلت الفيللا٠ ولشد ما دهشت لذلك التغيير حتى اننى كدت ألا أتعرف على نفسى ٠ فغادرنا الغرفة وبدأنا نهبط الدرج ـ وقد أحاط جينو خصرى بذراعه ثم أخذ يقبلنى عند كل درجة ـ ولا أحسب أحدا هبط درجا قط بمثل هذا البطء ٠ وعندما بلغنا الطابق الارضى فتح جينو بابا خفيا فى الحائط ثم قادنى وهو لا يزال يقبلنى ممسكا بى من خصرى عبر الدرج الخلفى المؤدى الى البدروم ٠ كان الوقت مساء والظلام سائدا فى « البدروم » ٠ وهناك بلغنا غرفة جينو فى نهاية دهليز طويل دون أن نشعل الاضواء وقد تخاصرنا بينما لم يزل فمه يعلو فمى ٠ ثم فتح الباب ودخلنا وسمعته وهو يغلقه خلفنا ٠ وقفنا هناك فى الظلام بعض الوقت ملتحمين فى قبلة ٠ وكانت قبلة لا نهائية فكلما شئت أن أتوقف عادو هو التقبيل وكلما شـاء أن يتوقف وجدتنى مستمرة فيه ٠ ثم دفعنى جينو تجاه الفراش فتهاويت عليه ٠
ولم يفتأ جينو يهمس فى أذنى بلغو عذب لذيذ وعبارات قصيرة مشجعة فى لهجة مثيرة للغاية هادفا فى وضوح الى أن يوقعنى فى الحـــيرة ويمنعنى فى الوقت نفسه من ملاحظته فى تلك الاثناء وهو يحاول تجريدى من ملابسى ٠ ولكن ذلك لم تكن له ثمة ضرورة اولا لاننى كنت قد حزمت أمرى على أن أهبه نفسى وثانيا لاننى كرهت كل تلك الملابس التى لشد ما كنت احبها من قبل وتاقت نفسى الى التخلص منها ٠ فقد خيل لى أننى ـ فى عريى ـ سأكون فى جمال مخدومة جينو ان لم أفقها جمالا هى وجميع من فى العالم من نساء ثريات ٠

وعلى أية حال فقد كان جسدى الان فى انتظار تلك اللحظة منذ شهور وأحسست به وهو يختلج على الرغم منى فى ضجر ورغبة مكبوتة كحيوان مكبل بالقيود يتضور جوعا ثم أطلق سراحه أخيراً بعد صيام طويل وقدم اليه الطعام ٠

لهذا السبب بدت لى عملية المضاجعة طبيعية للغاية ٠ ولم يشب لذتى الجسدية أى شعور بأننى أرتكب عملا غير مألوف ٠ بل على العكس فقد بدا لى أننى أصنع أشياء سبق لى أن مارستها ٠ ولكننى لم أدر أين ومتى ولعلنى مارستها فى عالم آخر تماما كما تبدو لنا أحيانا بعض المناظر الطبيعية مألوفة فى حين أننا نراها فى الواقع لاول مرة فى حياتنا ٠ ولكن ذلك لم يمنعنى من مضاجعة جينو فى عنف وضراوة فلم افتأ أقبله وأعضه وأهصره بين ذراعى حتى ليكاد يختنق ، كما بدا هو وقد هاجت حماسته حميا التملك نفسها ٠ فتضاجعنا فى عناق عنيف فى تلك الغرفة الصغيرة المظمة الثاوية أسفل طابقين من المنزل الصامت الخاوى ولم نفتأ نستحث جسدينا بطرق لا حصر لها كغريمين يصطرعان من أجل الحياة بينما يحاول كل منا أن يلحق الاذى بالاخر ما أمكنه ذلك ٠

ولكن ما أن هدأت رغبتنا واضطجعنا على الفراش جنبا الى جنب وقد عرانا التعب والخمول حتى ساورنى خوف شديد من أن جينو الآن وقد امتلكنى فلن يبغى الزواج بى بعد ذلك ٠ فبدأت أحدثه عن المنزل الذى سنقيم فيه بعد الزفاف ٠٠

ولشد ما تأثرت نفسيا بفيللا مخدومة جينو حتى صرت الآن مقتنعة تماما بأن السعادة لا يمكن أن توجد الا بين أشياء نظيفة جميلة ٠ كما أدركت أننا لن نستطيع أن نمتلك منزلا كهذا أو حتى غرفة واحدة فيه ٠ ولكننى مع ذلك أصررت على محاولة تذليل تلك الصعوبة بأن أوضحت له أن المسكن حتى ولو كان شقة متواضعة يمكن أن يبدو فاخرا اذا ما لمع كالمرآة ٠ فقد بعث فى ذهنى بريق الفيللا أكثر من رفاهيتها خليطا مضطربا من الخواطر ٠ فحاولت أن أقنع جينو بأن النظافة يمكن أن تضفى جمالا حتى على الاشياء القبيحة ٠ ولكننى فى الحقيقة كنت أبغى اقناع نفسى بذلك لاننى كنت فى يأس من فقرى وكنت أعلم أن زواجى بجينو هو السبيل الوحيد للخلاص منه ٠ قلت — « يمكن أن يكون البيت جميلا حتى ولو كان يتألف من غرفتين فقط ! اذا ما عنى بهما كما يجب وغسلت أرضيتهما كل يوم ونفض الغبار عن أثاثهما وجلى النحاس وروعى التنسيق والترتيب فى كل

شيء فوضعت الصحاف فى مكانها المخصص لها ومنافض الغبار فى أماكنها الملائمة والملابس والاحذية كل فى مكانه المناسب • أهم شيء هو الكنس باتقان وغسل الارضيات وتنظيف كل شيء يوميا • كما يجب ألا يتخذ من المنزل الذى أسكنه أنا وأمي مقياسا لحكمه ـ فأمي لا تراعى النظام وعلى أية حال فهذه المسكينة ليس لديها الوقت لذلك أما منزلنا فسوف يلمع كالمرآة • ويمكننى أن أتعهد لك بذلك • »

فقال جينو ـ « نعم • نعم • فالنظافة تأتى فى المقام الاول • أتدرين ماذا تفعل مخدومتي عندما تجد ذرة من التراب فى أحـــد الاركان ؟ تنادى الخادمة المختصة وتجعلها تجثو على الارض وتلتقطها بيديها ـ كما تفعلين مع الكلاب عندما تترك قذرها فى المنزل • وهى محقة في ذلك تماما • »

قلت ـ « انى واثقة أن منزلى سيكون أنظف وأجمل من ذلك • وسترى • »

فقال مشاكسا ـ « ولكنك ستكونين نموذجا للفنانين ولن تعبأى بالمنزل مطلقا • »

فأجبته قائلة فى حدة ـ « نموذجا ! لن اكون نموذجا بعد ذلك •• بل سأبقى فى المنزل طوال النهار أرعى لك نظافته ونظامه وأطهو لك طعامك •• ان أمى تزعم أن هذا معناه أننى سأكون خادمتك •• ولكنك اذا أحببت شخصا فانه لما يسرك أن تكون خادما له • »

وهكذا ظللنا نتحدث زمنا طويلا فزايلنى خوفى رويدا رويدا وحلت محله ثقتى المعهودة في الناس بسحرها وبراءتها • كيف يمكننى أن أرتاب فيه ؟ فان جينو لم يوافقنى على كل خططى فحسب بل أخذ يناقش معى تفاصيلها ويعدل فيها ويضيف اليها من عنده • وأعتقد أننى سبق أن قلت انه حينذاك كان بلا ريب مخلصا الى حد ما • ولما كان كذابا فقد انتهى به الامر الى تصديق أكاذيبه •

وبعد ثرثرة استمرت ساعتين أو ما يقرب من ذلك استغرقت فى اغفاءة كما أعتقد أن جينو أيضا استغرق فى النوم • ثم ايقظنا شعاع من ضوء القمر تسلل الينا من خلال نافذة البدروم فأضاء الفراش وكذلك جسدينا الراقدين هناك • وقال جينو اننا بلا ريب فى ساعة متأخرة للغاية • وفى الواقع فان المنبه الموضوع على المنضدة المجاورة للفراش كان يشير الى ما بعد منتصف الليل بدقائق • فهتفت قائلة وأنا أقفز من الفراش مبتدئة فى ارتداء ملابسى ـ « ترى ماذا تفعل بى أمى ؟! »

- « لماذا ؟ »
- « لانى لم أتأخر قط فى الخارج الى مثل هذه الساعة - بل انى لا أخرج مطلقا فى المساء . »
فقال جينو وهو ينهض ايضا - « يمكنك أن تقولى لها اننا خرجنا للنزهة فى السيارة . فأصابها خلل ونحن فى وسط الريف . »
- « انها لن تصدقنى . »
أسرعنا بالخروج من الفيللا وصحبنى جينو فى السيارة الى المنزل. كنت واثقة بأن أمى لن تصدق قصة السيارة وما أصابها من عطب. ولكننى لم أتخيل أنها ستهتدى ببديهتها الى ما وقع بالضبط بينى وبين جينو - وكان معى مفتاحا الباب الامامى وباب الشقة . فدخلت الدار ثم ركضت صاعدة مرحلتى الدرج وفتحت باب الشقة ، وكنت آمل أن تكون أمى قد أوت الى فراشها وقوى أملى عندما وجدت المنزل غارقا فى ظلام دامس . فأخذت أمشى على أطراف أصابعى تجـاه غرفة النوم دون أن أشعل الضوء عندما أحسست فجأة بيد تقبض على شعرى فى عنف . وجذبتنى أمى فى الظلام فقد كانت يدها هى التى أمسكت بى وسحبتنى الى غرفة الجلوس حيث ألقت بى على الاريكة وأخذت تضربنى بقبضتيها وقـد عصف بها الغضب دون أن تنبس قط بكلمة واحدة . فحاولت الدفاع عن نفسى بذراعى ولـكن أمى كانت لا تفتأ تجد طريقها الى وجهى من تحت ذراعى موجهة اليه لكماتها القاسية وكأنه كان يمكنها أن تتبين ما كنت أفعله . وأخيرا حل بها التعب وأحسست بها وهى تجلس بجانبى على الاريكة لاهثة فى عنف ثم نهضت وذهبت لتضىء المصباح فى وسط الغرفة وعادت لتجلس الى جانبى وقد وضعت يديها على ردفيها محملقة فى . ولشد ما أحسست بالخجل والارتباك وهى تراقبنى . فحاولت أن أجـذب ازارى الى أسفل وأن أصلح من هندامى بعد ما أصابنى فى ذلك العراك .
قالت بصوتها المعهود - « أراهن أنك كنت تمارسين الحب مع جينو . »
وأردت أن أقول نعم هذا صحيح ولكننى خشيت أن تعاود ضربى . والآن وقد انتشر الضوء فقد كان خوفى من احكام ضرباتها أكثر من خوفى من الالم فى حد ذاته . اذ كنت أكره أن أسير بكدمة فى عينى وخاصة أمام جينو .
فأجبتها قائلة - « كلا لم نفعل - بل طرأ خلل على السيارة أثناء

نزهتنا فتعطلنا فى الطريق • »
- « وأنا أقول انكما كنتما تمارسان الحب • »
- « لم نفعل » •
- « بل فعلتما - اذهبى وانظرى الى صورتك فى المرآة فوجهك أخضر اللون ! »
- « انى متعبة - ولكننا لم نكن نمارس الحب • »
- « بل كنتما تفعلان • »
- « لم نفعل • »

وقد أدهشنى وأزعجنى الى حد ما أنها كانت أثناء اصرارها على هذه الصورة لا تكشف عن غضب بل عن فضول قوى راجح للغاية • وبعبارة أخرى فقد أرادت أمى أن تعرف ما اذا كنت قد أسلمت نفسى لجينو لا لتنزل بى العقاب أو لتنحى علىّ باللائمة بل لغرض خفى فى نفسها كان لابد لها أن تعلم • ولكننى أدركت ذلك بعد فوات الاوان• ومع أننى كنت الآن واثقة من أنها لن تضربنى مرة أخرى فقد واصلت انكارى فى عناد • وفجأة خطت أمى الى الامام وهمت بأن تمسك بى من ذراعى • فرفعت يدى لاتقى بها الضرب ولكنها لم تزد على أن قالت :

- « لن ألمسك - فلا تخافى • هيا معى • »

لم أفهم أين كانت تريد أن تصحبنى • ولكن لما كان الذعر قد أطار صوابى فقد امتثلت لها على الرغم منى • فقادتنى الى خارج الشقة وهى لا تزال ممسكة بذراعى ثم جعلتنى أهبط الدرج ورافقتنى الى الطريق الذى كان مقفراً فى ذلك الوقت من الليل • وأدركت على الفور أن أمى كانت تعجل بى على الافريز تجاه الضوء الاحمر الصغير المشتعل خارج الصيدلية حيث كان مقر الاسعاف • وعندما بلغنا عتبة الصيدلية بذلت محاولة أخيرة لمقاومتها وثبت قدمى فى الارض ولكنها دفعتنى الى الامام فدخلت منهارة أكاد أسقط على ركبتى • وكانت الصيدلية خالية الا من الصيدلى وطبيب شاب •

فقالت أمى للطبيب - « هذه ابنتى وأريدك أن تفحصها • »

فأدخلنا الطبيب فى الغرفة الخلفية حيث كان هناك مضجع الفحص •

وسألها الطبيب قائلا - « خبرينى ماذا حدث - ولماذا ينبغى أن أفحصها ؟ »

فصاحت أمى قائلة - « كانت تضاجع خطيبها • تلك البغى

الصغيرة • وتدعى أنها لم تفعل • أريدك أن تفحصها وتصارحنى بالحقيقة • »

فوجد الطبيب الامر مسليا وارتعشت شفتاه وهو يبتسم قائلا — « ولكن هذا ليس تشخيصا لمرض — بل هى حالة من شأن اخصائى — »

فأجابته أمى قائلة وهى لا تفتأ تصيح بأعلى صوتها — « سمها ما شئت • ولكننى أريدك أن تفحصها — ألست طبيبا ؟ أليس من واجبك أن تفحص من يطلبون اليك ذلك ؟ »

فالتفت نحوى قائلا — « هدئى من روعك — ما اسمك ؟ »

فأجبته قائلة — « آدريانا • »

كنت أشعر بالخجل ولكن فى غير عمق • فقد اشـــتهرت أمى فى الحى كله بمشاجراتها كما اشتهرت أنا بهدوء طبعى •

ثم واصل الطبيب حديثه قائلا وقد بدأ لى انه أحس بارتباكى فأخذ يحاول تجنب اجراء الفحص — « ولنفرض أنها فعلت ؟ فأى ضرر فى ذلك ؟ فهما سيتزوجان فيما بعد وينتهى كل شىء على ما يرام • »

— « ليس هذا من شأنك • »

فردد الطبيب قائلا بلهجة محببة — « هدئى من روعك ! هدئى من روعك ! » ثم التفت نحوى قائلا — « أنت ترين أن أمك ترغب فعلا فى ذلك — اذن فلتخلعى ملابسك • فلن يستغرق فحصك لحظة واحدة • ثم يمكنك الانصراف • »

فاستجمعت شجاعتى كلها وقلت — « حسنا • اذن فقد مارست الحب • فلنعد الى المنزل يا أماه • »

فقالت بلهجة آمرة — « كلا يا عزيزتى ! فلابد من فحصك • »

فتركت ازارى يسقط على الارض مستسلمة وتمددت على المضجع ففحصنى الطبيب • ثم قال لامى — « كنت على حق • فقد فعلت • والان أراضية أنت ؟ »

فسألته أمى قائلة وهى تخرج كيس نقودها — « كم تريد ؟ » وفى تلك الاثناء كنت قد انزلقت عن الفراش وارتديت ملابسى من جديد• ولكن الطبيب رفض أن يأخذ أجرا •

سألنى قائلا — « أتحبين خطيبك ؟ »

فأجبت — « بالطبع • »

— « ومتى تتزوجين ؟ »

فصاحت أمى قائلة ـ « انه لن يتزوجها • » ولكننى أجبته فى هدوء قائلة ـ « قريبا ـ عندما نعد أوراقنا • »
لابد أن عينى كانتا تفيضان بالثقة الساذجة مما جعل الطبيب يضحك فى كثير من السماحة ثم ربت على خدى فى رفق ودفعنا الى الخارج •
وتوقعت أن تمطرنى أمى بالاهانات حالما نبلغ المنزل بل ربما عاودت ضربى • ولكنها بدلا من ذلك اذا بها تشعل موقد الغاز فى صمت وتعد لى شيئا من الطعـــام • فوضعت طاســـة على المـــوقد ثم دخلت غرفة الجلوس حيث ازالت القصاصات المعهودة عن طـــرف المائدة وهيأت لى مكانا • وكنت جالسة على الاريكة التى سحبتنى اليها من شعرى قبل ذلك بفترة وجيزة ورحت أراقبها فى صمت • ولشد ما انتابتنى الدهشة لا لانها لم تؤنبنى فحسب بل لان وجهها كله كان ينعكس عليه رضا واضح متدفق على صورة غريبة • وعندما انتهت من اعداد المائدة عادت الى المطبخ ثم ما لبثت أن جاءت تحمل صحفة فى يدها قائلة :
ـ « والآن اطعمى • »
وكنت فى الواقع أتضور جوعا • فنهضت وذهبت لاجلس فى شىء من الارتباك على المقعد الـــذي كانت تجثنى أمى للجلوس عليه • وكانت الصحفة تحتوى على قطعة من اللحم وبيضتين وهو عشاء غير مألوف •
فقلت ـ « هذا أكثر مما ينبغى • »
فأجابتنى قائلة ـ « كلى ـ فهذا مفيد لك ـ انك فى حاجة الى الطعام • »
ولشد ما كان اعتدال مزاجها خارجا عن المألوف • ربما كان فيه شىء من الخبث ولكنه لم يكن معاديا البتة • ثم أردفت قائلة بعد فترة وجيزة ولكن لهجتها أوشكت أن تخلو من المرارة والحقد :
ـ « لم يفكر جينو فى اعطائك شيئا من الطعام • هه ؟ »
لأجبتها قائلة ـ « لقد استغرقنا فى النوم. وبعد ذلك فاتنا الوقت. »
لم تنبس ببنت شفة بل وقفت تراقبنى أثناء تناولى الطعام • ثم مضت لتتناول طعامها وحدها فى المطبخ . فقد مضى زمن طويل الآن منذ أن توقفت أمى تماما عن تناول طعامها معى على نفس المائدة • وكان طعامها دائما يقل عن طعامى فاما أن تأكل فضلاتى أو طعاماآخر

يقل جودة عن طعامى . فقد كنت فى نظرها شيئا رقيقا ثمينا بل مخلوقا ينبغى أن يعامل بكل رعاية فليس لها فى الدنيا سواه . والآن لم تعد تدهشنى منذ بعض الوقت عبوديتها لى فى تملق واعجاب . ولكن رضاها الهادىء حينذاك بعث فى نفسى احساسا بالقلق لم أسترح اليه .

قلت بعد فترة وجيزة ـ « انك غاضبة منى لاننا مارسنا الحب ـ ولكنه وعدنى بالزواج . فلن نلبث أن نتزوج . »

فأجابتنى قائلة على الفور ـ « لست غاضبة منك . ولكن الغضب قد استبد بى حينذاك لانى ظللت أنتظرك طوال المساء وكنت منزعجة ـ ولكن دعك من هذا الآن ـ واطعمى . »

غير ان لهجتها المراوغة والمطمئنة فى خداع التى يستخدمها الناس فى مخاطبة الاطفال عندما يمتنعون عن اجابة اسئلتهم بعثت فى نفسى مزيدا من الشك .

فألححت قائلة ـ « لم ؟ ألا تصدقين أنه سيتزوجنى ؟ »

ـ « نعم . نعم . أصدق . ولكن أستمرى فى طعامك . كلى . »

ـ « كلا . أنت لا تصدقين . »

ـ « بل أصدق . لا تنزعجى . كلى . »

فقلت وقد دفعتنى لهجتها الى السخط ـ « لن آكل بعد ذلك حتى تصارحينى بالحقيقة ـ لماذا يبدو عليك كل هذا السرور ؟ »

ـ أنا لست مسرورة . »

ثم التقطت الصحفة الفارغة وحملتها الى المطبخ . فانتظرت حتى عادت ثم رددت قائلة

ـ « هل أنت فرحة ؟ »

فتأملتنى فى صمت فترة طويلة ثم أجابتنى قائلة بلهجة جادة منذرة « نعم . انى فرحة . »

ـ « لماذا ؟ »

ـ « لانى الآن على ثقة تامة من أن جينو لن يتزوجك . ولسوف ينبذك . »

ـ « ولكن لماذا لا يتزوجنى ؟ فلابد من سبب . »

ـ « لن يتزوجك ولسوف يهجرك ـ انه سيلهو بك قليلا ولكنه لافلاسه لن يعطيك شيئا . ثم يهجرك بعد ذلك . »

ـ « أهذا هو ما يفرحك على هذه الصورة ؟ »

ـ « بالطبع ! لاننى الآن على ثقة تامة من أنكما لن تتزوجا . »

فهتفت قائلة فى استياء وسخط ــ « ولكن فيم يهمك هذا ؟ »
فقالت فجأة ــ « لو انه يبغى الزواج بك لما ضاجعك . لقد ظللت مخطوبة لابيك مدة عامين ولم يزد على تقبيلى مرة أو اثنتين وذلك قبل زواجى ببضعة شهور ــ سيقضى معك وقتا طيبا ثم يهجرك ويمكنك أن تتاكدى من ذلك ! وأنا فرحة لهذا لانه لو تزوجك لكان فى ذلك دمارك . »

لم يسعنى الا ان أعترف بينى وبين نفسى بأن امى محقة فى بعض ما تقول فاغرورقت عيناى بالدموع .

قلت ــ « انى أعرف الحقيقة . فأنت تأبين تمـــاما أن تكون لى اسرة . وتفضلين أن أحذو فى حياتى حذو آنجلينا ! » وكانت انجلينا فتاة فى حينا احترفت البغاء علنا بعد أن فسخت خطبتها مرتين أو ثلاثا .

فأجابتنى فى خشونه قائلة ــ « أريدك أن تكونى ميسورة الحال . » ثم التقطت الصحاف وحملتها الى المطبخ لتغسلها . وعندما خلوت الى نفسى بدات أفكر فى كلماتها فى شىء من الامعان . وقارنت بينهـــا وبين وعود جينو وسلوكه فلم اشعر أن أمى يمكن بحال أن تكون على حق . ولكنها بلبلت أفكارى بيقينها ونظرتها الهــــادئة المرحة التى تتطلع بها الى المستقبل . وكانت فى أثناء ذلك تغسل الصحاف فى المطبخ ثم سمعتها وهى تضعها على منضدة المطبـــــخ ثم تأوى الى مخدعها . وبعد فترة وجيزة ذهبت لانضم اليها فى الفراش يراودنى شعور بالكآبة والتعب .

وفى اليوم التالى تساءلت عما اذا كان ينبغى أن أطلع جينو على وساوس أمى . ولكننى بعد تردد كثير قررت ألا أفعل . وفى الواقع فلشد ما كنت أخشى أن يتركنى جينو كما نوهت أمى حتى أننى لم أجرؤ على مصارحته برأيها خوفا من أن أضع الفكرة فى رأسه . وأدركت لاول مرة أن المرأة باستسلامها للرجل تضع مصيـرها بين يديه ولا تجد بعد ذلك الوسيلة التى ترغمه بها على التصرف طبقـا لرغبتها . ولكننى كنت لا أزال مقتنعة بأن جينو لن يحنث بوعده . وما ان قابلته حتى عزز سلوكه من اقتناعى .

لاشك أننى كنت أتطلع باشتياق الى أحضان عناقه الكثـــيرة ومداعباته ولكننى كنت أخشى الا يذكر الزواج أو يتحدث عنه بطريقة غامضة فحسب . ولكنه بدلا من ذلك اذا به يخبرنى حالما وقفت السيارة فى الطريق المعهود انه حدد موعدا للزفاف فى مدى خمسة

أشهر لا يتأخر عنه يوما واحدا • ولشد ما سرني ذلك حتى أنني لم أتمالك نفسي من الانفجار قائلة وكأن آراء أمي هي ارائي — « أتدري ماذا خيل لي ؟ انك ستهجرني بعد ما حدث أمس • »

فقال نعلو وجهه نظرة مستاءة — « ماذا بالله — ! أتحسبينني وغدا ؟ »

— « كلا • ولكنني أعلم أن هذا سلوك الكثيرين • »

ولكنه واصل حديثه مركزا على اجابتي قائلا — « أتعلمين أن ظنك في كان يمكن ان يسيئني • ماذا تحسبينني ؟ أهكذا تحبينني ؟ »

فقلت في سذاجة — « لا شك اني احبك • ولكنني خشيت ألا تحبني بعد ذلك — »

— « وهل أظهرت لك في أية صورة من الصور حتى الآن انني لا أحبك ؟ »

— « كلا — ولكنك لا يمكن أن تتكهن • »

فقال فجأة — « أصغي الي • لقد اثرت غضبي الى حد أنني سأصحبك رأسا الى المرسم • » ثم هم بتحريك السيارة في الحال

فانتابني الرعب وألقيت بذراعي حول عنقه متوسلة اليه ألا يفعل ذلك قائلة — « كلا يا جينو ماذا دهاك ؟ كنت أتكلم فحسب — ولتنس ما حدث • »

— « عندما ترددين أشياء معينة فمعنى ذلك أنك تؤمنين بها • ولو آمنت بها فمعنى ذلك أنك لا تحبينني •• »

— « ولكنني أحبك بلا شك • »

فقال متهكما — « أما أنا فلا أحبك • ولم أزد على العبث بك كما تقولين منتويا هجرك — ومن الغريب أنك لم تلحظي ذلك حتى الآن •»

فهتفت منفجرة في البكاء قائلة — « ولكن لماذا تحدثني بهذه الطريقة يا جينو ؟ ماذا فعلت لك ؟ »

فقال محركا السيارة — « لا شيء • ولكنني سأصحبك الآن الى المرسم • »

وانطلقت السيارة بينما جلس جينو الى عجلة القيادة منتصب القامة تبدو عليه سيماء الجد • فانهرت تماما ورحت أبكي وأنا أراقب الاشجار وعلامات الطريق وهي تمضي مسرعة أمام النافذة ورأيت في الافق فيما وراء الحقول اشباح المنازل الاولى في المدينة • وتخيلت كيف ستفرح أمي لشجارنا لو علمت به واكتشفت أن جينو قد هجرني كما تنبأت • فدفعني اليأس الى أن أفتح باب السيارة وأتكيء

الى الخارج صائحة ـ « أما أن تقف السيارة أو ألقى بنفسى منها ! »
فنظر الى وأبطأ من سرعة السيارة الى أن أوقفها تماما في منعطف جانبى خلف تل صغير تعلوه بعض الانقاض • ثم أسكت المحرك وجذب الفرملة واستدار نحوى قائلا فى ضجر :
ـ « حسنا • هات ما عندك ـ هيا ـ »
ولما كنت أعتقد أنه ينوى هجرى حقا فقد بدأت أتكلم فى انفعال وحماسة مما يثير اليوم فى نفسى السخرية والتأثر عندما استعيده فى ذاكرتى • فقد أوضحت له مبلغ حبى له بل بلغ بى الامر أن قلت انه لا يعنينى زواجنا ما دمت أستطيع أن أكون عشيقة له • فأنصت الى بوجه حزين وهو لا يفتأ يهز رأسه مرددا بين الحين والحين ـ « كلا • كلا ـ فلا جدوى اليوم ـ ولعل نفسى تصفو غدا • » ولكننى عندما قلت انه يكفينى أن أكون عشيقة له أجابنى قائلا فى حزم : ـ « كلا • فلابد من الزواج والا لا شىء • » وظللنا نتجادل بعض الوقت على هذه الصورة بينما كان بمنطقه المعوج كثيرا ما يدفعنى الى اليأس ويجعلنى أبكى من جديد • ثم بدا لى أنه أخذ يغير من موقفه العنيد رويدا رويدا • وأخيرا بعد أن قبلته وعانقته عبثا بدا لى أننى أحرزت نصرا عظيما عندما أقنعته بترك المقعد الامامى للسيارة ومضاجعتى على المقعد الخلفى فى وضع غير مريح كان أسرع مما ينبغى بالنسبة لى ومرهقا للغاية • وذلك لشدة رغبتى فى ارضائه • وكان يجب أن أدرك أننى بسلوكى على هذه الصورة لم أحرز نصرا بأى معنى من المعانى بل على العكس كنت أمكن له من السيطرة على لاننى أظهرت له استعدادى لان أهبه نفسى لا لاننى أحبه فحسب بل بغية استرضائه واقناعه عندما تخوننى الحجة ـ وهذا هو بالضبط ما تفعله النساء جميعا عندما يقعن فى الحب دون أن يثقن من تبادله • ولكن سلوكه الرائع الذى اوحى به مكره قد أعمى بصيرتى تماما • فكان لا يفتأ يفعل ويقول نفس الاشياء التى ينبغى عليه أن يفعلها ويقولها • ولم أدر لقلة خبرتى أن مثل هذا الكمال لم يكن يتصف به ذلك الرجل الماثل أمامى بلحمه ودمه بقدر ما كانت تتصف به شخصية العاشق التقليدية التى أحملها فى ذهنى •

ولكن موعد الزفاف كان قد تحدد وبدأت أركز ذهنى فى الحال على الاستعداد له • فاستقر رأيى بالاتفاق مع جينو على أن نقيم أولا مع أمى • فقد كانت الشقة تحوى غرفة رابعة بالاضافة الى غرفة الجلوس والمطبخ وغرفة النوم ولكن أمى لم تؤثثها قط لافتقارها الى

المال • وكنا نحتفظ فيها بحطام المهملات التى لا جدوى منها • ويمكنكم أن تتخيلوا حطام المهملات فى منزل كمنزلنا الذى يبدو كل ما فيه حطاما لا جدوى منه • وبعد مناقشة الموضوع الى ما لا نهاية وضعنا حداً أدنى لاحتياجاتنا – فاننا سنؤثث هذه الغرفة الوحيدة وأعد لنفسى شيئا من جهاز العرس • وكنت أعلم أن أمى رغم فقرنا الشديد قد ادخرت شيئا وأنها انما كافحت لتجمع المال وتدخره من أجلى لكى نكون على أهبة الاستعداد كما قالت لمواجهة أى طارىء • أما عن كنه هذا الطارىء بالضبط فذلك أمر لم يمكن تحديده فى جلاء قط • ولكنه بالطبع لم يكن زواجى من رجل فقير ذى مستقبل غير مستقر • فذهبت الى أمى قائلة :

– « أليس هذا المال الذى ادخرته من أجلى ؟ »

– « نعم • »

– « حسنا اذن فلتعطينى أياه الان اذا كنت تريدين لى السعادة لكى نؤثث الغرفة التى يمكننا أنا وجينو أن نقيم فيها – فان كنت حقا قد ادخرته من أجلى فقد آن الاوان لانفاقه • »

وكنت أتوقع منها أن تجادلنى وتناقشنى ثم ترفض فى النهاية رفضا صريحا • ولكن أمى بدلا من ذلك رحبت بالاقتراح فى حماسة مبدية مرة أخرى نفس الهدوء المتهكم الذى لشد ما بلبل خواطرى فى ذلك المساء الذى ذهبت فيه أنا وجينو الى الفيللا •

ولم تزد على أن سألتنى قائلة – « وهل سيسهم هو بشىء فى ذلك ؟ »

فكذبت قائلة – « نعم بالطبع • لقد صرح بذلك فعلا – ولكننى أيضا يجب أن أسهم بشىء • »

كانت تحيك القمصان بالقرب من النافذة فتوقفت عن عملها لكى تحدثنى قالت – « أدخلى غرفتى وافتحى الدرج العلوى فى الخزانة حيث تجدين صندوقا من « الكرتون » يحوى دفتر الادخار وكذلك ما أملكه من قطع الذهب • خذى الدفتر والذهب جميعا • ففى وسعك أن تستحوذى عليهما • »

أما قطع الذهب فلم تكن كبيرة القيمة – وهى تتألف من خاتم وقرطين وسلسلة صغيرة • ولكن ذلك الكنز الصغير المخبأ فى خلق بال والذى لم يكن يلمح الا فى ظروف غير عادية كان يثير خيالى منذ طفولتى • فاحتضنت أمى باندفاع تلقائى ولكنها دفعتنى بعيدا عنها لا فى خشونة بل فى برود قائلة :

– « حذار – فالابرة فى يدى – وربما وخزتك • »

ولكننى لم أسعد بذلك • فلم يكن يكفينى أنى حصلت على ما أريد وأكثر •

بل كنت أريد أيضا أن تشاركنى أمى سعادتى • فقلت – « أماه • ان كنت تفعلين ذلك لارضائى فحسب فأنا لا أريده • »

فأجابتنى وهى تعود الى عملها قائلة – « طبعا أنا لا أفعل ذلك لارضائك • »

فسألتها قائلة فى رقة – « أنت لا تصدقين حقا أننى سـأتزوج جينو • أليس كذلك ؟ »

– « لم أصدق هذا قط • واليوم أكذبه أكثر من أى وقت مضى • »

– « اذن فلماذا تعطينى النقود لتأثيث الغرفة ؟ »

– « ليس هذا تبديدا للمال • فستبقى الاثاثات والبياضات ملكا لك على الدوام – فاما المال أو السلع وكلاهما شىء واحد • »

– « ألا تأتين معى لزيارة المحال واختيار ما نريد من أشياء ؟ »

فصاحت قائلة – « يا الهى ! انا لا أريد أن يكون لى شأن بهذا كله ! فافعلى ما شئت واذهبى حيثما شئت وانتقى ما شئت – فأنا لا أريد أن أعرف شيئا • »

كانت فى الحقيقة لا تقبل التفاهم مطلقا فى موضوع زواجى • وأدركت أن عدم قابليتها للتفاهم لم تكن ترجع الى رأيها فى أخلاق جينو من ناحية أساليبه ووسائله بقدر ما كانت ترجع الى طريقتها فى النظر الى الحياة • كان موقفها خاليا تماما من كل حقد بل كان لا يعدو أن يكون ثورة مطلقة على كل الاراء التى تواضع عليها الناس • فالنساء الاخريات يتمنين فى شوق لو تزوجت بناتهن • أما أمى فكانت تتمنى بنفس الشوق ألا أفعل • وقد مضى الان زمن طويل على موقفها هذا •

وهكذا كان هناك نوع من التحدى الصامت بينى وبين أمى • فقد كانت تبغى أن يفشل زواجى وأن أقتنع ببراعة خططها • وكنت أبغى أن يتم الزواج وأن تقتنع أمى بصحة نظرتى للامور • وعلى ذلك فقد تشبثت فى مزيد من الحماسة بالامل فى الزواج • وكنت كمن يراهن فى يأس بحياته كلها على ورقة واحدة • ولم افتأ أحس فى مرارة بأن أمى كانت تراقب جهودى وتتمنى فشلها بينها وبين نفسها •

ولا يفوتنى أن أذكر هنا أن سلوك جينو الذى لا تشوبه شائبة لم يطرأ عليه خلل قط ولا حتى أثناء استعداداتنا للزفاف • وقد سبق

أن قلت لامى ان جينو أسهم بنصيب فى النفقات ولكننى لم أصدقها القول لانه حتى ذلك الحين لم يكن قد لمح قط الى مثل هذا الامر فعندما عرض على جينو دون أن أطلب اليه مبلغا صغيرا من المال لمساعدتى تولتنى الدهشة وفرحت فى نفس الوقت فرحا شديدا ٠ وقد اعتذر لى عن ضآلة المبلغ بقوله انه لا يمكنه أن يعطى المزيد لاضطراره فى معظم الاحيان الى ارسال نقود الى اسرته ٠ واليوم عندما أفكر فى عرضه لا يمكننى أن أجد تفسيرا آخر لذلك سوى اعتزازه الشديد بتفانيه فى الدور الذى قرر أن يلعبه ٠ ولعل منشأ هذا التفانى أنه كان نادما على خداعه أياى وآسفا لعجزه عن الزواج بى وهو ما كان يريده فعلا حينذاك ٠ فأسرعت الى أمى ظافرة أخبرها بعرض جينو ٠ فلم تزد على أن علقت قائلة انه مبلغ ضئيل للغاية ـ ولكنه لم يكن ضئيلا الى الحد الذى يظهره بمظهر الفقير المعوز بل كان فيه ما يكفى لذر الرماد فى عينى ٠

ولشد ما كنت سعيدة فى تلك الفترة من حياتى ٠ فقد تعودت ان التقى بجينو كل يوم ٠ وكنا نمارس الحب حيثما أمكننا ذلك ـ على المقعد الخلفى للسيارة أو أثناء وقوفنا فى ركن مظلم فى أحد الشوارع المقفرة أو فى أحد حقول الريف أو فى الفيللا مرة أخرى فى غرفة جينو ٠ وذات ليلة بعد أن صحبنى الى المنزل مارسنا الحب على بسطة فى الظلام مفترشين الارض خارج الباب الامامى لمنزلنا ٠ ومرة أخرى مارسنا الحب فى السينما متعانقين فى المقاعد الخلفية الى اليمين أسفل غرفة العرض تماما ٠ وكان يستهوينى أن أندس فى زحام الترام والاماكن العامة وهو واقف الى جوارى لان الناس كانوا يدفعوننى نحوه فانتهز الفرصة لاضغط بجسدى على جسده ٠ وكنت لا أفتأ أحس بالرغبة فى أن أضغط يده أو أعبث بشعره أو أدغدغه بطريقة ما أينما كنا حتى فى حضور آخرين وأنا أكاد أخدع نفسى بأن حركتى لن تلفت الانظار كما نفعل دائما عندما نستسلم لعاطفة غلابة لا يمكن مقاومتها ٠ وكانت عملية المضاجعة تبهجنى ٠ ولعل تعلقى بها فى حد ذاتها كان أقوى من تعلقى بجينو لاننى كنت أحس بنفسى مدفوعة اليها لا بمشاعرى نحو جينو فحسب بل كذلك باللذة التى كنت أجدها فيها ٠ ولم يخطر على بالى بالطبع أنه يمكننى أن أجد مثل هذه اللذة مع أى رجل آخر عدا جينو ٠ ولكننى أدركت بطريقة غامضة أن ما كنت أبثه فى مداعباتى من حماسة ومهارة وعاطفة لم يكن مرجعه ما بينى وبين جينو من حب فحسب بل كانت

حركاتى تتميز بطابع خاص وكأننى أوتيت موهبة المضاجعة التى كانت ستكشف عن نفسها ان عاجلا او آجلا حتى بغير جينو ٠

ولكن فكرة الزواج كانت تحتل المقام الاول ٠ ولكى أدخر بعض النقود أخذت أساعد أمى بكل قواى وكثيرا ما كنت أسهر الى ساعة متأخرة من الليل ٠ وكنت فى أثناء النهار حين أفرغ من الوقوف فى المراسم أطوف بالمحال فى صحبة جينو لاختيار أثاثنا واقمشة جهازى٠ وكنت لا أملك سوى مبلغ صغير ولهذا السبب بعينه كنت أبحث فى مزيد من العناية ومزيد من التدبير والتفكير ٠ فكنت اطلب الى الباعة أن يعرضوا على الاشياء التى أعلم اننى لا أستطيع شراءها ، وأقلبها بين يدى فى تمهل مناقشة قيمتها ومساومة فى سعرها ٠ ثم أتظاهر بعد ذلك بعدم الرضا أو أعدهم بالعودة ثم أغادر المحل دون أن أشترى شيئا ٠ وقد أثبتت لى تلك الحملات الجنونية التى كنت أشنها على المحال وذلك الفحص المرهق للسلع التى لا يمكننى شراؤها صدق ما كانت تقوله أمى دون أن تدرك ذلك ــ من أنه لا سبيل الى السعادة بدون المال ٠ وكانت تلك هى المرة الثانية التى أرى فيها بعد زيارتى للفيللا ما يمكن أن يكون عليه نعيم الثراء ٠ ولما كنت أحس بأننى مبعدة عنه لغير ما ذنب جنيته فلم أتمالك نفسى من الشعور بالمرارة والسخط الى حد ما ٠ ولكننى حاولت عن طريق المضاجعة كما فعلت فى الفيللا أن أنسى ذلك الظلم ٠ وكانت المضاجعة هى متعتى الوحيدة التى تشعرنى بالمساواة مع كثير من النساء الاخريات اللائى يفقننى ثراء وحظا فى الحياة ٠

وأخيرا بعد كثير من المناقشات والحملقة فى المحال استقر رأيى على مشترواتى التى لشد ما كانت متواضعة ٠ كما ابتعت طقما من الاثاث حديث الطراز بالتقسيط التجارى وذلك لعدم وجود ما يكفى من النقود لدفع ثمنه فورا ــ وكان يتألف من فراش عريض وخزانة للملابس ذات أدراج ركبت عليها مرآة ومناضد صغيرة توضع بجانب الفراش ومقاعد وصوان للملابس ٠ وكانت كلها أشياء عادية رخيصة خشنة الصنع ولكن أحدا لا يمكن أن يصدق مدى الحب الذى شعرت به فورا نحو تلك القطع الهزيلة من الاثاث ٠ وطليت جدران الغرفة باللون الابيض ودهنت الابواب والنوافذ بالورنيش ونظفت أرضية الغرفة مما لصق بها من القذارة حتى صارت غرفتنا أشبه بجزيرة نظيفة فى وسط البحر القذر المحيط بنا ٠ ولا شك أن اليوم الذى نقل فيه الاثاث الى المنزل كان أسعد يوم فى حياتى ٠ فلم أكد

اصدق أن مثل هذه الغرفة النظيفة المرتبة المضيئة التى تفوح منها رائحة الجير والورنيش كانت غرفتى الخاصة • وقد امتزج عـــدم التصديق بشعور لا نهائى من الرضا • فكنت أحيانا عندما اتأكد من غفلة أمى أدلف الى داخل غرفتى حيث أجلس على الحشية العارية وأمكث ساعات بطولها متأملة ما حولى • وكنت أحملق كالتمثال فى تلك القطع الهزيلة من الاثاث وكأننى لا أستطيع أن أصدق أنهـــا حقيقة وأخشى أن تتلاشى فى الهواء فى أية لحظة تاركة الغرفة خاوية• أو أنهض من مكانى وأنفض عنها الغبار وأزيد من صقلها • وأعتقد أننى لو أطلقت العنان لمشاعرى حقا لقبلتها • وكانت النافذة العارية من الستائر تطل على فناء فسيح قذر تحيط به منازل أخرى خفيضة ممتدة كمنزلنا • وكان المنظر أشبه بفناء فى سجن أو مستشفى ولكننى لما كنت منتشية فانى لم أعد أعيره انتباها • بل أحسست بسعادة وكأن الغرفة تطل على حديقة جميلة مملوءة بالاشـــجار • وأخذت أتخيل الحياة التى سنحياها أنا وجينو هناك ـ وكيف سننام ونتضاجع • وكانت فى ذهنى أشياء أخرى كنت أعتزم شراءها حالما يمكننى ذلك ـ آنية للزهور ومصباح ومنفضة للسجائر توضع فى ركن الغرفة أو حلية أخرى • ولم يكن يؤسفنى سوى أننى لا أستطيع الحصول على حمام ذى قرميد أبيض لامع وصنابير كذلك الذى رأيته فى الفيللا أو على الاقل حمام جديد نظيف • وكنت مصممة على أن تكون غرفتى آية فى الترتيب والنظافة فقد اقنعتنى زيارتى الى الفيللا بأن الحياة المرفهة تبدأ بالترتيب والنظافة •

الفصل الرابع

وحوالى ذلك الوقت بينما كنت لا أزال أواصل جلســـاتى فى المراسم تعرفت فى مكان ما الى فتاة أخرى تعمل نموذجا وكانت تدعى جيزيلا فنشأت بيننا صداقة ٠ كانت فتاة طويلة القامة قوية البنية ذات بشرة ناصعة البياض وشعر أسود مجعـــد وعينين زرقاوين غائرتين وفم أحمر واسع ٠ وكانت طباعها على النقيض من طباعى ٠ فكانت سريعة الانفعال حقودا لاذعة ولكنها فى نفس الوقت ذات تفكير عملى تنشد الكسب المادى ٠ ولعل هذه الاختلافات نفسها هى التى ربطت بيننا ووثقت عرى الصداقة ٠ وكنت لا أعلم أن لها عملا آخر بالاضافة الى عملها كنموذج ولكنها كانت ترتدى ثيابا تفوق طاقتى بكثير ٠ ولم تخف عنى أنها كانت تتلقى الهدايا والنقود من رجل قدمته الى على أنه خطيبها ٠ وأذكر أننى كنت أغبطها سترتها السوداء التى اكتسبت ياقتها وطرفا كميها بفراء آستراخان ٠ وكثيرا ما كانت ترتديها فى ذلك الشتاء ٠ أما خطيبها فكان يدعى ريكاردو وهو شاب طويل القامة هادىء الطبع ممتلىء الجسم ذو وجه ناعم كالبيضة خلته حينذاك وسيما للغاية ٠ وكان ذا شعر لامع دائم التنسيق غارق فى الدهانات وهو لا يفتأ يرتدى حللا جديدة ٠ وكان أبوه يملك محلا لملابس الرجال الداخلية وأربطة العنق ٠ كما كان بسيطا الى حد البلاهة وديعا مرحا ولعله كان شابا مهذبا للغاية ٠ كان هو وجيزيلا عاشقين ولكننى لا أعتقد أنه كان بينهما حديث عن الزواج كما كان بينى وبين جينو ٠ ولكن جيزيلا كانت مثلى تهدف الى الزواج دون أن تعلق عليه كثيرا من الآمال ٠ أما ريكاردو فانى واثقة أن فكرة زواجه بجيزيلا لم تخطر له قط على بال ٠ وقد صممت جيزيلا التى كانت رغم حماقتها الشديدة تفوقنى خبرة بكثير على أن ترعانى وتردنى الى طريق الحكمة والصواب فى كثير من الامور ٠ وباختصار فقد كانت تعتنق نفس الاراء والافكار التى تعتنقها أمى فى الحياة والسعادة ٠ ومع ذلك فان تلك الاراء كانت تعبر عنها أمى بلهجة عدوانية مريرة لانها كانت ثمرة حياة مليئة بالشدائد وخيبة الرجـــاء فى حين أن

اعتناق جيزيلا تلك الاراء كان يرجع الى بلادتها واكتفائها الذاتى العنيد • ومن الممكن أن نقول أن أمى كانت تقنع بالتعبير عن ارائها نظريا وكان تقريرها لمبادئها يفوق تطبيقها العملى أهمية فى نظرها • أما جيزيلا التى كانت تفكر دائما بهذه الطريقة ولم تكن تحلم بأن هناك من يمكن أن يفكر بطريقة مختلفة فقد تولتها الدهشة لاننى لا أحذو حذوها • ولم تتحول دهشتها الى غضب وغيرة الا عندما أظهرت استنكارى لاعمالها لاننى فى الحقيقة لم أتمالك نفسى من ذلك • فقد اكتشفت فجأة اننى لا أرفض حمايتها ونصيحتها فحسب بل لعلى كنت فى مركز يسمح لى بانتقادها من ذروة أمانى الغريرة النزيهة • وعندئذ فقط ولعلها لم تكن تعى ما تفعل بدأت تخطط للحيلولة بينى وبين الحكم عليها وذلك عن طريق ارغامى على أن أحذو حذوها فى أقرب وقت ممكن •

وفى أثناء ذلك كانت لا تفتأ تتهمنى بالحمق لاحتفاظى بطهارتى وتدعى أنه كان يشينها ان ترانى على تلك الصورة من سوء الهندام أعانى مثل هذه الحياة الشاقة فى حين أنه يمكننى اذا شئت بفضل جمالى أن أغير مركزى تغييرا كاملا • وأخيرا أخبرتها بعلاقتى بجينو لاننى خجلت من اعتقادها أننى لا أعرف شيئا عن الرجال • ولكننى أخطرتها بأننا كنا خطيبين وأننا لن نلبث أن نتزوج • فسألتنى فى الحال عن عمل جينو وما ان سمعت أنه سائق حتى عبس وجهها • ولكنها مع ذلك طلبت الى أن أقدمه اليها •

كانت جيزيلا خير صديقة لى وكان جينو خطيبى • واليوم يمكننى أن أحكم عليهما حكما نزيها بعيدا عن الهوى • ولكن بصيرتى حينذاك لشد ما عميت عن حقيقتهما • فقد كنت أعتقد بالفعل أن جينو بلغ حد الكمال • أما جيزيلا فربما أدركت أن لها بعض الاخطاء ولكننى كنت أعتقد أنها فى مقابل ذلك ذات قلب عامر بالحب • وأنها لشد ما كانت شغوفة بى • وعندما علمت ببراءتى كنت لا أرجع قلقها على مستقبلى الى حقدها على ورغبتها فى افسادى بل الى طيبة قلبها الخاطئة المضللة • وهكذا فقد قدمت كلا منهما الى الاخر فى شىء من التوجس والخوف • وكنت آمل بسذاجتى أن يصيرا صديقين • وقد تم اللقاء فى أحد محال اللبن • وظلت جيزيلا طوال الوقت ملازمة الصمت الحذر • ولكن موقفها العدائى كان واضحا • وبدا لى فى أول الامر أن جينو كان يحاول جاهدا أن يسحر جيزيلا بشخصيته لانه كعادته

بدأ يتحدث عن الحياة مركزا على ثراء مخدوميه وكأنه كان يأمل أن يبهرها بهذه الاوصاف ويخفى فقر حياته • ولكن جيزيلا أبت أن تلين وظلت محتفظة بموقفها العدائى • ثم علقت قائلة ولست أذكر تماما السبب الذى دعاها الى ذلك ـ « انه لمن حسن حظك أنك عثرت على آدريانا • »

فسألها جينو قائلا فى دهشة ـ « لماذا ؟ »

فقالت ـ « لان الساقة عادة يرافقون الخادمات • »

فرأيت جينو وقد تغير لونه • ولكنه لم يكن ليؤخذ على غرة • فأجابها قائلا فى بطء خافضا صوته كمن يفكر فى حقيقة ظاهرة كانت قد فاتته ملاحظتها حتى تلك الآونة ـ « انك محقة تماما • فقد تزوج السائق الذى سبقنى فى الواقع بالطاهية ـ طبعا ـ لم لا ؟ وكان ينبغى أن أحذو حذوه ـ فالساقة يتزوجون الخادمات والخـــادمات يتزوجن الساقة • لم لم يخطر ذلك على بالى بحــق الســـماء ؟ » ثم أضاف قائلا بعدم اكتراث ـ « ومع ذلك فقد كنت أفضل أن تكون آدريانا خادمة على أن تكون نموذجا • » ثم أردف قائلا وهو يرفع يده وكأنه يريد أن يتجنب أى اعتراض يمكن ان تبديه جيزيلا ـ « ولا أقصد ـ لا أقصد أن ذلك بسبب المهنة نفسها ـ مـــع أننى أصارحك بأنه لا يمكننى استساغة تجردها من ثيابها أمام الرجال ـ بل لسبب رئيسى هو أنها مضطرة بحكم اشتغالها بهذه المهنة أن تتعرف الى قوم وتتخذ صديقات ممن •• » ثم هز رأسه وصعر وجهه• وبعد ذلك قدم اليها علبة سجائره قائلا ـ « أتدخنين ؟؟ »

ولم تدر جيزيلا كيف ترد عليه فى الحال بل اكتفت بأن رفضت السيجارة • ثم نظرت الى ساعتها قائلة ـ « علينـــــا أن نذهب يا آدريانا فقد تأخر الوقت • » وكان الوقت قد تأخر بنا فى الواقع • فغادرنا محل اللبن بعد أن ودعنا جينو • وما ان خرجنا الى الطريق حتى قالت لى جيزيلا : ـ « انك ترتكبين عملا جنونيا للغاية • فأنا لا يمكننى مطلقا أن أتزوج رجلا كهذا • »

فسألتها قائلة فى قلق ـ « ألم يعجبك ؟ »

ـ « كلا مطلقا • فقد قلت لى أولا انه طويل القامة ولكنه يكاد يكون أقصر منك ـ ثم هو غير طبيعى بالمرة • كما أنه يتكلم بطريقة خيالية غريبة تظهر لك على بعد ميل أنه لا يقول ما يعتقده حقا • ثم ما كل هذه المظاهر والحركات المصطنعة التى يضفيها على نفسه وهو لا يعدو أن يكون سائقا !؟ »

فاحتججت قائلة ـ « ولكننى أحبه ! »

فأجابت قائلة فى هدوء ـ « حسنا • ولكنه لا يحبك ـ ولسوف يهجرك يوما ما • »

ولقد بوغت بهذه النبوءة • فلشد ما كانت لهجتها مؤكدة ولشد ما حاكت نبوءات أمى • واليوم يمكننى أن أقول أن جيزيلا بغض النظر عن سوء نيتها قد استشفت شخصيه جينو فى ساعه واحدة أكثر مما فعلته أنا فى عدة شهور • أما جينـــو فقد ساء رأيه أيضـــا فى جيزيلا ولكننى يجب أن أعترف أنه تبين لى فيما بعد أن رأيه لم يجانب الصواب • والحقيقة أن شغفى بكليهما فضلا عن قلة خبرتى قد أعمى بصيرتى • وما أصدق القول بأن سوء الظن هو الـــرأى الصائب فى معظم الاحيان •

قال جينو ـ « ان جيزيلا هذه هى ما نسميه نحن فى بلدنا بفتاة الطريق • »

فبدت على الدهشة وأردف موضحا ـ « عاهر تجوب الشوارع • فآدابها وأخلاقها تدل على ذلك ـ كما أنها مغترة لحسن هندامها ـ ولكن أنى لها أن تدفع ثمن ثيابها ؟ »

ـ « ان خطيبها يهديها اياها • »

ـ أراهن أن لها خطيبا مختلفا فى كل ليلة •• والآن أنصتى الى • فاما أنا أو هى • »

ـ « ماذا تعنى ؟ »

ـ « أعنى أنه يمكنك أن تفعلى ما شئت ـ ولكنك اذا لم ترغبى فى مقاطعتها فلتخرجينى من حسابك • فاما أنا أو هى • »

وحاولت أن أثنيه عن عزمه ولكننى فشلت • فلابد أن جيزيلا قد جرحت كبرياءه باحتقارها اياه • ولكن لا ريب أن سخطه المبغض عليها كان فيه شىء من الاخلاص للدور الذى يؤديه كخطيب لى ـ ذلك الاخـــلاص الذى أوحى اليه بالاســـهام فى تكاليف تأثيث المنزل • كان رائعا كعهده دائما فى التعبير عن عواطف لا يشـــعر بها • اذ أنه لم يفتأ يردد قائلا فى صلابة ـ لا •• ان خطيبتى لاينبغى أن تكون لها صلة بالساقطات . » وأخيرا وعدته أن أقطع كل صلة بجيزيلا خشية أن ينهار صرح الزواج مع اننى كنت أعلم فى قرارة قلبى أنه لا يمكننى بحال الوفاء بوعدى لاننى أنا وجيزيلا كنا نعمل معا فى نفس الوقت وفى نفس المرسم •

ومنذ ذلك اليوم ظللت أراها دون علم جينو . وكانت جيزيلا

فى كل لقاء لا تفتأ تنتهز كل فرصة للتعريض بخطبتنا بألفـــاظ نفيض تهكما واستنكارا . ولقد بلغت بى ســـذاجتى أننى كنت أطلعها على كل مايخص علاقتى بجينو من أشياء تافهة صغيرة . فكانت بالتالى تستغل تلك الاسرار فى الاساءة الى وفى القاء ضوء من الهزء والسـخرية على حيـاتى الحـاضرة والمسـتقبلة ـ أما صديقها ريكاردو الذى بدا انه لا يميز بينى وبين جيزيلا وكان يعد كلتينا فريسـة سهلة كفتاتين غير جديرتين بالاحترام ـ فقد كرس نفسه عن طيب خاطر للمشاركة فى لعبة جيزيلا فشدد من نكير قسوتها وسخريتها . ولكنه كان يفعل ذلك فى حماقة وحسن نية لانه كما سبق أن قلت لم يكن فى الحقيقة ذكيا ولا شريرا . وكانت خطبتى فى نظره لاتعدو أن تكون مادة دعابة ـ أو تسلية . أمـا جيزيلا التى كانت لا تفتأ تجد فى عفنى تعنيفا مستـمرا لها والتى شاءت ان تجعلنى أحذو حذوها حتى تسلبنى بذلك كل حق فى ادانتها فكانت تهاجمنى فى حقد واصرار محاولة بكل طريقة ممكنة أن تعذبنى وتحقر من شأنى .

وكانت تركز هجومها على أضعف نقطة فى وهى ملابسى فكانت تقول ـ « لشد مايخجلنى حقا أن أسير معك اليوم . » أو تقول ـ « ان ريكاردو لا يسمح لى مطلقا بالخروج فى مثل هذه الخلق التى ترتدينها .. أليس كذلك يا ريكاردو ؟ فهذه الاشـــياء تكشف عن الحب ياعزيزتى ! » وكنت من الســذاجة بحيث أستجيب فورا لهذا الاغراء الذى يوقعنى فى الفخ . فأخرج عن طـورى وانبرى للدفاع عن جينو وكذلك عن ملابسى ولكن باقتناع أقل . وكنت لا أفتأ أخرج من المعركة أسوأ حالا وقد احمر وجهى واغرورقت عيناى بالدموع . وذات يوم قال ريكاردو وقد أخذته الشفقة على «اليوم سأعطى هدية لادريانا . تعالى يا آدريانا . فانى أريد أن أعطيك حقيبة يد . ولكن جيزيلا عارضته فى عنف قائلة ـ «كلا يا ريكاردو ! لاتعطها شيئا ! فلديها جينو وليأت لها بالهدايا . » فأذعن لهـــا ريكاردو فى الحال وقد دفعته طيبة قلبه الى ذلك الاقتراح ولكنـه لم يخطر بباله مدى ماكانت ستحدثه هديته فى نفسى من سرور . وفى ذلك المساء دفعتنى كبريائى الجريحة الى ابتياع حقيبة بنقودى الخاصة . وفى اليوم التالى قابلتهما وتحت ذراعى حقيبتى الجديدة زاعمة لهما أنها هدية من جينو . وكان ذلك هو النصر الوحيـــد الذى أحرزته فى كل مادار بيننا من مشادات تثير الرثاء . وقـــد

كلفنى ذلك النصر غاليا لانها كانت حقيبة جميلة للغاية فدفعت فى مقابلها ثمنا باهظا .

وعندما خيل لجيزيلا أنها بقوة تهكمها وتحقيرها ووعظها اياى قد حطمت مقاومتى بصورة كافية اقتربت منى قائلة ان لديها اقتراحا ثم اردفت تقول ـ « ولكن دعينى أرو لك القصة بأكملها . ولتتخلى عن عنادك المعهود حتى تسمعى ما عندى . »

فقلت ـ « الى به . »

فبدأت حديثها قائلة ـ « انت تعلمين اننى أحبك . فأنت بمثابة أختى . ان لديك من الجمال مايجعلك تملكين كل ماتبتغين . ولا أحب أن أراك فى مثل هذه الملابس المخجلة التى تبدين فيها وكأنك من أطفال الشوارع المشردين . والان أنصتى . » ثم توقفت عن الحديث وراحت تحملق فى بكل جد وحزم وأردفت قائلة فى صوت خفيض ـ « هناك سيد مهذب ـ سيد حقيقى ـ رقيق دمث للغاية وقع بصره عليك فأبدى بك اهتماما . وهو متزوج ولكن أسرته تقيم فى الريف . كما انه شخصية هامة فى الشرطة . فان شئت أن تتعرفى اليه أمكننى أن أقدمك . وهو شخص غاية فى الرقة وغاية فى الجد . ويمكنك أن تتأكدى تماما من أن أحدا لن يعرف شيئا عن علاقتك به . وعلى أية حال فانه قلما يفرغ من عمله ولن تلتقى به أكثر من مرتين أو ثلاثا فى كل شهر . كما أنه لايعترض ان شئت على استمرار علاقتك بجينو ـ ولا يبالى بزواجك به ولكنه فى مقابل ذلك سيكفل لك حياة أيسر من تلك التى تعيشينها الان . فما رأيك ؟ »

فقلت فى صراحة ـ « شكرا جزيلا له . ولكننى لا أستطيع قبول اقتراحه . »

فسألتنى قائلة وكانت دهشتها صادقة ـ « لم لا ؟ »

ـ « لاننى لا أستطيع . فأنا احب جينو ولو قبلت ذلك لما أمكننى أنْ أواجهه . »

ـ « دعك من هذا ! حتى لو أكدت لك أن جينو لن يعرف شيئا عن هذه العلاقة ! »

ـ « هذا هو السبب بالضبط . »

فقالت وكأنها تحدث نفسها ـ « انى لا أكاد أتخيل عرضا كهذا ـ ماذا أقول له ؟ أنك ستفكرين فى الامر ؟ »

ـ « كلا . كلا ... بل قولى له انه لايمكننى قبوله . »

فقالت جيزيلا وقد خاب أملها ــ « انك حمقاء . فالحظ يواتيك ولكنك ترفسينه . »

وقالت لى اشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل ولكننى كنت أجيب عنها بنفس الطريقة . وأخيرا انصرفت وهى أشد ماتكون سخطا على

لقد رفضت العرض جزافا دون روية أو تفكير فيما كان ينطوى عليه حتى اذا ما خلوت الى نفسى كان يراودنى شعور بالندم . لعل جيزيلا كانت محقة فى أن ذلك هو السبيل الوحيد للحصول على كل الاشياء التى كنت فى حاجة ماسة اليها . ولكننى طردت الفكرة من ذهنى فى الحال وتشبثت فى مزيد من القـــوة بفكرة الزواج وبالحياة المنتظمة التى عاهدت نفسى عليها حتى ولو كانت متواضعة. ولقد أرغمتنى تلك التضحية التى كان من الواضح اننى قمت بهـا الآن على أن أتزوج بكل وسيلة ممكنة بل زاد الامر الحاحا عما كان عليه من قبل .

ولكننى لم أتمالك نفسى من الشـــعور بالزهو فأطلعت أمى على عرض جيزيلا . وخيل لى أننى بذلك أبعث فى نفسها فرحة مزدوجة. فقد كنت أعلم انها فخور بجمالى وأنها ما زالت متمسكة بآرائها . فكان ذلك العرض يرضى كبرياءها ويعزز آراءها . ولكننى دهشت لحالة الاضطراب التى عرتها على أثر سماعها قصتى . فقد لمعت عيناها ببريق جشع وتضرج وجهها كله بحمرة الفرح .

وأخيرا سألتنى قائلة ــ « من هو ؟ »

فأجبتها قائلة ــ « سيد مهذب . » ولكننى خجلت من مصارحتها بأنه يعمل فى الشرطة .

ــ « أقالت أنه واسع الثراء ؟ »

ــ « نعم . من الواضح أنه يكسب كثيرا . »

ولكنها لم تجرؤ على مصارحتى برأيها الذى كان واضحا وهـو أننى أخطأت برفضى ذلك العرض .

ــ «لقد رآك وأبدى بك اهتماما ؟ فلم لا تدعينها تغدمه اليك ؟»

ــ « وما الغرض من ذلك اذا كنت لا اريده ؟ »

ــ « للاسف انه متزوج »

ــ « ولكننى ماكنت لاقابله حتى لو لم يكن كذلك . »

فقالت أمى ــ « ثمة طرق كثيرة لممارســة الامور . فهو غنى ومعجب بك . وكل خطوة تؤدى الى أخرى ــ وفى امكانه مساعدتك دون أن يطلب شيئا فى مقابل ذلك . »

فأجبتها قائلة ــ « لا ــ لا . فهؤلاء الناس لايعطون شيئا بدون مقـــابل . »

ــ « هذا أمر لايمكنك التكهن به مطلقا . »

فرددت قائلة ــ « لا . لا . »

فقالت أمى وهى تهز رأسها ــ « لا أهمية لذلك . ولكن جيزيلا فتاة رقيقة حقا ولا شك أنها تحبك . فان أية فتاة أخرى ما كانت لتذكر لك هذا العرض بسبب غيرتها . وهكذا ترين أنها صديقةبحق لم تعد جيزيلا تتكلم عن صديقها السيد المهذب بعد رفض اقتراحها بل لقد أمتنعت لدهشتى عن مشاكستى بصدد خطبتى . وظللت التقى بها خلسة هى وريكاردو . ولكننى ذكرت اسمها لجينو اكثر من مرة آملة أن أصـــــلح ذات البين لاننى لم أكن أحب تلك الاتصالات الخفية . ولكنه لم يدعنى قط أكمل ما كنت اقوله ولم يزد على ترديد عبارات الكراهية وكان يقسم أن ينتهى كل شىء بيننا لو اكتشف فى اية لحظة أننى ألقاها . وكان يعنى ما يقول . وخيل لى أنه ما كان ليشعر بالأسف لو وجد عذرا لفسخ الخطبـــة . وكاشفت أمى بكراهية جينو لجيزيلا فقالت دون حقد تقريبا :

ــ « انه لا يريدك أن تلتقى بها خشية ان تقارنى بين ما ترتدينه من خلق بالية وبين ما يهديه اياها خطيبها من ثياب . »

ــ « كلا . بل هو يزعم أن جيزيلا عاهر . »

ــ « انه هو العاهر ! ليته يكتشف أنك تقابلين جيزيلا ويفســـخ الخطبة حقا . » فتولانى الرعب وهتفت قائلة ــ « ولكنك لن تخبريه بشىء يا أماه . ! »

فأسرعت باجابتى قائلة فى شىء من المرارة ــ « كلا . كلا . فهذا شأنك . ولا صلة لى به مطلقا . »

فقلت بانفعال ــ « لو أخبرته فلن ترى وجهى بعد ذلك . »

وحل صيف سانت مارتن(١) وكان الجو فى تلك الايام صحوا معتدلا. وذات يوم أخبرتنى جيزيلا انها قد اعتزمت بالاتفـــاق مع ريكاردو وصديق له القيام برحلة فى السيارة وانهم فكروا فى اصطحابى معهم لحاجتهم الى امرأة أخرى يكتمل بها العقد . فسرنى قبـــول تلك الدعوة لاننى حينذاك كنت لا افتا ابحث عن اى نوع من البهجةلاخفف

(١) Saint Martin. اسقف مدينة تور فى القرن الرابع الميلادى . وقد ولد فى ١١ نوفمبر . والمقصود بصيف سانت مارتن هو ذلك الفصل الجميل من السنةحوالى ذلك التاريخ .

بها من تعاسة حياتى . وزعمت لجينو أننى مضطرة للوقوف بضع ساعات اضافية . وفى الصباح ذهبت فى ساعة مبكرة الى مكان اللقاء المتفق عليه على الجانب الآخر من جسر ميلفيو حيث كانت السيارة فى انتظارى وعندما اقتربت منها لزم ريكاردو وجيزيلا مكانيهما فى مقدمة السيارة . أما صديق ريكاردو فقد وثب الى خارج السيارة وجاء للقائى . كان شابا متوسط القامة أصلع الرأس ذا وجه شاحب وعينين نجلاوين سوداوين وأنف أقنى وفم واسع ارتفعت زاويتاه الى اعلى كمن يبتسم . كما كان أنيق الملبس ولكن فى هدوء على صورة تختلف تماما عن أناقة ريكاردو . فكان يرتدى سترة رمادية قاتمة وسراويل رمادية زاهية الى حد ما وياقة منشاة ورباط عنق أسود به مشبك لؤلؤى . وكان صوته رقيقا وكذلك بدت عيناه اللتان كانتا فى نفس الوقت حزينتين انجابت عنهما غشاوة الوهم . كان مؤدبا للغاية بل يبلغ فى ذلك حد الكلفة . وقدمته الى جيزيلا باسم استفانو آستاريتا فأيقنت على الفور أنه لابد أن يكون ذلك السيد المهذب الذى حملت الى اقتراحه المنطوى على الشهامة . ولكننى لم يؤسفنى لقاؤه لان اقتراحه فى الواقع لم يكن مسيئا بل كان من وجهه نظر معينة يرضى كبريائى . فمددت له يدى وقبلها فى تعبد غريب وفى قوة تكاد تؤلمنى . وما أن ركبت السيارة وجلس بجانبى حتى انطلقت بنا .

وبينما كانت السيارة تسرع بنا فى الطريق المشمس العارى بين الحقول الجافة اليابسة لم نكد نتبادل الحديث . كنت سعيدة بركوبى السيارة وسعيدة بالرحلة وسعيدة بالهواء الطلق الذى كان يداعب وجنتى ولم امل قط منظر الريف . كانت تلك هى المرة الثانية أو الثالثة فى حياتى التى أقوم فيها برحلة بالسيارة وكاد يساورنى الخوف من أن يفوتنى شىء . فكنت أفتح عينى محاولة أن أرى اكبر عدد ممكن من الاشياء : أكوام الدريس وبيوت المزارع والاشجار والحقول والتلال والغابات دون أن أنسى طوال الوقت أن شهورا ولعل أعواما تمر قبل أن أتمكن من القيام برحلة أخرى كهذه وأنه ينبغى أن احفظ كل التفاصيل عن ظهر قلب حتى تعيها ذاكرتى كاملة كلما أردت استعادتها . ولكن آستاريتا الذى كان يجلس متصلبا على مسافة صغيرة منى بدا أنه لا يرى شيئا سواى . فان نظرته الحزينة المشتاقة لم تفارق قط وجهى وقوامى . وكنت أحس وكأن نظرته اصبع لا تفتأ تلمسنى هنا وهناك . ولا أزعم ان هذا الاهتمام كان

يضايقنى ولكنه بلا شك لم يفتأ يحيرنى • فاحسست بنفسى شيئا فشيئا مرغمة على أن أعيره بعض انتباهى وأن أتحدث اليه . كان يجلس واضعا يديه على ركبتيه وكان يضع فى أحدى يديه خاتم الزواج وخاتما ماسيا آخر •
فهتفت قائلة فى ارتباك — « ما أجمل هذا الخاتم ! »
فخفض عينيه وتأمل الخاتم دون أن يحرك يده قائلا — « انه خاتم والدى • لقد نزعته من اصبعه عند وفاته • »
فقلت وكأنى أعتذر — « آه ! » ثم أضفت قائلة وأنا أشير الى خاتم الزواج « هل أنت متزوج ؟ • »
فأجابنى قائلا فى رضا حزين — « بالطبع — فلى زوجة — وأطفال — وكل شيء • »
فسألته قائلة فى حياء — « وهل زوجتك جميلة ؟ »
فأجابنى قائلا دون أن يبتسم فى صوت لشد ما كان خفيضا مشددا وكأنه يقرر حقيقة هامة — « انها ليست فى مثل جمالك • »
ثم حاول بيده التى تحمل الخاتم أن يمسك بيدى ولكننى سحبتها بعيدا فى الحال .
ثم سألته بغير قصد قائلة — « وهل تقيم معها ؟ »
فأجابنى قائلا — « كلا • • انها تقيم فى — » ثم ذكر اسم مدينة ريفية بعيدة، « بينما أقيم أناهنا — وحيدا — وآمل أن تأتى لزيارتى • »
فتظاهرت بأننى لم أسمع ما قاله فى لهجة حزينة توشك أن تكون تشنجية .
وسألته قائلة — « لماذا ؟ الا تحب الاقامة مع زوجتك ؟ »
فقال عابسا — « نحن منفصلان بحكم القانون . فعندما تزوجت لم اكن اتجاوز سن اليفاعة • وكان ذلك الزواج من تدبير أمى • فأنت تعلمين كيف يدبرون هذه الامور . فتاة من أسرة طيبة تملك مهرا كبيرا . ويحدد الابوان كل شيء ثم يتعين الزواج على الابناء — أقيم مع زوجتى ؟ أتقيمين انت مع امرأة كهذه ؟ » ثم اخرج حافظته من جيبه وفتحها وناولنى صورة • فرأيت طفلين أسمرين شاحبين يبدوان كتوأمين وقد أرتديا ملابس بيضاء . كما رأيت امرأة ضئيلة سمراء شاحبة تقاربت عيناها كعينى البومة وارتسم على وجهها تعبير خبيث كانت تقف خلفهما واضعة يديها على كتفيهما • فأعدتها اليه ودسها فى حافظته .
وتنهد قائلا — « احب أن أقيم معك • »

فقلت فى ارتباك ازاء موقفه الملح الذى لا يتغير – « انت لا تعرفنى مطلقا • »

– « بل أعرفك تمام المعرفة : – فقد ظللت اتعقبك شهرا كاملا • واعرف عنك كل شيء • »

كان يجلس على مسافة قصيرة منى وهو يخاطبنى باحترام. ولكن مشاعره لشد ما كانت عميقة طوال حديثه حتى أن مقلتيـــــه كادتا تدوران فى محجريهما .

قلت – « انى مخطوبة • »

فقال فى صوت مختنق – « لقد أخبرتنى جيزيلا بذلك . ولاتدعينا نتحدث عن خطيبك • ففيم يهمنا ؟ » ثم اتى بيده حـــــــركة سريعة مهتزة تدل على عدم اكتراثه المصطنع •

فأجبته قائلة – « انه يهمنى كثيرا • »

فنظر الى قائلا – « ما شد اعجابى بك ! »

– « لقد لاحظت ذلك . »

فردد قائلا – « ما أشد اعجابى بك ! ولعلك لا تدرين مداه • »

كان يتحدث كمن فقد صوابه • ولكن جلوسه بعيدا عنى وامتناعه عن محاولة الامساك بيدى مرة أخرى بعثا فى نفسى الطمأنينة • فقلت – « لاضير من اعجابك بى »

– « وهل أنت معجبة بى ؟ »

– « كلا . »

فقال لاويا قسماته فى تصعيرة – « انا ثرى • لدى من المال ما يكفل لك السعادة – فان جئت لزيارتى لما أسفت لذلك . »

فأجبته قائلة فى هدوء وفى شيء من الرقة – « لا حاجـــــة بى الى مالك . »

فبدا أنه لم يسمعنى •

ثم قال وهو يتأملنى – « ما أجملك ! »

– « شكرا لك • »

– « عيناك جميلتان »

– « أتظن ذلك ؟ »

– « نعم – وكذلك فمك • انى أبغى تقبيله • »

– « لماذا تقول لى هذه الاشياء ؟ »

– « أبغى تقبيلك كلك – كل جزءفيك . »

فاحتججت قائلة – « لماذا تحدثنى على هذه الصورة ؟ أنت مخطىء•

فأنا مخطوبة وسأتزوج بعد شهرين . »

فقال ــ « أرجو أن تصفحي عني . فلشد ما يمتعني أن أقول هذه الاشياء ــ هبي أنني لا أخاطبك . »

وسألت قائلة بغية تغيير الموضوع ــ « هل فيتريو الآن على مسافة بعيدة ؟ »

ــ « لقد أوشكنا على الوصول اليها . وسوف نتناول وجبة في فيتريو . عدبني بالجلوس الى جانبي عند الفداء »

فأخذت أضحك لان الخاحه الشديد كان يرضي كبريائي الى حد بعيد . ثم قلت ــ « وهو كذلك . »

فأردف قائلا ــ « اجلسي بجانبي كما تفعلين الآن . اذ يكفيني عطرك . »

ــ « اني لا اضع عطرا . »

فقال ــ « سأهديك قليلا منه . »

وكنا الآن قد بلغنا فيتريو فخفت سرعة السيارة ونحن ندخل المدينة . وقد لزم ريكاردو وجيزيلا الصمت طوال الرحلة وهما جالسان أمامنا . ولكن ما ان بدأت السيارة تشق طريقها في بطء خلال الشارع الرئيسي المزدحم حتى استدارت جيزيلا نحونا قائلة :

ــ « كيف حالكما ؟ أتعتقدان أنني لم أركما ؟ »

فلم ينبس آستاريتا بشيء . واحتججت قائلة ــ « لا يمكن ان تكوني قد رأيت شيئا . فاننا لم نزد على تبادل الحديث . »

فقالت ــ « دعك من هذا ! » ولشد ما أدهشني سلوك جيزيلا كما ضايقني الى حد ما التزام آستاريتا الصمت الملح .

فبدأت أتكلم قائلة ــ « ولكنني أؤكد لك ــ »

فردت قائلة ــ « دعك من هذا ! ولا داعي للخوف ــ فلن نشي بك الى جينو . »

وفي أثناء ذلك كنا قد بلغنا الساحة فغادرنا السيارة وأخذنا نسير في الطريق الرئيسي وسط زحام الناس الذين ارتدوا أبهى ملابس يوم الاحد تحت شمس اكتوبر اللطيفة المشرقة . ولم يفارق آستاريتا مكانه بجانبي لحظة واحدة . وكانت لاتزال عليه سيماء الجد بل الحزن في الواقع وقد ارتفع رأسه في تصلب فوق ياقته العالية بينما وضع احدى يديه في جيبه وتدلت الاخرى الى جانبه . وكان يبدو وكأنه حارس لا رفيقي . أما جيزيلا فكانت على العكس من ذلك لاتفتأ تضاحك ريكاردو وتمازحه بينما استدار كثير من الناس ليحملقوا

فينا • ثم دخلنا محـــلا للحلوى حيث تناولنا شراب « الفيرموت »
ونحن وقوف الى « البار » وفجأة لاحظت آستاريتا وهو يتمتم بشيء
مهددا متوعدا فسألته عما به • فقال فى انفعال ـ « ثمة أبله هنـاك
بالقرب من الباب يحملق فيك . »
فاستدرت ورأيت شابا أشقر نحيلا واقفا عند مدخل المقهى ينظر
الى . فقلت فى مرح ـ « ولم لا ؟ فلنفرض أنه يتأملنى فعلا ؟ »
ـ « لن يلبث هذا أن يدفعنى للتوجه اليه وضربه فى وجهه . »
فقلت فى شيء من الضيق ـ انك لو فعلت لما نظرت فى وجهك مرة
اخرى ولما قلت لك كلمة واحدة بعد ذلك • فليس من حقك ان تتدخل
ـ ولا شأن لك مطلقا بى . »
فلم ينبس بكلمة بل اتجه الى الخزينة ليدفع ثمن المشروبات .
ثم غادرنا المقهى وواصلنا سيرنا فى الطـــريق الرئيسى حيث أبهجتنى
الشمس والضوضاء وحركة الزحام ووجوه أهل الريف المتوردة التى
تفيض صحة . وعندما بلغنا ساحة صغيرة منعزلة فى نهـــاية أحد
الشوارع المتقاطعة مع الطريق الرئيسى قلت فجأة ـ « أنظروا هناك!
ـ لو كنت أملك منزلا صغيرا كهذا لفرحت بالاقامة هنا . « ثم أشرت
الى منزل صغير بسيط يتألف من طابقين أمام احدى الكنائس .
فقالت جيزيلا ـ « حاشا لله ! تخيلى الحياة فى الريف وخاصـة
فى فيتربو ! لن أقبل ذلك حتى لو غمرت بالذهب . »
وعلق ريكاردو قائلا ـ « انك لن تلبثى أن تملى الحياة فيهـــا يا
آدريانا . فاذا ما ألف المرء الحياة فى مدينة كبيرة تعذر عليه أن يستقر
فى الريف . »
فقلت ـ « انك مخطىء تماما . فانه لمما يسرنى أن أقيم هنا مـع
رجل يحبنى ـ فى شقة تتألف من أربع غرف صغيرة نظيفـــة ومظلة
وأربع نوافذ ـ فلن ابغى شيئا اكثر من ذلك • »
ولشد ما كنت مخلصة فيما قلت لاننى تخيلت نفسى مقيمة مع
جينو فى ذلك البيت الصغير فى فيتربو • ثم قلت مستديرة نحـــو
آستاريتا ـ « ما رأيك ؟ »
فأجابنى قائلا فى صوت خفيض محاولا الا يسمعه أحد غيرى ـ
« انى أقبل الاقامة معك . »
فقالت جيزيلا ـ « ان مشكلتك يا آدريانا هو انك لا تطمحين الى
هدف أسمى • ومن يطلب القليل من الحياة لا يحصل على شيء • »
فاعترضت قائلة ـ « ولكننى لا أبغى شيئا • »

فقال ريكاردو ــ « انك تبغين الزواج بجينو . »

ــ « نعم . فذلك هو ما أبغيه حقا . »

والآن كان الوقت قد تأخر واخذ الطريق الرئيسي يقفر من الناس عندما دخلنا المطعم . وكانت غرفة الطابق الارضي قد ازدحم معظمها بالفلاحين فى أبهى ملابس يوم الاحد وقد جاءوا متسوقين الى فيتريو . فرفعت جيزيلا أنفها الى أعلى قائلة ان الرائحة العفنة المنبعثة من الغرفة خليقة بأن تذهب الانفاس وسألت المدير عما اذا كان يمكننا أن نصعد الى الطابق الثانى لتناول الطعام . فوافق على ذلك وقادنا الى غرفة ضيقة ممتدة بها نافذة واحدة تطل على شارع جانبى . ففتح المصراعين الخشبيين واغلق النافذة ثم وضع مفرشا على المائدة الخشبية التى كانت تشغل معظم الغرفة . واذكر أن الجدران كانت مكسوة بورق الحائط الذى كان باهتا وممزقا فى بعض الاماكن يعلوه زخرف من الزهور والطيور . ولم يكن هناك بالاضافة الى المائدة سوى خزانة صغيرة ذات واجهة زجاجية ملئت بالصحاف .

وفى أثناء ذلك كانت جيزيلا تجوب أرجاء الغرفة فاحصة كل شىء كما تطلعت من خلال النافذة المطلة على الشارع الجانبى . واخيرا دفعت بابا كان من الواضح أنه يفضى الى غرفة أخرى وما ان اختلست النظر الى الداخل حتى استدارت نحو صاحب المحل وسألته عن كنه تلك الغرفة بلهجة تدل على عدم اكتراثها المتكلف .

فقال ــ « انها غرفة للنوم . فان شاء احدكم ان يستريح قليلا بعد الغداء . »

فقال ريكاردو بضحكته السخيفة ــ « اننا سنأخذ قسطا من الراحة يا جيزيلا . أليس كذلك ؟ » ولكن جيزيلا تظاهرت بأنها لم تسمع شيئا . وبعد أن اختلست النظر الى داخل الغرفة مرة أخرى جذبت الباب بعناية ولكنها لم تغلقه تماما .

وقد ابهجتنى غرفة الطعام الصغيرة المريحة حتى اننى لم اعد أفكر فى الباب الموارب وفى نظرة التفاهم التى خيل لى أن جيزيلا وآستاريتا قد تبادلاها . فجلسنا الى المائدة وجلس آستاريتا الى جانبى كما وعدته ولكنه بدا وكأنه لم يلحظ ذلك . فلشد ما كان مستغرقا فى التفكير حتى أنه لم يستطع الكلام . وبعد فترة وجيزة عاد صاحب المحل حاملا فواتح الشهية والنبيذ . ولشد ما كنت جائعة فانكببت على الطعام على صورة أضحكت الآخرين منى . فانتهزت جيزيلا الفرصة للبدء فى مشاكساتها المعهودة بصدد زواجى قائلة :

ـ « هيا اصعمى . فلن تتناولى مع جينو كل هذا الطعام ولا مثل هذا الصنف الجيد . »
فسألتها قائلة ـ « لماذا ؟ فان جينو سيكسب لنا النقود . »
ـ « أتراهنين أنك ستأكلين الفول كل يوم ! ؟ »
ضحك ريكاردو قائلا ـ « وما عيب الفــول ؟ بل انى فى الواقع سأطلب قليلا منه فى الحال . »
فأردفت جيزيلا قائلة ـ « انت حمقاء يا آدريانا . انك فى حاجة الى رجل موسر . رجل مهــذب يحسن التصرف ويرعاك ولا يرغمك على التخلى عما تحتاجين اليه من أشياء ويمكنك من ابراز جمالك . فاذا بك بدلا من ذلك ترتبين أمور حياتك مع جينو . »
فلزمت الصمت العنيد حانية رأسى على صحفتى بينمـــا لم افتأ اتناول طعامى . فضحك ريكاردو قائلا ـ « لو اننى فى مكان آدريانا لما تخليت عن شىء . لا عن جينو ما دامت تحبه الى هذا الحد ولا عن ذلك الشخص الحاد فى نواياه بل لأرتبطت بكليهما ـ وربما لم يعترض جينو على ذلك الوضع . »
فأسرعت قائلة ـ « بل يعترض . كما أنه لو علم بذهابى معــكم اليوم فى هذه الرحلة لفسخ الخطبة . »
فسألتنى جيزيلا قائلة فى ازدراء ـ « ولماذا ؟ »
ـ « لانه لا يريدنى أن أراك . »
فقالت جيزيلا فى غضب شديد ـ « يا له من فاشــل قذر مفلس جاهل ! انى أود أن أثبت ذلك .. أن أذهب اليه قائلة : ان آدريانا ما زالت تلقانى . ولقد أمضت معى النهار كله اليوم . فلتفسخ خطبتها الان ! »
فتوسلت اليها فى ذعر قائلة ـ « كلا . ارجوك ! لا تفعلى هذا ـ »
ـ « هذا هو خير ما يمكن أن يحدث لك . »
فتوسلت اليها مرة أخرى قائلة ـ « ربما . ولكن لا تفعلى هذا . ان كنت تحبيننى فلا تفعلى هذا . »
لم يتبس آستاريتا بشىء اثناء ذلك الحوار ولم يكد يتناول لقمة . بل ظل طوال الوقت مركزا عينيه على فى تعبير يائس حافل بالمعانى مغال فيه حتى انه لشد ما أوقعنى فى الحيرة والارتباك . ولقــد اردت أن أطلب اليه الا يحملق فى على تلك الصورة ولكننى خشيت سخرية جيزيلا وريكاردو . ولنفس السبب لم أجرؤ على الاحتجاج عندما انتهز آستاريتا الفرصة ليضغط على يدى اليسرى التى كنت

أضعها على المقعد أثناء جلوسنا فأرغمنى على تناول طعامى بيد واحدة فقط . ولكنه كان ينبغى على أن أحتج لان جيزيلا انفجرت فجـــأة ضاحكة وهي تقول ــ « ما أشد اخلاصها لجينو فيما تقول ! اما الافعال ــ ! أتحسبيننى لا أراك أنت وآستاريتا متماسكين بالايدى تحت المائدة ؟ »

فتضرج وجهى بحمرة الخجل وقد انتابنى الارتباك وحاولت أن أخلص يدى ولكن آستاريتا ظل قابضا عليها بقوة .

فقال ريكاردو ــ « دعيهما وشأنهما . فماذا يضيرنا من ذلك ؟ اذا كانا يتماسكان بالايدى فلنحذ حذوهما . »

فقالت جيزيلا ــ « هــذه دعابة . فأنا لا أبالى . بل انه ليسرنى ذلك . »

وعندما فرغنا من تناول المكرونة ظللنا ننتظر اللون التالى . وفى اثناء ذلك لم يفتأ ريكاردو وجيزيلا يتضاحكان ويتمازحان ويتساقيان كما ظلا يسقياننى . وكان نبيذا أحمر جيدا وقويا للغاية لم يلبث أن صعد الى راسى . ولقـــد أعجبت بمذاقه الدافىء اللاذع . ولم أشعر مطلقا بالسكر وأنا فى تلك الحال من النشوة بل أحسست بالقدرة على مواصلة الشراب الى ما لا نهاية . وظل آستاريتا ممسكا بيدى وقد ارتسم على وجهه الجد والإستغراق . ولم أعد الان اعترض على ذلك قائلة لنفسى أنه يمكنه على الاقل أن يمسك بيدى رغم كل شيء . وكانت هناك صورة زيتية معلقة على الباب تمثل رجلا وامرأة يرتديان زيا مضى على عهده خمسون عاما وكانا يتعـــانقان بطريقة مرتبكة مصطنعة فى شرفة تكسوها الورود . فلمحتها جيزيلا وقالت انهـــا لا تستطيع أن تتخيل كيف يمكنهما التقبيل وهما فى ذلك الوضع . ثم قالت لريكاردو ــ «دعنا نحاول . فلنر ان كنا نستطيع محاكاتهما . »

فوقف ريكاردو صاحكا واتخذ موقف الرجل الماثل فى الصـــورة الزيتية بينما اتكأت جيزيلا على المائدة وهى ضاحكة أيضا متخـــذة موقف المرأة الماثلة فى الصورة وهى تتكىء على جـانب الشرفة المغطى بالورود . وقد استطاعا بعد مجهود جبار أن يضما شفاهما معـــا ولكنهما فى نفس اللحظة تقريبا فقدا توازنهما وسقطا معا على المائدة .

ثم قالت جيزيلا وقد أثارها المزاح ــ « والآن جاء دوركما ! »

فسألت مذعورة ــ « لماذا ؟ وما شأنى بهذا ؟ »

« هيا . فلا بد أن تحاولى . »

وأحسست بآستاريتا يحيط خصرى بذراعه فحاولت أن أتملص

منه قائلة « انى لا أبغي ذلك » •• فقالت جيزيلا ـ « اف • يا لك من مفسدة للهو ! ما هى الا دعابة • »

كان ريكاردر يضحك حاثا آستاريتا على تقبيلى قائلا ـ « اذا لم تقبلها يا آستاريتا فلن أرى وجهك بعد اليوم • « ولكن استاريتا كان جادا يكاد يفزعنى • فمن الواضح ان الامر فى نظره كان أكثر من دعابة •

فقلت مشيحة بوجهى بعيدة عنه ـ « دعنى وشأنى • »

فنظر الى ثم رمق جيزيلا وفى عينيه تساؤل كمن يتوقع أن تحثه. فهتفت جيزيلا قائلة : ـ « هيا يا آستاريتا ! » كانت تبدو أشد منه حماسة على صورة أمكنتنى فى غموض أن ألكهن بقسوتها وخلوها من الرحمة •

فشدد آستاريتا من احاطته بخصرى وهو يجذبنى نحوه • وان لم يعد الامر دعابة فقد أراد أن يقبلنى مهما كان الثمن . وحاولت أن أتخلص من قبضته دون أن أنبس بكلمة ولكنه كان قويا للغاية • وكلما دفعته بيدى بعيدا عنى زاد احساسى باقتراب وجهه من وجهى رويدا رويدا . ومع ذلك فقد كان من المحتمل الا يتمكن من تقبيلى لولا تدخل جيزيلا التى خفت لمساعدته فقد نهضت فجأة وهى تطلق صيحة النصر وجاءت راكضة من خلف ظهرى حيث أمسكت بذراعى وجذبتهمــ الى الوراء • وكنت لا أراها ولكننى احسست بتصميمها العنيد من الطريقة التى غرزت بها أظافرها فى بدنى ومن نبرآت صوتها الذى لم لم يفأ يردد قائلا بنغمة منفعلة قاسية مهتزة تتخلله انفجارات من الضحك ـ « أسرع • اسرع يا آستاريتا ! فها قد حانت فرصتك ! » والان كان آستاريتا قد أطبق على . فحاولت جهد طاقتى أن أشيح بوجهى بعيدا عنه . وهذا هو كل ما كان يسعنى أن أفعل . ولـكنه بيد واحدة أمسك بذقني وأدار وجهى نحوه بقوة ثم قبل فمى قبلة عنيفة طويلة •

فقالت جيزيلا بلهجـــة المنتصر ـ « ها قد تم ما كنت أبغى ! » ثم عادت لتجلس فى مكانها فرحة مسرورة .

وأطلق آستاريتا سراحى . فقلت وأنا أشعر بالضيق والاستياء ـ لن أخرج معكم مرة أخرى •

فقال ريكاردو ساخرا منى ـ « ما هذا يا آدريانا ؟! كل ذلك أجل قبلة واحدة ! »

ثم صاحت جيزيلا قائلة فى نشوة ـ « لقد اكتسى وجه آستاريتا بأحمر الشفاه ! ماذا يقول جينو لو دخل علينا الان ؟ »

وكان فم آستاريتا ملوثا حقا بأحمر الشفاه • فبدا لى مضحكا وقد ارتسم عبر وجهه الحزين الشاحب خط قرمزى • قالت جيزيلا ـ « هيا فلتتصافيا ـ ولتمسحى له أحمر الشفاه بمنديلك • والا فماذا يظن بنا النادل عندما يأتى ؟ »

وكان على أن أصلح ما فسد فبللت طرف منديلى بلسانى وأخذت أمسح تدريجيا أحمر الشفاه عن وجه آستاريتا الحزين . ولكننى أخطأت باظهارى مدى هدوئى وعدم اضطرابى لاننى لم أكد أبعد منديلى حتى أحاط خصرى بذراعه فى الحال • فقلت ـ « دعنى أذهب . »

« ماذا بك يا آدريانا ؟! »

فقالت جيزيلا ـ « وأى فرق هناك ان كان ذلك يعجبه ولا يضرك فى شىء ؟ وعلى أية حال فقد قبلك • فلتدعيه يفعل ما يشاء • »

فأذعنت مرة أخرى ومكثنا متجاورين وقد وضع ذراعه حول خصرى بينما جلست أنا هناك على مضض متصلبة . وجاء النادل حاملا اللون الثانى من الطعام . وأخذ سخطى يزايلنى شيئا فشيئا أثناء تناولى الطعام رغم أن استاريتا كان يضمنى اليه بقوة . ولشد ماكان الطعام سائغا فشربت كل ماكانت تصبه لى جيزيلا من نبيذ دون أن ألحظ ذلك . وبعد أن انتهينا من تناول اللون الثانى أكلنا الفاكهة والحلوى الفاخرة • ولم أكن فى حياتى قد ألفت مثل هذه الاشياء ولذلك فانى لم استطع الاعتراض عندما قدم الى آستاريتا نصيبه من الحلوى والتهمته ايضا • ثم بدأت جيزيلا تستميل ريكاردو بشتى الطرق وكانت هى أيضا قد جرعت كمية كبيرة من النبيذ فأخذت تضع له فصوص اليوسفى فى فمه وتمنحه قبلة مع كل فص . وأحسست بالنشوة على صورة محببة . ولم تعد تضايقنى ذراع آستاريتا المحيطة بخصرى . ثم نهضت جيزيلا وكانت فى كل لحظة تزداد قلقا واضطرابا وذهبت لتجلس على ركبة ريكاردو . فلم أتمالك نفسى من الضحك عندما سمعت ريكاردو وهو يتظاهر بالصياح فى ألم وكأنه يرزح تحت ثقل جيزيلا • واذا بآستاريتا الذى كان قانعا بوضع ذراعه حول خصرى ولم تبدر منه حركة حتى تلك اللحظة يأخذ فى تقبيل عنقى وصدرى ووجنتى وهو لاهث الانفاس . وعندئذ لم أحتج أولا لاننى كنت فى حال من النشوة لا تسمح لى

بمقاومته وثانيا لانه بدا لى وكأنه يقبل شخصا آخر . فلم اكد أشاركه فيما يفعل بل ظللت ساكنة متصلبة كالتمثال . وقد خيل لى وانا على تلك الحال من النشوة أننى واقفة خارج نفسى فى احدى زوايا الغرفة أشاهد فى غير اكتراث رغبة آستاريتا العارمه وكأننى لا أعدو أن اكون مشاهدة دفعها الفضول . ولكن الاخرين حسبوا عـــدم اكتراثى حبا فصاحت جيزيلا قائلة ـ « أحسنت صنعا يا ادريانا ـ فهذه هى الطريقة ! »

واردت ان أجيب ولكننى عدلت عن ذلك لسبب لا أدريه ثم قلت بصوت واضح مدو وانا ارفع قدحى مملوءا بالنبيذ ـ « لقد سكرت! » وفى جرعة واحدة أفرغت القدح فى جوفى . وأعتقد أن الاخرين صفقوا لى . ولكن آستاريتا توقف عن تقبيلى ثم تمتم قائـــلا لى وقد ركز عينيه على : ـ « فلنمض الى الغرفة الاخرى »

فتابعت عينيه ورأيت أنه كان ينظر الى باب الغرفة المجاورة وكان مواربا . فخيل لى أنه لابد أن يكون مخمورا أيضا . فأومأت برأسى معبرة عن رفضى ولكن فى رقة تكاد تبلغ حد الغزل .

فردد قائلا كما يفعل النائم ـ « فلنمض الى الغرفة المجاورة »

ولاحظت أن جيزيلا وريكاردو قد توقفا عن الضـحك والثرثرة واخذا يراقبان حديثنا .

وقالت جيزيلا ـ « هيا ! وماذا فى ذلك ؟! ماذا تنتظران ؟ »

فأفقت من سكرى فى الحال . فلاشك انى كنت مخمورة ولكننى لم أبلغ الحد الذى يجعلنى غافلة عما يتهددنى من خطر . وقلت ـ « انى لا ابغى ذلك . » ثم نهضت واقفة .

فنهض آستاريتا أيضا ثم قبض على احـدى ذراعى وحاول ان يجذبنى نحو الباب . اما الآخران فأخذا يحثانه من جديد قائلين ـ « هيا يا آستاريتا ! »

وكان آستاريتا قد سحبنى قرب الباب رغم مقاومتى اياه . ثم تخلصت منه بحركة مفاجئة وركضت نحو الباب المؤدى الى الدرج . ولكن جيزيلا كانت أسرع منى اليه وصاحت قائلة : ـ « لا ياعزيزتى . لن تفعلى ذلك ! » فقد قفزت من فوق ركبتى ريكاردو وجـرت لتوصد الباب قبل أن اتمكن من الوصول اليه ثم أخذت المفتاح .

رددت قائلة فى رعب وأنا واقفة بجانب المائدة ـ « انى لا ابغى ذلك . »

فسألنى ريكاردو قائلا ـ « وفيم يمكن أن يضيرك ذلك ؟ »

وقالت جيزيلا فى خشونة وهى تدفعنى نحو استاريتا ـ يالك من بلهاء ! ما كل هذه الضجة ؟ ـ هيا امضى الان ؟ »

ادركت ان جيزيلا رغم قســوتها واصرارها لم تكن تفهم ما هى فاعلة ـ فلا بد ان الخطة التى وضعتهامن أجلى كانت تبدو لها غاية فى الذكاء والترفيه على صوره تبعث على السرور . كما أدهشــــنى ابتهاج ريكاردو وعدم اكتراثه وكنت اعهده رحيمــا رقيقا غير خليق بارتكاب ما يراه خبيثا .

ورددت قائلة ـ « انى لا ابغى ذلك . »

فسألنى ريكاردو قائلا ـ « لم لا ؟ فليس فى ذلك من أذى . »

ولم تفتأ جيزيلا تدفعنى فى حماس وانفعال قائلة :

ـ « لم أكن أتخيل انك على هذا القدر من الغباوة . هيا ياآدريانا . ماذا تنتظرين ؟ »

وظل استاريتا حتى تلك اللحظة صامتا لا ينطق بكلمة بل كان يقف ساكنا بالقرب من باب غرفة النوم محملقا فى . ثم رايته يفتح فاه كمن يريد أن يتكلم . فقال فى صوت بطىء مختنق وكأن الالفاظ ذات معدن لزج مما يتعذر معه أن ينطق بها ـ « هيا والا ابلغت جينو أنك خرجت معنا اليوم وسمحت لى بمضاجعتك . »

وأدركت فى الحال أنه بلا ريب سوف ينفذ وعيده . فالالفــاظ نفسها يمكن الشك فيها . أما نغمة الصوت فقلما يخطئها السامع . فما من شك فى أنه كان ينوى أن يخبر جينو وكان ذلك يعنى نهاية حياتى قبل أن أبدأها فعلا . واليوم عندما أفكر فيما حدث أعتقــد أنه كان يمكننى أن أقاومه . فلو اننى صرخت أو قاومته بعنف لاقنعته بأن تهديده اياى كان كانتقامه منى لا تأثير له على . ولكن ربما كان ذلك لا يجدينى لان رغبته فى كانت أقوى من نفورى . عندئذ بالطبع أحسست اننى غلبت على أمرى تماما ولم يتجه تفكيرى الى مقاومته بقدر مااتجه الى تجنب الفضيحة . فوجدت نفسى متورطة فى ذلك الموقف دون أدنى استعداد له بينما امتلأ ذهنى للمستقبل بالخطط التى لشد ما كنت أرغب فى تنفيذها . وفى اعتقادى ان ماوقع لى وقتذاك بمثل هذه الطريقة الفظة لابد أن يحدث لكل من له مثــل مطامحى البريئة المتواضعة المشروعة . فالعالم يقبض علينا من خلال مطامحنا ثم يرغمنا ان عاجلا أو آجلا على دفع ثمن مؤلم باهظ ـ ذلك الثمن الذى لا يأمل ان يعفى منه سوى طريدى المجتمع وأولئك الذين نفضوا أيديهم من كل شىء .

ولكننى فى نفس اللحظة ألتى ارتضيت فيها مصيرى خالجنى احساس بالالم حاد مضىء . فثمة وميض من البصيرة بدا وكأنه يضىء لى طريق المستقبل بأسره فيكشفه واضحا مستقيما أمام عينى ـ ذلك الطريق الذى لشد ماكان يبدو مظلما ملتويا . وقد أظهر لى فى تلك اللحظة ما سأفقده فى مقابل صمت آستاريتا ، فاغرورقت عيناى بالدموع وبدات أبكى واضعة ذراعى على وجهى . وادركت أن بكائى لم يكن تمردا أو عصيانا بل استسلاما مطلقا . وفى الواقع فان ساقى كانتا تحملاننى نحو آستاريتا بينما تنهمر الدموع من عينى . ودفعتنى جيزيلا من ذراعى مرددة ـ « فيم البكاء ؟ انه ليخيل لكل من يراك انك تفعلين ذلك لاول مرة ! » فسمعت ريكاردو وهو يضحك . واحسست بعينى آستاريتا دون أن أراه وهما مسلطتان على أثناء سيرى نحوه فى بطء والدموع تنهمر من عينى . ثم أحسست به وهو يحيط خصرى بذراعه ويغلق باب الغرفة من خلفى .

ولم اشأ أن أرى شيئا بل لقد بدا لى أن احساسى يفوق قدرتى على الاحتمال . ولهذا فقد ظللت واضعة ذراعى على عينى فى عناد رغم محاولة آستاريتا أن يجذبهما بعيدا . وانى اعتقد أنه شاء أن يحذو حذو العشاق جميعا فى مثل هذه المناسبات أى أن يستميلنى الى رغباته شيئا فشيئا وعلى غير وعى منى تقريبا . ولكن اصرارى على عدم رفع ذراعى عن وجهى ارغمه على أن يكون أكثر عجلة ووحشية مما يريد . وهكذا فبعد أن أجلسنى على حافة الفراش وحاول عبثا أن يستميلنى بقبلاته وعناقه دفعنى الى الخلف على الوسائد وألقى بنفسه على . وكان جسدى كله من الخصر حتى قدمى ثقيلا جامدا كالرصاص الى حد أننى أعتقد أنه مامن مضاجعة قبلت قط من جانب امرأة بمثل ما كانت عليه من سلبية واستسلام ولكننى ما لبثت أن توقفت عن البكاء . وما ان رقد على صدرى لاهث الانفاس حتى أبعدت ذراعى عن وجهى ورحت أحملق فى الظلام .

وانى أعتقد عن اقتناع أن آستاريتا حينذاك كان يحبنى بقدر مايمكن أن يحب رجل امرأة حبا يزيد بكثير عما يظهره لى جينو ـ فانى أذكر أنه لم يتمالك نفسه من أن يمر بيده مرارا وتكرارا على جبهتى ووجنتى بحركة عاطفية تشنجية مرتجفا من أعلى رأسه الى أخمص قدميه وهو لا يفتأ يتمتم بكلمات الحب . ولكن عينى كانتا مفتوحتين على سعتهما وقد جفت فيهما الدموع كما شاع فى رأسى الآن بعد أن انجابت عنه أبخرة النبيذ صفاء ثلجى دوام . وتركت

آستاريتا يدغدغني ويحدثني بينما لم أفتأ أتابع خواطري الخاصة .
فتراءت لي مرة أخرى غرفة نومي كما رتبتها وبها أثاثها الجديد الذي لم أنته بعد من دفع ثمنه فأحسست بلون من العزاء المرير . وقلت لنفسي انه لايمكن الآن أن يحول شيء بيني وبين الزواج أو بيني وبين الحياة التي أبغيها . ولكنني في نفس الوقت احسست بروحي وقد تغيرت تغيرا كاملا فقد حل محل آمالي الفضة الساذجة في وقت ما يقين جديد وتصميم أكيد . وفجأة احسست انني أقوى بكثير مما كنت رغم أنها قوة حزينة خالية من الحب .

وأخيرا قلت متحدثة لاول مرة منذ دخولنا غرفة النوم ـ « لقد حان الوقت للعودة الى الغرفة الاخرى . »

فسألني في الحال قائلا في صوت خفيض ـ « هل أنت غاضبة مني؟ »

ـ « كلا . »

ـ « أتكرهينني ؟ »

ـ « كلا . »

فتمتم قائلا ـ « لشد ما أحبك . » وفي عاصفة من الحماس بدأ مرة أخرى يغطي وجهي وعنقي بقبل عاطفية سريعة . فتركته يفعل ما يشاء ثم قلت ـ « نعم . ولكننا يجب أن نذهب . »

فأجابني قائلا ـ « انك على حق . » ثم ابتعد عني فجأة وأخذ يرتدي ملابسه فيما اظن . فأصلحت من هندامي بقدر امكاني ثم نهضت وأضأت المصباح المعلق فوق الفراش . وفي ذلك الضوء الاصفر بدت الغرفة تماما كما أوحت بها رائحتها الخانقة المعطرة باللافندر : فكان سقفها خفيضا طليت عروقه الخشبية بالجير واكتست جدران الغرفة بورق فرنسي الصنع وكان الاثاث قديما ثقيلا . وفي احدى زوايا الغرفة كانت هناك مفسلة تعلوها رخامة وضع عليها ابريقان وحوضان وقد نقش عليها جميعا باللونين الاخضر والاحمر زخرف من الزهور . كما وضعت مرآة كبيرة في آطار ذهبي . فاتجهت الى المغسلة حيث صببت قليلا من الماء في الحوض ثم غمست فيه طرف المنشفة ومسحت على شفتي المكدومتين بقبل آستاريتا وعلى عيني اللتين مازالتا محمرتين من أثر البكاء . وانعكست على سطح المرآة اللامع المخدوش صورة مؤلمة لي فتأملتها لحظة كالمسحورة وقد امتلأ قلبي بالشفقة والعجب . ثم استجمعت شجاعتي ونسقت شعري بيدي بقدر امكاني واستدرت نحو آستاريتا وكان ينتظرني عند الباب . وما ان رأى أنني على استعداد للخروج حتى فتحه

متجنبا عينى ومديرا ظهره نحوى . فاطفأت الضوء وتبعته الى الخارج
وقوبلنا بتحية مرحة من جيزيلا وريكاردو اللذين كانا كما تركناهما يواصلان جلستهما بنفس الطريقة المبتهجة غير العابئة . لقد عجزا من قبل عن فهم مدى اضطرابى كما عجزا الآن تماما عن ادراك ماكنت فيه من صفاء .

وصاحت جيزيلا قائلة ـ « ما أبرعك فى ادعاء البراءة ! فأنت لا تبغين ذلك . لا تبغين ذلك ولكنك فيما أرى سرعان ما أنجزت المهمة بمهارة فائقة . وعلى أية حال فلا بأس ان شئت من أن أتحمل وزرك ... ولكن الامر لم يكن يستحق أن تثيرى حوله كل هذه الضجة »

فنظرت اليها وقد بدا لى من الظلم الصارخ أن تكون هى التى حثتنى على الاذعان بل ان تكون هى التى أمسكت بذراعي حتى يتيسر لآستاريتا أن يقبلنى ثم تلومنى الآن لرضاى .

فعلق ريكاردو قائلا بمنطقه الفظ ـ « انك لست منطقية فى تفكيرك ياجيزيلا . فأنت تحثينها فى أول الامر ـ ثم تبدين الآن وكأنك تأخذين عليها مافعلت . »

فأجابت جيزيلا قائلة فى قسوة ـ « بالطبع . فلشد ما يعظم خطؤها لو أنها لم تبغ ذلك . فأنا عن نفسى لا يستطيع شىء فى الوجود ولا حتى القوة أن يخضعنى اذا لم تكن لدى الرغبة . » ثم أضافت قائلة وهى تنظر الى فى نفور وسخط ـ « ولكنها كانت تبغى ذلك . تبغى ذلك . وكيف ! ـ لقد شاهدتهما فى السيارة ونحن فى الطريق الى فيتريو . لذلك ما كان ينبغى أن تثير كل هذه الضجة . هذا هو رأيى . »

فلم أنبس بكلمة لاعجابى الشديد الذى كاد يذهلنى بخلوص قسوتها اللاواعية التى لا تعرف الشفقة . واقترب منى آستاريتا محاولا فى ارتباك أن يمسك يدى . ولكننى أبعدته عنى وذهبت لاجلس عند طرف المائدة . فهتف ريكاردو قائلا ـ « أنظروا الى آستاريتا ! فهو يبدو وكأنه عائد لتوه من تشييع جنازة ! »

وفى الواقع فان آستاريتا بكل ماكان يرتسم على وجهه من كآبة ومهابة بدا وكأنه يفهمنى أكثر من الآخرين . اذ قال ـ « انكما تسخران من كل شىء . »

فصاحت جيزيلا قائلة ـ « أتظن أننا يجب أن نجهش بالبكاء . والآن عليكما أن تجلسا عاطلين فى انتظارنا كما فعلنا . فقد جاء دورنا والآن . هيا ياريكاردو ! »

فقال ريكاردو وهو ينهض ليتبعها ـ « خذا حذركما » . ومن

الواضح انه كان مخمورا ولم يكن يدزى هو نفسه ماذا ينبغى أن نحذر
ــ « هيا بنا هيا ! »
ثم غادرا الغرفة ومكثنا وحدنا أنا وآستاريتا . وكان كل منـا يجلس الى أحد طرفى المائدة . وقد تسلل شعاع من الشمس خلال النافذة فسطع على الاوانى الخزفية المبعثرة وقشر الفـاكهة وأقداح النبيذ التى لم يفرغ الا نصفها والشوك والسكاكين القذرة . أما تعبير آستاريتا فقد ظل حزينا مغتما رغم أن الشمس كانت تسطع مباشرة فى وجهه . ولم تزل تبدو فى عينيه (بعـد أن هدأت رغبتـه) نظرة الحمـاس العـاطفى الممض التى كانت تتجلى فى عينيـه عند بدء تعارفنا . وعندئذ أحسست بالاسف له رغم ما الحقه بى من أذى . فقد أدركت انه كان تعسا قبل أن ينال منى مأربه ولـكن تعاسته الآن بعد أن تم كل شيء لم تنقص عن ذى قبل . فقـد كان يعانى من قبل لرغبته فى وصار يعانى الان لاننى لم أبادله الحب . ولكن الشفقة هي ألد عدو للحب . فلو أننى كرهته لراوده الامل فى أن أحبه يوما ما . ولكننى لم أشعر نحوه بالكراهية . ولما كنت أحس بالاسف له كما قلت فقد تأكدت من أننى لن أشعر نحوه بشيء سوى النفور البارد العزوف .
وجلسنا هناك فترة طويلة فى الغرفة المشمسة فى انتظار عـودة جيزيلا وريكاردو . ولم يتوقف آستاريتا لحظة عن التدخين وهـو لا يفتأ يتأملنى بنظرة صريحة من خلال سحب الدخان التى أحاطت به كمن يريد أن يقول شيئا ولكنه لا يجرؤ عليه . كنت أجلس الى المائدة جلسة جانبية عاقدة ساقى وقد خلا قلبى الا من الرغبة فى الهرب . كنت لا أشعر بالتعب أو الخجل من نفسى . بل كان كل ما ابغيه هـو أن أخلو الى نفسى وأفكر فيما حدث فى أناة وتريث . وكان حنينى الى الهرب تتخلله من وقت لآخر أشياء سخيفة كنت لا افتأ ألاحظها ــ كاللؤلؤة المثبتة فى مشبك رباط عنق آستاريتا وزخرف الورق الذى يكسو الحائط وذبابة كانت تدور حول حافة أحد الاقداح وقطـرة صغيرة من صلص الطماطم لوثت قميصى أثناء تناولى الطعام . فضقت بنفسى لعدم قدرتى على التفكير فيما هو أهم من ذلك . ولـكننى أفدت بعض الشيء من تفاهة خواطرى عندما سألنى آستاريتا بعـد فترة صمت طويلة متغلبا على خجله قائلا فى صوت مخنوق ــ « فيم تفكرين ؟ » فتربثت لحظة ثم قلت فى بساطة ــ « لقد قصف أحـد أظافرى ولا أستطيع أن أتذكر متى أو كيف حدث ذلك . » ولقـد

صدقته القول . ولكنه رمانى بنظرة مريرة غير مصدقة . ومنذ تلك اللحظة لم يحاول قط أن يتحدث الى .

وأخيرا عاد ريكاردو وجيزيلا فى الوقت المناسب وقد بدا عليهما شي من الارهاق ولكن مرحهما وهدوءهما لم يتغيرا عن ذى قبل . وقد أدهشهما ماكنا فيه من صمت ورزانة . ولكن الوقت الآن كان قد تأخر كما عراهما شيء من الهدوء على أثر المضاجعة التى لشد ما اختلف تأثيرها عليهما . فقد صارت جيزيلا اكثر عطفا على ولم تعد تظهر اضطرابها وقسوتها اللذين كشفت عنهما قبل ضربة آستاريتا المنذرة المهددة وبعدها . وكدت أعتقد أن تهديده اياى قد اضفى على علاقتها المملة بريكاردو لونا جديدا من الاثارة الجنسية فأحاطت خصرى بذراعها أثناء هبوطنا الدرج الى الطابق الارضى وهمست فى أذنى قائلة « لماذا يبدو عليك كل هذا الانزعاج ؟ اذا كنت قلقة بصدد جينو فلا داعى لذلك ـ فأنا وريكاردو لن نذكر شيئا لاحد »

فكذبت قائلة ـ « انى متعبة . » فأنا لا أستطيع العبوس كما أن احاطتها خصرى بذراعها كانت خليقة بأن تزيل استيائى .

وأجابت قائلة ـ « وكذلك أنا . فانى لم أفتأ أواجه الريح طوال الطريق الى هنا . » ثم مالبثت أن قالت أثناء وقوفنا على عتبة باب المطعم بينما اتجه الرجلان صوب السيارة .

ـ « انك لست غاضبة منى بسبب ماحدث ؟ »

فأجبت قائلة ـ « كلا مطلقا . فما شأنك بذلك ؟ » لقد شاءت أيضا أن تتأكد من اننى لست غاضبة منها بعد أن أرضت قدر امكانها بخطتها الصغيرة التى حاكتها لى شتى نزواتها . وأحسست انى صرت أفهمها أكثر مما ينبغى . ولهذا كنت أتوق الى تبديد وساوسها جميعا والى اظهار العطف نحوها خشية أن تغضب لو أدركت أننى أفهمها . فأستدرت نحوها وقبلتها على وجنتيها قائلة ـ « ولماذا أغضب منك ؟ فانك كنت دائما تقولين لى اننى يجب أن أتخلى عن جينو واتخذ من آستاريتا عشيقا . »

فأمنت على قولى مؤكدة ـ « هذه هى الحقيقة . ومازلت أرى ذلك . ولكننى أخشى انك لن تصفحى عنى »

لقد بدا عليها القلق . كما كنت ـ خشية أن تكتشف حقيقة شعورى ـ أكثر منها قلقا وكأنه قد انتقل الى عن طريق عدوى غريبة

فأجبتها قائلة فى بساطة ـ « من الواضح أنك لا تعرفيننى على حقيقتى . فأنا أعلم أنك تريديننى أن أترك جينو وذلك لانك تحبيننى

وتأسفين لانى لا أسعى جهدى الى ما فيه مصلحتى » ثم أضفت أكذوبة اخرى قائلة ـ « بل يمكننى أن أقول انك ربما كنت على حق . »

فبدا عليها الاطمئنان . وامسكت بى من ذراعى قائلة فى لهجة حوار ولكنها كانت فى نفس الوقت بطيئة مؤتمنة ـ « يجب أن تفهمى ما أعنيه . فانه لما يناسبك أن تتخذى من آستاريتا أو أى شخص آخر عشيقا لك .. عدا جينو ! فليتك تعلمين كم يكدرنى أن أرى حسناء مثلك تبدد جمالها ! سلى ريكاردو . انى لا أفتأ أحدثه عنك طوال النهار . » وصارت الآن تتحدث الى دون ارتباك كما اعتادت أن تفعل . ولقد حرصت على أن أوافقها على كل ما تقول . وهكذا بلغنا السيارة حيث اتخذنا نفس الاماكن التى جئنا فيها . وعندئذ تحركت بنا .

ولم ينطق أحدنا بكلمة اثناء رحلة العودة . فقد ظل آستاريتا يحملق فى ولكن نظرته لم تكن تكشف عن رغبته بقدر ماكشفت عما يحس به من مهانة . ولم تعد الآن تسبب لى ارتباكا فلم تراودنى الرغبة فى التحدث اليه وملاطفته كما راودتنى عند مجيئى . بل أخذت استنشق الهواء الذى لم يفتأ يهب على وجهى من النافذة المفتوحة . ولم أبرح أحصى بطريقة آلية علامات الطريق التى تقيس المسافة من روما . ولكننى فى لحظة معينة أحسست بيد استاريتا وهى تحتك بيدى ولاحظت أنه كان يحاول أن يدس فيها شيئا ـ لعله قصاصة من الورق . وخيل لى أنه لما كان يجبن عن مخاطبتى فقد خط لى رسالة، ولكننى عندما خفضت بصرى وجدت أنهاورقة مالية طويت مرتين .

وكان ينظر الى فى ثبات وهو يحاول أن يضم أصابعى على الورقة . وددت لحظة لو ألقيت بها فى وجهه . ولكن خطر لى فى نفس الوقت أن مثل هذا السلوك لشد ما يكون سطحيا ومن وحى التقليد وليس نتيجة اندفاع ذاتى عميق نابع من القلب . ولشد ماحيرنى احساسى آنذاك ـ ذلك الاحساس الذى لم يعاودنى قط بهذه الصورة الواضحة العنيفة أيا كانت الطريقة أو المناسبة التى تلقيت فيها نقودا من الرجال فقد أحسست وكأنى مشتركة فى جريمة أو فى مؤامرة جنسية احساسا لم تستطع قبله وأحضانه كلها اثارته فى نفسى عندما احتوتنا غرفة النوم فى المطعم . احسست بالرضوخ الذى لا مفر منه مما كشف لى فى ومضة عن ناحية من نواحى طبيعتى كنت أجهلها حتى الآن . كنت أعلم بلا شك اننى يجب أن أرفض النقود ولكننى أحسست فى نفس الوقت بالرغبة فى قبولها لا طمعا فيها بل ايثارا لتلك اللذة

الجديدة التى أتاحتها هبته لى .

ولكننى رغم استقرار رأيى على قبولها أتيت حركة توهم بأنى أعتزم ردها اليه . وكانت حركتى تلك بدافع من غريزتى ولا يشوبها ظل من التفكير أو التدبير .. فأصر آستاريتا على أن يعطينى اياها وهو لا يزال يحملق فى عينى فنقلت الورقة خلسة من يدى اليمنى الى يدى اليسرى وشعرت بالاثارة على صورة غريبه وقد التهب وجهى بالدم واضطربت أنفاسى . ولو استطاع آستاريتا أن يتكهن بمشاعرى فى تلك اللحظة فلربما خيل له أننى أحبه . ولكن ذلك كان أبعد ما يكون عن الحقيقة . أما ذهنى فلم يكن يشغله سوى النقود والطريقة التى اكتسبت بها والطريقة التى أعطيت بها . ثم أحسست بآستاريتا وهو يمسك بيدى فتركته يقبلها ثم سحبتها بعيدا .

وما ان عدنا الى المدينة حتى افترقنا ونحن أشبه بالهاربين كأن كلا منا كان يعلم أنه ارتكب جريمة ولا هدف له سوى الهرب والاختفاء . وفى الواقع فان شيئا أقرب مايكون الى الجريمة قد شاركنا جميعا فى ارتكابه يومذاك — ريكاردو بحماقته وجيزيلا بحسدها وآستاريتا بشهوته وأما أنا فبجهلى وقلة خبرتى . وقد ضربت لى جيزيلاموعدا للذهاب الى المرسم فى اليوم التالى وتمنى لى ريكاردو ليلة طيبة ولم يسع آستاريتا الا أن يضغط على يدى فى صمت وهو لايزال جادا حزينا كعهده دائما . ولقد صحبونى حتى باب الدار . وعلى الرغم مما كان ينتابنى من ارهاق وندم فانى أذكر أننى لم أتمالك نفسى من الشعور بالزهو عند هبوطى من السيارة الفاخرة عند باب منزلى على مرأى من جيراننا أفراد أسرة عامل السكة الحديد الذين كانوا يتطلعون من خلال النافذة .

ومضيت الى شقتنا حيث احتبست فى غرفتى الخاصة . ثم بادرت بفحص النقود فوجدت أنها ليست ورقة واحدة بل ثلاث ورقات من فئة الالف ليرة . وكدت أشعر لحظة بالسعادة وأنا جالسة على حافة الفراش . فان النقود لم تكن تكفى لسداد مابقى من أقساط الاثاث فحسب بل لشراء بعض الاشياء الاخرى التى كنت أحتاج اليها . ولما لم يكن قد توفر لدى قط من قبل مثل هذا المبلغ الكبير من المال فانى لم أتمالك نفسى من تحسس الاوراق بأصابعى والحملقة فيها . وكان مرآها بسبب فقرى لايبعث الفرحة فى نفسى فحسب بل يكاد ألا يكون مصدقا . وكان على أن أتأمل تلك الاوراق باشتياق كما فعلت من قبل مع قطع الاثاث لكى أقنع نفسى بأنها تخصنى حقا .

الفصل الخامس

لقد محا نومى العميق خلال الليل الطويل ـ او هكذا خيل لى ـ ذكرى مغامرتى فى فيتريو فاستيقظت فى اليوم التالى وقد استعدت هدوئى موطنة النفس على المثابرة على بذل كل ما فى وسعى لكى أحيا حياة عائلية طبيعية • ولم تشر جيزيلا التى قابلتها فى الصباح أيما اشارة الى الرحلة اما ندما على ما فعلت أو من وحى كياسة حكيمة . فشعرت نحوها بالامتنان • ولكن القلق أخذ يساورنى بصدد لقائى التالى بجينو •فعلى الرغم من ثقتى ببراءتى التامة كنت أعلم أننى سأضطر الى الكذب عليه فأحسست بالسخط لاضطرارى الى ذلك كما أننى لم أكن واثقة من قدرتى على الكذب لاننى لم أفعل ذلك من قبل بل لشد ماكنت صريحة معه حتى الآن • لاشك اننى أخفيت عنه مداومتى على الاتصال بجيزيلا ولكن دوافعى فى تلك الحال كانت بريئة للغاية حتى أننى لم أعد ذلك كذبا بل الاحرى انه كان ملاذا ألجأتنى اليه كراهيته غير المعقولة لجيزيلا •

ولقد استبد بى القلق الى حد أننى ما كدت ألقاه يومـذاك حتى وجدت صعوبة فى الامتناع عن البكاء وعن مصارحته بما حدث راجية الصفح . فلشد ما اثقلت كاهلى قصة الرحلة الى فيتريو بأكملها وكنت أتوق الى التخلص من عبئها بالتحدث عنها •فلو أن جينو كان شخصا آخر كائنا من كان وكنت أعلم أنه أقل غيرة لحدثته عنها دون شـك ولزاد حبنا فى رأيى عما كان عليه فى أى وقت ولاحسست باعزازه اياى وارتباطى به برباط أقوى من الحب نفسه . وكنا فى السيـارة كعادتنا فى الطريق الريفى المعهود فى ساعة مبكرة من الصباح • ولقد لاحظ قلقى وسألنى عما بى •

فحدثت نفسى قائلة ـ « والآن سأروى له القصة بأسرها ـ حتى لو طردنى من السيارة واضطررت أن أعود الى المدينة سيرا على الاقدام» ولكن شجاعتى خانتنى فسألته بدلا من ذلك ان كان يحبنى •

فأجابنى قائلا ـ ياله من سؤال ! »

فأردفت قائلة وقد فاضت عيناى بالدموع ـ « وهـل ستحبنى دائما ؟ »

ـ « دائما » .
ـ « وهل سنتزوج قريبا ؟ »
فبدا عليه السخط لالحاحى . وهتف قائلا :
ـ « عجبا . قد يتبادر الى ذهنى انك لا تثقين بى ـ الم نتواعد على الزواج فى عيد الفصح ؟ »
ـ « نعم » .
ـ « ألم اعطك نقودا لتأثيث المنزل ؟ »
ـ « نعم . »
ـ « حسنا اذن ـ فهل انا ممن يفون بالوعد أو لا ؟ انا لا أقول شيئا الا فعلته . أراهن أن أمك هى التى لا تفتأ تحرضك على ذلك »
فأنكرت ذلك مذعورة ـ « كلا . فان أمى لا شأن لها بذلك ! انصت الى . وهل سنعيش معا ؟ »
ـ « بالطبع . »
ـ « ونتمتع بالسعادة ؟ »
ـ « ان ذلك يتوقف علينا » .
ثم عدت أسأله مرة أخرى قائلة وقد عجزت عن طرد خواطرى المتلاحقة التى لم يفتأ يصورها لى قلقى ـ « وهل سنعيش معا ؟ »
ـ « يا الهى ! لقد سألتنى هذا السؤال من قبل وأجبتك عنه » .
فقلت ـ « آسفة . ولكن ذلك لا يكاد يبدو لى ممكنا فى بعض الاحيان »
ولما لم أعد قادرة على التحكم فى نفسى فقد بدأت أبكى . فتولته الدهشة لبكائى كما انتابه القلق ولكنه قلق ملىء بالندم كما كان واضحا ، ذلك الندم الذى لم تتكشف لى أسبابه الا بعد وقت طويل .
فقال ـ « والان كفى ! ففيم البكاء ؟ »
وفى الواقع فان بكائى كان مرجعه احساسى بالمرارة والالم لعجزى عن مصارحته بما حدث ومن ثم أخلص ضميرى من عبء الندم . كما كنت أبكى لشعورى بالمهانة عندما يخطر لى أننى لست كفئا له أو لكل من يتصف بمثل سموه وكماله . وأخيرا قلت فى مشقة ـ « انك على حق . فأنا فتاة حمقاء » .
ـ « انا لا أبغى أن أقول ذلك ـ ولكننى لا ارى داعيا لبكائك » .
وظل العبء يثقل كاهلى . فذهبت الى الكنيسة للاعتراف بعد فراقنا فى ذلك المساء نفسه . وكنت قد انقطعت عن الاعتراف منذ عام تقريبا . ولكننى كنت أعلم طوال الوقت انه يمكننى الذهاب فى أية

لحظة وكان ذلك يكفيني • فمنذ أن قبلت جينو لاول مـرة أقلعت عن الذهاب للاعتراف • اذ أدركت أن علاقتى بجينو كانت تعـد خطيئة فى نظر الكنيسة • ولكننى لما كنت أعلم أن الزواج مصـيرنا فانى لم أشعر قط بتأنيب الضمير بل عقدت النية على الاستغفار قبل الزفاف مرة واحدة والى الابد •

ذهبت الى كنيسة صغيرة فى قلب المدينة وكان بابها يقع بين مدخل احدى دور السينما وواجهة محل لبيع الملابس الصوفية الداخلية . وكاد الظلام يكون دامسا فى داخل الكنيسة عـدا المذبح الرئيسى ومصلى جانبى خصص للسيدة مريم العذراء . وكانت كنيسة صغيرة قذرة مهملة تباعدت مقاعدها الخيزرانية هنا وهنـاك على نفس الصورة غير المنظمة التى تركها فيها المصـلون عند انصرافهم مما ذكرنى لا بقداس بل باجتماع ممل ما ان يهرب منه المرء حتى يتنفس الصعداء

وقد كشف ضوء خافت كان يسقط من الكوى الصغيرة فى قبة الكنيسة عن الغبار المتراكم على الارضية المرصوفة والشقوق البيضاء فى الطلاء الاصفر المرقش الذى يكسو الاعمدة شبه الرخامية . كما كانت لوحات النذور الفضية العديدة المتزاحمة على الجدران فى صورة قلـوب ملتهبة تترك فى النفس تأثـيرا تافها كئيبا • ولـكن ثمة رائحة بخور قديم كانت منتشرة فى جو الكنيسة بثت فى قلبى الشجاعة • فقد كنت فى صباى أستنشق تلك الرائحة نفسـها مما أثار فى نفسى ذكريات كانت كلها بريئة محببة . اذ بدا لى اننى فى مكان مألوف . ومع أننى لم أزر تلك الكنيسة قط من قبل فقد أحسست وكأننى كنت لا أفتأ أتردد عليها طوال حياتى •

ولكننى شئت قبل الاعتراف أن أذهب الى المصلى الجانبى حيث لاحظت تمثالا للعذراء وكنت منذ مولدى مكرسة بالفعل للسـيدة مريم العذراء • وكانت أمى لا تفتأ تزعم أننى أشبهها فى قسمات وجهى المنتظمة وعينى السوداوين النجلاوين الرقيقتـين . وكنت لا أبرح أحب العذراء لانها تحمل طفلا بين ذراعيها ولان طفلها الذى صار رجلا قد قتل ، ولانها لشد ما عانت عنـدما رأته معلقـا على الصليب وهى التى حملته واحبته كما تحب اية أم ابنها . وطالما دار بخلدى أن السيدة العذراء التى تعددت أحزانها هى وحـدها التى يمكنها أن تفهم أحزانى حتى أننى فى طفولتى كنت أصلى لها وحدها اعتقادا منى بانه لا يمكن أن يفهمنى سواها . وفضلا عن ذلك فقد

كنت أحب العذراء للفارق الكبير بينها وبين أمى فى صفاتها وهدوئها وثيابها الفاخرة وعينيها اللتين تنظران الى فى حب عميق . فكانت تبدو لى كأنها أمى الحقيقية لا تلك الام التى تنفق وقتها فى زجرى وتعنيفى ولا تبرح تبدو منهوكة القوى رثة الهندام

فركعت أمامها مخفية وجهى بين يدى حانية رأسى ثم تلوت صلاة طويلة لها شخصيا ضارعة اليها أن تغفر لى ما فعلت ومتوسلة اليها أن تحمينى وكذلك أمى وچينو . ثم تذكرت أنه ينبغى على ألا أحمل ضغينة لاحد فسألت العذراء أن تحمى جيزيلا التى خانتنى بسبب حسدها وريكاردو الذى شدد من أزرها بسبب حماقته كما توسلت اليها أن تحمى آستاريتا . بل ان صلاتى من أجل استاريتا كانت أطول من صلاتى من أجل الاخرين لا لسبب الا لشدة حفيظتى عليه فأردت محوها من نفسى لكى أحبه كما كنت أحب الاخرين وأصفح عنه وانسى ما الحقه بى من اذى . ولشد ما أحسست بالتأثر العميق فى النهاية حتى اغرورقت عيناى بالدموع . ورفعت بصرى الى تمثال العذراء فوق المذبح فكانت دموعى أشبه بالحجاب على عينى مما جعل التمثال يبدو غامضا مرتعشا وكأننى أراه من خلال الماء . وبدت الشموع التى تتلألأ حول التمثال كعديد من النقاط الذهبية الصغيرة التى تسر الناظرين ولكنها فى الوقت نفسه تكدرهم كالنجوم التى تهفو نفوسنا أحيانا الى لمسها ولكننا نعلم أنها بعيدة المنال . وهكذا مكثت بعض الوقت أتأمل العذراء وانا لا أكاد أراها . ثم أخذت الدموع المريرة تتقاطر فى بطء من عينى ثم تنحدر على وجهى وهى تدغدغنى . ورأيت العذراء تنظر الى حاملة طفلها بين ذراعيها وقد أضىء وجهها بلهيب الشموع . وبدت أنها تنظر الى فى عطف وحنان . فشكرتها من أعماق قلبى وما ان نهضت واقفة حتى احسست بالطمأنينة وقد عادت الى . ثم ذهبت لأعترف

وكانت كراسى الاعتراف جميعا خالية . ولكننى بينما كنت أتجول فى الكنيسة باحثة عن قس رأيت شخصا يخرج من باب صغير الى يسار المذبح الرئيسى ويمر أمام الهيكل حيث يجثو فى خشوع راسما علامة الصليب ثم يشق طريقه الى الجانب الاخر من الكنيسة . كان راهبا ولكننى لم أعرف رتبته الكهنوتية . فاستجمعت شجاعتى وناديته فى صوت خفيض . فاستدار واقبل نحوى فى الحال . وعندما أقترب منى رأيت أنه صغير السن الى حد ما طويل القامة تبدو عليه القوة والنشاط ذو بشرة وردية تنبىء ملامحه بالنضارة والرجولة

وكان ذا لحية شقراء نحيلة وعينين زرقاوين وجبهة بيضاء عريضة • فلم يسعني الا أن أعده رجلا وسيما على صورة خارجة عن المألوف مما يندر أن تراه داخل الكنيسة أو خارجها وفرحت لانني ساعترف على يديه . وما كدت أخبره بما أريد فى صوت خفيض حتى أشار الى بأن أتبعه وقادني الى أحد كراسى الاعتراف

دخل المقصورة وذهبت لأجثو أمام السياج . فاذا بصفحة صغيرة مطلية بالميناء تحمل اسم الأب ايليا كانت مثبتة على كرسى الاعتراف . فسرنى ذلك الاسم والهمنى بالايمان والثقة . وعندما جثوت على ركبتى تلا صلاة قصيرة ثم سألنى عن آخر اعتراف لى وكم مضى عليه من الزمن

فقلت ـ « حوالى عام » .

ـ « هذه مدة طويلة . بل أطول مما ينبغى . لماذا ؟ »

ولاحظت أن لغته الايطالية لم تكن سليمة تماما . فكان يلثغ فى حرف الراء كما يفعل الفرنسيون • وتبين لى من خطأ أو اثنين وقع فيهما أثناء محاولته نطق كلمات أجنبية بلهجة ايطالية انه هو نفسه فرنسى• فسرنى انه أجنبى ولكننى فى الحقيقة ما كان يمكننى أن أذكر السبب فى ذلك . ولعل هذا لاننا عندما نوشك على القيام بعمل نعده مهما تبدو لنا كل صغيرة خارجة عن المألوف علامة على الفأل الحسن

وأوضحت له أن القصة التى سأرويها له ستكشف عن السبب فى عدم اعترافى طوال تلك المدة . فسألنى بعد فترة صمت وجيزة عما لدى من أقوال . فبدأت أحدثه باندفاع وثقة عن علاقتى بجينو وصداقتى بجيزيلا ورحلتى الى فيتريو وتهديد آستاريتا •وحتى فى أثناء حديثى لم أستطع أن أتمالك نفسى من التساؤل عن تأثير قصتى عليه • فقد كان يختلف عن معظم القساوسة ودفعنى مظهره غير المألوف كرجل دنيوى الى التفكير فى الاسباب التى أدت به الى الرهبنة يحدونى فى ذلك حب الاستطلاع . ولعله يبدو غريبا أن يتشتت ذهنى الى حد التساؤل عن معرفى بعد صلاتى للعذراء وما أثارته فى نفسى من عاطفة خارجة عن المألوف • ولكننى أنا نفسي لا أرى تناقضا بين عاطفتى وحب استطلاعى • فكلاهما ينبع من أعماق قلبى حيث يختلط التعبد بالدلال والاسى بالشهوة اختلاطا معقدا لا سبيل الى تحليله

ولكننى حتى وأنا أفكر فيه بالطريقة التى وصفتها أخذت أشعر بالارتياح رويدا رويدا كما انتابنى الحماس لمصارحته بالمزيد والاعتراف له بكل شىء مما خفف عنى . فأحسست بالسمو والخلاص من ذلك

الشعور الثقيل بالالم الذى كان يثقل كاهلى حتى تلك اللحظة كالزهرة التى يعروها الذبول من شدة الحرارة ثم تنعشها فى النهاية أولى قطرات المطر . وكنت، فى أول الامر أتكلم فى صعوبة وتردد ثم بدأت كلماتى تتدفق فى مزيد من الطلاقة . وفى النهاية أخذت أتحدث فى اخلاص قوى تحدونى آمال متزايدة . ولم أغفل شيئا مما حـدث ولا حتى النقود التى أعطانيها استاريتا وما أثارته هبته فى نفسى من مشاعر والمنافع التى كنت أنوى استغلالها فيها . وأنصت الى دون تعليق وما ان انتهيت من فصتى حتى قال ــ « انك لكى تتجنبى شيئا خلته ضارا بك الا وهو فسخ الخطبة قبلت أن تلحقى بنفسك ضررا أكبر الى مالا نهاية »

فوافقت قائلة وأنا أرتجف فرحة بأنامله الحساسة وهى تسبر قلبى ــ « نعم . انى أعلم ذلك »

ثم واصل كلامه قائلا وكأنه يحدث نفسه ــ « ولكن خطبتك فى الواقع لا شأن لها بما حدث ــ فانك عندما رضخت لذلك الرجـل استسلمت لشعور بالطمع » .

ــ « نعم . نعم ! »

ــ « حسنا . كان الأجدر أن يفسخ الزواج على أن تفعلى مافعلت »

ــ « نعم . هذا هو اعتقادى الان . »

ــ « ولكن ذلك لا يكفى ــ فانك الآن ستتزوجين ولكن لم يكلفك ذلك ؟ فلن يمكنك بعد ذلك أن تكونى زوجة صالحة »

كان يضربنى فى الصميم بقسوة ألفاظه التى لا تعرف اللين . فهتفت قائلة فى ألم ــ « كلا . ليس الامر كذلك ! بل انه يبدو لى وكأن شيئا لم يحدث ــ فأنا واثقة بأننى سأكون زوجة صالحة ! »

لاريب أنه أعجب باخلاصى فى الرد . فصمت بعض الوقت ثم أردف يقول فى مزيد من الرقة ــ « هل أنت مخلصة فى توبتك ؟ »

فأجبته قائلة باندفاع ــ « نعم . انى مخلصة حقا . » وخطر لى فجاة أنه ربما أرغمنى على رد النقود لآرستاريتا . ورغم أن فكرة ردها اليه لم تكن مستحبة مقدما فقد خيل لى مع ذلك أننى كنت أمتثل لأمره فرحة مسرورة وذلك لصدوره من شخص أحبه استطاع أن يسيطر على بطريقة غريبة . ولكنه دون أن يذكر النقود واصـل حديثه قائلا بصوته البارد البعيد الذى أضفت عليه لهجته الاجنبية نغما عاليا لشد ماكان دفيئا على صورة غريبة ــ « والان ينبغى أن تتزوجى فى أقرب فرصة ممكنة ــ كمـا ينبغى أن تضعى الامور فى

نصابها - فيجب عليك أن تفهمى خطيبك أنه لايمكنك أن تستمرى معه بالوضع الراهن » .

- « لقد قلت له ذلك بالفعل » .

- « وماذا كان جوابه ؟ »

ولم أتمالك نفسى من الابتسام عندما خطر لى انه بكل جمـــاله وسامته يسألنى مثل هذا السؤال من أعماق مقصورة الاعتراف .

فأجبته قائلة فى مشقة - « انه يقول اننا سنتزوج فى عيد الفصح »

فرد قائلا بعد لحظة من التفكير - «يحسن بكما أن تتزوجا فى الحال. فعيد الفصح مازال بعيدا » . وبدا لى حينئذ أنه لم يكن يتكلم ككاهن بل كرجل دنيوى مهذب أمله قليلا أن يضطر الى الاهتمام بشئونى .

- « لا يمكننا التبكير عن الموعد المحدد . فعلى أن أعد جهازى . وعليه أن يذهب الى أسرته ليخبرها بالنبأ »

فاستمر قائلا - « على أية حال يجب أن يتزوجك فى أقرب فرصة ممكنة . وعليك أن تقلعى عن كل علاقة جنسية بخطيبك حتى يوم الزفاف . فهذا اثم خطير . أتفهميننى ؟ »

- « نعم . سأفعل . »

فردد قائلا فى شك - « أتفعلين ؟ .عليك أن تقاومى الاغراء بالصلاة على أية حال. حاولى أن تصلى .

- « نعم ساصلى » .

ثم أردف قائلا - « أما عن الرجل الآخر فلا ينبغى أن تريه مهما كانت الاسباب . ولن يشـــق عليك ذلك مادمت لا تحبينه . واذا أصر على رؤيتك وجاء لمقابلتك فعليك أن تطرديه »

فقلت له اننى سأفعل . وبعد أن أسدى الى نصـــائح أخـــرى كثيرة بصوته البارد البعيد الذى لشد ما اغرانى مع ذلك بالانصات اليه لما فيه من لكنة أجنبية وما يوحى به من علم صاحبه أمرنى أن أتلو كل يوم عددا من الصلوات تكفيرا عن ذنوبى. ثم منحنى الغفران. ولكنه قبل أن يأمرنى بالانصراف جعلنى أتلو معه « أبانا الذى فى السموات .. » فوافقت على ذلك فى سرور لاننى كنت آسفة لرحيلى ولما تشبع أذناى بعد من صوته

قال - « أبانا الذى فى السموات »

فرددت قائلة - « أبانا الذى فى السموات »

- « نيتقدس اسمك »

ـ « ليتقدس أسمك »
ـ « ليأت ملكوتك . »
ـ « ليأت ملكوتك . »
ـ « ولتكن مشيئتك على الارض كما هى فى السماء »
ـ « ولتكن مشيئتك على الأرض كما هى فى السماء »
ـ « اعطنا اليوم خبزنا كفافنا »
ـ « اعطنا اليوم خبزنا كفافنا »
ـ « واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن للمسيئين الينا »
ـ « واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن للمسيئين الينا »
ـ « ولا تدخلنا فى تجربة بل نجنا من الشرير »
ـ « ولا تدخلنا فى تجربة بل نجنا من الشرير »
ـ « آمين » .
ـ « آمين » .

لقد ذكرت الصلاة كلمة كلمة لكى أستعيد مشاعرى عندما تلوتها معه . فقد احسست وكأنى عدت فتاة صغيرة بينما يقودنى هو من يدى متنقلا من عبارة الى أخرى . ومع ذلك ففى تلك الاثناء كنت أفكر فى النقود التى اعطانيها آستاريتا وكدت أشعر بخيبة الامل لانه لم يأمرنى بردها . فقد كنت أود حقا ان يأمرنى بذلك لاننى كنت أريد أن أقدم له دليلا محسوسا على طاعتى وتوبتى كما كنت أريد أن أفعل له شيئا يكون بمثابة تضحية حقيقية . وما ان انتهت الصلاة حتى نهضت وخرج هو من مقصورة الاعتراف وهم بالذهاب دون أن ينظر الى ودون أن يحيينى مودعا الا بايماءة تكاد الا تلحظها العين . فاذا بى على الرغم منى تقريبا أجذبه من كمه دون أن أدرى ماذا أنا فاعلة. فتوقف عن المسير ونظر الى بعينيه الصافيتين الهادئتين اللتين لاتنبئان عن شيء

فخيل لى انه أكثر وسامة منه فى أى وقت مضى . ومرت بذهنى مئات الخواطر المجنونة . وتصورت أنه لشد ما كان ممكنا أن أقع أسيرة هواه .وتساءلت عن الطريقة التى أستطيع بها أن أعبر له عن اعجابى به . ولكن ضميرى فى نفس الوقت كان ينذرنى أننى فى كنيسة وانه كان كاهنا ومعرفى . كان ذهنى فى دوامة من كل تلك الخواطر والصور التى استحوذت على فى وقت واحد فعجزت لحظة عن النطق

فسألنى بعد أن انتظر فترة معقولة قائلا ـ « هل هناك ما تريدين مصارحتى به غير ذلك ؟ »

فسألته قائلة ـ « أردت أن أعلم ما اذا كان ينبغى أن أرد لذلك الرجل نقوده ؟ »

فرمانى بنظرة سريعة بدت أنها تنفذ الى أعماق روحى . كانت نظرة حادة مباشرة للغاية . ثم ما لبث أن أجابنى قائلا ـ « هل أنت فى حاجة ماسة اليها ؟ »

ـ « نعم » .

ـ « حسنا . اذن ـ فلا حاجـــة بك الى ردها ـ وعلى اية حال فلتفعلى ما يمليه عليك ضميرك »

قال ذلك بلهجة غريبة وكأنه يريد أن يلمح الى انتهـــاء مقابلتنا فتلعثم لسانى بالشكر دون أن أبتسم محملقة فى عينيه وأنا افعل ذلك . لقد فقدت صوابى حقا فى تلك اللحظة وكدت أتمنى لو أظهر لى اهتمامه باشارة أو كلمة . لا شك أنه أدرك معنى نظرتى . فارتسم على وجهه تعبير طفيف ينبىء بالدهشة لم يلبث ان اختفى . ثم ودعنى باشارة صغيرة من يده وانصرف مديرا لى ظهره وتركنى واقفة بجانب كرسى الاعتراف فى حال من الارتباك والاضطراب الشديدين .

لم أخبر أمى بشىء عن اعترافى كما لم أخبرها بشىء عن رحـــلة فيتربو . وكنت أعلم أن لها آراء راسخة فى الكهنة والدين . كانت ترى أنها أشياء جميلة ومع ذلك فان الاغنياء يظلون أغنياء والفقراء يظلون فقراء . وكانت تقول ـ « يمكنك أن ترى أن الاغنياء يجيـــدون الصلاة خيرا منا » وكانت آراؤها فى الدين تشبه اراءها فى الاسرة والزواج . فقد كانت هى نفسها فيما مضى متمسكة بتعاليم الدين وكانت تختلف الى الكنيسة ولكن كل شىء مع ذلك ساء حاله بالنسبة لها . ففقدت ايمانها بهذه الاشياء . وقد قلت لها ذات مرة اننـــا سنلقى ثوابنا فى الاخرة فاستشاطت غضبا قائلة انها تريد أن تلقى جزاءها فى هذا العالم ـ الان ـ فى الحال وانها ان لم تلقه فمعنى ذلك أن الامر كله سلسلة من الاكاذيب . ومع هذا فقد ربتنى تربية دينية كما سبق أن قلت لانها هى نفسها كانت دينـــة فى وقت من الاوقات . ولكن ما مر بها من محن فى الاعوام الاخيرة قد ملأ قلبهـــا بالمرارة وجعلها تغير رايها

وفى الصباح التالى عندما ركبت السيارة أخبرنى جينو أن مخدوميه يتأهبون للرحيل وانه يمكننا أن نلتقى فى الفيللا بضعة أيام . فطربت لذلك فى أول الامر لاننى كنت أهوى المضاجعة وأهواها مع جينو كما أعتقد أننى سبق أن أوضحت

ولكنني فجأة تذكرت وعدى للكاهن
فقلت ــ « لا يمكنني ذلك »
ــ « لم لا ؟ »
ــ « محال أن ــ »
فقال فى صبر وهو يتنهد ــ « حسنا اذن فغدا ــ »
ــ « كلا . ولا حتى غدا ــ بل لن نعود الى ذلك مرة أخرى » .
فردد كلامى قائلا فى صوت خفيض وهو يتظاهر بالدهشة ــ « لن نعود ! اذن فهذا هو الوضع الآن . أليس كذلك ؟ لن نعود ! يمكنك على الاقل أن توضحى السبب »
وكان وجهه ينطق بالريبة الغيور . فأسرعت قائلة ــ « انى أحبك يا جينو . . وما أحببتك قط كما أحبك الان ــ بل لانني احبك قررت أننا يجب ألا نعود الى مثل هــذا مرة أخــرى حتى نتزوج ــ أعنى الا نمارس الحب »
فقال فى احتقار ــ « انى افهم الان كل شىء ! فأنت تخشين ألا أبغى الزواج بك » .
ــ « كلا . بل انى واثقة من زواجك بى . ولو كان ذلك هو اعتقادى لما كنت الان أعد كل شىء ولما انفقت نقود أمى التى ظلت تدخرها طوال حياتها » .
فقال ــ « يالها من قصة تلك التى تنسجينها حول نقود أمك ! »
وعندئذ لشد ما صار بغيضا حتى أننى لم أكد أستطيع التعرف عليه . ثم سألنى قائلا ــ « اذن فلماذا ؟ »
ــ « لقد ذهبت للاعتــراف ونهانى القس عن مضاجعتــك حتى نتزوج »
فأتى حركة تعبر عن خيبة أمله وافلت منه لفظ بدا لى كالتجديف ثم قال ــ « وما شأن هذا الكاهن حتى يدس انفه فى أمورنا ؟ »
فآثرت الصمت .
فألح قائلا ــ « لم لا تقولين شيئا ؟ »
ــ « ليس لدى ما أقوله أكثر من ذلك »
لاريب أن التصميم المطلق كان يبدو على محياى اذ أنه عدل عن رأيه فجأة قائلا ــ « حسنا . لك ما تطلبين ــ أتريدين أن أصحبك الى المدينة ؟ »
ــ « ان شئت . »
ولا يفوتنى أن أقول اننى لم اعهده قط بغيضا قاسيا معى الا فى تلك

المقابلة . اما فى اليوم التالى فقد بدا لى مستسلما وقد عاوده عطفه المعهود واهتمامه الشديد المهذب - فاستمر لقاؤنا كل يوم كما كان من قبل غير أننا لم نعد نمارس الحب بل كنا نكتفى بتبادل الحديث وكنت من وقت لآخر امنحه قبلة رغم انه صار يعد احجامه عن تقبيلى مسألة كرامة . ولم أشعر أن تقبيله خطيئة حقا لاننا كنا قبل كل شىء خطيبين ولن نلبث أن نتزوج . واليوم عندما أذكر تلك الفترة يخيل لى أن جينو سرعان ما انســـاق الى قبـول دوره الجـــديد كخطيب مهذب يحترم خطيبته على أمل أن تفتر العلاقة بيننا رويدا ثم نقترب من القطيعة شيئا فشيئا على غير وعى منى تقريبا . فأنتم تسمعون دائما عن فتيات ينتهى بهن المطاف - دون أن يعين - الى الوحدة من جديد بعد خطبة طويلة مضنية ولا يلحقهن من أذى سوى انقضاء زهرة شبابهن . فعندما صارحته بوصية القس هيأت له دون ان أدرى مطلقا الذريعة التى لعله كان ينشدها لتفتر العلاقة بيننا . اذ انه بلا ريب ما كان ليجد الشجاعة فى نفسه قط لضعف شخصيته وأنانيته كما أن رغبته فى التخلص منى كانت أضعف من اللذة التى يجدها فى علاقتنا . ولكن تدخل المعرف أتاح له الفرصة فى تقديم حل ريائى يبدو منزها عن الغرض

فاذا به بعد فترة وجيزة يقلل من مرات لقائنا فلم نعد نتقابل سوى مرة واحدة كل يومين ثم لاحظت أن نزهنا فى السيارة كانت لا تفتأ فى كل مرة تقصر عن سابقتها . وكان لا يفتأ يزداد شرودا كلما تحدثت اليه عن خطط زواجنا ولكن الشك لم يخامرنى قط رغم احســـاسى الغامض بتغير موقفه فقد كانت كلها أمورا تافهة كنفثات الدخان . وظل جينو كما عهدته يسلك نحوى سلوكه الرقيق العطوف . وذات يوم قال لى وفى عينيه نظرة اعتذار انه سيضطر لاسباب عائلية الى تأجيل موعد زواجنا الى مابعد الصيف .

وعندما لاحظ أننى لم أعلق بشىء على ماقال ولم أزد على أن نظرت امامى وقد علا وجهى تعبير مرير لا ينم عن شىء أضاف قائلا - « هل أغضبك ذلك كثيرا ؟ »

فقلت مستجمعة شجاعتى - « لا - لا . فهذا لايهم - فليس فى وسعنا أن نفعل شيئا . ولكن ذلك سيتيح لى الفرصة لاعداد جهازى »

- « أنت تكذبين . فلشد ما يزعجك ذلك . » وكانت رغبته فى أن أغضب لتأجيل زفافنا أمرا غريبا .

- « كلا . »

ـ « حسنا اذن فان كان ذلك لا يزعجك فمعنى هذا أنك لا تحبيننى حقا ولعلك فى أعماق قلبك لا تبالين اذا لم يتم زواجنا على الاطلاق »
فهتفت قائلة فى ذعر ـ « لا تقل هذا ! فلشد ما يروعنى قولك . بل انى لا أحب أن أفكر فيه . »
وحينئذ لم أفهم ذلك التعبير الذى مرق عبر وجهه . فقد شاء فى الواقع أن يختبر حبى فوجد أنه مازال قويا للغاية مما بث الرعب فى قلبه .
وعلى الرغم من أن تأجيل زواجى لم يكن سببا كافيا لاثارة شكوكى فانه دعم اعتقاد أمى وجيزيلا وكانتا مقتنعتين به منذ البـداية . ولم تعلق أمى بشىء مطلقا على ذلك النبأ . فهكذا كان أسلوبها فى بعض الاحيان (وهو مسلك غريب ممن أوتى مثل طبيعتها العنيفة المندفعة) ولكنها ذات مساء بينما كانت كعادتها تقدم الى عشائى وقد وقفت صامتة ترقب ماقد أحتاج اليه قالت لى ردا على اشارة ماصدرت منى بخصوص الزواج .
ـ « أتعرفين ماذا كانوا فى أيامى يسمون من كانت على شاكلتك ـ أى الفتاة التى تظل تنتظر الزواج ولا تتزوج قط . »
فشحب لونى وأحسست بالهزال قائلة ـ « ماذا ؟ »
فقالت أمى فى هدوء ـ « فتاة على الرف . فهو يظل يضعك على الرف كاللحم الذى لم يؤكل بعد . ولكن اللحم يفسد أحيانا اذا ماترك ثم يلقى به بعد ذلك . »
فاستبد بى الغضب وقلت ـ « هذا افتراء ! فاننا نؤجله لاول مره ولبضعة شهور فقط . والحقيقة أنك غاضـبة أشـــد الغضب على جينو لانه سائق وليس سيدا مهذبا . »
ـ « أنا لست غاضبة على أحد . »
ـ « بل هى الحقيقة ـ ولانك اضطررت الى انفاق نقودك على تأثيث الغرفة من أجلنا ولكن لا حاجة بك الى القلق ـ »
ـ « ياابنتى العزيزة ـ لقد صعد الحب الى رأسك ! »
ـ « أقول لك لاتقلقى ـ فانه سوف يسدد بقية الاقساط جميعا . ولسوف نعطيك كل ما أنفقت . أنظرى . » وتولانى الحماس ففتحت حقيبتى وأخرجت لها الاوراق المالية التى أعطانيها آستاريتا . ثم أردفت قائلة ـ « هذه نقوده وقد أعطانيها . ولسوف يعطينى المزيد . ولشد ما استبد بى الجنون حتى اننى كدت أصدق أكاذيبى .
فحملقت فى النقود فاغرة فاها واكتست نظرتها بالخيبة والاسى

فأحسست بتأنيب الضمير . فاني لم أعاملها بمثل هذه القسوة زمنا طويلا . كما أدركت أنني كنت أفترى الكذب وأن جينو في الواقع لم يعطني النقود مطلقا . فلم تنبس ببنت شفة بل نظفت المائدة وحملت الصحاف ثم غادرت الغرفة . وبعد لحظة من التفكير الغاضب نهضت وتبعتها . فرأيتها من ظهرها وقد وقفت منتصبة أمام الصنبور تغسل الصحاف التي أخذت تضعها واحدة بعد الاخرى على رخامة الحوض حانية رأسها وكتفيها قليلا . فغشيتني موجة من الرثاء لها . واندفعت نحوها ملقية بذراعي حول عنقها وأنا أتوسل اليها قائلة — « اغفري لي ماقلت . فانى لا أعتقد ذلك حقا — ولكنك لشد ماتغضبينني عندما تتحدثين عن جينو . »

فأجابت متظاهرة بمقاومتي للتخلص من عناقي — « اتركيني — دعيني وشأني . »

فصفقت بيديها في حماس — « ولكنك يجب ان تفهمي ! فاما أن أقتل نفسي اذا لم يتزوجني جينو أو أبيع الهوى في الشوارع . »

أما جيزيلا فقد حذت حذو أمي الى حد كبير عندما تلقت نبأ تأجيل زواجي فقد كنا في غرفتها المؤثثة عندما أخبرتها بذلك وكنت جالسة في كامل هندامي على حافة الفراش بينما كانت هي في قميص النوم تمشط شعرها أمام خوان الزينة . فتركتني انهي قصتي دون تعليق ثم قالت في هدوء وانتصار — «أرأيت أنني كنت على حق ؟»

— « لماذا ؟ »

— « فهو محجم عن الزواج ولن يتزوج بك البتة . فزواجك الان لن يتم في عيد الفصح بل في عيد القديسين — ثم يؤجل بعد ذلك الى عيد الميلاد — وذات يوم تختمر الفكرة أخيرا في ذهنك وتبادرين أنت بالتخلي عنه . »

فانتابني الغضب وأحسست بالتعاسة لحديثها . ولكنني كنت قد أطلقت العنان لنفسي مع أمي وعلى أية حال فقد كنت اعلم انني لو صارحتها برأيي لكان علي أن أفقد صداقتي بجيزيلا وكنت لا أرغب في ذلك لانها كانت صديقتي الوحيدة قبل كل شيء . كان ينبغي أن أفصح عن رأيي وهو أنها لم تكن تريدني أن أتزوج لانها تعلم أن ريكاردو لن يتزوجها . كانت هذه هي الحقيقة التي لا يمكن أن تقال لما تنطوي عليه من حقد شديد وكنت أرى انه ليس من العدل أن أسيء اليها لمجرد استسلامها على الرغم منها لمشاعر الحسد والغيرة عندما تتحدث عن جينو . فاكتفيت بأن قلت —

« فلنكف عن الحديث فى هذا الموضوع • فان زواجى من عـــدمه أمر لايهمك فى الحقيقة ـ كما أنه مما يسيئنى أن نتحدث عنه . »
فاذا بها فجأة تترك مكانها أمام خوان الزينه ثم تأتى لتجلس الى جانبى على الفراش قائلة فى احتجاج ـ « ماذا تعنين ـ بأن الامــر لا يعنينى ؟ » ثم أضافت قائلة وهى تحيط خصرى بذراعها ـ « انه يضيرنى كثيرا أن أراك منقادة من أنفك على هذه الصورة » .
فقلت فى صوت خفيض ـ « ولكننى لست كذلك ! »
ثم أردفت قائلة ـ « كما أحب أن أراك سعيدة » • وما كادت تمر لحظة من الصمت حتى قالت بلهجة عارضة ـ « وبهذه المناسبة فان آستاريتا لا يفتأ يضايقنى لانه يود أن يراك مرة أخرى ـ فهو يقول انه لا يمكنه الحياة بدونك ـ فهو غارق فى حبك حتى أذنيه ! أتريدينني أن أضرب لك موعدا معه ؟ »
فقلت ـ « لا تذكرى لى اسم آستاريتا »
فأردفت قائلة ـ « انه يدرك انه أساء التصرف معك فى تلك الرحلة التى قمنا بها الى فيتربو . ولكن حقيقة الامر انه لم يفعل ذلك الا لانه يحبك ـ وهو يبغى مصافاتك » .
فقلت ـ « لا سبيل الى مصافاتى الا بابتعـاده عنى فلا أراه مرة أخرى » •
ـ « والان كفى عنادا ! فهو شخص جاد ومغرم بك حقا ـ كما أنه مصر على مقابلتك والتحدث اليك • لم لا تلتقيان فى أحد المقاهى مثلا ويكون ذلك فى حضورى أنا أيضا ؟ »
فأجبتها قائلة فى لهجة حاسمة ـ « كلا • فأنا لاأريد ان أراه • »
ـ « انك ستأسفين لذلك » •
ـ « فلتخرجى أنت معه ! »
ـ « كالقذيفة يا عزيزتى • فهو شديد السخاء كما انه لايعبأ بما ينفق ـ ولكنه يريدك أنت • فهو متعلق بك »
ـ « نعم • أعلم ذلك ولكننى لا أريده » •
واستمرت تجادلنى محبذة لقاءه ولكننى أبيت الاقتناع برأيها . فقد كانت رغبتى اليائسة فى الزواج وتكوين أسرة قد بلغت ذروتها وقد وطنت النفس على مقاومة الحجج المنطقية واغـراء المال • بل لقد نسيت رعشة اللذة التى استطاع آستاريتا أن يثيرها فى نفسى عندما أرغمنى على قبول نقوده أثناء رحلة العودة من فيتربو •وتشبثت بفكرة الزواج يحدونى أمل أقوى وأشد تمسكا خشية أن تكون أمى وجيزيلا على حق فينتهى زواجى لسبب أو لآخر بالفشل •

الفصل السادس

وفى تلك الاثناء كنت قد سددت أقساط الاثاث جميعها وأخذت أكد أكثر من أى وقت مضى لأزيد مكاسبى وأدفع ثمن جهازى . ففى الصباح أقف فى المراسم وفى المساء أحتبس مع أمى فى غرفة الجلوس حيث أعكف على حياكة القمصان حتى هبوط الليـل . وكانت هى تعمل على ماكينة الخياطة بالقرب من النـافذة بينما أجلس انا الى المائدة غير بعيد منها حيث أعمل بيدى . وقد علمتنى أمى فنـون الحياكة فكان عملى فيها يمتاز دائما بالسرعة والمهارة . وكان على دائما أن أشق عددا من العـرى والثقوب وأقـوى حفافها . كما لم يكن بد من أن يوضع على كل قميص الحرفان الاولان من اسـم صاحبه ولشد ما كنت أجيد ذلك العمل فأجعل الحروف مرتفعة ثابتة على صورة تبدو معها بارزة فوق القماش . وقد تخصصنا فى ملابس الرجال ولكننا كنا أحيانا نصنع قمصان النوم للسيدات أو سراويل داخلية من قطعتين أو قطعة واحدة ولكنها من قماش غث لان أمى لم تكن لها دراية بالتطريز كما لم تكن تربطها صلات بسيدات المجتمع لتقوم بحياكة ثيابهن . وكنت أثناء عكوفى على الحياكة أفكر فى جينو والزواج ورحلة فيتربو وأمى وحياتى الخاصة فى الواقع . وسرعان ما كان الوقت يمضى . اما خواطر أمى فلم أكن أعرفها قط . ولكنها كانت بلا ريب تفكر فى شيء ما لانها لم تفتأ تبدو غاضبة وهى تدير ماكينتها كما كانت عادة تجيبنى بلهجة غاضبة كلما تحدثت اليها . وما ان يقترب المساء ويزحف الظلام حتى أنهض من مكانى وانفض عن ثوبى بقايا الخيط ثم أرتدى أفخر ثيابى وأخرج لمقابلة جيزيلا أو جينو اذا كان فى اجازة من عمله . وانى لأتساءل اليوم عن حقيقة شعورى وقتذاك وهل كنت حقا سعيدة . كنت كذلك من وجهـة نظر معينة لاشتياقى الى شيء خلته قريب المنال . ولقد اكتشفت منذ ذلك الوقت أن المرء لا يشعر بالتعاسة حقا الا اذا فقد الامل تماما . وعندئذ لا يجديه يسر أو غنى عن الحاجة

وقد لاحظت أكثر من مرة حينذاك أن آستاريتا كان يقتفى أثرى فى الشوارع . وغالبا ما كان ذلك فى الساعات الاولى من الصباح وأنا فى

طريقى الى المراسم • فكان ينتظر خروجى من المنزل عادة وهو منزو فى أحد منحنيات سور المدينة على الجانب المقابل من الطريق ــ ولكنه لم يكن يعبره قط بل يكتفى باقتفاء أثرى بخطا وئيدة متسترا بالجدران أثناء سيرى بمحاذاة المنازل مهرولة تجاه الميدان ــ وانى أعتقد أنه كان قانعا بمراقبتى ــ ذلك السلوك الذى يتميز به من كان غارقا فى الحب • وعندما ابلغ الميدان كان يذهب ليقف فى مواجهتى تماما على محطة الترام بحيث لا يفتأ يراقبنى . وما كان على الا أن أنظر اليه حتى يتولاه الارتباك ويتظاهر بالتطلع الى الطريق ليرى ما اذا كان الترام قادما . ان حبا كهذا لا يمكن أن تواجهه امرأة دون أن تكترث له • بل حتى أنا كنت أحس نحوه أحيانا رغم تصميمى على مقاطعته نهائيا بنوع من الشفقة المزهوة . وبعد ذلك يأتى جينو أو يقبل الترام فاما أن أركب السيارة واما أن أستقل الترام تاركة آستاريتا واقفا على المحطة يراقبنى وأنا أختفى مبتعدة عن بصره

وذات مساء عندما بلغت المنزل وجدت آستاريتا واقفا فى غرفة الجلوس وبيده قبعته وهو يتبادل الحديث مع أمى متكئا على المائدة• وعندما فكرت فيما كان يقوله لأمى ليستميلها الى صفه فتتشفع له عندى زايلتنى كل شفقة عليه وتولانى الغضب لرؤيته فى منزلى فقلت له : ــ « ماذا تفعل هنا ؟ »

فحملق فى وأخذ وجهه يختلج متشنجا كما كان يختلج فى السيارة عندما صارحنى باعجابه بى ونحن فى طريقنا الى فيتربو • ولكنه عندئذ لم يقو حتى على الكلام . فأسرت لى أمى قائلة ــ « هذا السيد يقول انه يعرفك . وأراد أن يطمئن عليك » . فأدركت من لهجتها أن آستاريتا قد تحدث اليها تماما كما توقعت بل وربما نفحها بالمال • فقلت لها ــ « أرجو أن تذهبى يا أماه • فتولاها الذعر لصوتى المخبول ثم دلفت الى المطبخ دون أن تجيب •ثم رددت قائلة ــ « ماذا تفعل هنا ؟ اذهب ! » فنظر الى وبدأ يحرك شفتيه ولكنه لم ينبس بكلمة . ثم سقط جفناه على عينيه وكدت أرى بياضهما . كما بدا لى أنه لن يلبث أن يسقط على الارض فى نوبة عصبية . فرددت قائلة بصوت عال وأنا أضرب الارض بقدمى ــ « اذهب والا استغثت ــ فسأنادى صديقا لنا يسكن الطابق السفلى »

وقد ساءلت نفسى مرارا عن السبب فى أن آستاريتا لم يحاول ابتزازى مرة أخرى أن لم أرضخ له عن طريق تهديدى باطلاع جينو على ما حدث فى فيتربو . وكان فى امكانه ذلك مع ترجيح نجاحه

حينذاك لانه ضاجعنى فعلا وكان هناك شهود على ذلك ولا يمكننى انكار تلك الواقعة • وانتهيت الى أنه فى المرة الاولى لم يكن يحس نحوى الا بالرغبة اما فى الثانية فكان يحبنى • والحب يتوق الى المبادلة • أما وقـــد أحبنى آســـتاريتا الآن فلاريب أنه أحس بأن أمتلاكه اياى فى فيتريو عندما رقدت له خرســـاء بلا حراك كالجثة الهامدة لم يكن مقنعا أو مرضيا على الاطلاق • ولكننى عندئذ كنت مصممة على اظهار الحقيقة مهما كان الثمن• فان جينو ينبغى أن يفهمنى قبل كل شىء ويصفح عنى ان كان يحبنى • وكان تصميمى خليقـــا باقناع آستاريتا ان أية محاولة أخرى لابتزازى لن تتمخض عن شىء•

وعندما هددته بالاستغاثة لم يفه بكلمة بل اتجه نحو الباب ساحبا قبعته على المائدة . وما ان بلغ طرف المائدة حتى توقف عن المسير مطأطئا رأسه فبدا وكأنه يستجمع شجاعته ليخاطبنى • ولكنه ماكاد يرفع رأسه مرة أخرى ويحرك شفتيه حتى بدا وكأن شجاعته تخونه وظل صامتا يحملق فى . وبدت لى تلك النظرة الثانية لا نهائية . ثم تركنى بايماءة من رأسه مغلقا الباب خلفه

وفى التو ذهبت الى أمى فى المطبخ . وسألتها قائلة فى غضب :

— « ماذا قلت لهذا الرجل ؟ »

فأجابت قائلة فى خوف — « لا شىء ! لقد ســـألنى عن عملنـــا وأخبرنى أنه يريدنى أن أحيك له بعض القمصان »

فصحت قائلة — « سأقتلك ان ذهبت اليه ! »

فنظرت الى فى رعب قائلة — « ومن قال اننى ذاهبة اليه ؟ يمكنه أن يكلف شخصا آخر ليحيك له قمصانه ! »

— « ألم يتحدث عنى ؟ »

« لقد سألنى متى تتزوجين ؟ »

— « وماذا قلت له ؟ »

— « قلت انك ستتزوجين فى أكتوبر »

— « ألم يعطك نقودا ؟ »

فنظرت الى متظاهرة بالدهشة قائلة — « كلا • لماذا ؟ أكان يجب أن يفعل ؟ »

فتأكدت من لهجة صوتها أن آستاريتا قد أعطاها نقودا . فركضت نحوها وقبضت على ذراعها فى عنف قائلة :

— « اصدقينى القول ! هل أعطاك نقودا ؟ »

— « كلا . انه لم يعطنى مليما »

وكانت يدها مدسوسة فى جيب وزرتها . فقبضت على معصمها فى عنف فسقطت من يدها المبسوطة ورقة مالية مطوية . ومع أننى كنت لا أزال ممسكة بها فقد انحنت والتقطتها وهى أشد ماتكون جشعا وغيرة فانطفأت نار غضبى فى الحال . اذ تذكرت ما أثارته فى نفسى نقود آستاريتا من اضطراب وفرحة يوم رحلة فيتربو واحسست أنه ليس من حقى إدانة أمى لاحساسها بنفس المشاعر واستسلامها لنفس الاغراء . والان أتمنى لو لم أسألها ولم أر الورقة المالية . فاكتفيت بأن قلت لها بلهجة طبيعية — « أترين أنه فعلا أعطاك شيئا ؟ » ثم غادرت المطبخ دون انتظار لتفسيرها . ولقد أدركت من بعض تلميحات فاهت بها أثناء تناول العشاء أنها تبغى أن تحدثنى مرة أخرى عن آستاريتا والنقود ولكننى غيرت الموضوع ولم تصر هى عليه .

وفى اليوم التالى جاءت جيزيلا وحدها دون أن يصحبها ريكاردو الى مشرب الشاى حيث تعودنا أن نلتقى .

وما كادت تجلس حتى قالت دون مقدمات — « يجب أن أقول لك اليوم شيئا على جانب خطير من الاهمية » .

فانتابنى احساس داخلى شحب له وجهى . وقلت فى ضعف — « ان كان نبأ سيئا فأرجو ألا تخبرينى به » .

فقالت فى حماس — « انه ليس سارا ولا سيئا . ولكنه نبأ فحسب . هذا هو كل ما فى الامر . لقد قلت لك من قبل من هو آستاريتا — »

— « لا أريد أن اسمع شيئا من آستاريتا ... »

— « أنصتى الى الآن ! ولا تكونى طفلة هكذا ! ان آستاريتا كما قلت لك من قبل شخصية هامة للغاية . فهو من ذوى الشأن . كما أنه يشغل منصبا خطيرا فى المباحث العامة » .

فأحسست بشىء من الطمأنينة لانه لا صلة لى بالسياسة قبل كل شىء . ثم قلت — « لا يهمنى مطلقا عمل آستاريتا حتى ولو كان وزيرا . »

فهتفت جيزيلا قائلة — « يا لك من ... ! عليك أن تنصتى فقط بدلا من مقاطعتى طوال الوقت . لقد أخبرنى انك يجب أن تذهبى لمقابلته فى الوزارة . اذ يجب أن يتحدث أليك — » ثم أردفت قائلة بسرعة عندما رأتنى أهم بالاحتجاج . « لا عن الحب . بل لديه نبأ خطير يريد أن يخبرك به — أمر يخصك » .

— « أمر يخصنى ؟ » .

ــ « نعم . أمر فيه مصلحتك . هذا هو ما قاله لى على الاقل » .

ولست أدرى أنا نفسى ما الذى جعلنى أقرر عندئذ قبول دعـوة آستاريتا بعد رفضها مرارا .

فقلت وأنا أقرب الى الموت منى الى الحيـاة ــ « حسنا . انى ذاهبة » .

وقد ارتبكت جيزيلا قليلا عندما رأت موقفى السلبى . ثم لاحظت لاول مرة كم كنت شاحبة خائفة . فسألتنى قائلة :

ــ « ماذا دهاك ؟ ألانه فى المباحث ؟ انه لا يتعقبك ! فما الذى يخيفك منه ؟ فهو لا يبغى القاء القبض عليك ! »

فنهضت واقفة رغم احساسى بالدوار وقلت ــ « حسنا . انى ذاهبة . أية وزارة هى ؟ » .

ــ « الداخلية . فى مواجهة السوبر سينما تماما . ولكن أنصتى »

ــ « متى ؟ »

ــ « فى أى وقت من الصباح . ولكن أنصتى ــ »

وفى تلك الليلة لم أنم الا قليلا . فقد أعيانى أن أفهم ماذا يريد منى آستاريتا خارج نطاق وجده وهيامه . ولكنى أدركت ببصيرتى التى بدت لى معصومة من الخطأ أن الامر لا يمكن أن يكون خيرا . فالمكان الذىاستدعانى اليه جعلنى أعتقد أنه لابد أنيكون أمرا متصلا بالشرطة . وكنت أعلم من الناحية الاخرى كما يعلم جميع الفقراء أن الشرطة عندما تتحرك فلن يكون ذلك للخـــير . وبعد أن تفحصت مسلكى الخاص فى كل تفاصيله خلصت الى أن آستاريتا كان يبغى ابتزازى مرة أخرى باستخدام معلومات خاصة بجينو استطاع أن يحصل عليها . كنت لا أعلم شيئا عن حياة جينو ولعله كان مشبوها سياسيا . وكنت لاأزعج نفسى قط بأمور السياسة .ولكن لم يبلغ بى جهلى الا أعلم أن هناك عددا من الناس لا يميلون الى الحكم الفاشى وأن فئة أخرى من أمثال آستاريتا كـان من واجبهم تعقب هـؤلاء المعادين للنظام والقبض عليهم . وصور لى خيالى بألوان زاهية تلك الورطة التى سيضعنى فيها آستاريتا . فاما أن اسلمه نفسى وأنا راغمة مرة أخرى أو يذهب جينو الى السجن . وكان مبعث خوفى أننى لم أشأ مطلقا أن أرضى آستاريتا كما لم أشأ أن يذهب جينو الى السجن . ولم اعد اشعر بالشفقة على آستاريتا وأنا أفكر فى تلك الامور بل لم يبق فى نفسى سوى الكراهية . فقد بدا لى مخلوقا فاسدا دنيئا غير جدير بالحياة ولا يستحق سوى العقاب بلا رحمة

أو هوادة . وحدث أن كان التفكير في قتل آستاريتا من بين الحلول الاخرى المقترحة لمشكلتي . ولكن ذلك لم يكن حلا بقدر ما كان وهما مريضا تراءى لى وأنا بين النوم واليقظة . وفى الواقع فان ذلك الوهم لازمنى حتى الصباح شأن أى وهم يأبى أن يتطور بالطريقة السليمة الى عزم موضوعي ثابت . فقد تراءى لى أننى أضع فى حقيبة يدى مدية كانت تستخدمها أمى فى قشر البطاطس ثم أذهب بها الى آستاريتا حيث أسمع الدعوة التى أخشاها فأغمد مديتى فى عنقه بين أذنه وياقته البيضاء المنشاة تماما بكل ما أوتيت ذراعى المفتولة من قوة . ثم تراءى لى أننى أغادر الغرفة متظاهرة بالهدوء التام ثم أهرع لاختبىء عند جيزيلا أو عند صديق آخر . ولكننى على الرغم من استعراض كل هذه المشاهد الدموية فى خيالى كنت أعلم طوال الوقت أننى لن أستطيع مطلقا ان افعل شيئا من هذا القبيل . فلشد ما أرهب الدم وأخشى ايذاء الناس كما أوثر أن أتعرض للاضطهاد على أن اضطهد أحدا .

وغفوت قرب الفجر فأخذتنى سنة من النوم . وما أن طلع النهار حتى نهضت وذهبت لمقابلة جينو فى الموعد المعهود .

وما كدنا نلتقى فى الطريق الريفى ونتبادل التحيات المعهودة حتى قلت محاولة أن أجعل لهجتى تبدو عرضية بقدر الامكان ـ « أكان لك قط شأن بالسياسة ؟ »

ـ « السياسة ؟ ماذا تعنين ؟ »

ـ « أعنى العمل فى اية صورة ضد الحكومة » .

فرمانى بنظرة مدركة ثم قال ـ « انتظرى لحظة . أتحسبيننى معتوها ؟ »

ـ « كلا . ولكن ـ »

ـ « لا . لا . فلنستوضح هذا الامر ! اتحسبيننى معتوها ؟ »

فقلت ـ « كلا . فانك لا تبدو كذلك ولكن ـ »

فقال ـ « حسنا اذن . فما الذى جعلك بحق الشيطان تظنين ان لى شأنا بالسياسة ؟ »

ـ « لست أدرى ولكن أحيانا ـ »

ـ « لا جدوى من ذلك ! بل يمكنك ان تقولى لمن صدرت عنه هذه التلميحات كائنا من كان أن جينو موليناري ليس معتوها . »

وفى حوالى الساعة الحادية عشرة بعد ان ظللت اتجول حول مبنى الوزارة مدة تزيد على الساعة دون ان اقوى على حزم أمرى على

الدخول اقتربت من البواب وسألته عن آستاريتا وكان على أولا أن أصعد درجا رخاميا واسعا ثم درجا آخر أضيق منه ولكنه مع ذلك عريض للغاية • ثم اصطحبت خلال عدد من الدهاليز الى غرفة أنتظار تؤدى اليها أبواب ثلاثة ــ وكانت الشرطة ترتبط فى ذهنى عادة بالمكاتب القذرة الحقيرة فى الاقسام المحلية . ولذلك فقد أدهشنى أن أرى فخامة المكان الذى كان يعمل فيه آستاريتا . وكانت غرفة الانتظار فسيحة ذات أرضية من الموزايكو علقت بها صور قديمة كتلك التى نراها فى الكنائس• كما وضعت هنا وهناك بالقرب منجدرانها مقاعد جلدية وملأت فراغ الغرفة فى الوسط منضدة كبيرة . وعندما احسست بالقلق ازاء هذه الفخامة كلها لم يسعنى الا الاعتراف بصحة ما تقوله جيزيلا ــ فلا ريب أن آستاريتا شخصية هامة حقا . وثمة حدث غير متوقع أوحى الى بأهميته . فاننى ما كدت اجلس حتى فتح أحد الابواب وخرجت منه سيدة طويلة القامة جميلة ولو أنها تخطت سن الشباب • كانت متشحة بالسواد فى أناقة شديدة من أعلى رأسها الى أخمص قدميها يغطى وجهها حجاب صغير ــ وفى أعقابها خرج آستاريتا فنهضت واقفة ظنا منى أنه دورى . ولكن آستاريتا واصل حديثه مع السيدة عند مدخل الغرفة بعد أن أشار الى بيده اشارة يفهمنى بها أنه رآنى ولكن دورى لم يأت بعد . ثم اصطحب السيدة الى وسط الغرفة حيث انحنى لها وقبل يدها ثم تركها مشيرا الى شخص آخر كان يجلس معى فى غرفة الانتظار وهو رجل مسن يرتدى حلة سوداء ويلتحى بلحية بيضاء صغيرة ويضع على عينيه منظارا فبدا كأحد الاساتذة : وما ان أشار اليه آستاريتا حتى نهض فى الحال وهرول خلفه فى ذلة وحماس • ثم اختفى كلاهما داخل الغرفة فمكثت وحيدة .

ولشد ما لفت نظرى فى شخصية آستاريتا اثناء ظهوره العابر اختلاف أسلوبه عما كان عليه فى رحلة فيتربو . فقد شاهدته حينذاك أبكم مرتبكا متشنجا شبه مخبول • أما الآن فكان يبدو رابط الجأش تماما هادىء الاسلوب ولكن فى دقة ينبعث منه احساس غامض بعلو الشأن والسلطة والنفوذ ولكن فى حصافة • فقد تغير كل شىء فيه حتى صوته . اذ أنه فى أثناء الرحلة كان يتحدث بصوت خفيض دافىء مخنوق النبرات . أما فى أثناء حديثه مع السيدة المحجبة فكان صوته يبدو واضحا باردا هادئا موقعا . وكان كعادته يرتدى حلة رمادية قاتمة تحيط بعنقه ياقة بيضاء مرتفعة أضفت على رأسه مظهر

الصلابة . ولكن حلته وياقته اللتين سبق أن رأيتهما أثناء الرحلة ولم أعلق عليهما أهمية خاصة بدتا لى فى تلك المناسبة زيا يتفق تماما مع الغرفة الضخمة بأثاثها الثقيل العارى من الزينة كما يتفق مع ذلك السكون والنظام اللذين يسودان المكان • وحدثت نفسى قائلة ان جيزيلا كانت على حق فلاريب أنه فى الحقيقة ذو شأن كبير •ولا سبيل الى تفسير أسلوبه المرتبك ازائى واحساسه بالنقص تجاهى الا أنه غارق فى حبى .

وقد شتتت ذهنى تلك الخواطر فهدأت فى نفسى مشاعر الاضطراب الاولى حتى أننى عندما فتح الباب بعد بضع دقائق وخرج منه الرجل المسن كنت أحس بالسيطرة التامة على نفسى . ولكن آستاريتا عندئذ لم يأت ليشير الى من مدخل الغرفة . بل دق أحد الاجراس ودخل خادم ليرى ماذا يبغى آستاريتا مغلقا الباب خلفه ثم عاد يبلغنى أنه يمكننى الدخول بعد أن سألنى عن اسمى فى صوت خفيض . فنهضت واتجهت نحو الغرفة فى غير اكتراث .

وكانت غرفة مكتب آستاريتا لا تقل حجما بكثير عن غرفة الانتظار. وقد خلت الا من أريكة ومتكأين جلديين فى احدى الزوايا ومنضدة كبيرة يجلس اليها آستاريتا فى زاوية أخرى . وثمة نافذتان أسدلت عليهما ستائر بيضاء كانتا تدخلان ضوءا باردا خاليا من أشعة الشمس ولشد ما كان ذلك الضوء ساكنا حزينا حتى أنه ذكرنى بصوت آستاريتا أثناء حديثه مع السيدة المحجبة • وقد اكتست أرضية الغرفة بسجادتين كبيرتين ناعمتين وعلقت على الجدران صورتان أو ثلاث • ويمكننى أن أتذكر احداهما وكانت تمثل حقولا خضراء ممتدة تحدها عند الافق سلسلة من الجبال الصخرية .

كان آستاريتا كما قلت جالسا خلف منضدة كبيرة . ولم يرفع بصره عن الاوراق التى كان يقرؤها أو يتظاهر بقراءتها عندما دخلت . أقول « يتظاهر » لاننى تأكدت أن ذلك كله لم يكن سوى مظهر قصد به تخويفى حتى تمتلىء نفسى احساسا بسلطته وأهميته . وفى الواقع فانى ما ان اقتربت من المنضدة حتى رايت ان الورقة التى كان يدرسها بكل ذلك الاهتمام لم تكن تحتوى آلا على ثلاثة أو أربعة أسطر ممهورة بتوقيع قبيح . وفضلا عن ذلك فان يده التى كان يتكىء بجبهته عليها وقد أمسك بدخينته بين اصبعين منها كشفت عن اضطرابه فقد كانت ترتعش على صورة ملحوظة مما تسبب عنه سقوط بعض الرماد على الورقة التى كان يفحصها بتركيز شديد واهتمام متكلف .

وضعت يدى على حافة المنضدة وقلت ــ « ها أنذى » .
عندئذ بدا وكأنه قد تلقى الاشارة اذ توقف عن القراءة ووثب على قدميه ثم أقبل يحيينى ممسكا بكلتا يدىّ . وقد تم كل ذلك فى صمت تام مما كان يتنافى على صورة غريبة مع ذلك الموقف المتسلط غير المكترث الذى كان يحاول أن يحتفظ به . وفى الواقع فانى لم البث أن أدركت أن صوتى وحده كان خليقا بأن ينسيه الدور الذى أعد نفسه للقيام به . ثم غشيه بعد ذلك اضطرابه المعهود على صورة لا سبيل الى مقاومتها . فقبل يدى احداهما بعد الاخرى وهو يحملق فى مديرا حدقتيه الحزينتين وقد أمضهما الحنين الى الحب . وما ان هم بالكلام حتى ارتعشت شفتاه فلزم الصمت راغما .
وأخيرا قال بذلك الصوت الخفيض المخنوق الذى تعرفت عليه ــ « لقد جئت » .
ولعلنى الآن عن طـريق التناقض مع موقف آستاريتا أحسست بنفسى وقد امتلأت ثقة . فقلت ــ « نعم جئت . وما كان ينبغى أن أفعل فى الحقيقة ــ ماالذى تريد أن تقوله لى ؟ »
فتمتم قائلا ــ « تعالى واجلسى هنا . » ولكنه لم يترك يدى قط بل قادنى الى الاريكة وهو لا يزال يضغط عليها بقوة . فجلست واذا به فى الحال يجثو أمامى واضعا ذراعيه حول ساقى وضاغطا بجبهته على ركبتى . فعل ذلك كله دون أن ينبس ببنت شفة وهو يرتجف من أعلى رأسه الى أخمص قدميه . ولشد ما ضغط بجبهته فى قوة على ركبتى حتى آلمنى . وبعد أن مكث فترة طويلة على هذه الحال رفع رأسه الاصلع الى أعلى وكأنه يريد أن يوسـده حجـرى . فهممت بالنهوض قائلة :
ــ « كان لديك نبأ هام تريد أن تبلغنى اياه ــ فاما أن تخبرنى به واما أن أمضى لشأنى » .
فنهض واقفا فى صعوبة ثم جلس بجانبى ممسكا بيدى .
وتمتم قائلا ــ « لا شىء . ولكننى أردت أن أراك مرة أخرى . » فهممت بالنهوض من جديد ولـكنه أمسـك بى ثم أردف قائلا ــ « نعم . ولكننى أردت أن أقول لك ايضا أننا يجب أن نصـل الى تفاهم » .
ــ « فى اية صورة ؟ » .
فأسرع قائلا ــ « انى أحبك ــ بل متيم بك ــ فتعالى لتقيمى معى فى منزلى حيث يمكنك أن تكون ربة الدار وكأنك زوجتى ــ وسأشترى

لك الملابس والمجوهرات وكل ما تشتهين ــ »
بدا كالمعتوه . وكانت الكلمات تتدفق مختلطة من فمه بينما التوت شفتاه وهما لا تكادان تتحركان . فسألته قائلة في فتور ــ « أمن أجل هذا استدعيتني الى هنا ؟ » .
ــ « الا تبغين ذلك ؟ » .
ــ « بل ارفض مناقشته » .
ومن الغريب انه لم ينبس بكلمة بعد هذه الاجابة . بل رفع يده . وهو يوشك بنظرته الشاخصة المخبولة أن يفرض على نوما منغاطيسيا ثم راح يربت على وجهي وكأنه يريد أن يتذكر قسماته . وكانت أصابعه خفيفة حتى أمكنني أن احس بها وهي ترتعش بينما ظلت أنامله تتزسم وجهي رائحة غادية بين جبهتي ووجنتي . كانت حركة رجل عاشق . ولشد ما يقوى الحب على الاستمالة ــ حتى ولو افتقد التبادل ــ الى حد أنني كدت أتأثر لحظة بالعطف فأخفف من لهجتي الجافة الحاسمة . ولكنه لم يتح لي الفرصة لانه ما كاد ينتهي من تحسس وجهي حتى نهض واقفا وتكلم بنبرات دقيقة متعثرة فجاء كلامه خليطا غريبا من الرغبة المكبوتة والاحساس بالواجب ذلك الاحساس الذي كان جديدا مجهولا .
قال ــ « انتظري لحظة . فلدي حقا أمر هام أريد أن أطلعك عليه » وفي أثناء ذلك عاد الى المنضدة حيث التقط ملفا أحمر اللون .
فعراني الاضطراب بدوري عندما رأيته قادما نحوي وفي يده ذلك الملف الاحمر . وسألته قائلة في ضعف ــ « وما هو ؟ » .
ــ « انه ــ انه » وكان غريبا ذلك الامتزاج الذي حدث بين نبرة صوته الرسمية التي تنبيء بالسلطة والنفوذ وبين انفعاله العاطفي ــ « انها بعض المعلومات عن خطيبك » .
فقلت وأنا أغمض عيني لحظة من شدة الخوف ــ « آه ! » ولكن آستاريتا لم يلحظ ذلك بل ظل يقلب الصفحات التي كانت تتقلص بين يديه من شدة الاضطراب .
قال ــ « أليس هو جينو مولينارى ؟ »
ــ « نعم » .
ــ « انك تعتزمين الزواج به في أكتوبر . أليس كذلك ؟ »
ــ « نعم » .
ثم أردف قائلا ــ « ولكن يبدو أن جينو مولينارى متزوج بالفعل وتحريا للدقة فانه متزوج بأنتونيتا بارتيني ابنة المرحوم اميليو وحرمه

ديوميرا لافانيا ... وأنهما منذ أربعة أعوام ... أنجبا طفلة تدعى ماريا ... وزوجه فى الوقت الحاضر تقيم مع أمها فى أورفيتو . »

فلم أنبس بكلمة . بل نهضت من فوق الاريكه واتجهت صوب الباب . وظل آستاريتا واقفا فى وسط الغرفة والاوراق فى يده . ففتحت الباب وخرجت .

ويمكنني أن أتذكر أننى عندما وجدت نفسى فى الطـريق وسط الزحام فى يـوم جميل كثير السحب من أيام ذلك الشتاء اللطيف خالجنى يقين مرير أن حياتى كانت أشبه بالنهر الذى تحول صناعيا عن مجـراه الطبيعى حينا من الزمان ثم عاد يتدفق من جـديد فى اتجاهه المعهود دون تغيير أو تجديد بعد انقطاع تسببت فيه آمالى واستعداداتى للزواج . ولعل ذلك الاحساس كان راجعا الى أننى وأنا فىحيرتى وذهولى أخذت أنظر حولى بانتباه مجرد من بهجته الاولى وقد بدت لى زحمة الناس والمحال والشوارع لاول مرة منذ عدة شهور فى ضوء طبيعى لا رحمة فيه اذ أنها لم تكن جميلة ولا قبيحة كما لم تكن مسلية ولا مملة بل تماما كما هى وكما لابد أن تبدو لعينى المخمور عندما يفيق من سكرته . ولكننى أرجح أن ذلك الاحساس كان مستمدا من ادراكى أن الاشياء الطبيعية فى الحياة لم تكن خططى للسعادة كما كنت أتصور بل نقيض ذلك تماما ـ اعنى أن جميـع تلك الاشياء المعادية لكل تخطيط وبرامج ما هى الا أسباب عارضه مخطئة وغير متوقعة للخيبة والاسى . فلو صح هذا كما خيل لى أنه يجب أن يكون كذلك فلا شك أننى قد بدأت أحيا من جديد فى ذلك الصباح بعد نشوة استمرت عدة شهور .

كان ذلك هو الخاطر الوحيد الذى بعث فى ذهنى على أثر اكتشافى خداع جينو مولينارى . فلم يدر بخلدى أن ألومه ولم يخالجنى نحوه حقا أى احساس بالتأذى . فعندما انحرفت عن الطريق السوى كان ذلك بمشاركتى اياه . فقد كانت ذكرى اللذة التى وجدتها بين ذراعيه أقرب الى مخيلتى من أن أتقـاعس عن التماس المعـاذير ان لم يكن التبرير لكذبه وخداعه . وخيل لى أنه لم يكن خبيثا بقدر ما كان ضعيفا استبدت به رغبته وأن الخطأ ـ ان كان هناك خطأ ـ مرجعه جمالى الذى كان يفقـد الرجال صوابهم وينسيهم التزاماتهم وكل وازع من ضمائرهم . وفى النهاية فان جينو لم يكن يستحق اللوم اكثر من آستاريتا ولا فارق بينهما سوى ان جينو استخدم الغش والخداع فى حين أن آستاريتا لجأ الى الابتزاز . ولشد ما أغرم كلاهما بى وما

من شك في أنهما لو استطاعا لآثرا يقينا أن يستحوذا على بالطريقه المشروعة ولحققا لى تلك السعادة المتواضعة التى تعلق بهـا قلبى . ولكن القدر على العكس من ذلك قادنى بكل ما اوتيت من جمال الى لقاء أولئك الذين لا يمكنهم أن يحققوا لى تلك السـعادة . ولسوء الحظ فانه حتى اذا لم يكن ثمة من يستحق اللوم فلا مجال للشك فى ان هناك ضحية ـ تلك هى أنا .

لعل هذه الطريقة فى التفكير والجدل تبدو ضعيفة فى نظر البعض على أثر خيانة كخيانة جينـو . ولكننى كنت كلمـا لحقنى أذى ما ـ وكثيرا ما حدث لى ذلك بسبب فقرى وبراءتى ووحدتى ـ لا افتأ احاول التماس المعاذير لمن أساء الى ونسيان ما لحقنى من أذى فى أقرب وقت ممكن . واذا ما أحدث ذلك الاذى تغيرا فى نفسى على الاطلاق فانى لا اكشف عنه فى سـلوكى أو فى مظهرى الخـارجى بل اطويه فى أعماق روحى التى تلتئم وتنقبض على ذاتها كالبدن السليم الذى يحاول فى أقرب وقت أن يلأم جراحه . ولكن الندوب تظل باقية وهذه الجراح شبه اللاواعية التى تصيب الروح لا تندمل أبدا .

وهذا هو ما حدث مع جينو . فانى لم أحمل له ضغينة فى نفسى لحظة واحدة ولكننى أحسست فى أعماق نفسى بتقوض أشياء كثيرة الى الابد ـ احترامى له وآمالى فى تكـوين أسرة ورفضى الاعتراف بصدق نظرة امى وجيزيلا وايمانى الدينى أو على الاقل ذلك الاعتقاد الذى كنت اتمسك به حتى ذلك الوقت . وشبهت نفسى بدمية كنت املكها وانا طفلة صغيرة ـ فبعد أن ظللت أضربها وأجرها هنا وهناك طوال النهار أحسست بورم فى داخلها وصرير مشئوم رغم أنها كانت لا تزال كعهدها دائما مبتسمة متـوردة الوجـه . فنزعت رأسـها وتساقطت من فتحة عنقها قطع صغيرة من الخزف والخيط واللوالب وجميع الادوات التى تجعلها تنطق وتحرك عينيها هنا وهناك كمـا تساقطت قطع غريبة من الخشب والقماش التى ظلت وظيفتها سرا مستغلقا على ادراكى .

عدت الى المنزل وأنا مشـدوهة ذاهلة ولكننى هادئة . وفى ذلك المساء قمت بعملى كالمعتاد دون أن اطلع أمى على ما حدث أو ماوصلت اليه من نتائج . ولكننى أدركت انه لا يمكننى التظاهر الى حد القيـام بحياكة ملابس الجهاز كما كنت أفعل فى الايام الاخرى . بل التقطت الثياب التى انجزت حياكتها فعـلا وتلك التى كان على أن أحيـكها وأودعتها جميعا خزانة الملابس فى غرفتى . ولم يسع أمى الا ان تلاحظ

تعاستي وهو أمر غير مألوف لانى كنت فى معظم الاحيان مرحة خلية . ولكننى ذهبت انني متعبة وهكذا كنت في الواقع . وحوالى المساء بينما كانت أمى تعمل على الماكينة تركت عملي ودلفت الى غرفتى حيث تمددت على الفراش . وادركت أننى كنت أتأمل الاثاث الذى انتهيت من دفع ثمنه وأصبح الآن ملكا لى بالفعل بفضل نقود آستاريتا ولكن لشد ما اختلفت نظرتى اليه عن ذى قبل فقد خلت من السرور والامل . لم اشعر بالتعاسة بل بالتعب وعدم المبالاة فحسب كما يشعر المرء على اثر جهد كبير بذله ولكنه لم يتمخض عن شيء . وعلى أية حال فقد احسست بالتعب الجسماني وبالالم فى جميع أطرافى وباشتياق عميق الى الراحة . وبينما كنت أفكر بطريقة مضطربة فيما أفعله بالاثاث وكيف انه صار من المستحيل الآن استخدامه كما كنت آمل استغرقت فى النوم على الفراش وأنا في كامل هندامى ونمت في هدوء لمدة اربع ساعات تقريبا نوما عميقا حزينا ثم استيقظت فى ساعة متأخرة من الليل حيث ناديت أمى من خلال الظلام الذى كان يحتويني . فخفت الى في الحال واخبرتنى أنها لم تشأ أن توقظنى عندما راتنى مستغرقة فى نوم هادىء راض للغاية . ثم أردفت قائلة وهى واقفة هناك تنظر الى ــ « لقد أعد العشاء منذ ساعة . ماذا تفعلين ؟ الا تأتين لتأكلى شيئا ؟ »

فأجبتها قائلة وأنا أغطى عينى المبهورتين بالضوء باحدى ذراعى ــ « لا أريد أن أنهض لم لا تحضرينه الى ؟ »

فغادرت الغرفة ثم ما لبثت أن عادت حاملة صينية عليها عشائى المعتاد . وما أن وضعت الصينية على حافة الفراش حتى نهضت متكئة على أحد مرفقى واخذت أتناول طعامى بلا شهية . ولكننى ما لبثت أن توقفت عن الاكل بعد اللقم القليلة الاولى ثم استلقيت الى الخلف على الوسائد مرة اخرى . فسألتنى امى قائلة ــ « ماذا دهاك ؟ ألا تأكلين شيئا ؟ »

ــ « لست جوعى ! » .

ــ « ألست على ما يرام ؟ » .

ــ « بل فى تمام الصحة . »

فدمدمت قائلة ــ « اذن فسأحمل الصينية . » ورفعت الصينية من فوق الفراش وذهبت لتضعها على المائدة بالقرب من النافذة . ثم ما لبثت أن أردفت قائلة ــ « لا توقظينى غدا صباحا » .

ــ « لماذا ؟ » .

ـ « لانى قررت الا أعمل نموذجا بعد الآن ـ فلشد ما تكدحين ولا تكسبين سوى النذر اليسير » .

فسألتنى قائلة فى قلق ـ « وماذا تفعلين ؟ » ثم بدأت تعول وتئن قائلة ـ « فليس فى امكانى ان أكفـلك ـ أنت لست طفـلة ومطالبك كثيرة . كما أني أحمل على عاتقى عبئا ثقيلا ـ فهناك جهاز العرس »

فقلت فى بطء واعياء دون أن أرفعذراعى عن وجهى ـ « لاتضايقينى الآن . ولا تقلقى فسوف يكون هناك دائما ما يكفى من المال . »

وأعقب ذلك صمت طويل . وأخيرا سألتنى قائلة بلهجة قلقة ذليلة كخادمة تحاول أن تنال الصفح بعد توبيخها لتجاوزها حدود الالفة ـ « الا تبغين شيئا ؟ » .

ـ « نعم . أرجو أن تعاونينى على خلع ملابسى . فانى متعبة للغاية وما زال النعاس فى عينى . »

فاســـتجابت لرغبتى وجلست على الفراش لتخلع لى حـــذائى وجواربى التى وضعتها بعناية على المقعد عند طرف الفراش . وبعد ذلك خلعت لى ثوبى وعاونتنى على ارتداء قميص النوم . ولم أفتح عينى طوال الوقت . بل ما كدت أرقد تحت الاغطية حتى انكمشت وأخفيت رأسى فى الملاءة . وعندما أطفأت أمى الضوء تمنت لى ليلة طيبة من مكانها عند مدخل الغرفة ولكننى لم أحر جوابا بل عدت الى النوم فى الحال ونمت الليل بطوله وردحا من الصباح .

وفى الصباح التالى كان ينبغى أن أذهب فى موعدىالمعتاد للقاء جينو ولكننى عندما استيقظت أدركت أننى لاأبغى رؤيته الا بعد أن يزول الالم فأتمكن من التفكير فى خيانته عن بعد وبطريقة موضوعية كما لو كانت لم تقع لى بل لشخص آخر . فعندئذ وذلك هو اعتقادى دائما كنت لا أثق بما يقال أو يتم من أعمال تحت تأثير العـــاطفة وخاصة اذا لم تكن عاطفة اعجاب أو حب كما هى الحال معى . فلا شك أننى لم أعد أحب جينو ولكننى لم أشأ أن أكرهه على وجه التحديد لانه خيل لى أننى بذلك لن أزيد على أن أحمل روحى عبء عاطفة مؤلمـة لست خليقة بها وذلك فضلا عما الحقه بى فعلا من أذى بخيانته اياى .

وعلى اية حال فلشد ما احسست بالاعياء فى ذلك الصباح فقد عرانى كسل حسى ولكن شـــعورى بالتعاســـة قل عنه فى الليلة السابقة . فقد غادرت أمى المنزل فى ســاعة مبكرة للغـــاية وكنت أعلم انها لن تعود قبل الظهر . فظللت راقدة فى الفراش وكانت تلك هى متعتى الاولى فى بداية مرحلة جديدة من حياتى التى قدر لها أن

تكون منذ ذلك الوقت فصاعدا حياة متعة فحسب . فمنذ يوم مولدى لم أفتا أستيقظ كل يوم فى الساعات الاولى من الصباح . ولـذا كان رقادى فى الفراش بلا عمل ترفا حقيقيا فى نظرى . ولم أستسلم له قط . ولكننى قررت الآن أن أرقـد فى الفراش كلما شـعرت بالرغبة فى ذلك . وخطر لى أننى سأحذو هذا الحـذو ازاء جميـع الاشياء التى نبذتها حتى الان من جراء فقرى وأحلامى حول حيـاة عائلية طبيعية . وتذكرت كم كنت اسـتمتع بممارسـة الحب واستمتع بالمال وما يمكن أن يجلبه المال فحدثت نفسى قائلة اننى منذ ذلك الوقت فصاعدا لن أرفض الحب أو المـال أو ما يمكن أن يجلبه المال اذا ما أتيحت لى الفرصة . ولا تتخيلوا أننى فكرت فى تلك الامور تحت تأثير الغضب أو الاستياء أو روح الانتقـام . بل كنت غاية فى الهدوء وأنا مضطجعة فى فراشى أداعب الفكرة وأستمتع بها مقدما . فان كل موقف مهما كان بغيضا له جانبه المعكوس . لقد فقدت الزواج مؤقتا وجميع المزايا المتواضعة التى كنت أتأملها ولكننى فى مقـابل ذلك قد استعدت حريتى . فلاشك أن أعمق آمالى ظلت كما هى دون تغيير ولكن الحياة الناعمة مع ذلك كانت تجذبنى بقوة . كما كان بريق الامل يحجب عن عينى كل ما يكمن خلف قرارى الجديد من حزن واستسلام . وبدأت مواعظ أمى وجيزيلا تؤتى ثمارها . فقد كنت أعلم طوال الوقت على الرغم من حياتى الفاضلة التى كنت أحياها أن جمالى خليق بأن يجلب لى كل ما تشتهيه النفس لو أننى فقط حزمت أمرى . ووجدتنى فى ذلك الصباح أنظر الى جسدى لاول مرة كوسيلة مريحة للغاية لتحقيق تلك الاهداف التى لم أتمكن من الوصول اليها عن طريق أمانتى وعملى الشاق .

وكان من جراء أستغراقى فى تلك الخواطر أو بالاحرى احلام اليقظة أن مضى الصباح كلمح البرق وانتابتنى الدهشـة عندما سمعت أجراس الكنيسة المجاورة تدق معلنـة انتصـاف النهـار ورأيت شـعاعا طويلا من الشمس المشرقة ينفذ من خـلال النـافذة ويرتسم عبر الفراش وبدت لى أجراس الكنيسة وشـعاع الشمس المشرقة ترفا ثمينـا غير مألـوف كبطالتى فى ذلك الصـباح . فلابد أن الموسرات من السـيدات اللائى يسكن الفيـلات مثل مخدومة جينو يرقدن فى مضاجعهن فى تلك اللحظـة بالذات بينما تتراءى لهن الاحلام بنفس الطريقة ويسمعن طنين الاجراس ويرقبن شعاع الشمس المشرقة بعينين مدهوشتين . وعندما نهضت أخيرا من

الفراش وخلعت قميص النوم امام مرآة الصوان خالجني شعور بانني لم اعد آدريانا فتاة الامس المشغولة المعوزة بل فتاة اخرى تختلف تمام الاختـــلاف . ونظرت الى صورتي عارية في المرآة فأدركت لاول مرة مبعث الزهو في حديث امي عندما قالت للفنان ــ « انظر الى صدرها الى ساقيها ــ وفخذيها ــ » كما تذكرت آستاريتا الذي تغيرت شخصيته كلها حتى اسلوبه وصوته تحت تأثير اشتهائه صدري وساقي وفخذي وحدثت نفسي قائلة انني سوف اعثر بلا شك على رجال آخرين يعطونني من المال قدر ما نفحني به آستاريتا او حتى اكثر مما نفحني به لو انهم تمكنوا من الاستمتاع بي .

وارتديت في كسل شخصيتي الجديدة ثم احتسيت بعض القهوة وغادرت المنزل . اتجهت الى حانة قريبة حيث اتصلت تليفونيا بالفيللا التي يعمل فيها جينو . فقد أعطاني رقم التليفون ورجاني في ذلة تميز بها الا استخدمه الا لماما لان مخدوميه يكرهون ان يســـــتعمل الخدم التليفون فخاطبت اول الامر امراة كانت بلا ريب خادمة المائدة ثم ما لبث ان جاء جينو في الحال تقريبا . وسألني على الفور ان كنت مريضة فلم أتمالك نفسي من الابتسام . اذ تعرفت من خلال قلقه على كمال أسلوبه القديم الذي ربما لم يكن كله مصطنعا . ولشد ما أسهم في خداعي . فأجبته قائلة ــ « انني في تمام الصحة . بل انه صحتي لم تكن قط خيرا منها اليوم » .

ــ « ومتى أراك ؟ »

فقلت ــ « وقتما تشاء . ولكنني احب أن اراك كما فعلت في أول مرة ــ في الفيللا عندما يرحل عنها مخدوموك » .

فادرك ما كنت اعنيه في الحال . واجابني قائلا في حماس ــ « انهم راحلون بعد حوالي عشرة أيام لقضاء عيد الميلاد ولكن ليس قبل ذلك » .

فأجبته قائلة في عدم اكتراث ــ « حسـنا . اذن فليكن لقاؤنا بعد عشرة أيام » .

فسألني قائلا في دهشة ــ « لماذا ؟ » .

ــ « لانني مشغولة » .

فسألني قائلا في ارتياب ــ « ماذا دهاك ؟ اغاضبة مني ؟ » .

فأجبت قائلة ــ « كلا . فلو كنت غاضبـة منك لما شئت ان اراك في الفيللا . أليس كذلك ؟ » وخطر لي أنه ربما أزعجني لو انتـابته الغيرة . فاضفت قائلة ــ « لا تخف ــ فاني احبك كما احببتك دائما .

ولكن على أن أعاون أمى فى انجاز بعض الاعمال الاضافية بسبب أيام العطلة — ولما كنت لا أستطيع مغادرة المنزل قبل ساعة متأخرة من الليل حين لا تفرغ أنت مطلقا من عملك فانى اوثر الانتظار الى أن يرحل مخدوموك » .

— « ولكن ماذا عن الصباح ؟ »

فأجبت قائلة — « ساكون نائمة فى الصباح . وبهذه المناسبة — اتعلم أننى لن أعمل نموذجا بعد ذلك ؟ »

— « لماذا ؟ »

— « لقد سئمت هذا العمل — ألست مسرورا لذلك ؟ اذن فسأراك بعد عشرة أيام — هل اتصل بك تليفونيا ؟ »

— « حسنا . »

ولكنه فاه بكلمة « حسنا » دون كبير اقتناع — ولكن معرفتى الجيدة به أكدت لى أنه على الرغم من وساوسه فلن يظهر قبل مضى عشرة أيام . بل الاحرى انه لن يظهر بسبب وساوسه . فان تفكيره فى احتمال اكتشاف خيانته كان خليقا بأن يملأه رعبا وفزعا . وما ان وضعت سماعة التليفون حتى أدركت اننى تحدثت الى جينو بصوت هادىء رقيق بل محب أيضا . فهنأت نفسي . . كما أن مشاعرى نحوه لن تلبث شيئا فشيئا أن تصير رقيقة هادئة محبة فأستطيع مقابلته بلا خوف من ايجاد جو كاذب مزعج من الكراهية يغمره ويغمرنى ويغمر علاقتنا .

الفصل السابع

وفى مساء ذلك اليوم نفسه بادرت بالذهاب لمقابلة جيزيلا فى غرفتها المؤثثة . وكانت كمألوف عادتها فى تلك الساعة قد نهضت لتوها من الفراش وأخذت ترتدى ملابسها لموافاة ريكاردو فى موعده . فجلست على الفراش الاشعث . وبينما كانت تتجول هنا وهناك فى الغرفة المعتمة غير المنظمة التى امتلأت بالملابس والادوات التافهة رحت أقص عليها بلهجة واقعية للغاية كيف ذهبت لزيارة آستاريتا وكيف أخبرنى أن جينو له زوجة وطفلة . وما أن سمعت جيزيلا ذلك النبأ حتى أطلقت صيحة عالية ولا أدرى أكانت صيحة فرح أم دهشة ثم جاءت لتجلس على الفراش فى مواجهتى واضعة يديها على كتفى ومحملقة فى عينى قائلة :

ـ « لا . لا .. لايمكننى أن اصدق هذا .. زوجة وطفلة ! احقا تقولين ؟ »

ـ « والطفلة تدعى ماريا . »

من الواضح انها أرادت أن تعرف القصة بحذافيرها وأن تناقشها تفصيليا بقدر الامكان وقد خاب رجاؤها لهدوء موقفى .

ـ « زوجة وطفلة .. والطفلة تدعى ماريا .. ايمكنك أن تتحدثى عن هذا الموضوع بهذه الطريقة ؟ »

ـ « وكيف ينبغى أن أتحدث عنه ؟ »

ـ « ألست غاضبة ؟ »

ـ « بالطبع . »

ـ « ولكنه كيف أدلى اليك بالخبر ؟ أقال لك ان جينو مولينارى له زوجة وطفلة هكذا ؟ »

ـ « نعم . »

ـ « وماذا قلت ؟ »

ـ « لاشىء . فماذا يمكننى أن أقول ؟ »

ـ « ولكن كيف كان شعورك ؟ ألم تنفجرى باكية ؟ فهذه كارثة بالنسبة لك قبل كل شىء . »

ـ « كلا . لم يخطر لى أن أبكى . »

فهتفت قائلة فى مرح بعد لحظة من التفكير ـ « حسنا . لايمكنك الآن أن تتزوجى جينو . ومع ذلك فيالها من قصة ! ان هذا الرجل معدوم الضمير ـ فتاة مسكينة مثلك كانت تحيا من أجله وحده ان صحت هذه العبارة . ان الرجال جميعا أوغاد . »

فقلت ـ « ولكن جينو لم يعرف بعد أننى أعلم كل شىء . »

فقالت بحماس ـ « لو كنت فى مكانك يا عزيزتى لصارحته برأيى فيه .. ولما تخلص من براثنى دون لوم أو تقريع . »

فأجبتها قائلة ـ « انى على موعد معه بعد عشرة أيام . وأعتقد أننا سنواصل المضاجعة . » فانسحبت الى الخلف وهى تحملق فى مباشرة قائلة ـ « يالله ! .. اما زلت تحبينه .. بعد مافعل ؟ »

فأجبت قائلة دون أن أتمالك نفسى من خفض صوتى ـ « كلا . فانى لم أعد أحبه بنفس القدر ولكن ـ » وهنـــا ترددت ثم تعمدت الكذب قائلة ـ « ان اثارة شجار وتوجيه اللوم ليســا دائما خير طريقة للانتقام . »

فتأملتنى لحظة بعينين مغمضتين حتى نصفهما وقد انسحبت الى الخلف كما يفعل الرسامون عندما يتفحصون صورهم .

ثم صاحت قائلة ـ « انك محقة تماما .. ولكنى لم أفكر فى ذلك . أتعلمين ماذا أفعل لو كنت فى مكانك ؟ أتركه يقع فى شره وهو هادىء وواثق من نفسه تماما ـ وذات يوم غير بعيد أتخلى عنه . »

فلم أحر جوابا . ثم مالبثت أن أردفت قائلة بصوت أقل انفعالا ولكنه ليس أقل حيوية أو قدرة على التعبير ـ « ومع ذلك فانى لاأكاد أصدق هذه القصة .. زوجة وطفلة .. وكان معك غاية فى التزمت والتدقيق . ثم جعلك تشترين كل هذا الاثاث والجهاز . ياله من عمل دنىء ! دنىء ! »

فلزمت الصمت . وصاحت قائلة فى انتصار ـ « ولكننى كنت أعلم ذلك طوال الوقت ! فقد عرفت حقيقته . ويجب أن تعترفى بذلك . فماذا قلت لك ؟ انه لا يعنى ما يقول . مسكينة يا آدريانا ! » ثم ألقت بذراعيها حول عنقى وقبلتنى . فتركتها تفعل .

ثم قلت :

ـ « نعم . ولكن أسوأ مافى الامر هو انه استنفد نقود أمى . »

ـ « وهل أمك تعلم ؟ »

ـ « لم تعلم بعد . »

فصاحت قائلة ـ « لا تقلقى بشأن النقود . فان آســتاريتا متيم

بك ــ وما عليك الا ان تحزمي امرك ولسوف يعطيك كل ماتطلبين . »

فأجبتها قائلة ــ « لا أبغي أن أرى آستاريتا مرة اخرى . أقابل اى رجل عدا آستاريتا . »

ولا يفوتني أن اقول ان جيزيلا لم تكن حمقاء . فقد ادركت في الحال انه يحسن بها مؤقتا الا تذكر آستاريتا . كما فهمت ما اعنيه بعبارة « أي رجل عدا آستاريتا . » وتظاهرت لحظة بالتفكير .

ثم أردفت تقول ــ « انك على حق . فاني أفهم ماذا تعنين . فانا نفسي أشعر بالتفاهة الى حد ما لو انني خادنت آستاريتا بعد كل ماحدث ــ فهو يريد أن ينال ماربه باي ثمن ــ كما انه كاشفك بحقيقة جينو بغية الانتقام . » ثم عادت الى الصمت وبعد ذلك اردفت قائلة بلهجة حازمة :

ــ « دعي الامر لي . اتبغين مقابلة شخص على استعداد لمعاونتك ؟ »

ــ « نعم . »

ــ « دعي الامر لي . »

فأضفت قائلة ــ « ولكنني لا أبغي الارتباط بأحد . بل أوثر الحرية .

فرددت قائلة لثالث مرة ــ « دعي الامر لي . »

فأردفت قائلة ــ « فاني اريد الآن ان اود لامي نقودها وابتاع بعض حوائجي . » ثم اضفت قائلة ــ « ولا اريد أن تضطر امي الى العمل بعد ذلك . »

وفي أثناء ذلك كانت جيزيلا قد نهضت من مكانها وجلست الى خوان الزينة .

قالت وهي تضع بعض مسحوق الزينة على وجهها في لمسات سريعة ــ « لقد كنت دائما أطيب نفسا مما ينبغي يا ادريانا . والآن أترين ماذا يحدث لي مع اطيب مما ينبغي ؟ »

فقلت ــ « اتعلمين انني لم اذهب [illegible] لمام الرسامين ؟ لقد قررت الا اعمل نموذجا بعد ذلك . »

فاجابتني قائلة ــ « انك محقة تماما . فانا نفسي لا اعمل سوى ــ » ثم ذكرت اسم فنان معين واردفت تقول ــ « وذلك لاؤدى له صنيعا فحسب . ولكنني سأعتزل العمل حالما ينتهي من رسمه . »

ولشد ما احسست حينئذ بالحب نحو جيزيلا وبالعزاء التام . فكان وقع عبارتها « دعي الامر لي » مطمئنا كوعد قلبي من أم بالتفرغ لاحتياجاتي في أقرب وقت ممكن . ولكني ادركت بالطبع أن جيزيلا لم

تكن مدفوعة الى مساعدتي بأية عاطفة نحوى بل الاحرى انهـا كانت مدفوعة برغبتها شبه اللاواعية فى ان ترانى اهوى الى مثل حالتهـا فى أقرب وقت ممكن كما سبق أن حدث فى موضوع آستاريتا . ولكن ليس ثمة من يفعل شيئا بلا مقابل . ولما كان حسد جيزيلا فى تلك الحالة قد صادف هوى فى نفسي فانى لم اجد مبررا لرفض مساعدتها لمجرد علمي أنها انما تبذلها بدوافع مغرضة .

كانت فى عجلة شديدة من امرها لانها كانت قد تأخرت فعلا من موعدها مع خطيبها . فغادرنا الغرفة واخذنا نهبط الدرج الضيق فى المنزل القديم وقد كاد يكون عموديا .

قالت ونحن نهبط الدرج مدفوعة الى ذلك بحالتها [illegible] وربما برغبتها فى التخفيف من مرارة الخيبة التى كنت [illegible] انني لم اكن وحدي عاثرة الحظ :

— « أتعلمين انني بدأت اشك فى ان ريكاردو يريد ان [illegible] بنفس الطريقة التى خدعك بها جينو ؟ »

فسألتها فى براءة قائلة — « اهو متزوج ايضا ؟ »

— « كلا . ولكنه ينسج لى قصصا خيالية كثيرة — اظنه يريد ان يسخر منى . ولكننى قلت له بصراحة : « انصت الى يابنى العزيز . انا لست فى حاجة اليك . فان شئت بقيت معى والا فلتغرب عنى ! »

فلم انبس بكلمة . ولكننى كنت اعلم يقينا ان هناك فارقا كبيرا بينى وبينها وبين علاقتى بجينو وعلاقتها بريكاردو . فلم تكن لديها قط فى قرارة قلبها اية اوهام حول نوايا ريكاردو . وكما كنت اعلم جيدا فانها لم تتوقف قط لتفكر فى خداعه . اما انا [illegible] ذلك قد عقدت كل آمال قلبى الغرير على ان اصير زوجة [illegible] دائما مخلصة له [illegible] المنة التى ارغمنى آستاريتا على [illegible] اياى فى فيتربو لا يمكن ان تسمى خيانة فى الحقيقة [illegible] انها ربما [illegible] لو صارحتها بذلك [illegible] الصمت [illegible] الباب الخارجى [illegible] معى على [illegible] فى مساء اليوم [illegible] محل الحلوى منتظرة اياى من التأخر من الموعد لانها [illegible] صحبة شخص آخر . ثم انصرفت مهرولة .

ادركت اننى يجب أن اطلع امى على ماحدث ولكننى لم اجرؤ على ذلك . فقد كانت أمى تحبنى حقا . ولما كانت على النقيض من جيزيلا التى لم تر فى خيانة جينو سوى انتصار لآرائها ولم تحاول حتى ان تخفى عنى فرحتها القاسية فانها لن تفرح لادراكها مدى صحة رأيها

فى النهاية بقدر أساها لما وقع لى . فقد كانت فى قرارة قلبها لا ترغب الا فى سعادتى دون أن تعبأ كيف أحققها . ولكنها كانت واثقة أن جينو لن يستطيع أن يهيئها لى . فقررت بعد كثير تردد الا أخبرها بشىء . فقد كنت أعلم أن فعالى لا ألفاظى فى مساء اليوم التالى خليقة بأن تفتح لها عينيها . ومع أننى أدركت أنها طريقة وحشية لاظهارها على التغير الكبير الذى طرأ على حياتى فقد سرنى أننى بذلك سوف أتجنب كثيرا من التفسير والتفكير والتعليق أو على الاقل ذلك التفسير والتفكير والتعليق الذى تدفق من فم جيزيلا فى سخاء شديد عندما رويت لها قصة خداع جينو . ولا أكتمكم أننى احسست عندئذ بنوع من النفور نحو موضوع الزواج بأسره ولم أشأ أن أتحدث عنه الا فى أضيق الحدود كما وددت لو يتجنبه الآخرون .

وفى اليوم التالى ادعيت أننى على موعد مع جينو فقضيت المساء كله فى خارج الدار حتى لا أتعرض طوال الوقت لمضايقة أمى التى كانت قد ساورتها الشكوك بالفعل . وكان لدى ثوب جديد معد للزفاف وهو زى رمادى كنت أنوى ارتداءه على أثر الاحتفال مباشرة . وكان أجمل ثيابى جميعا فترددت طويلا قبل ارتدائه . ولكننى تذكرت عندئذ أننى سأضطر الى ارتدائه فى يوم من الايام ولن يكون ذلك اليوم أطهر ولا أسعد من يومى هذا . كما أن الرجال من الناحية الاخرى يحكمون بالمظاهر . وانه لما يبرز جمالى أن أظهر امام الناس فى أبهى حللى حتى احصل على مزيد من النقود . فحزمت أمرى . وهكذا ارتديت أجمل ثيابى دون أن تخلو نفسى تماما من بعض الشكوك — ذلك الثوب الذى يبدو لى اليوم كلما تذكرته غاية فى البساطة وخلوا من كل جمال شأن جميع ملابسى حينذاك . وعنيت بتصفيف شعرى كما وضعت على وجهى شيئا من المساحيق لا يزيد عما أضعه عادة . ولا يفوتنى أن أقول بهذه المناسبة اننى لم افهم قط لماذا يفرط كثير من النسوة ممن يحترفن مهنتى فى طلاء وجوههن بالمساحيق على صورة كثيفة للغاية ثم يجبن الشوارع فيبدن وكأنهن يرتدين أقنعة الكرنفال . ولعل السبب فى ذلك أنهن يخشين أن لم يفعلن أن يبدو عليهن الشحوب الشديد نظرا لنوع الحياة التى يحيينها . أو لعلهن يخشين ان لم يطلين وجوههن بهذه الطريقة البدائية الا يجذبن انتباه الرجال والا يستطعن اظهار مدى استعدادهن للتفاهم . أما أنا فلا أفقد مطلقا مظهرى الصحى ولون بشرتى البرونزى مهما كنت متعبة ومهما أفرطت فى المضاجعة ويمكننى أن أقول دون خجل ان جمال وجهى دائما كان

خليقا بأن يدير رءوس الرجال ليحملقوا فى كلما مررت فى الطريق دون حاجة الى الافراط فى الزينة • فأنا لا أجذب الرجال باستخدام أحمر الشفاه أو أقلام الكحل أو بتغيير لون شعرى بمحلول الاوكسيجين بل بجلال مظهرى او على الاقل ذلك هو ما قاله لى الكثيرون منهم — وبما يمتاز به تعبير وجهى من صفاء عذب وبثغرى النضيد الرائع عندما اضحك وبكتلة شعرى الفتى الاسود المموج • ولعل النساء اللائى يصبغن شعورهن ويطلين وجوههن لا يدركن أن الرجال يشعرون نحوهن بنوع من الخيبة مقدما لادراكهم حقيقتهن منذ البداية . أما أنا فلأنى فى مسلكى طبيعية متحفظة للغاية كنت لا أفتأ أتركهم فى شك من حقيقة شخصيتى وبهذه الطريقة لا أفتأ أوهمهم بالدخول فى مغامرة وهذا هو ما يبغونه قبل كل شىء أكثر من مجرد ارضاء حواسهم .

وعندما ارتديت ملابسى ووضعت زينتى ذهبت الى السينما حيث شاهدت الفيلم مرتين . وما ان خيم الليل حتى غادرت السينما واتجهت مباشرة الى محل الحلوى حيث ضربت لى جيزيلا موعدا للقاء . ولم يكن ذلك المحل من الاماكن الرخيصة المألوفة حيث تعودنا أن نلتقى بريكاردو فى مناسبات أخرى . بل كان محلا أنيقا لم اقصده قط من قبل . وأدركت أن اختيار ذلك المكان كان راجعا أولا وأخيرا الى رغبة جيزيلا فى توفير الخلفية الجديرة بى وفى رفع ثمن حظوتى . حقا ان مثل هذا الاهتمام بالتفاصيل وأمور أخرى سأذكرها فيما بعد يمكن أن يوفر لامرأة من صنفى اذا كانت تتمتع بالصبا والجمال وتعرف كيف تستغل هذه الهبات بذكاء عملا ثابتا مريحا وهو مانصبو اليه جميعا من قلوبنا • ولكن ذلك لا تفعله سوى القليلات ولم أكن قط واحدة منهن • فان نشأتى المتواضعة كانت تجعلنى دائما أنظر بارتياب الى الاماكن الفاخرة . فكنت لا أفتأ أحس بالضيق فى المطاعم ومحال الشاى والمقاهى الراقية حيث أخجل من أن ابتسم للرجال أو أرميهم بنظرات الغرام بل أحس وكأنى أسام العذاب وسط كل تلك الاضواء المتلألئة . وكنت لا ابرح أحس بجاذبية عميقة دافئة نحو شوارع المدينة بقصورها وكنائسها وآثارها ومحالها ومداخل دورها التى تجعلها اكثر جمالا وجاذبية من أية غرفة فى مطعم أو محل للشاى . وكان من عادتى الاثيرة الى نفسى دائما أن اخرج الى الطريق قرب الغروب حيث أراقب الشفق وهو ينشر الظلام فى السماء رويدا رويدا فوق سطوح المنازل . وكان يروقنى دائما أن اتجول وسط الزحام وأن انصت دون أن ألتفت حولى الى عبارات الغزل التى يخاطر

فالهمس بها عفو الخاطر أشخاص من المارة لا ينتظر منهم ذلك مطلقا فوعين اليه باستثارة حواسهم فجأة . وكان يستهوينى دائما أن أذرع الطريق نفسه مرارا رائحة غادية حتى يكاد فى النهاية ينتابنى الاعياء الشديد ولكن قلبى يظل منتعشا متحمسا كما لو كنت فى معرض لا ينضب معينه من المفاجآت . فكان الطريق دائما هو مطعمى وغرفة استقبالى ومقهاى ويرجع ذلك الى اننى ولدت فقيرة والمعروف عن الفقراء أنهم يرفهون عن أنفسهم بأقل التكاليف وذلك بالحملقة فى واجهات المحال حيث لايمكنهم أن يبتاعوا شيئا وفى واجهات القصور حيث لا يمكنهم أن يقيموا .

ولنفس هذا السبب كنت دائما أحب الكنائس وما أكثرها فى روما وهو ترف فى متناول أيدى الجميع لانها لاتغلق أبوابها ابدا وتشيع فيها رائحة الفقر العفنة القديمة المتواضعة متغلبة فى معظم الاحيان على رائحة البخور بين الزينات النفيسة من الرخام والذهب . ولكن الاغنياء بالطبع لا يتجولون فى الشوارع ولا يترددون على الكنائس بل ان أقصى مايمكن أن يفعله الرجل الغنى هو أن يعبر المدينة فى سيارته وهو متكىء الى الخلف على الوسائد متصفحا الجريدة بين الحين والحين . وبايثارى الطريق على أى مكان آخر عزلت نفسى فى الحال من جميع أولئك الرجال الذين كان ينبغى على ــ طبقا لرأى جيزيلا ــ أن أسعى الى التعرف اليهم مضحية بميولى التى لشد ماكانت عميقة الجذور فى نفسى . ولكننى لم اشأ قط أن أقوم بتلك التضحية فكانت ميولى دائما موضوع نقاش حاد بينى وبين جيزيلا طوال مشاركتى اياها فى العمل . فكانت جيزيلا تكره الطريق ولا تعنى الكنائس شيئا فى نظرها . أما زحام الناس فكانت تترع نفسها بالاحتقار له ولاتشعر نحوه الا بالنفور . فلم تكن تستهدف سوى المطاعم الغالية حيث يرقب الخدم فى انتباه وقلق أقل اشارة تصدر من الرواد ،وكذلك المراقص العصرية حيث يرتدى أفراد الفرقة الموسيقية زيا موحدا ويرتدى الراقصون ثياب السهرة كما كانت تقصد أكثر المقاهى ونوادى القمار اناقة وفخامة . وكانت فى مثل هذه الاماكن تتحول الى شخص آخر تماما فيتغير سلوكها وحركاتها بل حتى لهجة صوتها . فكانت فى الواقع تتكلف السلوك كسيدة حقيقية وهو مثلها الاعلى الذى كانت تهدف اليه وقد حققته الى حد ما كما سنرى فيما بعد . ولكن أغرب مظهر من مظاهر نجاحها فى النهاية أنها لم تلتق بالشخص الذى قدر له أن يحقق مطامحها فى أحد المحال الانيقة بل عن طريقى وفى أحد

الشوارع التى لشد ماكانت تمقتها من اعماق قلبها .

وقد وجدت جيزيلا فى محل الحلوى ومعها رجل متوسط العمر يعمل سمسارا متجولا فقدمته الى باسم جياكنتى . وكان عريض المنكبين الى حد ... مما جعله اثناء جلوسه . يبدو ذا قامة عادية , ولكنه ما ان نهض واقفا حتى تبين لى انه يكاد يكون قزما كما زاده عرض منكبيه قصرا على قصره . وكان شعره الابيض الكث الذى يلمع كالفضة مرفوعا الى اعلى بالفرشاة فوق جبهته ربما ليبدو اطول مما هو . وكان احمر الوجه وبدت عليه الصحة وانتظمت قسماته واتسمت بالنبل كوجه التمثال . فكانت جبهته جميلة ملساء وعيناه نجلاوين سوداوين وأنفه مستقيما وفمه جميل التكوين . ولكن ثمة تعبيرا بغيضا ينبىء بالخيلاء والغرور والاريحية الكاذبة جعل وجهه منفرا للغاية بعد أن كان يبدو لاول وهلة مهيبا جذابا .

أحسست بالحياء الى حد ما فما ان انتهى التعارف حتى جلست دون أن أنبس بكلمة . وواصل جياكنتى حديثه الذى كان يدلى به الى جيزيلا وكأن وصولى لم يكن سوى حدث تافه على حين انه لم يكن فى الحقيقة ثمة غرض من السهرة سواه . قال وهو يضع يده على ركبة جيزيلا حيث أبقاها طوال حديثه ــ « لا يمكنك الشكوى منى ياجيزيلا . فكم طال ــ ولنقل تحالفنا ؟ ستة شهور ؟ حسنا . هل يسعك أن تقولى ــ ويدك على قلبك ــ اننى رفضت لك طلبا فى هذه الشهور الستة جميعا ؟ » كان حديثه واضحا بطيئا مشددا مؤكدا . ولكنه من الواضح انه كان يتكلم بهذه الطريقة لا ليجعل نفسه مفهوما بل لينصت الى صوته ويستمتع بكل كلمة ينطق بها .

فقالت جيزيلا بلهجة ملول خانية رأسها ــ « كلا . كلا . »

ثم أردف جياكنتى قائلا بصوته الواضح المؤكد ــ « دعى جيزيلا تخبرك يا آدريانا . فاننى لم امتنع فقط عن خفض ــ ولنقل مكاسبها المهنية ــ بل كنت لا افتأ احمل اليها الهدايا كلما عدت من ميلان . الا تذكرين زجاجة العطر الفرنسى التى احضرتها اليك ذات مرة ؟ ومرة أخرى عندما اعطيتك بعض الملابس الداخلية المصنوعة من الحرير والدانتلا ؟ ان النساء يروقهن اتهام الرجال بالجهل المطبق فيما يخص ثيابهن الداخلية . ولكننى استثناء من القاعدة ! » ثم ضحك فى رقة كاشفا عن أسنان جميلة رائعة ولكنها لشدة بياضها بدت زائفة .

وبعد قليل قالت له جيزيلا ــ « اعطنى سيجارة »

فأجابها قائلا فى مجاملة تهكمية ــ « على الفور ! » كما قدم الى

سيجارة وأخذ لنفسه واحدة أشعلها ثم أردف يقول ـ « أتذكرين حقيبة اليد التى احضرتها اليك مرة أخرى ؟ حقيبه كبيرة من الجلد ـ كانت جديرة بان تكتبى عنها لاسرتك ؛ الم تعودى تستخدمينها ؟ »

فقالت جيزيلا ـ « انها حقيبة صباحية »

ثم أردف قائلا وهو يلتفت نحوى ـ « أنا لا أحب تقديم الهدايا لاسباب عاطفية ـ أتفهمين ؟ » ثم هز رأسه وهو ينفث الدخان من منخريه قائلا ـ « بل لاسباب ثلاثة واضحه . اولها ـ أننى أحب ان يشكرنى الناس . وثانيها ـ أنه لامثيل للهدية للحصول على حسن المعاملة . وفى الواقع فان كل من تصله هدية منك لايفتأ يأمل فى الحصول على أخرى . وثالثها ـ أن النساء يملن الى الوهم والهدية تبعث على الشعور بشىء من العاطفة حتى ولو كانت معدومة . »

فقالت جيزيلا فى غير اكتراث دون ان تنظر اليه ـ « لا شك أنك رجل عميق . »

فهز رأسه كاشفا عن أسنانه جميعها فى ابتسامة عذبة ـ « كلا . فأنا لست عميقا ـ بل أنا ببساطة رجل له بعض الخبرة بالحياة وقد أمكننى أن أتعلم من خبرتى . فأنا أعلم أن ثمة أمورا لابد من اتباعها مع النساء وأخرى مع العملاء وأخرى مع الخدم وهكذا . فعقلى أشبه بدليل منظم للغاية . فاذا مارأيت امرأة مثلا عن بعد ! ـ اخرج مذكرتى وأتصفحها حيث أجد أن مقاييس معينة أحدثت التأثير المطلوب وأن مقاييس أخرى لم تفعل ذلك ثم أعيد المذكرة الى مكانها وأتصرف تبعا لذلك ، هذا هو كل ما هنالك . »

كانت جيزيلا تدخن سيجارتها وقد بدا عليها الملل . أما أنا فلم أفه بشىء .

فواصل حديثه قائلا ـ « وانى أجد أن النساء يشعرن نحوى بالامتنان لانهن يدركن فى الحال اننى لن أخيب رجاءهن . فأنا أعلم ماذا يتوقعن كما أعرف نزواتهن ونواحى الضعف فيهن تماما كما أشعر أنا بالامتنان نحو العميل الذى يفهمنى من نظرة واحدة ولايضيع وقتى فى الثرثرة وهو يعلم مايريد وما أريد ـ ان لدى فى ميلان منفضة للسجائر أضعها على مكتبى كتب عليها ما يلى ـ « بارك الله فى أولئك الذين لا يضيعون الوقت . » ثم القى بالسيجارة ونظر الى ساعته قائلا ـ « لقد حان الوقت للذهاب الى حيث نتناول الطعام . »

ـ « كم الساعة ؟ »

ـ « الثامنة . استأذنكما فى الانصراف لحظة ـ وسأعود فورا . »

ثم نهض من مقعده وغادر الغرفة عند منتهاها . وفى الواقع فانه كان قصير القامة للغاية بمنكبيه العريضين وشعره الابيض السكث المنتصب فوق قمة رأسه . وسحقت جيزيلا سيجارتها فى المنفضة قائلة ـ « انه ممل للغاية ولا يتحدث الا عن نفسه . »

ـ « لقد لاحظت ذلك . »

فأردفت قائلة ـ « ما عليك الا أن تتركيه يتحدث وتظلى تقولين له « نعم » طوال الوقت . فسوف ترين أنه لن يبرح يقول لك أشياء لا حصر لها ـ فلا يعلم الأالله ماذا يحسب نفسه ـ ولكنه يبذل المال بسخاء ويقدم الهدايا فعلا . »

ـ « نعم . ولكنه لا يفتأ يذكرك »

فلم تحر جوابا بل هزت رأسها كمن يريد أن يقول ـ « ماذا يسعك أن تفعلى فى ذلك ؟ » ثم صمتنا لحظة الى أن عاد جياكنتى ودفع الحساب ثم غادرنا محل الحلوى .

وعندما خرجنا الى الطريق قال جياكنتى ـ « هذه الليلة ياجيزيلا من نصيب آدريانا ـ ولكن أترغبين فى تناول العشاء معنا ؟ »

فأسرعت جيزيلا بالاجابة قائلة ـ « لا . لا . شكرا . فانى على موعد . » ثم ودعت جياكنتى وانصرفت .

وما ان ذهبت حتى قلت لجياكنتى ـ « يالها من فتاة رقيقة ! »

فأتى حركة بوجهه قائلا ـ « لا بأس بها . فهى رشيقة القد . »

ـ « ألا تحبها ؟ »

فقال وهو يسير بجانبى قابضا بقوة على عضدى اسفل الابط تقريبا ـ « أنا لا أطالب أحدا أن يكون ذا شخصية محبوبة ـ بل أن يحسن اداء عمله ايا كان ـ فأنا لا أطالب ناسخة مثلا أن تكون محبوبة بل قادرة على سرعة النسخ بلا أخطاء ـ ولا أطالب فتاة كجيزيلا أن تكون محببة بل أن تعرف كيف تؤدى عملها أى أن تمتعنى بوقت طيب طوال الساعة أو الساعتين اللتين أقضيهما معها . وجيزيلا لا تعرف كيف تؤدى عملها . »

ـ « لماذا ؟ »

ـ « لانها لاتفتأ تفكر فى النقود ـ فهى تخشى دائما الا تأخذ اجرها أو أن يبخس حقها ـ أنا لا أتوقع منها أن تحبنى ولكن مهنتها تفرض عليها أن تتصرف كما لو كانت تحبنى حقا وان توهمنى بذلك ـ هذا هو المقابل الذى أدفع ثمنه ـ ولكن جيزيلا تظهر فى وضوح شديد أنها انما تفعل ذلك لمصلحتها الخاصة ـ فهى تبدأ فى المساومة قبل أن

[illegible] الفرصة حتى لالتقاط انفاسك · وهو أمر محمود ولكنها تسرف [illegible] اكثر [illegible] ينبغى ! » :

[illegible] المطعم قائلة به مكان صاخب مزدحم بمن هم على [illegible] ـ السماسرة المتجولون وسماسرة البورصه واصحاب [illegible] ورجال الاعمال الذين يمرون فى طريقهم بالمدينة . وتقدمنى [illegible] الدخول من الباب .

[illegible] وهو يناوله قبعته ومعطفه قائلا ـ « هل مائدتى [illegible] .

ـ « نعم ياستر جياكنتى . »

وكانت المائدة تجاور النافذة ـ فجلس جياكنتى وهو يفرك يديه . ثم سألنى قائلا ـ « الديك شهية طيبة ؟ »

فقلت فى ارتباك ـ « اظن ذلك . »

ـ « حسنا . أنا مسرور لذلك . فانى أحب أن أرى الناس يأكلون عندما يجلسون الى المائدة · فجيزيلا مثلا لا تحب ان تأكل شيئا قط بحجة أنها تخشى البدانة · هذا هراء ! فلكل شىء وقته وزمانه · فلابد أن تأكلى اذا ماجلست الى المائدة . » كان يبدو مترعا بالكراهية نحو جيزيلا .

فقلت فى وجل ـ « ولكن مامن شك فى أنك تسمن حقا لو افرطت فى تناول الطعام . وبعض النساء يابين أن تزيد اوزانهن . »

ـ « وهل أنت من بين هؤلاء ؟ »

ـ « كلا . لست من بينهن . ولكنهن فى الواقع يقلن لى أننى اميل الى البدانة · »

ـ « لا تصغى اليهن ـ فهذا كله حسد . فانت بهذه الصورة على ما يرام · أقول لك ذلك وأنا أعلم عما اتحدث · » ثم ربت على يدى بطريقة أبوية وكأنه يطمئننى ·

وجاء النادل . فقال جياكنتى ـ « عليك أولا أن تحمل هذه الزهور بعيدا عنى فهى تضايقنى . ثم أحضر الطعام المالوف كما تعلم ـ اسرع ! » .

ثم أستدار نحوى قائلا ـ « انه يعرفنى ويعرف ماذا أحب . فلتدعى الامر له . ولسوف ترين أنك لن تجدى محلا للشكوى . »

وفى الواقع فانى لم أجد ما أشكو منه . فكانت جميع الالوان التى قدمت وفيرة لذيذة ولو أنها لم تكن ممتازة . وكان جياكنتى ذا شهية هائلة فراح يأكل فى تركيز وهو مطأطأ الرأس قابض بقوة على سكينه

وشوكته لا يتطلع الى أو يتحدث معى وكأنه لا يجالس أحدا . وفى الواقع فانه كان مستغرقا تماما فى عملية الاكل بل لقد أفقده نهمه ذلك الهدوء الذى لشد ما ازدهى به . كما ارتبكت حركاته وكأنه يخشى ألا ينتهى من تناول الطعام فى الوقت المحدد فيضطر الى تركه وهو جائع ـ كان يدفع بقطعة اللحم فى فمه وسرعان ما يكسر بيده اليسرى قطعة من الخبز يطبق عليها باسنانه وبيده الاخرى يصب لنفسه قدحا من النبيذ يجرعه قبل انتهائه من مضغ الطعام . وكان لا يفتأ يتلمظ بشفتيه ويدير عينيه ويهز رأسه من وقت لآخر كما يفعل القط عندما يستولى على لقمة أكبر من فمه . أما انا فلم أكن جوعى مطلقا على خلاف عادتى . فلأول مرة فى حياتى كنت مقدمة على مضاجعة رجل لا احبه بل حتى لا اعرفه فأخذت اتفحصه بعناية مع ملاحظة مشاعرى الخاصة محاولة أن أصور لنفسى كيف سأنجز المهمة . وبعد هذه المرة الاولى لم أعد أعير اهتماما لمظهر الرجال الذين ارافقهم ، ولعلى بحكم الضرورة التى كانت تدفعنى سرعان ما تعلمت أن أتبين فى كل رجل من أول نظرة سمته الطيبة المستحبة التى تجعل الاتصال الجنسى به مقبولا ومحتملا . ولكننى فى تلك الليلة لم أكن قد تعلمت بعد سر مهنتى الذى يتركز فى الالمام بالطريقة التى اكتشف بها فى الحال جاذبية خفية تقلل من بغض العملية الجنسية الى نفسى . وكنت أنشد تلك الجاذبية بطريقة غريزية ان صح هذا التعبير دون أن أدرك ماذا أنا فاعلة ـ لقد سبق أن قلت ان جياكنتى لم يكن قبيحا . وفى الواقع فانه يمكن أن يوصف بالوسامة ما دام مطبقا فاه منطويا على ما تكنه روحه من عاطفة مدمرة . وهذا اسراف فى القول لان الحب لا يعدو ان يكون اتصالا جسديا قبل كل شىء . ولكن ذلك لم يكن يكفينى لانى لم أستطع قط أن أحتمل رجلا ـ لا أن أحبه ـ لمجرد صفاته الجسدية .

والآن عندما انتهى العشاء وعاد جياكنتى الى الحديث من جديد بعد أن أشبع نهمه الذى يعوزه التهذيب مطلقا جشاءة أو اثنتين أدركت أنه لا شىء فيه أو على الاقل لم اتمكن من اكتشاف شىء فيه يجعله محتملا . فهو لم يكتف بالحديث عن نفسه طوال الوقت كما قالت جيزيلا بل كان يفعل ذلك بطريقة كريهة للغاية . فكان شخصا مملا مغرورا لم يفتأ يروى لى أشياء لا تشرفه مطلقا بل لم تزد على أن دعمت احساسى الغريزى الاول نحوه بالنفور والاشمئزاز . فلم اجد فيه شيئا على الاطلاق يمكننى أن احبه . أما الاشياء التى لم يفتأ

يفاخر بها ويطنب فى الحديث عنها كصفات مميزة له فقد بدت جميعها فى نظرى عيوبا رهيبة . وقد التقيت بعد ذلك برجال آخرين كانوا على قلتهم يضارعونه فى تفاهته . كما لم أجد فيهم على الاطلاق ما أتشبث به حتى يمكن أن يستميلنى اليهم . ولم أفتأ أتعجب لوجودهم فى الحياة بل رحت اتساءل ان كنت انا الملومة لعدم امكانى لاول وهلة اكتشاف الصفات التى لا ريب أنهم يتحلون بها . ومع ذلك فقد ألفت بمضى الزمن صحبة هؤلاء الرفاق الثقلاء وكنت أتظاهر بالضحك والمزاح وأتشكل طبقا لما يرونه فى ويريدون مني أن أكونه .
ولكن اكتشافى الاول فى ذلك المساء ملأ ذهنى بالخواطر الحزينة . فبينما كان جياكنتى يواصل حديثه ويتخلل أسنانه رحت أحدث نفسى قائلة اننى احترفت مهنة شاقة للغاية تقتضينى ان اتظاهر بالحب العارم نحو رجال يثيرون فى نفسى فعلا نقيض ذلك الشعور تماما كما هى الحال مع جياكنتى . وقلت لنفسى ان مثل هذه الخطوة لا يمكن أن تقدر بالمال مهما بلغت قيمته - وان المرء لا يسعه مطلقا فى مثل هذه الحالات الا أن يحذو حذو جيزيلا التى لم تكن تفكر الا فى النقود وتكشف عن ذلك فى وضوح . كما خطر لى أننى فى ذلك المساء سأصحب جياكنتى - ذلك الشخص البغيض - الى غرفتى الصغيرة المسكينة التى كنت أنوى استخدامها لغرض يختلف كل الاختلاف . ففكرت كم كنت عاثرة الحظ وكيف شاء القدر أن تزول الغشاوة عن عينى منذ البداية فقادنى الى مقابلة جياكنتى ولم يقدنى الى شاب ساذج ينشد المغامرة أو شخص مهذب غير دعى كمثات الآخرين . كما خطر لى أن وجود جياكنتى بين قطع الاثاث فى غرفتى سوف يدمغ تنازلى عن جميع أحلامى القديمة حول حياة طبيعية محترمة .

أخذ يتحدث طوال الوقت ولكنه مع ذلك لم تبلغ به الغباوة حدا لا يمكنه من أن يلحظ اننى كنت لا أكاد انصت اليه واننى حزينة لا يبدو على المرح فسألنى فجأة قائلا - « أمكتئبة أنت يا طفلتى ؟ »

فأسرعت بالاجابة قائلة وأنا استجمع شجاعتى - « كلا . كلا . » ولكن نبرات صوته الحانية فى غير صدق أغرتنى قليلا بأن اثق به وان أحدثه بشىء عن نفسى بعد أن سمحت له بالتحدث عن نفسه طوال ذلك الوقت .

ثم أردف قائلا - « والآن حسنا تصنعين ! فأنا لا أحب الاكتئاب . ولم أدعك الى هنا لتكتئبى - فلعل لديك مبرراتك الخاصة وهذا أمر لا شك فيه . ولكنك ما دمت معى فعليك أن تلقى بمشاعرك الكئيبة

خلف ظهرك ـ فأنا لا أبغى أن عرف شيئا عن شئونك . فلا أريد أن أعرف من أنت وماذا حدث لك ولا أية معلومات آخرى ـ فهذا لا يهمنى فى شىء . ولكن ثمة صفقة قد تعاقدنا عليها ـ أنت وأنا ـ حتى ولو لم تكن مكتوبة . فأنا أضمن أن أعطيك مبلغا معينا من المال وأنت تضمنين لى فى مقابل ذلك أن أقضى سهرة ممتعة . ولا أهمية لغير هذا» قال تلك الكلمات بلهجة جدية بل ربما أغضبه قليــــلا اننى لم أبد منصتة اليه فى انتباه كاف .

فأجبته قائلة دون أن أكشف عن شىء من المشاعر التى ثارت فى نفسى ـ « ولكننى لست حزينة ! بل ان المكان هنا شديد الضوضاء ملىء بالدخان ـ ولذا فانى أحس ببعض الدوار » .

فسألنى قائلا فى قلق ـ « هل ننصرف ؟ » فقلت نعم . فنادى النادل فى الحال ودفع الحساب ثم انصرفنا .

وعندما خرجنا الى الطـريق ســألنى قائلا ـ « هل نذهب الى فندق ؟ » .

فأسرعت بالاجابة قائلة ـ « لا . لا . » فقد أفزعنى اضطرارى الى ابراز أوراقى . وعلى أية حال فاننى كنت قد وطنت النفس على وجهة أخرى فقلت ـ « تعال الى شقتى » .

فركبنا احدى سيارات الاجرة وأدليت بعنوانى . وما ان تحركت السيارة حتى ارتمى على غارزا مخالبه فى بدنى ومقبلا عنقى . ودلتنى رائحة أنفاسه على أنه أفرط فى الشراب وأنه لابد أن يكون مخمورا . ولم يفتأ يدعونى « طفلة » ذلك اللفظ الذى كان يثيرنى وهــــو على شفتيه كما كان يبدو مثيرا للسخرية وفى غير محله . فتركته يفعل ما يشاء فترة وجيزة ثم أشرت الى ظهر السائق قائلة ـ ألا يحسن بنا أن ننتظر حتى نصل الى هناك ؟ » .

فلم يحر جوابا بل ارتمى بثقله الى الخلف على الوسائد وقد احمر وجهه محتقنا بالدم وكأنه قد أصيب فجـأة بنوبة قلبية . ثم دمدم قائلا ـ « انى أدفع له أجرا ليأخذنى الى حيث أريد لا لشغل نفسه بما يجرى فى سيارته . » كان يسيطر على ذهنه ان النقود وعلى الأخص نقوده هو يمكن أن تسد أفواه الناس جميعا . فلم أحر جوابا. وظللنا ما بقى من الرحلة كلها جالسين فى تصلب كلانا بجانب الآخر دون أن نتلامس . ولم تفتأ أضواء المدينة تومض خلال نوافذ السيارة فتضىء وجهينا وأيدينــــا لحظة ثم لا تلبث أن تختفى مرة أخرى . وقد بدا لى غريبا أن أكون بجوار ذلك الرجل الذى كنت قبل ذلك

بفترة وجيزة غافلة حتى عن وجوده وان أهرع معه الى شقتى حيث أهبه نفسى كما لو كان حبيبى . وكان من جراء استغراقى فى تلك التاملات ان قصرت مسافة الطريق . فاستجمعت شعث نفسى لافيق من دهشتى عندما رايت السيارة تقف فى الطريق المألوف أمام باب منزلى .

قلت لجياكنتى فى الظلام ونحن نصعد الدرج ـ « لا تحدث ضوضاء أثناء دخولك الشقة لانى أقيم مع أمى . »

فأجابنى قائلا ـ « لا تقلقى ياطفلتى » .

وعندما بلغنا بسطة الدرج فتحت الباب بالمفتاح . وتبعنى جياكنتى الى الداخل . فأمسكت بيده وقدته الى باب غرفتى عبر الدهليز دون أن اشعل الضوء وكان أول باب الى اليسار فتركته يتقدمنى وأضأت المصباح المجاور للفراش ثم وقفت فى مدخل الغرفة ملقية نظرة وداع على أثاثها الجديد . فتنهد جياكنتى فى رضا وقد سره أن يجد غرفة نظيفة جديدة فى حين انه ربما كان يخشى ان يجد نفسه محاطا بأثاث قذر متداع . فألقى بمعطفه على أحد المقاعد . وطلبت اليه ان ينتظرنى حتى اعود ثم غادرت الغرفة . .

واتجهت مباشرة الى غرفة الجلوس حيث وجدت أمى عاكفة على على عملها عند وسط المائدة . وما ان رأتنى حتى تركت ما بيدها فى الحال وهمت بالنهوض ولعلها تخيلت انها يجب أن تحضر الى العشاء كما كانت تفعل فى الاماسى الاخرى .

فقلت ـ « لا تنهضى . فقد تناولت عشائى فعلا . معى شخص فى الغرفة المجاورة . فلا تدخلى مهما كانت الظروف » .

فسألتنى قائلة فى دهشة ـ « أمعك شخص هناك ؟ » .

فأسرعت بالاجابة قائلة ـ « نعم . ولكنه ليس جينو ـ بل سيدا مهذبا . . » ثم غادرت غرفة الجلوس دون انتظار المزيد من أسئلتها .

عدت الى غرفتى الخاصة حيث أوصدت الباب . وجاء جياكنتى محمر الوجه نافد الصبر للاقاتى فى وسط الغرفة حيث ضمنى بين ذراعيه . كان اقصر منى بكثير فحنى ظهرى الى الخلف على طرف الفراش لكى يبلغ وجهى وشفتى . وحاولت الا أدعه يلثم فاى . وقد نجحت فى ذلك تارة بالاشاحة بوجهى بعيدا عنه كأننى خجلة وتارة بالقاء راسى الى الخلف وكأنى فى نشوة . وكان جياكنتى فى مضاجعته لا يختلف مطلقا عنه فى تناول طعامه . فكان نهما لا يميز شيئا ولا يكاد يبدأ فى بقعة من جسدى حتى ينتقل الى غيرها خشية أن يفوته

شيء وقد أعماه جسدى كما أعماه الطعام في المطعم . وبعد أن عانقني بدا انه يريد ان يجردني من ثيابي ونحن في ذلك الوضـــع لا نزال واقفين . فكشف الثوب عن احدى ذراعي وكتفي ثم اخذ يقبلني من جديد كأن منظر بدني العاري قد ادار راسه . وخشيت أن يمزق ثوبي بحركاته المرتبكة . فقلت اخيرا دون أن أدفعه بعيدا ـ « هيا اخلع ثيابك » .

فتركني في الحال وبدأ يخلع ثيابه وهو جالس على حافة الفراش . فحذوت حذوه على الجانب الآخر من الفراش .

وفجأة سألني قائلا ـ « وهل أمك تعلم ؟ » .

ـ « نعم » .

ـ « وما رأيها في ذلك ؟ » .

ـ « لا شيء » .

ـ « أتستنكره ؟ » .

من الواضح أن تلك التفاصيل لم تكن في نظره سوى عامل اضافي من عوامل الاثارة في مغامرته وهي سمة مشتركة بين جميع الرجال. فالقليلون منهم يمكنهم أن يقاوموا الاغراء بمزج المتعة الجسدية بنوع آخر من الاهتمام أو حتى الشفقة . فقلت بعد قليل وأنا واقفة أخلع ازارى الداخلي من فوق رأسي ـ « انها لا تستحسن ذلك ولا تستنكره فأنا سيدة نفسي ويمكنني أن أفعل ما أشاء . وعندما تجردت من ملابسي وضعتها بنظام على أحد المقاعد ثم تمددت على الفراش مستلقية على ظهري وقد وسدت رأسي احدى ذراعي بينما غطيت صدري بذراعي الاخرى . ولا أدرى لماذا فعلت ذلك ولكنني تذكرت أن شبيهتي الالهة الوثنية في الصورة المطبوعة الملونة التي اعطاها الرسام البدين لامي كانت في ذلك الوضـــع . وفجأة انتـــابني الغضب الممزوج بالامتعاض عندما خطر لي ذلك التغير الكبير الذى طرأ على حياتي منذ ذلك اليوم . ولابد أن جياكنتي قد تولته الدهشة لمرأى جمال جسدى القوى المتين البديع التكوين الذى لم يكن واضحا عندما كنت في كامل هندامي فقد توقف عن خلع ملابسه وأخذ يحملق في مبهورا وقد فغر فاه الى حد ما وبرزت عيناه من رأسه .

قلت ـ « أسرع فاني أشعر بالبرد » .

فانتهى من خلع ملابسه وارتمى على . ولقد ذكرت من قبل طريقته في المضاجعة . وهي صورة مطابقة للواقع تماما . واني أعتقد انني قد وفيته حقه من الوصف ـ ولا حاجة الا أن أضيف أنه كان من ذلك

الصنف الذى يحرص كل الحرص على اقتضاء حقه اذا ما تذكر النقود التى انفقها او سوف ينفقها وكأنه يخشى أن يخدع ان لم يأخذ كل ما يعتقد أنه من حقه . لقد وصفته من قبل بالنهم الشديد ولكنه لم يبلغ به النهم حدا ينسيه ماله . فكان يريد أن يحصل فى مقابله على كل ما يستطيع . فما لبثت أن أدركت أنه يهدف الى اطالة مدة لقائنا ما أمكنه ذلك وأن ينال منى كل المتعة التى يعتقد أنها من حقه . بهذه الفكرة فى ذهنه أخذ يعبث بجسدى كما يعبث العازف بآلته التى تتطلب اعدادا طويلا قبل العزف عليها . وكان لا يفتأ يحثنى طوال الوقت على أن أحذو حذوه بجسده . ولكننى رغم اذعانى له لم البث ان أحسست بالملل وأخذت أراقبه فى برود وكأن تدابيره الواضحة قد أبعدتنى عنه فصرت أنظر اليه والى نفسى أيضا من مسافة بعيدة خلال مرآة من الكراهية والنفور · وكان ذلك مناقضا تماما للاحســـاس بالميل نحوه الذى حاولت بطريقة غريزية فى اول المساء أن اشجعه فى نفسى · وفجأة غشيتنى موجة من التبكيت المخجل فأغمضت عينى ·

وأخيرا عراه الاعيــاء فاضطجعنــا على الفراش . كلانا بجــانب الآخر .

ثم قال فى لهجة تنبىء بالرضا عن نفسه ـ « يجب أن تعترفى بأننى عاشق بارع رغم تجاوزى سن الشباب الى حد ما · »

ثم أردف قائلا ـ « هذا هو رأى النساء جميعا ـ أتعلمين ماذا أعتقد ؟ أن القنانى الصغيرة تحوى النبيذ الجيد . فبعض الرجال ممن يبلغون ضعف حجمى لا يقدرون على شىء ! »

وبدأت أشعر بالبرد فاستويت جالسة فى الفراش وجذبت البطانية من طرفها لتغطى جسدينا · فحمل ذلك على أنه علامة حب »

فقال ـ « والآن يا فتاتى الرقيقة سأنام قليلا · » ثم انكمش ملتصقا بى واستغرق فى اغفاءة .

وظللت راقدة على ظهرى لا أحرك ساكنا وقد وضع على صدرى رأسه الاشيب . وكانت البطانية تغطى جسدينا حتى الخصر . وبينما كنت أتأمله وأتأمل صدره الاشعر وقد علته طيات الكهولة المترهلة عاودنى فى أول الامر الاحساس بأننى فى صحبة غريب لا تربطنى به صلة ما . ولكنه كان مستغرقا فى النوم . وبنومه لم يعد يتحدث أو ينظر او يتحرك . ولما كان ذا شخصية بغيضة فان النوم لم يكشف الا عن خير ما فيه وهو أنه رجل لا يبرح صدره يعلو ويهبط وهو يتنفس واذا بى أثناء تأملى اياه ومراقبته وهو نائم فى ثقة الى جوارى أكاد أحس نحوه

بالعطف ـ رغم ما قد يبدو فى ذلك من غرابة . وكان مما يدل على صدق ذلك الاحساس حرصى على تجنب ايقاظه بحركة ما . وكان ذلك بدافع من العطف الذى ظللت أنشده عبثا حتى تلك اللحظة . وقد أثاره فى نفسى منظر رأسه الاشيب متكئا فى ثقل على صدرى الناهد . وقد خفف عنى ذلك الاحساس وكاد يشعرنى بشىء من الدفء . وفى الواقع فقد خالجنى فى لحظة ما نوع من السمو فى العشق فجر الدموع من مآقى . فلشد ما كان قلبى فى الحقيقة مترعا بالحب فى تلك اللحظة كعهده دائما ـ ذلك الحب الذى آثرت لافتقارى الى أهداف مشروعة الا يبقى عاطلا وأن ينصب على أشياء تافهة وأناس غير أهل له .

وبعد مضى عشرين دقيقة أو ما يقرب من ذلك استيقظ من نومه وسألنى قائلا ـ « هل طال نومى ؟ » .

ـ « كلا » .

فقال وهو ينهض من الفراش ويفرك يديه ـ « انى أشعر بالنشاط. بل ما أنشطنى ! فانى احس وكأنى عدت القهقرى عشرين عاما على الاقل . » وأخذ يرتدى ملابسه وهو لا يفتأ يصيح فى فرح وارتياح . أما أنا فقد ارتديت ملابسى فى صمت .

وما ان تهيأ للرحيل حتى قال ـ « أحب أن اراك مرة أخرى يا طفلتى . فكيف السبيل الى ذلك ؟ »

فأجبت قائلة ـ « ما عليك الا أن تتصل تليفونيا بجيزيلا . فانى أراها كل يوم » .

ـ « وهل تملكين وقتك دائما ؟ » .

ـ « دائما » .

ـ « تحيا الحرية » .

ثم أخرج حافظته وسألنى قائلا ـ « كم تطلبين ؟ » .

فأجبته قائلة ـ « ما تراه » . ثم أضفت قائلة فى اخلاص ـ « لو أجزلت لى العطاء فخيرا تفعل لانى فى حاجة الى المال » .

فرد قائلا ـ « لو أجزلت لك العطاء فانى لا أبغى من وراء ذلك فعل الخير بل لانك فتاة وسيمة أمتعتنى بسهرة ترفيهية جميلة » .

فقلت هازة كتفى ـ « كما تشاء . »

ثم أردف قائلا وهو يخرج النقود من حافظته ـ لكل شىء ثمنه ويجب أن يقدر حسب قيمته . أما فعل الخير فلا وجود له . لقد زودتنى بأفضل مما كان يمكن أن تزودنى به جيزيلا مثلا . فمن

العدل أن تحصلى على أجر أعلى من أجرها . أما فعل الخير فلا شأن له بذلك . هاك نصيحة تعملين بها . فاياك أن تقولي ـ « اعطنى ما تراه » . دعى ذلك للباعة المتجولين . فاذا ما قال لى أحد « أعطنى ما تراه » أجدنى دائما ميالا الى اعطائه اقل مما يستحق . » ثم قدم الى النقود تعلو وجهه حركة معبرة .

وكان كريما كما قالت جيزيلا فقد فاق المبلغ ما كنت أتوقعه بكثير . ولقد عاودنى وأنا أتناول النقود ذلك الاحساس القوى الذى أثارته فى نفسى نقود آستاريتا أثناء رحلة فيتربو بالمشاركة الجنسية الآثمة . وخيل لى أن ذلك معناه بالضرورة ان القدر قد اختارنى لهذا العمل واننى فى الحقيقة قد ولدت لاحترف تلك المهنة حتى ولو كنت أتوق من أعماق قلبى الى شىء يختلف عن ذلك . فقلت « شكرا لك » . واذا بى قبل أن أدرك ماذا أنا فاعلة أقبله على وجنتيه بدافع مفاجىء من العرفان .

فأجابنى قائلا وهو يتهيأ للانصراف ـ « الشكر لك » . ثم امسكت بيده وقدته فى الظلام الى الباب الامامى خلال الدهليز وفى لحظة ما عندما اغلق باب غرفة النوم وكان الباب الامامى لا يزال موصدا احتوانا ظلام شامل . عندئذ ثمة غريزة تكاد تكون حسية أنبأتنى أن أمى لابد ان تكون مختبئة فى الظلام فى احدى زوايا الدهليز حيث كنت أتجول مع جياكنتى . فلابد أنها قابعة خلف الباب أو فى الزاوية الاخرى بين « البوفيه » والجدار منتظرة أن ينصرف جياكنتى . وتذكرت ما حدث فى المرة السابقة عندما أتيت نفس العمل فى الليلة التى عدت فيها متأخرة اثر لقائى بجينو فى فيللا مخدوميه . ولشد ما توترت اعصابى عندما خطر لى انها قد تنقض على حالما ينصرف جياكنتى وتمسك بى من شعرى ثم تجرنى الى الاريكة حيث تنهال على ضربا . وأمكننى أن أحس أنها هناك فى الظلام . بل شعرت وكأنى أكاد أراها . وراودنى من الخلف احساس بالانكماش وكأن يديها كانتا تحومان فوق رأسى استعدادا للقبض على شعرى . وكنت أقود جياكنتى باحدى يدى وبالاخرى أقبض على النقود . ثم خطر لى أن أضع النقود فى يدها حالما تنقض على . وبذلك اذكرها فى صمت أنها هى التى لم تفتأ تحفزنى طوال الوقت على كسب المال عن هذا الطريق . كما أنها محاولة أسد بها فاها بمناشدة حبها الشديد للمال ـ ذلك الحب الذى لم يفقه قط حب آخر فى أعماق روحها . وكنت فى أثناء ذلك قد فتحت الباب .

فقال جياكنتى ـ « وداعا اذن . وسأتصل بجيزيلا » .

وراقبته وهو يهبط الدرج بمنكبيه العريضين وشعره الاشيب المنتصب فوق رأسه وكان يلوح لى بيده مودعا دون أن يستدير نحوى . ثم اغلقت الباب . ولم تلبث أمى فى الحال أن انقضت على كما توقعت .. ولكنها لم تمسك بشعرى كما خشيت أن تفعل بل حاولت أن تعانقنى بطريقة مرتبكة لم أفهمها فى أول الامر . وعملا بخطتى تناولت يدها ودسست فيها النقود . ولكنها دفعتها بعيدا فسقطت على الارض حيث وجدتها فى صباح اليوم التالى عندما غادرت غرفتى . حدث كل ذلك وقد انبهرت أنفاسنا ولكن دون أن تنطق احدانا بكلمة .

ثم دلفنا الى غرفة الجلوس حيث جلست الى المائدة جلسة جانبية. وجلست أمى فى مواجهتى وهى تنظر الى . لقد بدا عليها الانزعاج وتولانى الارتباك .

ثم قالت على غير انتظار ـ « أتعلمين أننى اثناء وجودك هناك أحسست فجأة بالخوف لمدة لحظة ؟ »

ـ « الخوف مم ؟ » .

فأجابتنى قائلة فى مشقة وهى تنظر الى ـ « لست ادرى . فقد أحسست بالوحدة فى اول الامر ... ثم انتابنى البرد فى جميع اطرافى ... لم أكن فى حالتى الطبيعية مطلقا ... وكان كل شىء يدور من حولى كما يحدث للمرء عندما يفرط فى الشراب ... وقد بدا كل شىء غريبا فى عينى . ووجدتنى أحدث نفسى قائلة ـ « هذه هى المائدة ، وهذا هو المقعد وهذه هى ماكينة الخياطة » . ولكننى لم أستطع أن أصدق حقا ان تلك الاشياء هى المائدة والمقعد وماكينة الخياطة . وبدا لى أننى لم أكن أنا نفسى بل شخصا آخر فحدثت نفسى قائلة ـ « أنا خياطة عجوز ولى ابنة تدعى آدريانا » . ولكننى لم أكن واثقة .. فأخذت استعرض الماضى لاقنع نفسى وأتذكر ماذا كنت فى طفولتى وفى صباى وعندما تزوجت وعندما انجبتك ... وانتابنى الخوف لاننى رأيت كل ذلك فى لمح البصر وكأنه يوم واحد فانتقلت فجأة من الشباب الى الشيخوخة ولم الحظ ما طرأ على من تغير ... وعندما أموت سوف يبدو كل شىء وكأنى لم أولد قط » .

فقلت فى بطء ـ « وما الذى يجعلك تتخيلين ذلك . فانت ما زلت صغيرة ثم ما شأن الموت بما نحن فيه ؟ » .

ولكن بدا أنها لم تسمعنى وواصلت حديثها قائلة بلهجتها التوكيدية

وكان حديثها مؤلما ومصطنعا — « أقول لك اننى كنت خائفة . وحدثت نفسى قائلة — « لنفرض أن شخصا ما أبى أن يواصل الحياة فهل يفرض عليه ذلك على الرغم منه ؟ » ... أنا لا أقول ان المرء ينبغى أن يقتل نفسه فذلك يحتاج الى شجاعة . ولكن لنفرض أنه أبى أن يعيش بعد ذلك كما تأبين الطعام أو السير مثلا .. حسنا انى أقسم بأبيك الميت .. أننى أرفض مواصلة الحياة — »

كانت الدموع تترقرق فى عينيها بينما ترتعش شفتاها . فأحسست انا ايضا بالرغبة فى البكاء ونهضت من مكانى ثم احطتها بذراعى وذهبت لاجلس معها على الاريكة فى الطرف القصى من الغرفة . ومكثنا هناك متعانقتين فى قوة بينما أجهشت كلتانا بالبكاء . كنت مذهولة لشدة اعيائى كما أن حديث أمى بمنطقه المتقطع كان يزيدنى ذهولا . ولكننى بادرت باستجماع شعث نفسى لاننى قبل كل شىء كنت أبكى تعاطفا معها . اذ اننى كنت قد اقلعت عن البكاء على نفسى منذ أمد بعيد . فقلت مربتة على كتفها — « هدئى من روعك » .

فرددت قائلة من خلال دموعها — « انى أعنى ذلك يا آدريانا ... فأنا أرفض أن أواصل الحياة .. فربت على كتفها وتركتها تبكى ما شاء لها البكاء دون أن تتكلم . ولكننى فى أثناء ذلك لم اتمالك نفسى من الاعتقاد أن دموعها كانت دليلا قاطعا على ماتشعر به من تبكيت الضمير . فانها لم تفتأ تعظنى قائلة اننى يجب أن احذو حذو جيزيلا وأن أبيع عرضى لمن يعرض الثمن الاعلى . لا شك أنها فعلت . ولكن . شتان بين القول والفعل . فلا ريب أنها كانت لطمة قوية لها عندما رأتنى أصحب رجلا الى المنزل وعندما أحست بى وأنا اضع النقود فى يدها . فقد تمثلت الآن أمام عينيها ثمرة عظاتها فلم تتمالك نفسها من الرعب . ولكن لا ريب أنها كانت فى نفس الوقت عاجزة على صورة ما عن الاعتراف بخطئها ولعلها أحست الآن بالرضا المرير لان ذلك الاعتراف لم يعد يجدى شيئا . وهكذا فبدلا من أن تصارحنى مباشرة قائلة — « لقد ارتكبت خطأ — فاياك أن تعودى اليه . » آثرت أن تحدثنى لا فيما يخصنى بل عن حياتها ورغبتها فى الموت . وطالما لاحظت أن الكثيرين من الناس فى نفس اللحظة التى يرتكبون فيها عملا يعلمون أنه خطأ يحاولون تغطية انفسهم ورد اعتبارهم بالتحدث عن مسائل عليا من شأنها أن تظهرهم أمام أنفسهم وامام الآخرين فى ضوء من النبل والنزاهة لا صلة له مطلقا بما يفعلون أو بما يسمحون به . وهكذا كان الحال مع أمى — الا أن معظم الناس ينحون هذا النحو وهم

على علم تام بما يفعلون . اما أمي العزيزة المسكينة فقد انتحت هذا السبيل على غير وعي منها مطلقا وبوحي من قلبها وظروفها .

ولكن عبارتها عن رغبتها فى الموت بدا فيها رنين الصدق . واعتقد أنني أيضا لم أشعر بالرغبة فى الحياة بعد أن اكتشفت خداع جينو . غير أن جسدي كان يواصل حياته تلقائيا غير مبال بارادتي . فكان صدري وساقاي وأردافي ـ تلك الاطراف التى لشد ما كانت تمتع الرجال ـ لا تزال تواصل الحياة . وكان جنسي الخفي بين فخذي لا يفتأ يواصل الحياة ويجعلني أطلب الحب حتى عندما تأباه ارادتي . فكان من العبث أن أتمدد على الفراش عاقدة النية الا أعيش بعد ذلك وألا استيقظ فى الصباح ـ فان جسدي يواصل حياته اثناء نومي . فالدم لا يفتأ يتدفق فى عروقي . ومعدتي وأمعائي تواصلان هضم الطعام . وشعري يعود الى النمو اسـفل ذراعي حيث حففتـه . واظافري تنمو . وأديمي يتصبب عرقا . وقواي تتجدد . وفى لحظة معينة من الصباح سوف يفتح جفناي دون ارادتي الواعية وسوف تقع عيناي مرة أخرى على الحقيقة التى أبغضها . وسوف أدرك انني على الرغم من رغبتي فى الموت لا ازال على قيد الحياة ولا بد لي من أن اواصلها . فخرجت من ذلك بنتيجة معينة هي انه ما دام الامر كذلك فخير لي أن استمتع بحياتي قدر امكاني والا اعيرها اهتماما بعد ذلك .

ولكنني لم أذكر شيئا من ذلك لامي لاني أدركت ان تلك الخواطر كانت كئيبة كخواطرها تماما وما كانت لتبعث فى نفسها البهجة مطلقا . فاذا بي بدلا من ذلك عندما بدا لي أنها توقفت عن البـكاء انهض من جوارها قائلة ـ « اني جوعى . » وكنت كذلك بالفعل لانني لم أكد ألمس شيئا فى المطعم لشدة أضطراب أعصابي .

فقالت أمي فرحة باقتراحي شيئا نافعا يمكنها ان تؤديه وكانت لا تفتا تؤديه كل مساء ـ « هناك عشاؤك ـ وسأذهب لاعداده لك . ثم غادرت الغرفة وبقيت وحدي .

جلست الى المائدة فى مكاني المألوف وانتظرت عودتها وقد خـلا ذهني من الافكار ولم يبق شيء من كل ما حدث سوى تلك الرائحة العطرة السقيمة فى أصابعي وذلك الاثر الملح الذى تركته الدموع على وجنتي . ظللت ساكنة أراقب الظلال التى كان يلقيها المصباح المعلق على جدران غرفة الجلوس الطويلة العارية . ثم عادت أمي حاملة صحفة من اللحم والخضراوات .

قالت ـ « انى لم اسخن الحساء . فانه لن يكون الآن سائغا ـ ولم تكن هناك كمية كبيرة منه . »

ـ « لا يهم . فهذا يكفى . »

ثم صبت لى قدحا من النبيذ ملأته حتى حافته ووقفت امامى كعادتها فى سكون وانتباه أثناء تناولى الطعام .

وبعد فترة وجيزة سألتنى قائلة فى قلق ـ « أتسيغين شريحة اللحم ؟ »

ـ « نعم . انها لذيذة . »

ـ « لقد أوصيت القصاب خصيصا أن يعطينى قطعة رقيقة . »

وبدا لى انها قد استعادت هدوءها وسار كل شىء كالمعتاد تماما فى الاماسى الاخرى . تناولت طعامى فى بطء وعندما انتهيت من ذلك تمطيت متثائبة . وفجأة أحسست أننى على خير ما يرام ووجدت فى تلك الحركة احساسا باللذة فقد امتلأ جسدى قوة وشبابا ورضا

قلت ـ « لشد ما يغالبنى النعاس . »

فقالت أمى فى حماس وهى تهم بالخروج ـ « انتظرى قليلا . سأذهب لاسوى لك الفراش . »

ولكننى أوقفتها قائلة ـ « سأسويه بنفسى . »

فنهضت من مكانى وتناولت أمى الصحفة الفارغة . وقلت لها ـ « دعينى أنم غدا صباحا وسوف استيقظ من تلقاء ذاتى . »

فاجابت بانها ستفعل كما أشاء . وما ان تمنيت لها ليلة طيبة وقبلتها حتى دلفت الى غرفتى . وكان الفراش لا يزال على حاله كما تركناه أنا وجياكنتى . فلم أزد على أن جذبت الوسائد والبطانية الى مكانهما ثم خلعت ملابسى وأويت الى الفراش حيث اضطجعت وقد فتحت عيناى على سعتهما فترة وجيزة وكان ذهنى صفحة بيضاء .

وأخيرا قلت بصوت عال لارى وقع الالفاظ فى نفسى ـ « انى بغى . » ولكن لم يبد أن لها تأثيرا ما . فاغمضت عينى وما لبثت أن استغرقت فى النوم .

الفصل الثامن

وخلال الايام القليلة التالية لم أفتأ اقابل جياكنتى كل مساء . فقد اتصل بجيزيلا تليفونيا فى صباح اليوم التالى وما قابلتنى فى المساء حتى أبلغتنى رسالتـــه . وكان على جياكنتى ان يرحل الى ميلان قبل اليوم المتفق عليه للقاء جينو بليلة واحدة . وهذا هو السبب فى اننى وافقت على مقابلته كل مساء . والا لرفضت ذلك فقد قطعت على نفسى عهدا الا انشد قط مرة أخـــرى علاقة مستقرة برجل واحد ــ وخيل لى انه يحسن بى ان كنت قد اعتزمت احتراف هذه المهنة أن امارسها فى جد مع عشاق مختلفين فى كل مرة لا أخدع نفسى بايهامها اننى لا أحترفها اذا ما سمحت لرجل واحد أن يكفلنى كخليلته فضلا عن خطر تعلقى به أو تعلقه بى .وعندئذ لا أفقد حريتى الجسدية فحسب بل حريتى العاطفية كذلك . وعلى اية حال فقد بقيت ارائى فى الحياة الزوجية الطبيعية كما هى دون تغيير . وخيل لى اننى اذا تزوجت فلن يكون ذلك بعشيق كفلنى ثم قرر فى النهاية أن يضفى على علاقة العمل التى تربطنى به الصفة الشرعية ان لم تكن الادبية . بل الاحرى أن أتزوج شابا يحبنى وأبادله الحب ويكون منتميا الى مثل طبقتى فى الحيـــاة وله نفس ميولى وآرائى . ولما كنت قد لمست فى نفسى الموهبة الفائقة لان أكون زوجة صالحة بقدر موهبتى لان أكون بغيا ناجحة مع عجزى التام عن اتخاذ موقف حذر منافق فى منتصف الطريق بين الوظيفتين فقد كان هدفى فى الواقع ان احتفظ بالمهنة التى اخترتها لنفسى بعيدة كل البعد عن مطامحى الاولى دون اية اتصالات أو تسويات . ومع ذلك فلعل ما أكسبه من خبرة عديد من الرجال يزيد على ما يجـــود به رجل واحد دون سواه .

وفى كل مساء كان جياكنتى يصحبنى لتناول العشاء فى نفس المطعم ثم يرافقنى بعد ذلك الى المنزل حيث يبقى معى حتى ساعة متأخرة من الليل . وقد اقلعت امى الان عن كل محاولة للتحدث الى عن سهراتى بل كانت كلما احضرت الى القهوة على صينية فى ساعة متأخره من صباح اليوم التالى تكتفى بسؤالى عما ان كنت

قد تمتعت بنوم هادىء عميق . وكنت من قبل اذهب الى المطبخ في الصباح الباكر لارشف قهوتي امام الموقد دون أن أنعم حتى بالجلوس وانا لا ازال اشعر على وجهي ويدي ببرودة الماء الذي اغتسلت به . أما الآن فكانت أمي تحملها الى لأحتسيها في الفراش بينما تفتح هي مصاريع النوافذ وتأخذ في تنظيم الغرفة . ولم احدثها قط في شيء لم أذكره لها من قبل . ولكنها أدركت من تلقاء ذاتها ان كل شيء في حياتنا قد تغير وكانت تكشف بسلوكها عن ادراكها التام كنه ذلك التغير . فلم تفتأ تتصرف وكأن هناك اتفاقا ضمنيا . وكان يبدو لى من اهتمامها ورعايتها أنها تتوسل الى في ذلة أن أسمح لها بالاستمرار في خدمتي وان تكون كما كانت في الماضي ذات نفع في طريقة حياتنا الجديدة . ولكن لا يفوتني ان أقول أن تعودها احضار القهوة الى في الفراش كان بلا ريب يطمئنها الى حد ما لان الكثيرين من الناس ومن بينهم أمي يعلقون على العادات قيمة ايجابية كما هي الحال الآن . حتى ولو لم تكن كذلك وبنفس الحماس أدخلت تغييرات أخرى كثيرة في حياتنا اليومية . فكانت مثلا تعد لي اناء كبيرا من الماء المغلي لاغتسل به حالما انهض من فراشي كما اعتادت أن تضع في غرفتي اناء به زهور وما الى ذلك .

ولم يفتأ جياكنتي يمنحني نفس المبلغ في كل مرة وكنت أودعه داخل احد الادراج في ذلك الصندوق الذي كانت أمي حتى الان تضع فيه مدخراتها دون ان اخبرها بذلك . وكنت لا أحتفظ لنفسي الا ببعض العملات الصغيرة . واعتقد انها لاحظت بلا شك تلك الاضافات اليومية الى رأسمالنا ولكننا لم نشر قط الى ذلك في أحاديثنا . وقد لاحظت أثناء حياتي أن الناس بصفة عامة حتى أولئك الذين يكسبون قوتهم بوسائل مشروعة يؤثرون الا يتحدثوا عن مكاسبهم لا أمام الغرباء فحسب بل امام الاصدقاء . ولعل المال مرتبط بالاحساس بالخجل او على الاقل بالتواضع مما يحول دون ادراجه ضمن قائمة موضوعات الحديث العادية ويجعله من بين تلك الاشياء السرية غير المسموح بها التي يحسن أن يمتنع عن ذكرها وكأنه لا يفتأ يكتسب عن طريق غير مشروع بغض النظر عن مصدره . ولكن لعله صحيح أيضا ما يقال من ان أحدا لا يحب أن يكشف عما تثيره النقود في نفسه من شعور لما فيه من قوة مفرطة ولارتباطه دائما بنوع من الاحساس بالاثم .

وذات مساء عبر لى جياكنتي عن رغبته في أن يقضي الليل معي في

غرفتى . ولكننى نجحت فى ثنيه عن عزمه محتجة بان الجيران سيلاحظونه عند خروجه فى الصباح . وفى الواقع فان علاقتى به لم تتقدم خطوة واحدة عما كانت عليه فى أول مساء ولا لوم على فى ذلك . فان سلوكه فى أول مساء ظل كما هو دون تغيير حتى يوم رحيله . كان رجلا تافها أو شبه ذلك على الاقل فى علاقاته العاطفية. وقد خالجنى فى اليوم الاول أثناء نومه كل ما استطعت أن استجمعه من شعور نحوه ـ وهو احساس غامض ربما لم يكن مرتبطا به . وكان مجرد التفكير فى مضاجعة رجل كهذا خليقا بأن ينفرنى . كما ساورنى الخوف من الملل لاننى كنت واثقة من أنه سيبقينى مستيقظة حتى منتصف الليل وهو لا يفتأ يحدثنى عن نفسه حديثا خاصا . ومع ذلك فانه لم يلحظ مللى قط أو كراهيتى له وتركنى وهو مقتنع أنه قد جعل من نفسه فى خلال تلك الايام القلائل شخصا محببا للغاية فى نظرى .

وأخيرا جاء اليوم الذى تواعدنا على اللقاء فيه أنا وجينو . وما أكثر ما حدث فى تلك الايام العشرة حتى أننى أحسست وكأن مائة عام قد انقضت منذ تعودت لقياه وأنا فى طريقى الى المرسم ومنذ سعيى لادخار النقود التى أؤثث بها المنزل عندما كنت أعد نفسى فتاة مخطوبة لا تلبث أن تتزوج . وقد حضر فى الموعد بالضبط دون تأخير ولشد ما بدا عليه الشحوب والاضطراب وانا أركب السيارة . فان أحدا لا يحب أن يواجه بخداعه حتى لو كان أجرأ المخادعين ولا ريب انه فكر كثيرا وساورته الشكوك خلال تلك الايام العشرة التى قطعت لقاءاتنا المعهودة . ولكننى لم اظهر شيئا من الاستياء ولم يكن ذلك تظاهرا منى فى الواقع فلشد ما أحسست بالهدوء . وعندما مرت اللحظة الاولى بما فيها من مرارة الخيبة راودنى نحوه نوع من الشغف المتسامح المرتاب . فانى كنت لا أزال احب جينو قبل كل شىء كما ادركت من اول نظرة وجهتها اليه وكانت محملة بالمعانى .

وما لبث ان سألنى قائلا بعد فترة وجيزة بينما كانت السيارة تسرع بنا نحو الفيللا ـ « اذن فقد غير معرفك رأيه ؟ » وكانت لهجته متشككة رغم ما فيها من سخرية فى نفس الوقت .

فأجبته قائلة فى بساطة ـ « كلا . بل لقد غيرت أنا رايى . »

ـ « وهل فرغت من أعمالك كلها مع أمك ؟ »

ـ « مؤقتا . »

ـ « انه لأمر غريب . »

لم يكن يدرى ماذا يقول ولكنه من الواضح انه كان يختبرني ليكتشف ما اذاكان هناك مبرر لشبهاته .
ـ « وما وجه الغرابة فى ذلك ؟ »
ـ « قلت ذلك بغية ان أقول شيئا فحسب . »
ـ « الا تصدق أنني كنت مشغولة ؟ »
ـ « أنا لا أصدق شيئا . »
وكنت قد عقدت النية على كشف خداعه ولكن بطريقتى الخاصة وذلك بملاعبته قليلا كما يفعل القط مع الفأر دون اللجوء الى الشجار الوحشى الذى نصحت به جيزيلا والذى لا يتفق مع مزاجى .
سألته قائلة فى دلال ـ « أتغار ؟ »
ـ « أنا أغار ؟ يا الهى ! »
ـ « نعم ـ فهذا هو شعورك ـ ولو كنت صادقا لاعترفت به » .
فتناول الطعم الذى قدمته اليه قائلا ـ « ان أى شخص فى مكانى لابد أن يغار . »
ـ « لماذا ؟ »
ـ « دعك من هذا ! فمن ذا الذى تحسبينه يصدقك ؟ أكان عملك من الاهمية الى حد انك لا تستطيعين مقابلتى لمدة خمس دقائق ؟ »
فقلت فى هدوء ـ « ومع ذلك فهذه هى الحقيقة . فلشد ما دأبت على العمل . »
وكان ذلك صحيحا . فبماذا يوصف ما كنت أفعله مع جياكنتى كل مساء سوى أنه عمل وعمل شاق ؟ ثم أضفت قائلة وأنا أسخر من نفسى ـ « ولقد اكتسبت ما يكفى لسداد بقية الاقساط وشراء جهازى . وهكذا يمكننا على الاقل ان نتزوج دون ان يطالبنا أحد بديون . »
فلم ينبس بشىء . وكان من الواضح أنه يحاول اقناع نفسه بصحة ما كنت أقول وأخذ يتخلى رويدا عن وساوسه السابقة . وعندئذ أتيت حركة ألفتها فى الماضى . ـ فألقيت بذراعى حول عنقه وهو يقود السيارة وقبلته بقوة أسفل أذنه هامسة ـ « لماذا تغار ؟ فأنت تعلم أنه ليس فى حياتى سواك » .
وبلغنا الفيللا حيث قاد جينو السيارة الى داخل الحديقة ثم أغلق البوابة واتجه معى الى مدخل الباحة . وكانت ساعة الشفق . فقد بدأت الاضواء الاولى تلمع فى نوافذ المنازل المجاورة حمراء فى ضباب سماء الشتوى المائل الى الزرقة . وكاد الظلام يخيم فى دهليز

«البدروم» كما كان الجو خانقا انبعثت فيهرائحة الماء القذر. فتوقفت عن المسير قائلة :

— « لا أبغي الذهاب الى غرفتك هذا المساء » ٠

— « لم لا ؟ »

— « أريد مضاجعتك فى غرفة مخدومتك » ٠

فهتف قائلا فى رعب من هول الصدمة — « أجننت ! ؟ »

فطالما صعدنا الى الغرف العليا ولكننا كنا لا نفتأ نمارس الحب فى غرفته فى البدروم ٠

قلت — « انها نزوة فحسب ٠ وماذا يهمك من ذلك ؟ »

— « يهمنى كثيرا — فقد ينكسر شىء ما — فأنى لك أن تعلمى — ولو لاحظوه فماذا أنا فاعل ؟ »

فهتفت قائلة فى استخفاف — « آه ٠ يالها من مأساة ! ستفصل من عملك ٠ هذا هو كل ما هناك » ٠

— « أيمكنك التحدث عن ذلك بهذه اللهجة ؟ »

— « كيف ينبغى أن أتحدث عنه ؟ لو كنت حقا تحبنى لما ترددت مطلقا » ٠

— « انى أحبك بلا شك ولكننى لا أستطيع سماع ذلك — بل لا تدعينا حتى نتحـــدث فيه ٠ فأنا لا أريد أية متاعب ٠ نعم لا أريد ذلك ٠ »

— « سنتوخى الحرص والحذر ٠ ولن يلحظوا شيئا ٠ »

— « كلا ٠ »

ولكننى كنت هادئة تماما ٠ وهتفت مواصلة التظاهر بغير شعورى الحقيقى ٠

— « أنا خطيبتك أسألك هذا الصنيع الوحيد فترفض خشية أن أضطجع بجسدى حيث تضطجع مخدومتك وأن أوسد رأسى حيث توسد هى رأسها ٠٠٠٠ ولكن ماذا تظن ؟ أتظنها خيرا منى ؟ »

— « كلا ٠ ولكن »

فأردفت قائلة — « انى أساوى ألفا من صنفها ٠ ولن ينالك من هذا سوى الخيبة والفشل ٠٠٠٠ اذ يمكنك أن تضاجع وســـائد مخدومتك وملاءها ٠٠٠ فانى ذاهبة ٠ »

كان كما سبق أن قلت يدين لمخدوميه بالاحترام العميق والخضوع الذليل ٠ وكان فخورا بهم على صورة تغثو لها النفس وكأن ثروتهم بأسرها كانت ملكا له أيضا ٠ ولكنه ما ان رآنى أتكلم بهذه اللهجة

منصرفة عنه فى اندفاع غاضب يحدونى تصميم لم يعهده فى من قبل حتى فقد صوابه وركض خلفى قائلا :
ـ « انتظرى لحظة ! أين أنت ؟ كان ذلك كلاما فحسب ! ولنصعد ـ ان شئت ـ الى الطابق العلوى ! »

فتركته يتوسل الى قليلا متظاهرة بالاستياء . ثم وافقت وصعدنا الى الطابق العلوى متخاصرين ولم نفتأ نقف عند كل درجة لنتبادل قبلة مثلما فعلنا فى المرة الاولى تماما ولكن بقلب متغير ـ على الاقل من ناحيتى . وعندما بلغنا غرفة مخدومته اتجهت رأسا الى الفراش حيث جذبت الاغطية .

فاحتج مرة أخرى قائلا وقد استبد به الخــوف ـ « ولكنك لا تعنين أن ترقدى مباشرة فى الفراش ؟ »

فأجبته قائلة فى هدوء ـ «ولم لا ؟ فأنا لاأريد أن أشعر بالبرد.»

فلم ينبس بشىء وقد بدا عليه الاضطراب واضحا . ولكننى ما ان انتهيت من اعداد الفراش حتى دلفت الى غرفة الحمام حيث أشعلت السخان وفتحت صنبور الماء الساخن ليتســاقط نضيضا فحسب حتى لايمتلىء الحوض بأسرع مما ينبغى وتبعنى جينو وقدانتابه القلق والسخط ثم احتج قائلا مرة أخرى :

ـ « أتستحمين أيضا ؟ »

ـ « انهم يستحمون اثر المضاجعة . أليس كذلك ؟ »

فأجابنى قائلا وهو يهز كتفيه ـ « أنى لى أن أعلم ماذا يفعلون ؟ » ولكن أمكننى أن أرى أنه فى الواقع لم يتكدر حقا لجرأتى بل تعذر عليه فحسب أن يستسيغ ذلك . كانت تعوزه الشجاعة فكان يؤثر ألا يخالف القانون . ولكنه لما كان لايكاد يسمح لنفسه بالزلل فان مخالفة القانون كانت تجذبه فى مزيد من القوة . فما لبث أن قال مبتسما بعد لحظة من الصمت وهو يتأرجح بين الاغراء والاحجــام متحسسا الحشية بيده ـ « انك على حق قبل كل شىء . فهذا المكان مريح ـ وهو أفضل من غرفتى . »

ـ « ألم أقل لك ذلك ؟ »

جلسنا معا على حافة الفراش ثم قلت ملقية بذراعى حول عنقه ـ « تخيل يا جينو كم تحلو الحياة عندما يكون لدينا منزلنا الخاص ـ بنا فحسب .... أنه لن يكــون كهذا ... ولكنه ســيخصنا وحدنا . »

ولا أدرى لماذا قلت ذلك . ولعل السبب فى هذا أننى كنت الان أعلم يقينا أن تلك الاشياء جميعا صارت ضربا من المحـال . فأحببت أن أنكأ نفس الفرحة التى كان لا يفتأ قلبى يتلقى فيها الطعنات .

فقال وهو يقبلني ــ « نعم . نعم . »

واسترسلت قائلة يراودنى ذلك الشعور القاسى بأنى أصف شيئا مفقودا ذهب بلا رجعة :

ــ « انى أعرف نوع الحياة التى أفضلها . فلا حاجة بى الى مكان جميل كهذا .... بل تكفينى شقة تتألف من غرفتين ومطـبخ . على أن أملك كل ما فيها .... كما أنها ستكون آية فى النظافة .... وسنعيش فى هدوء وسكينة فنخرج معا يوم الاحد ونأكل معا وننام معا . آه يا جينو تخيل فقط كم تكون الحياة جميلة ! »

فلم ينبس بشىء . غير أننى فى الواقع لم أتأثر مطلقا بكل ماقلت. بل أحسست وكأنى أؤدى دورا كما يفعل الممثل على خشبة المسرح. ولكن ذلك زاد من مرارة الموقف . .فمنذ عشرة أيام فقط كنت أحيا فى الحقيقة ذلك الدور السطحى البارد الذى ألعبه الان دون أن يثير فى نفسى أقل صدى . وفى تلك الاثناء بينما كنت أتكلم كان جينـو يجردنى من ملابسى فى ضجر . ولاحظت مرة أخـرى كما سبق أن فعلت عندما ركبت السيارة أننى ما زلت أحبه . ولعل جسدى الذى كان دائما على أهبة الاستعداد للاستمتاع معه ــ لا روحى التى كانت عندئذ قد أعرضت عنه ــ هو الذى بث فى نفسى تلك السماحة ولم يفتأ يحثنى على سرعة الصفح عنه. أخذ يداعبنى ويقبلنى. فاضطرب عقلى لقبله ومداعباته وقد تغلبت لذة حواسى على احجام قلبى . وأخيرا تمتمت قائلة فى صدق وأنا أهوى الى الخلف فوق الفراش ــ « آه يا جينو ــ انك تشعرنى وكأنى أموت ! »

وفيما بعد دسست ساقى تحت الملاءة وكذلك فعل هو . ورقدنا معا وقد جذبنا الملاءة المطرزة حتى ذقنينا فوق ذلك الفراش الفاخر. وقد تعلقت فوق رأسينا مظلة بها سحابة من الستائر الرقيقة البيضاء التى تنسدل هفهافة على رأس الفراش . كانت الغرفة كلها بيضاء تغطى نوافذها ستائر رقيقة طويلة ويزين جـدرانها أثاث جميـل خفيض ومرايا مشطوفة وزينات من الزجاج المتلألىء اللامع والرخام والفضة . وكنت أحس بالملاءة الرقيقة الفاخرة على جسـدى وكأنها لمسة لذيذة مداعبة . وكانت الحشية تلين فى رقة تحت ثقل أطرافى

كلما تعاطيت الحب في رفق شديد للغاية مما كان يستميلني في عمق الى النوم والراحة • ومن خلال الباب المفتوح أمكنني أن أسمع صوت الماء المتدفق في الحوض هادئا متذمرا • لشد ما أحسست بالرضا ولم يعد في نفسي اثر من الحقد على جينو • وبدت هذه أنسب اللحظات لمصارحته بأني أعلم كل شيء لاني كنت واثقة بأنني سأذكر له ذلك في رقة دون أن تشوبه أية شائبه من المرارة •

فقلت في نبرات رقيقة للغاية بعد فترة صمت طويلة — « اذن يا جينو فزوجتك تدعى انتونيتا بارتيني • »

ولعله كان ناعسا لانه وثب في عنف قائلا وكأن شخصا ما على حين غرة لطمه على كتفه :

— « ماذا قلت ؟ »

— « وابنتك الصغيرة تدعى ماريا .. اليس كذلك ؟ » .

كان يود لو احتج مرة أخرى ولكنه نظر في عيني وأدرك أن ذلك لا جدوى منه . كنا نوسد راسينا نفس الوسادة وقد تجاور وجهانا وكنت أتكلم وفمي يوشك أن يعلو فمه • قلت — « قل لي أيها التعس لماذا رويت لي كل هذه الاكاذيب ؟ »

فأجابني قائلا في عنف — « لانني أحببتك » .

— « لو كنت أحببتني حقا لكان ينبغي أن تقدر مدى شقائي عندما اقف على الحقيقة . ولكنك لم تفكر في هذا ياجينو . اليس كذلك ؟ »

فقاطعني قائلا — « لقد أحببتك ففقدت صوابي ... و ... »

قلت — « يكفي هذا فقد مرت بي فترة من التعاسة الاليمة ... فلم يكن يجول بخاطري أنك خليق بذلك ... ولكن كل شيء قد انتهى الآن ... ولا تدعنا نذكره مرة أخرى ... أما الآن فاني ذاهبة للاستحمام • » ثم أبعدت الملاءة وانسللت من الفراش متجهة الى غرفة الحمام . وبقي جينو في مكانه .

كان الحوض قد امتلأ بالماء الساخن وقد مال لونه الى الزرقة فراقني منظره وسط كل هذا القرميد الابيض والصنابير اللامعة . ووقفت في الحوض حيث ظللت أغوص رويدا في الماء الساخن الذي كان يتصاعد منه البخار . وما ان اضطجعت فيه حتى أغمضت عيني . ولم يبلغ سمعي صوت من الغرفة المجاورة • فلاريب أن جينو كان يفكر فيما قلت محاولا أن يرسم خطة ما يمكنه بها أن يتجنب فقداني . فابتسمت عندما تصورته جالسا في الفراش الواسع العريض واخباري لم تزل كالصفعة على وجهه . ولكن ابتسامتي لم تكن حاقدة بل كان

مبعثها خاطر هزلي مضحك لا شأن له بنا لانني كما سبق أن قلت لم أشعر نحوه بأى امتعاض بل كان احساسى وقد عرفته على حقيقته لا يعدو أن يكون نوعا من الشغف به . ثم سمعته وهو يتجول فى الغرفة ولعله كان يرتدى ملابسه . وبعد فترة وجيزة أخذ يختلس النظر عند باب غرفة الحمام وهو يتأملنى كالكلب الذليل الذى ضرب بالسوط وكأنه لا يجرؤ على الدخول .

ثم قال فى ذلة بعد فترة صمت طويلة — « اذن فلن نلتقى بعد ذلك » .

ادركت أنه كان يحبنى حقا على طريقته الخاصة ولو أن حبه اياى لم يكن بالدرجة التى تنفره من اللجوء الى الكذب والخديعة . وتذكرت آستاريتا وخطر لى انه هو أيضا كان يحبنى على طريقته الخاصة .

ثم اجبته قائلة وأنا أغسل احدى ذراعى بالصابون — « ولم لا ؟ فلو اننى لا أرغب فى رؤيتك لما جئت اليوم — فاننا سنلتقى ولكن لماما» .

فبدا وكأن شجاعته قد عاودته عند سماعه هذه الكلمات . فدخل غرفة الحمام وهو يسألنى قائلا — « هل أغسل لك جسدك بالصابون ؟ » .

فلم أتمالك نفسى من التفكير فى أمى التى كانت لا تفتأ تحوطنى بمزيد من الرعاية والعناية كلما تخلت عن سلطتها الابوية .

ولم ألبث أن قلت — « ان شئت فلتغسل بالصابون ظهرى حيث لا يمكن أن تصل يدى » . فالتقط جينو قطعة الصابون والاسفنجة ثم أخذ يغسل لى ظهرى وأنا واقفة . ورحت أتأمل صورتى فى مرآة طويلة كانت تواجه الحوض وخيل لى أننى السيدة التى تمتلك كل هذه الاشياء الجميلة . فلاريب أنها هى أيضا تقف هكذا وتضطر احدى خادماتها — ولعلها فتاة مسكينة مثلى — الى الانحناء لغسل جسدها بالماء والصابون محاذرة أن تخدش أديمها . وتصورت كم تكون الحياة جميلة لو قام شخص آخر على خدمتى ولم أفعل شيئا بيدى : فأظل ساكنة مسترخية بينما تهرول الوصيفة من حولى فى اهتمام شديد ملىء بالاحترام . وتذكرت ذلك الخاطر الساذج الذى مر بذهنى عندما ذهبت الى الفيللا لاول مرة : اننى فى عريى مجردة من ملابسى الرثة أصير ندا لمخدومة جينو . ولكن لشد ما اختلف حظى عن حظها على صورة جائرة للغاية .

ثم قلت لجينو فى سخط — « يكفى هذا » .

فالتقط عباءة الحمام وخرجت من الحوض حيث كان يقدمها الى

خلف ظهرى فالتحفت بها . وأراد أن يعانقنى ولعله شاء أن يرى ان كنت سأصده ولكننى تركته يقبل عنقى بينما وقفت هناك بلا حراك ملتحفة بعباءة الحمام ، ثم بدأ يجفف جسدى كله فى صمت مبتدئ بقدمى الى أن بلغ صدرى فى حماس ومهارة وكأنه لم يمارس فى حياته عملا سواه . وأغمضت عينى فخيل لى مرة أخرى أننى السيدة وهو الوصيفة . وحسب سلبيتى رضا اذ اكتشفت فجأة انه بدلا من تجفيفى أخذ يدغدغ جسدى . عندئذ دفعته بعيدا تاركة عباءة الحمام تسقط على الارض ودخلت الغرفة المجاورة على اطراف أصابعى وأنا عارية القدمين . أما جينو فقد مكث فى غرفة الحمام ليفرغ الماء من الحوض .

ارتديت ملابسى بسرعة ثم تجولت فى أرجاء الغرفة متأملة قطع الاثاث ووقفت أمام خوان الزينة المغطى بقطع الذهب وصدف السلحفاة . فلاحظت بين فرش الشعر وزجاجات العطر « بدارة » ذهبية . فالتقطتها وتفحصتها عن كثب فاذا بها ثقيلة . وكان من الواضح انها مصنوعة من الذهب الخالص . كانت مربعة الشكل مخططه بذهب ملتف وفى قفلها فص كبير من الياقوت . ولم أحس بالاغراء قدر احساسي بالاكتشاف . اذ أصبح فى امكانى الان أن أفعل كل شىء حتى السرقة . ففتحت حقيبتى ووضعت « البدارة » . ولما كانت ثقيلة فقد انزلقت الى القاع حيث توجد المفاتيح وقطع النقود الصغيرة . وقد راودنى أيضا عند أخذها نوع من اللذة الجنسية التى لا تختلف عما يخالجنى من احساس كلما تلقيت النقود من عشاقى . وفى الواقع فانى لم أكن أدرى ماذا أفعل بمثل هذه « البدارة » الثمينة التى لم تكن تلائم ملابسى أو الحياة التى أحياها . وكنت واثقة من أننى لن أستخدمها . ولكننى بسرقتها بدا لى أننى أساير المنطق الذى بات يوجه الان مجرى حياتى . وخيل لى أننى أستطيع ان أسير فى طريق الرذيلة حتى نهاية الشوط .

وعاد جينو يحدوه اهتمام عبودى بكل صغيرة فبدأ يسوى الفراش ويرتب كل ما كان يعتقد انه فى غير مكانه الصحيح . وعندما رأيته ينظر حوله فى قلق بعد انتهائه من عمله لكى يتأكد من أن كل شىء فى مكانه المعهود قلت له فى احتقار ــ « هيا بنا فان مخدومتك لن تلحظ شيئا ــ وسوف لا تفصل من عملك فى هذه المرة ! » وما ان قلت هذه العبارة حتى رأيت وميضا من الالم يلوح على وجه جينو فأسفت لذلك لان عبارتى كانت حاقدة فضلا عن تجردها من الاخلاص .

ولم ننبس بشيء ونحن فى طريقنا الى الطابق السفلى ولا عند بلوغنا الحديقة لنركب السيارة . وكان الليل قد خيم منذ بعض الوقت . وما أن بدأت السيارة تشق طريقها خلال الشوارع الملتوية فى ذلك الحى الراقى حتى بدأت أبكى فى رفق وكأنى لم أكن أنتظر سوى هـذه اللحظة . بل كنت لا أدرى انا نفسى لماذا أبكى . ومع ذلك فقد امتلأ قلبى بالمرارة . فليس من طبعى أن أمثل أدوار الخيبه والغضب. ومع اننى قد بذلت قصارى جهدى للاحتفاظ بهدوئى طوال المساء فان كثيرا من أفعالى وأقوالى كان يستبطنها الغضب والخيبة . والان لاول مرة وأنا مازلت أبكى أحسست حقا بالامتعاض من جينو الذى أثار فى نفسى بخيانتـه عواطف بغيضة كانت لا تتفق مع أخلاقى . وتذكرت كم كنت عذبة رقيقة دائما وكيف أننى من الآن فصاعدا قد لا أكون كذلك فأحسست باليأس يملأ جوانحى وودت أن أسأل جينو بقلب كسير قائلة :

ــ « لماذا فعلت كل هذا ؟ فكيف يمكننى بعد ذلك أن أنساه وألا أعود الى التفكير فيه ؟ »

ولكننى بدلا من ذلك لم أنبس بشيء وابتلعت دموعى ثم هززت رأسى قليلا لاجعل الدموع تتحدر على خدى كما يهز المرء فرع الشجرة ليسقط عنه أنضج ثماره . ولم أكد الحظ ان السيارة كانت وقتذاك تسير بنا عبر المدينة مباشرة . وما ان وقفت حتى غادرتهـا وأنا أمد يدى الى جينو قائلة ــ « سوف أتصل بك » . فنظر الى وقد ارتسم على وجهه الامل ولكنه ما لبث أن تحول الى دهشة عندما رأى وجهى تغسله الدموع . ولكن لم يتسع له الوقت لكى يقول شيئا فقد وليت راكضة وأنا ألوح له بيدى وعلى وجهى ابتسامة مغتصبة .

الفصل التاسع

وهكذا ظلت الحياة تدور أمامي فى نفس الاتجاه دائما ومع نفس الاشـخاص كالاراجيح الدوارة فى مدينة الملاهى حيث كان وميض الاضواء يملأ قلبى بهجة كلما راقبتها وأنا طفلة من خلال نوافذ شقتنا .

والاراجيح الدوارة كذلك لا يوجد بها سوى عدد قليل جدا من النماذج التى لا تتغير أبدا . فالبجعة والقط والسيارة والحصان والعرش والتنين والبيضة لا تفتأ تدور جميعها المرة تلو المرة على صوت الموسيقى النائحة فى صرير وصليل لتتبعها من جديد البجعة والقط والسيارة والحصان والعرش والتنين والبيضة وهكذا طوال الليل من أوله الى آخره . وقد بدأت وجوه عشاقى تدور أمامى بنفس الطريقة تماما . وسواء أكانوا رجالا سبق أن قابلتهم أوجددا لم أقابلهم فقد كانوا جميعا على غرار واحد . وعاد جياكنتى من ميلان يحمل زوجا من الجوارب الحريرية هدية لى . فظللت بعض الوقت أقابله كل مساء . ثم رحل مرة أخرى فعدت الى مصاحبة جينو الذى لم افتأ التقى به مرة أو مرتين فى الاسبوع . اما فى الاماسى الاخرى فكنت أرافق رجالا ألتقطهم من الطريق أو تقدمهم جيزيلا الى . وكان من بينهم الشبان والكهول والشيوخ كما كان فيهم الظرفاء الذين يعاملوننى برقة والثقلاء الذين يعدوننى سلعة لا تزيد على أن تشرى وتباع . ولكننى لما كنت قد وطنت النفس على عدم الارتباط مطلقا بأحدهم فقد كانت القصة لا تفتأ تتكرر فى النهاية . فكنا نلتقى فى الطريق او فى احد المقاهى واحيانا نتناول العشاء معا ثم نهرول عائدين الى شقتى حيث نحتبس فى غرفتى لنمارس الحب ونثرثر قليلا . وبعد ذلك ينقدنى الرجل أجرى وينصرف ثم أنضم الى أمى فى غرفة الجلوس حيث تكون فى انتظارى . فان كنت جوعى تناولت وجبة ثم أويت الى فراشى . وكثيرا ما كنت أتسلل الى الخارج مرة أخرى اذا كان الوقت مبكرا لاعود الى المدينة من جديد بحثا عن رجل آخر . ولكننى كنت اقضى أياما وأياما لا ارى فيها أحدا فأبقى فى المنزل بلا عمل . ولشد ما كان ينتابنى الكسل ـ كسل شهوانى حزين أشبع

به رغبتي في الراحة والهدوء ـ تلك الرغبة التي كنت اشارك فيها امي وجميع الفقراء الكادحين من حولي . واحيانا كان مرأى صندوق المدخـــرات فارغا فحسب خليقـــا بأن يدفعني الى الخارج لأجوب الشوارع في قلب المدينة بحثا عن رفيق . ولكن كسلي غالبا ما كان ينتصر فأوثر أن أقترض النقود من جيزيلا أو أن ارسل أمي لابتياع حاجاتها بالنسيئة .

ومع ذلك فلا يمكنني في الحقيقة أن أزعم أنني كنت ابغض ذلك الاسلوب في الحياة . وما لبثت أن ادركت أن حبي لجينو لم يكن شيئا فريدا في نوعه وأنني لسبب أو آخر كنت أحب الرجال جميعا في قرارة قلبي . ولست أدري ان كان ذلك هو ما يحدث لجميع النسوة اللائي يحترفن مهنتي أو أن ذلك معناه أنني ذات أهلية خاصة لها ، ولكنني أعلم فقط أنني كنت لا أفتأ أحس في كل مـــرة بهزة من الفضول والترقب اللذين قلمـــا يخـدعان . فكنت أحب اجسام الشبان الطويلة النحيلة المراهقة وحركاتهم المرتبكة وحياءهم ونظراتهم العاطفية وشعورهم وشفاههم التي تميل الى البرودة فكنت أميل الى الاذرع المفتولة والصدور العريضة والمناكب التي لا يعرف وزنها أو قوتها وبطون الرجال وسيقانهم وهم في مقتبل العمر مكتملو الرجولة. بل لقد أحببت المسنين من الرجال اذ أنهم يختلفون عن النساء من ناحية نشاطهم الذي لا يحد بالعمر فيظلون محتفظين بفتنتهم حتى في سن الشيخوخة أو يكتسبون فتنة جديدة من نوع خاص . وقـــد ساعدني تغيير عشاقي في كل مرة على اكتشاف المزايا والعيوب من أول نظرة عن طريق قوة ملاحظتي الحادة الدقيقة التي لا يمكن اكتسابها الا بالخبرة . وفضلا عن ذلك فقـــد كان الجسم البشري مصـــدرا لا ينضب معينه من اللذة الغامضة التي لا تعرف الشبع . وكثيرا ما وجدتني أحملق في أطراف رفاقي في الليلة الواحدة أو اتحسسها بأناملي وكأني أتوق الى تجاوز العلاقة السطحية بيننا لاكتشف كنه جمال أجسادهم وأفسر لنفسي سر ما أحس به نحوهم من انجذاب عميق . ولكنني كنت أحاول قدر امكاني اخفاء ذلك الشعور خشية أن يحسبه هؤلاء الرجال ـ بغرورهم الدائم ـ حبا وتعلقا فيخالونني مغرمة بهم في حين أن الحب في الواقع ـ على قدر ادراكهم على الاقل ـ لم تكن له صلة بمشاعري التي كانت أقرب الى هزة الخشوع التي تخالجني كلما أديت في الكنيسة فرائض دينية معينة .

ومع ذلك فأن النقود التي كنت أكسبها عن هذا الطريق لم تكن

طائلة كما قد يتبادر الى الذهن . فلم أستطع أولا أن أكون مثل جيزيلا فى جشعها وحبها للمال . فبالرغم من أننى كنت أبغى الاجر بالطبع ولا أرافق الرجال بغية اللهو والتسلية فقد كنت منساقة بحكم طبيعتى الخاصة لان أهبهم نفسى بدافع من فيض حيويتى البدنية لا جريا وراء المصلحة المادية . وكنت لا أفكر فى النقود الا حين يدفع الاجر أى بعد فوات الفرصة . وكان لا يفتأ يراودنى اعتقاد غامض بأنى أزود الرجال بسلعة لا تكلفنى شيئا ولا مقابل لها فى العادة . فكنت أحس بأن ما أتلقاه من نقود ليس حقا بقدر ما كان هدية . اذ ان الحب فى نظرى لا ينبغى أن يكون له مقابل والا استحال تقويمه بالمال مهما كان الثمن. وكان يتنازعنى التواضع والغرور فلم يمكنى أن أحدد ثمنا دون أن يبدو لى تعسفيا تماما فى تقديره . ولذلك فانى كنت أشكرهم فى امتنان عميق للغاية اذا ما أجزلوا لى العطاء وأن قتروا سكت ولم أحتج اذ لم يكن فى مقدورى مطلقا أن أقنع نفسى بأنى خلعت . ولم يصح عزمى على أن أحذو حذو جيزيلا التى الفت أن تتفق مقدما على الاجر الا بعد تجارب كثيرة مريرة . غير اننى كنت فى بادىء الامر لا أفتأ أحس بالخجل ولا أقوى مطلقا على ذكر اى مبلغ الا فى صوت خفيض فكانوا فى معظم الاحيان لا يفهمون ماذا أقول مما يضطرنى الى ترديد ما قلت .

وثمة سبب آخر كان يقلل من مكاسبى هو اننى لما كنت اقل حرصا فيما أنفق عنى فيما مضى . ولما كان على — حفاظا على المظهر ولفتا للأنظار — أن أشترى بضعة ثياب وبعض العطر وادوات الزينة واشياء أخرى كنت أحتاج اليها فى مهنتى فان النقود التى كنت أتلقاها من عشاقى كانت لا تلبث أن تنفد شأن النقود التى كنت أكسبها من مهنتى كنموذج ومن مساعدة أمى فى أعمال الحياكة . فبدا لى اننى رغم تضحيتى بشرفى لم اكن أيسر حالا مما مضى . وكانت تمر بى أيام لا أجد فيها مليما واحدا فى المنزل تماما كما كان يحدث لى من قبل بل اكثر من ذى قبل . ولشد ما كان يعذبنى قلقى لعدم استقرار مستقبلى تماما كما كان يحدث لى من قبل بل على صورة اسوأ من ذى قبل . ولكننى بطبعى أميل الى الهدوء وعدم الاكتراث فلم يسيطر القلق على ذهنى قط كما يحدث لغيرى من الناس ممن لا يتمتعون بمثل ما أتمتع به من اتزان وعدم مبالاة . ولكن الفكرة كانت دائما فى عقلى الباطن كالدودة التى لا تفتأ تنخر فى قطعة الاثاث القديم . وكانت لا تبرح تنذرنى باننى لا املك شيئا وانه لا سبيل الى الراحة بنسيان

حالتى كما أننى لا أستطيع تحسينها على صورة حاسمة عن طريق مهنتى التى اخترتها لنفسى .

أما أمى فلم يعد يساورها القلق مطلقا أو على الاقل كانت لا تكشف عنه حتى لو ساورها بالفعل ـ لقد قلت لها فى الحال انها لم تعد فى حاجة الى اضعاف بصرها بعكوفها على الحياكة طوال النهار . فما لبثت أن تخلت فى التو عن معظم أعمالها وكأنها كانت طوال حياتها فى انتظار تلك اللحظة ولم تحتفظ الا ببضعة أعمال كانت تؤديها كلما أحست بالرغبة فى ذلك لا كوسيلة لكسب القوت بل للتسلية وقطع الوقت . فبدا الامر وكأن الجهد الذى بذلته سنين عديدة منذ أن كانت فتاة صغيرة تعمل كخادمة فى منزل احد الكتبة قد خاب فجأة دون أن يترك اثرا أو احتمالا لاسترداد قوته مرة أخرى كالمنازل القديمة التى تنهار على عروشها ولا يبقى منها جدار خارجى واحد بل تصير كومة من الانقاض فحسب . وكانت النقود فى نظر امرأة كأمى تعنى أولا وقبل كل شىء الطعام والراحة ملء جوانحها . فقد توفر لها مزيد من الطعام كما أتاحت لنفسها كل ألوان الراحة التافهة التى كانت فى نظرها تميز الاغنياء عن الفقراء كنوم الضحى والنهوض فى ساعة متأخرة والقيلولة بعد الغداء والخروج للنزهة من وقت لاخر . ولا يفوتنى أن أقول ان تلك التجديدات كانت تمثل فى تأثيرها أبغض ظاهرة من مظاهر حياتى الجديدة . ولعل أولئك الذين تعودوا الكد طوال حياتهم لا ينبغى أن يتخلوا عنه مطلقا . ذلك لان البطالة والراحة تؤديان بهم حتى ولو كان مصدر رزقهم مشروعا يقره الناس كما لم تكن الحال معنا . فما كادت أحوالنا تتحسن حتى بدأت أمى تميل الى البدانة أو بعبارة أدق أن نحافتها القلقة اللاهثة سرعان ما تلاشت وأخذت تترهل بطريقة غير صحية على صورة لها دلالتها رغم أننى لم أستطع ادراك معناها . فاكتنزت أردافها الضامرة وامتلأت كتفاها الهزيلتان . أما وجنتاها اللتان لشد ما كان يبدو عليهما النحول دائما حتى ليخيل لمن يراها أنها لاهثة فقد انتفختا فى احمرار . وكانت عيناها هما أكثر ما يحزننى فى سمتها . فقد كانتا فى الماضى كبيرتين واسعتين لا يفارقهما تعبير ذكى يقظ على الدوام . أما الان فقد ضاقتا عن ذى قبل ولمعتا ببريق غامض مبهم . ولكنها على الرغم من بدانتها لم تكتسب جمالا أو شبابا . وكانت الاثار الواضحة لذلك التغيير الذى طرا على أسلوب حياتنا تبدو على قوامها ومحياها أكثر مما تبدو على حتى أننى كنت لا أستطيع النظر اليها دون أن يخالجنى شعور أليم بتأنيب

الضمير وبالرثاء وبالنفور . وكان مما يزيد فى حيرتى وارتباكى استسلامها لمظاهر الرضا الجشع المبتهج · والواقع أنها لم تكد تستطيع أن تصدق أنها لم تعد فى حاجة الى الكد وأن تلك المظاهر كانت تنبىء عن شخص لم ينل قط فى حياته كفايته من الطعام أو النوم .

ولكننى بالطبع أخفيت عنها مشاعرى تماما . فلم أشأ أن أزعجها . وعلى أية حال فقد أدركت أننى يجب أن ألوم نفسى قبل أن أوجه اليها اللوم . ولكن ثمة حركة تنبىء بالضيق كانت من وقت لآخر تصدر منى عفوا . وقد بدا لى أن حبى لها الان وقد صارت بدينة منتفخة لا تبرح تتمايل فى مشيتها قد قل عن ذى قبل حينما كانت نحيلة مخبولة لا تفتأ تصرخ فى وجهى وهى تندفع رائحة غادية دون أن ينقطع طوال النهار أنينها وتأوهاتها . وطالما تساءلت قائلة ــ « ترى هل كانت أمى تترهل على هذه الصورة نفسها لو أن ثمة زواجا سعيدا قد أتاح لى حياة ناعمة ميسورة ؟ » يخيل لى الان عندما أفكر فى الامر انها كانت تصير كذلك ··أما ذلك النفور الذى كانت تثيره بدانتها فى نفسى فانى أرجعه الى النظرة التى لم يكن يسعنى الا أن أنظر بها اليها . فلشد ما امتلأت بتأنيب الضمير والمشاركة فى الاثم .

ولم أخف عن جينو طريقتى الجديدة فى الحياة زمنا طويلا . بل لقد اضطررت فى الواقع الى مصارحته بها فى الحال تقريبا فى أول مرة رأيته فيها بعد ممارستنا الحب فى الفيللا وكان قد مضى على ذلك ما يقرب من عشرة أيام . فقد جاءت أمى لتوقظنى ذات صباح قائلة فى صوت متآمر مكتوم ــ « أتعرفين من ذا الذى جاء يطلب مقابلتك ؟ جينو ! » .

فأجبت قائلة فى بساطة ــ « دعيه يدخل » .

وعندما خاب رجاؤها الى حد ما لاجابتى المقتضبة فتحت النافذة وغادرت الغرفة . ولم تمض لحظة حتى دخل جينو فرأيت فى الحال أنه كان غاضبا منزعجا . لم يحينى بكلمة بل أخذ يسير حول الفراش الى أن توقف أمامى حيث كنت مضطجعة أراقبه والنعاس ملء عينى ·

سألنى قائلا ــ « ألم تأخذى شيئا عن طريق الخطأ من فوق خوان الزينة الخاص بسيدتى عند لقائنا يومذاك ؟ »

فحدثت نفسى قائلة ــ « والان ها هى اللحظة قد حانت ! »

ولاحظت أننى لم أشعر مطلقا بالاثم ولكن خضوع جينو الذليل أحدث فى نفسى ذلك التأثير المؤلم المعهود .

وسألته قائلة ـ « لماذا ؟ » .

ـ لقد اختفت بدارة عظيمة القيمة من الذهب الخالص وبها فص من الياقوت . وقد قلبت مخدومتى الدار رأسا على عقب ولما كانت الفيللا قد وضعت فى حراستى فانى أعلم أنهم يرتابون فى أمرى مع أنهم لم ينبسوا بشىء . ولكن من حسن الحظ أنها لم تلحظ اختفاءها الا أمس أى بعد مضى أسبوع على عودتها . فمن المحتمل أن تكون احدى الخادمات هى التى سرقتها والا لفصلت فى التو أو وجهت الى التهمة ثم قبض على . اما هذا أو ذاك »

وخشيت أن أكون قد تسببت فى الحاق الاذى بشخص برىء . فسألته قائلة :

ـ « ولكنهم لم يؤذوا أحدا من الخدم ؟ »

فأجاب قائلا فى عصبية ـ « كلا . ولكن احد رجال الشرطة حضر الى الفيللا واستجوبنا جميعا . وقد ساد الاضطراب المنزل مدة يومين » .

فترددت لحظة ثم قلت ـ « انى أخذتها . »

فحملق فى وقد التوى وجهه فى تعبير بغيض قائلا ـ « أأخذتها؟ أهكذا تقولين لى ذلك ؟ »

ـ « وكيف ينبغى أن أقوله لك ؟ »

ـ « ولكن هذا مايسمونه سرقة . »

ـ « نعم » .

فنظر الى ثم انتابه الغضب فجأة . ولعله خشى النتائج أو لعله تكهن بطريقة غامضة أننى أعده مسئولا عن السرقة قبل كل شىء .

فقال ـ « الى بها ! ماذا دهاك ؟ ألهذا السبب اردت أن تدخلى مخدع سيدتى ؟! انى أرى الآن كل شىء . ولكننى يافتاتى العزيزة لن أتورط فى شىء من هذا القبيل . فان شئت السرقة فلترتكبيها حيثما ترغبين . فذلك لايهمنى فى شىء فيما خلا المنزل الذى أعمل فيه . يالك من لصة ! لو أننى تزوجتك لوقعت فى فخ محكم ـ ولكنت قد تزوجت لصة »

راقبته فى دقة وهو ينفس عن غضبه . فأدهشنى الآن كيف أمكننى أن أظن به الكمال طوال تلك الفترة . اذ أنه كان أبعد مايكون عن الكمال . وأخيرا عندما خيل لى أنه قد فرغ من كل مايمكنه أن يقوله فى لومى وتقريعى بدأت اتحدث قائلة ـ « لماذا تنفعل هكذا ياجينو ؟ فهم لايتهمونك بسرقتها ! بل سوف يتحدثون عنها يوما

أو يومين ثم يهدأ الامر كله بعد ذلك . والله يعلم كم تملك سيدتك من البدارات » .

فسألني قائلا ــ « ولكن ماذا بالله دعاك الى سرقتها ؟ » كان من الواضح انه يريد ان يرغمني على الاعتراف بما تكهن به فى غموض كما سبق أن قلت .

فأجبت قائلة في بساطة ــ « هكذا نغير ما سبب . »

ــ « هكذا ! هذه ليست اجابة . »

فأجبت قائلة فى هدوء ــ « أن شئت حقا ان تعرف السبب اذن فقد سرقتها لا لانني أريدها أو احتاج اليها بل لانني أستطيع الآن أن أسرق اذا ما عن لى ذلك . »

فابتدرني قائلا ــ « ما الذى ترمين اليه ؟ »

ولكنني لم أدعه يسترسل فى حديثه بل قاطعته قائله ــ « انى أجوب الشوارع ليلا لاقتنص الرجال . ثم أصحبهم الى هنا لينقدوني أجرى . فان كنت أفعل ذلك ففى امكانى أن أسرق أيضا ان شئت . أليس كذلك ؟ »

فعهم ما أعنيه وكان رد الفعل مماثلا تماما لطريقة تفكيره اذ قال ــ « فى امكانك أن تسرقى أيضا ــ هذا صحيح . ولكنني لو كنت قد تزوجتك اذن لقبض على ! »

فقلت ــ « ما كنت عندئذ لافعـــل ذلك . وما أقدمت على هذا الا عندما اكتشفت أن لك زوجة وطفلة . »

وكان طوال الوقت فى انتظار تلك العبارة اذ انه اجاب قائلا على الفور ــ « كلا ياعزيزتى ــ فهذا لن يجديك ! ولا تحاولى أن تنحى باللائمة على . فلا يضطر أحد الى احتراف البغاء والسرقة اذا لم تتوفر لديه الرغبة . »

فأجبته قائلة ــ « من الواضح أننى عندئذ كنت لصة وبغيا دون أن ادرى ــ فأتحت لى الفرصة لأصير كذلك . »

وأدرك من هدوئى انه لم يكن ثمة ما يقال فغير من تكتيكه قائلا ــ « حسنا ــ ليس من شأنى أن أعرف من انت وماذا تفعلين . ولكنني يجب أن أسترد هذه « البدارة » والا فقدت عملى ان عاجلا أو آجلا . فعليك أن ترديها لى وسوف أزعم انى عثرت عليها فى الحديقة أو فى أى مكان آخر . »

فأجبت قائلة فى الحال ــ « ولم لم تقل لى ذلك من قبل ؟ فلتأخذها ان كنت بذلك لاتفقد عملك . فهى فى الدرج الاول من خزانة الملابس »

فهرع الى خزانة الملابس فى الحال وهو يشعر بالراحة حيث فتح الدرج واخرج « البداره » ثم وضعها فى جيبه . وبعد ذلك نظر الى وفى عينيه تعبير مختلف فيه لمحه من الخجل ورعبه فى الصلح . ولكننى فى الحقيقة لم أستطع أن أواجه ذلك الموقف المربك الذى اوحت به نظرته ..

فسألته قائلة ـ « أمعك السيارة فى الخارج ؟ »

ـ « نعم » .

ـ « حسنا . لقد تأخر الوقت ويحسن بك ان تنصرف . ولسوف نتحدث فى الامر كله عندما نلتقى فى المرة القادمة . »

ـ « اغاضبة منى ؟ »

ـ « كلا . لست غاضبة منك . »

ـ « بل . غاضبة » .

ـ « كلا . »

ثم تنهد منحنيا فوق الفراش فتركته يقبلنى .

وما ان بلغ الباب حتى سألنى قائلا ـ « هل ستتصلين بى تليفونيا ؟ »

ـ « لا تقلق » .

وهكذا علم جينو بطريقتى الجديدة فى الحياة . ولكننا فى يوم لقائنا لم نذكر « البدارة » أو مهنتى بشىء . فقد كانا أشبه بموضوعين عاديين لايثيران الاهتمام ولا أهمية لهما الا لجدتهما . وكان أسلوبه فى الواقع يحاكى اسلوب أمى تعريبا غير انه لم يبد عليه لحظة واحدة انه أحس بالصدمة التى احست بها أمى عندما اصطحبت جياكنتى الى المنزل لاول مرة ـ تلك الصدمة التى كان لايسعنى الا أن أراها من وقت لآخر مستترة خلف رضاها أو متمثلة فى مظهرها المنتفخ العليل . وكان مما يميز شخصية جينو بصفة رئيسية نوع من المكر المعسول قصير النظر . وانه ليخيل لى أنه عندما علم بالتغيرات التى طرات على حياتى بسبب خيانته لم يزد على أن هز كتفيه قائلا لنفسه ـ « حسنا . ان ثمة طائرين ينقران كرزة واحدة ـ ففى ظل هذه الاوضاع لايمكنها أن تتهمنى بشىء كما يمكننى على الرغم من ذلك أن اظل عشيقا لها . » فثمة رجال يحسبون انفسهم سعداء الحظ اذا ما أمكنهم الاحتفاظ بما يملكون سواء أكان ذلك مالا أو نساء أو الحياة نفسها حتى ولو كان ذلك على حساب كرامتهم . وكان جينو من بين هؤلاء .

وظللت اقابله لانني كما سبق أن قلت لا ازال احبه على الرغم من كل شيء ولم يكن ثمه من أحبه أكثر منه .ولأنني رغم ايماني بأن كل شيء قد انتهى بيننا لم أكن راغبة فى قطيعة فجائية بغيضة . وكنت لا أميل مطلقا الى القطيعة التامة أو الانقطاعات الفجائية . ففى رأيى ان كل شيء فى الحياة يموت كما يولد من تلقاء ذاته عن طريق السأم أو عدم الاكتراث أو حتى العادة التى هى فى حد ذاتها نوع من الملل المخلص المنتظم ـ كما أحب أن أشعر بهذه الاشياء وهى تموت على هذه الصورة بطريقة طبيعية دون أن تكون لى أو لأحد يد فى ذلك ثم تخلى مكانها فى بطء لتحل محلها أشياء أخرى . فاننا قبل كل شيء لانرى فى الحياة مطلقا تغيرات ايجابية واضحة . كما أن أولئك الذين يحدثون تغييرات عاجلة يستهدفون لخطر العودة من جديد الى عاداتهم القديمة التى مازالت حية عميقة الجذور كعهدها دائما . فكنت أبغى أن اصل الى الدرجة التى لاأكترث عندها لمداعبات جينو كما لا اكترث لكلامه وكنت أخشى أننى اذا لم اترك الامور تأخذ مجراها الطبيعى فانه سوف يظل يظهر دائما فى حياتى على غير توقع ويرغمنى على تجديد علاقتنا القديمة .

وفى تلك الفترة عاد آستاريتا الى الظهور فى طريق حياتى . وكان الامر بشأنه أبسط بكثير مما كان بشأن جينو . فقـــد كانت جيزيلا تلتقى به سرا وأعتقد أنه كان يضاجعها لا لشيء الا ليتمكن من أن يحدثها عني . وعلى أية حال فان جيزيلا كانت تتحين الفرصة لتذكره لى . وعندما رات أن فترة طويلة من الزمن قد مرت وأنني قـــد استعدت هدوئى واعتدال مزاجى انتحت بى جانبا ثم أخبرتنى فى النهاية بعد أن حامت حول الموضوع قليلا أنها قابلت آستاريتا وأنه سأل عن أخبارى . ثم استرسلت قائلة ـ « ولم يقل شيئا بالذات ولكن كان من الواضح أنه مازال مغرما بك . ولقد أسفت له فى الواقع ـ اذ انه يبدو تعيسا . وهو لم يقل لى شيئا بالطبع ـ ولكننى واثقة من انه يود لو يراك مرة أخرى ـ وقبل كل شيء ـ » .

فقاطعتها قائلة ـ « انصتى الى . لا جدوى من مواصلة الحديث بهذه الطريقة ؟ »

ـ « كيف ؟ »

ـ بتحويمك حول الموضوع على هذه الصورة ! لم لاتقولين لى على الفور انه أرسلك الى وانه يريد مقابلتى مرة أخرى وانك تعهدت بأن تحملى اليه الرد ؟ »

فقالت وهى مأخوذة الى حد ما ــ « ولنفرض أننى فعلت ــ ماذا اذن ؟ »

فقلت فى هدوء ــ « اذن فيمكنك أن تبلغيه أنه لامانع لدى مطلقا من مقابلته مرة أخرى ــ كما أقابل غيره من الرجال بالطبع من وقت لآخر دون ارتباط . »

ولشد ما انتابتها الدهشة لهدوئى . فقد كان يخيل لها أننى أكره آستاريتا وأننى لن أوافق على مقابلته مرة أخرى . اذ أنها لم تكن تدرك أن الحب والبغض لم يعد لهما الآن وجود فى نظرى . وظنت كعادتها أن هناك دافعا خفيا .

فقالت بعد لحظة من التفكير يخالط لهجتها شىء من الدهاء ــ « انك على حق . ولو كنت فى مكانك لحذوت حذوك . ففى بعض الحالات عليك أن تتجاهلى مشاعر البغض والكراهية ــ ان آستاريتا يحبك حقا بل ربما فسخ زواجه ليتزوجك . ومع ذلك ــ فأنت امرأة أريبة ! وكنت أظنك غاية فى السذاجة ! .

كانت جيزيلا تجهلنى تماما . وقد تعلمت من خبرتى معها أننى لو حاولت أن أفسر لها الامور لكان ذلك مضيعة للجهد . ولذا فقد وافقت متظاهرة بعدم الاكتراث قائلة ــ « هذا هو الموقف بالضبط » ثم تركتها وفى نفسها خليط من الاعجاب والحسد .

فحملت ردى الى آستاريتا وقابلته فى محل الحلوى حيث التقيت بجياكنتى لاول مرة . وكان لايزال يهيم بى حبا كما قالت جيزيلا . وفى الواقع فانه ماكاد يرانى حتى ابيض لونه وفقد السيطرة على نفسه ولم ينبس بكلمة . فلابد أن عاطفته كانت أقوى منه . وانى أعتقد أن بعض النساء الساذجات لايجانبن الصواب حين يقلن كما تقول أمى ان بعض الرجال تسحرهم عشيقاتهم . فقد فرضت عليه نوعا من السـحر دون أية رغبة أو قصد من جانبى . وعلى الرغم من ادراكه ذلك وبذله كل مافى وسعه للتخلص منه كان عاجزا تماما عن تحقيقه . فقد جعلته يحس تجاهى بالنقص على صـورة حاسمة والاعتماد على والخضوع لى . كما جردته نهائيا من كل سـلاح وفرضت عليه نوما مغناطيسيا ووضعته تحت رحمتى . وقد شرح لى فيما بعد انه كان أحيانا يتلو على نفسه الدور البارد المحتقر الذى ينوى أن يؤديه أمامى بل كان يحفظ عباراته عن ظهر قلب . ولكنه ما ان يرانى حتى يشحب وجهه ويمتلىء صدره بالالم ويصير عقله صفحة بيضاء ويأبى لسانه أن ينطق . كما كان يبـدو عاجزا عن

مواجهتى ثم يفقد صوابه ويشعر أنه مدفوع بقوة لاتقاوم الى أن يرتمى جاثيا أمامى ومقبلا قدمى .

وفى الواقع فانه كان يختلف عن الآخرين جميعا . أعنى أننى كنت أسيطر على ذهنه تماما . وفى ذلك المساء الذى التقينا فيه ماكدنا نبلغ المنزل بعد تناولنا وجبة فى أحد المطاعم حيث احتوأنا صمت عصبى متوتر حتى توسل الى أن أروى له ماوقع لى بالتفصيل منذ يوم ذهابنا الى فيتريو حتى يوم قطيعتى مع جينو . فسألته قائلة فى دهشة ــ « ولماذا تهتم بالامر الى هذا الحد ؟ »

فأجابنى قائلا ــ « ليس لذلك سبب حقيقى . ولكن الا يستوى الامر فى نظرك ؟ استرسلى فى الحديث ولا تكترثى لى . »

فقلت وأنا أهز كتفى ــ « أما عن نفسى فمادام ذلك يسرك ــ » ورويت له بالدقة كل ماحدث لى بعد الرحلة . كيف تحدثت الى جينو وكيف اتبعت نصيحة جيزيلا وقابلت جياكنتى ولم أغفل شيئا سوى قصة «البدارة» ولعل مرجع ذلك أن عمله فى الشرطة فلم أشأأن أحرجه ــ ثم وجه الى عددا من الاسئلة وخاصة حول لقائى بجياكنتى . وقد بدا لى أنه لم يمل قط سماع التفاصيل حتى خيل لى أنه لايود أن يسمع عن تلك الاشياء فحسب بل أن يراها ويلمسها ويشارك فيها . ولا يمكننى أن أصف لكم كم مرة قاطعنى قائلا ــ « وماذا فعل ؟ » أو « ماذا فعلت ؟ » وعندما انتهيت من سرد قصتى عانقنى وهو يتلعثم قائلا ــ « انه خطئى أولا وأخيرا » .

فقلت وقد سئمت المناقشة الى حد ما ــ « كلا . فان أحدا لم يتسبب فى ذلك . »

ــ « نعم . انه خطئى . فقد كنت أنا الذى حطم حياتك . فلو اننى لم أفعل مافعلته فى فيتريو لأختلف الامر تماما » .

فأسرعت قائلة ــ « انك مخطىء تماما . فلو أن أحدا يستحق اللوم فهو جينو ــ أما أنت فلا شأن لك بما حدث . فانك ياعزيزى قد أردت اغتصابى . وكل مايؤخذ عنوة لا وزن له ــ فلو أن جينو لم يخدعنى لتزوجته ولقصصت عليه كل ماحدث ولصار الامر بعد ذلك وكأنى لم أرك قط فى حياتى » .

ولكنه بدا متشبثا باعتقاده أنه المسئول عما أصابنى لا لانه كان آسفا بل لانه على العكس من ذلك كان يلذ له اقتناعه بأنه أفسدنى وتسبب فى انحرافى . بل ان القول بأن ذلك كان يلذ له تعبير ضعيف للغاية . فحرى بى أن أقول أن الفكرة كانت تثيره ولعل ذلك هو

السبب الرئيسي فى هيامه بى . وقد أدركت ذلك فيما بعد عندما لاحظت أنه كثيرا ما كان يصر كلما التقينا على أن أقص عليه كل ما جرى بينى وبين عشاق الطريق فى فترة فراقنا . وكان وهو ينصت الى قصتى لايفتأ يكسو وجهه تعبير مضطرب متوتر يصيبنى بالارتباك ويملؤنى بالخجل . وبعد ذلك مباشرة يرتمى فوقى ثم لايفتأ يردد فى شبق أثناء المضاجعة ألفاظا نابية قاسية مسيئة لن أذكرها هنا ولكنها مهينة حتى لاشد النساء فحشا وعهارة . ولم أستطع قط أن أفهم كيف يمكنه أن يوفق بين هذا الموقف الغريب الشاذ وبين هيامه بى . فمن المحال فى رأيى أن يقع المرء فى حب امرأة ولا يشعر نحوها بالاحترام . ولكن الحب عند آستاريتا كان ممزوجا بالقسوة وكان كل منهما لايفتأ يضفى على الآخر لونه وقوته . وأحيانا كان يخيل لى أن انفعاله الغريب لاقتناعه بأنه السبب فى انحرافى كان من وحى مهنته كعضو فى المباحث العامة . فان عمله على قدر ادراكى كان ينحصر فى اكتشاف نقطة الضعف عند المتهم وفى اذلاله والحط من كرامته على صورة تجعله بعد ذلك لايؤذى أحدا قط . وقد اعترف لى هو نفسه ولو أننى لا أستطيع ان أذكر المناسبة انه كلما نجح فى اقناع متهم بالاعتراف أو دفعه الى الانهيار كان لايفتأ يحس بنوع من الاشباع الغريب كذلك الذى يشعر به عند المضاجعة . وكان يقول — « المتهم كالمرأة يمكنها أن ترفع رأسها عاليا مادامت تقاوم . ولكنها ما أن تستسلم حتى تصير خرقة بالية يمكنك أن تنالها من جديد كيفما تشاء ووقتما تشاء » . ولكن لعل قسوته ورضاه طبيعيان فيه . ولعله اختار مهنته لهذا السبب فحسب وليس العكس .

وكان آستاريتا شقيا فى حياته . بل اننى فى الواقع لم اعرف فى حياتى من هو أشقى منه واعصى علاجا لان شقاءه لم يكن يرجع الى أى سبب خارجى بل كان ينبع من ضعف ما أو التواء فى نفسيته استغلق على ادراكى فلم أنجح قط فى الوصول الى جذوره . وكان كلما أعفانى من أن أقص عليه مغامرات مهنتى لايفتأ يجثو امامى موسدا رأسه حجرى حيث يمكث على هذه الصورة بلا حراك ساعة كاملة . وما كان على الا أن أربت على رأسه برفق من وقت لآخر كما تربت الامهات على رءوس أطفالهن . وكان بين الحين والحين يطلق أنينا . ولعله أنين البكاء . ومع اننى لم اشعر مطلقا بالحب نحو آستاريتا فانه فى تلك اللحظات كان لايفتأ يثير فى نفسى شعورا عميقا بالشفقة لاننى كنت أرى انه يعانى ولا أجد سبيلا الى تخفيف معاناته

وكان يتحدث فى مرارة شديدة عن أسرته : عن زوجته التى كان يكرهها وعن طفلتيه اللتين لم يكن يحبهما وعن أبويه اللذين ساماه خسفا فى طفولته وارغماه على زيجة كانت سببا فى نكبته وهو لايزال شابا غرا . وكان لايكاد يذكر مهنته . ولكنه قال لى فى مناسبة واحدة فقط وقد ارتسم على وجهه تعبير ينطق بالبغض الغريب ــ « ان المنزل يحتوى على أشياء كثيرة نافعة حتى ولو لم تكن جميعها نظيفة . وأنا أحد هذه الاشياء ــ المزبلة حيث تجمع القمامة . » ومع ذلك فقد انطبع فى ذهنى انه كان يعد مهنته بصفة عامة عملا شريفا . وبقدر ما أتاحته لى زيارتى له فى الوزارة وأسلوبه فى الحديث الذى تميز بالحماس والكتمان وحدة البصيرة والنزاهة والصلابة يمكننى ان أحكم عليه بأنه كان موظفا مثاليا شديد الاحساس بالواجب .. ومع أنه كان يشكل جزءا من قوة المباحث العامة فانه كان يصرح بأنه لايعرف شيئا عن السياسة . وقد قال لى فى مناسبة أخرى ــ « ما أنا الا ترس فى العجلة أنفذ ما يأمروننى به » .

وكان آستاريتا يود لو يلقانى كل مساء ولكننى فضلا عن رغبتى فى عدم الارتباط برجل واحد كما سبق أن قلت فانى لم أفتأ أشعر معه بالملل كما كنت أضيق بلهجته الجادة المتشنجة المهتزة وأساليبه الغريبة حتى أننى رغم رثائى له لم أفتأ أتنفس الصعداء كلما فارقته . ولهذا السبب حاولت الا أقابله سوى مرة واحدة فى الاسبوع . ولا شك أن لقاءنا اليسير يساعد على تأجج رغبته ويقظتها المستمرة فى حين أننى من الناحية الاخرى لو كنت قد وافقت على الحياة معه كما كان لايفتأ يقترح على لتعود وجودى رويدا رويدا ولرآنى فى النهاية على حقيقتى ــ فتاة مسكينة كعشرات الاخريات . وقد أعطانى رقم تليفون مكتبه فى الوزارة وكان رقما سريا لايعرفه سوى مدير الشرطة ورئيس الحكومة ونفر قليل من الشخصيات الهامة . وكان كلما اتصلت به تليفونيا يرد على فى الحال ولكنه لايكاد يتعرف على حتى يضطرب صوته الذى كان صافيا هادئا منذ لحظة واحدة ثم يأخذ فى اللعثمة . وفى الواقع فانى قد غزوت قلبه تماما وجعلته طوع بنانى كالعبد الذليل . واذكر اننى ذات مرة مررت بيدى على وجنته وأنا شاردة ذاهلة دون أن يطلب الى ذلك . فقبض عليها فى الحال وقبلها فى حب وشبق . ثم طلب الى أن أعيد الكرة فى مناسبات أخرى فألمسه لمسة تلقائية ولكن مثل هذه المداعبات لايمكن أن تمنح تلبية لرغبة المشترى .

وغالبا ماكنت أفتقد الرغبة فى الخروج الى الشـوارع لاقتناص الرجال فأمكث فى المنزل . ولكننى كنت لا أحب البقاء مع أمى لان حديثنا على الرغم من اتفاقنا الضمنى على الامتنـاع عـن ذكر مهنتى كان لايفتأ يدور حولها فى تلميحات مرتبكة حتى أننى كدت أفضل الحديث عنها صراحة ودون مواربة . ولذلك كنت أحتبس فى غرفتى حيث أتمدد على الفراش محذرة أمى من ازعاجى . ومع أن غرفتى كانت تطل على الفناء فان النافذة المغلقة كانت تحول دون وصول الضوضاء الى مسامعى . وكانت تأخذنى سنة من النوم فترة وجيزة ثم أنهض من الفراش لاتجول فى الغرفة وقد شغلت بعمل تافه كترتيب متاعى أو ازالة ماعلق بالاثاث من غبار . وكانت تلك الاعمال لاتعدو أن تكون حافزا لعقلى على العمل ومحاولة لايجـاد جو من الخلوة العنيفة المنعزلة . وكنت أستغرق رويدا رويدا فى خواطرى الى أن يتوقف عقلى تقريبا عن التفـكير فى النهاية وأقنع بالاحسـاس بالحياة بعد كل ذلك الوقت الضائع والاساليب المرهقة .

وكان لايفتأ يغشانى فى لحظة معينة شعور عميق بالحيرة خلال الساعات التى كنت أقضيها فى تلك العزلة المنفردة . فيبدو لى فجأة أننى أرى حياتى بأسرها فى وضـوح بارد قاس وكذلك نفسى كلها من جميع الجوانب . وكانت الاعمال التى أمارسها لاتفتأ تتكرر أمامى وتفقد جوهر معناها وتتحول الى مجرد حركات ظاهرية سـخيفة مستغلقة . فكنت أحدث نفسى قائلة ـ « كثيرا ما أعود الى المنزل وفى رفقتى رجل كان ينتظرنى فى جنح الليل دون أن يعرفنى . فنتصارع على هذا الفراش متعانقين فى قوة وحماس وقد تشبث كل منا بالاخر كعدوين لدودين استحكم بينهما العداء . ثم يعطينى قصاصة من الورق مطبوعة ملونة . وفى اليوم التالى اسـتبدل بهذه القصاصة الطعام والملابس وغيرهما من السلع . » ولكن هذه العبارات لم تكن الا خطـوة أولى فى سلسلة الخطـوات التى تؤدى الى حيرة أعمق واشد . فكانت تلك العبارات تمحو من ذهنى حكمه على مهنتى ذلك الحكم الذى كان لا يفتـأ يوجد جاثما هنـاك . فتتصـور لى مهنتى فى صـورة سلسـلة من الحـركات التى لا معنى لهـا والتى تشـبه مـن جميـع الوجـوه حركات المهـن الاخـرى .

وبعد ذلك مباشرة ثمة صوت بعيد فى المدينة أو صرير قطعة أثاث فى الغرفة كان يبعث فى نفسى ادراكا سخيفا مضحكا لوجودى يكاد يكون مثيرا عنيفا عارما . فأحدث نفسى قائلة ـ « ها أنذى وربما كنت فى مكان آخر ـ ربما وجدت منذ ألف عام أو بعد ألف عام ـ وربما كنت

زنجية أو عجوزا شقراء أو قصيرة ـ » وكان يجول بخاطرى كيف انني خرجت من ليل لانهائي ولن ألبث أن ألج ليلا لا نهائيا آخر وكيف أن مروري العابر القصير كان لايتميز الا بأعمال سخيفة عارضة . وعندئذ ادرك أن ماكنت أفعله لم يكن هو السبب فى غمتى بل كان على صورة أعمق مجرد وجودى على قيد الحياة ولم يكن ذلك خيرا ولا شرا بل شيئا أليما خاويا من المعنى .

وما أن تنهار شجاعتي حتى ينتابنى الخوف بضع لحظات . فكنت لا أفتأ أرتعد على صورة لا سبيل الى كبح جماحها ويقف شعرى . وفجأة تبدو لى جدران شقتى بل المدينة كلها بل العالم بأسره وقد تلاشى وأظل أنا معلقة فى فضاء خاو مظلم لانهائى ـ بل اكثر من ذلك أن ملابسي تظل كما هي وذكرياتي لاتتغير وكذلك اسمي ومهنتي . ثمة فتاة تدعى آدريانا معلقة فى وجه العدم . وكان العدم يبدو لى شيئا جهما رهيبا مستغلقا . وكان أشد مايحزننى فى الامر كله اننى كنت ألقى العدم بنفس الطريقة التى ألقى بها جيزيلا فى المساء فى محل الحلوى حيث تعودت ان تنتظرنى دون أن يتغير أسلوبى أومظهرى الخارجى . ولم يكن يعزينى أن غيرى من الناس أيضا كانوا يتصرفون ويتحركون بنفس الطريقة العقيمة القاصرة التى لم أفتأ أتبعها كلما ووجهت بهذا العدم ووجدت فيه واحطت به . وكنت لا أزيد على أن أدهش لغفلتهم عنه وعدم ابدائهم ملاحظاتهم عليه وعدم اشارتهم اليه مرارا وتكرارا كما يحدث عادة عندما يكتشف عدد كبير من الناس فى نفس اللحظة حقيقة واحدة .

حينذاك كنت أرتمى جاثية على ركبتى لأصلى الى الله . ولعل ذلك لم يكن بارادتى الواعية بقدر ماكان عادة اكتسبتها فى طفولتى . ولكننى كنت لا أردد ألفاظ الصلوات العادية التى تبدو لى بالنظر الى حالتى النفسية الفجائية أطول مما ينبغى . فكنت أرتمى جاثية على ركبتى فى عنف شديد لاتفتأ تتألم منه ساقاى بضعة أيام بعد ذلك . ثم أصلى بصوت عال يملؤه اليأس مرددة هذه الكلمات القليلة فقط ـ « ارحمنى يايسوع المسيح » . ولم تكن فى الحقيقة صلاة بل معادلة سحرية كنت أحسبها تبدد الملل وتردنى الى الواقع مرة أخرى . وبعد أن أطلق صيحتى التلقائية على هذه الصورة بكل قوتى أظل بعض الوقت محتفنة وجهى بيدى فى استغراق تام . وأخيرا احس بعقلى وقد صار صفحة بيضاء وبالملل يراودنى وبأننى مازلت آدريانا كما كنت دائما وبأننى فى غرفتى الخاصة . ثم أتحسس

جسدى وأنا فى شبه دهشة لسلامته . وما ان أنهض من ركعتى حتى آوى الى فراشى . ولشد ما كنت أحس بالتعب والالم فى جميع اجزاء جسدى وكأننى قد سقطت فوق منحدر صخرى . ثم لا البث ان استغرق فى النوم .

ومع ذلك فان تلك الحالات النفسية لم يكن لها تأثير على حياتى اليومية . بل كنت أظل كما انا بنفس الشخصية وبنفس الخلق — آدريانا التى تصحب الرجال الى المنزل لقاء النقود والتى تجوب الشوارع مع جيزيلا والتى تتحدث فى أمور تافهة مع أمها ومع الناس جميعا . وكان يدهشنى ذلك الاختلاف الشديد بينى فى وحدتى وفى صحبة آخرين وبين علاقتى بنفسى وعلاقتى بغيرى . ولكننى لم أخدع نفسى بتوهمى أننى الوحيدة التى تخالجها مثل هذه المشاعر العنيفة اليائسة . بل كان يخيل لى أن كل شخص يشعر بلاريب ولو مرة واحدة فى اليوم على الاقل أن حياته تقلصت حتى صارت نقطة واحدة من الالم السخيف الذى يفوق الوصف ، غير أنه من الواضح أن شعوره ذاك كان لايحدث أثرا ملموسا فى حياته . فكان كل منهم يترك منزله كما افعل ليهيم على وجهه مؤديا فى أمانة واخلاص دوره الذى لا أمانة فيه . وقد دعم ذلك الخاطر اعتقادى أن البشر جميعا دون استثناء يستحقون الرثاء ولو كان ذلك لبقائهم على قيد الحياة فحسب .

القسم الثاني

الفصل الأول

وعندئذ كنا قد صرنا انا وجيزيلا شريكتين اكثر منا صديقتين . حقا اننا لم نتفق على الاماكن التى نتردد عليها لان جيزيلا كانت تفضل المطاعم والمحال الانيقة فى حين اوثر انا المقاهى البسيطة بل الطرقات . ولكننا نجحنا فى الوصول الى اتفاق حتى فى ذلك الشأن الذى تختلف حوله الميول . فكنا نقصد الاماكن المختلفة على التوالى . وذات مساء بعد تناولنا العشاء من غير طائل فى احد المطاعم كنا فى طريقنا الى المنزل عندما احسست بسيارة تتعقبنا . واسررت الى جيزيلا منذرة اياها اننا ربما تلقينا عرضا . وكانت غاضبة فى ذلك المساء لانها اضطرت الى دفع ثمن عشائها دون ان يتمخض ذلك عن شىء فى حين انها كانت منذ فترة وجيزة تعانى ضائقة مالية شديدة . فأجابتنى قائلة فى وقاحة : « يمكنك أن تمضى معهم ان شئت . اما انا فذاهبة الى المنزل لانام » . وفى تلك الاثناء كانت السيارة قد اقتربت من حافة الافريز واخذت تسير ببطء فى محاذاتنا . وكانت جيزيلا تمشى بالقرب من جدران المنازل بينما اسير انا من ناحية الطريق . وعندما القيت نظرة جانبية رأيت رجلين فى السيارة . فهمست قائلة لجيزيلا : « ما العمل ؟ ما لم تأتى معى فلن اذهب انا ايضا »

فاختلست بدورها نظرة الى السيارة وبدا عليها التردد لحظة وهى لا تزال فى حال من السخط ثم قالت بلهجة حازمة : « لن اذهب . ولتمضى انت . اتخافين ؟ » .

ـ « كلا . ولكننى لن اذهب ما لم تأتى انت ايضا . »

فهزت رأسها والقت نظرة اخرى على السيارة التى ما زالت تسير بمحاذاتنا ثم قالت وكأنها قد حزمت رأيها فجأة : « حسنا . ولكن عليك ان تتظاهرى بالرفض حتى نستدرجهما الى ممر الحديقة فانا لا اميل الى اقتناصهما هنا فى الطريق العام » .

فسرنا مسافة تقرب من خمسين ياردة والسيارة لا تفتأ تسير بمحاذاتنا طوال الوقت الى ان بلغنا ناصية انحرفت عندها جيزيلا فاذا بنا فى شارع جانبى مظلم ضيق ذى افريز صغير يمتد بمحاذاة

جدار قديم تغطيه الاعلانات ـ فسمعنا السيارة وهى تنحرف أيضا فى الطريق الجانبى ثم سقطت علينا أشعة الكشافات الامامية وكانت بيضاء باهرة . فأحسسنا وكأن الضوء قد جردنا من ثيابنا وسمرنا الى الحائط الرطب الذى تكسوه الاعلانات الباهتة الممزقة. فوقفنا فى سكون . ثم قالت لى جيزيلا بصوت خفيض : « أى صنف من الناس هذان المخلوقان ؟ ألم ينعما النظر الينا فى الطريق العام ؟ ان الرغبة تراودنى فى العودة الى المنزل » .

فأسرعت قائلة فى توسل : « لا ، لا ، لا تفعلى ! ماذا يهم ؟ فجميعهم ينحون هذا النحو » . ولشد ما أحسست بالرغبة فى لقاء هذين الرجلين فى السيارة ولا أدرى أنا نفسى سببا لذلك .

فهزت كتفيها وارتعشت الاضواء الكاشفة فى نفس الوقت ثم انطفأت . ووقفت السيارة أمامنا بالقرب من الافريز . ثم أطل السائق برأسه الاشقر الى خارج النافذة قائلا بصوت مدو :

ـ « طاب مساؤكما » .

فأجابته جيزيلا قائلة فى ترفع : « ومساؤكما » .

فأردف قائلا : « الى أين تذهبان وحيدتين ؟ الا يمكننا أن نكون فى صحبتكما ؟ » .

وكانت تلك العبارات مبتذلة سبق أن سمعتها مئات المرات رغم مافيها من لهجة متهكمة تنم عن شخص يظن بنفسه الذكاء المفرط.

فأجابت جيزيلا قائلة دون أن تفارقها لهجتها المترفعة : « هذا كله يتوقف . . . » وكانت هى أيضا لا تفتأ تعطى نفس الردود .

فالح الرجل الذى يقود السيارة قائلا «أوه هلم بنا الان ! علام يتوقف ؟ » .

فقالت جيزيلا متجهة نحو السيارة وواضعة يدها على الباب : « كم تنقدانن ؟ » .

ـ « كم تطلبان ؟ »

فحددت جيزيلا مبلغا من المال . فصاح قائلا فى صوت حاد : « ولكنكما تغاليان . فهذا ثمن باهظ ! » ومع ذلك فقد بدا ميالا لقبول العرض . واذا بصديقه الذى اختفى وجهه يتكىء الى الامام هامسا بشىء فى أذنه . ولكن الشاب الاشقر هز كتفيه ثم التفت الينا قائلا :

ـ « حسنا ، فلتدخلا السيارة » .

وفتح صديقه الباب ثم هبط من السيارة ومضى ليجلس فى

المقعد الخلفي . ودعاني الى الجلوس بجانبه بعد أن فتح الباب المجاور لي . كما جلست جيزيلا بجانب الشاب الاشقر الذي التفت نحوها قائلا : « الى أين نذهب ؟ » .

فأجابته قائلة : « الى شقة آدريانا » . ثم أدلت اليه بالعنوان .

فقال الشاب الاشقر : « هذا جميل . فلنذهب الى شقة آدريانا » .

وكان من عادتي كلما وجدت في سيارة أو أي مكان آخر مع أحد هؤلاء الرجال الذين لا اعرفهم ان الوذ بالصمت والسكون في انتظار أن تبدر منهم كلمة أو حركة . وكنت أعلم من خبرتي أنهم يتشوقون الى المبادرة ولا يحتاجون الى تشجيع . وفي ذلك المساء أيضا لزمت الصمت والسكون بينما أخذت السيارة تشق طريقها خلال المدينة . ولم أستطع أن أتبين من الشخص الجالس الى جواري الذي تعين بحكم ترتيب الاماكن ان يكون عشيقي في تلك الليلة سوى يديه الطويلتين النحيلتين البيضاوين الموضوعتين على ركبته . لم ينبس بكلمة ولم تبدر منه حركة وقد اختفى رأسه في الظلام . وخيل لي انه ربما كان حييا فاحسست فجأة بأني مشدودة اليه . فقد كنت أنا أيضا حيية وكان الحياء لايفتأ يؤثر في لأنه يذكرني بما كنت عليه قبل لقائي بجينو . ومع ذلك فان جيزيلا كانت تتحدث وكانت تميل الى الحديث عن أمور تافهة في أدب واطناب قدر امكانها وكأنها سيدة في صحبة رجال يحترمونها .

وسمعتها في لحظة معينة تسأل رفيقها قائلة : « أهذه سيارتك؟ »

فأجابها قائلا : « نعم . فاني لم أرهنها بعد . أتعجبك ؟ » .

فقالت جيزيلا في هدوء : « انها مريحة للغاية . ولكنني أفضل سيارات « لانسيا » فهي أسرع من هذه كما انها ذات لوالب أقوى . ان خطيبي يملك سيارة « لانسيا » . »

وكانت صادقة فيما قالت . فقد كان ريكاردو يملك سيارة « لانسيا » . ولكنه لم يكن قط خطيب جيزيلا . وحينذاك كانت جيزيلا قد انقطعت عن لقائه بعض الوقت . فبدأ الشاب يضحك قائلا : « ان خطيبك يملك سيارة « لانسيا » تسير على عجلتين ! »

وكانت جيزيلا سريعة الغضب . بل كانت أتفه الملاحظات خليقة بأن تغضبها . فقالت في استياء : « قل لي ماذا تحسبنا ؟ » .

فقال الشاب الاشقر : « لست أدري . أخبريني من انتما حتى لا أسيء التصرف » .

وثمة لازمة أخرى من لوازم جيزيلا التى كانت لا تفتأ تتبعها مع عشاق الطريق هى انتحال صفة ليست لها : فتزعم أنها راقصة أو ناسخة أو سيدة محترمة . ولم تكن تدرك ان ادعاءها ذلك يتنافى تماما مع سهولةالتفاهم معها كما يتنافىمع تمسكهادائما بضرورةالاتفاق فورا على الناحية المالية . فقالت فى كبرياء : « اننا راقصتان فى فرقة كاتشينى . وليس من عادتنا الخروج مع أول رجل نلقاه فى الطريق. ولـكن لما كانت الفرقة لم تستعد بعد كما يجب فقد كنا نقوم بنزهة قصيرة هذا المساء . كما اننى فى الواقع لم أشأ قبول عرضكما ولـكن صديقتى قالت انكما تبدوان مهذبين . ولو علم خطيبى بذلك لقتلنى ... »

فضحك الرجل الاشقر مرة أخرى قائلا : « لاشك اننا شخصان مهذبان ! ولـكنكما بغيان ! لم لا ؟ » .

فتكلم صديقى لاول مرة قائلا فى صوت هادىء : « اصمت يا جيانكاريو » .

ولم أنبس بكلمة . وكنت أكره أن أنعت بهذا الاسم لما وراءه من قصد حقود ولكنه يمثل الحقيقة رغم كل شىء .

فقالت جيزيلا : « أولا هذا افتراء . وفضلا عن ذلك فأنت وغد »

فلم يفه الشاب الاشقر بشىء . ولـكنه قلل من سرعة السيارة فى الحال ثم أوقفها بجانب حافة الافريز . وكنا فى شارع جانبى مهجور ذى اضاءة خافتة تحف به المنازل من الجانبين . والتفت نحو جيزيلا قائلا : « ولنفرض اننى ألقيت بك الى خارج السيارة ؟»

فقالت جيزيلا منسحبة الى الخلف : « اذن فلتحاول ! » ولشد ما كانت شجاعة لا تهاب أحدا .

وعندئذ اتكأ جارى الى الامام تجاه المقعد الامامى فرأيت وجهه . كان أسمر اللون تجلل جبهته العالية خصلة من الشعر وكان ذا عينين نجلاوين سوداوين بارزتين وأنف مستقيم وأضح المعالم وشفتين مقوستين وذقن قبيح مرتد الى الداخل . ولشد ما كان نحيفا حتى أن حرقوته ظهرت فوق ياقته . قال مخاطبا الرجل الاشقر مشددا على ألفاظه ولـكن فى اناة . فبدا لى وكأنه يتدخل فى أمر لا يخصه مطلقا فى الحقيقة : « هل ستصمت أم لا ؟ » ولم يتميز صوته بالعمق أو الرجولة المفرطة بل بدا وكأنه قابل لان يصير نشازا صارخا فى سهولة .

فقال صديقه ملتفتا نحوه : « وما شأنك بهذا ؟ » ومع ذلك فقد كان صوته غريبا وكأنه خجل فعلا من فظاظته وغير آسف لتدخل صديقه . ثم استرسل جارى قائلا : « ما هذا السلوك ؟ لقد دعوناهما .. فوثقتا بنا .. وها نحن الآن نهينهما ! » والتفت الى جيزيلا قائلا فى رقة : « لا تهتمى بما يقول . فلعله أفرط فى الشراب! وانى واثق انه لا يقصد اساءتك » . فأتى الرجل الاشقر حركة احتجاج ولكن رفيقه اسكته بوضع يده على ذراعه قائلا بلهجة قاطعة : « أؤكد لك انك افرطت فى الشراب وانك لم تقصد اهانتها. والآن فلنواصل طريقنا » .

وقالت جيزيلا فى صوت مرتعش : « انى لم أحضر الى هنا لكى أهان » . وبدت هى أيضا شاكرة للرجل الاسمر تدخله .

فقال : « بالطبع فليس ثمة من يحب أن يهان .. لاشك فى ذلك ! » وأخذ الرجل الاشقر يحملق فيهما وقد علت وجهه الاحمر الذى بدا متورما تكسوه بقع من الكدمات نظرة غبية حمقاء . كانت عيناه مستديرتين ذاتى زرقة رمادية كما بدا فمه الاحمر الكبير نهما لا يكبح جماحه . أخذ يحملق فى صديقه الذى لم يفتأ يربت على كتف جيزيلا مهدئا وأخيرا انفجر ضاحكا وهو يهتف قائلا : «أقسم بشرفى اننى لاادرى ماذا حدث وأين نحن الان ؟ ولماذا نتشاجر؟ بل انى لا أستطيع أن أذكر كيف بدأ كل هذا . فها نحن نتشاجر بدلا من ان نكون جميعا اصدقاء . انه لامر خليق يدفع المرء الى الجنون » . كان يضج بالضحك ثم التفت الى جيزيلا قائلا وهو مازال يضحك : « دعك من هذا ياحسنائى ولا تغضبى ، فان كلينا فى الحقيقة قد خلق للآخر .. »

فقالت مغتصبة ابتسامة : « ذَلك بالضبط هو ما كان يدور بخلدى فى الحقيقة » .

ثم استرسل قائلا فى صوت حاد وهو يضحك بكل قوته : « ألست أظرف مخلوق فى الوجود ياجياكومو ؟ فانك تجدين فى كل ما تتمنين. ولكن عليك أن تعرفى كيف تكسبين رضاى . هذا هو كل ماهنالك . هيا .. اعطنى الآن قبلة . ثم اتكأ الى الامام واضعا ذراعه حول خصر جيزيلا فأخرجت من حقيبتها منديلا أزالت به عن فمها أحمر الشفاه ثم قبلته على شفتيه معتذرة . وبينما كانت تقبله أخذ يلوى أصابعه بحركة تشنجية متظاهرا بالاختناق ومحيلا الموقف كله الى مشهد هزلى . ثم ما لبثا أن انفصلا فى الحال تقريبا. وعاد

يحرك السيارة من جديد بحركات بطيئة قائلا : « ها نحن ننطلق من جديد ! وأقسم انني لن أكون سببا فى شكواك منى بعد ذلك فسأكون غاية فى الحزم وآية فى حسن السلوك شأن الجنتلمان الاصيل . ويمكنكم أن تضربونى ان ساء سلوكى » . ثم انطلقت السيارة من جديد .

وظل طوال الطريق يتحدث ويضحك ضحكا مدويا بل ويرفع يديه عن عجلة القيادة ليشير بهما مما كان يعرضنا لخطر وشيك . أما جارى فانه على العكس من ذلك قد عاد بعد تدخله المقتضب الى التزام الصمت فى ركنه المظلم . وعندئذ لشد ما احسست بنفسى منجذبة اليه وقد توترت أعصابى على صورة غريبة .. وانى أرى الآن وأنا أعود بذاكرتى الى تلك اللحظة اننى حينئذ وقعت أسيرة هواه أو على الاقل أخذت أربط بينه وبين جميع الاشياء التى كنت أحبها ولم انلها قط حتى ذلك الوقت . فلابد أن يكون الحب كاملا قبل كل شىء وليس مقصورا على الاشباع الجسدى . وكنت لاازال أنشد الكمال الذى خيل لى من قبل اننى وجدته فى جينو . ولعلها كانت المرة الاولى .. لا منذ احترافى تلك المهنة فحسب ، بل فى حياتى بأسرها .. التى صادفت فيها رجلا لهمثل صوته وآدابه . فلا شك ان الرسام البدين الذى وقفت له فى البداية كان يشبهه الى حد ما ولكنه كان أهدأ منه وأقوى سيطرة على نفسه . وعلى أية حال فلو شئت لوقعت فى غرامه أيضا . لقد أثار فى نفسى صوت ذلك الشاب وأسلوبه تلك الاحساسات التى خالجتنى عندما ذهبت لاول مرة الى فيللا مخدومة جينو ولكن على صورة مختلفة . فمثلما احسست بافتتان خارج عن المألوف ازاء ما يسود الفيللا من نظام وراحة ونظافة وخيل لى ان المرء ما لم يستطع أن يقيم فى منزل كهذا فان الحياة تبدو غير جديرة بأن يحياها .. كذلك الآن فلشد ما جذبنى اليه فى شغف صوته وحركاته الرقيقة وكل ماكانت تنبىء به سمات شخصيته . ولقد تحركت فى نفس الوقت رغبتى الجسدية فتمنيت أن تلمسنى يداه وأن تقبلنى شفتاه . وأدركت ان ذلك المزيج العنيف الذى يفوق الوصف من الامانى القديمة والرغبة الحالية التى هى جوهر الحب ورفيقه الذى لا مناص منه كان يعتمل فى نفسى بالفعل . ولكننى لشد ما خشيت أن يلاحظ شعورى فيهرب منى . ودفعنى الخوف الى أن أمد يدى نحوه لعله يمسك بها ويضغط عليها . ولكن يديه لم تكترثا للمسة

أصابعى المرتبكة التى كانت تحاول أن تتشابك مع أصابعه . ولشد ما انتابنى الارتباك لاننى لم أشأ أن أسحب يدى بعيدا و لكننى أحسست فى نفس الوقت أننى مضطرة الى ذلك ما دمت لم أجد فيه بادرة تدل على الحياة . وعندما انحرفت السيارة بعنف فى أحد المنحنيات ارتمى كلانا على الآخر وتظاهرت بأننى فقدت توازنى فارتميت برأسى على ركبتيه . فارتعش ولكنه لم يتحرك . ولشد ما أمتعتنى حركة السيارة فقد أغمضت عينى ودفعت بوجهى بين يديه لاغرق بينهما كما يفعل الكلب ثم قبلتهما وحاولت أن اجعلهما تربتان على وجهى بلمسة عاطفية تمنيت أن تكون تلقائية . فأدركت اننى قد فقدت صوابى وأدهشنى على صورة غامضة أن تؤدى بضع كلمات رقيقة الى مثل هذه الحالة من الاضطراب . ولكنه لم يمنحنى تلك اللمسه التى لشد ما استجديتها فى ذلة ثم ما لبث أن سحب يديه . وفى الحال توقفت السيارة .

فوثب الرجل الاشقر الى الخارج وعاون جيزيلا على الهبوط من السيارة فى مجاملة كاذبة . وهبطنا نحن أيضا . ثم فتحت الباب الامامى ودخلنا الفناء . وقاد الرجل الاشقر الطريق صاعدا الدرج هو وجيزيلا . وكان قصير القامة ممتلىء الجسم فبدا وكأن ملابسه توشك أن تتفزر عن جسده رغم انه لم يكن بدينا وكانت جبزيلا أطول منه قامة . وعند منتصف الطريق تراجع خطوة الى الخلف حيث أمسك بثوب جيزيلا من حاشيته ورفعه الى أعلى كاشفا عن فخذيها البيضاوين وقد أحاط بهما رباطا الجوربين وعن ردفيها الصغيرين النحيلين . وهتف قائلا وهو ينفجر ضاحكا : « ارتفع الستار ! » ولكن جيزيلا لم تزد على أنزلت ثوبها مرة أخرى باحدى يديها . وخيل لى أن رفيقى لا يمكن أن يستسيغ مثل هذا السلوك الفظ كما أردته أن يعلم اننى أيضا لا أستسيغه .

فقلت : « ان صديقك شديد المرح » .

فأجابنى فى اقتضاب قائلا : « نعم » .

ـ « من الواضح أن كل شىء يدور أمام عينيه » .

ودخلنا الشقة على أطراف أصابعنا حيث قدتهم رأسا الى غرفتى. وعندما أغلق الباب وقف أربعتنا لحظة هناك . ولما كانت الغرفة صغيرة الحجم فقد بدونا أكثر عددا مما كنا . وكان الرجل الاشقر أسبقنا الى استعادة هدوئه ورباطة جأشه اذ جلس على الفراش واخذ يخلع ملابسه فى الحال وكأنه لا شأن له بأحد . وكان يتحدث

عن غرف الفنادق والغرف الخاصة وهو يقص علينا احدي مغامراته الاخيرة قائلا : « فخاطبتني قائلة : أنا سيدة أصيلة ـ ولا أبغى الذهاب الى فندق » فقلت لها : « ان الفنادق مملوءة بالسيدات الاصيلات » فقالت : « ولكنى أرفض الادلاء باسمى » فقلت : « سأدخل في روعهم أنك زوجتي . فلا يهمني ان زادت زوجاتي واحدة أو نقصن واحدة » . فذهبنا الى الفندق حيث أوهمتهم انها زوجتي ثم صعدنا الى غرفتنا .. ولكنى ما ان شرعت فى مضاجعتها حتى أخذت تقص على قصة طويلة .. انها نادمة الآن على ذلك ، وانها تأبى المضاجعة ، وانها سيدة محترمة فى الحقيقة . فنفد صبري وحاولت اغتصابها . وليتني ما فعلت ! اذ انها فتحت النافذة وهددت بالقاء نفسها . فقلت : « حسنا . فقد أخطأت باصطحابك الى هنا » . ثم جلست على الفراش وأخذت تنشج بالبكاء وتروى لى قصة مؤثرة خليقة بأن تنفطر لها قلوبكم . ولكنكم ان شئتم أن تعرفوا موضوع تلك القصة فذلك ليس فى امكاني اذ انني نسيتها . كل ما أذكره انني أحسست بفيض من النبل والخير حتى كدت أجثو على ركبتي طالبا الصفح لتصورها على غير حقيقتها فقلت : « اننا الآن متفقان فى الرأى تماما ولن نفعل شيئا ، بل سنضطجع على الفراش فحسب وننام كل على حدة » . وهكذا حسم الامر وما لبثت أن استغرقت فى النوم . ولكن الليل ما كاد ينتصف حتى استيقظت وتطلعت الى ناحيتها . فلم أجدها ثم التفت الى ملابسى فاذا بها مشعثة . ففتشت جيوبى ووجدت ان محفظتى قد اختفت أيضا . لقد كانت سيدة بحق ! ولشد ما كان ضحكه معديا حتى أضطررت أنا وجيزيلا الى الضحك أيضا ازاء بهجته اللانهائية . وكان قد خلع حلته وقميصه وجوربه وحذاءه ووقف مرتديا سراويله الرمادية القاتمة التى أحكمت على جسده من رسغى قدميه حتى عنقه مما جعله يبدو كالبهلوان أو راقص الباليه . وقد زاد من مظهره الهزلى ذلك الرداء الذى يرتديه عادة كبار السن . وما ان وقع بصرى على منظره حتى نسيت قسوته وكدت اشعر بالميل نحوه اذ انني كنت لا أفتأ أميل الى المرحين من الناس كما كنت بطبعي اكثر ميلا الى المرح مني الى الكآبة . وبدا يختال فى أرجاء الغرفة بقامته القصيرة وبنيته القوية مزهوا بسراويله وكأنها زى عسكرى . وفجأة وثب من الزاوية التى بها خزانة الملابس الى الفراش فهوى فوق رأس جيزيلا التى صرخت فى دهشة ثم ألقى

بها الى الخلف وكأنه سيضاجعها . ولـكنه بينما كان لا يزال يحوم فوقها على أربع اذا به يرفع وجهه الاحمر المنفعل بحركة هزليـة وكأنه قد لاح له خاطر ما ثم يدير بصره الى الخلف نحونا كما يفعل القط قبل أن يشرع فى تناول طعامه ثم يسـألنا قائلا : « ماذا تنتظران ؟ » .

فنظرت الى رفيقى قائلة : « هل أخلع ثيابى ؟ » .

وكان لا يزال مرتديا معطفه وقد رفعت ياقتـه حول عنقـه . فأجابنى قائلا فى رجفة : « لا ، لا ، بل بعد انتهائهما » .

ـ « هل نذهب الى الغرفة المجاورة ؟ »

ـ « نعم » .

فصـاح الرجل الاشقر قائلا وهو ما زال يحوم فوق جيزيلا : « اذهبا فى نزهة بالسيارة . ولسوف تجدان المفاتيح هناك ».ولكن صديقه تظاهر بأنه لم يسمعه وغادرنا الغرفة .

ودلفنا الى الغرفة الخارجية حيث أشرت له بالانتظار ثم دخلت غرفة الجلوس حيث كانت أمى جالسة الى المائدة فى الوسط تمارس بمفردها لعبة بالورق تدعى « بيشـانس » . وما ان رأتنى حتى نهضت وغادرت الغرفة متجهة الى المطبخ دون ان تنتظر منى كلاما. فاختلست النظر خلال الباب وأخبرت الشاب انه يمكنه الدخول .

ثم اغلقت البـاب وذهبت لأجلس على الاريكة فى ركن الغـرفة بالقرب من النافذة . كنت اريده أن يجلس بجانبى ويضمنى اليه فى رفق فهكذا كان يفعل الآخرون دائما . ولـكنه لم ينظر حتى تجاه الاريكة . بل اخذ يذرع الغرفة من حول المائدة جيئة وذهابا وقد دس يديه فى جيبيه . وخيل لى انه ربما سئم الانتظار، فقلت : « يؤسفنى انه ليس لدى سوى غرفة نوم واحدة يمكننىاستخدامها»

فوقف ساكنا . ثم سألنى قائلا فى استيـاء ولـكن فى رقة : « وهل قلت اننى أريد غرفة ؟ » .

ـ « كلا .. ولـكننى حسبت ـ » .

ثم دار حول الغرفة بضع دورات . ولم يعد فى مقدورى ان اكبح جماح نفسى فسألته قائلة وأنا أشير الى الاريكة : « لم لا تأتى وتجلس هنا بجانبى ؟ »

فنظر الى وقد بدا عليه انه يحزم امره ثم جاء ليجلس بجانبى . وسألنى قائلا :

ـ « ما اسمك ؟ .. »

« آدريانا .. »

قال وهو يمسك بيدى « انا جياكومو . »

وكان ذلك أمرا غير مألوف . فخطر لى مرة أخرى انه كان حييا. وتركته يمسك بيدى وابتسمت له مشجعة .

قال : اذن فعلينا أن نمارس الهوى بعد قليل .

ـ « نعم » .

ـ « ولنفرض اننى لا أريد ذلك ؟ »

فأجبته قائلة باستخفاف ظنا منى انه يمزح فحسب : « اذن فلن نفعل » .

فأجابنى مؤكدا : « حسنا . ابغى الا نفعل . فليست لدى اقل رغبة فيه » .

فقلت : « كما تشاء » . ولكن اباءه كان شيئا جديدا على فلم افهم ماذا يقصد .

قال : « أيسيئك ذلك ؟ فالنساء يكرهن أن يرفض طلبهن » .

وأخيرا فهمت ما يعنيه وهززت رأسى عاجزة عن النطق . اذن فهو لا يريدنى . وفجأة احسست باليأس وكدت انفجر باكية . فتلعثمت قائلة : « لا يسيئنى ذلك مطلقا . ان لم تكن لديك الرغبة ، فلننتظر حتى ينتهى صديقك وعندئذ يمكنك أن تذهب » .

فاحتج قائلا : « لست ادرى . فانى أضيع وقتك ، بينما كان فى امكانك أن تنالى شيئا من رجل آخر » .

وخيل لى انه ربما كان عاجزا عن المضاجعة لا راغبا عنها . فقلت : « ان لم تكن معك النقود فلا يهم ذلك . اذ يمكنك أن تنقدنى أجرى فى مناسبة أخرى » .

فقال : « انك فتاة طيبة . ولكننى املك النقود . وفى الواقع ـ انظرى ـ فانى مع ذلك سأنقدك أجرك حتى لا ابدو وكأنى قد أضعت المساء . ثم دس يده فى جيب سترته واخرج رزمة من الاوراق المالية التى بدت وكأنها معدة من قبل ثم ذهب ليضعها على المائدة بعيدا عنى بحركة مرتبكة ولكنها كانت مع ذلك رشيقة مزدرية .

فاحتججت قائلة : « لا ، لا ! لماذا تنقدنى أجرى ؟ بل دعنا ننسى هذا الامر » . ولكننى قلت ذلك بلهجة هزيلة لانى فى قرارة نفسى لم اشعر قط بالاسف لقبولى نقوده .. فهى حلقة اتصال دائمة بينى وبينه . اذ اننى لما كنت الآن مدينة له فلن يفتأ يراودنى الامل فى أن ارد له دينه . وحمل رفضى المتخاذل على محمل القبول

وكذلك كان فى الواقع . فلم يلتقط النقود بل تركها على المائدة وجاء ليعاود جلسته على الاريكة فمددت يدى لامسك بيده رغم احساسى بأنه عمل محرج سخيف فتبادلنا النظر لحظة . واذا به فجأة يلوى خنصرى بأصابعه الطويلة النحيلة لوية قـــوية فقلت فى غضب : « آه . ماذا دهاك الآن ؟ » .

فأجابنى قائلا : « انى آسف » . ولشـــدما بدا عليه الارتباك حتى اننى أسفت لتعنيفه بهذه القسوة .

قلت : « أتعلم انك آلمتنى ؟ » .

فرد قائلا : « انى آســف » . ثم انتـــابه اضطراب مفاجىء فنهض واقفـــا مرة أخرى وأخذ يذرع الغرفة جيئة رذهابا . ثم توقف أمامى وسألنى قائلا : « هل نخرج ؟ فان هــذا الانتظار فى الحقيقة يثير أعصابى » .

ــ « الى أين تذهب ؟ »

ــ « لست أدرى .. هل نذهب فى نزهة بالسيارة ؟ »

وتذكرت نزهى فى السيارة مع جينو فأسرعت بالاجابة قائلة : « كلا .. لا بالسيارة » .

ــ « فلنذهب الى مقهى . أليس هناك بعض المقاهى بالقرب من هنا ؟ .. »

ــ « انها ليست بالقرب من هنا على وجه التحديد . ولـــكننى أعتقد ان هناك محلا خارج البوابات تماما .. »

ــ « اذن فلنذهب اليه » .

فنهضت واقفة وغادرنا غرفة الجلوس . وبينما كنا فى طريقنا الى الخارج حاولت أن أمزح معه قائلة : « فلتعلم ان تلك النقود التى أعطيتنى اياها تخولك الحق فى المجىء لرؤيتى وقتما تشاء . هل اتفقنا ؟ » .

ــ « اتفقنا » .

وكانت ليـــلة معتدلة رطبة مظلمة من ليالى الشتاء . وقد ظـــل المطر ينهمر طوال النهار فغطت الطريق الممهد برك كبيرة ســوداء من المـــاء انعكست عليهـــا أضــواء ثابتة من المصـــابيح القليلة فى الطريق . وكانت السماء صـــافية فوق الاسوار ولـــكنها لم تكن مقمرة بل كانت تلمع فيها بضعة نجوم من خلال الضباب على صورة غامضـــــة . ومن وقت لآخر كانت عـــربات الترام غير المرئيـــة تمر خلف الاسوار بينما لا يفتأ يتناثر من أسلاكها الـكهربية وميض

حتى يلقي ضوءا خاطفا على السماء والابراج المهدمة ودعائم المبانى المكسوة بالخضرة . وعندما خرجت الى الطريق تذكرت اننى لم اذهب فى اتجاه حديقة الملاهى شهورا عديدة . بل كنت عادة انحرف يمينا صوب الميدان حيث أقابل جينو . كما تذكرت اننى لم أذهب فى اتجاه مدينة الملاهى منذ صباى . وكنت حينذاك أخرج للنزهة مع أمى حيث نصعد الطريق الواسع أسفل الاسوار ونذهب للاستمتاع بالاضواء والموسيقى دون أن نجرؤ على الدخول لافتقارنا الى النقود . وكانت تقع فى ذلك الجانب من الطريق الرئيسى تلك الفيللا ذات البرج الصغير التى لمحت فيها من خلال نوافذها المفتوحة أسرة كان أفرادها يجلسون حول المائدة ـ تلك الفيللا التى جعلتنى احلم بالزواج لاول مرة ـ البيت والحياة الطبيعية الخاصة . واحسست انى منساقة الى التحدث مع رفيقى عن ذلك العهد وعن شبابى وعن آمالى لا بدافع عاطفى فحسب كما يجب أن اعترف بل بدوافع أخرى مفرضة . فلم أشأ أن يتخذ من المظاهر أساسا للحكم على بل أردت أن يرانى فى ضوء أفضل حسبته أقرب الى الحقيقة . فبعض الناس يرتدون أبهى ملابسهم ويستقبلون زوارهم المكرمين فى أفخر غرف المنزل . وكان عهد صباى بما فيه من أحلام ومطامح يمثل عندى أبهى الثياب وغرف الاستقبال . واعتمدت على ذكرياتى رغم جدبها الشديد وافتقارها الى التشويق فى تغيير رأيه فى وتقريبه منى .

فقلت اثناء سيرنا : « ان هذا الجانب من الطريق لا يؤمه أحد . اما فى الصيف فان أهل الحى جميعا يخرجون للنزهة فيه . وقد الفت ذلك منذ زمن بعيد . فكان لابد من وجودك لاعود اليه من جديد » .

وكان ممسكا بذراعى ليعاوننى على اجتياز الطريق الممتلىء بالماء .

فسألنى قائلا : « ومن كنت تصحبين ؟ » .

ـ « أمى » .

فأخذ يضحك بطريقة بغيضة دهشت لها .

وراح يردد مشددا على حرف « الميم » قائلا : « امى . فهناك دائما أمى . أمى . أمى . ماذا تقول أمى ؟ وماذا تفعل أمى ؟ أمى . أمى »

وخيل لى أنه ربما كان هناك سبب خفى لشعوره بالاستياء نحو

امه . فسألته قائلة :
ـ « هل أساءت اليك أمك ؟ »
فأجاب قائلا : « كلا لم تفعل شيئا . فالامهات لا يفعلن شيئا مطلقا. هل يمكنك أن تذكرى لى شخصا لا أم له ؟ أتحبين أمك ؟ »
ـ « بالطبع ·· لماذا ؟ »
فاسرع بالاجابة قائلا : « لا شيء . لا تكترثى لى . بل استرسلى فى حديثك اذن .. فقد تعودت الخروج مع أمك .. »
ولم تكن نغمة صوته مطمئنــة او مشجعة . ومع هــذا فقــد احسست بنفسى منساقة الى الاسترسال فى سرد ذكرياتى يدفعنى الى ذلك عاملان : ميلى اليه وحبى لنفسى .
ـ « نعم · لقد تعودنا الخروج معا وخاصـــة فى الصيف عندما يصير الجو خانقا فى شقتى · انظر ·· أترى تلك الفيللا الصغيرة هناك ؟ ·· »
فوقف ساكنا وهــو يتطلع ببصره · ولــكن نوافذ الفيللا كانت مغلقة حتى بدت وكأنها مهجورة. وظهرت لعينى أصغر مما تصورتها بل قبيحة ومخيفة الى حد ما وهى محصورة بين المنازل الممتــدة الخفيضة التى يسكنها عمال السكك الحديدية · فقال :« ماقصتها ؟ »
والآن كاد يعرونى الخجل مما كنت موشكة على ذكره .
فأردفت قائلة فى مشقة : « لقد تعودت أنأمر بها كل مســاء · ولما كان الوقت صيفا كما قلت فقد كانت النوافذ مفتوحة .. وكنت أرى من خلالها أسرة جلس أفرادها لتنــاول الطعــام ، ثم ·· »
ثم توقفت عن الكلام وقد انتابنى الارتباك فجأة ·
ـ « ثم ماذا ؟ »
فقلت وقد خالجنى فى خجلى مزيج من الاخلاص والمـكر : « ان كل ذلك لا يثير اهتمامك » .
ـ « لماذا ؟ فانى أهتم بكل ما تقولين · »
فأردفت قائلة على عجل : « حسنا . اذن فقد اختمر فى ذهنى انى فى يوم من الايام سأملك بيتا صغيرا كهذا أو سأحذو حذو تلك الاسرة فى حياتها تماما كما تعودت أن أراها » .

فهتف قائلا : « آه . لقد فهمت ! بيت صغير كهذا .. ولــكنك كنت متواضعة فى مطمحك » .
فقلت : « انه ليس قبيحا اذا ما قورن بمنزلنا الذى نقيم فيه الآن · كما أن المرء فى تلك السن تختمر فى ذهنه أفكار كثيرة » ·

فجذبني من ذراعي نحو الفيللا قائـلا : « فلنذهب لنر ان كانت تلك الاسرة لم تزل تقيم فيها • »
فقلت : « بالله ماذا تقصد ؟ فهم هناك بالطبع » .
ـ « حسنا •• فلنر • »
ووصلنا الى خارج الفيللا تماما • وكان الظلام يسود الحديقة الكثيفة الضيقة كما يغمر النوافذ والبرج الصغير . فاتجه الى البوابة قائلا : « بل ان هناك صندوقا للبريد . فلندق الجرس ولنر ان كان هناك أحد في الداخل . ومع ذلك .. فان منزلك الصغير هذا يبدو مهجورا • »
فقلت ضاحكة ـ « كلا • لاتفعل شيئا • فماذا دهاك ؟ »
ـ « فلنحاول • » ثم رفع يده وضغط على جرس البـاب • فأحسست بالرغبة في الركض بعيدا خشية أن يأتي أحد. وتوسلت اليه قائلة : « فلنمض من هنا ! فلنمض من هنا ! فانهم سيطلون علينا الآن . وماذا سيقولون عنا ؟ »
فردد قائلا وكأنه قرار موسيقى منقادا لي وأنا اجذبه بعيدا في قوة : « ماذا تقول أمي هه ؟ ماذا تفعل أمي ؟ »
فقلت مهرولة بالمسير : « ان أمك تسيطر على ذهنك ! »
وبلغنا حديقة الملاهي . وتذكرت آخر مرة ذهبت اليها . وكان هناك زحام كبير من الناس الذين يتدافعون بالمناكب وقد تدلت المصابيح الملونة من الحبال في دوائر ومنحنيات وأضيئت الاكشاك بالآسيتيلين وازدانت السرادقات وصدحت الموسيقى • ولقد خاب أملي الى حد ما عندما لم أجد شيئا من ذلك . فقد بدا لي ان السور لم يكن يحيط بحديقة الملاهي بل بأرض مظلمة مهجورة جعلت مستودعا لمواد البناء . كما بدت من فوق السور اقواس الخطوط الحديدية الملتوية المتعرجة وقد علاها مقعد هنا ومقعد هناك مما كان لايزال معلقا فوقها وكأنها حشرات انتفخت بطونها وأصابها شلل مفاجيء فتوقفت عن الطيران . كما كانت السطوح الخفيضة المدببة للسرادقات المطفأة التى تشربت مياه الامطار توحي بالنوم والخمول . فقد بدا كل شيء ميتا . وقد حق عليه هذا الوصف اذ ان الوقت كان شتاء . كما كان الفضاء المكشوف أمام حديقة الملاهي مهجورا تغطيه برك من الماء . وثمة مصباح واحد من مصابيح الطريق كان يرسل ضوءا خافتا .
قلت : « هذه مدينة الملاهي التى تعمل صيفا ولا يفتأ يؤمها

الناس في جموع كبيرة . ولكنها لا تعمل شتاء . فالى أين نذهب؟»
- « ما رأيك في ذلك المقهى هناك ؟ »
- « انها حانة فى الحقيقة .. »
- « أذن فلنذهب اليها .. »

ومررنا أسفل بوابة المدينة حيث راينا فى مواجهتنا بابا زجاجيا مضاءا فى الطابق الارضي وسط صف من المنازل الصغيرة . ولم ادرك الا عندما دخلت المحل انه ذلك المقهى الذى تناولت فيه وجبة مع أمى وجينو وأنذر فيه جينو ذلك الشاب المخمور المزعج بأن يلزم حدوده . ولم يكن هناك سوى اثنين او ثلاثة من الرواد الذين جلسوا الى الموائد المكسوة بالرخام وراحوا يتناولون طعامهم من لفائف الصحف ويجرعون نبيذ المحل . وكان الجو فى الداخل أبرد منه فى الخارج وقد حمل الهواء رائحة المطر والنبيذ ونشارة الخشب . كما بدا لى ان المواقد كانت مطفأة . جلسنا فى احدى زوايا المطعم حيث أمر رفيقى بزجاجة من النبيذ .

فسألته قائلة : « ومن ذا الذى سيشرب زجاجة ؟ »
- « لماذا ؟ ألا تشربين ؟ »
- « انى لا أشرب الا قليلا .. »

فصب لنفسه قدحا ملأه حتى حافته ثم جرعه دفعة واحدة ، ولكن فى مشقة وبغير لذة . وقد أكدت لى تلك الحركة ما كنت قد لاحظته فيه من قبلَ .. انه يفعل كل شيء بقوة ارادته وبطريقة ظاهرية دون أن يسهم فيه بروحه وكأنه يؤدى دورا تمثيليا . ثم خيم علينا الصمت لحظة وهو لا يفتأ يخملق فى بنظرته الحادة اللامعة وأنا أدور ببصرى فى أرجاء المكان . وقد عاودتنى ذكرى ذلك المساء البعيد الذى قضيته فى الحانة مع أمى وجينو ولم أتأكد مما اذا كان شعورى أسفا أم سخطا . فلا شك اننى كنت وقتذاك أتسنم قمة السعادة ولكننى كم كنت مخدوعة ! واخيرا وصلت الى نتيجة بينى وبين نفسى بأن الامر كان أشبه بالضبط بفتح درج لم يمس أعواما طويلة ولكنك بدلاً من أن تعثر فيه على كل الاشياء الجميلة التى كنت تتمناها اذا به لا يحوى سوى خلق بالية وعثة وغبار . فقد انتهى كل شيء ، لا حبى لجينو فحسب بل شبابى وأحلامى الخائبة جميعا . وقد تبين صدق ذلك من قدرتى على استخدام ذكرياتى عن علم وتدبير فى التأثير على رفيقى .

قلت بلا مناسبة : « اننى لم أعجب بصديقك هذا الذى كان

معنا ولـكنني الآن أكاد أشعر بالميل نحوه .. فهو شديد المرح ».
فأجابني قائلا في اقتضاب : « أولا هو ليس صديقي . وثانيا لا ظرف فيه مطلقا . »
فانتابتني الدهشة لما تخلل صوته من عنف . وسألته قائلة في رقة : « أتظن ذلك ؟ »
فصب لنفسه قدحا ثم أردف قائلا : « عليك أن تتجنبي ذوي الفطنة المازحة من الناس كما تتجنبي الطـــاعون . فان مزاحهم عادة لا ينطوي على شيء .. اذ ينبغي أن تريه في مكتبه ! فهو لا يعرف المزاح هناك » .
— « أي نوع من المكاتب ؟ »
— « لست أدري .. لعله مكتب تسجيل .. »
— « وهل يربح كثيرا ؟ »
— « أموالا طائلة .. »
— ما أسعد حظه !
ثم صب لي قليلا من النبيذ . وسألته قائلة : « ولماذا تصاحبه ما دمت تبغضه الى هذا الحد ؟ »
فقال عابسا : « انه صديق الطفولة . فقد كنا نذهب معا الى المدرسة . وأصدقاء الطفولة جميعا على هذا النحو » .
ثم أضاف قائلا بعد أن تناول جرعة أخرى من النبيذ : « ومع ذلك فهو يفضلني في بعض النواحي » .
— « لمـاذا ؟ »
— « لانه عندما يقدم على عمل يؤديه في جد . أما أنا فانى أبغي القيام به أولا ثم . وفجأة تحول صوته الى نشاز فجفلت مدهوشة ثم أردف يقول : « ثم ما ان أواجه به حتى أعدل عنه . ففي هذا المساء مثلا — اتصل بي تليفونيا وسألني ان كنت أرغب في الخروج « لصيد » النساء كما يقولون — فوافقت . وعندما التقينا بكما احسست برغبـــة حقيقية في مضاجعتك . ولكننا ما ان عدنا الى شقتك حتى تلاشت رغبتي تماما » .
فرددت قائلة وأنا أنظر اليه : « تلاشت » .
— « نعم . انك لم تعودي امرأة في عيني .. بل جســـما مرئيا أو شيئا ما .. أتذكرين عندما لويت خنصرك وآلمتك ؟ »
— « نعم . »
— « حســـنا . لقد فعلت ذلك لارى ان كنت حقــا على قيـــد

الحياة ـ كما أنت الآن ـ حتى ولو كان ذلك عن طريق ايلامك . »
فقلت مبتسمة : « نعم . لاشك اننى كنت على قيد الحياة . فلشد ما آلمتنى .. »
والآن بدأت أفهم . فأحسست بالارتياح عندما أدركت انه لم ينصرف عنى لنفوره منى . ولكن أطوار النـــاس وطبائعهم على أية حال ليس فيها ما يستغرب . فما ان يحاول المرء أن يتفهمهم حتى يجد أن سلوكهم مهما كان غريبا فان الباعث عليه لا يفتأ يبدو مقبولا تماما . وأردفت قائلة : « اذن فأنا لم اعجبك ؟ » .
فهز رأسه قائلا : « كلا . حقيقة . فسواء أكنت أنت أم أية فتاة اخرى فلا فرق هناك مطلقا » .
ثم سألته بعد لحظة من التردد قائلة : « ولـكنك لست عنينا على أية حال » .
ـ « ياالهى . كلا ! »
والآن أحسست برغبة ملحة فى مضاجعته وازالة الغربة بيننـــا وتبادل الهوى معه . لقد أنكرت ان اباءه أساءنى ولكنه فى الواقع ان لم يسئنى فلا شك انه آلمنى وجرح كبريائى . اذ كنت أعلـــم اننى جميلة وجذابة ولم اصدق أن لديه سببا قويا يحول دون رغبته فى .
فقلت فى بساطة : « أنصت الى . فلنشرب النبيـــذ ثم نذهب الى المنزل لنمارس الهوى » .
ـ « كلا . فهذا محال . »
ـ « اذن فأنت تعنى اننى لم أجذبك حتى عندما رأيتنى فى الطريق لاول مرة ؟ »
ـ « ليس الامر كذلك .. ولكن فلتحاولى جهدك أن تفهمى . »
كنت أعلم ان ثمة حججا لا قبل للرجل بها . فرددت قائلة فى هــدوء متظــاهرة بالالم بينما مددت يدى فى نفس الوقت لاربت براحتى على وجهه : « من الواضح اننى لا أجـــذبك » . وكانت يداى تتميزان بالطول والضخامة والدفء . ولو صح ما يقال من أن شخصية المرء يمكن ان تتضح فى كفهفان كفى خلو من كل أثر للغلظة والجفاء على عكس جيزيـــلا التى احمرت يداها وخشن ملمســـهما وقبح شكلهما . ثم بدأت اتحسس وجنته وصدغيه وجبهته اسفل شعره دون أن تفارقه نظرتى لحظة فى الحاح رقيق وحنين عذب . وتذكرت ان ذلك كان مسلك آستاريتا نحوى فى الوزارة فأدركت

مرة اخرى اننى كنت حقا اسيرة هواه اذ انه لا شبيهة فى حب آستاريتا لى وكانت تلك هى حركة الحب ذاته . وظل ساكنا فى اول الامر لا تحركه لمساتى ثم اخذ ذقنه يرتعش علامة على انفعاله كما لاحظت ذلك فيما بعد وارتسم على وجهه تعبير حزين صبيانى للغاية . فامتلأت نفسى شفقة عليه وسررت لذلك الاحساس لانه يعنى اننى كنت أدنو منه وأتصل به . ثم تمتم قائلا : « ماذا تفعلين ؟ اننا هنا فى مكان عام » .

فأجبته قائلة فى هدوء : « وماذا يهمنى ؟ » .

وكانت وجنتاى ملتهبتين رغم برودة الجو فى الحانة . ولم تفتأ الدهشة تنتابنى كلما رأيت سحابة بخار صغيرة تنبعث من بين شفاهنا مع كل زفير . قلت : « أعطنى يدك » . فتركني على مضض أمسك بها فرفعتها الى وجهى قائلة : « أترى كيف تلتهب وجنتاى ؟ »

ولكنه لم يحر جوابا . بل نظر الى فحسب بينما راح ذقنه يرتجف . ودخل المحل شخص ما فدوى صليل الابواب الزجاجية وسحبت يدى . فتنهد فى ارتياح ثم صب لنفسه قليلا من النبيذ ولكننى لم ألبث أن مددت يدى مرة أخرى حالما تجاوزنا ذلك الدخيل ودسستها بين حافتى سترته حيث فككت ازرار قميصه ولمست صدره العارى بالقرب من قلبه قائلة : « اريد أن أدفىء يدى كما اريد أن أشعر بضربات قلبك » . ثم أدرت يدى ولمسته تارة بظهرها وتارة براحتها . فقال وهو ينظر الى : « يدك باردة »

فابتسمت قائلة : « ولكنها لن تلبث الآن أن تدفأ » ومددت ذراعى ثم مررت بيدى فى بطء على صدره وضلوعه الرقيقة فأحسست بسعادة غامرة لانى كنت أعلم انه قريب منى . وامتلأت نفسى بالحب له حبا فياضا أغنانى عن حبه اياى . فأنذرته قائلة فى مزاح وانا أحملق فيه : « لن ألبث أن اقبلك » .

فعارضني قائلا وهو يحاول أن يضحك أيضا رغم ذعره الحقيقى : « لا . لا ! حاولى أن تتحكمى فى نفسك ! » .

ــ « اذن فلننصرف . »

ــ « حسنا .. فلننصرف ان شئت . »

ودفع ثمن زجاجة النبيذ التى لم تزل فيها بقية ثم غادر الحانة فى صحبتى . والآن كان يبدو عليه الانفعال على طريقته الخاصة

لا بسبب الحب كما كان الحال معى بل بسبب اضطراب غريب أثارته فى ذهنه أحداث المساء . ولقد اكتشفت فيما بعد عندما توطدت معرفتى به أن ذلك الاضطراب كان لا يفتأ ينتابه كلما صادف لسبب أو لآخر ظاهرة فى شخصيته كان لا يزال يجهلها أو ازداد المامه بها لانه كان أنانيا الى أقصى الحدود ولكن بطريقة جذابة ـ أو الاحرى انه كان مستغرقا فى ذاته . بدأ حديثه قائلا وكأنه يحدث نفسه بينما كنت أصحبه الى المنزل بخطى مهرولة تكاد تكون راكضة ـ « هكذا الحال معى دائما . فلشد ما أتوق الى اتيان عمل ما ويملؤنى الحماس له . كما يبدو كل شيء خاليا من العيوب ولا يراودنى شك فى اننى سأنفذ ما اعتزمت . وما ان تحين اللحظة التى يتعين على أن أعمل فيها حقا حتى ينهار كل شيء فأبدو وكأنى لا وجود لى ـ أو الاحرى ان وجودى يقتصر على الجوانب السيئة منى ـ فأصير باردا خاملا قاسيا ـ كما حدث لى عندما لويت خنصرك » .

كان يتحدث بلهجة شاردة على صورة مناجاة ولعله كان يحس بنوع من الرضا المرير . ولكننى لم أكن أنصت اليه فلشد ما استخفنى الفرح حتى رحت أسرع الخطى عبر برك الماء بقدمين مجنحتين . فقلت فى بهجة : « لقد قلت لى كل ذلك من قبل . أما أنا فلم أكاشفك بشعورى . فانى أريد أن اضمك الى بقوة وادفئك بجسدى وأحس بوجودك بجانبى واحملك على أن تفعل ما لا تبغى .. ولن أشعر بالسعادة حتى تفعل ذلك » .

فلم ينبس بشيء بل بدا وكأنه لم يسمع ما كنت أقول فلشد ما كان مستغرقا فى تأمل ما كان يقوله هو نفسه . وفجأة دسست ذراعى حول خصره قائلة : « هلا وضعت ذراعك حول خصرى؟ »

فبدا وكأنه لم يسمعنى . فتناولت ذراعه ووضعتها حول خصرى بقدر امكانى بنفس الطريقة التى أرتدى بها سترتى . وواصلنا سيرنا فى ارتباك لان كلا منا كان يرتدى معطفا شتويا ثقيلا ولا تكاد ذراعانا تحيطان بخصرينا .

وعندما صرنا اسفل البرج المقام فوق الفيللا الصغيرة توقفت عن المسير قائلة له : « أعطنى قبلة » .

فأجابنى قائلا :

ـ « فيما بعد .. »

ـ « أعطنى قبلة .. »

فاستدار نحوى وقبلته بعنف واضعة كلتا ذراعى حول عنقه ، وكانت شفتاه مطبقتين فدفعت بينهما لسانى ثم دفعته بين أسنانه التى لم تلبث أن انفرجت . لم أكن واثقة من انه سيبادلنى التقبيل ولكننى لم أكن أبالى كما سبق أن قلت . ثم افترقنا فرأيت حول فمه بقعة من أحمر الشفاه حمراء كبيرة متعرجة جعلت وجهه الجاد يبدو غريبا مضحكا . فانفجرت ضاحكة فى سعادة .

فتمتم قائلا : « لماذا تضحكين ؟ »

فترددت ثم قررت الا أصارحه بالحقيقة لاننى كنت اتمتع بمشاهدته وهو يهرول بجانبى فى جد شديد غافلا تماما عن تلك البقعة المرتسمة على وجهه .

فقلت : « لا شىء . بل انى سعيدة ـ لا تكترث لى » . ثم منحته قبلة أخرى سريعة على فمه يخالجنى شعور بأنى أتسنم ذرا العالمين .

ولكننا ما أن بلغنا الباب الامامى حتى اكتشفنا أن السيارة قد اختفت .

فقال فى شىء من الضيق ـ « الآن وقد رحل جيانكارلو فسأضطر الى السير أميالا لابلغ المنزل . »

ولكننى لم أدع لهجته القاسية تزعجنى . اذ كان لا يمكن لشىء أن يسيئنى الآن . فان أخطاءه صارت تبدو لى فى ضوء خاص يجعلها محببة تماما كما يحدث عندما يقع المرء أسير الهوى .

فقلت هازة كتفى : « هناك الخدمة الليلية للترام . كما يمكنك البقاء والنوم معى ان شئت » .

فأسرع يجيبنى قائلا : « لا . لا . ليس هذا » .

ثم دخلنا المنزل وصعدنا الدرج . وما ان بلغنا الردهة حتى دفعته الى داخل غرفتى . وأخذت أختلس النظر بسرعة الى داخل غرفة الجلوس . فاذا بها مظلمة فيما عدا النافذة حيث تسلل شعاع من أحد مصابيح الطريق فأضاء المقعد وماكينة الخياطة . فلا ريب أن أمى قد أوت الى فراشها وتساءلت ان كانت قد رأت جيزيلا وجيانكارلو وتحدثت اليهما . ثم اغلقت الباب مرة أخرى ودخلت غرفتى . فاذا به يذرع الغرفة فى قلق ما بين الفراش وخزانة الملابس .

قال : « انصتى . يحسن بى أن انصرف » .

فتظاهرت بأنى لم أسمعه وخلعت سترتى ثم علقتها . ولشد ما أحسست بالسرور حتى اننى لم أتمالك نفسى من أن أقول بكل خيلاء ربة الدار : « ما رأيك فى هذه الغرفة . أليست مريحة ؟ »

وأخيرا أجال بصره فى الغرفة ثم صعر وجهه بطريقة لم أفهمها. فأمسكت يده وأجلسته على الفراش قائلة : « الآن دع لى كل شىء » . فنظر الى وهو جالس هناك وقد رفعت ياقة معطفه ودست يداه فى جيبه . فخلعت عنه معطفه منحية اياه فى عناية وحرص ثم خلعت سترته وعلقتهما على حمالة الملابس ، وحللت رباط عنقه فى تؤدة ثم نزعت عنه قميصه وبه رباط العنق وعلقته على أحد المقاعد . وبعد ذلك جثوت على ركبتى واضعة قدمه فى حجرى كما يفعل الاسكاف ونزعت حذاءه وجوربه ثم قبلت قدميه. وكنت قد بدأت ذلك العمل فى بطء وترتيب ولكن نوعا من جنون الذلة والخشوع أخذ ينتابنى رويدا رويدا وأنا أخلع له ملابسه . ولعله نفس الشعور الذى خالجنى عندما ركعت فى الكنيسة . ولكنه راودنى لاول مرة ازاء رجل فأحسست بالسعادة لاننى تأكدت من ان ذلك هو الحب الطاهر البعيد كل البعد عن الشهوانية والرذيلة . وعندما تجرد من ثيابه ركعت بين فخذيه وأحطته بذراعى متحسسة جسده وكأنى ممسكة بين يدى بزهرة غامضة ثم ضغطت لحظة بوجنتى وشعرى على بدنه فى قوة وقد أغمضت عينى .

وتركنى أفعل ما أشاء . ولشد ما أمتعنى تعبير وجهه الحائر المذهول . ثم نهضت واقفة وذهبت الى خلف الفراش حيث خلعت ملابسى بسرعة وتركتها تسقط جميعا على الارض ثم وطئتها بقدمى. وكان لايزال جالسا على حافة الفراش وهو يرتجف منكسا عينيه . فجئت من خلفه وقد تملكتنى نوبة مرحة من العنف فأمسكت به ودفعته فسقط على الفراش ملقيا رأسه على الوسائد وكان جسده طويلا نحيلا أبيض البشرة . والاجساد كالوجوه لها تعبيرها الخاص وكان تعبيره غضا عفيفا . ثم تمددت بجانبه وقد حاذى جسدى قامته بطولها وشعرت كم كان جسدى متأجج الحواس قوى البنية أسمر البشرة ملفوف القوام بالقياس الى نحوله وهزاله وبروده وبياضه . تشبثت به فى عنف وضغطت بجسدى على حقويه ثم ألقيت بذراعى على صدره وقد التصق وجهى بوجهه ولامست شفتاى أذنه . أحسست وكأنى لا أريد مضاجعته بل أن ألفه

بجسدى كالدثار الدافىء وأن أنفث فيه من لظاى . كان مضطجعا الى الخلف وقد ارتفع رأسه قليلا وفتحت عينـــاه وكأنه يريد أن يراقب كل ما كنت أفعله . وسرت نظرته الحادة فى عمودى الفقرى فتولانى شعور غريب بالضيق والقلق . ومع ذلك فانى لم أعرها بالا مدة لحظة لاننى كنت منقادة بدفعتى التلقائية الاولى .

وفجأة تمتمت قائلة : « ألا تشعر الآن بتحسن ؟ » .

فأجابني قائلا بلهجة بعيدة محايدة : « نعم » .

فقلت : « انتظر » .

ولـكننى فى نفس اللحظة التى اوشكت فيها على مُعانقته فىحماس متجدد اذا بىأحسمرة اخرى بنظرته الثابتة الباردة تمتد مشدودة على ظهرى وكأنها قطعة من السلك البارد المبتل فاعترانى الخجل فجأة وانتابتنى الحيرة . فخمد سعار النشوة فى بدنى وتراخىعناقى رويـــدا ثم تهاويت على ظهـــرى منفصـــلة عنه . لقـــد بذلت جهدا كبيرا فى مضاجعته وأودعتها كل ما فى القنوط الفطرى الساذج من قوة دافعة . فاغرورقت عيناى بالدموع عندما ادركت فجأة ان جهودى قد باءت بالفشـــل ووضعت ذراعى على وجهى لاخفى عنـــه بكائى . وكان واضحا اننى اخطأت فقد عجزنا عن ممارسة الهوى كما خيـــل لى ان حـــكمه على حقيقتى لا ريب خـــال من كل أثر للوهم . فعرفت الآن اننى كنت أعيش فى نوع من السحاب الذى صنعته من حولى حتى لا أرى صورتى منعكســـة على ذهنى . وأما هو فعلى العكس من ذلك قد بدد بنظراته ذلك السحاب ووضـــع المرآة مرة أخرى أمام عينى . ورأيت نفسى كما كنت على حقيقتى أو بعبارة أدق كما بدوت فى نظره بلا شك لاننى لم أكن أعلم شيئا ولا يدور بخلدى شىء عن نفسى . فاننى كما سبق أن قلت لم أكد أومن بوجودى .

واخيرا قلت : « اذهب » .

فنهض متكئا على احد مرفقيه ونظر الى فى ارتباك قائلا : « لماذا ؟ ماذا دهاك ؟ » .

فقلت فى هدوء دون أن ارفع ذراعى عن وجهى : « يحسن بك ان تذهب . ولا تعتقد اننى غاضبة منك ـ ولـكننى أرى انك لا تشعر بشىء نحوى ولذا ـ .. » ولم اتم عبارتى بل هززت رأسى .

فلم يحر جوابا ولـكننى احسست به وهو يتحرك تاركا مكانه بجانبى ليرتدى ملابسه . ثم شعـــرت بألم مبرح وكأن بى جرحا

عميقا وان شخصا ما أخذ يسبر جوفه بنصل حاد رفيع . فكنت أتألم وأنا أنصت اليه أثناء ارتدائه ملابسه وكنت أتألم عندما يدور بخلدى انه ذاهب الى الابد بعد بضع لحظات واننى لن أعود الى رؤيته وكنت أتألم لألمى ومعاناتى .

اخذ يرتدى ملابسه فى بطء ولعله كان يتوقع أن أدعوه مرة أخرى . وأذكر ان الامل راودنى لحظة فى استبقائه عن طريق استثارة رغبته فى . فقد كنت مضطجعة بجانبه والدثار يغطى جسدى . فاذا بى الآن أحرك ساقى فى دلال يائس وحزين لينزلق الدثار عن جسدى . ولم يحدث لى قط من قبل أن عرضت نفسى على تلك الصورة . واذا بى وافا أرقد هناك عارية فارجة ما بين ساقى واضعة ذراعى على عينى يكاد يراودنى وهم محسوس بأن يديه على كتفى وان فمه على فمى . ولكننى ما لبثت عندئذ ان سمعت الباب يغلق .

ظللت فى مكانى راقدة على ظهرى بلا حراك . واعتقد اننى انتقلت من الاسى الى نوع من الخمول ثم استغرقت فى النوم على غير وعى منى . ولكن ما ان تقدم الليل حتى استيقظت وادركت لاول مرة اننى وحدى . ففى خلال فترة نومى الاولى لم يفارقنى احساس بوجوده معى رغم ما عانيته من مرارة لرحيله . ثم عاودنى النوم على صورة ما .

الفصل الثانى

وفى اليوم التالى أدهشنى أن أجد نفسى فى حال من الهزال والكآبة
واللامبالاة وكأنى أتماثل للشفاء من علة لازمتنى شهرا كاملا. وكنت
أتميز بطبيعة مرحة . ولم يفتــأ مرحى الذى يرجع الى حيويتى
وصحتى الجسمانية يتغلب على كل ما حل بى من كوارث الى حد
ان احساسى بالمرح على الرغم منى حتى ولو كانت الظروف لا تبرر
ذلك حقا كان يضايقنى أحيانا . فكنت فى كل يوم مثلا حالما أستيقظ
من نومى أحس عادة بالرغبة فى الغناء أو فى سرد حديث أسلى به
أمى . ولكننى فى ذلك الصباح كنت افتقر تمـــاما الى تلك البهجة
اللا ارادية بل احسست بالالم والتبلد والافتقار التام الى ما كنت
أجده من لذة جياشة مندفعة ازاء الساعات الاثنتى عشرة التالية من
الحياة التى لابد ان يمنحها النهار . وزعمت لامى التى لاحظت على
الفور سوء حالتى النفسية اننى لم أنعم بنوم هادىء .
ولقد صدقت فيما قلت الا اننى أرجعت السبب فى ذلك الى
أحد الآثار المتعددة للامتهان العميق الذى فرضه جياكومو على روحى
بنبذه اياى . وكما قلت من قبل فاننى لم أعد أبالى بما كنت عليه
ولم أستطع ان أرى سببا يمنعنى فى نظرى من أن أكون كذلك .
ولــكن الامل كان لا يفتأ يراودنى فى أن أجد من أحبه ويحبنى .
وخيل لى ان اباء جياكومو رغم ما أبداه من أسباب معقدة كان يرجع
كله الى مهنتى التى ما لبثت لهــذا السبب أن صارت فى نظرى
بغيضة لا تحتمل .

ان حب الذات وحش غريب الاطوار قد يرقد نائما تحت اقسى
الضربات ثم يستيقظ وقد أصيب لاتفه الخدوش بجـراح قاتلة .
فثمة ذكرى واحدة قبل غيرها من الذكريات قد أصابتنى فى الصميم
وملأتنى بالمرارة والخجل ـ تلك هى ذكرى عبارة فهت بها فى الليلة
السابقة وأنا أعلق سترتى حين قلت : « ما رأيك فى هذه الغرفة ؟
الا ترى انها مريحة ؟ » .

وتذكرت انه لم يجبنى بل أجال بصره فى انحاء الغرفة مصعرا
وجهه على صورة لم أفهمها حينـــذاك . ولــكننى أدركت الآن انها

كانت تعبيرا عن النفور . فلا شك انه كان يحدث نفسه قائلا : « انها غرفة بغى » . وعندما تذكرت عبارتي أخذت أتلوى من الالم لما راودني أثناء نطقي بها من كبرياء شد ما كانت ساذجة صريحة . وكان ينبغي أن أدرك ان غرفتي في نظر أي شخص متحضر حساس مثله لابد أن تبدو حظيرة قذرة بل ومما يزيد في قبحها ذلك الاثاث الذي كان غاية في التواضع وما استخدم فيه من أغراض .

وتمنيت لو لم أفه قط بتلك العبارة المشئومة . ولكنها كانت قد خرجت من بين شفتي ولم يعد في وسعي الآن أن أفعل شيئا قبلها . لقد بدت لي تلك العبارة أشبه بسجن لا سبيل مطلقا الى الهرب منه بأية وسيلة ممكنة. اذ انه كان من الممكن اثبات شخصيتي بتلك العبارة على صورة لا تقبل النقض أو التعديل فقد جعلت من نفسي ما كنت عليه بحر ارادتي . وكان نسيان تلك العبارة أو التظاهر أمام نفسي بأني لم أفه بها قط أشبه بنسيان نفسي أو التظاهر أمام نفسي بأني في حكم العدم .

وكان تأثير تلك الخواطر في نفسي كتأثير السم البطيء الذي يسري في عروقي نافثا الاذى في أغلى دمائي . ومع أنني في الصباح كنت أحاول عادة أن أطيل فترة خمولي فان لحظة نفوري من ملاء الفراش حين يلقى بها جسدي بعيدا كانت لا تفتأ تحين فيثب منه وكأنه يتحرك بارادة من لدنه . ولكن ما حدث يومئذ كان على النقيض من ذلك فقد مر الصباح كله وحان وقت الغداء غير أنني مع ذلك لم استطع حراكا رغم محاولتي أن أحث نفسي على النهوض .

اذ احسست اني حبيسة الفراش خاملة الذهن عاجزة عن كل شيء كسول بليدة . وفي نفس الوقت كنت أحس بالالم في جميع أجزاء جسدي وكأني قد بذلت جهدا كبيرا يائسا لابلغ ما كنت فيه من جمود عن الحركة . احسست وكأني قارب من تلك القوارب القديمة المتداعية التي تسحب أحيانا الى المرسى في خليج رخو زلق وقد امتلأ جوفها بمياه عفنة سوداء . ولو اعتلى أحد متنها تداعت في الحال ألواحها المتآكلة واذا بالقارب الذي ربما مكث هناك سنين عديدة يغوص في لمح البصر . ولست أدري كم طال رقادي على تلك الصورة ملتحفة في ضيق بالبطاطين ومحملقة في فراغ وقد غطتني الملاء حتى أنفي . وسمعت الاجراس تعلن انتصاف النهار ثم سمعتها تدق الواحدة والثانية والثالثة والرابعة . وكنت قد أوصدت باب غرفتي فكانت أمي لاتبرح تأتي من وقت لآخر لتطرق الباب في قلق .

وكنت أقول لها فى كل مرة اننى لم ألبث أن أنهض من الفراش وأن عليها أن تدعنى وشأنى .

وعندما أخذ الضوء يخبو استجمعت شجاعتى ثم أبعدت البطاطين عنى ونهضت من الفراش باذلة فى ذلك مجهودا كان من الواضح انه يفوق طاقة البشر .

وكانت أطرافى مثقلة بالخمول والنفور . فكنت أثناء اغتسالى وارتداء ثيابى لا أسير على قدمى بل أجر نفسى جرا هنا وهناك . وكان ذهنى صفحة بيضاء . فكنت لا أدرى الا اننى فى ذلك اليوم على الاقل افتقد الرغبة تماما فى الخروج لاقتناص عشيق : ذلك الخاطر الذى لم يكن وليد عقلى فحسب بل جسدى بأكمله . وحالما ارتديت ثيابى ذهبت الى أمى وأخبرتها اننا سنقضى المساء معا واننا سنخرج للنزهة فى المدينة وبعد ذلك نحتسى الفيرموت فى أحد المقاهى. وقد ضايقتنى فرحة أمى بتلك الدعوة التى لم تألفها ولم أدر لذلك سببا . ولاحظت مرة أخرى فى غير رفق كم ترهلت وجنتاها المنتفختان وكم ضاقت عيناها اللتان التمعتا بوميض مرتعش مهتز . ولكننى كبت رغبتى فى أن أوجه اليها ملاحظة جافة ربما أودت بسعادتها . ثم جلست الى المائدة فى الغرفة ذات الاضاءة الخافتة فى انتظارها حتى ترتدى ثيابها . وكان الضوء الابيض المنبعث من مصباح الطريق يتسلل خلال النوافذ العارية من الستائر فيلمع منعكسا على ماكينة الخياطة كما يضىء أحد الجدران . وخفضت عينى الى المائدة حيث لمحت فى الضوء الخافت صفوفا من أوراق البيشانس ذوات الصور البهيجة التى اعتادت أمى أن تخفف بها من سأمها أثناء الاماسى الطويلة التى تقضيها وحدها . وعندئذ خالجنى فجأة احساس غريب . فقد خيل لى اننى أمى — أمى نفسها بلحمها ودمها تنتظر أن تفرغ ابنتها آدريانا من مضاجعة أحد عشاق الطريق فى الغرفة المجاورة . ولعل مبعث ذلك الاحساس أننى كنت جالسة فى مقعدها والى مائدتها وأمام أوراقها . فلا شك ان الاماكن أحيانا تستحضر المشاعر على هذه الصورة . فالكثيرون من الناس عندما يزورون سجنا مثلا يخيل لهم أنهم يشعرون بما يشعر به السجين الذى رزح هناك فترة من الزمان من برودة ويأس واحساس بالعزلة . ولكن غرفة الجلوس لم تكن سجنا كما لم تكن آلام أمى ثقيلة أو من اليسير تخيلها الى هذا الحد . بل اعتقد أنها كانت تعيش كما عاشت دائما . ومع ذلك فان الاحساس البديهى

بحياتها كان خليقا بأن يورثنى نوعا من التغير الجسمانى ولعل ذلك يرجع الى ذلك الشعور العدائى الذى راودنى قبلها منذ لحظة واحدة. فعندما يريد ذوو النفوس الطيبة من الناس أن يلتمسوا العذر لعمل يستحق اللوم فهم يقولون أحيانا : « ضعى نفسك مكانها » . حسنا . لقد وضعت نفسى مكان أمى فى تلك اللحظة حتى صرت مقتنعة بأننى هى .

هكذا كنت ولكننى فى نفس الوقت كنت أدرك ذلك كما لم تفعل هى بالطبع والا لتمردت بطريقة ما . وفجأة أحسست بالذبول والتغضن والعجز وأدركت معنى الشيخوخة وكيف انها لا تغير الجسد فحسب بل تصيبه بالضعف والعجز . كيف كان منظر أمى ؟ لقد رأيتها احيانا وهى تخلع ثيابها فلاحظت دون تفكير تقلص ثدييها المترهلين بلونهما الضارب الى الشهبة كما لاحظت شحوب بطنها المسترخي . والآن احسست فى نفسى بهذين الثديين اللذين أرضعانى وذلك البطن الذى أنجبنى فلم استطع أن ألمسهما . وبدا لى اننى احس بنفس الاسى والالم العاجز اللذين خالجا أمى بلا ريب لمنظر جسدها المتغير . فان الشباب والجمال يضفيان على الحياة جمالا وبهجة . ولكنهما عندما يذهبان ؟ واقشعر بدنى رعبا . وما ان نفضت عن نفسى لحظة ذلك الكابوس حتى هنأت نفسى بأنى فى الحقيقة آدريانا التى اجتمع لها الشباب والجمال وبأنى لا أشترك فى شىء مع أمى التى فقدت الشباب والجمال ولن تستعيدهما مرة أخرى .

وفى نفس الوقت بدا ذهنى وكأنه جهاز توقف عن العمل ثم أخذ يستعيد سرعته تدريجيا فأنشأ يصور لى افكارا لا ريب انها خطرت لها أثناء انتظارها عودتى وحيدة فى الغرفة . وليس من العسير مطلقا ان يتخيل المرء خواطر شخص كأمى فى مثل هذه الظروف . غير ان تلك الخواطر عند معظم الناس هى بالضرورة وليدة التعنيف والاحتقار . وهم فى الواقع لا يتخيلون بقدر ما يصيغون لانفسهم نوعا من الدمى يصبون عليه جام عداوتهم . ولكننى لما كنت أحب أمى ولما كنت أضع نفسى مكانها عن حب فقد كنت أعلم ان خواطرها فى مثل هذه اللحظات لم تكن انانية أو مخيفة أو مخجلة بل لم تكن تمت فى الواقع بأية صلة لما كنت أفعله أو ما كنت عليه . والاحرى اننى كنت أعلم ان خواطرها كانت عارضة تافهة كتلك التى تخطر على ذهن عجوز جاهلة فقيرة وذلك لانها لم تستطع قط أن تؤمن بشىء واحد يومين متتاليين دون أن تتناقض فى حدة بالضرورة .

اما الافكار العظيمة والعواطف العميقة حتى ولو كانت سلبية حزينة فانها تحتاج الى مأوى وفترة للنمو فهى نباتات رقيقة تتطلب زمنا لتقوى وترسخ جذورها . ولـكن أمى لم تستطع قط أن تزرع فى ذهنها أو قلبها سوى أعشاب سرعان ما تذوى وتموت وكان قوامها خواطر يومها واحنه ومشاغله . وهكذا أمكننى أن أبيع نفسى فى مقابل النقود بل ذلك هو ما كنت افعله فى الواقع فى غرفتى الخاصة. ولـكن أمى كانت وهى جالسـة فى غرفـة الجلـوس أمام أوراق البيشانس لا تفتأ تقلب فى ذهنها ذلك الهراء المعهود لو أمكننا أن نطلق هذا الوصف المنصف على الاشـياء التى عاشت من أجلهـا منذ طفولتها حتى اليوم مثل ثمن الطعام والقيل والقال بين أهـل الحى وتصرفات أهل الدار التافهة والخوف من الحوادث والاعمـال المنوطة بها وتفاهات أخرى من هذا القبيل . ولعلها كانت على الاكثر تنصت كل يوم الى دقات الساعة الـكامنة فى برج مجاور ثم تلوح لها بعض الخواطر دون أن تعلق عليها أهمية كبرى مثـل : « لقد تأخرت آدريانا عن مألوف عادتها فى هذه المرة » . أو تحدث نفسها قائلة عندما تسمعنى أفتح الباب وأردد كلمة أو اثنتين فى الردهة : لقد فرغت آدريانا » . ثم ماذا ؟ ها أنذى فى تخيـلاتى قد صرت أمى نفسها جسدا وروحا واحسست انى أحبها من جديد بل أكثر من ذى قبل لا لسبب الا لاننى استطعت أن أضع نفسى مكانها بكل صدق واخلاص وعلى صورة عارية من كل زيف .

واذا بضوضاء الباب وهو يفتح توقظنى من ذلك الحلم الذى كان يتراءى لى . فقد كانت أمى توقد المصباح قائلة : « ماذا تفعلين فى الظلام ؟ » فقفزت واقفة أنظر اليها وقد انتابتنى الدهشة فقـد لاحظت من أول نظرة انها كانت ترتدى ثيابا جـديدة . ولـكنها لم تضع قبعة على رأسها لانها لم تلبسها قط من قبل . بل كانت ترتدى ثوبا أسود متقن الصنع وتحمل على ذراعها حقيبـة كبيرة سوداء من الجلد ذات قفل معدنى أصفر اللون الى حد ما وتضع حول عنقها فراء هريا قصيرا . أما شعرها الاشـيب فقـد بللته وسرحته بعناية وقد جذبته بقوة فوق رأسها حيث عقصته فى عقدة صغيرة تخللتها المشابك . بل لقد ذرت بعض المسحوق الاحمر على وجنتيها العجفاوين الذابلتين اللتين بدتا الآن شديدتى الحمرة . ولم أكد أتمالك نفسى من الابتسام عندما رأيتها متأنقة فى ملبسها جادة فى مظهرها على هذه الصورة . فنهضت قائلة بلهجتى العاطفية

المعهودة : « يحسن بنا أن نذهب » .

وكنت أعلم ان أمي تجد متعة فى السير على مهل خلال الشوارع الرئيسية حيث توجد أفخم محال المدينة ، وذلك عندما تكون حركة المرور على أشدها ، فركبنا الترام ونزلنا منه عند نهاية شارع فياناسيونالى • وكانت أمي تصحبني للنزهة فى ذلك الطريق عندما كنت طفلة صغيرة • فكانت تبدأ نزهتها من ميدان دلزدرا على الافريز الايمن ثم تتقدم فى بطء وهي تمعن النظر فى كل واجهة من واجهات المحال حتى نبلغ ميدان فينيسيا ثم نعبر الطريق ونعود الى ميدان دلزدرا وهي لا تزال تنظر فى امعان الى كل ما يعرض فى واجهات المحال ساحبة اياى من يدي . وبعد ذلك تصحبني الى المنزل متعبة يغالبني النعاس دون أن نشترى شيئا أو نجرؤ على دخول أحد المقاهى العديدة التى نمر بها • وأذكر اننى لم أكن أتمتع بتلك النزه لاننى على عكس أمي التى بدت قانعة بمشاهدة واجهات المحال فى دقة وتلذذ متخذة منها قوتا تشبع به شهوتها كنت أبغى دخول المحال وابتياع بعض الاشياء العديدة الجميلة الجديدة المعروضة للبيع فى الواجهات خلف بللورها اللامع وفى ضوئها الساطع ثم احملها معى بعد ذلك الى المنزل . ولكننى أدركت منذ طفولتى الباكرة أننا فقراء فلم أعبر عن مشاعرى بأية صورة من الصور . ولم يحدث سوى مرة واحدة ـ ولا يحضرنى السبب فى ذلك ـ أن انتقيت شيئا اعجبنى . فاذا بنا نسير فى الطريق المزدحم بسرعة مضاعفة بينما تسحبنى امي من ذراع واحدة وأنا أقاومها بكل ما أوتيت من قوة صارخة باكية الى أن عيل صبرها فى النهاية فلطمتنى على أذنى بدلا من اعطائى ما كنت أتوق اليه . وكانت كل لطمة من لطماتها المتتالية تنسينى ألم الحرمان مما كنت أبغى وأشتهى .

وها أنذى الآن اقف مرة أخرى فى الطرف القصى من الافريز المواجه لميدان دلزدرا متعلقة بذراع أمى وكأن شيئا لم يتغير بعد كل تلك السنين . فهنا كانت الافاريز تعج بالاقدام التى انتعلت الاحذية القصيرة والاحذية المتوسطة والاحذية الطويلة والاحذية ذات النعال المرتفعة والاحذية ذات النعال المستوية والبعض يرتدى خفافا. وكان مجرد النظر اليها جميعا خليقا بأن يصيب المرء بالدوار. وراح الناس يذرعون الطريق مثنى أو فى جماعات من الرجال والنساء والاطفال أو فرادى بعضهم يسير على مهل والبعض على عجل وجميعهم متماثلون • ولعل ذلك راجع الى رغبتهم فى التباين فحسب

فقد تشابهت ملابسهم وشعورهم ووجوهم وعيونهم وأفواههم . فهنا كان الفرامون والاساكفة وباعة الادوات الكتابية وتجار المجوهرات وصناع الساعات والكتبيون وباعة الزهور ونجار الاقمشة ومحال اللعب وتجار الادوات المعدنية وباعة القبعات والجوارب ومحال القفافيز والمقاهي ودور السينما والبنوك . هنا كانت النوافذ المضاءة فى المبانى الكبيرة حيث يتحرك الناس فى أرجاء الغرف أو يعملون الي مكاتبهم . أما اللافتات الكهربية فلم تكن تتغير مطلقا . وعلى نواصى الطريق كانت تقوم أكشاك الصحف ويقف باعة القسطل والعاطلون من باعة ورق البخور وحلقات المطاط للمظلات . وهنا كان يقف الشحاذون . فثمة رجل أعمى على عينيه منظار أسود يقف على ناصية الطريق وقبعته فى يده وقد ارتمى رأسه الى الخلف مستندا الى الحائط . وعلى مسافة منه تجلس امرأة نصف وهى ترضع طفلها من ثديها المتقلص . وعلى مسافة أخرى يقف رجل أبله تبدو فى مكان يده جذمة صفراء لامعة كمفصل الركبة . وما ان وجدت نفسى مرة أخرى فى ذلك الطريق وبين تلك الاشياء المألوفة حتى خيل لى اننى لا أستطيع حراكا مما أصابنى بقشعريرة عميقة وأشعرنى بالعرى المؤقت وكأن نسمة الخوف المثلجة كانت تمر بين بدنى وثيابى . وثمة صوت صاخب منفعل لامرأة تغنى أخذ ينبعث من الراديو فى أحد المقاهى القريبة منشدا اغنية « بابى الصغير ذو الوجه الاسود » . فقد كان ذلك خلال حرب الحبشة .

ولم تدر أمى بالطبع ماذا كان شعورى . فلا شك اننى لم أكشف لها عنه . وكما قلت من قبل فانى أبدو رقيقة الطبع سهلة الانقياد معتدلة المزاج حتى انه ليتعذر على الآخرين من الناس أن يتكهنوا بما يدور فى خلدى . ولكن مشاعرى غلبتنى فى لحظة من اللحظات « والآن أخذ صوت المراة يشدو بأغنية عاطفية » . فارتعشت شفتاى . وخاطبت أمى قائلة : « أتذكرين حينما كنت تصحبيننى لنذرع هذا الطريق حيث نتأمل واجهات المحال ؟ » .

فأجابت قائلة : « نعم . ولكن كل شىء حينذاك كان أرخص منه الآن — فهذه الحقيبة مثلا — كان فى امكانك عندئذ أن تحصلى عليها لقاء ثلاثين ليرة » .

ثم انتقلنا من محل السلع الجلدية الى محل المجوهرات حيث توقفت أمى عن المسير لتتأمل الحلى . وهتفت قائلة فى نشوة : « انظرى ! تأملى فقط هذا الخاتم ! يعلم الله كم يبلغ ثمنه — وهذا

السوار الذهبى الثقيل ! ولـكننى لا أحس بشغف شـديد نحو الخواتيم والاسورة ــ بل تعجبنى القلائد الجميلة . فقد كنت أملك فى يوم من الايام قلادة من المرجان ــ ولـكننى اضطررت عندئذ الى بيعها » .

ــ متى ؟ ..

ــ منذ سنوات الآن .

ولقد تذكرت ـ ولست أدرى لذلك سببا ـ أننى حتى الآن وعلى الرغم من كل مكاسبى المهنية لم أستطع قط أن أبتاع لنفسى حتى أبسط الخواتيم . وقلت لأمى : « أتعلمين اننى قررت الا أصحب رجالا الى المنزل بعد ذلك . لقد فرغت من كل هذا » .

ولم يسبق لى أن ذكرت مهنتى لأمى بمثل هذه الصيغة التفصيلية وقد ارتسم على وجهها تعبير عجزت عن فهمه حينذاك . ثم قالت : « لقد قلت لك مرارا ان تفعلى ما تشائين . فأنا سعيدة ما دمت أنت سعيدة » .

ولـكنها لم تبـد سـعيدة ، وأردفت قائلة : « فسنضطر الى مواصلة الحياة التى كنا نحياها من قبل . وستضطرين الى قص القمصان وحياكتها من جديد .. »

فقالت : « لقد زاولت هذا العمل سنين عديدة » .

وألححت قائلة فى شيء من القسوة : « ولن تتوفر لدينـا نقود كثيرة كما هى الحال الآن . فقد تدللنا أخيرا الى حد ما . ولست أدرى أنا نفسى ماذا أفعل ؟ » .

فسألتنى أمى قائلة فى أمل : « وماذا تفعلين ؟ » .

فأجبت قائلة : « لست أدرى . ربما عدت الى عملى كنموذج أو عاونتك فى عملك » .

فقالت بلهجة مثبطة للعزم : « وفيم يمكنك معاونتى ؟ » .

فأردفت قائلة : « أو يمكننى الالتحاق بخدمة المنـازل . فماذا هناك من أعمال ؟ » .

والآن بدا لى وجه أمى حزينا تعسا وكأنها فقدت فى لمح البصر كل ما كانت تتمتع به أخيرا من وسائل الراحة البدنية كما تفقـد الاشجار أوراقها الذابلة حالما تشيع فى الجو برودة الخريف . فرددت قائلة فى اقتناع : « يجب أن تفعلى ما تشائين ما دمت سـعيدة . ليس لدى ما أقوله أكثر من هذا » .

وأدركت أنها كانت تتنازعها عاطفتان متعارضتان : حبها لى ،

وتعلقها بيسر الحياة . ولقد اسفت لها وكنت أفضل ان يكون لديها من الشجاعة ما يجعلها تتنازل الى الابد عن احدى هاتين العاطفتين. اما الحب واما المال · ولكن ذلك قلما يحدث فاننا نقضى العمر فى نسخ آثار فضائلنا بآثار رذائلنا . وقلت لها : « لم أكن سعيدة من قبل ولن أكون سعيدة الآن ــ ولكننى لم اعد أستطيع مواصلة الحياة على هذه الصورة » .

ثم لزمنا الصمت بعد ذلك · ولشد ما كان وجه أمى شاحبا متقلصا حتى بدا لى وكأنه قد عاوده نحوله وامتقاعه خلف مظهره المتورد . راحت تتأمل واجهات المحال بحماس وتركيز كسابق عهدها . ولكنها كانت تفعل ذلك الآن على صورة آلية دون لذة أو فضول وكأن ذهنها مشغول بأمر آخر · فربما كانت عيناها حتى وهى تحملق لا تريان شيئا أو بالاحرى انها لم تكن ترى السلع المعروضة فى الواجهات بل ماكينة الخياطة بدواستها التى لا تعرف الكلل أو الملل وابرتها التى لا تفتأ ترتفع وتنخفض فى جنون وأكداس القمصان التى لم ينته العمل فيها وقد وضعت على المائدة والمفرش الاسود الذى تعودت أن تحزم فيه ما أنجز من عملها لتحمله عبر المدينة الى عملائها . أما أنا فلم تكن امام عينى مثل هذه الرؤى لتحجب عن بصرى واجهات المحال · بل كنت أراها فى وضوح تام وكانت خواطرى فى صفاء البللور · وكنت أتبين كل شىء خلف الواجهات الزجاجية وكذلك بطاقات الاسعار واحدة فواحدة . ثم حدثت نفسى قائلة اننى ربما كنت عازفة عن الاستمرار فى عملى بل هكذا كنت فى الواقع ولكن لم يكن هناك بالفعل عمل آخر يمكننى أن أؤديه . فقد كان فى وسعى فى حدود معينة أن أبتاع معظم الاشياء التى كنت أشاهدها ولكننى لا أكاد أعود الى عملى كنموذج أو أى عمل آخر من هذا القبيل حتى أضطر الى التنازل الى الابد عن تلك الاشياء وأبدأ أنا وأمى من جديد حياة التقشف والكد المملوءة بالرغبات المكبوتة والتضحية من غير طائل والادخار الذى لا يغنى شيئا ــ كما اننى قد أمنى النفس باقتناء قطعة من الحلى اذا ما عثرت على من يهبنى اياها . فى حين ان تلك الامنية تصبح بعيدة المنال بعد الكواكب فى السماء لو اننى عاودت حياتى الاولى ــ وغشيتنى موجة من النفور نحو حياتى الاولى التى لشد ما كانت قاسية بائسة على صورة سخيفة . وراودنى فى نفس الوقت احساس حاد بسخف الاسباب التى من أجلها رغبت فى تغيير مهنتى . وذلك ان طالبا

فتننت به أبى أن تكون له صـلة بى ! ولاننى اقنعت نفسى بانه احتقرنى ! ولاننى وددت لو كنت شيئا مختلفا عما كنت عليه فى الواقع ! وقلت لنفسى أنها كبريائى فحسب وانه لايمكننى بدافع من الـكبرياء فحسب أن اخوض أنا وامى بصفة خاصة غمار تعاستنا الاولى . وفجأة تراءت لى حياة جياكومو منطلقة فى اتجاه آخر بعد أن التقت بحياتى واختلطت بها لحظة قصـيرة ثم ظلت حيـاتى تواصل طريقها الذى اتخذته من قبل . وحدثت نفسى قائلة : « انى اغير حياتى لو وجدت من يحبنى ويبغى الزواج بى حتى ولو كان فقيرا . أما من أجل نزوة عابرة فان الامر لا يستحق العناء » . وما ان لاح لى ذلك الخاطر حتى امتلأ قلبى بما ينطوى عليه التحرر من هدوء جميل . وطالما خالجنى ذلك الشعور نفسه منذ تلك اللحظة لا كلما رفضت ما بدا لى أنه قسمتى فى الحياة بل كلما خرجت للقاء مصيرى . لقد كنت ما كنت وكان على أن أكون ولا شىء غير ذلك . فربما كنت زوجة صالحة رغم ما قد يبدو فى ذلك من غرابة ، أو امرأة تبيع نفسها لقاء النقود . ولـكننى لا أستطيـع ان أكون مخلوقة صغيرة تعسة تكد وتكدح طوال حياتها ولا هدف لها من وراء ذلك سوى ارضاء كبريائها . وما ان صـافيت نفسى حتى ابتسمت .

وحينئذ كنا نقف أمام محـل لازياء النسـاء وقد عرضت فى واجهته أنواع من الملابس الحريرية والصـوفية . وقالت امى : « انظرى . يا لها من قلنسوة جميلة ! ها هى ذى بغيتى بالضبط » .

فرفعت عينى وتأملت القلنسوة التى تعنيها وقد عاودنى هدوئى وصفاء نفسى . فاذا بها جميلة حقا يختلط فيها اللونان الاسود والابيض وعليها زخرف من الطيور وأوراق الشجر . وكان باب المحل مفتوحا على مصراعيه ومنضدة العرض واضحة للعيان تعلوها صينية ذات أقسام صغيرة ملئت جميعها بالقلانس التى تكدست معا فى غير نظام . فسألت أمى قائلة : « اتعجبك ؟ » .

– « نعم .. لماذا ؟ »

– « اذن فستحصلين عليهـا . ولـكن فلتعطينى أولا حقيبتك ولتأخذى حقيبتى . »

فلم تفهم مرادى وأخذت تحملق فى فاغرة فاها . ولـكننى لم انبس بكلمة بل تناولت حقيبتها الجلدية الـكبيرة السوداء ووضعت

بين يديهـا حقيبتي الصـغيرة . ثم فتحت قفـــل الحقيبة فانفتحت وأبقيتها مفتوحة بين أصابعي ثم دخلت المحل فى بطء كمن عقد النية على شراء شيء ما . وتبعتني أمى التى لم تفهم شيئا ولـكنها لم تجرؤ على سؤالى .

قلت للبـائعة وانا أتجه نحو الصينيـة : « نريد ان نرى بعض القلانس ؟ » .

فقالت ملقية بالقلانس أمامي : « هذه من الحرير .. وهذه من الـكشمير .. وهذه من الصوف .. وهذه من القطن » .

فاتجهت مباشرة الى المنضدة حيث وضعت الحقيبة فى مستوى بطنى ثم أخذت أفحص القلانس بيد واحدة وأبسطها وأرفعها فى الضوء لأتبين زخرفها وألوانها . وكانت هناك على الاقل اثنتا عشرة قلنسوة اختلط فيها اللونان الابيض والاســود وجميعها متشابهة تماما . فجعلت احداها تنزلق على حافة الصينية فتدلى طرفها فوق المنضدة .

ثم قلت للبائعة : « انى أريد فى الواقع شيئا ابهى من ذلك » .

فقالت البائعة : « هناك نوع افضل ولـكنه أغلى ثمنا » .

ـ « فلأره » .

ثم استدارت لتنزل صينية اخرى من فوق الرفوف . وكنت على استعداد لذلك فابتعدت قليلا عن المنضدة وفتحت الحقيبة . ثم جذبت القلنسوة من طرفها وضغطت بجسدى مرة اخرى على المنضدة ولم يستغرق منى ذلك اكثر من لحظة .

وفى تلك الاثناء كانت البائعة قد أنزلت الصينية من فوق الرف ووضعتها على المنضدة حيث ارتني بعض القلانس التى كانت اكبر حجما واجمل شكلا . ففحصتها فى هدوء وتؤدة معلقة على الوانها وزخارفها بل وعارضة اياها على أمي مصحوبة بكلمات الاستحسان التى كانت تجيب عنها بايماءات من رأسها وهى اقرب الى الموت منها الى الحياة لانها كانت قد شاهدت ما فعلت .

وأخيرا سألتها قائلة : « وكم يبلغ ثمنها ؟ » .

وما أن ذكرت لى ثمنها حتى قلت فى أسف : « انك على حق . فهى أغلى ثمنا مما نطيق على أية حال .. ومع ذلك فلك الشكر » .

ثم غادرنا المحل واتجهت بسرعة الى كنيسة قريبة خشية أن تلاحظ البائعة السرقة ثم تركض خلفنا خلال الزحام . وأخذت أمى

وهى متعلقة بذراعى تنظر حولها فى حـــيرة وريبة كمخمور يراوده الشك فيما اذا كان هو المخمور أو ما يراه من أشياء تهتز وتتحرك أمام عينيه ٠٠ ولم اتمالك نفسى من الضحك لما بدا عليها من حيرة وذهول ٠ ولم أدر لماذا سرقت القلنسوة ٠ ولم يكن ذلك مهما فى حد ذاته فقد سبق لى أن سرقت « البدارة » من منزل مخدومة جينو ٠ ولا أهمية فى تلك الامور الا للخطوة الاولى ٠ ولكن اذا بى احس من جديد بتلك اللذة الجنسية التى راودتنى فى أول مرة ٠ وخيل لى اننى ادركت الآن السبب فى اقدام الكثيرين على السرقة ٠ وبعد بضع خطـــوات وصلنا الى الكنيسة التى كانت تقع فى شارع جانبى ٠ فسألت أمى قائلة : « هل ندخل هنا لحظة ؟ » ٠

فأجابتنى قائلة فى اذعان : « اذا شئت » .

فدخلنا الكنيسة البيضاء الصـغيرة ذات الشـــكل الدائرى التى بدت بحلقتها المزدوجة من الاعمدة المحيطة بأرضيتها المبلطة بالاحجار أشبه بصالة الرقص . وانصب ضوء باهت من خلال نوافذ القبــة على صفى المقاعد التى صقلها الاستعمال . فرفعت عينى ورأيت ان القبة كلها كانت تغطيها رسوم الملائكة وقد بسطت أجنحتها فوثقت من ان تلك الملائكة الجميلة الرائعة سوف تحمينى وان عاملة المحل لن تلحظ السرقة قبل المساء . ومما ساعد على بث الطمأنينـــة فى نفسى ذلك الصمت المخيم فى داخل الـكنيسة وما شــاع فيها من رائحة البخور والظلمة الخفيفة والاحساس بالعزلة على أثر فوضى الطريق وضوئه الذى لشد ما كان قويا ساطعا . ودخلت الكنيسة مهـرولة حتى كدت أصطـدم بأمى ولـكننى سرعان ما اسـتعدت هدوئى . وسكنت مخاوفى . وتظاهرت أمى بالعبث فى حقيبتى التى ما زالت تمسك بها . فقدمت اليها حقيبتها هامســة : « ارتدى قلنسوتك » .

ففتحت الحقيبة ووضعت القلنسوة المسروقة على راسها . ثم غمسنا أصابعنا فى حوض المـاء المقدس وذهبنا لنجلس فى الصــف الاول من المقاعد المواجهة المذبح الرئيسى حيث جثوت على ركبتى بينما ظلت أمى جالسة فى مكانها وقـد وضعت يديهـا فى حجرها واحتجب وجهها تحت القلنسوة التى كانت أوسـع مما ينبغى . وأدركت انها كانت حزينة مغتمة فلم أتمالك نفسى من المقارنة بين هدوئى وغمتها . فأحسـست انى فى حال من الصفاء والرضا . وعلى

الرغم من علمي بأني قد ارتكبت اثما يحرمه الدين فانني لم أشعر بشيء من تأنيب الضمير وكنت أقرب الى التقى والورع مني وأنا لم أرتكب اثما سوى الكد والعناء من أجل لقمة العيش. وتذكرت قشعريرة الذهول والحيرة التي سرت في بدني قبل ذلك بلحظة واحدة وانا انظر الى الطريق المزدحم . واستراحت نفسي الى فكرة وجود إله يمكنه أن يرى بوضوح من خلالي حيث لا يجد أثرا للشر. كما استراحت الى ان مجرد وجودى على قيد الحياة خليق بتبرئتي كما هي الحال فى الواقع مع البشر جميعا . فقد كنت أعلم ان هذا الاله لم يوجد للحكم على وادانتي بل لتبرير وجودى الذى لا يمكن الا أن يكون خيرا ما دام يتوقف عليه مباشرة . وبينما كنت أردد كلمات الصلاة على صورة آلية لم افتأ انظر الى المذبح حيث بدت لى صورة العذراء الغامضة خلف لهيب الشموع فى اطار غير واضح المعالم . وأدركت ان الامر بيني وبين العذراء لم يكن سلوكى هذا الطريق أو ذاك بل ما هو أهم من ذلك بكثير وهو ما اذا كنت أجد الشجاعة لاواصل الحياة أم لا .. واذا بالشجاعة التى كنت انشدها تبدو لى فجأة وكأنها تتدفق نحوى من الصورة الغامضة خلف شموع المذبح فى شكل احساس مفاجىء بالحرارة يفيض به كيانى بأسره . نعم لقد تشجعت على مواصلة الحياة رغم جهلى بها وبالسبب فى وجودى على قيدها .

وكانت أمي جالسة هناك حزينة حائرة بينما برزت القلنسوة الجديدة فوق انفها كالمنقار وعندما استدرت لانظر اليها لم أتمالك نفسي من الابتسام لها فى عطف هامسة : « قولى صلاة قصيرة ، فانها تنفعك » . فارتعشت وترددت ثم جثت على مضض وقد ضمت يديها . كنت أعلم انها لم تعد ترغب فى الايمان بالدين اذ بدا لها أنه نوع من العزاء الكاذب الذى يهدف الى صلاحها ونسيانها قسوة الحياة . ولكننى مع ذلك رأيت شفتيها تتحركان فى آلية وقد دفعنى تعبير السخط الغريب على وجهها الى الابتسام مرة أخرى . وكنت أريد ان اطمئنها فأخبرها بأنني قد غيرت رأيى وانه ليس ثمة ما يزعجها وانها لن تضطر الى العمل كسابق عهدها . وكان هناك شيء من الصبيانية فى عبوس أمي . فكانت أشبه بالطفل الذى حرم من قطعة الحلوى التى سبق أن وعد بها . وقد بدا لى ذلك أهم مظهر من مظاهر سلوكها . والا لتطرق الى ذهنى انها تعتمد على مهنتي فى التمتع برفاهتها التافهة . ولكننى كنت أعلم فى قرارة

قلبي ان ذلك لم يكن صحيحا .

وما ان تلت صلاتها حتى رسمت علامة الصليب على صدرها فى سرعة وغضب وكأنها تريد ان تظهر لى فى وضوح أنها ما فعلت ذلك الا لترضيني . فنهضت واشرت لها بالخروج . وما ان بلغت عتبة الباب حتى خلعت القلنسوة وطوتها بعناية ثم أعادتها الى حقيبتها . وعدنا الى شارع « فياناسيونالى » حيث اتجهت الى أحد محال الحلوى قائلة : « والآن سنشرب قدحا من الفيرموت » . فاحتجت أمى قائلة بصوت بدا فيه الرضا والخوف : « كلا ! ولماذا ؟ فانا لسنا فى حاجة اليه » . وهكذا كانت دائما منذ عهد بعيد تخشى الاسراف . فقلت : « وماذا يكلف قدح من الفيرموت ؟ ! » فصمتت وتبعتنى الى داخل المحل .

كان محلا قديم الطراز ذا منضدة كبيرة وحاشية من خشب الكابلى المصقول وعدد من الصناديق الزجاجية المملوءة بعلب الحلوى الانيقة . فجلسنا فى أحد الاركان وطلبنا قدحين من الفيرموت وارتبكت أمى لمنظر الساقى فجلست ساكنة مرتبكة وقد نكست عينيها أثناء املائى الطلب . وعندما أحضر لنا المشروب التقطت القدح الصغير ولم تأخذ منه سوى رشفة واحدة ثم أعادته مرة أخرى قائلة فى لهجة جادة وهى تنظر الى : « انه جيد » .

فأجبتها قائلة : « حسنا . انه فيرموت » . وكان النادل قد احضر حاملا من الزجاج والمعدن به بعض الفطائر . ففتحته قائلة لأمى : « خذى واحدة » .

— « كلا . كلا . بحق السماء ! »

— « هيا . خذى واحدة ! »

— « انها ستفسد شهيتى . »

— « قطعة واحدة ! » ثم نظرت الى الفطائر واخترت لها قطعه من « الميل فوى » وأعطيتها اياها قائلة : « خذى هذه فهى خفيفة » .

فتناولتها وأخذت تقضمها قضمات صغيرة بغير عناية أو اهتمام وهى تعاود النظر اليها بعد كل قضمة . وأخيرا قالت : « لاشك انها لذيذة » .

فقلت : « خذى قطعة اخرى » . وعندئذ قبلت القطعة الاخرى دون حاجة الى ضغط أو حث . وعندما احتست الفيرموت واصلنا جلستنا فى صمت ونحن نراقب الرواد اثناء دخولهم

وخروجهم من المحل . وقد امكنني أن ارى فرحة امي بجلوسها في ذلك الركن بعد التهامها قطعتي الفطير وقدح الفيرموت كما كانت تلهيها حركة الناس التي لا تنقطع . وقد لاحظت انه لم يكن لديها ما تقوله لي . ولعلها كانت لاول مرة في حياتها تزور محلا كهذا فوقفت تلك التجربة الجديدة حائلا دون تفكيرها في أمور اخرى .

ودخلت المحل سيدة شابة تقود بيـــدها فتـــاة صـــغيرة كانت ترتدي ياقة فرائية بيضاء كثيرة الوبر وثوبا صفيرا قصيرا كما كانت ترتدي قفازين أبيضين قطنيين وجوربين من نفس اللون والقماش . وانتقت الام فطيرة من الحامل الموضوع على المنضدة ثم أعطتها اياها .

فقلت لامي : « انك لم تصحبيني قط الى محال الفطائر وأنا طفلة صغيرة » .

فسألتني أمي قائلة : « وكيف كان يمكنني تحمل ذلك ؟ » .

فاختتمت الحديث بلهجة هادئة قائلة : « والآن اذا بي انا التي تصحبك الى هنا بدلا من ذلك » .

فصـمتت لحظـة ثم قالت في حزن : « اراك الآن تعيرينني باصطحابي الى هنا . وما كنت أريد المجيء » .

فوضعت يدي على يدها قائلة : « انا لا أعيرك . بل اني فرحة بذلك . وهل كانت جدتي تصحبك الى محال الفطائر ؟ » .

فهزت راسها قائلة : « اني لم أغادر حينا قط حتى بلغت الثامنة عشرة من عمري » .

فقلت : « أترين ؟ انكم تحتاجون في الاسرة الى من يقدم في يوم من الايام على أشياء معينة لاول مرة . فأنت لم تقدمي عليها ولا أمك بل ربما ام أمك لم تقدم عليها . فها أنذى أفعل هذه الاشياء اذ انه لايمكنكم أن تستمروا على هــذه الحال الى الابد والى أبد الآبدين ! » .

فلم تحر جوابا ومكثنا هناك مدة ربع ساعة اخرى نراقب الناس. ثم فتحت حقيبتي واخرجت علبة سجائري التي اشـعلت منهـا واحدة . فان النسوة اللائي على شاكلتي كثيرا ما يدخن في الاماكن العامة ليجذبن انتباه الرجال . ولـكنني عنـدئذ لم أكن أفكر في اقتناص أحد الرجال . بل كنت في الواقع قد قررت ألا أفعل شيئا من ذلك في تلك الليلة على الاقل . كل ما حدث انني شعرت بالرغبة في التدخين . فوضعت السيجارة بين شفتي واستنشقت الدخان

ثم نفثته من فمي ومنخري ممسكة بالسيجارة بين اصبعي وأنا اراقب الناس .

ولكن لا ريب أن حركتي كانت تتسم بشيء من الاثارة . فقد لاحظت في الحال ان رجلا واقفا بالقرب من المنضدة كان يهم بارتشاف قدح القهوة الذي يمسك به في يده ثم أحجم عن ذلك محملقا في بنظرة شاخصة وقد ظل القدح في منتصف الطريق الى شفتيه . كان رجلا في الحلقة الخامسة من عمره قصير القامة ذا شعر كثيف مجعد وعينين جاحظتين ووجه طويل . ولشد ما امتلأ جسمه القصير حتى بدا وكأنه بلا عنق . وقف هناك والقدح في منتصف الطريق الى شفتيه يحملق في كالثور الذي رأى خرقة حمراء فجمد في مكانه قبل أن يخفض رأسه مهاجما . وكان حسن الهندام على الرغم من عدم أناقته . فكان يرتدي معطفا محكما على جسده أبرز عرض كتفيه . فخفضت بصري وبدأت لحظة أزن ما له وما عليه . لقد أدركت انه من ذلك الصنف الذي تكفي نظرة واحدة مني لان تبرز الشرايين في عنقه وان تحيل وجهه أحمر قانيا . ولكنني لم أكن واثقة مطلقا من ميلي اليه . ثم أدركت أن رغبتي في اجتذابه قد شدت جسدي بأكمله كما تنبثق العصارة الخفية من اللحاء الخشن في عدد من براعم الزهور الرقيقة فاضطررت الى التخلي عن أسلوبي المتحفظ . وكان ذلك بعد ساعة واحدة من اتخاذي قرار تغيير مهنتي . فقلت لنفسي لا حيلة لي في ذلك وانها أقوى من ارادتي . ولكن خواطري كانت مبتهجة للغاية . فمنذ مغادرتي الكنيسة ساد الصفاء بيني وبين مصيري مهما كان واحسست أن قبولي اياه يفوق في قيمته كل انكار للذات بالغا ما بلغ سموه . وبعد لحظة من التفكير رفعت عيني ونظرت اليه . كان لايزال هناك كالوحش المفترس والقدح في يده الغليظة الشعراء وقد تركزت على عيناه البقريتان . وعندئذ بادرته بالتحرش فرميته بنظرة طويلة مداعبة متغزلة أودعتها كل ما في طاقتي من ايعاز وايحاء . والتقت عيناه بعيني فاحمر وجهه كما توقعت . واحتسى قهوته ثم وضع القدح على المنضدة وسار مختالا في معطفه المحكم بخطا قصيرة متصلبة متجها الى الخزينة حيث دفع ثمن مشروبه . وما ان بلغ المدخل حتى استدار نحوي مشيرا الى اشارة واضحة آمرة تنبىء بفهمه . فأجبته بنظرة قبول .

وقلت لأمي : « والآن سأتركك . ولكنك ستبقين هنا . فلا

يمكننى على أية حال مغادرة هذا المكان في صحبتك » .

كانت تستمتع بكل ما تشاهده فى المحل فجفلت منزعجة وهى تقول : « الى اين تذهبين ؟ لماذا ؟ » فقلت وأنا أنهض واقفة : « هناك رجل ينتظرنى فى الخارج . هاك النقود .. فلتدفعى ثمن كل شيء ولتذهبى الى المنزل .. وانى اتوقع أن أكون هناك قبل قدومك .. ولـكننى لن أكون وحدى » .

فنظرت الى فى ذعر وفى نوع من تأنيب الضمير كما بدا لى . ولـكنها لم تنبس بشيء . فأومأت لها مودعة ثم غادرت المحل . وكان الرجل ينتظرنى فى الطريق . وما كدت أغادر المحل حتى انقض على قابضا على ذراعى فى قوة وهو يقول : « الى أين نذهب ؟ » .

— الى شقتى ..

وهكذا بعد بضع ساعات من الالم النفسى المبرح تخليت عن ذلك الصراع غير المتكافىء مع ما بدا لى انه مضيرى . بل انى فى الواقع رحبت به فى مزيد من الحب كما يعانق المرء عدوا ليس فى وسعه أن يهزمه . فشعرت بالتحرر . وقد يظن البعض ان قبول مصير حقير ولـكنه مجز أيسر بكثير من التخلى عنه . غير اننى طالما تساءلت عن السر فيما تنطوى عليه قلوب أولئك الذين يحاولون أن يعيشوا طبقا لمبادىء معينة وأن يتوخوا مثلا عليا معينة من سخط وتعاسة فى حين ان البهجة وخلو البال كثيرا ما يتسم بهما أولئك الذين يرتضون مصيرهم رغم خوائه وظلامه وضعفه فى معظم الاحيان . وفى مثل هذه الاحوال لا يتوخى المرء مبدءا معينـا بل مزاجه الخاص الذى يبدو له فى زى مصير حقيقى أصيل . وكان مزاجى كما سبق أن قلت هو أن أكون مرحة لطيفة هادئة مهما كلفنى الامر . وقد ارتضيت ذلك .

الفصل الثالث

ولقد انصرفت عن جياكومو تماما وذلك بتصميمي على عدم العودة الى التفكير فيه وكنت أحس انى أحبه وأننى سأسعد بقربه لو عاد الى بل سأحبه أكثر من أى وقت مضى . ولكننى كنت أعلم أيضا اننى لن أدعه يذلنى مرة أخرى . ولو عاد لوقفت أمامه محتمية فى كنف حياتى الخاصة وكأنها حصن منيع حقا ولا سبيل الى زعزعته حتى أغادره من تلقاء ذاتي - وسوف أقول له : « آني بغى لا اكثر .. فان أردتنى فعليك أن تقبلنى كما أنا » . فقد أدركت ان قوتى لم تكن تكمن فى رغبتي أن أكون غير ما كنت بل فى قبولى ما كنت عليه . كانت تلك القوة تكمن فى فقرى وفى مهنتى وفى أمى وفى منزلى القبيح وفى ملبسى البسيط وفى منبتى المتواضع وفى كوارثى وأهم من ذلك كله فى احساسى الذى جعلنى أقبل كل هذه الاشياء - ذلك الاحساس الذى استكن فى أعماق روحى كما يستكن الحجر الكريم فى بطن الارض . ولكننى كنت على ثقة تامة من اننى لن أراه مرة أخرى . وكان من جراء ذلك اليقين أن أحببته حبا حزينا عاجزا لم أعهده من قبل وقد تميز بعذوبة خاصة كحبنا للموتى الذين ذهبوا بلا عودة .

وحينذاك انقطعت علاقتى نهائيا بجينو . وكما سبق أن قلت فانى أكره القطيعة الفجائية وأوثر أن تعيش الاشياء وتموت من تلقاء ذاتها . وكانت علاقتى بجينو خير مثل لرغبتى فى هذا الصدد . فقد انقطعت تلك العلاقة لانقطاع الحياة فيها وليس لخطأ من جانبى أو حتى من جانبه الى حد معين . وقد انقطعت على صورة لم تترك معها أثرا للأسى أو تأنيب الضمير .

وقد استمرت لقاءاتنا من آن لآخر مرتين أو ثلاثا فى كل شهر . فقد كنت أميل اليه كما سبق أن قلت ولو اننى لم أعد أحترمه . وذات يوم اتصل بى تليفونيا وطلب الى مقابلته فى أحد محال اللبن فوعدته بذلك .

وكان محل اللبن يقع فى حينا . وهناك وجدت جينو ينتظرنى فى الغرفة الداخلية التى كانت صغيرة خالية من النوافذ وقد

اكتست جدرانها بالقرميد الايطالى المزخرف .. ولـكننى عندما دخلت الغرفة وجدت انه لم يكن وحيدا . بل كان يجلس الى جانبه شخص ما يولينى ظهره . فلم أستطع أن أرى سوى معطفه الاخضر الواقى من المطر وشعره الاشقر القصير فوق رأســه . وما ان اتجهت نحوهما حتى نهض جينو واقفا بينما ظل رفيقه جالسا . فقال جينو : « دعينى اقدم اليك صديقى سونزونيو » . فنهض هو أيضا ومددت اليه يدى . واذا بى أحس عندما أمسك بها وكأنه قد قبض عليها بمنجلة فأطلقت على الرغم منى صرخة قصــيرة من الالم . فأطلق سراحها فى الحال وجلست مبتسمة ثم قلت : « أتعلم انك آلمتنى . أهكذا تفعل دائما ؟ » .

فلم يحر جوابا بل ولم يبتسم . كان أبيض الوجه فى لون الورق ذا جبهة قوية بارزة وعينين دقيقتين زرقاوين كلون السماء وأنف أفطس وفم كالشق . وكان شعره قصيرا خشنا شائكا لا لون له وقد ضغط صدغاه الى الداخل ولـكن الجزء الاسفل من وجهه كان عريضا كما كان ذا فك ضخم قبيح . وكان يبدو دائما وكأنه يطحن اسنانه كمن يمضغ شيئا . كما بدا لى وكأن عصبا ما تحت أديم وجهه كان لا يفتأ ينبض ويختلج . وكان موقف جينو منه يدل على صداقة جمعت بين الاعجاب والاحترام .

قال : « هذا لا شيء ! ليتك تعلمين مدى قوته ! فان له قبضــة سفاح . »

وخيل لى ان سونزونيو كان ينظر اليه نظرة عدائية .

فقال بصوته الرتيب : « هذه فرية . فليست لى قبضة سفاح . ولكن ربما كانت — » .

فسألت قائلة : « وما هى قبضة السفاح ؟ » .

— « عندما يمكنك أن تقتلى رجلا بضربة واحدة .. فعندئذ يحظر عليك استخدام قبضتيك .. فقبضتك تصير مميتة كالطلق النارى » .

وألح جينو قائلا فى انفعال وكأنه متحمس للتودد الى سونزونيو : « تحسسى مدى قوته . تحسسى فقط . دعها تجس ذراعك » .

فترددت ولـكن جينو كان متحمسا كما بدا لى أن صديقه كان يتوقع ذلك . فمددت يدى فى استرخاء لامسك بذراعه . فثنى ساعده ليقلص عضلاته فى جد بل فيما يشبه الجهامة . فأحسست تحت أناملى من خلال كمه بشيء أشبه بصرة من الاوتار الحديدية . ولما كان نحيلا للغاية فقــد صدمتنى الدهشــة . فسحبت يدى

صائحة فى مزيج من النفور والعجب . ونظر الى سونزونيو فى رضا عن نفسه بينما تلاعبت على شفتيه ابتسامة صغيرة .

وقال جينو : « انه صديق قديم لى . فقد تعارفنا منذ زمن بعيد . أليس كذلك يا بريمو ؟ حتى انه يمكنك أن تقولى اننا شبه أخوين » . ثم ربت على كتف سونزونيو قائلا :

ـ « أيها الصديق العزيز بريمو ! »

فهز سونزونيو كتفه وكأنه يريد أن يبعد عنه يد جينو قائلا : « نحن لسنا صديقين ولا أخوين . بل كنا نعمل معا فى نفس الجراج . هذا هو كل ما هنالك » .

ولكن جينو لم يبد عليه الارتباك مطلقا بل قال : « انى أعلم انك لا تريد أن تبدو صديقا لأحد .. فأنت دائما وحدك لا تعتمد على أحد . لا نساء ولا رجال » .

فنظر اليه سونزونيو . وكانت له نظرة شاخصة لا تطرف وملحة على صورة غير معقولة . فاضطر جينو الى أن يدير عينيه بعيدا . وسأل سونزونيو قائلا : « من قال لك هذا الهراء ؟ فانى أرافق من أحب ـ رجالا أو نساء » .

فقال جينو وقد زايله تماما مظهره الواثق : « كان هذا كلاما فحسب ـ وكل ما أستطيع أن أقوله اننى لم أرك قط فى صحبة أحد » .

ـ « انك لم تعرف شيئا قط عن شئونى . »

ـ « حسنا . كنت أراك كل يوم صباح مساء . »

ـ « وماذا لو رأيتنى كل يوم ؟ .. »

فقال جينو مرتبكا : « كنت أراك دائما وحدك فخيل لى أنك لا تقابل أحدا ـ فلو أن أحدا له صديقة أو صديق فان الجميع يعرفون ذلك دائما » .

فقال سونزونيو فى وحشية : « لا تكن أحمق » .

فقال جينو متظاهرا بسخطه المعهود وقد احمر وجهه : « والآن تنعتنى بالحماقة » ولكنه كان مذعورا على صورة واضحة .

فردد سونزونيو حديثه قائلا : « نعم . اياك والحماقة والا شججت راسك » .

وفجأة ادركت انه ليس خليقا بأن يفعل ذلك فحسب بل ينوى فعلا أن ينفذه . فوضعت يدى على ذراعه وتدخلت قائلة : « اذا شئتما عراكا لتصفية ما بينكما من خلاف فأرجو الا يكون ذلك فى

حضورى لاننى لا أتحمل العنف » .
فقال جينو عابسا : « ها أنذا أعرفك بصديقة صغيرة مهذبة وأنت تخيفها بأساليبك الى حد الجنون ! انها ستظن أننا عدوان!»

فالتفت سونزونيو الى وابتسم لاول مرة . عندئذ زر عينيه الى أعلى وقطب جبينه ولم يكشف فقط عن أسنانه الفاسدة بل عن لثاته أيضا . وسألنى قائلا : « ولكن سيدتى الصغيرة ليست خائفة . أليس كذلك ؟ »

فأجبته قائلة فى اقتضاب : « مطلقا — ولكنى أكره العنف كما قلت لك » .

ثم أعقب ذلك صمت طويل . فظل سونزونيو جالسا فى سكون واضعا يديه فى جيبى معطفه الواقى من المطر بينما لم تفتأ أعصاب فكه تختلج وهو يحملق فى لا شيء . وكان جينو لايزال يدخن حانيا رأسه بينما يزحف الدخان على وجهه وأذنيه اللتين لم تزايلهما حمرتهما القرمزية . ثم نهض سونزونيو قائلا : « حسنا . انى ذاهب » .

فقفز جينو واقفا فى حماس قائلا وهو يمد يده : « حسنا اذن فنحن كما كنا يا بريمو . هه ؟ » .

فردد سونزونيو قائلا من خلال أسنانه المطبقة : « كما كنا » . ثم صافحنى دون أن يؤلمنى فى هذه المرة وغادر المكان . كان نحيلا قصير القامة مما استحال معه حقا ان يتبين المرء مصدر كل تلك القوة . وما ان رحل حتى قلت لجينو مازحة : « لعلكما صديقان أو حتى أخوان — ولكن ما أغرب لهجته معك ! » .

وكان جينو الآن قد استرد هدوءه . فقال وهو يهز رأسه . « هكذا خلق . ولكنه ليس سوءا . فانه لما يلائم مصلحتى أن أكون على وفاق معه . فهو ينفعنى أحيانا » .

— « وكيف ؟ .. »

فقد لاحظت ان جينو كان مضطربا تحدوه رغبة ملحة فى ابلاغى شيئا ما . واذا بوجهه يرتسم عليه فجأة الاضطراب والحماس الشديدان .

قال : « أتذكرين « بدارة » سيدتى ؟ » ..

— « نعم .. ماذا عنها ؟ .. »

ولمعت عينا جينو بالفرح . ثم قال خافضا صوته : « حسنا . لقد فكرت فى الامر ولم أردها » .

ـ « ألم تردها ؟ •• »
ـ « كلا • فقد فكرت انها ثرية قبل كل شيء • وسواء عثر على « البدارة » أم لم يعثر عليها فالامر فى نظرها سيان » • ثم أضاف قائلا بطريقة تميز شخصيته : « لاسيما ان الجرم قد تم بالفعل ولم أكن أنا السارق قبل كل شيء » .
فقلت بصوت هادىء : « بل أنا السارقة » •
فتظاهر بأنه لم يسمعني واسترسل قائلا : « ومع ذلك فقد كانت هناك فيما بعد مشكلة بيعها • اذ انها كانت لافتة للانظار ومن السهل التعرف عليها . كما اننى لم أجرؤ على ذلك . فاحتفظت بها فى جيبى فترة طويلة ... الى أن قابلت سونزونيو أخيرا ، فرويت له القصة كاملة •• »
فقاطعته قائلة : « وهل حدثته عنى ؟ » .
ـ « كلا ، لم أحدثه عنك •• بل قلت له ان صديقة اعطتنى اياها دون ذكر اسماء •• فتصورى انه باعها فى مدى ثلاثة أيام وأحضر الى النقود • ولكن بالطبع أخذ نصيبه كما اتفقنا » • كان يرتجف من الفرحة ثم تلفت حوله وسحب من جيبه صرة من الاوراق المالية .
وعندئذ أحسست نحوه بكراهية عميقة ولا أدرى لذلك سببا . ولم يكن ما أحس به استنكارا لما فعل فليس هذا من حقى مطلقا ولكن فرحته الشامتة أغاظتنى . وفضلا عن ذلك فقد تكهنت بأنه كان يخفى عنى شيئا وان ما يخفيه كان بلا شك أسوأ بكثير. فقلت فى ايجاز :
ـ « لقد أصبت •• »
فقال وهو يحل رزمة الاوراق المالية : « هاك • فهذا نصيبك • لقد أحصيته » .
فأجبت قائلة فى الحال : « كلا ، فأنا لا أريد شيئا . لا أريد شيئا على الاطلاق » .
ـ « لم لا ؟ •• »
ـ « لا أريده •• »
فقال : « انك تحاولين اهانتى » . وعبرت وجهه سحابة من الشك والحزن فخشيت أن أكون قد أسأت اليه حقا . فوضعت يدى على يده وقلت فى صعوبة : « لو أنك لم تعرض على النقود فربما كان ذلك مدعاة لدهشتى ، ولا أقول اساءتى . ولكن الامر قد انتهى الآن ولا غبار عليه بهذه الصورة . فأنا لا أريد حصتى

لان الامر قد انتهى بالنسبة لى ونفضت يدى منه . هذا هو كل ما هنالك ـ ومع ذلك فانه ليسرنى أن تأخذ أنت حصتى » .

فنظر الى فى شك دون أن يفهم ماذا أقول محملقا فى وكأنه يريد أن يستشف الدافع الخفى وراء كلماتى . ولقد أدركت منذ ذلك الحين ـ كما يدور بخلدى دائما كلما فكرت فيه ـ انه لما كان يعيش فى عالم يختلف عن ذلك الذى أعيش فيه وتختلف أفكاره وعواطفه فانه كان عاجزا عن فهمى . ولا أدرى ان كان ذلك العالم أسوأ من عالمى أو أفضل منه بل كل ما أدريه أن بعض الالفاظ فى نظره كان يختلف معناها عنها فى نظرى وان معظم التصرفات التى كنت أنتقدها فيه كانت لا تفتأ تبدو له مشروعة وصحيحة . فقد بدا أنه يعزو أهمية كبرى الى الذكاء الذى كان يعنى فى نظره المكر والدهاء . وكان عند تقسيمه الجنس البشرى الى فريقين ـ أحدهما يمتاز بالدهاء والآخر مجرد منه ـ لا يفتأ يحاول أن يدرج اسمه فى القائمة الاولى . أما أنا فلسبت من الدهاء فى شىء بل ولعلى مجردة حتى من الذكاء . فاننى لم أستطع قط أن أفهم كيف يمكن تبرير العمل الشرير فضلا عن قبوله لا لسبب الا لانه ارتكب بدهاء .

واذا بالشك الذى كان يعذبه يبدو وقد تلاشى فجأة عندما هتف قائلا : « انى أعرف السر فى ذلك ! فأنت ترفضين النقود لانك خائفة ـ خائفة من اكتشاف السرقة . ولكن لا حاجة بك الى القلق فقد استبان كل شىء » .

ومع اننى لم أكن خائفة فاننى لم أعبأ بانكار التهمة لانى لم أفهم الجزء الثانى من عبارته .

فسألته قائلة : « ماذا تعنى بقولك ان كل شىء قد استبان ؟ »

فأجاب قائلا : « نعم .. لقد استبان كل شىء ـ أتذكرين ؟ ! ألم أخبرك ان احدى الخادمات كانت تحوم حولها الشبهات ؟ » .

ـ « نعم .. »

ـ « حسنا . لقد انتقمت من تلك الخادمة لانها كانت تغتابنى . فما ان مرت بضعة أيام على السرقة حتى رأيت ان الموقف بالنسبة لى كان ينذر بالشر ـ فقد جاء ضابط الشرطة مرتين . وخيل لى ان الشك يحوم حولى . ولكن تذكرى انهم لم يقوموا بعد بتفتيش المنزل . فخطر لى أن أجعلهم يفتشون المنزل بسبب سرقة أخرى ثم أدبر ثبوت التهمة عليها فى السرقتين معا . »

فلزمت الصمت .. واسترسل قائلا بعد أن رمقنى بعينيه

المتألقتين وقد فتحتا على سعتهما وكأنه يريد أن يرى ما اذا كنت معجبة بدهائه : « كانت السيدة تحتفظ ببعض الدولارات فى أحد الادراج . فأخذتها وأخفيتها فى غرفة الخادمة مودعا اياها حقيبة قديمة . وعندئذ قاموا بتفتيش المنزل . وبالطبع عثروا على الدولارات وقبض عليها . وهى تقسم أنها بريئة . ولكن من ذا الذى يصدقها ؟ فقد عثروا على الدولارات فى غرفتها الخاصة » .

ـ « وأين هى تلك المرأة الآن ؟ »

ـ « فى السجن . وهى ترفض الاعتراف . ولكن أتعلمين ماذا قال ضابط الشرطة لسيدتى ؟ .. قال : « لا تقلقى ياسيدتى . فانها ستعترف فى النهاية ساءت الوسيلة أو حسنت » . أترين ماذا يعنون ؟ ساءت الوسيلة أو حسنت ؟ فانهم سيضربونها » .

وعندما نظرت اليه ووجدته منفعلا وقد اشتد زهوه بنفسه احسست انى باردة كالثلج تنتابنى حيرة شديدة . ثم سألته بطريقة عارضة قائلة : « وما اسمها ؟ » .

قال : « لويزا فلينى ـ وهى ليست صغيرة السن ولكنها متكبرةللغاية فهى تزعم ان الحظ العاثر هو الذى جعلها خادمة وانه لا مثيل لها فى الامانة ! » ثم ابتسم مسرورا للغاية بذلك التوافق بين زعمها وما حدث لها .

فبذلت جهدا وكأنى أطلق تنهدة عميقة قائلة : « أتعلم انك وغد ؟ » .

فسألنى فى دهشة : « ماذا ؟ ولماذا ؟ » .

ووجدتنى الآن وقد صارحته برأيى فيه أحس بمزيد من الحرية ومزيد من التصميم . فقد ارتعش منخراى من الغضب وأردفت قائلة : « وكنت تريدنى أن أقبل النقود ! ولكننى أحسست انها نقود لا ينبغى أن آخذها » .

فقال محاولا أن يسترد هدوءه : « ما هذه الضجة كلها ؟ فهى لن تعترف ـ وعندئذ سوف يفرج عنها » .

ـ « ولكنك قلت الآن انها لن تخرج من السجن وانهم سيضربونها ! »

ـ « كان ذلك كلاما فحسب . »

« لا يهم ذلك . ولكنك أرسلت امرأة بريئة الى السجن .. ثم أوتيت من الصفاقة ما يسمح لك بأن تأتى الى وتبلغنى كل شىء ! يا لك من وغد . »

فانتابه الغضب فجأة وهرب الدم من وجهه . ثم قبض على يدى

قائلا : « كفى عن نعتى بهذه الصفة ! ! »
ـ « لماذا ؟ فانى أعتقد أنك وغد ولسوف أقول ذلك . »
ففقد صوابه وأتى حركة عنيفة على صورة غريبة . اذ لوى يدى بيده وكأنه يريد أن يسحقها ثم حنى رأسه فجأة وعض يدى بقوة . فتخلصت منه بحركة فجائية ونهضت واقفة . ثم هتفت قائلة : « أجننت ؟ ماذا دهاك الآن ؟ أتعضنى ؟ ولكن ذلك لن يجديك .. فأنت وغد ولسوف تظل وغدا على الدوام » . فلم يحر جوابا بل أسقط رأسه على يديه وكأنه يريد أن ينتزع شعره .
فناديت الساقى ونقدته ثمن المشروبات جميعا : ما شربته أنا وهو وسونزونيو . ثم قلت : « انى ذاهبة ، وأؤكد لك .. أن كل شيء بيننا قد انتهى . فلا ترنى وجهك مرة أخرى ولا تبحث عنى ولا تأت الى .. فأنا لم أعد أعرفك » .
فلم ينبس بكلمة بل ظل حانى الرأس . ثم غادرت المحل .

وكان محل اللبن يقع على ناصية الطريق الرئيسى غير بعيد من منزلى . فبدأت أسير ببطء على الجانب المواجه لاسوار المدينة . وكان الليل مخيما والسماء ملبدة بالغيوم بينما أخذ المطر يتساقط رذاذا كالغبار المائى خلال الهواء الساكن العليل . وكانت الاسوار تكتنفها الظلمة كالمعتاد فيما خلا الاماكن التى تضيئها من وقت لآخر مصابيح الطريق وكانت قليلة . ولكننى عندما غادرت محل اللبن لاحظت فى الحال رجلا ينسل بعيدا عن أحد مصابيح الطريق ثم يسير محاذيا الاسوار بنفس سرعتى وفى نفس الاتجاه الذى أسير فيه . فعرفت انه سونزونيو بمعطفه الواقى من المطر الذى يضيق عند الخصر ورأسه الاشقر الحليق . وكان يبدو قصير القامة هناك أسفل الاسوار وهو لا يفتأ يختفى فى الظلام من آن لآخر ثم يعود الى الظهور على ضوء أحد مصابيح الطريق . ولاول مرة انتابنى السأم من الرجال ـ كل الرجال ـ الذين لا يفتأون يركضون خلف ازارى وكأنهم جمع من الكلاب يطاردوننى . وكنت لا أزال أرتجف من شدة الغضب . فلم يسعنى الا أن أشعر بتأنيب الضمير كلما فكرت فى تلك المرأة التى أرسلها جينو الى السجن فقد كنت أنا سارقة « البدارة » قبل كل شيء . ولكن لعل شعورى لم يكن تبكيتا من ضميرى بل نفورا وسخطا . فعلى الرغم من تمردى على الظلم وكراهيتى لجينو فقد كرهت أن أكرهه كما كرهت أن أعلم بوقوع الظلم . فانى فى الواقع لم أخلق لمثل هذه الامور فلشد ما

غشينى الحزن وتغيرت نفسيتى • وأسرعت الخطا بغية أن أبلغ المنزل قبل دنو سونزونيو منى وكان من الواضح أن فى نيته ذلك.
ثم سمعت صوت جينو ينادينى من الخلف فى يأس قائلا :
– « آدريانا ! آدريانا ! »
فتظاهرت بأننى لم أسمعه وأسرعت الخطا • فأمسك بذراعى قائلا : « آدريانا ! لقد كنا دائما معا ، ولا يمكننا أن نفترق على هذه الصورة » .
فتخلصت منه بهزة من ذراعى وواصلت طريقى • ثم انبثق من الظلام شبح سونزونيو الضئيل بمعالمه الواضحة وظهر فى دائرة الضوء المرسل من أحد مصابيح الطريق على الجانب الآخر من الشارع أسفل الاسوار • واسترسل جينو قائلا وهو يسرع الخطا بجانبى : « انى أحبك يا آدريانا » .

فأحسست نحوه بمزيج من الشفقة والكراهية . ولشد ما كان ذلك المزيج من العواطف كريها فى نظرى على صورة لا يمكن وصفها.
ومع ذلك فقد حاولت أن أفكر فى شىء آخر . وفجأة ومض فى ذهنى خاطر نير لا أعرف له سببا . فقد تذكرت آستاريتا وكيف كان لا يبرح يعرض على مساعدته • فخيل لى انه قادر فيما يشبه اليقين على اطلاق سراح تلك المرأة المسكينة . وما لبثت الفكرة أن أنعشت روحى فى الحال . وتخلص قلبى من ذلك العبء ، بل أحسست وكأنى لم أعد أكره جينو بل شعرت نحوه بالاسف فحسب . فتوقفت عن المسير وخاطبته فى هدوء قائلة :
– « لم لا تذهب يا جينو ؟ •• »
– « انى أحبك •• »
– « لقد أحببتك أنا ايضا •• ولكن كل شىء قد انتهى •• ولتذهب الآن الى حال سبيلك • فذلك خير لكلينا • »
كنا واقفين فى بقعة ظلماء من الطريق أقفرت من المحال والمصابيح • فأمسك بى من حول خصرى محاولا تقبيلى • وكان فى امكانى أن أتخلص منه بسهولة لاننى قوية للغاية ولا يستطيع احد أن يقبل امرأة ما لم ترغب فى ذلك . ولكن نزوة خبيثة أوحت الى بأن أنادى سونزونيو وكان واقفا يراقبنا على الجانب الآخر من الطريق تحت الاسوار داسا يديه فى جيبى معطفه . واعتقد اننى ناديته لاننى الآن وقد اكتشفت طريقة لمحو الاذى الذى تسبب فيه جينو أحسست وقد عاودنى فضولى ودلالى . فصحت منادية

مرتين : « سونزونيو ! سونزونيو ! » واذا به يعبر الطريق فى الحال . فانتاب جينو الارتباك واطلق سراحى .

وما ان اقبل علينـا سونزونيو حتى قلت له : « قل له أن يدعنى وشأنى . فأنا لم أعد أريده . ولـكنه يأبى أن يصدقنى . فلعله يصدقك أنت ما دمت صديقه » .

فسأله سونزونيو قائلا: «أسمعت ماذا قالت السيدة الصغيرة ؟»

فبدأ جينو يتكلم قائلا : « ولـكننى . . . »

واعتقـدت أنهما سيتجادلان بعض الوقت كما يحدث عادة وان جينو سوف يستسلم فى النهاية ويمضى الى حال سبيله . ولكننى بدلا من ذلك رأيت سونزونيو يأتى حركة فجائية لم أفهمها ثم يحملق فيه جينو لحظة وهو مدهوش ويتهاوى بعد ذلك على الارض دون أن ينبس بكلمة واحدة ثم يتدحرج من فوق الافريز الى داخـل البالوعة . أو لعلنى لم أر سوى سقوط جينو على الارض فتكهنت من ذلك بما كانت عليه حركة سونزونيو . فلشد ما تميزت تلك الحركة بالسرعة والصمت حتى تبادر الى ذهنى اننى تخيلتها . فهززت راسى والقيت نظرة اخرى فرأيت سونزونيو واقفا أمامى مباعدا ما بين ساقيه يتأمل يده المقبوضـة . وكان جينـو الذى رقد على الارض موليا ايانا ظهره قد ثاب الى رشده ورفع راسه فى بطء وهو متكىء على احد مرفقيه فى البالوعة . ولـكنه لم يبد عليه انه يريد النهوض بل بدا وكأنه يفضـل أن يظل محملقـا فى قصاصة صغيرة من الورق الابيض كانت ترى بوضوح وهى تلمع فوق الوحل فى البالوعة .

واخيرا قال سونزونيو : « هيا بنا » فسرت معه تجاه المنزل وكأننى فى حلم .

كان يسير فى صمت ممسكا بذراعى . ومع أنه كان أقصر منى قامة ، فان يده القابضة على ذراعى كانت أشبه بمشد من الحديد تماما .

ثم قلت بعد فترة وجيزة : « ما كان ينبغى أن تضرب جينـو على هذه الصورة ، فانه على اى حال كان ذاهبا الى حال سـبيله دون أن يضرب » .

فأجابنى قائلا : « بهذه الطريقة لن يعود الى ازعاجك » .

وسألته قائلة : « ولـكن كيف فعلت ذلك ؟ فانى لم أر حتى ماذا فعلت ، كل ما رأيته هو سقوط جينو على الارض » .

فقال : « انها مسألة عادة » .

كان يتكلم وكأنه يمضغ الالفاظ قبل النطق بها أو الاحرى انه بدا وكأنه يستشعر قوامها بين أسنانه المطبقة التى خيل لى انها متداخلة كأسنان الحيوانات الهرية . وتاقت نفسى الآن الى هصر ذراعه وتحسس عضلاته الصلبة المشدودة مرة أخرى تحت أصابعى • لم يكن سونزونيو يجذبنى بقدر ما كان يثير فضولى وخوفى قبل كل شيء • ولكن الخوف يمكن ان يكون شعورا مثيرا مستحبا على صورة ما الى أن يعرف سببه •

فسألته قائلة : « ماذا يوجد هنا فى داخل ذراعك ؟ انى لا استطيع أن أصدق ذلك ! »

فقال يحدوه زهو بدا لشدة جديته منذرا بالشؤم : « ولكننى تركتك تلمسيننى مرة » •

ـ « ليس كما ينبغى •• فقد كان هناك جينو •• دعنى أجسه مرة أخرى • »

فتوقف عن المسير وثنى ذراعه وهو يرمينى بنظرة جانبية وقد بدا على وجهه الجد والبساطة ولكن بساطته لم يكن فيها أثر للصبيانية . فمددت يدى فى بطء لألمس عضلاته ومررت بها على ذراعه بأكملها ابتداء من الكتف • فكان احساسى بها وهى نابضة بالحياة صلبة كالحديد احساسا خارجا عن المألوف • فقلت له فى صوت واهن ضعيف : « انك عظيم القوة » •

فوافق على كلامى قائلا فى جهامة : « نعم .. أنا قوى » ثم عاودنا السير مرة أخرى .

والآن أحسست بالاسف لاستدعائه . فانى لم أشعر بالميل نحوه وفضلا عن ذلك فانه كان يخيفنى بجديته وسلوكه . وبلغنا المنزل دون أن نعاود الحديث ثم أخرجت مفتاحى قائلة وأنا أمد اليه يدى : « شكرا لاصطحابك اياى حتى المنزل » .

فقال وهو يقترب منى : « انى قادم معك » .

وأردت أن أرفض . ولكنه ربكنى وضايقنى بنظرته المحملقة فى عينى بتركيز لايمكن تصديقه . فقلت : « ان شئت » . ولم أدرك الا بعد أن خاطبته اننى استخدمت الصيغة الودية فى خطابه .

وقال مفسرا حزنى على طريقته الخاصة : « لا تخافى . فلدى بعض النقود . وسأعطيك ضعف ما ينفحك به غيرى » .

فقلت : « وما شأن هذا بما قصدت ؟ فليس ذلك بسبب النقود » ولكننى رأيت وميضا غريبا يمرق عبر وجهه وكأن شكا

منذرا قد لاح له . وفى تلك الاثناء كنت قد فتحت البـاب ثم أردفت قائلة : « ولكننى أشعر بشىء من الاجهاد فحسب » .

وما ان دخل غرفتى حتى بدأ يخلع ملابسه بحركات دقيقة تنم عن شخص منظم . فكان يضع لفاعا حول عنقه نزعه فى عنـاية ثم طواه ودسه فى جيب معطفه . ثم علق سـترته على ظهر أحد المقاعد وسوى سراويله على صورة لا تفسد معها ثناياها . وبعـد ذلك وضع حذاءه تحت المقعد داسا فيه جوربيه . وقد لاحظت ان جميع ملابسه كانت جديدة . ومع انها لم تكن من صنف ممتاز فقد كانت جيدة قوية الاحتمال . وقد فعل ذلك كله فى صمت دون عجلة أو ابطاء بل فى انتظام مرتب أحسن تخطيطه ولـكنه لم يعرنى انتباها . وكنت فى تلك الاثناء قد تجردت من ثيابى ورقدت عارية على الفراش . ولا شك انه لم يكشف عن رغبته فى ، اللهم الا اذا كان اختلاج عضلات فكه فى أسفل الجلد مباشرة دليلا على انفعاله . ولكن تلك الحركة لا يمكن ان تعنى ذلك لانه كان يأتيها من قبل دون أن يبدو عليه أنه يفكر فى . وقد قلت من قبل اننى لشد ما يعجبنى النظام والنظافة لانهما ينبئان عن صفات عقلية مطابقة . ولكن نظام سونزونيو ونظافته كانا فى ذلك المساء يثيران فى نفسى أحاسيس مختلفة تماما تتراوح بين الرعب والخوف . فلم يسعنى الا أن أرى فى أسلوبه تلك الطريقة التى يستعد بها الجراحون فى المستشفى عندما يضطرون الى اجراء جراحة دامية بل أسوأ من ذلك اذ ذكرتنى طريقته بالقصابين وهم يتأهبون للذبح على مرأى من الحمل الـذى يوشكون على ذبحه . ولكنى أحسست وأنا راقدة هناك على الفراش أننى مسلوبة القوة والارادة كالجسد الميت الذى يوشك أن تجرى عليه التجارب . وكنت من جراء صمته وعدم مبالاته فى شك مما ينتوى أن يفعله بى حالما ينتهى من خلع ملابسه . فعندما جاء الى رأس الفراش عاريا تماما من ملابسه ووضع كلتا يديه على كتفى وكأنه يريد أن يوقف حركتى سرت فى بدنى على الرغم منى قشعريرة خوف فلاحظ ذلك وسألنى قائلا من خلال أسنانه المطبقة : « ماذا دهاك ؟ »

فأجبت قائلة : « لا شىء . ولـكن يديك باردتان كالثلج » .

فقال وهو مازال قابضا على كتفى أثناء وقوفه عند رأس الفراش : « أنت لا تحبيننى . أليس كذلك ؟ وتفضلين من ينقدونك . أليس كذلك ؟ » كان وهو يتكلم يحملق فى بنظرة لا تحتمل .

فقلت : « لماذا ؟ فأنت رجل كالباقين جميعا . وفضلا عن ذلك فقد قلت أنت نفسك انك ستنقدنى ضعف أجرى » .

فقال : « اننى أعرف عما أتكلم . فأنت ومن على شاكلتك تضاجعن الاثرياء والسادة . أما أنا فلست سوى رجل عادى مثلك . وأنتن جميعا يا معشر البغايا لا تضاجعن سوى الاثرياء » .

ولمست فى صوته رغبته العنيدة المشئومة فى اثارة شجار ، تلك الرغبة التى دفعته منذ فترة وجيزة الى اهانة جينو لأتفه الاسباب . ولقد خيل لى حينئذ أن لديه أسبابا خاصة للحقد على جينو . ولكننى أدركت الآن ان حساسيته الشديدة المخيفة التى لا يمكن التنبؤ بها كانت دائما يقظة مرهفة وما ان يتملكه شيطان الغضب حتى يرى محدثه مخطئا مهما كانت الطريقة آلتى يعامله بها .

فسألته قائلة فى شيء من الحماس : « لماذا تبغى اهانتى ؟ فقد قلت لك من قبل ان الرجال جميعا متساوون فى نظرى » .

ـ « لو كنت تقولين الصدق لما تجهم وجهك على هذه الصورة . انك لا تحبيننى . أليس كذلك ؟ »

ـ « ولكننى سبق أن قلت لك .. ! »

فاسترسل قائلا : « انك لا تحبيننى . ولكن يؤسفنى انك ستكرهين على ذلك » .

فقلت وقد انتابنى سخط مفاجيء : « أف .. لا تضايقنى ! »

فأردف قائلا : « كنت تريديننى ما دمت تنتفعين بى فى تخليصك من براثن عشيقك . ثم آثرت أن تطردينى . ولكننى بدلا من ذلك جئت معك . فأنت لا تحبيننى . أليس كذلك ؟ » .

والآن انتابنى الخوف حقا . فقد بدا لى كل شيء : كلماته المسرعة وصوته الهاديء الجامد ونظرته الشاخصة فى عينيه وقد بدتا حمراوين رغم زرقتهما ، بدا كل شيء وكأنه يحمله الى هدف رهيب مخيف . ولم أدرك الا بعد فوات الوقت ان أية محاولة للوقوف فى وجهه لن تجدى فتيلا كالوقوف فى طريق صخر يتدحرج من عل فوق منحدر هاو سحيق . فلم أزد على أن هززت كتفى بعنف .

وأردف قائلا : « انك لا تحبيننى . هه ؟ ويبدو عليك النفور عندما ألمسك . ولكننى سأغير لك نظرتك ياحبيبتى ! » ثم رفع يده وكأنه يهم بصفعى . وكنت أتوقع شيئا من ذلك القبيل ، فحاولت أن أحمى نفسى بذراعى . ومع ذلك فقد أمكنه أن يضربنى بقوة مروعة على احدى وجنتى أولا ثم على وجنتى الاخرى عندما

حاولت ان أشيح بوجهى بعيدا . ولم يسبق أن حدث لى شىء من هذا القبيل فى حياتى . فكان وقع الدهشة على فى أول الامر رغم لسع الضربات أقوى من احساسى بالالم . فكشفت عن وجهى قائلة له : « أتعرف ما أنت ؟ انك مخلوق تعس » .

وبدا انه تأثر بتلك العبارة . فجلس على حافة الفراش وهو يتأرجح قابضا على الحشية بكلتا يديه . ثم قال دون أن ينظر الى : « اننا جميعا مخلوقات تعسة » .

قلت : « انك تحتاج الى شجاعة حقيقية لتضرب امرأة ! » ولكننى عجزت فجأة عن مواصلة الحديث فقد اغرورقت عيناى بالدموع لا من أثر ما تلقيته من ضربات بقدر ما أصابنى من توتر عصبى لم يفارقنى طوال ذلك المساء الحافل بأحداث كثيرة بغيضة مكدرة . وتذكرت جينو مطروحا على الارض فى الاوحال كما تذكرت عدم مبالاتى به وانطلاقى مرحة فى صحبة سونزونيو ولا هم لى سوى اختبار قوة عضلاته الخارجة عن المألوف . فغلبنى تأنيب ضميرى ورثائى لجينو ونفورى من نفسى . وأدركت اننى نلت جزائى لغباوتى وبلادة حسى بنفس اليد التى طرحت جينو أرضا . فلشد ما راقنى العنف . واذا بذلك العنف الآن يتحول ضدى . ونظرت الى سونزونيو من خلال دموعى وكان جالسا على حافة الفراش عاريا من ملابسه تماما أبيض البشرة أملسها محنى الكتفين وقد استرخت ذراعاه اللتان لم يبد عليهما مطلقا ما يوحى بقوتهما . وأحسست برغبة فجائية فى تقريب المسافة بيننا .

فقلت بصعوبة : « ولكن الا تخبرنى على الاقل لماذا ضربتنى؟ »

فقال مفكرا بينما لم يفتأ يختلج ذلك العصب فى فكه : « كان هناك تعبير على وجهك » .

وأدركت اننى لو شئت الاقتراب منه فعلى أن أصارحه بخواطرى جميعها ولا أخفى عنه شيئا . فأجبت قائلة : « لقد خيل لك أننى لا أحبك . ولكنك كنت مخطئا » .

ـ « ربما .. »

ـ « كنت مخطئا . فحقيقة الامر أنك تخيفنى . ولا أدرى لذلك سببا . وهذا هو السر فى ذلك التعبير الذى ارتسم على وجهى . »

فاستدار نحوى عند سماعه تلك الكلمات ونظر الى فى ارتياب. ولكنه هدأ فى الحال وسألنى قائلا فى شىء من الخيلاء : « اذن فقد أخفتك ؟ » .

ـ « نعم .. »
ـ « أترين أنى لا أزال أخيفك ؟ »
ـ « كلا . بل يمكنك الآن أن تقتلنى ان شئت ، فانى لم أعد أبالى » . وكانت تلك هى الحقيقة . فانى فى الواقع كنت أريده أن يقتلنى حينذاك لاننى فقدت فجأة كل رغبة فى مواصلة الحياة . ولكنه غضب قائلا :
ـ « من ذا الذى تحدث عن قتلك ؟ لماذا كنت تخافيننى ؟ »
ـ « من يعلم ؟ لقد أخفتنى . ولا يمكنك تفسير هذه الامور . »
ـ « وهل كان جينو يخيفك ؟ »
ـ « لماذا يخيفنى ؟ »
ـ « ولماذا أخيفك ؟ » عندئذ كانت كل خيلائه قد تلاشت وعاود صوته شىء من الغضب .

فقلت لكى اخفف عنه : « لقد اخفتنى لانه من الواضح لكل من يراك انك خليق بأن تفعل كل شىء . »

فلم ينبس بكلمة بل جلس هناك لحظة متأملا ثم استدار نحوى وسألنى قائلا بلهجة منذرة : « هـذا معناه أنك تريديننى أن ارتدى ملابسى واغادر الدار ؟ » .

فنظرت اليه وادركت أن نوبة الغضب قد تولته مرة أخرى . فلو أننى رفضته لعرضت نفسى لمزيد من العنف ، بل ربما تعرضت لما هو أسوأ من ذلك . فعلى أن أقبله . ولكننى تذكرت عينيه الشاحبتين . وامتلأت نفسى نفورا عندما خطر لى انهما ستتركزان على عينى أثناء المضاجعة .

فقلت فى ضعف : « كلا . بل يمكنك البقاء ان شئت . ولكن عليك أولا أن تطفىء الضوء » .

فنهض واقفا بحجمه الضئيل وبشرته البيضاء . ولكن أطرافه كانت غاية فى التناسق فيما خلا عنقه القصير . ثم سار على أطراف أصابعه ليدير مفتاح النور بالقرب من الباب . غير اننى أدركت فى الحال ان تكليفه باطفاء الضوء لم يكن اقتراحا موفقا . فما ان ساد الظلام فى الغرفة حتى عاودنى على صورة لا سبيل الى كبح جماحها ذلك الخوف الذى خيل لى أنه فارقنى . فقد بدا لى ان من كان معى فى الغرفة ليس رجلا ، بل فهدا أو وحشا آخر مفترسا وربما ربض لى متحفزا فى أحد أركان الغرفة أو انقض على فمزقنى اربا اربا . ولعله تأخر ليجد طريقه فى الظلام بين المقاعد وقطع

الاثاث الاخرى أو لعل الخوف صور لي أن غيبته طالت . فلا شك انني أحسست وكأن دهورا قد مرت قبل بلوغه الفراش . وعندما شعرت بيديه تلمسان جسدي عاودتني على الرغم مني قشعريرة متشنجة . وتمنيت الا يكون قد لاحظها ولكن غرائزه كانت مرهفة كغرائز الحيوان . وفي الواقع فاني سمعت صوته في الحال بجانبي قريبا مني وهو يسألني قائلا : « أما زلت خائفة ؟ »

لا ريب أن ملاتي الحارس كان ماثلا هناك في الظلام . فثمة تغير طفيف في نبرة صوته أنبأني انه قد رفع ذراعه في انتظار جوابي نفيا أو ايجابيا ليتصرف طبقا لذلك . أدركت أنه رغم احساسه بما يبثه في النفوس من رعب كان يبغي أن يكون غير ذلك وان ينعم بالحب كغيره من الرجال ولكنه لم يعرف وسيلة لبلوغ تلك الغاية سوى اثارة مزيد من الرعب . فرفعت يدي بحجة أن أمر بها على ذقنه وكتفه اليمنى فاكتشفت ان ذراعه كانت مرفوعة حقا كما خيل لي وعلى اهبة الاستعداد ليهوى بها على وجهي. فتكلمت في صعوبة محاولة أن اضفي على صوتي هدوءه المعهود ونغمته الرقيقة قائلة : « كلا . ولكنه البرد حقا في هذه المرة. فلنلتحف بأغطية الفراش » .

فقال : « هكذا احسنت ! » ولم يزد ذلك الرد بصداه المنذر على أن جسم مخاوفي . وعندما عانقني ولامسني مداعبا تحت الاغطية وسط الظلام الذي يكتنفنا مرت بي لحظة من أسوأ لحظات حياتي عانيت فيها ألما حادا مبرحا . فما أن لامست جسده الاملس القوى المتلوى على صورة غريبة حتى تصلبت أطرافي من الخوف ، وانكمشت في قشعريرة لا سبيل الى كبح جماحها . ولكنني في نفس الوقت قلت محدثة نفسي ان خوفي منه في تلك اللحظة أمر مثير للسخرية . وحاولت بكل قواى العقلية أن اتغلب على خوفي وان أهبه نفسي في شجاعة كعشيق أعزه وأحبه . ولكن خوفي لم يكن يكمن في أطرافي التي ما زالت تطيعني بغض النظر عن مدى احجامها بقدر ما كان يكمن على صورة أعمق في أغوار رحمي الذي بدا منقبضا يلفظ عناقه في رعب . وأخيرا وطئني فأحسست بلذة جعلها الخوف وحشية مشئومة فلم أستطع أن أحبس صرخة طويلة مولولة في الظلام وكأن ضمته الاخيرة هي ضمة الموت لا ضمة الحب وصرختي زهوق الروح تاركة وراءها جسدا هامدا معذبا .

ثم رقد هناك في الظلام يخيم علينا الصمت . ولما كنت

متعبة فقد استغرقت فى النوم فى الحال تقريبا . ثم ما لبثت أن راودنى احساس بأن عبئا هائلا أطبق على صدرى وكأن سونزونيو قد أقعى فوقى منكمشا فى عريه ويداه تقبضان على ركبتيه اللتين اتكأ بوجهه عليهما . كان قابعا على صدرى وهو يضغط باليتيه القويتين العاريتين على عنقى واضعا قدميه على بطنى . وكان لا يفتأ يزيد ثقله كلما واصلت النوم . وكنت على الرغم من نومى لا أبرح أتقلب فى قلق هنا وهناك محاولة التخلص منه أو ابعاده عنى على الاقل . وأخيرا أحسست وكأنى أختنق . فحاولت أن أصرخ . ولكن صوتى أحتبس فى حلقى وظللت أصيح بلا صوت فترة من الزمان بدت لا نهائية . وأخيرا أمكننى أن أخرجه عنوة فاستيقظت مرددة أنينى بصوت مرتفع .

كان المصباح مضاء على المنضدة الصغيرة بجانب الفراش . وقد اتكأ سونزونيو برأسه على احدى ذراعيه وهو يتأملنى . فسألته قائلة : « هل طال نومى ؟ » .

فقال مطبقا أسنانه : « نصف الساعة » .

فرميته بنظرة لم تزل ممتلئة برعب الكابوس الذى تراءى لى لانه سألنى وفى صوته نبرة غريبة كمن يريد أن يدخل فى جدال قائلا : « أما زلت خائفة ؟ » .

ـ « لست أدرى . »

فقال : « لو عرفت من أنا لزاد خوفك منى عنه فى أى وقت مضى »

ان الرجال جميعا يميلون الى التحدث عن انفسهم عقب المضاجعة والى وضع ثقتهم فى المرأة التى يمارسون الهوى معها . ومن الواضح ان سونزونيو لم يكن استثناء من هذه القاعدة . وقد تميزت لهجته بعدم المبالاة والكسل بل والعطف كما خالجتها مسحة من الخيلاء والرضا عن النفس . ولكننى لشد ما انتابنى الخوف مرة اخرى حتى ان قلبى أخذ يثب فى صدرى وكأنه يوشك أن ينفجر .

فسألته قائلة : « لماذا ؟ من أنت ؟ » .

فنظر الى لا مترددا ، بل متذوقا تأثير كلماته على ، وأخيرا قال فى بطء : « أنا بطل فيابالسترو . ذلك هو انا » .

لم ير ضرورة لشرح ما حدث فى فيابالسترو . وكان عندئذ محقا فى خيلائه . فثمة جريمة رهيبة قد ارتكبت حديثا فى أحد منازل ذلك الشارع ، وقد امتلأت بأنبائها الصحف ، كما ظل يناقشها كل من تستهويه مثل هذه الاخبار ، وفى الواقع فان أمى التى

كانت تقضي معظم النهار فى تهجى انباء الجريمة فى الصحف كانت أول من حدثنى عنها . وموضوعها ان صائغا شابا قتل فى شقته حيث يقيم وحده . ومن الواضح ان السلاح الذى استخدمه سونزونيو ـ اذ اننى تأكدت الآن من أنه القاتل ـ كان مثقلة للورق برونزية ثقيلة . لم يجد رجال الشرطة خيطا يعينهم فى مهمتهم . ومن الواضح أيضا ان الصائغ كان يتقبل السلع المسروقة فظن رجال الشرطة ـ وهم على حق فى ذلك كما سنرى ـ انه قتل أثناء عقد احدى الصفقات التى حرمها القانون .

وطالما لاحظت اننا كلما سمعنا نبأ يملؤنا بالدهشة أو الرعب تصير أذهاننا صفحة بيضاء ثم نوجه انتباهنا الى أول شىء تقع عليه أبصارنا بطريقة غريبة وكأننا نريد أن نخترق سطحه لنصل الى سر مجهول يختفى فى داخله . ذلك هو ما حدث لى بعد أن كشف سونزونيو عن شخصيته . فقد فتحت عيناى على سعتهما وصار ذهنى خاويا كوعاء كان يحتوى على سائل معين أو مسحوق دقيق ثم أخذ يرشح فجأة ، غير ان عقلى رغم فراغه كان على استعداد لتلقى مادة جديدة بل ينتظر مترقبا ذلك . وقد آلمنى ذلك الاحساس لاننى كنت اتوق الى ملء فراغه ولا اقوى عليه . وفى تلك الاثناء لم أفتأ أحملق فى معصم سونزونيو الذى تمدد بجانبى متكئا على احد مرفقيه . وكانت ذراعه بيضاء ملساء ناعمة ولكنها رغم امتلائها لم تنبىء قط بقوته الخارجة عن المألوف . كما كان معصمه ناعما أبيض اللون محاطا بسوار من الجلد كسوار الساعة ولكنه بلا ساعة . وكان ذلك هو الشىء الوحيد الذى ظل محتفظا به من ملابسه على جسده العارى . وقد بدا لى أن لون ذلك السوار القاتم الشحيم كان يضفى بعض المعنى لا على ذراعه فحسب ، بل على جسده الابيض العارى بأكمله. وأخذت أطوف بعقلى حول ذلك المعنى دون أن أتمكن من اكتشافه . كان معنى مشئوما يذكرنى بحلقة فى قيد سجين . ولكن ثمة شيئا آخر حول سواره الجلدى جمع بين الفتنة والقسوة ذلك انه كان أشبه بحلية تبرز فى سونزونيو طابع وحشيته الغادرة المفاجئة . ولم يستمر فراغ ذهنى سوى لحظة واحدة لم يلبث بعدها أن امتلأ راسى فجأة بحشد من الخواطر الصاخبة المضطربة التى لم تفتأ تخفق هنا وهناك كالطيور الحبيسة فى قفص مزدحم. وتذكرت اننى احسست بالخوف نحو سونزونيو منذ اللحظة الاولى . كما تذكرت اننى

ضاجعته فأدركت عن طريق جسـدى المـروع حين استسلمت لاحضانه فى الظلام كل ما كان يخفيه عنى حتى قبل أن يدركه عقلى الجاهل وذلك هو السر فى صرختى المدوية .

فسألته قائلة : «ولماذا فعلت ذلك؟» كان هذا هو أول ماخطر لى ولم تكد شفتاه تتحركان وهو يجيبنى قائـلا : « كان معى شىء قيم أريد أن أبيعه ، وكنت أعلم انه خنزير قذر ولـكننى لم أكن أعرف تاجرا سواه . فعرض على سعرا مضحكا . وكنت أكرهه من قبل لانه سبق أن غمطنى حقى . فطلبت اليه أن يرد لى سلعتى ونعته بالفش ، فقال لى شيئا أفقدنى صبرى » .

فسألته قائلة : « ماذا قال ؟ » وقد لاحظت الآن لدهشتى ان خوفى أخذ يفارقنى رويدا عندما بدأ سـونزونيو يروى لى قصته . وأثارنى على الرغم منى احساس بالاثم المشترك . وعندما سألته عما قاله الصائغ لاحظت أننى كنت أتمنى أن يكون شيئا شنيعا مسيئا للغاية يجعل الجريمة مغتفرة ان لم تكن مبررة تماما .

فأجابنى قائلا باختصار : « قال انه سيسلمنى للشرطة ان لم اذهب ، فحدثت نفسى قائلا : « حسبى هذا » . وعنـدما استدار بعيدا .. » ولم يتم عبارته بل أخذ يحملق فى بنظرة ثابتة .

ثم سألته قائلة وقد بدا فضولى عندئذ بلا هـدف أو غاية : « وكيف كان يبدو ؟ » .

فأجابنى قائلا فى دقة : « أصلع الرأس ، قصير القامة الى حد ما ، ذا وجه ماكر كوجه الارنب البرى » . ولـكنه كان يتكلم وقد ارتسم على وجهه تعبير ينبىء بالـكراهية الهادئة غير المنفعلة مما جعلنى أتمثل الرجل أمامى وأكرهه أنا أيضـا ، ذلك اللعين ذو الوجه الارنبى الذى كان مخادعا مريبا فى تقديره لقيمة السلعة التى حملها اليه سونزونيو . وزايلنى الخـوف تماما . فقد بدا لى ان سونزونيو قد نقل الى كراهيته لضحيته مما جعلنى أشك حتى فى ادانته . وقد بدا لى بالفعل أننى فهمت ما حدث فهما جيـدا حتى أحسست أننى أيضا ربما كنت جديرة بارتكاب نفس الجـريمة . فلشد ما فهمت عبارته التى قال فيها : «قال لى شيئا أفقدنى صبرى!» كما حدث أن فقد صبره مرة مع جينو ثم معى . وان كنا أنا وجينو لم نزل على قيد الحياة فذلك مرجعه الصدفة السعيدة فحسب . لشد ما فهمته ولشد ما استطلعت خبيئة نفسه حتى أننى لم يزايلنى الخوف

منه فحسب ، بل أحسست نحوه بنوع من الجاذبية المفزعة ، تلك الجاذبية التى لم أستطع ان أحس بها عندما كنت أجهل كل شيء عن الجريمة ولم يعد أن يكون فى نظرى عندئذ أحد عشاقى الكثيرين.

فسألته قائلة : « ألست آسفا ؟ الا تشعر بالندم لارتكابها ؟ »

فأجابنى قائلا : « لقد انتهى الامر الآن » .

فنظرت اليه بامعان وتولتنى الدهشة عندما وجدتنى أومىء برأسى مستحسنة اجابته . ثم تذكرت ان جينو أيضا كان بلغة سونزونيو خنزيرا قذرا ومع ذلك فقد كان رجلا هو أيضا وأحبنى وأحببته . وخيل لى اننى بهذه الطريقة ربما وجدتنى موافقة على قتل جينو فى المستقبل القريب . فقد اعتقدت ان الصائغ قبل كل شيء لم يكن أفضل من جينو أو أسوأ منه فى شيء . ولا فارق بينهما سوى اننى لم أكن أعرفه . وقد وجدت ان قتله كان له ما يبرره لا لسبب الا لاننى سمعت شخصا يقول عنه بلهجة معينة ان له وجها كوجه الارنب . فامتلأت نفسى رعبا وتبكيتا ــ لا من أجل سونزونيو الذى خلق على هذه الصورة وكان لابد أن تفهم نفسيته قبل الحكم عليه ، بل من أجل نفسى لان عدوى الكراهية والدم قد انتقلت الى رغم اننى لم أخلق على هذه الصورة مثل سونزونيو واستويت على الفراش وانا فى حالة من الاضطراب هاتفة : « يا الهى ! يا الهى : لماذا فعلت ذلك ؟ ولماذا أخبرتنى به ؟ » .

فأجابنى قائلا فى بساطة : « لشد ما كنت خائفة منى مع أنك لم تعرفى شيئا عنى . وخيل لى ان هذا أمر غريب فأخبرتك بما حدث » . ثم أردف قائلا وهو مسرور بفكرته : « ومن حسن الحظ ان الباقين ليسوا جميعا على شاكلتك والا لكنت الآن مقبوضا على » .

فقلت : « يحسن بك أن تذهب وتتركنى لشأنى . هيا .. »

فسألنى قائلا : « والآن ماذا دهاك ؟ » .

وأمكننى أن أتبين من لهجته أنه قد بدأ ينتابه الغضب ، ولكن خيل لى أيضا اننى لاحظت عليه نوعا من الحزن لاحساسه بالوحدة وبأنه مدان فى نظر الجميع حتى انا مع اننى كنت قد وهبته نفسى قبل ذلك بلحظة واحدة .

فأسرعت مردفة : « لا تحسبنى خائفة منك . فلا أثر للخوف فى نفسى . ولكننى يجب أن أروض نفسى على الفكرة وأن اتدبر

الامر . وبعد ذلك يمكنك أن تأتي الى وسوف تجدني متغيرة » .
فقال :« وفيم تفكرين ؟ ليس في نيتك أن تسلميني الى الشرطة. اليس كذلك ؟ » .

وقد خالجني ازاء هذه الكلمات ذلك الاحساس الذى

راودني عندما روى لى جينو قصة غدره بالخادمة وكأن عالمي الذي أعيش فيه يختلف عن عالم سونزونيو . فتكلفت مشقة في السيطرة على نفسي قائلة : « ولكنني أقول لك انه يمكنك المجيء ! اتعرف ماذا تقول لك أية امرأة أخرى ؟ تقول انها تريد أن تقطع كل صلة بك والا تراك مرة أخرى » .
ـ « ولكنك في نفس الوقت تأمرينني بالذهاب ؟ »

ـ « خلتك راغبا في ذلك . فالامر لايهم أن طال بقاؤك دقيقة أو قل دقيقة . ولكنك ان شئت البقاء فلتبق ! اتريد أن تنام هنا ؟ يمكنك ان شئت أن تنام معي ثم تنصرف غدا صباحا . أهذا هو ما تبغي ؟ » وقد اقترحت ذلك في الواقع بصوت كئيب حائر حزين . ولاريب انه قد بدت في عيني نظرة حائرة ومع ذلك فقد كان ذلك هو اقتراحي وكنت أعلم أنني مسرورة به . ولعلي كنت مخطئة ولكن نظرته الى بدا لى فيها بصيص من العرفان .
فقال وهو يهز رأسه : « كلا . فذلك كلام فحسب . اذ ينبغي أن أذهب » . ثم نهض واقفا واتجه الى المقعد حيث ترك ملابسه .

فأجبته قائلة : « كما تشاء . ولكنك ان أردت البقاء فأنت تعلم أن ذلك في امكانك » . ثم أضفت قائلة في صعوبة : « وان احتجت الى مأوى في احدى الليالي فيمكنك أن تأتي الى هنا ».

فلم ينبس بكلمة ، بل راح يرتدي ملابسه . فنهضت انا أيضا وتدثرت بعباءة . ثم أحسست بالجنون وانا أتجول في الغرفة التي بدت وكأنها قد امتلأت بأصوات لم تفتأ تهمس في أذني بكلمات منفعلة مخبولة . ولعل ذلك الاحساس بالجنون هو الذى جعلني أقدم على شيء دون أن أفهم حينئذ السر في اقدامي عليه . فبينما كنت أتجول في الغرفة متحركة في بطء رغم احساسي بالجنون ، رايته ينحني ليعقد رباط حذائه . فركعت أمامه في الحال قائلة : « دعني أعقده لك». فانتابته الدهشة ولكنه لم يحتج. فأمسكت بقدمه اليمنى ووضعتها في حجري ثم عقدت الرباط عقدة مزدوجة. وهكذا فعلت في القدم اليسرى . فلم يشكرني ولم ينبس بكلمة .

ولعل كلينا لم يفهم السر فيما فعلت . ثم ارتدى سترته واخرج حافظة كمن يهم باعطائى نقودا . فقلت فى حدة : « كلا . كلا . لا تعطنى شيئا .. فهذا لا يهم » .

فسألنى قائلا فى غضب : « لماذا ؟ أليست نقودى كنقود غيرى؟ » وخيل لى انه من الغريب الا يفهم نفورى الفريزى من النقود التى ربما كانت مسلوبة لتوها من جيب القتيل . ولكن لعله كان يدرك ذلك فعلا غير انه يبغى ان يعرضنى للشبهة بجعلى شريكة فى الجريمة على صورة ما . كما أراد فى نفس الوقت أن يقف على حقيقة شعورى نحوه .

فقلت : « كلا . لم أقصد ذلك . ولكننى عندما استغثت بك لم أكن أفكر فى النقود . فهذا لا يهم » .

فهدأ روعه قائلا : « حسنا . ولكنى أحب أن أترك لك تذكارا » . ثم أخرج شيئا من جيبه وضعه على رخامة المنضدة الصغيرة .

فتأملته دون أن التقطه فاذا به تلك « البدارة » التى سرقتها من مخدومة جينو قبل ذلك ببضعة شهور .

فتلعثمت قائلة : « ما هذه ؟ »

– « لقد أعطانيها جينو . وهى تلك السلعة التى كان على أن أبيعها وأراد الصائغ أن يحصل عليها دون مقابل . ولكنها فى اعتقادى ثمينة للغاية حقا ، فهى من الذهب .. »

فقلت متحكمة فى نفسى : « شكرا » .

فأجاب قائلا : « لا موجب للشكر مطلقا » . ثم ارتدى معطفه الواقى من المطر وشد حزامه وخاطبنى قائلا من مدخل الغرفة : « اذن فالى اللقاء » . ثم ما لبثت أن سمعت الباب الخارجى يغلق .

وما ان خلوت الى نفسى حتى اتجهت الى المنضدة الصغيرة لالتقط « البدارة » فأحسست بالحيرة والذهول وانتابتنى فى نفس الوقت دهشة كئيبة . كانت « البدارة » تتلألأ فى يدى وفجأة بدت الياقوتة المثبتة فى القفل وكأنها تكبر فى الحجم حتى صارت قطرة حمراء مستديرة لم تفتأ تتسع حتى غطت الذهب . فكانت راحة يدى تحتوى على بقعة لامعة مستديرة من الدم تعادل فى وزنها « البدارة » نفسها . وما ان هززت رأسى حتى اختفت البقعة الحمراء ومرة أخرى لم أعد أرى سوى « البدارة » الذهبية ذات

القفل المرصع بالياقوت . ثم أعدت « البدارة » الى مكانها على المنضدة الصغيرة واضطجعت على الفراش متدثرة بعباءتى حيث اطفأت النور وبدأت أفكر .

وخيل لى انه لو رويت لى قصة « البدارة » لوجدتها مسلية للغاية وكأن ما يروى لى هو سلسلة من الظروف التى لا يكاد يمكن تصديقها . فهى من تلك القصص التى تستفزنا هاتفين : « يا لها من صدفة ! » كما ان النساء ممن على شاكلة أمى يحسبن على أساسها أرقام اليانصيب ، فهذا الرقم يمثل الرجل الميت وذاك يمثل الذهب وذاك يمثل اللص . ولكنها عندئذ وقعت لى وأدركت لدهشتى الفارق بين وجودى فى داخل الواقعة وبين وجودى كشخص غريب فحسب . وكانت طريقة حدوثها أشبه بشخص وضع بذرة فى الارض ثم نسيها . وعندما عاد اليها ألفاها نباتا زاهرا تكسوه الاوراق والبراعم التى توشك على التفتح . ولكن – يا لها من بذرة ويا له من نبات ويا لها من براعم ! وأطلقت العنان لذاكرتى فأخذت تنقلنى من شىء الى آخر ولكننى لم أستطع أن أعثر على نقطة البداية . لقد أسلمت نفسى لجينو آملة أن يتزوجنى ولكنه غدر بى فسرقت « البدارة » لأكيد له . ثم صارحته بالسرقة فانتابه الخوف . ولكى أحول دون طرده من عمله أعدت اليه « البدارة » حتى يتمكن من ردها الى صاحبتها . ولكنه بدلا من ردها احتفظ بها . وخشية أن يتهم بالسرقة الصق التهمة بالخادمة التى أرسلت الى السجن . وكانت الخادمة بريئة وكانوا يضربونها فى السجن . وفى تلك الاثناء كان جينو قد أعطى سونزونيو « البدارة » ليبيعها له فذهب سونزونيو الى الصائغ . فأساء الصائغ الى سونزونيو . فقتله وهو فى سورة غضبه . فمات الصائغ وأصبح سونزونيو قاتلا . وأدركت اننى بمتابعتى للأحداث لا يمكننى أن أنحى باللائمة على نفسى والا لاضطررت أن أقول أن رغبتى فى الزواج وتكوين أسرة كانت هى السبب الاول فى تلك الكوارث المتلاحقة . ولكننى مع ذلك لم أستطع أن أتخلص من الاحساس بالرعب وتأنيب الضمير . وأخيرا وبعد تفكير طويل لم يسعنى الا أن أعترف بأن الخطأ كله راجع الى – الى ساقى وردفى ونهدى – الى كل ذلك الجمال الذى لشد ما زهت به أمى وهو فى حد ذاته صفة بريئة كل البراءة شأنه فى ذلك شأن كل ما تهبه ايانا الطبيعة . ولكن تلك الخواطر كان مبعثها

سخطي ويأسي . اذ اننا نسمح لخاطر واحد سخيف بأن يطرد ما عداه من الخواطر التى تفوقه سخفا مائة مرة . وكنت أعلم فى قرارة قلبى ان اللوم لا يقع على أحد فى الحقيقة وان كل شيء حدث كما كان مقدرا له أن يحدث ولو ان آلامر كله كان يفـوق الاحتمال . وان كان لابد حقا من وجود مذنب وبرىء فان كلا منا كان مذنبا بقدر ما كان بريئا .

وفى تلك الاثناء أخذ الظلام يكتنفنى رويدا رويدا كمياه الفيضان التى تصعد من الطابق الارضى الى الطوابق العليا فى المنزل. وكانت قدرتى على الحكم هى أول ما غمرته الظلمة . ولـكن خيـالى من الناحية الاخرى لم يفتأ يداعبه سحر جريمة سونزونيو حتى آخر لحظة . ومع ذلك فان الجريمة كانت بعيدة كل آلبعد عن أى ارتباط باللوم أو الرعب كواقعة تتميز بفتنتها الغريبة الخاصة ولا سـبيل الى تفسيرها. تخيلت سونزونيو وهو يسير فىشارع فيابالسترو داسا يديه فى جيبى معطفه الواقى من المطر ثم تخيلته عند دخوله المنزل ووقوفه فى ردهة الشقة فى انتظار قدوم الصائغ الذى تمثلته وهو يدخل الغرفة مصافحا سونزونيو متخذا بعد ذلك مكانه على المقعد خلف منضدته بينما يقدم اليه سونزونيو « البـدارة » فيفحصها وهو يهز رأسه متظاهرا باحتقارها . وعندئذ يرفع وجهه الارنبى مقدما عرضه المضحك فينظر اليه سونزونيو نظرة شاخصة وقد امتلأت عيناه بالغضب ثم يخطف « البدارة » من يده فى عنف متهما اياه بالرغبة فى خداعه . فيرد عليه الصائغ مهددا أياه بابلاغ الشرطة وينذره بمغادرة الدار . وعندئذ يشيح بوجهه بعيدا أو يحنى رأسه كمن يريد أن ينهى المناقشة . فيلتقط سـونزونيو مثقلة الورق البرونزية ويضربه بها مرة على رأسه . فيحاول الصائغ أن يهرب. ولـكن سونزونيو ينقض عليه ويظل يضربه حتى يتأكد تماما من أنه فارق الحياة . ثم يدفعه سونزونيو الى الارض ليفتش الادراج فيأخذ منها كل ما أمكنه العثور عليه من نقود ثم يولى هاربا . ولكنه قبل انصرافه يرفس القتيل فى وجهه وهو فى سورة غضبه كمـا سبق أن قرأت فى الصحف .

واخـذت أنانى مفتونة بتفاصيـل الجريمة جميعها . وتابعت سونزونيو متقمصة حركاته فيما يشبه الحب . فكنت أنا اليد التى قدمت « البدارة » والتى التقطت مثقلة الورق وضربت الصائغ . وكنت أنا القدم التى سحقت وجه القتيـل فى غضب عنـدما

انتهى كل شيء . ولكن تلك الرؤى كانت خالية من كل أثر للرعب أو اللوم كما خلت أيضا من الموافقة والاستحسان كل ما حدث اننى أحسست بنفس المتعة الغريبة التى لا تفتأ تراودنا ونحن أطفال كلما انصتنا الى قصص امهاتنا حيث نجد الدفء فى انكماشنا بالقرب منهن متابعين فى انتباه مفتون مغامرات أولئك الابطال الاسطوريين. غير ان قصتى كانت بشعة دامية مخيفة بطلها سونزونيو فخالطت متعتى بها كآبة لا معدى عنها . وبينما كنت أحاول اكتشاف المعنى الخفى للقصة اذا بى أبدأ فى استعراضها من جديد وتلخيص مراحل الجريمة جميعا . فعاودنى ذلك الاحساس بالمتعة الغامضة ووجدتنى أقف وجها لوجه أمام السر الغامض من جديد . واستغرقت فى النوم بين حدثين فى تخيلاتى كمن يهوى برأسه فى الفراغ الفاصل بين هوتين لاساءته تقدير المسافة بينهما .

ونمت زهاء ساعتين ثم استيقظت . أو الاحرى اننى بدأت أستيقظ جسمانيا بينما ظل عقلى فى حال من الخدر والركود ــ وكانت يداى هما أول ما استيقظ فى جسدى فمددتهما أمامى فى الظلام كما يفعل الاعمى دون أن أدرى أين كنت . ورغم أننى عندما أستغرقت فى النوم كنت ممددة بطولى على الفراش فقد وجدتنى أقف الآن منتصبة القامة فى فراغ ضيق ينحصر بين جدارين أملسين عموديين ليست بهما شقوق او كسور مما أوحى الى فى الحال بزنزانة السجن . وتذكرت فى نفس الوقت تلك الخادمة التى تسبب جينو فى القبض عليها . كنت انا نفسى تلك الخادمة فقد احسست فى قلبى بكل ما كانت تعانيه من الم مبرح لما لحقها من ظلم . ثم تحول ذلك الالم الى الاحساس الجسمانى بأنى الخادمة نفسها . وقد بدلنى أساها وحبسنى فى جسدها واعارنى وجهها وفرض على حركاتها . فاحتقنت وجهى بيدى وبكيت متخيلة نفسى وقد أودعت ظلما زنزانة السجن حيث لا سبيل مطلقا الى الهرب . ولكننى كنت أعلم فى نفس الوقت اننى آدريانا التى لم تقاس ظلما والتى لم تودع السجن قط . وكنت أعلم اننى بحركة واحدة خليقة باطلاق سراحى فلا أحس بعد ذلك بأنى الخادمة . غير اننى لم أستطع ان اتخيل كيف يمكن أن تكون تلك الحركة ــ رغم معاناتى على صورة لاتوصف بسبب رغبتى فى الهرب من سجن الشفقة والالم . وفجأة ومض فى خاطرى اسم آستاريتا وقد ابرق به ضوء متقطع مرتعش كذلك الذى يبدو لعينى المرء عندما يتلقى ضربة عنيفة . فحدثت نفسى

قائلة : « سأذهب لمقابلة آستاريتا حتى يفرج عنها » . ومددت يدى مرة اخرى فاكتشفت شقا ضيقا فى الجدران العمودية لزنزانتى يمكننى ان اهرب منها . فتقدمت بضع خطوات فى الظلام وهناك أحسست بمفتاح النور تحت أصابعى فأدرته بسرعة هستيرية . فافترش الضوء الغرفة . واذا بى واقفة بالقرب من الباب عارية لاهثة يتصبب العرق البارد على وجهى وجسدى . ولم تكن الزنزانة التى احتبست فيها سوى الزاوية القائمة بين صوان الملابس وركن الغرفة وخزانة الثياب وكانت تشكل فراغا ضيقا يكاد ينحصر تماما بين الجدران وقطع الاثاث. فلا ريب اننى نهضت أثناء نومى وتجولت هنا وهناك حيث أقحمت نفسى فى تلك الزاوية .

اطفأت الضوء مرة أخرى وعدت فى بطء الى الفراش . ولـكننى ادركت قبل استغراقى فى النوم انه لا يمكننى بالطبع ان أبعث الصائغ الى الحياة . ولـكننى أستطيع ان أنقذ الخادمة أو أحاول انقاذها وهذا هو كل ما يهم . ومما زادنى الآن احساسا بذلك الواجب اكتشافى اننى لم أكن خيرة كما كان اعتقادى دائما فى نفسى . أو على الاقل ان الخير فى نفسى لم يخل من الميل الى سفك الدماء والاعجاب بالعنف والاستمتاع بالجريمة .

الفصل الرابع

وفى اليوم التالي ارتديت ملابسى بعناية وألقيت « البدارة » فى حقيبتى ثم غادرت الدار لأتصل بآستاريتا تليفونيا . وكنت منشرحة الصدر على صورة غريبة . فقد تلاشى تماما ذلك الالم المبرح الذى سببه لى سونزونيو فى الليلة البارحة بما أظهرنى عليه من أسرار . وطالما لاحظت فى حياتى منذ ذلك الحين ان الزهو هو ألد أعداء الاحسان والتبكيت الادبى . فكان شعورى الآن نوعا من الزهو بدلا من الخوف والرعب وذلك لاعتقادى انه لم يكن فى المدينة من يعلم طريقة ارتكاب جريمة فيابالسترو أوشخصية مرتكبها سواى . فحدثت نفسى قائلة : « انى أعرف من الذى قتل الصائغ » وأخذت أنظر الى الناس والاشياء نظرة تختلف عن نظرتى اليها البارحة . بل خيل لى أن وجهى لابد أن يكون قد طرأ عليه شيء من التغير . وخشيت أن يرى الناس فى تعبير وجهى سر سونزونيـو . وراودنى فى نفس الوقت حنين هادىء لذيذ غلاب الى الـكشف عن خبيئة نفسى . فقد فاض قلبى بالسر كما يفيض الاناء الصغير بالماء واستمالنى اغراء ان استودعه غيرى . وأعتقد ان هذا هو السبب الرئيسى فى ان الـكثيرين من المجرمين يظهرون خليلاتهم وزوجاتهم على الجرائم التى يرتكبونها فيبوح بها النساء الى اخلص الاصـدقاء ليفضوا بها بدورهم الى غيرهم وهكذا حتى تبلغ مسـامع الشرطة فيكون فى ذلك هلاكهم جميعا. ولـكننى أعتقد أيضا ان المجرمين يحاولون بحديثهم عن جرائمهم أن يتخففوا من عبء لا يطاق باشراك غيرهم فيه وكأن الجرم طرد كبير يمكن تقسيمه الى طرود صغيرة يحملها عدد كبير من الناس فتخف وطأته وتقل خطورته ولا يكون كما هو فى الواقع عبئا يتعذر نقله ولا يقل وزنه مطلقا بمشاركة الآخرين بل على العكس يزيد وزنه فى الحقيقة كلما زاد عدد حامليه .

وبينما كنت أجوب الشـوارع بحثا عن تليفون عمومى ابتعت جريدتين لاستطلع مزيدا من التفاصيل فى جريمة فيابالسترو . ولـكن الجريمة كانت قد مضت عليها بضعة أيام فلم أجد سـوى سـطور قليلة مخيبة للآمال تحت عنـوان : « لا أدلة فى مصرع

الصائغ » . فأدركت ان سونزونيو لن يكتشف أمره ما لم يرتكب خطأ أخرق . ومما جعل تحريات الشرطة متعذرة للغاية ان القتيل كان يمارس عملا غير مشروع . فان الصائغ كما قالت الصحف كانت له اتصالات خفية لا يقرها القانون بأناس من جميع الطبقات والبيئات . وربما كان القاتل شخصا لم يره قط من قبل وقد قتله من فوره . وكان ذلك التفسير أقرب ما يكون الى الحقيقة . ولكنه لما كان غاية فى الصحة لذلك السبب بعينه فمن الواضح ان رجال الشرطة كانوا قد فقدوا كل أمل فى الوصول الى القاتل .

وعثرت على تليفون عمومى فى مطعم صغير فاتصلت بآستاريتا . ولم أكن قد اتصلت به لمدة ستة أسابيع على الاقل فلاريب انه فوجىء بى لانه لم يتعرف على صوتى فى بادىء الامر وخاطبنى بتلك اللهجة العملية التى يستخدمها فى مكتبه الى حد أنه تبادر الى ذهنى لحظة انه لا ينبغى ان تكون لى به صلة بعد ذلك . وتوقف قلبى عن الخفقان عندما تذكرت تلك الخادمة السجينة التى شاء سوء حظها ان ينبذنى آستاريتا فى اللحظة التى كان لابد فيها من تدخله لانقاذ تلك المرأة التعسة . ومع ذلك فان يأسي قد خالطه بعض السرور لانه عندما عاودنى ادراك الخير فى نفسى صرت أرى ان الافراج عن تلك المرأة أمر يهمنى حقا . واننى كنت رغم اتصالى الوثيق بالقاتل سونزونيو لا أزال كما كنت دائما آدريانا الرقيقة العطوف .

فأدليت باسمى لآستاريتا فى خوف ورجفة ولكننى شعرت بالارتياح عندما سمعت لهجة صوته تتغير فى الحال فينتابه التردد والتسرع ويتعثر فى ألفاظه . ولا يفوتنى ان اعترف بأننى أحسست نحوه عندئذ باندفاع عاطفى لان حبا من ذلك النوع الذى لا يفتأ يدغدغ كبرياء المرأة كان خليقا ان يبث الطمأنينة فى نفسى ويشعرنى عندئذ بفيض من العرفان . فضربت له موعدا بلهجة عذبة رقيقة فوعدنى بضرورة حضوره ثم غادرت المطعم .

كان المطر لا يفتأ يهطل بغزارة أثناء ذلك الكابوس الذى تراءى لى . وطالما سمعت فى نومى هسيس المطر مختلطا بصفير الريح فكانا يشيدان حول منزلى جدارا من الطقس الردىء مما لم يفتأ يزيد من وحشة ذلك الظلام الذى اكتنفنى أثناء صراعى مع الكابوس ولكن المطر كان قد انقطع قرب الصباح واستطاعت نفثات الريح الاخيرة ان تبدد الغيوم فصفت السماء وصار الهواء نظيفا عليلا .

وبعد ان تم اتصالى بآستاريتا اتخذت طريقى فى شارع تحف به أشجار الدلب بينما أشرقت شمس الصباح الباكر . وكنت اشعر بدوار طفيف هو كل ما خلفته تلك الليلة المؤرقة ولكنه ما لبث أن تبدد مع الهواء البارد . ولشد ما أبهجنى ذلك اليوم الجميل . فكان كل ما يقع عليه بصرى يتميز بلون من الفتنة التى تجذبنى وتسرنى . فأعجبت برقاع البلل التى ما زالت تحوف بأحجار الافاريز الجافة. وأعجبت بالمنازل التى ما برحت تحمل على واجهاتها آثار المطر الغزير الذى انهمر أثناء الليل فى رقاع كبيرة من البلل . كما أعجبت بالمارة من رجال يهرعون الى أعمالهم وخادمات يحملن حقائب السوق وفتية وفتيات يتأبطون كتبهم وحقائبهم المدرسية ممسكين بأيدى أولياء أمورهم واخوتهم الكبار . وتوقفت عن المسير لأتصدق على سائل مسن . وبينما كنت أبحث فى حقيبتى عن بعض النقود وجدتنى أحملق بشغف فى عباءته العسكرية البالية مسرورة بتلك الرقاع التى توسطت الكمين عند المرفق وأحاطت بالياقة . فكانت هناك رقاع رمادية وبنية وصفراء وخضراء باهتة وأدركت مدى شغفى بملاحظة ألوانها ومشاهدة حياكتها المتقنة بخيط قطنى اسود فى غرز كبيرة . وفوجئت بنفسى وانا أتخيل كيف كان يعمل ذات صباح وهو يقص الاجزاء البالية بالمقص مدبرا الرقاع من خلق قديم ليضعها على الثقوب ويحيكها فى عشق . وقد بعثت تلك الرقاع فى نفسى سرورا كذلك الذى يبعثه منظر الخبز الطازج فى نفس الجائع . وعندما فارقته لم أتمالك نفسى من النظر الى الخلف لأتأملها مرارا وتكرارا . وخطر لى فجأة كم تكون الحياة رائعة جميلة لو كانت فى شفافية ذلك الصباح وصفائه وجماله ولو زايلها كل ما علق بها من مظاهر قذرة حتى يمكن النظر فى شغف الى احقر ما فيها من اشياء . وقد أحيى ذلك الخاطر رغبتى فى حياة عائلية طبيعية فى كنف زوج وفى منزل جديد نظيف مرتب مضىء . تلك الرغبة التى طال نومها وكبتها . وأدركت اننى لم أكن أحب مهنتى رغم استعدادى الطبيعى لها على ما فى ذلك من تناقض غريب . فانها لم تكن تبدو لى مهنة نظيفة . اذ كان يخيل لى ان جسدى وأصابعى وفراشى كانت جميعها لا تفتأ تفوح منها رائحة العرق العفنة والدفء النجس والروائح اللزجة التى لا سبيل الى زوالها مهما اغتسلت ومهما نظفت غرفتى ونظمتها . كما كان ارتداء ملابسى وتجردى منها كل يوم تقريبا على مرأى من رجال مختلفين

يحرماننى من متعة النظر الى جسدى مع احســــاس باللذة والخلوة ذلك الاحساس الذى أذكر أنه كان لا يفتأ يراودنى وأنا فتاة صـــغيرة كلما تأملت صورتى فى المرآة أو ذهبت الى الحمـــام . فـــانه لمن الممتع أن يتمكن الانسان من تأمل جسده وكأنه يتأمل شيئا جديدا مجهولا وهو لا يفتأ ينمو ويقوى ويزيد جمالا من تلقاء ذاته . ولكننى حرمت نفسى من تلك المتعة الى الابد لـكى أوحى الى عشـــاقى بالجدة فى كل مرة .

وعلى ضوء تلك الخواطر بدت لى جريمة سونزونيو وخبث جينو وكوارث الخادمة وجميع الدسائس الاخرى التى أشركت فيها نتائج تمخضت عنها حياتى المضطربة . ولـكن تلك النتائج لم تكن تنطوى على معنى خاص ولم تكن تبعث فى نفسى احساسا بالاثم بل كان فى وسعى تنحيتها جانبا حالما استطيع اشباع رغبتى الفضة اليافعة فى حياة طبيعية . واحسست برغبة غامرة ملحة فى تنظيم حيـــاتى من جميع الوجوه والتراضى مع القيم الاخلاقية التى تدين مهنتى والاتفاق مع الطبيعة التى تبغى من امرأة فى مثل سنى أن تحمل أطفالا ومصافاة الذوق السليم الذى أعد الحياة ليحياها المرء بين أشياء جميلة رافلا فى ثياب جديدة خلابة ومقيما فى منازل مضيئة نظيفة مريحة . ولـكن كلا من هذه العناصر الثلاثة كان يستبعد غيره . فلو شئت أن أكون على وفاق مع الاخلاق لما استطعت فى نفس الوقت أن أتفق مع الطبيعة . أما الذوق السليم فان الاخلاق والطبيعة تقلبانه رأســا على عقب . وما ان عرفت اننى مدينـــة لضرورات الحياة ولا يمكننى سد مطالبها الا بالتضحية بأسمى غاياتى حتى ملأنى ذلك السخط المعهود الذى يلازم المرء حياته بأسرها . ولـكننى أدركت من جديد اننى لم أذعن بعد لمصيرى اذعانا تاما مما بعث فى نفسى بصيصا من الامل لاننى استطعت أن أقول لنفسى انه ما ان تسنح لى فرصة لتغيير حياتى حتى أكون متيقظة لها فأنتهزها عن وعى وتصميم .

وكنت قد ضربت موعدا لآستاريتا عند الظهر حالما يغادر مكتبه . فكان على أن أنتظر ساعة أو اثنتين . ولما لم يكن لدى ما أفعله فقد صممت على الذهاب لمقابلة جيزيلا . وكنت قد انقطعت عن مقابلتها بعض الوقت فخيل لى ان الفراغ الذى كان يشغله ريكاردو من قبل فى حياتها لابد ان شخصا ما قد ملأه ــ شخصا لا هو بالخطيب ولا بالعشيق ، بل بين بين . وكانت جيزيلا تأمل أيضا أن تنظم

حياتها يوما ما . فانى أعتقد ان هذا الامل مشترك بين جميع النساء اللائى على شاكلتى . ولـكننى كنت ميالة بطبعى الى ذلك فى حين ان جيزيلا التى تعلق أهمية قصوى على الاعتبارات الدنيوية كانت ترى انه أقرب لأن يكون موضوع لياقة اجتماعية . فقد كانت تخجل من أن يراها الناس على حقيقتها رغم ان استعدادها لمهنتها كان يفوق استعدادى بكثير . أما انا فلم اكن اشعر بالخجل منها مطلقا ، بل كان يراودنى فحسب من وقت لآخر احساس بالعبودية وبالخيانة ازاء طبيعتى .

وما ان بلغت منزل جيزيلا حتى هممت بالصعود ولكن البوابة نادتنى قائلة : « هل انت صاعدة لمقابلة السنيوريتا جيزيلا ؟ انها لا تقيم هنا الآن » .

ـ « الى أين ذهبت ؟ »

ـ « الى شارع فيا كازابلانكا رقم ٧٠ » وكان شارعا جديدا يقع فى أحد الاحياء الحديثة . ثم اردفت قائلة : « لقد جاءها شاب أشقر يملك سيارة فنقل متاعها ورحلت معه » .

فأدركت على الفور ان ذلك هو بالضبط ما كنت أتوقع سماعه ، انها رحلت مع رجل . ولا أدرى لماذا انتابنى الهزال فجأة وارتعشت ساقاى مما اضطرنى الى أن اتكىء على عمود الباب خشية السقوط على الارض . ولـكننى استعدت هدوئى وقررت بعد لحظة من التفكير أن أذهب لزيارة جيزيلا فى عنوانها الجديد . فناديت احدى سيارات الاجرة وأمرت السائق بأن يصحبنى الى فياكازابلانكا .

وبينما كانت السيارة تسرع بى لاحظت اننا تركنا وسط المدينة بما فيه من صفوف المنازل القديمة المتقاربة التى ازدحمت بها الشوارع الضيقة . كما لاحظت ان الشوارع أخذت تتسع وتتشعب لتلتقى فى ميادين مفتوحة ثم لا تفتأ تتسع وتتسع حيث تقوم المنازل الجديدة . وكنت من وقت لآخر ألمح بينها الريف الاخضر . وادركت ان رحلتى كانت لها دلالة خفية مؤلمة للغاية حتى اننى مع كل لحظة تمر كنت أزداد حزنا وكآبة . واذا بى اتذكر فجأة تلك الجهود التى بذلتها جيزيلا لتجردنى من براءتى وتجعلنى احذو حذوها. فأخذت أبكى على صورة تلقائية كما تنزف الجراح .

وعندما غادرت السيارة فى نهاية الرحلة كانت عيناى تلمعان بينما ابتلت وجنتاى .فقال السائق : « لاينبغى أن تبكى يا آنستى.» فلم أزد على أن هززت رأسى واتجهت نحو الدار حيث تقيم جيزيلا،

كان مبنى صغيرا أبيض اللون حديث الطراز . وكان من الواضح انه شـيد حديثا كما دل على ذلك وجود البراميـل والادوات والالواح الخشبية مكدسة فى الحديقة الصغيرة الجرداء ورذاذ الملاط الابيض على قضبان البوابة . فدخلت ردهة بيضـاء عارية حيث رايت درجا أبيض اللون ذا نوافذ لبنية يدخل منها الضوء الهادىء وقادنى البواب الى داخل المصعد وكان شابا أحمر الشعر يرتدى بزة العمال ومختلفا كل الاختلاف عن أولئك البوابين المسنين القذرين الذين تعودنا رؤيتهم . وما ان ضغطت على زر المصعد حتى أخـذ يرتفع ٠ وقد شاعت فيه رائحة الكحول والخشب الجديد المصقول وهى رائحة لذيذة . وبدا لى ان هناك شيئا جديدا فى طنين الآلات أشبه بصوت جهاز لم يعمل سوى فترة وجيزة . وارتفع المصعد الى الطابق الاعلى وكان الضوء لا يفتأ يزداد انتشـارا كلما ارتفع المصعد فبدا المنزل وكأنه بلا سقف وبدا المصعد وكأنه يرتفع مباشرة الى السماء . ثم توقف عن الصعود وما ان غادرته حتى وجدت نفسى واقفة على بسطة بيضاء ناصعة تخطف الابصار وقد انتشر فيها الضوء الساطع . وأمامى باب جميـل ذو مقـابض نحاسية مصقولة . ثم دققت الجرس ففتحت لى الباب خادمة صغيرة نحيلة سمراء تضع على راسها قلنسوة بيضاء من الدانتللا وتتشح بوزرة مطرزة . فسألتها قائلة : « هل توجد هنا السنيورينا دى سانتس؟ ارجو أن تبلغيها انى آدريانا » .

فتركتنى وسارت فى دهليز يفضى الى باب ذى ألواح زجاجيـة لبنية اللون كتلك التى رأيتها على نوافذ الدرج ، وكان الدهليز بأسره أبيض اللون عاريا أيضا شأن بقية الارضية واعتقدت انها لابد أن تكون شقة صغيرة تتألف من أربع غرف فقط . وقد شاع فيها الدفء المنبعث من الاجهزة المشعة مما اظهر تلك الرائحة النفـاذة التى يتميز بها الجير والطلاء الجديدان ٠ ثم فتح الباب ذو الواجهة الزجاجية الذى يقع فى نهاية الدهليز وعادت الخادمة لتبلغنى انه يمكننى الدخول .

ولم أر شيئا عنـد دخولى فى أول الامر بسبب شمس الشتاء المشية التى كانت تغمر الغرفة من خلال نافذة واسـعة شغلت الحائط المواجه للباب بأكمله . وكانت الشقة فى الطابق الاعلى فلم يكن يرى من خلال تلك النوافذ سوى رقعة من السماء الزرقاء التى تتألق فى ضوء الشمس . وعندما أغمضت عينى فى ضوء الشمس

الذهبي الدافيء كالخمر المعتق نسيت زيارتي لحظة وخالجني شعور بالراحة والرفاهية . ولـكنني جفلت عند سماعي صوت جيزيلا التي كانت جالسة أمام النافذة وقد جلست في مواجهتها عبر منضدة خفيضة مغطاة بالقناني مدرمة الاظافر وهي امرأة شمطاء ضئيلة ٠

فقالت في فتور متكلف : « آه آدريانا ! أرجو أن تجلسي. فلن ألبث أن أخلو اليك » .

فجلست بالقرب من الباب وتلفت حولي . فاذا بها غرفة طويلة ضيقة ٠ ولم يكن بها في الواقع أثاث كثير ، بل كانت تحتـوى على منضدة وبوفيه وبضعة مقاعد صنعت من خشب زاهي اللون ولكن كل ما فيهاكان يتميز بالجدة وكانت الشمس مشرقة٠ حقا انالشمس كانت وافرة غامرة . فلم يسعني الا ان أتصور ان مثل هذه الشمس لا تغمر سوى منازل الاغنياء . فأغمضت عيني في عمد لاستمتع بذلك الاحساس اللذيذ ولم أفكر في شيء . فاذا بشيء ناعم ثقيل يقفز الى حجري . ففتحت عيني ورأيت قطا كبير الحجم من نوع لم أره قط من قبل . كان ذا شعر طويل ناعم كالحرير تميل زرقته الى الشهبة ويتسم تعبيره الذى لم يرقني بالعبوس والكبرياء ٠ وأخذ القط يحتك بي وهو يموء بصوت أجش رافعا طرف ذنبه ٠ ثم تقوس في حجري وبدأ يهر ، فقلت : « ما أجمل هذا القط ! من أى نوع هو ؟ » ٠

فقالت جيزيلا في فخر : « انه فارسي . وهو ثمين حقا . فان قطا كهذا يبلغ ثمنه ألف ليرة » .

فقلت مربتة عليه : « لم أر مثيلا له قط من قبل » .

فقالت المدرمة : « أتعرفين من يملك مثيلا له تماما ؟ السنيورا رادلي . ينبغي أن ترى كيف تعنى به ! أكثر من عنايتها بمخلوق بشرى . بل لقد ضمخته كله بالعطر منذ أيام . هل أسوى لك أظافر قدميك يا آنستي ؟ » .

فقالت جيزيلا : «لا يهم ذلك يا مارتا . اذ يكفى ما فعلت اليوم» فوضعت المدرمة أدواتها وقنانيها الصغيرة في حقيبتها ثم ودعتنـــا وانصرفت .

وما ان خلت احدانا الى الاخرى حتى تبادلنا النظر . فبدت جيزيلا جديدة كمنزلها من أعلى رأسها الى اخمص قدمها . كانت ترتدى سترة جميلة حمراء من « الانجورا » وازارا بنيا لم أره عليها من قبل . وقد مال جسمها الى البدانة فامتلأ صدرها وضاق

ازارها بردفيها . كما لاحظت تورم جفنيها مما ينم عما تتمتع به من غذاء طيب ونوم عميق وراحة بال . وقد أضفى عليها جفناها ذلك التعبير العابس الى حد ما .

فسألتنى قائلة وهى تفحص اظافرها : « حسنا ، ما رأيك فى شقتى ؟ » .

انى لا أعرف الحسد بطبعى . ولكننى احسست عندئذ لاول مرة فى حياتى بوخز الحسد فوجدته بغيضا مؤلما للغاية حتى أننى عجبت لاولئك الذين يغذون هذا الشعور وينمونه فى قلوبهم طوال حياتهم . فقد توتر وجهى وعراه الشحوب وكأنى قد انتابنى الهزال فجأة مما تعذر معه ان أبتسم لجيزيلا أو أقول لها قولا حسنا كما كنت أتمنى . وخالجنى نحو جيزيلا نفسها احساس حاد بالنفور . فراودتنى رغبة فى ايذائها والتعبير عن حقدى عليها واهانتها وتحقيرها بل وتنغيص سعادتها فى الواقع . فحدثت نفسى قائلة فى حيرة وأنا لا ازال اربت على القط : « ماذا دهانى ؟ هل تغيرت ؟ » ولكن ذلك الشعور لم يلبث لحسن الحظ أن زايلنى. اذ تحرك فى نفسى كل ما كنت أنطوى عليه من عوامل الخير والاريحية متغلبا على شعورى بالحسد . فتذكرت أن جيزيلا كانت صديقتى وان كل ما يصيبها من خير انما هو عائد على واننى يجب أن افرح من أجلها . وتخيلت جيزيلا عند دخولها شقتها الجديدة لاول مرة وهى تصفق بيديها من شدة الفرح . وعندئذ زال عن وجهى شلل الحسد الثلجى . وعاودنى من جديد ذلك الاحساس بدفء الشمس ولكن على صورة أعمق وكأن الشمس قد اخترقت قلبى .

فقلت : « كيف يمكنك أن تسألى ؟ فما أبهج هذا المكان وما أجمله ! كيف حدث كل هذا ؟ » .

وخيل لى وأنا أقول هذه الكلمات ان نبرات صوتى كانت تنبىء بالاخلاص . فابتسمت ولم تكن ابتسامتى موجهة لجيزيلا بقدر ما كانت مكافأة لى على صدقى واخلاصى .

فأجابتنى فى ثقة قائلة بلهجة من يأتمن آخر على سر ما : « أتذكرين جيانكارلو ؟ ذلك الشاب الاشقر الذى تشاجرت معه حالما التقيت به فى ذلك المساء الاول ؟ لقد جاء لزيارتى مرة أخرى ولكنه لم يكن فظا كما بدا لاول وهلة . ثم التقينا بعد ذلك عدة مرات . وقال لى منذ بضعة أيام : « هيا . فلدى مفاجأة لك » . وخيل لى أنه يريد اهدائى حقيبة أو زجاجة عطر أو ما شابه ذلك

كما تعلمين . فاذا به بدلا من ذلك يصحبنى الى هنا فى سيارته ويقودنى الى هذه الشقة وكانت خالية . فحسبتها شقته . ثم سألنى ان كانت تعجبنى ؟ فأجبته بالايجاب ولكن دون أن أحلم بما يعنيه بالطبع ! ثم قال : « لقد استأجرت لك هذه الشقة» ويمكنك أن تتخيلى شعورى ! »

ثم ابتسمت وهى تتلفت حولها فى رضا موقر جليل . فنهضت واقفة من فورى واتجهت نحوها قائلة وأنا أقبلها : « انى سعيدة سعيدة للغاية . سعيدة حقا » .

فبددت تلك الحركة جميع المشاعر العدائية من قلبى . ثم اتجهت الى النافذة لأطل منها . فاذا بالمنزل يقوم على مرتفع يمتد فى أسفله منظر طبيعى واسع فسيح . كان سهلا ذا زرع يتخلله نهر ملتو وقد تناثرت فى ربوعه الاحراش والمزارع وكتل الصخور. اما المدينة فقد اختفت معالمها فيما عدا بعض المبانى البيضاء التى تقوم فى احدى زوايا المنظر وهى آخر ما شيد من عمارات فى احدى ضواحي المدينة ، كما كانت هناك سلسلة من الجبال الزرقاء التى برزت فى وضوح عند الافق منعكسة على خلفية من السماء المضيئة فقلت ملتفتة نحو جيزيلا : « انه منظر رائع » .

فأجابت قائلة : « أليس كذلك ؟ » ثم اتجهت الى « البوفيه » حيث أخرجت قدحين صغيرين وقارورة قصيرة وضعتهما جميعا على المائدة . وسألتنى قائلة فى غير اكتراث : « هل تأخذين قدحا من الليكير ؟ » وكان من الواضح ان جميع حركاتها كربة منزل يخصها وحدها تملؤها بالرضا .

ثم جلسنا الى المائدة وأخذنا نرشف قدحينا فى صمت. ولاحظت ان جيزيلا كانت مرتبكة فأردت أن أفعل شيئا لأخفف عنها فقلت فى رقة : « ومع ذلك فان تصرفك لم يكن يخلو من الجفاء . فكان ينبغى عليك أن تخبرينى .. »

فأسرعت باجابتى قائلة : « لم يتسع لى الوقت . فأنت تعلمين ماذا يعنى الانتقال من منزل الى آخر ثم لشد ما انهمكت بعد ذلك فى ابتياع الاشياء التى كنت فى حاجة ماسة اليها ، كالاثاث والمفارش والاوانى الخزفية . فلم أجد فسحة من الوقت لأتنفس . ان تأثيث منزل مهمة شاقة » . ثم ضمت شفتيها كما تفعل السيدة المحترمة عندما تتحدث .

فقلت وقد خلت نفسى من كل أثر للحقد او المرارة وكأن الامر

برمته لا يخصنى فى شيء : « انى أفهم ماذا تقصدين . فقد أصبحت الآن تملكين شقة خاصة بك كما تحسنت حالتك المالية. فأنت لا تريدين أن تكون لك علاقة بى . اذ انك خجلة منى » .

فأجابت قائلة فى شيء من الضيق . وكان من الواضح ان سخطها لم تبعث عليه كلماتى بقدر ما بعثت عليه لهجة صوتى الهادئة المتزنة : « لست خجلة مطلقا . وانه لمن الحماقة أن تتصورى ذلك غير اننا لن نستطيع الآن أن نلتقى كما كنا نفعل من قبل . أعنى أن نخرج معا الى آخر ذلك . فلو أنه اكتشف أمرى لوقعت فى حيص بيص » .

فأجبت قائلة فى رقة : « لا حاجة بك الى القلق . فلن يقع بصرك على مرة أخرى . وما جئت اليوم الا لأقف على ما حدث » .

فتظاهرت بأنها لم تسمعنى مما عزز ايمانى بصحة رأيى . ثم أعقبت ذلك فترة صمت سألتنى بعدها فى حماس متكلف قائلة : « وماذا عنك ؟ »

فاذا بى فى التو أتذكر جياكومو على صورة تلقائية أخافتنى . ورددت قائلة فى صوت مخنوق :

— « أنا ؟ لا شيء . فلا جديد فى حياتى . »

— « وماذا عن آستاريتا ؟ »

— « أراه من وقت لآخر . »

— « وجينو ؟ »

— « انتهت علاقتى به . »

وقد اعتصرت قلبى ذكرى جياكومو . ولكن جيزيلا ما ان رأت ذلك الالم العميق مرتسما على وجهى حتى فسرته على طريقتها الخاصة . فلعلها حسبتنى ممرورة ازاء حظها السعيد وأسلوبها المترفع .

فقالت بعد لحظة من التفكير متظاهرة بالاهتمام : « ومع ذلك فانى ما زلت أعتقد اعتقادا راسخا بأن آستاريتا على استعداد لتوفير الحياة اللائقة بك فى منزل يخصك حالما توافقين»

فقلت فى هدوء : « ولكننى لا أريده أن يفعل . لا هو ولا غيره»

فبدا لى انها ارتبكت لاجابتى ثم قالت : « لم لا ؟ الا تحبين ان يكون لك بيت كهذا ؟ »

فقلت : « ان المنزل يعجبنى . ولكن رغبتى فى التمتع بحريتى تفوق عندى كل رغبة أخرى » .

فأجابت قائلة فى استياء : « ولكنى أتمتع بحريتى ! بل انى اكثر منك تمتعا بالحرية . فنهارى كله ملك لى » .

ـ « ليست هذه هى الحرية التى أعنيها • »

ـ « اذن فماذا تعنين ؟ »

وأدركت اننى أسأت اليها بعدم اظهار ما يكفى من الاعجاب بشقتها التى لشد ما كانت فخورا بها • غير اننى لو أوضحت لها اننى لم أكن أحتقرها واننى فى الواقع لم أشأ أن أرتبط برجل لا أحبه لكان احساسها بالاساءة أشد واعمق . فآثرت أن أغير الموضوع .

وأسرعت قائلة : « هلا أريتنى الشقة ؟ كم غرفة فيها ؟ »

فقالت تحدوها خيبة أمل صبيانية : « وماذا يهمك منها ؟ فلقد قلت أنت نفسك انك لا تريدين شقة مثلها » .

فأجبت قائلة فى هدوء : « ولكننى لم أقل ذلك . فهى شقة جميلة ، أتمنى لو امتلكت مثلها » •

فلم تنبس ببنت شفة . بل أخذت تحملق منكسة بصرها وقد علا وجهها تعبير عابس • وما لبثت أن أردفت قائلة فى ضعف : « اذن فأنت ترفضين السماح لى برؤية الشقة ؟ » .

فرفعت عينيها ورأيت لدهشتى أن الدموع تترقرق فيهما . ثم هتفت قائلة : « انك لست الصديقة التى كنت أحسبها ! فنفسك تفيض بالحسد . ولذلك فانك تحاولين أن تبخسى الشقة لا لشىء الا لتكدرينى » . كانت تتكلم جزافا بينما تنهمر على وجهها دموع الغضب . فعندئذ كانت هى التى تحسدنى حسدا لا معنى له . وكان يشدد من تأثير حسدها على غير وعى منى حبى اليائس لجياكومو وما يبثه فى نفسى من احساس مرير بالفراق • ولكننى أحسست بالاسف لها رغم معرفتى التامة بها بل كانت تلك المعرفة فى الواقع هى مبعث احساسى بالاسف. فنهضت من مكانى واتجهت نحوها حيث وضعت يدى على كتفها .

قلت : « لم تقولين ذلك ؟ فانى لا أحسدك مطلقاً . بل انى احب أشياء أخرى ، هذا هو كل ما هنالك . ولكننى فرحة بسعادتك » . ثم أردفت قائلة وأنا أعانقها : « هيا أرينى باقى الغرف » .

فتمخطت ثم قالت مذعنة لحثى اياها : « هناك أربع غرف فى المجموع ، وهى تكاد تكون خاوية » .

- هيا أرنيها .

فنهضت من مكانها وقادتنى فى الدهليز حيث اخذت تفتح لى أبواب الغرف واحدا بعد الآخر فأرتنى غرفة نوم بها فراش واحد ومتكأ عند طرفه الاسفل ، كما أرتنى غرفة أخرى خاوية كانت تنوى أن تضع فيها فراشا آخر « للضيوف » وغرفة صغيرة للخادمة لا تكاد تتسع لشيء . وكان يراودها فى أثناء ذلك نوع من الحقد . فأخذت تفتح أبواب الغرف شارحة وجوه استخدامها دون أن تجد فى ذلك لذة ما . ولكنها عندما أرتنى غرفة الحمام والمطبخ وكلاهما قد اكتست جدرانهما بالقرميد كما زودتا بالآلات الكهربائية الحديثة والصنابير اللامعة اذا بسخطها يتحول الى زهو وخيلاء . وأخذت تشرح لى طريقة تشغيل تلك الآلات وكيف كانت تفوق بكثير تلك التى تدار بالغاز ، كما شرحت لى مدى نظافتها واستهلاكها الاقتصادى . ومع اننى فى الحقيقة لم أجد فى ذلك ما يثير اهتمامى مطلقا فقد تظاهرت عندئذ بالحماس وهتفت معبرة عن اعجابى ودهشتى . ولشد ما ابتهجت لموقفى حتى انها قالت لى عندما انتهينا من رؤية الشقة : « فلنعد الى غرفة الجلوس لنتناول قدحا آخر من الليكير » .

فأسرعت قائلة : « لا . لا . فانى مضطرة للذهاب » .

- « وفيم العجلة ؟ انتظرى قليلا . »

- « لا يمكننى ذلك . »

وكنا فى الدهليز ، فترددت لحظة ثم قالت : « ولكنك يجب أن تأتى لزيارتى . أتعرفين ماذا يمكن أن نفعل ؟ انه كثيرا ما يغادر روما ، فسأخبرك بذلك لتأتى وفى صحبتك اثنان من أصدقائك لنلهو قليلا . »

- « وماذا لو اكتشف ذلك ؟ »

- « لماذا ؟ »

فقلت : « حسنا اذن » . ثم ترددت لحظة ولكننى ما لبثت أن استجمعت شجاعتى قائلة :

- « وبهذه المناسبة هل حدث أن ذكر لك ذلك الصديق الذى كان معه فى تلك الليلة ؟ »

- « الطالب ؟ لماذا ؟ هل أعجبت به ؟ »

- « كلا . بل انى أتساءل فحسب . »

- « لقد رأيناه مساء أمس . »

فلم أستطع أن أخفي اضطرابي ، وقلت بلهجة مترددة : « أنصتي ، أبلغيه ان قابلته ان يأتي لزيارتي . ولكن بطريقةعارضة كما تعلمين ، دون الحاح » .

فأجابت قائلة : « حسنا . سأبلغه ذلك » . ولكنها كانت تنظر الى في ارتياب . فارتبكت لنظرتها اذ ان حبي لجياكومو كان يبدو مكتوبا على وجهي بحروف كبيرة . ولقد فهمت من لهجة صوتها انها لن تبلغ الرسالة . ففتحت الباب في يأس وودعتها . ثم هرولت هابطة الدرج دون أن التفت الى الخلف . ولكنني توقفت عند البسطة الثانية حيث اتكأت على الحائط متطلعة الى أعلى . وحدثت نفسي قائلة : « لماذا قلت لها ؟ ماذا دهاني ؟ » ثم واصلت هبوط الدرج برأس منكس .

وكنت قد ضربت لآستاريتا موعدا للقاء في شقتي التي ما ان بلغتها حتى كان الاعياء قد نال مني كل منال . اذ انني لما كنت قد أقلعت عن الخروج في الصباح فقد أحسست بالاجهاد من تأثير الشمس والحركة . بل اني لم أشعر حتى بالتعاسة لانني كنت قد دفعت ثمن زيارتي لجيزيلا عندما بكيت في السيارة وأنا في طريقي الى شقتها الجديدة . وأخبرتني أمي التي جاءت تفتح لي الباب ان شخصا ما كان ينتظرني في غرفتي منذ ساعة . فدخلت الغرفة رأسا حيث جلست على الفراش دون أن الحظ آستاريتا الذي وقف أمام النافذة وكان من الواضح انه يحملق في الفناء . ولما كنت قد صعدت الدرج بسرعة كبيرة فقد ظللت لحظة في سكون ضاغطة بيدي على قلبي وأنا ألهث . وجلست مولية ظهري لآستاريتا ومحملقة في الباب بنظرة ذاهلة حتى انني لم أرد التحية التي قرأها على . فجاء وجلس بجانبي محيطا خصري بذراعه وهو ينظر الى في جد وحزم .

وقد أنستني مشاغلي الكثيرة رغبته المسعورة التي لا تهدأ أبدا ولا يخمد أوارها . فقلت وأنا انسحب الى الخلف بلهجة بطيئة بفيضة وقد نفد صبري تماما : « الا تهدأ رغبتك أبدا ؟ »

فلم ينبس بكلمة بل تناول يدي ورفعها الى شفتيه متطلعا الي . فخيل لي انني سأجن وسحبت يدي بعيدا . ثم أردفت قائلة : « انك دائما على استعداد . أليس كذلك ؟ حتى في الصباح ؟ بعد ساعات عملك المتصل ؟ وقبل تناولك طعام الغداء ؟ ومعدتك خاوية؟ أتعلم انك حقا لا تحتمل ؟ » .

فرايت شفتيه ترتعشان وعينيه تدوران فى محجريهما ثم قال : « ولـكننى أحبك ! »

ــ « هناك وقت للحب ووقت للأمور الاخرى . ولقد ضربت لك موعدا فى الساعة الواحدة لا لسبب الا لأبين لك اننى لا أقصد الحب وأنت ــ حقا انك نسيج وحدك ! ألست خجلا من نفسك ؟ »

فحملق فى وهو صامت . وأحسست فجأة اننى أفهمه فهما تاما. فقد كان أسير هواى وقد ظل أياما ينتظر ذلك الموعد . فبينما كنت انا أصارع الشدائد الـكثيرة كان هو لا يفكر فى شىء سوى ساقى وصدرى وردفى وفمى . فقلت له بلهجة أقل غضبا : « اذن فلو اننى تجردت الآن من ثيابى .. »

وما ان أومأ موافقا حتى انفجرت ضاحكة لا فى قسوة بل فى مرارة وحزن قائلة :

« ــ ألا يخطر ببالك اننى ربما كنت أشعر بالتعاسة أو لا أحس بالرغبة فى ذلك ــ أو جوعى أو متعبة ــ أو لدى بعض المشاغل ، ألا يخطر ذلك ببالك مطلقا ؟ »

فنظر الى ثم اذا به فجأة يلقى بجسده على وهو يضمنى اليه فى قوة دافنا وجهه فى التجويف الـكائن بين عنقى وكتفى . لم يقبلنى بل أخذ يضغط على بدنى بوجهه وكأنه يريد أن يستشعر دفئه . وكان يتنفس بصعوبة متنهدا بين الفينة والفينة . فزايلنى سخطى عليه اذ ان حركته قد أثارت شفقتى القلقة المعهودة ولم اشعر الا بالتعاسة . ولـكننى عندما خيل لى انه نال حظه من التنهدات دفعته بعيدا عنى قائلة :

ــ « لقد طلبت اليك الحضور الى هنا لاتحدث اليك فى أمر خطير .

فتطلع الى ثم تناول يدى وأخذ يربت عليها . كان ذا هـدف واحد لا يحيد عنه وكانت رغبته هى كل شىء فى نظره ولا وجود لما عداها .

قلت : « انك تعمل فى الشرطة . أليس كذلك ؟ »

ــ « نعم .. »

ــ « حسنا اذن ، فلتقبض على وترسلنى الى السجن .» قلت ذلك فى ثبات تام . فعندئذ وددت حقا لو فعل ذلك .

ــ « لماذا ؟ ماذا حدث ؟ »

فقلت بصوت عال : « انى لصة . لقد ارتكبت سرقة . فقبض على امراة بريئة بدلا منى . ولذا فلتقبض على . انى راغبة حقا

فى الذهاب الى السجن . هذا هو ما اريده » .
ولـكنه لم يبد مدهوشا بل منزعجا فحسب .
فقال وقد بدا على وجهه تعبير الالم : « والآن هدئى من روعك.
ماذا حدث ؟ اخبرينى بكل شىء » .
ــ « لقد قلت لك أننى لصة . » ثم حدثته باختصار عن السرقة
وكيف تم القبض على الخادمة بدلا منى . كما قصصت عليـــه حيلة
جينو ولـكننى لم اذكر اسمه . بل تحدثت عنه كخادم فحسب .
وراودتنى رغبة عنيفة فى أن أحكى له عن سونزونيو وجريمته حتى
اننى وجدت صعوبة فى كتمان الامر . واخيرا انتهيت من قصتى
قائلة : « والآن عليك أن تختار ، فاما أخرجت هــذه المرأة من
السجن أو ذهبت لاسلم نفسى . »
فقال رافعا يده : « لا تتعجلى الامور على هذه الصورة ، فلا
حاجة بك الى ذلك ، انها الآن رهينة السجن ، ولـكنها لم يحكم
عليها بعد . فلننتظر .. »
ــ كلا ، لا أستطيع الانتظار ! فهى رهينة السجن حيث تضرب
كما يقولون ، وأنا لا أستطيع الانتظار ، فعليك أن تقرر الآن . »
فأدرك من لهجة صوتى اننى جادة فيما أقول ، فنهض واقفا
وقد ارتسم على وجهه تعبير ينبىء بالســخط واخــذ يتجول فى
الغرفة ، ثم واصل حديثه قائلا وكأنه يحدث نفســه : « هنــاك
موضوع الدولارات » .
ــ « ولكنها ظلت تحتج طوال الوقت ! فقـــد تم العثـــور على
الدولارات ، وفى امكاننا أن نقول انه انتقام شخصى من عدو يكرهها »
ــ « وهل لديك « البدارة » ؟ »
فقلت وأنا أخرجها من الحقيبة وأناوله اياها : « ها هى ذى »
ولـكنه أبى أن يلمسها قائلا : « لا ، لا ، يجب الا تعطينى
اياها » ثم ما لبث أن قال بعد لحظة من التردد : « يمكننى الافراج
عن هذه المرأة ولـكن الشرطة فى نفس الوقت يجب أن يتوفر لديها
الدليل على براءتها ، هذه « البدارة » مثلا » .
ــ « خذها اذن وأعدها الى صاحبتها . »
فابتسم ابتسامة بغيضة قائلا : « من الواضح انك لا تعلمين
شيئا عن هذه الامور ! فاننى مضطر أدبيا الى القبض عليك اذا
قبلت منك هذه « البدارة » ، والا قالوا « كيف وضع آستاريتا
يده على السلعة المسروقة ؟ ومن الذى أعطاه اياها ؟ وكيف حصل

عليها ؟ » الى آخر ذلك ، كلا .. يجب أن تعثرى على طريقة لتسليم « البدارة » الى الشرطة ولكن دون أن تكشفى عن شخصيتك بالطبع » .
ـ « يمكنني ارسالها بالبريد · »
ـ « كلا ، فهذا لن يجدى · »
أخذ يذرع الغرفة ثم جاء ليجلس بجانبى قائلا : « هذا هو ما يجب أن تفعليه ، أتعرفين قسا ؟ » .
فتذكرت ذلك الراهب الفرنسى الذى اعترفت له عندما عدت من فيتريو فقلت :
ـ « نعم ·· معرفى · »
ـ « وهل ما زلت تذهبين للاعتراف ؟ »
ـ « تعودت ذلك فيما مضى · »
ـ « حسنا ، اذهبى الى معرفك واحكى له القصة كاملة ، تماما كما رويتها لى ، وتوسلى اليه أن يأخذ « البدارة » وبسلمها الى الشرطة بالنيابة عنك ، فلا يستطيع معرف أن يرفض ذلك . وهو بحكم التزامه بسر الاعتراف ليس مضطرا للادلاء بأية معلومات للشرطة · وسأتصل بهم تليفونيا بعد يوم أو اثنين ·· وهكذا سوف يفرج عن الخادمة التى تشغل بالك الى هذا الحد · »

ولشد ما استخفنى الفرح حتى انه لم يسعنى الا أن ألقى بذراعي حول عنقه وأقبله . ثم أردف قائلا بصوت يرتعش بالرغبة فعلا : « ولكنك كما تعلمين يجب ألا تفعلى هذه الاشياء ، وعندما تحتاجين الى النقود فما عليك الا أن تطلبى الى .. »
ـ « هل يمكننى أن أذهب اليوم لمقابلة المعرف ؟ »
ـ « بالطبع · »
فوقفت هناك بعض الوقت بلا حراك شاخصة ببصرى امامى وممسكة « بالبدارة » فى احدى يدى ، فقد راودنى احساس بالارتياح العميق وكأنى أنا نفسى الخادمة ، وفى الواقع فانى قد أحسست وكأنى فى مكانها عندما تخيلت راحتها للافراج عنها وكانت تفوق راحتى بكثير ، ولم أعد أحس بالتعاسة أو التعب أو النفور . وفى أثناء ذلك كان آستاريتا يربت بأصابعه على معصمى محاولا أن يدسها داخل كمى ليلمس ذراعى ، فاستدرت نحوه وحدثته بلهجة مدغدغة وأنا أحملق فيه بشغف .

ثم سألته قائلة : « أتشعر حقا بالرغبة الشديدة فى ذلك ؟ »

فأومأ برأسه عاجزا عن النطق .

فأردفت قائلة فى رقة وقوة : « الا تعتقد ان الوقت قد تأخر، وانه يحسن تأجيل الامر الى يوم آخر ؟ »

فهز رأسه .

وسألته قائلة : « أتحبنى كثيرا ؟ »

فقال بصوت خفيض : « أنت تعلمين انى أحبك » ثم هم بعناقى ولكننى تجنبته قائلة :

– « انتظر .. »

فلم يلبث أن هدأ فى الحال لادراكه اننى وافقت ، ونهضت واقفة ثم اتجهت فى بطء نحو الباب لأوصده ، ثم سرت الى النافذة حيث فتحتها وجذبت مصراعيها الخشبيين وأغلقتهما مرة أخرى ، ولم أفتأ احس بعينيه على بدنى وأنا أتجول مختالة فى الغرفة بحركات بطيئة رشيقة ، وقد أمكننى أن أتخيل فى وضوح كم كان يبدو رضاى غير المتوقع رائعا فى نظره ، فما ان جذبت مصراعى النافذة حتى أخذت أهمهم فى هدوء بصوت مرح نابع من الاعماق ثم فتحت خزانة الملابس حيث علقت معطفى الذى خلعته ، وبعد ذلك نظرت الى صورتى فى المرآة وأنا ما زلت أغنى . فخيل لى اننى لم أكن قط بمثل هذا الجمال ، اذ كانت عيناى تتألقان ومنخراى يرتعشان وفمى منفرجا الى حد ما كاشفا عن ثغرى الابيض النضيد ، وأدركت ان جمالى كان مرجعه رضاى عن نفسى فقد أحسست اننى فتاة خيرة ورفعت صوتى قليلا وأنا أغنى بينما أخذت فى نفس الوقت أفك أزرار سترتى مبتدئة بطرفها الاسفل ، وكنت أهمهم بأغنية سخيفة كانت شائعة وقتذاك ، هذا نصها : « انى أشدو بالاغنية التى لشد ما أهواها والتى تقول دو – دو دو – دو دو – دو » وكان قرارها السخيف كالحياة نفسها واضحة السخف ولكنها فاتنة خلابة فى بعض اللحظات ، وفجأة اذا بالباب يطرق فى نفس اللحظة التى أكشف فيها عن صدرى ، فقلت فى هدوء : « لايمكننى المجىء الآن ، فيما بعد .. »

فانبعث صوت أمى قائلا : « انه أمر عاجل » .

فساورنى الشك واتجهت الى الباب لافتحه وأنعمت النظر الى الخارج .

فاذا بأمى تشير الى بأن أخرج وأغلق الباب .

ثم همست لى قائلة فى الغرفة الخارجية المظلمة : « هناك رجل

يريد أن يحدثك فى الحال » .
— « من هو ؟ »
— « لست أدرى ، أنه شاب أسمر . »
ففتحت باب غرفة الجلوس فى هدوء شديد واختلست النظر الى الداخل ، فرأيت رجلا متكئا الى المائدة وقد أولانى ظهره ، فعرفت فى الحال انه جياكومو ثم أغلقت الباب بسرعة .
وقلت لامى : « اخبريه أنى قادمة حالا ، ولا تدعيه يترك الغرفة »
فأخبرتنى انها ستفعل ما أريد وعدت الى غرفتى حيث كان آستاريتا لا يزال كما تركته جالسا على الفراش .
قلت : « هيا أسرع ، فمما يؤسفنى انك ستضطر الى الانصراف»
فتولاه الحزن وتلعثم لسانه ببعض الاحتجاج ، ولكننى قاطعته بسرعة قائلة : « ان عمتى قد انتابها المرض فى الطريق ولابد أن أذهب مع أمى الى المستشفى فى أقرب وقت ممكن » كانت أكذوبة مكشوفة الى حد ما ولكن تفكيرى حينذاك لم يسعفنى بشىء سواها ، فنظر الى فى غباوة وكأنه لا يستطيع أن يصدق حظه العاثر ، ورأيت انه كان قد خلع حذاءه واستقرت قدماه على الارض فى جوربيهما المخططين .
فقلت فى سخط : « هيا ! لماذا تحملق فى ؟ فعليك أن تذهب ! »
فأجابنى قائلا وهو ينحنى ليرتدى حذاءه مرة أخرى : « حسنا انى ذاهب » . فوقفت أمامه لاناوله سترته ، ولكننى أدركت اننى يجب أن أعده بشىء اذا كنت أريده أن يتدخل لانقاذ الخادمة. فقلت وأنا أعاونه على ارتداء سترته : « اصغ الى ، اننى آسفة كل الاسف لما حدث ، ولكن فلتعد الى غدا مساء بعد العشاء ، وعندئذ لن يقاطعنا أحد ، أما اليوم فقد كنت مضطرة — على أية حال — الى اخراجك من المنزل حال انتهائنا من المضاجعة تقريبا ، ولذا فان ذلك خير لنا فى النهاية » .

فلم ينبس بكلمة . ثم اصطحبته الى الباب وأنا أقوده من يده وكأنه يزورنى فى المنزل لاول مرة ، فلشد ما خشيت أن يدخل غرفة الجلوس حيث يرى جياكومو .

وقلت له عند الباب : «تذكر ، فانى ذاهبة اليوم لمقابلة المعرف» فأجابنى بايماءة من رأسه وكأنه ينوه بأن ذلك أمر مفهوم بيننا . وقد بدا عليه النفور والجمود ، ولشد ما انتابنى الضجر حتى اننى لم أنتظر أن أودعه وكدت أصفق الباب فى وجهه .

الفصل الخامس

وما ان لمست اصابعي مقبض باب غرفة الجلوس حتى بوغت بخاطر قوي ينبئني ان العلاقة التي ستنشأ بيني وبين جياكومو ما لم تحدث معجزة ما فقد كتب عليها ان تكون تعسة كعلاقتي بآستاريتا ، فقد تبين لي الآن ان احساسي نحو جياكومو كان مزيجا من الخضوع والخوف والرغبة العمياء تماما كاحساس آستاريتا نحوي ، ومع علمي بأنني يجب أن أغير من مسلكي اذا كنت اطمع في حبه فقد وجدتني منساقة بقوة لا تقاوم الى أن أضع نفسي ازاءه في مستوى تبعي أدنى من الشك والقلق ، وما كان يمكنني ان أفسر أسباب احساسي بالنقص تجاهه .

ولو كان ذلك في امكاني لتلاشى ذلك الاحساس ، بل كنت أعلم بالغريزة فحسب ان كلا منا ذو معدن مختلف ، فقد وجدتني أهش معدنا من جياكومو غير أنني كنت أصلب عودا من آستاريتا ، وكما كان هناك ما يمنعني من حب آستاريتا كذلك كان هناك ما يمنع جياكومو من حبي . ولقد بدأ حبي لجياكومو بداية سيئة ولسوف ينتهي نهاية أسوأ وكذلك كان الحال مع آستاريتا . أخذ قلبي يثب في صدري وأخذت انفاسي تتتابع حتى قبل أن أراه أو أحدثه ، فلشد ما خشيت أن أقع في خطأ ما كأن أظهر له حماسي ورغبتي في ارضائه فأفقده مرة أخرى وبلا رجعة ، فمن الواضح ان هذا هو أسوأ علاج للحب ، انه لا يقابل أبدا بالمثل . فعندما تحب لا تحب وعندما تحب لا تحب ، اذ لايمكن أن يلتقي عاشقان على نفس المستوى من العاطفة والرغبة مع ان هذا هو المثل الاعلى الذي يسعى اليه البشر جميعا . فاني أعلم على وجه اليقين ان حبي لجياكومو كان وحده السبب في عدم تعلقه بي ، كما أدركت أنني مهما بذلت من جهد فلن أنجح في ارغامه على حبي وهو ما لم أشأ أن أعترف به أمام نفسي . لاح لي كل ذلك في وميض خاطف أثناء وقوفي مترددة خارج الباب في حال من الاضطراب الرهيب ، وقد انتابني دوار وأحسست اني موشكة على ارتكاب أعمال أشد ما تكون استثارة للسخرية فأغضبني ذلك الاحساس . وأخيرا استجمعت

شجاعتى ودخلت الفرفة .
كان لايزال واقفا كما رأيته عندما اختلست النظر اليه من خلال فتحة الباب أى انه كان مستندا الى المائدة وقد أولانى ظهره ، ولـكنه ما ان سمعنى أدخل الفرفة حتى استدار نحوى قائلا وهو يرمقنى بانتباه ناقد مدقق : « كنت مارا بدارك ففكرت فى زيارتك ولعله ما كان يجدر بى أن أفعل ذلك » . ولاحظت انه كان يتكلم فى بطء كمن يريد أن ينعم النظر الى قبل أن يتجاذب معى أطراف الحديث ، فلم أتمالك نفسى من الشعور بالقلق متسائلة عن صورتى فى نظره وكيف كنت أبدو له ، ولعل صورتى اختلفت عما انطبع فى ذاكرته وقلت جاذبيتها عن تلك الصـــورة التى دفعته الى زيارتى بعد مضى تلك الفترة الطويلة من الزمن ، ولـكننى احسست بالطمأنينة عندما تذكرت مدى ما شاهدته من جمالى وأنا أحملق فى صـــورتى فى المرآة قبل ذلك بفترة وجيزة .
فقلت لاهثة بعض الشىء : «كلا مطلقا ــ بل لقد أصبت بمجيئك ــ فقد كنت على وشك الخروج لتناول الغداء ، ويمكننا أن نذهب معا » .
فسألنى قائلا فى تهكم : « اتقصدين أن تقولى انك تعرفينني ؟ أتعرفين من أنا ؟ »
فقلت فى غباوة : « بالطبع أعرفك ! » وقبل أن تتمكن ارادتى من التحكم فى حركاتى اذا بى أتناول يده وأرفعها الى شفتى وفى عينى نظرة ملؤها الحب ، فارتبك لذلك وابتهجت .
ثم قلت له فى شغف وقلق : « لم لم تزرنى من قبل أيها الفتى المشاكس ؟ »
فهز رأسه قائلا : « كنت مشغولا للغاية » .
وقد طاش عقلى تماما ، فاذا بى بعد تقبيل يده أضعها على قلبى أسفل نهدى قائلة : « أحس قلبى ! » ولـكننى فى نفس الوقت، اتهمت نفسى بالحمق لاننى كنت أعلم انه ما كان ينبغى على أن أحذو هذا الحذو قولا أو عمـــلا ، وما ان بدأ عليه الحـــرج حتى أسرعت قائلة فى انزعاج : « انى ذاهبـــة لأرتدى معطفى وســأعود اليك مباشرة ، انتظرنى .. »
كنت فريسة للحيرة ، ولشـــد ما خشيت أن أفقده حتى اننى عنـــدما بلغت الفرفة الخارجية أدرت المفتـــاح بعنف فى القفل ثم اخرجته من ثقبه . وهكذا فانه حتى لو حاول الخروج أثناء ارتدائى

ملابسى فلن يمكنه ذلك ، ثم دخلت غرفتى حيث اتجهت الى مرآة الصوان وازلت بطرف منديلى كل ما كان يعلو عينى وفمى من طلاء • والتقطت اصبع أحمر الشفاه ورحت ألمس به شفتى مرة أخرى لمسات خفيفة ، ثم اتجهت الى علاقة المعاطف حيث بحثت عن معطفى فلم أجده فتولتنى الحيرة ولكننى تذكرت اننى كنت قد علقته داخل صوان الملابس فأخرجته وارتديته ، ونظرت الى صورتى فى المرآة من جديد فخيل لى ان طريقة تصفيف شعرى كانت تلفت الانظار أكثر مما ينبغى ، فأسرعت بتمشيطه ثم صففته كما تعودت أن أفعل عندما كنت خطيبة لجينو • وفى تلك الاثناء بينما كنت أصفف شعرى عاهدت نفسى فى صدق وخشوع شديدين على أن أكبت منذ تلك اللحظة كل بادرة رعناء من بوادر حبى العنيف وأن أفرض على ألفاظى وحركاتى سيطرة قوية • وأخيرا ما ان صرت على أهبة الاستعداد حتى دلفت الى الغرفة الخارجية والقيت نظرة عند باب غرفة الجلوس لادعو جياكومو .

ولكننا عندما تأهبنا للرحيل فضحنى باب الشقة الذى أوصدته وفاتنى لارتباكى أن أفتحه •

فتمتم جياكومو قائلا وانا ابحث عن المفتاح فى حقيبتى : « انت تخشين أن أهرب ؟ » ثم تناول المفتاح من يدى وفتح الباب بنفسه وهو يرمقنى بعينيه ويهز راسه فى نوع من القسوة الحانية ، فامتلأ قلبى فرحا ورحت أركض خلفه هابطة الدرج .

ثم سألته قائلة وانا أمسك بذراعه وقد انبهرت انفاسى : « ولكن ذلك لم يضايقك ، أليس كذلك ؟ » فلم يحر جوابا .

ثم سرنا معا فى ضوء الشمس وقد تشابكت ذراعانا فمررنا بأبواب الدور والمحال أثناء سيرنا فى الطريق ، ولشد ما أحسست بالسعادة وانا أمشى بجانبه حتى اننى نسيت تماما ما اتخذته من قرارات تفيدنى ، فأحسبست عند مرورنا بالفيللا الصغيرة ذات البرج وكأن شخصا ما قد أمسك بيدى وألهمنى أن اضغط بها على يده ، وفى الوقت نفسه أدركت اننى كنت أميل الى الامام لأنعم النظر الى وجهه .

قلت : « أتعلم اننى فرحة للغاية برؤيتك مرة أخرى ؟ » .

فارتسم على وجهه ارتباكه المعهود ثم قال : « وأنا كذلك » . ولكن لهجته لم تبد لى فرحة تماما ، فعضضت على شفتى حتى آلمتنى وسحبت يدى من يده ، غير انه لم يبد عليه انه لاحظ ذلك ،

بل أخذ ينظر حوله فى شرود الى أن بلغ بوابة الاسوار حيث تردد ثم توقف عن المسير قائلا فى تحفظ :

- « اصغى الى ، فهناك ما ينبغى أن أصارحك به . »

- « اذن فالى به . »

- « لقد جئت لزيارتك عن طريق الصدفة ، وعن طريق الصدفة ذاتها أجدنى لا أملك مليما ، لذا فالاجدر بنا أن نفترق . » وكان أثناء حديثه يمد يده الى .

فانزعجت لاول وهلة وحدثت نفسى قائلة : « انه سيفارقنى »

ولم أجد لذلك الموقف من علاج وأنا فى غمتى سوى أن أتشبث به متوسلة أليه بدموعى ألا يذهب ، ولكننى عندما فكرت فى الامر بدا لى نفس العذر الذى تعلل به لفراقى مخرجا حسنا من ذلك المأزق فتبدلت مشاعرى ، اذ خطر لى انه يمكننى أن ادفع عنه ثمن غدائه ، وقد أبهجنى أن أتولى الانفاق عليه وعلى نفسى تماما كما كان يفعل معى الكثيرون . وقد تحدثت من قبل عن تلك اللذة الجنسية التى كنت أحس بها كلما تلقيت نقودا من أحد ، فاذا بى أكتشف الآن ان فى بذل المال لذة لا تقل اثارة عن لذة أخذه وأن مزج الحب بالمال سواء أعطى او أخذ ليس كله مصلحة ذاتية ، فهتفت قائلة فى اندفاع : « لا تعر الامر اهتماما بعد الآن ! فسأتولى الانفاق . انظر ، فانى أملك بعض النقود » . ثم فتحت كيس نقودى لأريه بعض الاوراق المالية التى كنت قد دسستها فيه فى الليلة السابقة .

فاحتج قائلا تشوب صوته رنة خيبة : « ولكن ذلك لا يحسم الامر » .

- « وماذا يهم ؟ لقد عدت الى وجدير بى أن أحتفى بعودتك . »

فقال : « كلا ، يحسن بك الا تفعلى » ثم هم مرة اخرى بمصافحتي ليفترق عني . وعندئذ امسكت بذراعه قائلة : « لا تدعنا نتحدث فى ذلك بعد الآن » ثم اتخذت طريقى نحو المطعم .

وهناك جلسنا الى نفس المائدة التى جلسنا اليها من قبل، وكان كل شىء على حاله تماما لم يتغير فيما خلا شعاع من ضوء الشمس كان ينفذ من الباب ذى الواجهة الزجاجية مضيئا الموائد والجدار. وجاءنا صاحب المحل بقائمة الطعام فأصدرت اليه أوامرى بلهجة ثابتة تنبىء عن حمايتى لرفيقى تماما كما كان يفعل عشاقى ، ولم ينبس بكلمة أثناء القائى أوامرى بل جلس منكسا عينيه . ولما

كنت لا اشرب الخمر فقد فاتنى أن أطلب نبيذا . ثم تذكرت انه شرب قليلا من النبيذ عندما كنا معا فى المرة السابقة فأمرت بزجاجة
وما ان ذهب صاحب المطعم حتى فتحت حقيبتى واخرجت ورقة من ذات المائة ليرة ثم طويتها وقدمتها الى جياكومو من تحت المائدة بعد أن ألقيت من حولى نظرة سريعة .
فنظر الى متسائلا :
فقلت له : « ها هى ذى النقود لكى تدفع ثمن الطعام فيما بعد »
فقال فى بطء : « النقود » ثم تناول الورقة وبسطها على المائدة وهو ينظر اليها ، وبعد ذلك طواها مرة أخرى ثم فتح حقيبتى وأعادها اليها . كل ذلك فى جد ساخر متهكم .
وسألته قائلة فى شىء من الارتباك : « أريد أن أتولى أنا دفع النقود ؟ »
فقال فى هدوء : « كلا ، بل أنا الذى يدفعها » .
– « اذن فلماذا ادعيت الافلاس ؟ »
فتردد لحظة . ثم واصل حديثه قائلا فى مرارة ولكن فى صدق : « لم تكن زيارتى لك عن طريق الصدفة . فالحقيقة اننى ظللت شهرا أفكر فى المجىء اليك . ولكننى كلما وجدت نفسى أمام منزلك أحسست بقوة تدفعنى بعيدا مرة أخرى . فخطر لى أن أدعى الافلاس آملا ان تطردينى » . ثم ابتسم قائلا وهو يمر بيده على ذقنه : « ومن الواضح اننى كنت مخطئا » .
اذن فقد حاول أن يختبرنى . اذ انه لم يشأ أن تكون له علاقة بى ، أو الاحرى ان قلبه كان مسرحا للصراع بين انجذابه نحوى وكراهيته لى التى لم تكن تقل قوة عن احساسه الآخر . ولقد اكتشفت فيما بعد ان قدرته على التظاهر بما لا يشعر به عن صدق كانت جزءا جوهريا من شخصيته . ولكننى حينذاك أحسست بالارتباك الشديد ولم أدر أكان ينبغى أن أفرح أو أكتئب لخداعه وهزيمته .
فسألته قائلة فى آلية : « ولكن لماذا أردت أن تفارقنى ؟ »
– « لأننى أدركت أننى لا أحس بشىء نحوك ، أو بالاحرى اننى لم اشعر نحوك الا بتلك الرغبة التى أحس بها صديقى قبل صديقتك فى ذلك المساء . »
فسألته قائلة : « هل علمت انهما أثثا شقة للاقامة معا ؟ »
فأجاب قائلا فى احتقار : « نعم . فقد خلق كلاهما للآخر » .

قلت : « انك لم تشعر بشيء نحوى ، ولم تشأ أن تأتى لزيارتى ومع ذلك فقد جئت ! » كان افتقاره الى المنطق يخفف الى حد ما من وقع الصدمة التى توقعت أن يسببها لى حبى .

فأجاب قائلا : « نعم . لاننى اعانى مما يسمى عادة بالشخصية الضعيفة » .

فقلت فى قسوة : « ومع ذلك فقد جئت . وهذا يكفينى » . ثم مددت يدى من تحت المائدة ووضعتها على ركبتيه ، وكنت اراقبه فى أثناء ذلك فلاحظت أنه اضطرب للمستى وبدأ ذقنه يرتجف . وقد سرنى أن أراه مضطربا على هذه الصورة . وادركت انه على الرغم من رغبته الشديدة فى مضاجعتى كما اعترف بذلك عندما قال انه ظل شهرا كاملا يفكر فى المجىء لزيارتى فان ثمة جزءا من نفسه لم يبرح يناصبنى العداء ، وكان على أن أبذل كل ما فى وسعى لتحطيمه وتذكرت نظرته الحادة القاطعة على ظهرى العارى عندما تضاجعنا لاول مرة وخطأت نفسى لاستسلامى لتلك النظرة التى تجمد لها جسدى ، فلو اننى واصلت اغواءه فى الحاح واصرار بما كنت أبذله من جهود لذابت تلك النظرة كما ينوب الآن وقاره المتشنج على وجهه .

فاتكأت على المائدة وكأنى أريد أن أسر اليه بشىء ما ثم واصلت دغدغته بيدى ، ولشد ما استهوانى فى الوقت نفسه أن أرى تأثير تلك الدغدغة منعكسا على وجهه . كان يرمقنى بنظرة استياء وتساؤل من عينيه النجلاوين السوداوين اللامعتين اللتين طالت أهدابهما النسوية .

واخيرا قال لى : « ان كان يرضيك حبى لك على هذه الصورة فلتفعلى ما شئت » .

فاعتدلت فى جلستى فى الحال ، وعندئذ جاء صاحب المطعم ليضع السكاكين والشوك والصحاف على المائدة . ثم بدأنا نتناول الطعام فى صمت وبلا شهية .

قال : « لو كنت فى مكانك وانت فى مكانى لحاولت أن أسكرك » .

ـ « لماذا ؟ »

ـ « لاننى عندما أسكر أستجيب فى سهولة لما يطلبه الى الناس . »

وكانت عبارته التى قال فيها : « ان كان يرضيك حبى لك على هذه الصورة فلتفعلى ما شئت » قد أساءتنى بالفعل . أما ما قاله عن الخمر فكان خليقا باقناعى ان جهودى معه لن تجدى فتيلا .

فقلت فى يأس : « كل ما ابغيه منك أن تفعل ما يحلو لك ، فان شئت الذهاب فلتذهب ، فها هو ذا الباب » .

فقال مشاكسا : « ان كان على أن أذهب فلا بد أن أتأكد من ان ذلك هو ما أبغى » .

— « أتريدنى أن أذهب ؟ »

وتبادلنا النظرات ، وكنت فى تعاستى قد وطنت النفس على الرحيل ، وبدا لى انه اضطرب ازاء تصميمى كما اضطرب لدغدغتى قبل ذلك بلحظة واحدة . ثم قال فى جهد : « كلا ، بل أبقى هنا »

ثم واصلنا تناول طعامنا فى صمت ، ورايته يصب لنفسه ملء قدح كبير من النبيذ ويفرغه فى جوفه دفعة واحدة قائلا : « أترين؟ اننى أسكر ؟ »

— « يمكننى أن أرى ذلك . »

— « ولن تلبث الخمر أن تصعد الى رأسى . وعندئذ ربما كاشفتك بحبى . »

كانت كلماته تطعننى فى قلبى ، وفى الواقع فانى لم أستطع أن أتحمل مزيدا من العذاب على هذه الصورة فقلت فى ذلة : « اصغ الى . عليك أن تكف عن تعذيبى » .

— « وهل أعذبك ؟ »

— « نعم . فانك تسخر منى .. وأنا لاأطلب اليك الا أن تتجاهلنى فلشد ما تملكنى هـــواك .. ولكنه لن يلبث أن يزول .. أما الآن فلتدعنى وشأنى . »

ولم ينبس ببنت شفة بل جرع قدحا آخر من النبيذ ، فخشيت أن أكون قد أسأت اليه .

وسألته قائلة : « ماذا دهاك ؟ هل غضبت منى ؟ »

— « غضبت منك ؟ كلا مطلقا . »

— « ان شئت أن تسخر منى فلتفعل .. فانى لم أقصد شيئا .. »

— « انى لا أسخر منك . »

فألححت عليه قائلة دون ما روية أو دهاء علىالاطلاق بلمدفوعة برغبتى فى اذلال نفسى أمامه :

— « وان شئت أن تقول لى كلاما قاسيا فلتفعل ، فانى سأحبك على الرغم من ذلك ... بل سيزيد حبى لك ، حتى لو ضربتنى فانى سأقبل يدك التى ضربتنى . »

كان يتفحصنى بانتبـاه وقد بدا عليه الارتباك الشـــديد ، فمن

الواضح انه قد انتابته الحيرة أزاء حبى القوى .
ثم قال : « هلا ذهبنا ؟ »
– « الى أين ؟ »
– « الى شقتك ؟ »
ولشد ما تملكني اليأس حتى كدت انسى السبب فى يأسى ، فاذا بذلك الاقتراح الذى جاء على غير انتظار وكنا قد انتهينا لتونا من تناول أول أصناف الطعام فقط ، وكان دورق النبيذ لايزال ممتلئا حتى نصفه اذا به لا يلقى منى سرورا بقدر ما أثار من دهشتى فقد أدركت ان ارتباكه جعله يرغب فى أن يقطع علينا وجبتنا .
فقلت : « لشد ما تتوق الى التخلص منى . أليس كذلك ؟ »
فسألنى قائلا : « كيف تكهنت بذلك ؟ » ولكن لما كان رده أقسى من أن يصدق فقد بث فى نفسى الشجاعة لسبب لم يمكنى تفسيره .
فقلت منكسة عينى : « ان بعض الاشياء لا تحتاج الى مناقشة ومع ذلك فلننته من تناول وجبتنا أولا .. ثم نذهب » .
– « كما تشائين .. ولكننى عندئذ أكون قد سكرت . »
– « فلتسكر اذن .. فهذا لا يهمنى . »
– « ولكننى سأسكر حتى أمرض ، وعندئذ لا تجدين عشيقا تمارسين معه الحب بل مريضا تسهرين على تمريضه . »
فدفعتنى سذاجتى الى اظهار قلقى ومددت يدى نحو الدورق قائلة : « اذن فلتكف عن الشراب ! » فانفجر ضاحكا وهو يقول ، « لقد أوقعتك فى الفخ هذه المرة ! » .
– « لماذا ؟ »
– « لا تخافى ، فأنا لا أمرض بالسهولة التى تتصورينها . »
فقلت يخالجنى شعور بالمهانة : « ولكننى كنت أفكر فيك » .
– « فى .. حقا ! حقا ! »
ولم يفتأ يشاكسنى ، ولكن رقة قلبه التى فطر عليها كانت تستبطن مشاكساته جميعا فلم أعبأ كثيرا بما يقول .
ثم أضاف قائلا : « ولكن لم لا تشربين ؟ »
– « أنا لا أحب الخمر ، وفضلا عن ذلك فان قدحا واحدا كفيل بأن يسكرنى . »
– « وماذا يهم ؟ فسوف نسكر معا . »
– « ماأشنع النساء عندما يسكرن، وأنا لاأبغى أن ترانى مخمورة . »

— « لماذا ؟ وما وجه الشناعة فى ذلك ؟ »
— « لست أدرى ، ولكنه منظر شنيع أن ترى أمرأة تترنح وتفحش فى القول وتأتى حركات فظة مبتذلة ، بل منظر محزن ، وأنا أعلم اننى امرأة منكودة كما اعلم ان هذا هو رأيك فى ، ولكنك لو رأيتنى مخمورة لما نظرت فى وجهى مطلقا بعد ذلك »
— « ولنفرض أننى أمرتك بأن تشربى ؟ »
فقلت وأنا افكر فى كآبة : « أتبغى حقا أن ترانى مهينة ؟ ان ميزتى الوحيدة هى اننى لست فظة · أتريدنى حقا أن أفقد هذه الميزة أيضا ؟ »
فقال مؤكدا : « نعم .. هذا هو ما أريده بالضبط » .
— « لست أدرى ماذا يثيرك فى ذلك ولكن ما دام الامر كذلك فلتصب لى بعض النبيذ » . ثم قدمت اليه قدحى .
فنظر الى القدح والى ثم انفجر ضاحكا مرة أخرى وهو يقول : « كان ذلك مزاحا فحسب » .
— « انك دائما تمزح · »
ثم ما لبث أن أردف قائلا بعد لحظة وهو يرمقنى فى انتباه :
— « اذن فأنت لست فظة ؟ »
— « هكذا يقولون على أى حال · »
— « أتظنيننى أوافقهم على ذلك ؟ »
— « وكيف لى أن أعلم ماذا تعتقد ؟ »
— « فلنر·ماذا تتوقعين أن يكون رأيى فيك وشعورى نحوك ؟ »
فقلت فى بطء وخوف : « لست أدرى ، ولكنك بالطبع لا تحبنى كما أحبك ، لعلك تعجب بى كما يعجب أى رجل بأية أمرأة بشرط ألا تكون شديدة البشاعة · »
— « أذن فأنت تعتقدين أنك لست شديدة البشاعة ! »
فقلت فى فخر : « نعم .. بل انى فى الواقع اعلم اننى جميلة ، ولكن ماذا أفادنى جمالى حتى الان ؟ »
— « ليس المقصود بالجمال أن يكون ذا فائدة · »
وكنا فى تلك الاثناء قد فرغنا من تناول وجبتنا واوشكنا ان نأتى على دورقين من النبيذ .
قال : « أترين ؟ اننى ظللت أشرب ولكننى لم أسكر ؟ » ولكن بدا لى ان عينيه اللامعتين ويديه المرتعشتين تكذب ما يقول ، فنظرت اليه تحدونى بارقة من الامل ، فاذا به يردف قائلا :

— « انك تريدين الذهاب الى المنزل ، هه ؟ »
(1) C'est venus toute entière à sa proie attachée ...
— « ما هذا ؟ »
— « لا شيء ‥ انه بيت من الشعر اقتبسته ليناسب المقـام ، أيها الساقى ! »
كان لايزال يتكلم بلهجة توكيدية ولـكنها مازحة . ثم سأل صاحب المطعم بلهجة مازحة عن قيمة الفاتورة وألقى فى وجهه بالنقود بعد أن اضاف اليها هبة سخية وهو يقـول : « هـذه لك » . ثم تجرع ما بقى من النبيذ ولحق بى فى خارج المطعم .

وما كدت أخرج الى الشارع حتى انتابنى جنون لابلـغ المنزل . كنت أعلم انه جاء لزيارتى على الرغم منه وكنت أعلم انه يمقت ذلك الشعور الذى دفعه الى البحث عنى ويحتقره ، ولـكننى لشد ما كنت مؤمنة بجمالى وبحبى له ووددت بفارغ الصبر ان أتذرع بهذين السلاحين لقهر عداوته ، واذا بارادة مرحة عدوانية تستفزنى ويتولانى يقين من انتصار حبى على كراهيته ونفوره ومن انصهار معدنه الخشن الصلب فى النهاية ازاء حرارة حمـاسى العـاطفى فيبادلنى الحب .

قلت وأنا أسير الى جانبه فى الطريق الذى أقفر من الناس فى تلك الساعة المبكرة من الاصيل .
— « ولكن عليك أن تعدنى بألا تحاول الهرب منى عندما نصـل الى المنزل . »
— « أعدك بذلك . »
— « كما عليك أن تعدنى بشىء آخر . »
— « ما هو ؟ »

فترددت قبل أن أجيب قائلة : « لولا انك فى المرة السـابقة رميتنى بنظرة معينة جعلتنى أشعر بالخجل لأمكن أن يسير كل شىء على ما يرام فعليك أن تعدنى بالا تنظر الى تلك النظرة مرة أخرى » .
— « وكيف كانت ؟ »
— « لست أدرى ‥ ولكنها نظرة كريهة . »

---

(1) جاء هذا البيت فى مسرحية « فيدر » لراسين على لسان فيلر وترجمته : « ان فينوس بكل قدرتها الالهية متشـبثة بفريستها .... » والمقصود ان « فيـدر » والمراد أسرتها جميعا نزلت بهم لعنة الحب

فما لبث أن أجاب قائلا : « لايمكنني التحكم فى نظراتى ، ولكنني ان شئت لن أنظر اليك مطلقا ، بل سأغض بصرى ، ايرضيك هذا ؟ »
فاحتججت قائلة فى عناد : « كلا ، فهذا لايرضيني » .
— « اذن فكيف تريدين أن أنظر اليك ؟ »
فأجبت قائلة : « هكذا نظرة رقيقة حانية .. »
— « آه فهمت ، نظرة حانية .. »
وبينما كنا نصعد الدرج التعس القذر المؤدى الى شـقتى لم يسعنى الا أن أذكر تلك العمارة التى تسكنها جيزيلا بما عليها من نظافة ولمعان . فقلت وكأنى أحدث نفسى : « لو اننى لا اسكن مكانا كهذا ، ولو اننى لم أكن تلك المخلوقة التعسة لارتفع قدرى كثيرا فى نظرك » .

فاذا به على غير انتظار يتوقف فجأة عن الصعود ويقبض على خصرى بكلتا يديه قائلا فى صدق واخلاص : « ان كان ذلك هو اعتقادك فيمكنك أن تثقى تماما انه اعتقـــاد خاطىء . » ثم التمعت عيناه بتعبير قريب جدا من الحب ، وفى نفس اللحظة انحنى فوقى ملتمسا شفتى ، وكانت انفاسه تفوح منها رائحة النبيذ القوية ، ومع اننى لم أكن أقوى مطلقا على احتمال رائحة النبيذ فقد بدت لى عندئذ وهى تنبعث من فيه بريئة خلابة تكاد تثير الشفقة وكأنها تنبعث من فم صبى غر ، كما أدركت أن كلماتى قد أصابت من نفسه أكثر المواطن حساسية حتى خيل لى اننى أشعلت فى صدره شررا من العاطفة ، ولـكننى عرفت فيما بعد ان ما حدث لم يكن الا خفقة من حب الذات وانه لم يكن بعناقه اياى منساقا بدافع من الحب بقدر ما كان مستسلما لنوع من الابتزاز الادبى ، ومن ثم فقد دأبت كثيرا فيما بعد على ابتزازه بنفس الطريقة . فكنت أتهمه باحتقارى لفقرى ومهنتى ، ولم أفتـــأ أحقق النتـــائج التى كان يحن اليها قلبى مع شدة احساسى بالمهانة والفشل كلما زاد فهمى لشخصيته .
ولـكن معرفتى به عندئذ لم تكن قوية كما آلت اليه فيما بعد. فملأتنى قبلته بالفرح وكأننى فزت بنصر حاسم . فلم أزد على ان لمست شفتيه بشفتى قانعة بالحركة وحدها ثم أمسكت به من يده وجذبته الى أعلى صاعدة به آخر مراحل الدرج وأنا أقول :

— « هيا . فلنسرع ! » فانقاد لى مستسلما دون أن ينبس بكلمة ودخلت شقتى وأنا أكاد أركض بينما لم يفتأ هو يصطدم بجدران

المدخل وكأنه دمية . ثم اقتحمت غرفتي وألقيت به على الفراش. وعندئذ لاحظت لاول مرة انه لم يكن مخمورا فحسب كما توقعت بل يكاد يقيء من شدة السكر . فلشدد ما امتقــع وجهـــه ، ولم يفتأ يمر بيده على جبهته وقد ارتسم على وجهه تعبير مذهول وفي عينيه نظرة زائغة شاردة . لاحظت كل ذلك لاول وهلة ، فخشيت في الحال ان يمرض حقا ويضيع لقاؤنا الثاني هباء . ولشدد ما انتابني تأنيب الضمير أثناء تجوالي في الغرفة وأنا أخلع ثيابي لانني لم امنعه من الشراب ــ حتى كاد ينتابني اليأس، ولـكنه جدير بالذكر أنه لم يخطر حتى ببالي أن أتخلى عن تصميمي على مضـــاجعته ــ تلك الامنيـــة التي طـــالما تقت الى تحقيقهـــا . وكنت أتمنى شيئا واحدا فقط ــ هو الا يعجزه المرض عن ممارسة الحب معي والا يظهر أثر لغثيانه ــ ان كان شديدا حقا ــ الا بعد اشباع رغبتي فقد كنت مغرمة به حقا ولـكن حبي لم يستطع أن يتجاوز حدود ذاتي لخوفي الشديد من فقدانه .

فتجاهلت سكره ، وما ان خلعت ثيابي حتى جلست بجانبه على الفراش ، وكان لا يزال مرتديا معطفه تماما كما كان عند دخـــوله الغرفة ، فبدأت أعاونه على خلع ثيابه وكنت في أثناء ذلك لا انقطع عن الـكلام لـكي أشتت انتباهه وأحول بينه وبين التفكير في النهوض ومغادرة المنزل .

قلت : « انك للآن لم تذكر لي كم تبلغ من العمر ؟ » وكنت في أثناء ذلك أنزع عنه معطفه وهو رافع ذراعيه في استسلام تيسيرا لمهمتي .

ولم يلبث أن قال : « التاسعة عشرة » .

ــ « انك تصغرني بعامين . »

ــ « وهل انت في الحادية والعشرين ؟ »

ــ « نعم .. بل اناهز الثانية والعشرين في الواقع . »

واخذت أصابعي تعبث في ارتباك بعقدة رباط عنقه ، فدفعني بعيدا في بطء ومشقة وحل العقـــدة بنفسه . ثم ســـقطت ذراعاه فنزعت الرباط عن عنقه قائلة : « هـــذا الرباط قـــد بلى تماما وسأبتاع لك رباطا جديدا ، فأي الالوان تفضل ؟ »

فأخذ يضحك . وعندئذ أحسست نحوه بالحب . فلشد ماكانت ضحكته جذابة .

قال : « انك تنوين حقا أن تكفليني ! فأنت تبغين أولا أن تدفعي

لى ثمن وجبتى والآن تريدين اهدائى رباط عنق » .

فقلت فى شغف به : « يا للسخف ! وماذا يهم لو عن لى أن أهديك رباط عنق ؟ فان ذلك لا يمكن ان يغضبك ! » وكنت فى تلك الاثناء قد نزعت عنه سترته وصديره • ولم يبق عليه سوى قميصه وهو جالس على حافة الفراش .

وسألنى قائلا : « هل يمكنك أن تتكهنى بأننى فى التاسعة عشرة من عمرى ؟ » وكان مغرما دائما بالحديث عن نفسه ، فسرعان ما اكتشفت ذلك .

فقلت مترددة على صورة كنت أعلم انها ترضى كبرياءه : « عن طريق أشياء معينة » . ثم أضفت قائلة وانا اربت على راسه : « فلشد ما يشى بك شعرك ، اذ ان شعر الرجال ليس على هذه الصورة من الحيوية . أما وجهك فلا يمكننى أن أتعرف منه على سنك » .

ــ « كم تقدرين عمرى من وجهى ؟ »

ــ « الخامسة والعشرين » •

فسكت عن الكلام ثم رايته يغمض عينيه وكأنه قد غلبه سكره فعاودنى الخوف من مرضه وأسرعت بنزع قميصه قائلة : « زدنى حديثا عن نفسك . فهل انت طالب ؟ »

ــ « نعم •• »

ــ « وماذا تدرس ؟ »

ــ « القانون •• »

ــ « أتقيم مع اهلك ؟ »

ــ « كلا •• فهم من سكان الريف ويقيمون ببلدة س •• »

ــ « أتقيم فى نزل ؟ »

فأجابنى قائلا بلهجة آلية وهو مغمض العينين : « كلا ، بل فى غرفة مؤثثة ، بالشقة رقم ٨ من المنزل رقم ٢٠ بشارع كولادى ونزو لدى السنيورا آماليا مدولاجى ، وهى أرمل »

وكان صدره الآن قد تعرى فلم أتمالك نفسى من أن أمر بيدى على صدره وعنقه فى عشق وسألته قائلة : « لم تجلس هناك ؟ الا تشعر بالبرد ؟ »

فرفع رأسه وتطلع الى قائلا : « أتظنيننى لم الحظ شيئا ؟ » ثم ضحك وكان صوته حادا بعض الشيء •

ــ « وماذا لاحظت ؟ »

ـ « أنك تنزعين عنى ثيابى أثنـــاء حديثك ، فربما كنت مخمورا ولكن ليس الى هذا الحد »

فقلت في شيء من الارتباك : « حسنا ، ولنفرض اننى فعلت ، فماذا يضيرك فى ذلك ؟ كان ينبغي أن تخلع ثيابك بنفسك ، ولما لم تفعل فقد أخذت أعاونك علي خلعها » .

من الواضح انه لم يسمع ما كنت اقول . اذ انه اخذ يهز رأسه قائلا : « انني مخمور ولـكننى أعرف جيدا ماذا أفعل ولماذا أنا هنا ؟ كلا ، فأنا لست فى حاجة الى مساعدتك ، شكرا لك » .

واذا به يفك حزامه ويلقي بعيدا بسراويله وبكل ما كان يرتـديه من ملابس بحركات فجائية عنيفـة بدت كحركات الدمى بسبب نحافة ذراعيه . ثم قال قابضا على خصري بكلتا يديه : « كما انني أعلم ماذا تتوقعين منى أن أفعل » . فأمسكت بى يداه القويتان العصبيتان ثم بدا لى ان النظرة المخمورة فى عينيه قد تلاشـت وحلت محلها نظرة تنم عن الشر وحب الايذاء القوى . وكان علي أن أواجه تلك النزعة الشريرة ذاتها فى نفس اللحظة التى لشد ما كان يبدو فيها مستسلما للذة . فقد كانت دليـلا واضـحا على صفاء وعيه الذى لم يفتـأ يتمتع به فى جميـع الاوقات مهما كان العمل الذى يؤديه . وكان ذلك كما اكتشفت للأسف فيما بعد يقف حائلا بينه وبين حب أى شخص حبا حقيقيـا ويمنعه من الاتصال به .

ثم أردف قائلا وهو يتشبث بى وينشب اظافره فى بدنى : « هذا هو ما تريدين . اليس كذلك ؟ هذا وهذا وهذا » . وكان كلما قال « هذا » يأتى حركة من حركات الحب كالتقبيل والعض والقرص على غير انتظار . واخذت أضحك وأتلوى واقاوم وقد تولتنيسعادة غامرة ليقظته الفجائية فلم الحظ كم كان سلوكه متكلفا ومفتقرا الى التلقائية . ولشد ما آلمنى بحركاته كما لو كان جسدى شيئا بغيضا فى نظره يكرهه ولا يحبه . والتمعت عيناه بالغضب أكثر مما لمعتا بالرغبة . وفجأة هدأت نوبة جنونه كما بدأت . واذا به يستلقي بطوله الى الخلف على الفراش مغمضا عينيه بطريقة غريبة غامضة وكأنه قد غلبه شعوره بالسكر فوجدتنى راقدة بجانبـه يراودنى احساس غريب بأنه لم يأت حركة قط ولم ينبس بكلمة وبأنـــه لم يلمسنى البتة أو يعانقنى كما لو كنا لم نفعل شيئا بعد .

رقدت هنـاك بعض الوقت بلا حراك راكعة أمامه على الفراش

وقد تهدل شعرى على عينى . أخذت أنظر اليه واتحسس على استحياء جسده الطويل النحيل الجميل البرىء بأنامل وجلة . كان ذا بشرة بيضاء برزت منها عظامه وقد عرض منكباه النحيلان وضمر ردفاه وطالت ساقاه وملس جسده الا من بعض شعرات على صدره واستوى بطنه وهو فى ذلك الوضع الذى كان يرقد فيه مما جعل أعضاءه التناسلية ترتفع الى أعلى وكأنها تعرض نفسها . ولما كنت أكره العنف فى الحب فقد راودنى احساس بأن شيئا لم يحدث بيننا وان كل شىء لم يبدأ بعد . فانتظرت حتى يعود الهدوء ويسود السكون بعد تلك الضجة الهازئة المفتعلة التى لم تلبث الا لحظة . وما ان استرد قلبى صفاءه المعهود وحبه العارم حتى اضطجعت بجانبه . فأحسست وكأنى أنغمس رويدا فى بحر ساكن يزخر بالمياه الجميلة ذات يوم قائظ . ثم التفت ساقاى بساقيه وأحاطت بعنقه ذراعاى ، وتشبثت به . وعندئذ لم يتحرك أو يتكلم حتى آخر لحظة .. فأخذت أدعوه بأرق الاسماء وأعزها الى قلبى بينما انبعثت أنفاسى اللاهثة لتداعب وجهه . كما أخذت أعانقه عناقا حارا ملتهبا بالحب وهو مستلق على ظهره بلا حراك وكأنه جثة هامدة فقدت الحياة . وقد عرفت فيما بعد انه ليس فى وسعه أن يقدم دليلا على حبه أقوى من تلك السلبية المنعزلة .

وبعد قليل نهضت متكئة على مرفقى واخذت انعم النظر اليه على صورة ما زالت للآن بعد كل هذا الوقت الطويل تشكل ذكرى ثمينة مؤلمة ، فقد كان ينام وراسه فى وضع جانبى غائص فى الوسادة وقد زايله وقاره المهتز المتردد الذى كان لا يفتأ يحاول الاحتفاظ به فى جميع الاوقات مهما كان الثمن . ولم يبق شىء فى ملامحه التى كشف عنها النوم بكل ما فيها من صدق واخلاص سوى شبابه الذى لا سبيل الى وصف نضارته وبراءته الا بأنهما تعبير صادق عن صفة خاصة من صفات روحه أو ميل معين فيها . ولكننى تذكرت اننى رأيته وقد انتابته على التوالى حالات الحقد والعداءة وعدم الاكتراث والقسوة والرغبة . فامتلأت نفسى بالكآبة والتبرم القلق لانى كنت أعلم ان حقده وعداوته وعدم اكتراثه ورغبته كانت كلها أشياء تميزه عنى وعن كل من عداه وانها نابعة من مصدر عميق فى نفسه كان لا يزال سرا مستغلقا على . ولم أشأ أن أجعله يفسر لى حالاته بتناولها وفحصها ثم شرحها لى فى ألفاظ كما لو كانت أجزاء فى آلة يمكن تناولها وفحصها . بل كنت أفضل أن أتعرف عليها

فى أدق مظاهرها من خلال مضاجعتى اياه ولـكننى لسـوء الحظ فشلت فى ذلك . فالقليل الذى فاتنى أدراكه منه هو ذاته بأكملها . أما الـكثير الذى لم تفتنى ملاحظته فكان تافها لا يفيدنى فى شيء . ولقد احسست ان جينو وآستاريتا بل حتى سونزونيو كانوا أقرب الى منه وكنت أعرفهم أكثر منه ، فنظرت اليه يخالجني ألم مبرح لان أعماق نفسينا لم تتمكن من التلاقى والتلاحم كما تلاقى جسدانا قبل ذلك بفترة وجيزة . فتفجعت أعماقي وبكت فى مرارة تلك الفرصة التى ضاعت هباء . فربما مرت لحظة أثناء ممارستنا الحب كشف فيها عن نفسه وتخلى عن ستره وكان فى وسعى بحركة أو كلمة أن أنفذ اليه فيصير ملـكا لى الى الابد . ولـكننى لم أتعرف على تلك اللحظة المناسبة . والآن قد فات الاوان فهو مستغرق فى النوم وقد ولى بعيدا عنى مرة أخرى .

وبينما كنت أتأمله فتح عينيه ولـكنه ظل ساكنا تماما وقد غاص رأسه فى الوسادة وهو لايزال فى وضعه الجانبى . ثم سألنى قائلا : « هل نمت أنت أيضا ؟ »

وخيل لى ان صوته كانت تتخلله نبرة مختلفة اكثر ثقة وائتمانا . فملأ قلبى أمل مفاجىء بأن العلاقة بيننا ربما توثقت أثناء نومه على صورة غامضة . فقلت : « كلا ، بل كنت اراقبك » .

فسكت لحظة ثم اردف قائلا : « أريد أن أطلب اليك صنيعا . ولـكن أيمكننى الاعتماد عليك ؟ »

ـ « يا له من سؤال ! »

ـ « أتؤدين لى صنيعا بأن تحتفظى لى بطرد أعطيك اياه مدة ايام قلائل ؟ ثم أحضر اليك لاتسلمه وربما حملت اليك طردا آخر . »

لو طلب الى ذلك فى اى وقت آخر لاظهرت بعض الفضول ازاء موضوع الطرود ، ولـكننى عندئذ لم يكن يهمنى سوى جياكومو وعلاقتنا ، وخطر لى ان ذلك سيتيح لى الفرصة لرؤيته مرة أخرى واننى يجب أن أفعل كل ما فى وسعى لارضائه ، كما خطر لى اننى لو سألته عما يحويه ذلك الطرد فلعـله ينـدم على اقتراحه ويسحبه ، فقلت باستخفاف : « اذا كان ذلك هو كل ما تطلب ! »

ثم عاد فلزم الصمت فترة طويلة وكأنه يفكر فى الامر ، وبعـد ذلك سألنى قائلا : « اذن فانت توافقين ؟ »

ـ « لقد قلت لك ذلك فعلا . »

ـ « ألا يهمك أن تعرفى ما تحويه تلك الطرود ؟ »

فأجبت قائلة وأنا احاول جهد الطاقة أن اتظاهر بعدم الاكتراث : « اذا لم تشأ أن تخبرني فمعنى ذلك ان لديك مبرراتك ، لذا فانني لا أطلب اليك ذلك » .

– « ولكنه ربما كان شيئا خطيرا ، فكيف تعرفين ؟ » .

– « لابد من المخاطرة . »

فأردف قائلا وهو مستلق على ظهره بينما لمعت عيناه بالسرور الساذج : « فلعلها سلع مسروقة ، وربما كنت لصا » .

فتذكرت سونزونيو الذى لم يكن لصا فحسب بل سفاحا ثم تذكرت سرقاتى التى ارتكبتها : « البدارة » والقلنسوة ، وبعد ذلك تصورت كم كان غريبا منه أن يرغب فى ايهامى بأنه لص في حين اننى كنت لصة بالفعل أعيش بين اللصوص ، فقلت فى رقة وأنا اربت عليه مدغدغة : « كلا ، فانني واثقة انك لست لصا » .

فتجهم وجهه ، اذ انه لما كانت كبرياؤه يقظة دائما فانه كان يستشعر الاساءة فى اغرب الاشياء وابعدها احتمالا ، ثم سألنى قائلا : « ولم لا ؟ فلعلى كذلك » .

– « ولكنك لا تبدو لصا .. كل شيء ممكن بالطبع .. ولكنك لا توحى الى بشيء من هذا حقا . »

– « لماذا ؟ وكيف ابدو لك ؟ »

– « على حقيقتك ، فأنت تبدو شابا من أسرة كريمة ، طالب علم . »

– « لقد زعمت لك أننى طالب ، ولكننى ربما كنت شيئا آخر كما هى الحال فى الواقع . »

غير اننى لم اعد أنتبه اليه ، فقد خطر لى ان وجهى ايضا لم يكن ينبىء بأننى لصة ومع ذلك فهكذا كنت ، وتمنيت أن أقول له ذلك ، وكان موقفه الغريب يغرينى بذلك الى حد ما ، فقد كنت اعتقد دائما ان السرقة جرم يستحق اللوم ، فاذا بذلك الرجل لا يعفى فقط مثل هذا العمل من اللوم بل يبدو وكأنه يرى فيه ظاهرة ايجابية لم أستطع ادراكها .

فقلت بعد لحظة من التردد : « انت على حق ، فانا ارفض ان اصدق انك لص لشعورى بأنك لست كذلك ، أما عن سيمائك – فربما كنت لصا – اذ أن الناس لا تبدو عليهم الحقيقة دائما ، فهل أبدو أنا لصة مثلا ؟ »

فأجابنى قائلا دون أن ينظر الى : « كلا .. »

فقلت فى هدوء : « ومع هذا فانني كذلك .. »

- « حقا ؟ »
- « نعم ٠٠ »
- « وماذا سرقت ؟ »

كنت قد وضعت حقيبتي على المنضدة الصغيرة بجانب الفراش فالتقطتها وأخرجت منها « البدارة » قائلة : « هذه ٠ وقد سرقتها من منزل تصادف وجودى فيه منذ فترة وجيزة ، كما سرقت منذ أيام قلنسوة حريرية من أحد المحال ثم أعطيتها لأمى » .

ولا ينبغى أن تتصوروا اننى صارحته بكل ذلك بدافع من الزهو والخيلاء ، بل دفعتنى اليه فى الواقع رغبتى فى توطيد العلاقة بيننا والمشاركة العاطفية فى الاثم ، كما أن الاعتراف بالجرم ان لم يأت بنتيجة أفضل فانه يقرب بين الناس ويوقظ الحب ، ولقد رأيت وجهه يتخذ سيماء الجد وهو يتأملنى فى شىء من الحزن ، فخشيت فجأة أن يظن بى سوءا وأن يقرر مقاطعتى فأسرعت قائلة : « ولكن لا تظننى فرحة بما ارتكبته من سرقة ، فقد قررت اليوم فى الواقع أن أرد « البدارة » الى صاحبتها . اما القلنسوة فلا يمكننى ردها ، ولكننى نادمة على ما حدث وقد قررت الا أعود اليه » .

وبينما كنت أتكلم لمعت عيناه بحب الايذاء المعهود ، واخذ يتأملنى ثم انفجر فجأة فى الضحك ، وامسك بى من كتفى وراح يضمنى اليه بقوة ويقرصنى بطريقته الفجائية قائلا : « أيتها اللصة ! انك لصة ، لصة كبيرة ، لصة صغيرة عزيزة » راح يردد ذلك بلهجة جمعت بين الحب والتهكم تركتنى فى شك مما اذا كان ينبغى لى أن اغضب أم أسر ، ولكن اندفاعه أثارنى وأرضانى على صورة ما . فقد كان ذلك على أية حال أفضل من سلبيته المعهودة التى تشبه الموت ، فأخذت أضحك وأتلوى من أعلى رأسى الى اخمص قدمى لشدة تأثرى بالدغدغة وكان يصر على دغدغتى أسفل ذراعى ولكننى كنت ألاحظ طوال الوقت الذى لم افتأ أتلوى فيه وأضحك حتى تحدرت الدموع على وجنتى أن وجهه المنحنى فوقى فى غير ما شفقة على الاطلاق كان باردا متحفظا . ثم اذا به يتوقف فجأة كما بدأ ويستلقى الى الخلف على الفراش قائلا : « ولكننى لست لصا - ولا شىء من هذا القبيل - واما هذه الطرود فلن تحوى سلعا مسروقة » .

وقد لاحظت انه كان يتحرق شوقا ليخبرنى بما كانت تحويه تلك الطرود كما لاحظت ان الامر كله لا يعدو أن يكون فى نظره

مثارا للزهو أكثر من أى شيء آخر ، ذلك الزهو الذى لا يختلف كثيرا عما كان يشعر به سونزونيو عندما أطلعنى على جريمته ؛ فالرجال يشتركون فى نواح متعددة رغم كل ما بينهم من اختلافات. فعندما يوجد الرجل مع امرأة يحبها أو تربطه بها علاقة غرامية فانه لا يفتأ يميل الى استعراض رجولته عن طريق التفاخر بما قام به أو يعتزم القيام به من أعمال قوية وخطيرة .

فقلت فى رقة : « انك تتحرق شوقا لاظهارى على محتويات تلك الطرود » .

فغضب قائلا : « انك سخيفة حمقاء ، فان ذلك لايهمنى فى شيء ولكننى يجب أن أخبرك بمحتوياتها حتى تقررى ان كنت ستؤدين لى ذلك الصنيع أم لا ، ولذا فانى اصارحك بأنها تحتوى على دعاية » .

— « ماذا تعنى ؟ » .

فقال فى بطء : « اننى أنتمى الى جماعة من الناس لا يميلون الى نظام الحكم الحاضر بل يكرهونه فى الواقع ويريدون أن يتخلصوا منه فى أقرب وقت ممكن ، وتحتوى الطرود على كثير من المنشورات التى طبعت سرا والتى نشرح فيها أسباب فساد هذا النظام وكيفية التخلص منه » .

لم تكن لى صلة قط بالسياسة ، واعتقد ان مسألة نظام الحكم لم تكن تمسنى انا أو غيرى من الكثيرين فى شيء ، ولكننى تذكرت آستاريتا واشاراته الى السياسة من وقت لآخر .

فهتفت قائلة فى انزعاج : «ولكن هذا شيء محرم ، انه خطير!»

فنظر الى فى رضا واضح ، اذ قلت اخيرا شيئا اعجبه وأرضى غروره ، فأمن على كلامى قائلا فى جد متناه ولهجة توكيدية الى حد ما : « نعم .. انه خطير ، والآن عليك آن تقررى ان كنت ستؤدين لى ذلك الصنيع أم لا ؟ »

فأجبته قائلة فى جد : « لم اكن اتكلم عن نفسى ، بل كنت اعنيك ، اما عن نفسى فانى سأقوم بالمهمة » .

فعاد يقول : « حذار ، فان الامر جد خطير ، فلو انهم عثروا على تلك الطرود لانتهى بك المطاف الى السجن » .

فنظرت اليه وغشينى فيض من العاطفة الجامحة ، ولا ادرى ان كانت هذه العاطفة من أجله أم من اجل شيء آخر لم اعرف كنهه ، فاغرورقت عيناى بالدموع وتلعثمت قائلة : « الا ترى ان

الامر لايهمني مطلقا ؟ فاني سأذهب الى السجن .. ثم ماذا ؟ »
وهززت رأسي فتحدرت الدموع على وجنتي .

فسألني قائلا فى دهشة : « والآن ماذا يبكيك ؟ »

فقلت : « انى آسفة ، فهذا سخف منى .. ولـكنى لا أدرى أنا نفسى لماذا أبكى ؟ فلعلى أريدك أن تدرك كم أنا مغرمة بك وكم أنا على استعداد لعمل أى شىء من أجلك » .

ولم أكن بعد قد تعلمت انه لا ينبغي أن أذكر له حبى ، فما ان سمع كلماتى حتى امتلأ وجهه بتعبير ينم عن الارتبـــاك الغامض الصلف ذلك التعبير الذى كان مقدرا لى أن أراه كثيرا فيما بعد . ثم أسرع قائلا : « حسنا ، سأحمل اليك الطرد بعد يومين ، اذن فقد اتفقنا ، والآن ينبغى أن أذهب فقد تأخر الوقت » . وبينما كان يتكلم وثب من الفراش وأخذ يرتدى ملابسه بسرعة ، وبقيت حيث كنت عارية من ثيابى تغمرنى عاطفتى ودموعى ويخالجنى شىء من الخجل اما لعريى واما لبكائى .

ثم التقط ملابسه التى كانت ملقاة على الارض وأخـــذ يرتديها واتجه الى المشجب لتناول معطفه الذى اندس فيه ثم جاء نحوى قائلا بابتســـامته البريئة الخلابة التى لشـــد ما كانت تجذبنى : « جسى » .

فنظرت ورأيت أنه كان يشير الى أحد جيبى معطفه ، وكان قد اقترب من الفراش حتى يمكننى أن أمـــد يدى فى غير جهـــد ، فأحسست من خلال قماش جيبه بشىء صلب ، وسألته قائلة دون أن أفهم شيئا : « ما هذا ؟ »

فابتسم فى رضـــا ودس يده فى جيبه ثم سحب فى بطء غدارة كبيرة سوداء أبرزها حتى نصفها وهو يحملق فى طوال الوقت بنظرة شاخصة . فهتفت قائلة : « غدارة ! وماذا تفعل بها ؟ »

فقال : « من يدرى ؟ فلعلها تنفعنى فى يوم من الايام » .

ولـكننى لم أثق بما قال ولم أدر ماذا أعتقد بل انه لم يتح لى الفرصة للتفكير ، فقد أعاد السلاح الى جيبه وانحنى فوقى مقبلا شفتى على عجل وهو يقول : « حسنا ، اذن فبعد يومين سأحضر اليك » . ثم انصرف قبل أن أفيق من دهشتى .

ومنذ ذلك الحين طالمـــا فكرت فى أول لقاء غرامى لنا ولم أفتـــأ أؤنب نفسى فى مرارة لاننى لم أتنبأ بالخطر الذى يعرضه له شغفه الشديد بالسياســـة ، وانى لأعلم انه لم يكن لى قط نفوذ عليه

ولـكننى على الاقل لو كان لى المام بالاشياء الـكثيرة التى تعلمتها منذ ذلك الحين لامكننى أن أنصحه واذا لم تجد معـــه النصـــيحة لوقفت الى جانبـه يحدونى وعى تام وتصميم أكيد ، واللوم كله يقع على بسبب جهلى الذى لا ذنب لى فيه بل ان ظروفى التى نشأته فيها هى التى كانت مسئولة عنه ، فانى كما سبق أن قلت لم تكن لى صلة مطلقا بأمور السياسة التى لم أكن أفهمهـا واحس انها غريبة عنى تماما وكأنها لا تجرى من حولى بل فى كوكب آخر .

وكنت كلما قرأت جريدة لا أفتأ أترك الصفحة الاولى التى تحمل أنباء السياسة لعدم اهتمامى بها ثم اتصفح تقارير القضايا الجنائية حيث كانت بعض الحوادث والجرائم تمد ذهنى بشىء يقتات به على الاقل ، وكانت حالى فى الواقع اشــبه بحال تلك المخلوقات الهلامية الصغيرة التى تعيش كما يقولون فى قاع البحر فيما يشبه الظلام ولا تدرى شيئا مما يدور على سطح الماء فى ضوء الشمس . فكانت السياسة شأنها شأن كثير من الامور الاخرى التى يبدو لى ان الناس يعلقون عليها اهمية كبرى لا تفتأ تبلغنى من عالم أعلى مجهول بل كانت أوهى فى نظرى وأكثر غموضا من ضوء النهـار بالنسبة لتلك المخلوقات الصغيرة البسيطة التى تعيش فى أعماق البحار .

ولـكن الذنب فيما حدث لم يكن يرجع الى والى جهلى فحسب بل اليه أيضـا بسبب غروره وطيشه ، فلو اننى أحسست فيه بشىء آخر سوى الغرور الذى كان يراوده فى الواقع فلعلى كنت أتصرف على صورة مختلفة ولأرغمت نفسى على الالمام بجميع الامور التى كنت أجهلها ولـكننى لا أستطيع أن أتكهن بما كان يمكن أن أحققه من نجاح . وعند هذه النقطـــة أحب أن أوضـــح امرا آخر ساعد بلا شك على عدم اكتراثى ــ الا وهو انه كان لا يفتأ يبدو وكأنه لا يؤدى عملا جادا بل يمثل دورا هزليا ، فقد بدا وكأنه قد أقام لنفسه شخصية مثلى شيدها قطعة قطعة ولـكنه لم يسعه الا أن يؤمن بها الى حد معين وكان لا يفتأ يجـــاهد ليجعل أعماله تتفق مع تلك الشخصية المثلى ، فكانت تلك المهزلة المستمرة توحى بأنه يمثل دورا فى لعبة اتقنها للغاية ، ولـكنها كانت تجعل أعماله كذلك تبدو أقل جدية بكثير وكأن الامر لا يعدو أن يكون لعبة كما كانت توحى فى نفس الوقت بأن كل شىء فى نظره يمكن اصـلاحه وانه فى آخر لحظة حتى اذا ما خسر اللعبة فان خصمه سيرد له

خسائره ويصافحه . والآن لعله كان يلعب حقا شأن الصبية الذين تدفعهم غرائزهم التي لا سبيل الى كبتها الى العبث بكل شيء . ولكن خصمه كان جادا كما سنرى ، ولذا فقد وجد نفسه فى نهاية اللعبة عاجزا ومجردا من السلاح وقد وقع أسير قبضة عدوه القاتلة التى لا أثر فيها للمزاح أو العبث .

وعندما استعرضت فى ذهنى ما حدث تبين لى ان كل هذه الاشياء وغيرها مما هو أفجع من ذلك بكثير وليس أقل منطقا أو عقلا قد وقع لى فيما بعد ، ولكن لم يخطر ببالى عندئذ ـ كما أعتقد اننى سبق أن أوضحت ـ ان مسألة الطرود هذه قد يكون لها تأثير ما على علاقتنا . كنت فرحة بعودته الى ، فرحة بامكانى أن أؤدى له صنيعا وبأن تتاح لى فى نفس الوقت فرصة لرؤيته مرة أخرى ، ولكننى لم أتطلع الى ما وراء ذلك المنبع المزدوج للسعادة ، بل أذكر اننى كلما خطر لى عرضا وعلى صورة غامضة حالة ذلك الصنيع الغريب الذى سألنى أن أؤديه كنت أهز رأسى وكأنى أقول : « عبث صبية ! » ثم يتجه تفكيرى الى أمور أخرى وعلى أية حال فلشد ما أحسست بالسعادة حتى اننى لو شئت أن أفكر فى شىء مقلق لما أمكننى تركيز انتباهى عليه .

الفصل السادس

بدا لى أن كل شىء كان يتم فى سهولة ونجاح ، فقد عاد الى جياكومو كما وفقت فى الوقت نفسه فى الافراج عن الخادمة التى اتهمت ظلما دون أن أضطر الى ان أحل محلها فى السجن ، ولقد قضيت يومئذ ساعتين على الاقل بعد انصراف جياكومو تخالجنى فرحة شديدة بسعادتى كما نفرح بجوهرة أو بشىء ثمين لايزال جديدا علينا وقد انتابتنا الحيرة والدهشة والخدر دون ان تخلو نفوسنا مع ذلك من المتعة العميقة . واذا بأجراس الصلاة توقظنى من ذلك التـــأمل الحسى ، فتذكرت نصيحة آستاريتا فيما يخص حاجتى الملحة الى مساعدة تلك المرأة التعسة رهينة السجن ، فارتديت ثيابى بسرعة وغادرت المنزل .

فى فصل الشتاء عندما يصير النهار قصيرا وعندما ننفق فى البيت الصباح كله والساعات الاولى من الاصيل ونحن فى خلوة معخواطرنا يصبح من الممتع ان نغادر الدار لنجوب الشوارع فى قلب المديـنـة حيث تبلغ حركة المرور ذروتها ويبلغ الزحام اشده وتضاء المحـال بأبهى أنوارها ، اذ تثب قلوبنـــا فى الهواء النقى البـارد وسـط ضوضاء الحياة فى المدينة وحركتها وبريقها وينقشع الضبـاب عن أذهاننا وتمتلىء نفوسنا بالاثارة الجذلة المبتهجة وبالنشــوة المرحة وكأن مشكلات الحياة جميعا قد حلت فجأة ولم يبق لنا الا أن نتجول وسط الزحام فى مرح وخلو بال قانعين بالانقيـــــاد لاى احساس عابر يوحى به الى أذهاننــا الخاملة مهرجان الطريق ، وعندئذ يبدو لنا فعلا وكأن جميع ذنوبنا قد غفرت كما تقول الصلاة المسيحية دون أى ثواب او استحقاق من جانبنا بل بفضل أريحيـة كريمة غامضة فحسب ، فلا شك اننا عندئذ نكون فى حالة نفسـية سعيدة أو راضية على الاقل ، والا فان حياة المدينة قد لا تبث فى نفوسنا سوى احساس حاد بالحركة السخيفة التى لا تهدف الى شىء ، ولـكننى يومئذ كنت سعيدة ولشد ما ازداد ذلك الاحساس عندما أخذت أسير على الافاريز فى قلب المدينة وسط زحام الناس.

كنت أعلم اننى يجب أن أذهب الى الـكنيسة لأعترف ، ولكننى

لم أكن فى عجلة من أمرى بل لم أكن حتى لأفكر فيما سأفعل ربما لعلمى بأن تلك هى غايتى . ولفرحتى بأننى كنت صاحبة ذلك الاقتراح أخذت أمشى الهوبنى من شارع الى آخر متوقفة بين الحين والحين لألقى نظرة على السلع المعروضة فى واجهات المحال ، ولو أن أحدا رآنى حينذاك لتبادر الى ذهنه بلا ريب اننى اعتزم اقتناص عشيق من الطريق ، ولكن ذلك فى الواقع كان أبعد ما يكون عن تفكيرى ، فلعلى كنت أتوقف عن المسير لو اعترض طريقى رجل استهوتنى سماته ولكننى ما كنت لافعل ذلك جريا وراء الكسب ، بل مدفوعة اليه باحساس من السعادة وفيض من الروح المعنوية العالية ، غير اننى لم اجد ما يجذبنى فى ذلك النفر القليل من الرجال الذين ما ان رأونى واقفة فى سكون انظر فى واجهات المحال حتى جاءوا الى بعباراتهم المعهودة وعرضهم لاصطحابى ، فلم احر جوابا بل لم اتطلع حتى الى وجوههم وواصلت طريقى على الافريز مختالة فى خطـــــاى البطيئة المعهودة وكأنهم ليس لهم وجود .

وبينما كنت فى تلك الحالة النفسية المرحة الشاردة اذا بمنظر الكنيسة التى ذهبت للاعتراف فيها آخر مرة عقب رحلـــة فيترير يهاجمنى بغتة وعلى غير وعى منى ، فبدت لى واجهة تلك الكنيسة بزخارفها الكثيرة وهى مغمورة فى الظلام وقد بنيت كستار على طول أحد منحنيات الطريق بمقصـها المرتفع الذى يعلوه ملاكان ينفخان البوق وبما انعكس عليها فى خطوط بنفسجية من أشـعة كانت ترسلها لافتة كهربية مثبتة على احد المنازل المجاورة. بدت لى تلك الواجهة كوجه أسود مغضن لامرأة عجوز لم يفتأ يشير الى خلسة من خلف وشاح قديم وقد احاطت به وجوه أخرى لغيرها من المارة أشرقت بالضوء وهى واقفة فى مكانها تحف بها من ناحية لوحات الاعلان عن السينما ومن الناحية الاخرى واجهة محل لملابس الرجال الداخلية وكانت كلتاهما تتألق بالضياء ، وتذكرت معرفى الفرنسى الوسيم ــ الاب ايليا ــ وكيف انجذبت اليه ، وخيل لى انه خير من يقوم بمهمة رد « البدارة » الى صاحبتها لانه كان شابا ذكيا ورجلا دنيويا يختلف من جميع الوجوه عن غيره من الكهنة وفضلا عن ذلك فان الاب ايليا كان يعرفنى من قبل الى حد ما مما سيهون على مهمة اعترافى له بما ارتكبت من آثام كثيرة رهيبة مخجلة كانت روحى ترزح تحت عبئها الثقيل .

وصعدت الدرج ثم نحيت جانبا ذلك الستار الثقيل المسدل على

الباب ودخلت الكنيسة بعد أن وضعت منديلا على رأسى ، وبينما كنت أغمس أصابعي فى جرن الماء المقدس لفت نظرى منظر محفور حول حافتــه ، كان يمثل امرأة عارية تطاير شـعرها فى الهواء وارتفعت ذراعاها وهى تجرى هاربة من تنين خبيث شرير ذى منقار ببغائى كان يقف كالرجل منتصبا على خلفيتيه ، فبدا لى اننى أتعرف على نفسي فى تلك المرأة وخطر لى اننى أيضا كنت أركض هربا من تنين كهذا الا اننى فى أثناء ذلك السباق الدائرى كنت أحيانا أجدنى متعقبة فى مرح ذلك الوحش القبيح لا هاربة منه .

ثم تحولت عن جرن الماء المقدس الى الكنيسة راشـمة الصليب على صدرى فبدت لى وكأنه لم يزايلها ما لاحظته فى أول مرة من ظلام وقذارة وفوضى ، كان كل شيء على حاله غارقا فى الظلام فيما عدا الهيكل الرئيسي بكل ما عليه من شموع مشتعلة عن قرب حول الصليب الذى يحمل المسيح وقد اختلط من حوله بريق الشمعدانات النحاسية والاوانى الفضية ، كما أضيئت الانوار فى كنيسة العذراء الصغيرة التى صليت فيها آخر مرة بحماس شديد وبغير طائل . وكان هناك شماسان يقفان على سلمين خشبيين وهما يثبتان على العارضة ستائر حمراء مذهبة الحواشي . وعندما وجــدت كرسى الاعتراف الخاص بالاب ايليــا مشغولا ذهبت لأجثو أمام الهيكل الرئيسى على أحد المقاعد الخيزرانية التى نقلت من مكانها ، ولم يخالجنى شعور ما سوى رغبتى الملحة فى الانتهــاء من موضــوع « البدارة » ، وقد تميزت تلك الرغبة الملحة بطـابع غريب هو احساسى فى قرارة قلبى بالبهجة والاندفاع وتهنئة النفس والزهــو الى حد ما ، ذلك الاحساس الذى يراودنا عندما نكون مقدمين على عمل خير ظللنا نتأمله زمنا طويلا . وطالما لاحظت آن مثل هذه الرغبة الملحة التى تنبع من القلب ولا تقبل النصح تنتهى عادة بتشــويه العمل الخير وتضر أكثر مما تنفع على عكس السلوك المخطط المدبر .

وما أن رأيت المعترف ينهض وينصرف حتى توجهت مباشرة الى كرسى الاعتراف حيث ركعت وبدأت أتكلم دون انتظار كلمة يخاطبنى بها معرفى ، قلت : « أبى ايليا ، ما جئت لأعترف بالطريقة المعتادة بل لاحدثك فى أمر خطير للغاية ولأطلب اليك صنيعاً لا يساورنى شك فى قبولك القيام به » .

ولقد اغرانى بمواصلة حديثى صوت معرفى الخفيض فى الناحية الاخرى من السياج ، ولشد ما كنت واثقة من وجود الاب ايليا فى

الجانب الآخر حتى كاد يخيل لى أننى أرى وجهه الهادىء الوسيم مرتسما على السياج المعتم ذى الثقوب الصغيرة . وعندئذ اذا بى أحس لأول مرة منذ دخولى الكنيسة باندفاع عاطفى من الخشوع والثقة . أحسست وكأن روحى قد اندفعت لتتحرر من جسدى وتجثو عارية على الدرج أمام السياج كاشفة عن كل ما فيها من عيوب وأخطاء ، فخيل لى لحظة وكأنى روح بلا جسد - روح حرة طليقة قوامها الهواء والضوء كحالنا بعد الموت كما يقولون ، وكذلك خيل لى أن الاب ايليا بروحه التى لشد ما تفوق روحى نورانيه قد تحرر من سجن البدن فأزال السياج والجدران وبدد الظلام المخيم على كرسى الاعتراف ثم مثل بشخصه أمامى باهرا بصرى ومخففا عنى ، ولعل تلك هى العاطفة التى ينبغى ان نشعر بها كلما جثونا للاعتراف ، ولكننى لم أشعر بها قط بمثل هذه القوة .

وبدأت أتكلم مغمضة العينين وقد أسندت رأسى الى السياج ، ثم رويت له كل شىء ، فحدثته عن مهنتى وعن جينو وآستاريتا وسونزونيو وعن السرقة والقتل ، كما ذكرت له اسمى واسم جينو وآستاريتا وسونزونيو ثم أخبرته بالمكان الذى ارتكبت فيه السرقة ومكان جريمة القتل كما أخبرته بمكان اقامتى ، وكذلك اعطيته أوصاف الشخصيات المختلفة ، ولا أدرى كنه القوة التى كانت تدفعنى أمامها ، ولعلها نفس القوة الدافعة التى تحس بها ربة الدار عندما يصح عزمها نهائيا على تنظيف المنزل بعد فترة طويلة من الاهمال ولا تجد سبيلا الى الراحة حتى تزيل آخر ذرة من الغبار وآخر قطعة من الخمل تحت الاثاث او فى زوايا الدار . وفى الواقع فانى كنت أحس وانا اسرد له قصتى بكل تفاصيلها وكأنى أزيح عن قلبى وروحى عبئا ثقيلا ، فراودنى شعور بالخفة والنظافة .

وظللت طوال الوقت أتكلم بنفس النبرات الهادئة المتزنة ، وظل المعرف يصغى الى دون ان يقاطعنى حتى انتهيت من قصتى . وعندما توقفت عن الحديث أعقبت ذلك لحظة من الصمت ، ثم سمعت صوتا رهيبا بطيئا لينا مستأنيا يخاطبنى قائلا : « لقد حدثتنى يابنيتى عن أشياء فظيعة مخيفة لا يكاد يصدقها العقل ، ولكنك أحسنت صنعا بمجيئك للاعتراف ، وسأبذل كل ما فى وسعى من أجلك » .

وكانت قد مضت فترة طويلة منذ اعترافى الاول الوحيد فى تلك الكنيسة ، فكدت أنسى لشدة اضطرابى من جراء اريحيتى الراضية

أحب ميزات الاب ايليا الى نفسى ، وهى نطقه الفرنسى . فان الكاهن الذى كان يخاطبنى لم يتميز صوته بلهجة معينة بل كان ايطاليا بلا شك وكان صوته لينا على صورة غريبة كصوت الكثيرين من الكهنة . وفجأة ادركت الخطأ الذى وقعت فيه فسرت فى بدنى قشعريرة باردة ، وكأنى قد مددت يدى لالتقاط زهرة جميلة فاذا بأناملى تلمس حراشف حية ثلجية مرتجفة . وكان مما شدد من وقع المفاجأة البغيضة على حين واجهت معرفا لا انتظره ذلك الاحساس بالرعب الذى أثاره فى نفسى صوته العميق الموعز .

فتلعثمت قائلة فى مشقة : « هل انت حقا الاب آيليا ؟ »

فأجابنى الكاهن المجهول قائلا : « هو نفسه شخصيا ، لماذا ؟ هل جئت هنا من قبل ؟ » فقلت : « مرة واحدة » .

فسكت الكاهن لحظة ثم قال : « ان كل ما قلته لى يتطلب التأمل فيه نقطة نقطة . فأنت لم تروى لى شيئا واحدا ، بل أشياء كثيرة بعضها يخصك وبعضها يخص غيرك من الناس . أما فيما يخصك ، فهل تدركين ان ذنبك جسيم ؟ » .

فتمتمت قائلة : « نعم .. أدرك ذلك » .

— « وهل انت نادمة ؟ »

— « هذا هو اعتقادى . »

فبدأ يتكلم بصوت أبوى مؤتمن خفيض : « لو كنت مخلصة فى ندمك فهناك بلا شك أمل فى المغفرة ، ولكن الامر لسوء الحظ لا يخصك وحدك ، بل هناك الآخرون جميعا بجرائمهم وخطاياهم . فقد اطلعت على تفاصيل جريمة شنيعة قتل فيها رجل بطريقة مروعة ، أفلا تشعرين فى قرارة قلبك بدافع للكشف عن اسم المجرم وحمله على الوقوف أمام العدالة ؟ » .

كان يقترح على بهذه الطريقة أن أشى بسونزونيو ، ولا أزعم انه أخطأ فى ذلك بوصفه كاهنا ، ولكن اقتراحه على فى مثل ذلك الوقت بصوته الموعز لم يكن له من أثر سوى زيادة شكوكى ومخاوفى ، فتلعثمت قائلة : « لو اعترفت على القاتل لأودعت السجن انا نفسى » .

فجاء جوابه على الفور قائلا : « ان الناس كالاله نفسه قادرون على فهم تضحيتك وندمك ، والقانون يكفل العقاب كما يكفل العفو . ولكنك فى مقابل شىء من العذاب تساعدين على اقرار العدالة من جديد بعد اختلال ميزانها على صورة بغيضة . يا بنيتى الا تسمعين

صوت المجنى عليه وهو يلتمس الرحمة من قاتله فى غير طائل » .
وهكذا ظل يعظنى فى رضا عن نفسه وهو ينتقى الفاظه بعناية من بين العبارات التقليدية الملائمة لوظيفته ككاهن ، ولـكننى لم اكن أحس الا بالرغبة فى الهرب حتى كاد ينتابنى الجنون .
فقلت : « سأفكر فى الابلاغ عنه وسأعود غدا لأخبرك بما قررت ، فهل أجدك هنا ؟ »
— « بالتأكيد فى أى وقت . »

فأجبته قائلة فى لهجة مذهولة : « حسنا ، كل ما أطلبه اليك مؤقتا هو تسليم هذه « البدارة » ثم توقفت عن الـكلام ، وما ان سألنى مرة أخرى بعد صلاة قصيرة عما اذا كنت نادمة حقا وعما اذا كنت قد وطنت النفس على تغيير طريقـة حيـاتى حتى منحنى الغفران ، ورشمت الصليب على صدرى ثم غادرت كرسى الاعتراف ففتح بابه فى نفس الوقت ووقف أمامى ، وما ان وقع بصرى عليه حتى تضاعفت جميع مخاوفى التى أثارها صوته فى نفسى . كان قصير القامة ذا راس ضخم يميل جانبا وكأنه يشكو من تصلب فى عنقه . ولم يتسع وقتى لافحصه بدقة فلشد ما كان يملؤنى رعبا ، ولشـد ما تعجلت الرحيل لأجرى بعيدا ، ولقد لمحت وجهه الاصفر المائل الى السمرة وجبهته العالية وعينيه الفائرتين فى محجريهما وانفه الافطس الذى اتسع منخراه وفمه الواسع الذى لا شكل له وشفتيه الحمراوين المتعرجتين . أما عن السن فلا يمكن أن يكون طاعنا فيه لانه كان سرمديا . عقد يديه على صدره وطأطأ رأسه ثم خـاطبنى قائلا بلهجة صادقة : « ولـكن لم لم تأتى الى قبل ذلك يابنيتى العزيزة ؟ لم ؟ فكم كان ذلك يجنبك كثيرا من الفظائع ؟ » .

وأردت أن أعبر له عن اعتقادى وهو ان هذه هى ارادة الله ولكننى كبحت جماح نفسى ثم اخرجت « البـــدارة » من حقيبتى وناولته اياها قائلة فى حزم : « ارجو أن تسرع قدر امكانك ، فلا يمكننى ان اصف لك مدى حزنى عندما يخطر لى أن تلك المرأة التعسـة رهينة السجن بسببى » .
فأجابنى قائلا وهو يضم « البدارة » الى صدره ويهز رأســه مسترحما مستغفرا : « انى ذاهب اليوم » .
فشكرته بصوت خفيض وما كدت أومىء له برأسى حتى غادرت الـكنيسة بأقصى سرعة ممكنة ، وظل واقفا فى مكانه بجانب كرسى الاعتراف شابكا يديه على صدره وهو لا يفتأ يهز رأسه .

وعندما عدت فى أمان الى الطريق حاولت أن أتأمل ما حدث فى هدوء فاذا بى أدرك الآن وقد زايلتنى مخاوفى الاولى المختلطة ان ما كنت أخشاه أكثر من أى شيء آخر هو أن يفشى الكاهن سر الاعتراف . وحاولت اكتشاف أسباب تلك الوساوس . فقد كنت أعلم كما يعلم الجميع ان الاعتراف سر مقدس ولذا فانه لا يجوز افشاؤه . كما كنت أعلم انه من المحال على أى كاهن مهما بلغ فساده أن يفشى هذا السر . ولكن نصحه اياى بابلاغ الشرطة عن سونزونيو جعلنى أخشى أن يأخذ على عاتقه مهمة الكشف عن اسم الجانى فى جريمة فيابالسترو . وكان صوته ومظهره يسببان لى أشد المخاوف كما اننى ممن تغلب عليهم العاطفة أكثر من العقل والمنطق وتنبئنى غريزتى بدنو الخطر كما هى الحال مع بعض الحيوانات . فكانت جميع الاسباب التى رتبها عقلى لادخال الطمأنينة على نفسى لا تقوى على الوقوف أمام احساسى الباطنى الذى لم يكن يستند الى عقل أو منطق . وحدثت نفسى قائلة : « لا شك ان سر الاعتراف لا يمكن نقضه . ولكن ذلك الكاهن لن يمنعه شيء من الوشاية بسونزونيو وبالآخرين جميعا » .

وثمة شيء آخر ساعد على احساسى بأن كارثة ما وشيكة الوقوع ذلك هو حلول المعرف الثانى محل الاول . فمن الواضح ان الكاهن الفرنسى لم يكن هو الاب ايليا مع انه أصغى الى فى كرسى الاعتراف الذى يحمل ذلك الاسم . اذن فمن هو ذلك الكاهن ؟ وشعرت بالاسف لاننى لم أسأل الاب ايليا الحقيقى عن أخباره . ولكننى خشيت أن يقول لى انه لا يدرى شيئا عنه مما يؤكد تلك الشخصية الوهمية التى تميز بها ذلك الكاهن الشاب فى نظرى . فلا شك انه كان يتميز بشيء وهمى ويرجع ذلك الى الفارق الكبير بينه وبين غيره من الكهنة والى الطريقة التى ظهر بها فى حياتى ثم اختفى . وفى الواقع فانى قد بدأت أشك فيما اذا كنت قد رأيته على الاطلاق أو الاحرى فيما اذا كنت قد رأيته قط بدمه ولحمه . وخيل لى اننى ربما كنت أهذى لاننى اكتشفت الآن انه كان بلا ريب يشبه المسيح نفسه كما يظهر فى الصور الزيتية المقدسة . ولكن ان صح ذلك وكان المسيح نفسه هو الذى ظهر لى فى ساعة محنتى وسمع اعترافى فان حلول ذلك القس القبيح المنفر الذى رأيته منذ قليل محله انما هو فأل سيىء بلا شك ومعناه ان لم تكن هناك معان أخرى ان الدين قد تخلى عنى وأنا أمر بأسوأ محنة روحية . وكان

ذلك أشبه بفتح خزانة تحوى قطعا من العملة الذهبية بغية الحصول عليها لمواجهة حاجة ملحة فاذا بها خاوية الا من الغبار والعناكب وقذر الفئران •

وعدت الى المنزل يحدوني الانطباع بأن اعترافى لابد أن يتمخض عن كارثة ما فذهبت مباشرة الى فراشي دون أن أتناول عشائى وأنا مقتنعة بأنها آخر ليلة أقضيها فى المنزل قبـل القاء القبض على • ولـكنني يجب أن أعترف بأنني الآن لم أعد خائفة مطلقا ولم تكن بى رغبة في تجنب مصيرى • فان لحظة الرعب الاولى التى ربما كانت ترجع الى ضعف الاعصاب وهو ما يشترك فيه جميع النساء تقريبا قد أعقبها تصميم على قبول مصيرى المحـــدق بى - لم يكن استسلاما فحسب بل شيئا أكثر من ذلك . فقد راودنى في الواقع نوع من المتعة الشهوانية باستسلامى للسقوط الى أعمـــاق مرحلة خيل لى انها آخر مراحل اليأس . وقد أشـعرني عظم الـكارثة بنوع من الحصانة • فقد راقنى الى حد ما اعتقادى ان ما حدث لى لا يمكن أن يفوقه مكروه سوى الموت الذى لم أعد أخشاه .

ولـكنني فى اليوم التالى ظللت انتظر عبثا ما كنت أتوقعه من زيارة الشرطة . فمضى اليوم بطوله واليوم التالى دون أن يحدث شىء يبرر مخاوفى . وكنت فى أثناء تلك الفترة كلها لا اغادر المنزل قط ولا حتى غرفتى . ولم البث أن مللت التفكير فيما قد يتمخض عنه تهورى من نتائج . وعاد بى تفكيرى الى جياكومو فأحسست بحنين الى رؤيته مرة أخرى على الاقل قبل أن ينالنى شىء من وشاية القس التى لا مناص منها . فنهضت من فراشى فى اليوم الثالث قرابة المســاء وارتديت ملابسى بعناية ثم غادرت المنزل .

كنت أعرف عنوان جياكومو فاســتغرق منى الذهاب الى منزله عشرين دقيقة . ولـكننى عندما أوشكت على الدخول من البـاب الرئيسى تذكرت اننى لم أنذره بمجيئى فأحسست فجأة بالخجل . وخشيت ان يضيق بزيارتى فيطردنى . واذا بخطـاى المهرولة فى اشتياق يبطؤ سيرها ثم توقفت خارج أحد المحال وقد ملأ الحزن قلبى فأخذت أسأل نفسى ان كان من الاجـــــدر بى ان اعود الى منزلى حيث انتظره الى أن يصح عزمه على زيارتى وادركت انه ينبغى على وخاصة فى بدء علاقتنا أن أتذرع بالدهاء والحذر الشديدين وأن اخفى عنه تماما تعلقى به وعدم امكانى الحياة بدونه . ولـكن لشد ما بدا انصرافى اليما مريرا لما كنت اعانيه من قلق بسبب اعترافى وحاجتى الى رؤيته لأبعد عن ذهنى ما يؤرقه . ووقع بصرى على

واجهة المحل الذى كنت اقف أمامه فاذا بها مملوءة بالقمصان وأربطة العنق فتذكرت فجأة اننى كنت قد وعدته بشراء رباط عنق جديد ليحل محل ذلك الرباط البالى . ان الناس حين يأسرهم الهوى تتوقف عقولهم عن التفكير بالطريقة الصحيحة . فقلت لنفسى اننى أستطيع أن أتخذ من الهدية ذريعة لزيارته دون أن أدرى ان الهدية نفسها تؤكد طبيعة شعورى نحوه بالنقص والشوق . فدخلت المحل وبعد أن ترددت قليلا فى اختيارى اشتريت رباطا رماديا ذا خطوط حمراء وكان أجمل الاربطة جميعا وأغلاها ثمنا . وسألنى الرجل من خلف منضدة البيع فى مجاملة خالية من الحذر الى حد ما على طريقة الباعة الذين يعتقدون انه يمكنهم التأثير فى عملائهم - سألنى ان كان الرباط لرجل أشقر أم أسمر فأجبته ببطء قائلة : « انه أسمر اللون » . وأدركت اننى نطقت كلمة « أسمر » بلهجة رقيقة مدغدغة فاحمر وجهى خجلا عندما خيل لى ان البائع ربما لاحظ ذلك .

وكانت الارملة مدولاجى تسكن الطابق الرابع فى قصر معتم قديم تطل نوافذه على جسر التيبر . فصعدت ثمانى مراحل من الدرج ثم دققت جرس باب مختف فى الظلام دون أن أنتظر حتى استرد انفاسى . وفتح الباب فى الحال تقريبا ثم ظهر جياكومو نفسه على عتبة الباب . فهتف قائلا فى دهشة : « أوه أأنت الطارقة ؟ » كان من الواضح انه يتوقع شخصا ما .

« أيمكننى الدخول ؟ »

- « بالطبع .. تعالى من هذا الطريق . »

ثم قادنى الى غرفة الجلوس مجتازا الردهة المعتمة . وهناك كان الظلام سائدا أيضا لان النوافذ كانت بها الواح صفيرة مستديرة حمراء من الرصاص كنوافذ الكنيسة . ولمحت كمية من الاثاث الاسود المطعم بالصدف . فكانت تقوم فى وسط الغرفة منضدة مستديرة تعلوها قنينة من البللور الازرق ذات الشكل القديم . كما كانت هناك سجاجيد كثيرة وبساط أبيض بال من جلد الدب . كان القدم يسود كل شىء ولكن فى نظافة ونظام وحسن صيانة، وهو طى ذلك الصمت العميق الذى كان من الواضح انه يكتنف المنزل منذ عهد لا تعيه الذاكرة فاتجهت الى اريكة فى الطرف الآخر من الغرفة حيث جلست وسألته قائلة : «أكنت تتوقع زيارة شخص ما ؟ »

- « كلا . ولكن لماذا جئت ؟ » ولا يفوتنى أن أقول أن الفاظه كانت

خلوا من الترحيب الحار . ولكنه لم يبد غاضبا بل مندهشا فحسب .
فابتسمت قائلة : « جئت فقط لاطمئن عليك فانى أعتقد ان هذه آخر مرة نلتقى فيها » .
ـ « لماذا ؟ »
ـ « لاننى واثقة انهم قادمون غداً على الاكثر ليقتادونى الى السجن »
ـ « الى السجن ؟ ماذا تعنين بحق الشيطان ؟ »
وتغير صوته وتعبير وجهه . فأدركت انه كان خائفا على نفسه . فلعله ظن أننى وشيت به أو عرضته للخطر على صورة ما باطلاع شخص ما على نشاطه السياسى . فابتسمت مرة أخرى قائلة :
ـ « لا تقلق .. فالامر لا يمسك على الاطلاق . »
فأسرع بالاجابة قائلا : « كلا ، كلا ، ولكننى لا استطيع ان أفهم ماذا حدث . هذا هو كل ما هناك . لماذا يزج بك فى السجن ؟ »
فقلت مشيرة الى الاريكة المجاورة لى : « اغلق البـاب وتعال لتجلس هنا » .
فذهب ليغلق الباب ثم جاء ليجلس بجانبى . وعندئذ رويت له فى هدوء تام القصة الحقيقية « للبدارة » بما فى ذلك اعترافى. فأصغى الى حانى الرأس دون أن ينظر الى وهو لا يفتأ يقضم أظافره وكانت تلك الحركة تدل دائما على اهتمامه . ثم اختتمت حديثى قائلة :
ـ « وانى واثقة من أن ذلك الكاهن سيدبر لى حيلة قذرة .. ما رأيك ؟ »
فهز راسه وتكلم دون ان ينظر الى بل الى الالواح الرصاصية فى النوافذ قائلا : « انه لا ينبغى أن يفعل ذلك . بل انى فى الواقع لا أحسبه يفعل ذلك . فلا يمكنك أن تقولى هذا لمجرد انك لم تعجبى بطلعته » .
فقاطعته فى حماس قائلة : « ولكنك كان يجب أن تراه ! »
فأضاف قائلا وهو يضحك : « قد يكون قبيح الصورة ولكن هذا لا يبرر اتهامك اياه بأنه سيرتكب مثل هذه الفعلة ! ومع ذلك فكل شىء محتمل بالطبع » .
« اذن فأنت ترى انه لا داعى للخوف . »
« نعم . ولما كنت لا تستطيعين شيئا فأولى بك ألا تخافى . فالامر لا يتوقف عليك . »
« ياله من منطق ظريف ! ان الناس يخافون لانهم يخـافون ،

فهذا الشعور اقوى من ارادة الانسان ٠ »
واذا به فجأة يأتى حركة من حركاته العاطفية ٠ فقد وضع يده على عنقى ثم أخذ يضحك وهو يهزنى هزة خفيفة قائلا : « ومع ذلك فانك لست خائفة . أليس كذلك ؟ »
« بل أؤكد لك أننى خائفة ٠ »
« انك لست خائفة ٠ فأنت امرأة شجاعة ! »
« أؤكد لك أن الرعب قد انتابنى ! فقد أويت الى فراشى ولم اتحرك منه لمدة يومين ٠ »
« نعم ٠ ولكنك جئت لزيارتى وابلاغى كل شىء فى هدوء تام انك لا تعرفين الخوف ٠ »
فسألته قائلة وأنا أبتسم على الرغم منى : « ماذا كان ينبغى أن افعل ؟ انى لا أستطيع أن أصرخ من الرعب ! »
— « انك لست خائفة ٠ »
ثم أعقبت ذلك لحظة من الصمت . وفجأة سألنى قائلا بلهجة غريبة أدهشتنى : « وماذا عن صديقك هذا — فلندعه صديقك ! — سونزونيو ؟ .. أى صنف من الرجال هو ؟ »
فأجبت قائلة فى غموض : « كغيره من الكثيرين » . وعندئذ لم يخطر ببالى شىء بالذات اذكره عن سونزونيو .
« ولكنه كيف يبدو ؟ صفيه لى ٠ »
فسألته قائلة وأنا أضحك : « لماذا ؟ أتريد القبض عليه ؟ لو فعلت فتذكر أننى سأودع السجن أنا أيضا ! » وأضفت قائلة : « انه أشقر قصير القامة عريض المنكبين ذو وجه شاحب وعينين زرقاوين وفى الواقع ليس ثمة ما يميزه بصفة خاصة . ولكن الشىء الوحيد البارز فيه هو قوته الهائلة » .
— « قوته ؟ »
— « ان منظره لا ينبئك بشىء من ذلك ٠ ولكن ذراعه كالحديد اذا ما لمستها ٠ »

وعندما رأيت اهتمامه رويت له ما حدث بينه وبين جينو . فلم يعلق بشىء ولكنه قال فى النهاية : « اذن فأنت تعتقدين ان جريمة سونزونيو كانت مدبرة . اعنى أنه فكر فى جميع تفاصيلها ثم ارتكبها فى هدوء وبغير انفعال » .
فأجبته قائلة : « كلا مطلقا ! فهو لا يخطط شيئا البتة. ولعله لم يكن يحلم بما فعله مع جينو قبل أن يطرحه أرضا بلحظة واحدة.

ولا ريب أن ذلك هو ما حدث مع الصائغ أيضا » .

ـ « اذن فلماذا فعل ذلك ؟! »

ـ « لانه ! لانه شيء أقوى من ارادته .. كالوحش المفترس تراه فى لحظة هادئا وفى اللحظة التالية يخمشك بمخلبه . ولا يعلم أحد السبب فى ذلك . » ثم رويت له قصة علاقتى بسونزونيو بأسرها وكيف انه ضربنى وهددنى بالقتل فى الظلام . واختتمت حديثى قائلة : « انه لا يفكر مطلقا . بل تراه فى لحظة معينة وقد استبدت به قوة أقوى من ارادته ، وعندئذ يكون الابتعاد عنه هو خير ما تفعل! وانى واثقة انه ذهب الى الصائغ ليبيعه « البدارة » . فلما أهانه قتله » .

ـ « اذن فهو وحش ضار . »

فأضفت قائلة وأنا أحاول أن أعرف فى ذهنى ذلك الشعور الذى بثه فى نفسى جنون القتل عند سونزونيو : « سمه ما شئت . فلا ريب انها قوة كتلك التى تدفعنى الى حبك . فلماذا أحبك ؟ علم ذلك عند ربى . ولماذا يحس سونزونيو بالدافع للقتل ؟ ذلك أيضا لايعلمه الا الله . ولا أعتقد ان هناك تفسيرا لمثل هذه الامور » .

ففكر قليلا ثم رفع راسه قائلا : « اى دافع تحسبيننى أحس نحوك ؟ اتحسبيننى أحس بأى دافع لحبك ؟ » .

ولشد ما خشيت أن أسمعه يقول انه لا يحبنى . فكممت فمه بيدى وتوسلت اليه قائلة : « ارجو الا تخبرنى بشىء عن شعورك نحوى » .

ـ « ولم لا ؟ »

ـ « لانه لا يعنينى أن أعلم .. فأنا لا أعرف شعورك نحوى ولا أريد أن اعرفه .. بل حسبى حبى اياك . »

فهز راسه قائلا : « من سوء حظك أن تتعلقى بى ، فقد كان ينبغى ان تحبى رجلا كسونزونيو » .

فدهشت حقا لذلك وقلت له : « ماذا تعنى بحق السماء ؟ كيف أحب مجرما كهذا ؟ »

ـ « ولنفرض أنه مجرم ولكنه يملك الدوافع التى ذكرتها . فأنى واثق ان سونزونيو كما يملك الدافع للقتل كذلك يملك الدافع للحب فى بساطة تامة ودون تعقيد . أما أنا ـ »

ولكننى منعته من الاستطراد فى حديثه قائلة فى احتجاج : « لا يمكنك أن تقارن بينك وبين سونزونيو . فأنت ما أنت . اما هو

فمجرم ووحش . وعلى أية حال فليس صحيحا انه يملك الدافع للحب .. فمثل هذا الرجل لا يمكن أن يحب . اذ ان الامر فى نظره لا يعدو أن يكون اشباعا لحواسه .. وسواء لديه لو كنت انا أو أية امرأة أخرى » .

فلم يبد عليه الاقتناع ولكنه لزم الصمت . فانتهزت الفرصة ودسست أصابعى تحت ردن قميصه فوق معصمه محاولة ان ابلغ ذراعه وقلت : « مينو » .

فرأيته يجفل قائلا . « لماذا تدعيننى مينو ؟ »

ـ « انه اختصار لجياكومو · ألا يمكننى ذلك ؟ » .

ـ كلا ، كلا ، فهذا لا يهم . بل يمكنك ذلك بالطبع . ولكنهم هكذا يدعوننى فى أسرتى . هذا هو كل ما هنالك .

فسألته قائلة وأنا أطلق سراح معصمه وأدس يدى تحت رباط عنقه مارة بأناملى على صدره العارى بين حافتى قميصه : « أهكذا تدعوك أمك ؟ »

فقال فى ضجر : « نعم . هكذا تدعونى أمى » ثم اردف قائلا بلهجة جمعت بين السخرية والاحتقار : « كما انك لا تحاكين امى فى ذلك فحسب بل انك فى قرارة قلبك تشاركينها آراءها فى كل شىء »

فسألته قائلة : فيم ؟ أعطنى مثلا · ؟ » وعندئذ كنت فى حال من الاضطراب فلم أكد اسمع ماذا يقول . وكنت قد فككت عرى قميصه محاولة أن أبلغ بيدى كتفه الجميلة اليافعة .

فأجابنى قائلا : « فى هذا مثلا . عندما قلت لك اننى أشتغل بالسياسة هتفت قائلة فى الحال بلهجة مذعورة : « ولكن هذا غير مشروع ! هذا خطير ! » ذلك هو بالضبط ما كانت تقوله أمى وبنفس اللهجة · »

ولقد ارضى كبريائى أن احاكى أمه أولا لانها أمه وثانيا لعلمى بأنها سيدة محترمة فقلت فى رقة : « يا لك من فتى سخيف ! وما الضرر فى ذلك ؟ فهو يعنى ان أمك تحبك كما أحبك . فلا شك مطلقا فى خطورة العمل بالسياسة . ان شابا أعرفه قبض عليه وأودع السجن حيث أمضى الآن سنتين . وما الجدوى من ذلك ؟ فهم الجانب الاقوى على أية حال . وما ان تفعل شيئا حتى يودعوك السجن ·· ورأيى أنك تستطيع أن تشق طريقك بنجاح بعيدا عن السياسة » .

فهتف قائلا فى سخرية مرحة : « ما أشبهك بأمى ! فهكذا تتحدث بالضبط » .

فأجبته قائلة : « لست أدرى ما الذى تقوله امك . ولكننى واثقة من ان كل ما تقوله فى مصلحتك . اذ يجب عليك أن تتخلى عن السياسة . فهى ليست مهنتك . انك طالب والطالب عمله الدراسة والتحصيل » .

فتمتم قائلا وكأنه يحدث نفسه : « ادرس وفز بدرجتك ثم كون لنفسك مركزا » .

ولكننى لم أحر جوابا بل تطلعت اليه بوجهى مقدمة اليه شفتى. فتبادلنا قبلة ثم افترقنا . فبدا آسفا ونظر الى نظرة عدائية معذبة. فخشيت أن أكون قد ضايقته بقبلتى التى قطعت عليه انفجاره السياسى . فأردفت قائلة بسرعة : « ومع ذلك فلتفعل ما تشاء . فلا دخل لى فى شئونك . وفى الواقع فانى ما دمت هنا فيمكنك اعطائى ذلك الطرد لاخفيه لك كما اتفقنا » .

فأسرع قائلا : « كلا ، كلا ، كلا مطلقا ـ فلن يجدى ذلك مع صداقتك بآستاريتا ـ فلنفرض انه اكتشف الامر ؟ »

ـ « لماذا ؟ وهل آستاريتا على هذا القدر من الخطورة ؟ »

فأجابنى قائلا فى حزم : « انه من ألد أعدائنا » .

فأحسست برغبة مشاكسة فى جرح كبريائه لا عن حقد بل عن شعور يقارب العطف والحب .. فقلت فى رقة : « فى الواقع انك لم تقصد حقا أن تعطينى ذلك الطرد » .

ـ « اذن فلماذا ذكرته لك ؟ »

ـ « لانك ـ ولكن اياك ان يغضبك ذلك الآن ـ فانى أعتقد أنك ذكرته لى اعلاء لشأنك فى نظرى ، حتى أرى أنك تأتى أعمالا خطرة محرمة فى حزم حقيقى . »

فاستشاط غضبا وادركت اننى أصبته فى الصميم . اذ قال : « يا له من هراء ! انك فتاة سخيفة حقا » ثم سألنى قائلا فى حرج وقد عاوده الهدوء فجأة : « ولكن ما الذى يجعلك تعتقدين ذلك ؟ »

فأجبته قائلة بابتسامة : « لست أدرى . انه اسلوبك فى مجموعه . ولعلك لا تلحظ ذلك أنت نفسك . ولكنك لا توحى مطلقا بأنك تعنى حقا ما تقول » .

فأتى حركة غريبة وكأنه ينتقد نفسه قائلا : « ومع ذلك فانه أمر

خطير للغاية ‥ » ثم نهض واقفا وهو يمد ذراعيه النحيلتين مبتدئا فى تلاوة الشعر بصوت كاذب مصطنع ومشددا على مخارج الفاظه قائلا :

« سيفى ‥ الى بسيفى ! »

« فأنا وحدى المقاتل وأنا وحدى القتيل · »

ولشد ما كان مضحكا وهو يلوح بذراعيه هنا وهناك حتى كاد يبدو كالاراجوز .

وسألته قائلة : « ما معنى هذا ؟ »

فأجاب : « لا شيء . انه بيت مقتبس من قصيدة » . واذا بحماسه يهدأ فجأة ثم يستسلم لحالة غريبة من الكآبة والتفكير . فعاود جلسته وأردف قائلا فى حزم : « ‥ ومع ذلك ـ فانى جاد للغاية فى كل ما اضطلع به حتى أننى أتمنى حقا أن يقبض على . وعندئذ سيرى الجميع ان كنت جادا أم لا » .

فلم افه بكلمة بل ضممت وجهه بين راحتى واخذت اربت عليه قائلة : « ما أجمل عينيك ! » ولقد صدقت . فان جمال عينيه النجلاوين الرقيقتين بتعبيرهما البريء كان خارجا عن المألوف حقا ، وعراه الاضطراب لقولى وأخذ ذقنه يرتعش · فتمتمت قائلة : « لم لا ندخل غرفتك ؟ »

ـ « هذا محال ـ فهى مجاورة لغرفة الارملة ـ وهى لا تغادرها طوال النهار وقد فتح بابها لتراقب من خلاله الدهليز · »

ـ « اذن فلنذهب الى شقتى · »

ـ « لقد تأخر الوقت · ومسكنك بعيد للغاية · كما أننى أتوقع أن يزورنى بعض الاصدقاء بعد قليل · »

ـ « هنا اذن · »

ـ « لقد جننت ! »

فأصررت قائلة : « انت تعنى انك خائف ! فأنت لا تخشى أن يكون لك نشاط سياسى ـ أو هكذا تزعم على الاقل ـ ولكنك تخشى أن تضبط فى غرفة الجلوس مع المراة التى تحبك . وعلى اية حال فماذا يمكن أن يحدث ؟ ربما طردتك الارملة وعندئذ تضطر الى البحث عن غرفة أخرى » .

كنت أعلم اننى لو جعلت الامر مسألة كرامة أمكننى ان انال منه كل ما أريد · وفى الواقع فقد بدا لى مقتنعا · فلا ريب أنه كان يشعر بنفس الرغبة القوية التى أشعر بها . اذ انه ردد كلامه قائلا:

« لقد جننت ! فلعل طردى من هنا يضايقنى أكثر من القبض على . وفضلا عن ذلك فأين يمكننا ان نرقد ؟ » فقلت فى رقة ورغبة : « لنفترش الارض هيا . سأريك » . وكان يبدو الآن فى حالة لا تسمح له بالكلام . فنهضت من فوق الاريكة وتمددت فى بطء على الارض التى فرشت بالسجاجيد وقد توسطت الغرفة المائدة التى تحمل القنينة . تمددت على السجاجيد واضعة رأسى وصدرى أسفل المائدة ثم جذبت مينو من ذراعه وأرغمته على أن يرقد فوقى . وما ان ألقيت برأسى الى الخلف مغمضة العينين حتى بدت لى رائحة الغبار القديمة وخمل السجاد كالنشوة الخلابة فأحسست وكأننى افترش حقلا فى الربيع يتضوع منه أريج الزهور والعشب لا رائحة الصوف القذر . رقد مينو فوقى فأشعرنى ثقله بصلابة الواح الخشب من تحتى . وكان شعورا ممتعا . فقد أسعدنى انه لم يكن يحس بها وان جسدى كان مضجعه ثم احسست به وهو يقبل عنقى ووجنتى فامتلأت نفسى فرحا لانه لم يفعل ذلك قط من قبل . فتحت عينى وكان راسى فى وضع جانبى مما جعل احدى وجنتى تحتك بصوف السجادة الخشن وأمكننى أن أرى فيما وراء السجادة مساحة واسعة من الارضية الموزايكو المصقولة بالشمع وكذلك الجزء السفلى من الباب المزدوج ذى الزمبرك فيما وراء ذلك . فأطلقت تنهدة عميقة واغمضت عينى مرة اخرى .

وبادر مينو بالنهوض ولكننى مكثت بعض الوقت حيث تركنى مضطجعة على ظهرى وذراعى على وجهى بينما انفرجت ساقاى وشاعت الفوضى فى ثيابى . احسست بالسعادة وفراغ الذهن حتى خيل لى انه كان يمكننى أن أمكث هناك ساعات بطولها مستمتعة بصلابة الارضية تحت جسدى ورائحة الغبار والخمل فى منخرى . ولعلى استغرقت لحظة فى اغفاءة خفيفة سريعة حيث تراءى لى اننى كنت حقا فى مرعى مزهر من تحتى العشب ومن فوقى سماء مشمسة بدلا من المنضدة . ولا ريب ان مينو قد تبادر الى ذهنه اننى مريضة لانى احسست به فجأة وهو يهزنى قائلا فى صوت خافت : « ماذا دهاك ؟ ماذا تفعلين ؟ انهضى بسرعة ! »

فأبعدت ذراعى عن وجهى فى مشقة ثم خرجت فى بطء من تحت المائدة ونهضت واقفة . كنت أشعر بالسعادة وقد أشرق وجهى بابتسامة . وراح مينو ينظر الى فى صمت مستندا بظهره الى « البوفيه » وهو لايزال يلهث بينما ارتسم على وجهه تعبير ينبىء

بالعداء والحيرة واخيرا قال : « انا لا اريد مطلقا أن اراك مرة أخرى» وفي نفس الوقت ارتجف جسده المحنى رجفة غريبة لا ارادية وكأنه دمية انفصم فيها فجأة احد لوالبها .

فابتسمت قائلة : « لماذا ؟ فكلانا يحب الآخر — ولسوف نلتقى مرة أخرى ». ثم اتجهت نحوه لادغدغه ولكنه أشاح بعيدا بوجهه الابيض الحزين مرددا : « أنا لا اريد مطلقا أن اراك مرة أخرى »

وقد ادركت ان عداءه لى كان يرجع بصفة رئيسية الى تأنيب ضميره بسبب استسلامه لى . فانه لم يستسلم قط لممارسة الحب معى دون أن يراوده شعور بالكره والاسف العميق . وكان حاله أشبه بمن يقرر أن يفعل شيئا على غير رغبته ويعلم انه لاينبغى ان يفعله . ولكننى كنت واثقة ان سخطه لن يلبث أن يزول وان رغبته فى — مهما قاومها وكرهها — لن تفتأ أن تكون فى النهاية أقوى من حنينه الفريب الى العفة والطهارة . فلم اعبأ بما قال وما ان تذكرت رباط العنق الذى اشتريته له حتى اتجهت الى الرف حيث وضعت قفازى وحقيبتى .

ثم قلت : « والآن هدىء من روعك . فلا تغضب الى هذا الحد ! انى لن أحضر الى هنا مرة أخرى . ايكفيك ذلك ؟ »

فلم يحر جوابا . وعندئذ فتح الباب بعنف . واذا بزائرين يدخلان الحجرة تقودهما خادمة غرفة الاستقبال وهى امراة نصف . فقال الاول فى صوت عميق اجش : « مرحى يا جياكومو » .

فأدركت انهما لابد ان يكونا من زملائه السياسيين وتأملتهما فى فضول . وكان المتحدث عملاقا — ذا قامة اطول من قامة مينو ومنكبين عريضين يبدو كالملاكم المحترف . وكان أشقر الشعر اشعثه ذا عينين زرقاوين وانف أفطس وفم عديم الشكل . ولكن تعبير وجهه كان صريحا مستحبا فيه مزيج جذاب من الحياء والبساطة. وكان رغم الشتاء لايرتدى معطفا بل يلبس تحت سترته دراعة بيضاء تبرز مظهره الرياضى . وقد لفتت نظرى فى الحال يداه الحمراوان بمعصميهما الغليظين اللذين كانا يبرزان من ردنى دراعته وقد طويا الى أعلى . ولا ريب انه كان صغير السن للغاية . فربما كان فى مثل سن جياكومو تقريبا . اما الرجل الآخر فكان يناهز الاربعين من العمر. وكان ملبسه ومظهره يدلان على شخص ينتمى الى الطبقات المتوسطة على عكس رفيقه الذى كان من الواضح انه عامل او فلاح . وكان قصير القامة يبدو ضئيلا الى جانب صديقه . كما كان شديد السمرة

تحجب وجهه نظارة كبيرة صنع اطارها من البالغة . وكان يطل من تحت منظاره انف افطس واسع اشبه بشق يمتد من احدى اذنيه الى الاخرى . وكانت وجنتاه النحيلتان غير الحليقتين وياقته البالية وحلته المبرقشة ذات الثنايا التى اخذ هيكله الضئيل التعس يرفل فيها مسترخيا وكذلك كل شيء فيه يوحى بالاهمال الوقح المتعمد والفقر الراضي . ولقد ادهشنى فى الواقع مظهر هذين الرجلين ذلك لان مينو كان لا يفتأ يتميز بنوع من الاناقة المهملة وكانت هناك دلائل كثيرة تبين انه ينتمى الى طبقة اجتماعية تختلف عن طبقتهم . ولو اننى لو لم أرهما وهما يحييان مينو ولو لم أر مينو وهو يرد تحيتهما لما تصورت أن يكونا صديقيه . ولكننى بالغريزة احسست بميل نحو الشاب الطويل . اما الرجل القصير فقد كرهته .

وقال الشاب الطويل يسأل بابتسامة مرتبكة : « لعلنا جئنا قبل الموعد ؟ »

فقال مينو مستجمعا شجاعته : « كلا .. كلا »

كان ذاهلا وبدا انه يجد بعض المشقة فى استعادة هدوئه ثم قال : « بل وصلتما فى الموعد المحدد تماما » .

فقال الرجل القصير وهو يفرك يديه : « المواظبة من ادب الملوك»

وفجأة انفجر ضاحكا على غير انتظار وكأنه قد وجد عبارته مضحكة للغاية . ثم اذا به يعود الى جديته مرة اخرى بنفس الطريقة الفجائية البغيضة التى ضحك بها . بل لشد ما بدا الجد على وجهه حتى ساورنى الشك فيما اذا كان قد ضحك على الاطلاق .

فقال مينو فى مشقة مشيرا الى الرجل القصير : « آدريانا . دعينى أقدم اليك اثنين من اصدقائى — توليو » . ثم أردف قائلا : « وتوماسو » .

ولاحظت انه لم يذكر لقبيهما . فخيل لى ان الاسمين ربما كانا زائفين . فمددت يدى بابتسامة وصافحنى الشاب الطويل بقوة آلمت اصابعى . اما الرجل الضئيل فقد بلل اصابعى بالعرق الذى اخذ يتصبب من راحة يده . وقال هذا الاخير فى ود مضحك : « أنا سعيد بمعرفتك » . بينما قال الشاب الطويل ببساطة وكأنه — كما خيل لى — قد مال الى : « يسرنى لقاؤك » ولاحظت ان بصوته نغمة طفيفة لاحدى اللهجات .

وتبادلنا النظر لحظة فى صمت . ثم قال الشاب الطويل : « يمكننا الانصراف يا جياكومو ان شئت . فبوسعنا ان نأتى غدا

اذا كان هناك ما يشغلك ؟ »

ورأيت مينو يجفل ناظرا اليه فادركت انه يوشك أن يطلب اليهما البقاء ويأمرنى بالانصراف . فقد توطدت عندئذ معرفتى به الى حد يجعلنى أفهم انه لا يسعه الا ان يفعل ذلك . وتذكرت انه لم تمر سوى بضع دقائق على مضاجعتنى أياه ، واننى ما زلت اشعر بدفء شفتيه على عنقى وهما تقبلاننى وبآثار يديه على بدنى وهما تتشبثان بى . كان جسدى هو الذى تمرد ، لا روحى التى كانت دائما على استعداد للخضوع والاستسلام . وقد بدا تمرده وكأنه احتجاج على المعاملة المجحفة التى لا تليق بما قدمه من هبة وبما احتواه من جمال فتقدمت خطوة الى الامام قائلة فى عنف : « نعم . يحسن بكما أن تنصرفا . ففى وسعكما أن تلتقيا به غدا ، فما زلت أريد أن أقول لمينو الشىء الكثير » .

فقال مينو معترضا على وقد بدا عليه السخط والانزعاج :

– « ولكننى يجب أن اتحدث اليهما ! »

– « بوسعك ان تتحدث اليهما غدا . »

فقال توماسو فى دماثة : « حسنا . عليك أن تحزم أمرك ، فان كنت تريدنا أن نبقى فلتقل ذلك ، وان كنت تريدنا ان نذهب فسنذهب » .

وتدخل توليو قائلا بضحكته المعهودة : « نحن لا نطلب اليك خيرا من ذلك » .

ولكن مينو ظل مترددا . فأحس جسدى على الرغم منه بدفعة عدوانية أخرى . فقلت رافعة صوتى : « أنصتا الى . منذ بضع دقائق كان جياكومو يضاجعنى هنا على هذه السجادة فماذا تفعلان لو كنتما فى مكانه ؟ أتطردانني ؟ »

أعتقد ان مينو قد احمر وجهه خجلا . فلا شك انه قد عراه الارتباك اذ انه أدار ظهره فى تبرم واتجه صوب النافذة . ونظر الى توماسو نظرة جانبية ثم قال دون أن يبتسم : « لقد فهمت . نحن ذاهبان . وداعا ياجياكومو ، وسوف نراك غدا فى نفس الموعد » .

ولكن توليو الضئيل بدا وكأنه قد أزعجته كلماتى . فنظر الى فاغرا فاه وقد اتسعت عيناه خلف منظاره السميك . فلا شك انه لم يسمع قط امرأة تتكلم بمثل هذه الصراحة ولا ريب انه فى تلك اللحظة قد مر بذهنه ألف خاطر قذر . ولكن الشاب الطويل ناداه من مدخل الباب قائلا : « هيا ياتوليو » فانسحب الرجل القصير

الى الخلف متجها نحو الباب وقد تعلقت بى عيناه الشهوانيتان المدهوشتان .

وانتظرت حتى يغادرا المنزل ثم اتجهت الى مينو الذى كان لايزال واقعا عند النافذة مديرا ظهره الى الغرفة ثم احطت كتفيه بذراعى قائلة :

— « والآن لا يمكنك احتمالى . »

فاستدار فى بطء ونظر الى . فاذا بعينيه يملؤهما الغضب . ولكنه ما ان رأى وجهى الذى كان تعبيره بلا ريب ينطق بالحب والبراءة حتى تغيرت نظرته وتكلم فى صوت هادىء تشوبه رنة من الحزن قائلا : « أسعيدة انت الآن ؟ لقد نلت ما تبغين » .

فقلت وانا أعانقه دون أن ألقى منه مقاومة : «نعم ، انى سعيدة»

ثم سألنى قائلا : « ما هذا الذى كنت تبغين قوله لى ؟ »

فأجبته قائلة : « لا شىء ، بل اردت أن أقضى معك المساء ».

فقال : « ولكننى لن ألبث ان أذهب لتناول طعامى . هنا — مع الارملة مدولاجى » — « حسنا . فلتدعنى انا أيضا »

فنظر الى وابتسم قليلا لجراتى . ثم قال فى استسلام : «حسنا. انى ذاهب لابلاغهم ولكن كيف يجب أن أقدمك اليهم ؟ »

— « كما تشاء .. كاحدى قريباتك . »

— « كلا ، بل سأقدمك اليهم كخطيبتى ، ايرضيك ذلك ؟ »

ولم اجسر على اظهار مدى سعادتى باقتراحه . فقلت متظاهرة بعدم الاكتراث : « سواء كنت خطيبتك او أى شىء آخر فالامر يستوى فى نظرى ما دمنا معا » .

— « انتظرى هنا ، فسأعود اليك فى الحال . »

وما ان غادر المكان حتى اتجهت الى احدى زوايا غرفة الجلوس حيث جذبت ثوبى الى أعلى وأسرعت بتوثيق عرى سروالى الداخلى الذى تشعث اثناء مضاجعتنا واضطرابنا لوصول صديقيه على غير انتظار . وثمة مرآة كانت معلقة على الحائط فى مواجهتى كشفت لى عن ساقى الطويلة الرائعة وقد اكتست بالحرير فتركت فى نفسى انطباعا غريبا وسط كل ذلك الاثاث القديم الذى ساده جو من الصمت المنعزل . وتذكرت حين مارست الحب مع جينو فى فيلا مخدومته حيث سرقت « البدارة » ولم يسعنى الا أن أقارن بين تلك اللحظة البعيدة فى حياتى وبين هذه اللحظة . فقد كان يراودنى حينذاك احساس بالفراغ والمرارة والرغبة فى الانتقام لنفسى ان لم

يكن من جينو مباشرة فمن العالم أجمع على الاقل . ذلك العالم الذى لشد ما آذاني فى قسوة متخذا من جينو وسيلة له . اما الآن فقد احسست بالسعادة والحرية والمرح . وادركت مرة اخرى اننى متعلقة حقا بمينو . ولم يكن يعنينى كثيرا ان كان لايبادلنى الحب .

سويت ثيابى ثم اتجهت الى المرآة حيث نسقت شـــعرى ، واذا بالباب يفتح من خلفى ويدخل مينو عائدا .

فتمنيت أن يأتى ويقبلنى من الخلف اثناء تأملى صورتى فى المرآة ولـكنه ذهب ليجلس على الاريكة فى الطرف القصي منغرفة الجلوس ثم قال وهو يشعل سيجارة : « لقد تم كل شيء . فقد أعدوا لك مكانا آخر ، ولن نلبث أن ندخل لتناول العشاء » .

فتركت المرآة وذهبت لأجلس بجانبهحيث ادخلت ذراعي فى ذراعه وضغطت عليه بجسدى ثم قلت جزافا : « اليس هذان الرجلان من أصدقائك السياسيين ؟ »

— « نعم . »

— « ولكن الثراء لا يبدو عليهما مطلقا . »

— « لماذا ؟ »

— « هذا واضح من ملبسهما على أية حال . »

فقال :

— « ان توماسو هو ابن شريف مقاطعتنا . أما الآخر فانه يعمل مدرسا . »

— « انى لا اميل اليه . »

— « أيهما ؟ »

— « المدرس . فهو قذر التفكير . فلشد ما أدهشتنى نظرته الى عندما قلت اننى كنت اضاجعك . »

— « من الواضح أنه اعجب بك بلا ريب . »

ثم ساد الصمت بعض الوقت .

ولـكننى ما لبثت أن قلت : « انك خجل من تقديمى كخطيبتك . ولكننى سأنصرف ان شئت » .

كنت أعلم أنه لا سبيل الى اغتصاب حركة حانية من جانبه الا عن ذلك الطريق وهو أن ابتزه باتهامه انه كان خجلا منى . وفى الواقع فانه أحاط خصرى بذراعه فى الحال وهو يهتف قائلا : « لقـد اقترحت انا ذلك ! فلماذا أخجل منك ؟ » .

— « لست أدرى ، ولكننى أرى انك ساخط . »

فأجابني قائلا بلهجة تكاد تكون علمية : « لست ساخطا ولـكنني ذاهل . وذلك بسبب ممارستنا الحب . دعيني أتخلص من هــذا الذهول » .
ولاحظت ان وجهه ما زال شديد الشحوب وانه كان يدخن في نفور .
فقلت : « انك على حق ، فأنا آسفة. ولـكنك دائما بارد الشعور مماطل على صورة تفقدني صوابي. لو كان شعورك مختلفا لما أصررت على البقاء منذ لحظة » .
فألقى سيجارته قائلا : « لست باردا ولا مماطلا » .
- « ومع ذلك .. »
ولـكنه استرسل قائلا وهو ينظر الى بانتباه : « بل اني احبك كثيرا ، وفي الواقع فاني لم اقاومك منذ قليل كما اردت أن افعل» ولقد سرتني تلك العبارة فنكست عيني دون أن أتكلم بينمـــا أردف هو قائلا : « ومع ذلك فاني أعتقد انك محقة في الواقع ، فهــذا لايمكن أن يسمى حبا » .
فوجف قلبي ولم يسعني الا أن اتمتم قائلة : « اذن فما معنى الحب في نظرك ؟ »
فأجابني قائلا : « لو انني احببتك لما اردت أن اطردك منذ لحظة ولما غضبت عندما أردت البقاء » .
- « هل غضبت ؟ »
- « نعم . ولكنني الآن سأتحدث اليك وسأكون مرحا مبتهجا ذكيا مؤنسا - وسوف أضع خططا للمستقبل - هكذا يكون الحب. أليس كذلك ؟ »
فقلت في هدوء : « نعم . أو تلك هي مظاهر الحب على الاقل »
ولزم الصمت بعض الوقت ثم تكلم في ذلة كئيبة دون أي شعور بالرضا قائلا : « اني أمارس كل شيء بنفس الطريقة دون أن احب ما أفعل أو احس به في قلبي ، ولـكنني أعرف بعقلي كيف افعله بل أفعله من وقت لآخر غير انني لا أفتأ احس بالفتور ولا احس بشيء في أعماقي . هكذا أنا ومن الواضح انه لايمكنني أن أكون غير ذلك » .
وبذلت جهدا أكبر للسيطرة على نفسي .
ثم قلت : « احبك كما أنت ، فلا تقلق » ثم عانقتـــه في حب شديد ، وفي نفس اللحظة تقريبا فتح الباب وأطلت منه الخادم

العجوز لتخبرنا بأن العشاء قد أعد .
فغادرنا غرفة الجلوس ثم سرنا فى دهليز الى أن بلغنا غرفة الطعام . وانى أذكر جيدا كل ما فى تلك الغرفة ومن فيها لاننى كنت حينذاك حساسة للانطباعات كاللوحة الفوتوغرافية فقد أحسست اننى لم أكن أتصرف بقدر ما كنت أراقب نفسى وأنا اتصرف بعينين واسعتين حزينتين . ولعل هذه هى النتيجة المباشرة لاحساسنا بالتمرد عندما نواجه بحقيقة تجعلنا نعانى بينما نتمنى فى نفس الوقت لو كانت غير ذلك .

كانت الارملة السنيورا مدولاجى تبدو لى لسبب لا ادريه شديدة الشبه بأثاث غرفة الجلوس المصنوع من خشب الابنوس الاسود المطعم بالصدف . كانت امرأة فى منتصف العمر طويلة القامة على صورة مهيبة ضخمة الصدر والردفين ترتدى ثيابا حريرية سوداء من أعلى رأسها الى اخمص قدميها . وكان وجهها الذى يشبه فى شحوبه لون المحارة عريضا مترهلا يحيط به اطار من الشعر الاسود وقد بدت صبغته واضحة للعيان . كما كانت هناك ظلال كبيرة سوداء فى أسفل عينيها . وقفت أمام « سلطانية » الحساء المزينة بالزهور حيث أخذت تقدم الينا الحساء فى شىء من الازدراء بينما أضاء صدرها ذلك المصباح المثقل الذى جذب فوق المائدة فكان صدرها أشبه ما يكون بطرد كبير أسود لامع . أما وجهها الابيض الذى احاطت بعينيه حلقتان سوداوان فكان يذكرنى وهو فى الظلام بتلك الاقنعة الحريرية الصغيرة التى يرتديها الناس فى الكرنفال . كانت المائدة صغيرة وقد أعدت عليها أربعة أماكن فى كل جانب منها مكان واحد . وكانت ابنة صاحبة الدار قد اتخذت مكانها الى المائدة ولم تنهض عند دخولنا .

قالت الارملة مدولاجى : « ان السيدة الصغيرة يمكنها أن تجلس هنا . ما أسمك ؟ »
— « آدريانا . »

فقالت السيدة دون تفكير : « تماما كابنتى . فلدينا الآن آدريانتان » وكانت تتكلم يراودها شعور بالذات دون ان تنظر الينا . ومن الواضح انها لم تكن ترحب مطلقا بوجودى هناك . وكما سبق ان قلت فانى لا أكاد أضع الاصباغ على وجهى ولا أضمخ شعرى قط بالاوكسيجين . فكان مظهرى فى الواقع لا ينبىء البتة بمهنتى . ولكننى كنت ابدو فى نظر الجميع فتاة بسيطة جاهلة من الشعب وهى حقيقة لم أعبأ

باخفائها . ولا ريب ان السيدة ربة المنزل كانت عندئذ تحدث نفسها قائلة : « ما أغرب هؤلاء القوم الذين تحضرهم يامينو الى الدار ! فتاة من الدهماء » .

جلست وتأملت الفتاة التي تحمل اسمي ، فاذا بها تبلغ نصفي تماما في كل شيء ، راسها وصدرها وردفيها . كانت نحيلة القد قليلة الشعر ذات وجه بيضاوي رقيق وعينين كبيرتين بليدتين ينم تعبيرهما عن الذهول النصفي . نظرت اليها فلاحظت ان جمالي جعلها تنكس عينيها حتى خيل لي انها حيية . فقلت لكي استهل الحديث : « اتعلمين انه يبدو لي غريبا للغاية أن تحمل اسمي سيدة اخرى ويكون بيني وبينها كل ذلك الاختلاف ؟ »

لقد تكلمت جزافا لكي أستهل الحديث وكانت عبارة سخيفة. ولكنني لدهشتي لم أتلق جوابا ، بل نظرت الفتاة الى بعينيها اللتين فتحتا على سعتهما ثم حنت رأسها فوق صحفتها وبدات تأكل في صمت . وفجأة لاحت لي الحقيقة ، فانها لم تكن حيية ، بل خائفة مذعورة . وكنت أنا مبعث رعبها . فقد ذعرت لجمالي الذي اقتحم عليها جو مسكنها الذاوي المغبر كوردة أحاط بها نسيج العنكبوت . كما أفزعتها حيويتي المتدفقة التي ما كان يمكن أن يخطئها البصر حتى وأنا صامتة لا أبدي حراكا . ولكن لشد ما أرعبها أني فتاة من الدهماء . فلا شك أن الغنى لا يكن حبا للفقير ولكنه ايضا لا يخشاه وهو يعرف كيف يبعده عنه بكبريائه وغروره . أما الفقير الذي يتقمص روح الغنى عن طريق التعليم أو يوهبها بالطبيعة فلشد ما يفزعه أن يرى فقيرا أصيلا وكأنه يحس انه معرض للعدوى بمرض معين أصيب به شخص آخر . فلا شك ان الارملة مدولاجي وابنتها لم تكونا من ذوات الثراء وآلا لما اجرا غرفا . ولما كانتا تحسان بفقرهما وتأبيان الاعتراف به فان وجودي كفتاة فقيرة لا تضع قناعا على وجهها بدا فيه خطر عليهما واهانة لهما . من ذا الذي يمكنه ان يتكهن بما جال بخاطر الابنة وأنا أخاطبها ؟ فلعلها حدثت نفسها قائلة : « هذه الفتاة هنا تحدثني ، وهي تريد أن تتودد الى. فلن أستطيع التخلص منها » . ادركت كل ذلك في لمح البرق فقررت الا انطق بكلمة أخرى حتى نهاية الوجبة .

ولكن أمها التي ربما كانت أكثر فضولا وسماحة لم تشأ أن تمتنع كلية عن بعض الحديث اذ قالت لمينو : « اني لم اعلم بخطبتك فمنذ متى تمت الخطبة ؟ »

كان صوتها متكلفا وهى تتكلم من خلف كتلة صدرها وكأنها تقف خلف خندق واق .

فقال مينو : « منذ شهر تقريبا » . وقد صدق فيما قال فقد مضى على تعارفنا شهر واحد .

— « وهل السيدة الصغيرة من بنات روما ؟ »

— « بالطبع ، بل ان ذلك يرجع تاريخه الى سبعة أجيال . »

— « ومتى يتم الزفاف ؟ »

— « قريبا .. حالما يخلو المنزل الذى سنقيم فيه . »

— « أوه .. وهل استقر رأيكما على المنزل ؟ »

— « نعم .. انها فيللا صغيرة تحيط بها حديقة ، وبها برج صغير ، انها خلابة . »

بهذه الطريقة التهكمية وصف مينو تلك الفيللا الصغيرة التى لفت نظره اليها على الطريق الرئيسى بالقرب من شقتى .

فقلت فى صعوبة : « لو انتظرنا ذلك المنزل فانى أخشى اننا لن نتزوج » .

فقال مينو فى مرح : « هذا هراء » .

وقد بدأ عليه انه قد استرد هدوءه تماما بل زادت حمرة وجنتيه ثم أردف قائلا : « انت تعلمين انه سيخلو فى اليوم الذى حددناه » .

ولما كنت لا اميل الى المزاح فاننى لم افه بشىء . وجاءت الخادم لتغيير الصحاف . ثم قالت السنيورا مدولاجى : « ان الفيللات يا مستر ديوداتى جميلة للغاية ولكنها ليست مريحة ، فهى تحتاج الى عدد كبير من الخدم » .

فقال مينو : « ولماذا ؟ فلا ضرورة لذلك . ان آدريانا ستكون هى الطاهية والخادمة ومديرة المنزل . أليس كذلك يا آدريانا ؟ »

فأضافت السنيورا مدولاجى قائلة وهى ترمينى بنظرة سريعة : « فى الواقع ان السيدة لديها ما تفعله الى جانب تفكيرها فى الطهو والكنس وترتيب الاسرة ، ولكن اذا كانت السيدة الصغيرة معتادة على ذلك ففى تلك الحال .. » ولم تتم عبارتها بل وجهت انتباهها الى الصحفة التى كانت الخادم تقدمها الى قائلة : « لم نكن نعلم بمجيئك والا لأمكننا ان نضيف الى الطعام بيضة او اثنتين » .

وانتابنى الغضب على مينو وعلى السيدة حتى اوشكت ان أجيبها قائلة : « كلا ، بل أنا معتادة على أن أذرع (١) الطرقات » . ولكن

---

(١) المقصود هنا العاهر التى تذرع الطرقات لتبيع الهوى .

مينو الذى كانت روحه تفيض ببهجة مخبولة صب لنفسه ملء قدح كبير من النبيذ كما صب لى القليل منه (بينما كانت عينا السنيورا مدولاجي تتابعان القنينة فى قلق) ثم أردف قائلا : « آه . ولكن آدريانا ليست سيدة أو لن تكون كذلك فى يوم من الايام ، فانها دائما تسوى الاسرة وتكنس الارض . ان آدريانا فتاة من الشعب » .

فنظرت الي السنيورا مدولاجي وكأنها ترانى لأول مرة مرددة كلامها فى ادب جارح بينما حنت الابنة رأسها فوق صحفتها : « بالضبط ، كما كنت أقول عما اذا كانت معتادة » .

فاسترسل مينو قائلا : « نعم ، معتادة على ذلك . ولا شك انني لن أجعلها تقلع عن مثل هذه العادات النافعة . ان آدريانا هى ابنة صانعة قمصان ، كما انها هى نفسها صانعة قمصان ، أليس كذلك يا آدريانا ؟ » ثم مد ذراعه عبر المائدة حيث أمسك بيدى وقلبها ظهرا لبطن قائلا : « انها تطلى أظافرها حقا ولكنها يد فتاة كادحة كبيرة قوية طبيعية ، تماما كشعرها فهو مجعد ولكنه ثائر ذو جذور خشنة » . وما ان ترك يدى تسقط حتى جذبنى من شعرى بقوة وكأنى حيوان قائلا : « أن آدريانا فى الواقع تمثل بجدارة شعبنا الرقيق السليم القوى فى كل شىء وكل مكان » .

وكان يتخلل صوته تحد ساخر ، ولكن أحدا لم ينتبه اليه . واخذت الفتاة تنظر من خلالى وكأنى جسم شفاف تخترقه بنظراتها لترى شيئا من خلفه . وأمرت الام الخادمة بتغيير الصحاف ، ثم استدارت نحو مينو وسألته قائلة بطريقة غير متوقعة تماما : « اذن فهل ذهبت يامستر ديوداتى لمشاهدة تلك المسرحية ؟ »

وكدت انفجر ضاحكة لتلك الطريقة الخرقاء فى تغيير الموضوع ، ومع ذلك فان مينو لم يحس بالاهانة ، بل هتف قائلا : « لاتحدثينى عنها ! فهى غاية فى السوء » .

ـ « اننا سنذهب غدا لمشاهدتها ، فهم يقولون انها فرقة ممتازة .

فأجاب مينو بأن الممثلين ليسوا بالبراعة التى وصفتها الصحف . فدهشت السيدة لكذب الصحف ولكن مينو اجاب قائلا فى هدوء ان الصحف من أولها الى آخرها ما هى الا سلسلة واحدة من الاكاذيب . ومنذ تلك اللحظة اخذ الحديث يدور حول موضوعات مماثلة . وكانت السنيورا مدولاجي لا تكاد تفرغ من الحديث فى احد هذه الموضوعات حتى تبدأ موضوعا جديدا فى عجلة لا تحسن اخفاءها . أما مينو الذى لشد ما بدا مسرورا فقد كان مستجيبا

لها لا يفتأ يرد عليها فى ذكاء .

أخذا يتحدثان عن الممثلين وعن حياة الليل فى روما وعن المقاهى ودور السينما والمسارح والفنادق الى آخر ذلك . كانا اشبه بلاعبى البنج بونج وهما عاكفان على تبادل الكرة دون ان يتيحا لها أن تسقط على الارض . ولكن بينما كان مينو يفعل ذلك بدافع من شغفه المعهود باللهو ذلك الشغف الذى لشد ما تطور عنده كانت السنيورا مدولاجى تستجيب له لشعورها نحوى ونحو كل ما يتعلق بى بالخوف والنفور . فقد بدت انها تقصد أن تقول له بحديثها الرسمى التقليدى : « هذا هو أسلوبى لافهامك أن زواجك بفتاة من الدهماء أمر مفجع حقا وأن احضارك اياها الى منزل أرملة الموظف المدنى مدولاجى لهو أمر مفجع حقا على أية حال » . أما الابنة فلم تفه بشىء فقد كانت مذعورة ، كما بدت أنها تتمنى فى صراحة تامة لو انتهت الوجبة ومضيت الى حال سبيلى بأسرع ما يمكن . وأما أنا فقد راقنى بعض الشىء أن أتابع تلك المعركة الكلامية ولكننى ما لبثت أن مللت ذلك الجدل وغشيتنى تماما أحزان قلبى . فقد أدركت ان مينو لم يكن يحبنى وكان ذلك الادراك مريرا . وفضلا عن ذلك فقد لاحظت ان مينو قد استغل ثقتى به لينسج ملهاة خطبته . ولم يمكننى أن أفهم بالضبط ان كان يريد ان يسخر منى أم من المراتين أم من نفسه ولعله اراد أن يسخر منا جميعا ومن نفسه بصفة خاصة . لقد بدا وكأنه هو أيضا كان يغذى فى قلبه تلك الامانى التى كنت اكنها نحو حياة طبيعية مهذبة . كما بدا وكأنه قد فقد كل أمل فى تحقيقها لاسباب تختلف عن اسبابى ، ومن ناحية اخرى فقد أدركت آن امتداحه اياى بأننى فتاة من الشعب لم يكن فيه اطراء لى أو لعامة الشعب ، بل ان ذلك لم يعد ان يكون وسيلة لتنفير المراتين منه . وقد دلت تلك الملاحظات على صحة ما كان يقول قبل ذلك بفترة وجيزة ، وهو انه لا يقوى على ان يحب بقلبه . وعندئذ أدركت تماما كما لم أدرك قط من قبل ان الحب هو كل شىء وان كل شىء يعتمد على الحب ، وهذا الحب اما ان يوجد أو لايوجد . فان وجد لم يحب المرء عشيقته فحسب ، بل الناس اجمعين وكل ما فى الوجود من أشياء تماما كما كنت أفعل . وان لم يوجد فان المرء لا يحب احدا ولا يحب شيئا ، كما هى الحال معه ، والافتقار الى الحب يؤدى فى النهاية الى العجز والعنة .

عندئذ كانت المائدة قد أخليت مما عليها من أدوات الطعام وظهرت

فى دائرة الضوء المرسل من الثريا على مفرش المائدة وقد تناثر فوقه فتات الخبز أربعة فناجيل من القهوة ومنفضة للسجائر من الفخار على شكل زهرة الخزامى كما ظهرت يد كبيرة مرقطة يزينها عدد كبير من الخواتيم الرخيصة وقد أمسكت بسيجارة مشتعلة ـ تلك كانت يد السنيورا مدولاجي . وفجأة ضاق صدرى من شدة الضجر فنهضت واقفة على قدمى وقلت متعمدة المبالغة فى لهجتى الرومانية : « آسفة يا مينو لانى مشغولة .. فأنا مضطرة للذهاب » .

فسحق سيجارته فى المنفضة ثم نهض واقفا هو أيضا ، وفى صوت مدو تمنيت لهم مساء طيبا تماما كما تفعل أية فتاة من الشعب . ثم انحنيت انحناءة طفيفة ردت عليها السيورا مدولاجي فى تصلب. أما ابنتها فقد تجاهلتها ثم انصرفت . وعند مدخل الشقة حدثت مينو قائلة : « أخشى ان السنيورا مدولاجي بعد هذا المساء ستطلب اليك البحث عن غرفة أخرى » .

فهز كتفيه قائلا : « لا أظن ذلك ، فانى أدفع لها بسخاء وبانتظام دقيق » .

قلت : «انى ذاهبة. ولكن هذه الوجبة قد تسببت فى شقائى».

ـ « لماذا ؟ »

ـ « لانى اقتنعت تماما فى النهاية بأنك لا يمكن أن تحب . »

قلت ذلك فى حزن دون أن انظر اليه . ثم رفعت عينى وخيل لى أن تعبير وجهه كان ينبىء بالذلة والمهانة . ولكن ذلك ربما كان راجعا الى ظلمة الردهة فى انعكاسها على وجهه الشاحب . وامتلأت نفسى فجأة بتأنيب الضمير . ثم سألته قائلة :

ـ « هل غضبت ؟ »

فقال فى صعوبة : « كلا ، فهى الحقيقة قبل كل شىء » .

وعندئذ فاض قلبى بحبه فعانقته بحركة تلقائية قائلة : « هذا افتراء .. وما قلته الا عن حقد ، وعلى أية حال فلشد ما احبك رغم ذلك .. أنظر .. فقد أحضرت اليك هذا الرباط » . ثم فتحت حقيبتى لأخرج الرباط وأقدمه اليه . فنظر اليه ثم سألنى قائلا :

ـ « هل سرقته ؟ »

لم تكن سوى دعابة ولكنها كشفت لى عن مدى شغفه بى اكثر مما كان يمكن أن تفعله أصدق آيات الشكر ، وذلك هو ما أدركته فيما بعد . أما فى تلك اللحظة فقد طعنتنى فى الصميم ، واغرورقت

عيناى بالدموع . ثم تلعثمت قائلة : « كلا ، بل اشتريته من محل أسفل المنزل تماما » .

وما ان لاحظ ما لحقنى من مهانة حتىعانقني قائلا : «ما اسخفك! فما قصدت سوى المزاح ، ولـكننى على اية حال معجب به حتى لو كنت سرقته ، بل ربما زاد اعجابى ؟ » .

فقلت وقد خفف عنى قليلا بما قاله لى : « انتظر ، فانى سأضعه لك حول عنقك » . وما ان رفع ذقنه حتى حللت له رباطه القديم ثم قلبت ياقة قميصه حيث عقدت له الرباط الجديد قائلة :

« أما هذا الرباط البشع القديم البالى فسآخذه معى ، فلا يجب مطلقا أن ترتديه مرة أخرى . » وكنت أقصد فى الحقيقة ان احمل معى قطعة من ثيابه تذكارا منه .

فقال : « اذن فسأراك قريبا » .

ـ « متى » ؟

ـ « غدا بعد العشاء . »

« حسنا » . ثم تناولت يده وهممت بتقبيلها ، ولكنه جذبها بعيدا بعد فوات الاوان ، اذ لم يحل ذلك دون لثمها سريعا بشفتى ثم ركضت بسرعة هابطة الدرج دون أن أنظر خلفى .

الفصل السابع

وبعد ذلك اليوم واصلت حياتى المعتادة . فقد أحببت مينو حقا ورغبت أكثر من مرة فى تغيير مهنتي التى كانت تتناقض تناقضا تاما مع الحب الحقيقى . ولكن ظروفى بقيت كما هى دون تغيير رغم وقوعي فى الحب ، ولم أتجاوز تلك النقطة التى وقفت عندها ألا وهى افتقارى الى المال والى الوسيلة التى يمكننى ان احصل بها عليه ما لم أتبع ذلك الطريق . ولم اشأ ان اقبل نقودا من مينو، ولكنه كان على أية حال محدود الدخل اذ أن أسرته كانت لا ترسل اليه الا ما يكفيه فى عسر لدفع نفقات معيشته فى المدينة . ولا يفوتنى أن اعترف عند هذه النقطة بأننى لم افتأ احس برغبة غلابة لا تقاوم فى أن أقوم بالانفاق عليه فى جميع المحال والمقاهى والمطاعم التي كنا نغشاها . ولكنه كان دائما يرفض عروضي فكنت فى كل مرة أشعر بخيبة الامل والمرارة . وكان كلما نفدت نقوده يصطحبنى الى الحدائق العامة حيث نجلس معا على أحد المقاعد لنتجاذب أطراف الحديث ونراقب المارة كما يفعل الفقراء .

وذات يوم قلت له : « ولكن فلنذهب الى أحد المقاهى حتى ولو كنت معسرا ، فسأقوم أنا بالانفاق .. وأى فرق هناك ؟ » .

— « هذا محال . »

— « لماذا ؟ فانا أريد الذهاب الى أحد المقاهى لاتناول مشروبا . »

— « اذن فلتذهبى وحدك .. »

وفى الواقع فانى لم أكن متحمسة للذهاب الى أحد المقاهي بقدر حماسي للانفاق عليه . فقد كانت تراودنى رغبة عميقة ملحة مؤلمة فى أن أفعل ذلك . كما كنت أوثر أن أعطيه مباشرة كل ما كنت أكتسبه من نقود على ان اقوم انا نفسى بجميع النفقات شيئا فشيئا بنفس الطريقة التى كنت أتلقاها بها من لقطاء الطريق الذين هم عشاقى . فقد خيل لى اننى بذلك فحسب يمكننى أن أكشف له عن حبى . ولكنه خيل لى أيضا اننى لو تكفلت به ماليا فسأربطه بى برباط اقوى من مجرد الحب . وقد قلت له فى مناسبة أخرى :

لشد ما يسرنى أن أعطيك بعض النقود ، كما اننى واثقة بأنك

ستجد فى ذلك شيئا من المتعة » .

فأخذ يضحك قائلا : « ان علاقتنا من وجهة نظرى على الاقل لا تقوم على المتعة » .

« علام اذن ؟ »

فتردد ثم اجاب قائلا : « على مشيئتك فى حبى ، وعلى ضـعفى أمام تلك المشيئة ، ولـكن هذا لا يعنى أن ضعفى بلا حدود » .

ـ « ماذا تعنى ؟ »

فقال فى هدوء : « ان الامر بسيط للغاية . وقد سبق أن شرحته لك مرارا وتكرارا ، فنحن معا لانك شئت ذلك في حين اننى على العكس لم أشأ ، بل انى الآن من الناحية النظـــرية على الاقل أوثر الا أفعل » .

فقاطعته قائلة : « يكفى هذا ، فلا تدعنا نتحدث عن حبنا ، وما كان ينبغى أن أذكره » .

وكلما فكرت فى شخصيته منذ تلك اللحظة اذا بى فى معظم الاحيان اخرج بنتيجة مؤسفة وهى انه لم يكن يحبنى البتة واننى لم اكن سوى أداة لاحدى تجاربه . فقد كان اهتمامه فى الواقع مقصورا على نفسه . ولـكن شخصيته كانت فى داخل تلك الحدود معقدة للغاية. كان فتى من أسرة ريفية ميسورة الحال ـ كما أعتقد اننى سبق أن ذكرت ـ وكان يمتاز برقته وذكائه وثقافته وتهذيبه وجديته . وكانت أسرته ـ بقدر ما أمكننى أن أتبين مما قاله لى رغم قلته وذلك لعدم شغفه بالتحدث عنها ـ من تلك الاسر التى كنت أتمنى فى أحلامى الغريرة حول حياة طبيعية لو ولدت فيها . كانت أسرة تقليدية ، فكان أبوه طبيبا من ملاك الاراضى ، وكانت امه لا تزال صغيرة السن تمكث فى الدار معظم الوقت حيث لا هم لها سـوى زوجها وأطفالها ، وكانت له ثلاث أخوات صغيرات وأخ أكبر ، ومن المعروف ان أباه كان من الشخصيات المتـداخلة كما كان حجة فى الشئون المحلية . اما أمه فكانت شديدة التعصب واخواته طائشات مستهترات الى حد ما ، وأخوه الاكبر مثلا للشـاب الفنى الذى يقضى معظم وقته فى المحال العامة الانيقة والمنتديات الراقيـة كما يفعل جيانكارلو .

ولـكن كل هذه الاخطاء كانت محتملة على الرغم من كل شىء بل انها فى نظرى رقد ولدت بين قوم اختلفت طـــريقة معيشتهم كل الاختلاف من جميع الوجوه لم تكن تبدو اخطاء . كانت أسرة متحدة

تماما وكان جميع افرادها من الابوين الى الاطفال يدينون بالاخلاص والولاء لمينو .
وكان اعتقادى انه سعيد الحظ للغاية لانتمائه الى تلك الاسرة . ولكنه بدا على العكس من ذلك كارها أسرته مبغضا اياها مشمئزا منها مما استغلق على فهمى تماما . كما بدا انه يحس بنفس البغض والكراهية والاشمئزاز ازاء نفسه طبيعة واعمالا . ولكن كراهته نفسه بدت انها لم تكن سوى انعكاس لكراهته أسرته جمعاء . وبعبارة أخرى فقد بدا انه يكره فى نفسه كل ما بقى مرتبطا بأسرته وكل ما خضع بأية صورة من الصور لنفوذ دائرة الاسرة . وقد قلت من قبل انه كان مهذبا مثقفا ذكيا رقيقا جادا ، ولكنه كان يحتقر ذكاءه وآدابه وثقافته ورقته وجديته لا لسبب الا لأنه كان يرجح انه مدين بها للوسط الذى عاش فيه وللأسرة التى ولد ونشأ فيها وقد قلت له ذات مرة : « ولكن قل لى حقا ، ماذا تبغى أن تكون؟ فهذه كلها صفات حميدة ، ينبغى أن تشكر حسن طالعك الذى حباك بها » .

فقال وهو لا يكاد يحرك شفتيه : « على الرغم من كل النفع الذى تحققه لى فقد كنت أفضل أن اكون على شاكلة سونزونيو مضبرا بذلك عن رأيى الشخصى ! » .
فقد تركت قصة سونزونيو تأثيرا عميقا فى نفسه ولا يمكننى أن أتخيل السبب فى ذلك . فهتفت قائلة : « يا للشناعة ! انه وحش وانت تريد أن تكون على شاكلته ! » .

فأوضح ما يعنيه فى هدوء قائلا : « من الواضح اننى لا أريد أن أحاكى سونزونيو من جميع الوجوه . فانى ما ذكرت سونزونيو الا لأبين مرادى . فان سونزونيو مهيأ للحياة فى عالمنا هذا ، أما أنا فلا » .

ثم سألته قائلة : « اتريد أن تعرف ماذا كنت أتمنى أن أكون؟ »
ـ « اخبرينى .. »
فقلت فى بطء متذوقة فى لذة طعم العبارات التى بدا لى ان كلا منها كان يتجسد فيها أحد أحلامى التى لشد ما كانت عزيزة عندى حبيبة الى قلبى : « أتمنى لو كنت فى مثل ظروفك بالضبط ـ تلك الظروف التى لشد ما تشقى بها ـ كنت أتمنى لو ولدت فى اسرة ميسورة كأسرتك تتيح لى قسطا وافرا من التعليم ، كنت أتمنى أن اعيش فى منزل نظيف جميل كمنزلكم ، كنت أتمنى لو كان

لى مدرسون أكفاء ومربيات أجنبيات كما أتيح لك ، كنت أتمنى لو أقضى الصيف على شاطىء البحر أو فى الجبال ، واقتنى ثيابا جميلة وأتلقى الدعوات واستقبل الضيوف ، كما كنت أتمنى لو أتزوج رجلا يحبنى ، رجلا مهذبا يؤدى عملا ويكون ميسور الحال كذلك ، كنت أتمنى أن أعيش معه وأحمل له اطفاله ! » .

كنا راقدين على الفراش ونحن نتحدث ، فاذا به ينقض على فجأة كعادته قابضا على بدنى بيديه وهو يهزنى مرددا : « هللى ، هللى ، هللى ! انك فى الواقع تتمنين لو كنت مثل السنيورا لوبيانكو » . فسألته قائلة وأنا أشعر بالاساءة والارتباك فى نفس الوقت . « ومن هى السنيورا لوبيانكو ؟ »

ــ « امرأة جشعة رهيبة كثيرا ما تدعونى الى حفلات استقبالها آملة أن أقع فى حب احدى بناتها البشعات فأتزوجها اذ اننى أمثل ما يسمى بالزوج الصالح » .

ــ « ولكننى لا أتمنى مطلقا أن اكون مثل السنيورا لوبيانكو ! »

ــ « ذلك هو مصيرك بلا شك اذا ما أتيح لك كل ما ذكرت من أشياء . فقد ولدت السنيورا لوبيانكو فى أسرة غنية أتاحت لها تعليما ممتازا على أيدى مدرسين أكفاء ومربيات أجنبيات ثم أرسلتها الى المدرسة بل والى الجامعة كما اعتقد ــ وقد نشأت هى أيضا فى منزل نظيف جميل ــ كما كانت فى كل صيف تذهب الى شاطىء البحر أو الجبال ــ وكذلك كانت تقتنى ثيابا جميلة . كما كانت تتلقى الدعوات ، كثيرا من الدعوات وتقيم الحفلات ، كثيرا من الحفلات ــ وقد تزوجت أيضا رجلا مهذبا هو المهندس لوبيانكو الذى يعمل ويجلب الى منزله المال الوفير ــ وقد انجبت من زوجها الذى اعتقد انها ظلت مخلصة له عددا كبيرا من الاطفال ــ ثلاث بنات وابنا واحدا ــ ولكنها على الرغم من كل ذلك امرأة جشعة رهيبة كما سبق أن قلت » .

ــ « لابد انها امرأة جشعة دون أن تكون لبيئتها يد فى ذلك البتة !»

ــ « كلا ، بل هى على شاكلة صديقاتها وصديقات صديقاتها » .

فقلت محاولة أن أفلت من عناقه الساخر المتهكم : « ربما ، ولكن كل شخص له اخلاقه الخاصة ، فربما كانت السنيورا لوبيانكو امرأة جشعة ولكننى واثقة انه لو أتيحت لى مثل هذه الظروف لصرت أفضل مما أنا عليه بكثير » .

ــ « بل لما كنت أقل بشاعة من لوبيانكو » .

ـ « لماذا ؟ »
ـ « لهذا •• »
ـ « ولكن انصت الى ، هل تعتقد ان اسرتك بشعة ايضا ؟ »
ـ « بالطبع ، آنها كريهة بغيضة • »
ـ « وهل انت بشع ايضا ؟ »
ـ « نعم •• فى كل ما ورثته عن أسرتى • »
ـ « ولكن لماذا ؟ قل لى لماذا ؟ »
ـ « لهذا •• »
ـ « هذه ليست آجابة •• »

فأجابنى قائلا : « انها نفس الاجابة التى ترد بها عليك السنيورا لوبيانكو لو وجهت اليها أسئلة معينة » .

ـ « أية أسئلة ؟ »

فقال باستخفاف : « لا داعى لذكرها . أسئلة محيرة ـ فكلمة « لهذا » اذا ما قيلت باقتناع خليقة باسكات أكثر الناس فضولا ـ « لهذا » بلا سبب ـ « لهذا » .. »

ـ « انى لا أفهم ماذا تعنى ؟ »

فختم حديثه قائلا وهو يعانقنى على طريقته الساخرة التى خلت من الحب : « وماذا يهم لو لم نتفاهم ما دمنا نتبادل الحب ـ وهو حقيقة ؟ » وهكذا انتهت المناقشة ، فمثلما كان يأبى أن يستسلم كلية من الناحية العاطفية ولا يفتأ يبدو وكأنه يحتجز شيئا فى أعماقه ولعله جوهر نفسه مما يجعل انفجاراته العاطفية النادرة عديمة القيمة كذلك كان بنفس الطريقة تماما يأبى دائما أن يكشف عن أفكاره كلها ، وكلما اعتقدت اننى بلغت جوهر تفكيره لم يفتأ يصدنى بدعابة ما أو حيلة لطيفة يشتت بها انتباهى . فلشد ما كان مراوغا بكل ما فى الكلمة من معنى . وكان يعاملنى كشخص أقل منه كما لو كنت تقريبا أداة لاحدى تجاربه . ولكن لعل ذلك هو السبب فى حبى الشديد له على تلك الصورة العاجزة المستسلمة .

ومع ذلك فانه كان يبدو أحيانا وكأنه لا يكره أسرته والوسط الذى نشأ فيه فحسب بل البشرية جمعاء . فقد قال لى ذات يوم ـ ولا تحضرنى المناسبة : « ان الاغنياء مرعبون ولكن مما لاشك فيه ان الفقراء ليسوا أحسن حالا ولو اختلفت الاسباب » .

ـ « انك تصير أقرب قليلا الى الصحة لو اعترفت صراحة بكراهيتك للبشرية جمعاء دون استثناء • » فأخذ يضحك وهو يجيبنى قائلا :

« انی لا أكره الناس من الناحية النظرية وأنا بعيد عنهم ، أو على الاقل تتضاءل كراهيتي الى حد الايمـــان بتقدمهم · ولو كنت لا أومن بذلك لما شغلت نفسى بالسياسة . ولـكنهم لشد ما يرعبوننى عندما أوجد بينهم » . ثم أردف قائلا فى حزن : « والحقيقة ان الجنس البشرى تافه لا قيمة له » .

فقلت : « ولـكننا بشر أيضا . وهكذا فاننا تافهون كذلك. ومن ثم فلا يحق لنا أن نحكم عليهم » .

فعاد يضـحك وهو يجيبنى قائلا : « انى لا أحكم عليهم . بل أتشممهم ــ أو بالاحرى أنى اتنسم رائحتهم ــ كمـا يتنسم الكلب رائحة الدراج أو الارنب البرى · ولكنه هل يحكم عليهـا ؟ انى اتنسمهم فأجدهم خبثـاء أغبيـاء أنانيين تافهين مبتذلين مخادعين مخجلين قذرين . انى أتنسمهم . وذلك احسـاس والاحاسـيس لايمكننا كبتها . أليس كذلك ؟ » .

فلم أدر كيف أجيبـه ولـكننى لم أزد على أن قلت : « هـذا الاحساس لايراودنى » .

وفى مناسبة أخرى تحدث الى بالطريقة التالية : « قد يكون الناس أخيارا أو أشرارا لست أدرى . ولـكنهم بلا شـك عديمو الفـائدة فائضون عن الحاجة على أية حال » .

ــ « ماذا تعنى ؟ »

ــ « اتمنى لو أمكن محق الجنس البشرى بأجمعه لاسباب وجيهة فهو لا يعدو أن يكون زائدة قبيحة على وجه الارض ــ بثرة · فلو خلا العالم من البشر ومدنهم وشوارعهم وموانيهم وكل ما يتخذونه من ترتيبات صغيرة يصير العالم أكثر جمالا الى حد بعيد. فلتتخيلى كم يكون العالم جميلا لو انه خلا الا من السماء والبحر والاشجار والارض والحيوانات · »

ولم يسعنى الا أن أضحك هاتفة : « ما أغرب آراءك ! » .

فاسترسل قائـــلا : « ان الجنس البشرى ليست له بداية أو نهاية ــ ومن ثم فهو شىء سلبى حتما . وما تاريخ البشرية الا ثؤباء واحدة طويلة مبعثها السأم الخالص . فما الحاجة اليه ؟ وفى رأيى انه كان فى وسعى تماما الاستغناء عنه » .

فاعترضت عليه قائلة : « ولـكنك انت نفسك جزء من الجنس البشرى . فهل كان يمكنك الاستغناء عن نفسك اذن ؟ » .

ــ « الاستغناء عن نفسى بصفة خاصة · »

وثمة فكرة اخرى من الافكار التى كانت لا تفتأ تلازم ذهنه هى فكرته عن العفة . ومما يزيد فى غرابة تلك الفكرة انه لم يكن يحاول ممارستها فكان كل ما يجنيه منها هو افساد متعته . كان لا يفتأ يتغنى بمديحها وخاصة على اثر ممارستنا الحب مباشرة وكأنه يكيد نفسه . وكان يقول ان المضاجعة ليست سوى أسخف الطرق وأيسرها لتنحية جميع المشكلات بارغامها جميعا على الخروج من أسفل خلسة وبعيدا عن الانظار مثلما يساق الضيوف المزعجون للخروج من الباب الخلفى . وكان يقول : « وما ان تتم العملية حتى يخرج الرجل فى نزهة مع شريكته سواء أكانت زوجته أم عشيقته حسبما يكون الوضع وقد تهيأ على صورة عجيبة لقبول العالم كما هو حتى ولو كان شر العوالم جميعا » .

فقلت : « انى لا أفهمك » .

فقال : « ولكنك يجب ان تفهمى ذلك على الاقل . اليس هو اختصاصك ؟ » .

فأحسست بالاساءة ، وقلت : « ان اختصاصى كما تسميه هو أن احبك . ولكن ان شئت فاننا لن نمارس الحب مرة أخرى — وسوف احبك على الرغم من ذلك » .

فضحك وهو يسألنى قائلا : « هل انت متأكدة تماما مما تقولين؟» وفى ذلك اليوم توقفنا عن الجدال . ولكنه كان لا يفتأ يعود الى نفس الاشياء مرارا وتكرارا حتى اننى فى النهاية لم أعد التفت اليه بل تقبلت ذلك كما تقبلت سمات أخرى كثيرة فى شخصيته المتناقضة

كان لايتحدث الى مطلقا فى السياسة الا علىصورة اشارة عابرة ، بل انى اليوم لا أدرى شيئا عن أهدافه وآرائه والحزب الذى كان ينتمي اليه . ويرجع جهلى تارة الى تكتمه ذلك الجانب من حياته وتارة الى عدم المامى بتاتا بالسياسة كما حال خجلى وعدم اكتراثى دون سؤاله عن كل التفسيرات التى كان يمكننى ان استنير بها . وكنت مخطئة فى ذلك والله يعلم انى ندمت فيما بعد . ولكننى خيل لى حينذاك انه مما يريحنى حقا الا أفكر الا فى الحب والا اتدخل فى أمور كانت كما تصورت لا تخصنى . وفى الواقع فانى كنت أحذو حذو كثير من النساء زوجات كن أو خليلات ممن لا يدرين حتى ان رجالهن بعرق جبينهم يكسبون المال الذى يجلبونه الى البيت . وطالما التقيت برفيقيه اللذين اعتاد أن يراهما كل يوم تقريبا . ولكن ثلاثتهم كانوا فى حضورى يمتنعون عن الحديث فى السياسة . بما

يمزحون واما يتكلمون فى موضوعات تافهة .

ومع ذلك فانى لم استطع أن أنفض عن نفسى احساسا دائما بالخوف لانى كنت أدرك ان التآمر ضد الحكومة أمر خطير . ولشد ما كنت أخشى أن يساق مينو الى الاشتراك فى عمل من أعمال العنف . وكنت بجهلى لا أستطيع أن أفرق بين فكرة التآمر وبين الاسلحة والدم . ولا يفوتنى فى هذا الصدد أن أروى حادثا يظهر الى أى مدى بلغ احساسى رغم غموضه بما يفرضه على واجبى من التدخل لابعاد المخاطر التى تتهدد مينو ــ فقد كنت أعلم ان حمل السلاح أمر غير مشروع قانونا وان المرء قد يحكم عليه بالسجن لا لسبب الا لحمله سلاحا بدون ترخيص . ومن الناحية الاخرى فما أيسر أن يفقد المرء صوابه فى بعض الأحيان . وطالما كان استخدام الاسلحة سببا فى تعريضُ الناس للشبهات فى حين انهم لولا ذلك لأعفوا من العقاب . فلهذه الاسباب مجتمعة خطر لى أن المسدس الذى لشد ما كان مينو فخورا باقتنائه لم يكن فقط غير ضرورى على الاطلاق بل كان فى وجوده ، خطر محقق اذ انه قد ترغمه الظروف على استخدامه كما انه قد يضبط معه . ولكننى لم أجرؤ على مصارحته بمخاوفى لانى تحققت من ان ذلك لن يأتى بنتيجة. فاستقر رأيى فى النهاية على العمل فى الخفاء . وكان قد شرح لى فى احدى المناسبات كيفية استخدامه . وذات يوم بينما كان نائما اخرجت المسدس من جيب سرواله ثم جذبت المخزن وأبعدت منه الرصاص. وبعد ذلك أغلقته مرة أخرى ثم أعدته الى مكانه فى جيبه . واخفيت الرصاص فى أحد الادراج تحت ثيابى الداخلية . فعلت ذلك كله فى لحظة واحدة ثم عدت لأنام بجانبه . وبعد مضى يومين وضعت الرصاص فى حقيبتى وذهبت لألقى به فى نهر التيبر .

وذات يوم جاء آستاريتا لزيارتى . وكنت قد أوشكت على نسيانه . فقد اعتقدت اننى أديت واجبى فيما يخص موضوع الخادمة ولم اشأ أن افكر فيه بعد ذلك . اذ أبلغنى آستاريتا أن القس كان قد سلم « البدارة » الى الشرطة وان صاحبة «البدارة» بناء على نصيحة رجال الشرطة انفسهم كانت قد سحبت اتهامها وأخلى سبيل الخادمة دون أن تشوبها شائبة. ولا يفوتنى ان اعترف بأنى سعدت بهذه الاخبار وخاصة لانها بددت احساسى بالشؤم الذى ظل يلازمنى منذ اعترافى الاخير . ولم أعد أفكر فى الخادمة التىأخلى سبيلها أخيرا بل انحصر تفكيرى فى مينو وقلت لنفسى انه لم يعد

الآن ما أخشاه بالنسبة لـكلينا بعد زوال الخطر من الوشاية التى كنت أتوقعها . ولم أتمالك نفسى وقد استخفتنى الفرحة من معانقة آستاريتا .

فسألنى قائلا وقد ارتسم على وجهه تعبير ينبىء بالشك : «أكنت متحمسة الى هذا الحد للافراج عن تلك المرأة اذن ؟ » .

فكذبته قائلة : « لعل ذلك يبدو غريبا فى نظرك . فأنت ترسـل الـكثيرين من الابرياء الى السجن كل يوم دون أن يخالجك شىء من تأنيب الضمير . أما أنا فلشد ما تعذبت لذلك » .

فتمتم قائلا : « انى لا أرسل أحدا الى السجن. بل أؤدى واجبى فحسب » .

وسألته قائلة : « هل رأيت القس شخصيا ؟ » .

ــ « كلا ، لم أره . بل اتصلت تليفونيا فأبلغونى ان « البدأرة » كان قد سـلمها اليهم فى الواقع أحد القساوسـة مع التزامه بسر الاعتراف فقد أعطاه اياها أحد المعترفين . وعندئذ أوصيت بالافراج عن الخادمة . »

فظللت غارقة فى تأملاتى دون أن أدرى لذلك سببا .

ثم سألته قائلة : « أتحبنى حقا ؟ »

فعراه الاضطراب لهذا السؤال فى الحال ثم عانقنى وهو يتلعثم قائلا : « لماذا تسألينني ؟ كان ينبغى الآن أن تعلمى » .

وأراد أن يقبلنى ولـكننى تحاشيته قائلة : « أردت أن أعلم لأنى اتساءل عما اذا كنت ستقف الى جانبى دائما ــ كلما طلبت اليـك ذلك ــ كما فعلت فى هذه المرة » .

فأجابنى قائلا وهو يرتجف من أعلى رأسه الى اخمص قدميه : « دائما » ثم قال رافعا وجهه نحوى : « ولـكنك سترفقين بى ؟ »

وكنت الآن قد قررت بعد عودة مينو أن أقطع كل صلة تربطنى بآستاريتا . فقد كان يختلف عن عشاقى العابرين المألوفين . فمع اننى كنت لا أحبه بل أحس نحوه أحيانا بكراهية أكيدة بالفعل فقد شعرت ربما لهذا السبب نفسه بأن فى استسلامى له خيانة لمينو . وراودتنى الرغبة فى مصارحته بالحقيقة وذلك بقولى : « كلا ، لن أترفق بك » . ولـكننى عدلت عن ذلك فجأة وكبحت جماح نفسى. فتذكرت ما كان يملـكه من سلطة واسعة كما تذكرت ان جياكومو قد يقبض عليه فى أية لحظة وانه ليس من الحكمة أن أغضبه اذا كنت أريده أن يتدخل للافراج عنه. لذا فقد استسلمت قائلة فى همس :

« نعم سأترفق بك » .

فألح قائلا وقد واتته الجراة : « أخبرينى ، هل تحبيننى قليلا؟»

فقلت فى صراحة : « كلا ، انى لا أحبك . وأنت تعلم ذلك — فقد سبق أن قلته لك مرارا » .

— « ألا تحبينني يوما ما ؟ »

— « لا أعتقد ذلك . »

— « ولكن لماذا ؟ »

— « لا سبب هناك . »

— « أتحبين شخصا آخر ؟ »

— « هذا لا يمكن أن يهمك فى شيء . »

فقال فى يأس وهو ينظر الى بعينيه الصفراوين : « ولـكننى فى حاجة الى حبك . فلم لا تحبيننى ولو قليلا ؟ »

ويومئذ سمحت له بالبقاء معى حتى ساعة متأخرة من الليل. فلم يكن ثمة سبيل الى عزائه بسبب عجزى عن حبه كما بدا لى انه لم يقتنع قط بصحة ما كنت اقول . فقد احتج قائلا : « ولـكننى لست اسوأ من غـيرى . فلم لا تسـتطيعين أن تحبينى بدلا من شخص آخر ؟ » ولشد ما أسفت له فى الحقيقة . ولما كان مصرا على سؤالي عن طبيعة مشاعرى نحوه وعلى تلمس بعض الوقود لامالة فى اجاباتى فقد كدت أستجيب للاغراء بكذبه حتى ابعث فى نفسه فقط ذلك الوهم الذى كان يحن اليه . فقد لاحظت فى ذلك المساء انه كان اكثر حزنا ونفورا من مألوف عادته وكأنه كان يريد بحركاته ومواقفه أن يوقظ عندى ظاهريا ذلك الحب الذى حـرمه منه قلبى . وانى أذكر انه فى لحظة معينة طلب الى أن أجلس عارية فى أحد المتكآت . ثم جثا أمامى متوسدا حجرى وضاغطا بوجهه فى قوة على بطنى حيث ظل بعض الوقت على تلك الصورة بلا حراك . وفى تلك الاثناء كان على أن أربت بيدى على رأسه مرارا وتكرارا بلمسـات خفيفة مستمرة . ولم تكن هذه أول مرة يرغمنى فيها على اتيان حركات شبيهة بحركات الحب . ولـكنه كان يبدو يومئذ فى حال اكثر يأسا من مألوف عادته . راح يضغط برأسه فى عنف الى داخل حجرى وكأنه يريد أن يلجنى بكيانه كله لتحتويه أحشائى ولم يفتأ يتأوه من وقت لآخر . ولم يعد يبدو فى تلك الاوقات عشيقا بل طفلا ينشد الدفء والظلام فى حجر أمه . وخطر لى ان كثيرا من الرجال كانوا يؤثرون الا يولدوا قط وان حركته تلك كانت تعبر بطريقة لا

واعية عن ذلك الحنين الغامض للعودة من جديد الى حيث تحتويه تلك الاحشاء المظلمة التى لفظته فى ألم الى الضوء .

وفى تلك الليلة ظل جاثيا مدة طويلة حتى انتابنى النعاس واستغرقت فى النوم وقد ارتمى رأسي الى الخلف على ظهر المقعد بينما بقيت يدى على رأسه . ولست أدرى كم طال النوم بى ولكننى فى لحظة معينة استيقظت من نومى ولمحت آستاريتا الذى لم يعد جاثيا عند قدمى بل جالسا فى مقعد أمامى وقد ارتدى ملابسه حيث ظل يحملق فى بعينيه الصفراوين الحزينتين . ولكن ربما كان ذلك حلما فحسب أو نوعا من الهذيان . والحقيقة اننى صحوت فجأة على صورة لا شبهة فيها فوجدت أن آستاريتا قد رحل تاركا فى حجرى حيث كان يوسد راسه ذلك المبلغ المعهود .

ومضى ما يقرب من اسبوعين كانا من أسعد أيام حياتي . فقد تعودت أن ارى مينو كل يوم تقريبا . ومع انه لم يطرأ تغير ما على علاقتنا فقد كنت قانعة بتلك العادة التى اكتسبناها والتى بدت فى النهاية أساسا مشتركا بيننا . وكان من المسلم به فى صمت بيننا انه لا يحبنى ولن يحبنى وانه على اية حال لم يفتأ يفضل العفة على الحب . كما كان من المسلم به بنفس القدر اننى أحبه واننى سأظل دائما أحبه رغم عدم اكتراثه بى وانني على أية حال كنت افضل حبا كهذا مع ما فيه من نقص وذبذبة على اى حب آخر . فقد كنت أختلف فى طبعى عن آستاريتا ـ ذلك لاننى وقد سلمت بحرمانى من حب من أهوى فان متعتى بحبى له كانت تبلغ مع ذلك حدا بعيدا . ولعل بصيصا من الامل كان يراودنى فى قرارة قلبى بأن أحظى بحبه يوما ما نتيجة لاذعاني وحبى وصبرى . ولكننى كنت لا أفعل شيئا لتقوية ذلك الامل الذى كان يضفى على دغدغته الكارهة المترددة أكثر من اى شىء آخر مذاق التابل المر .

ولكننى بالطبع بذلت كل ما فى وسعى لأدخل حياته دون أن أفرض نفسي عليها . ولما كنت لا أستطيع ذلك عن طريق الباب الرئيسى فقد استخدمت ذكائى فى محاولة الدخول عن طريق الباب الخلفى . فعلى الرغم من كراهيته الواضحة التىأومن بصدقها للجنس البشرى فان ثمة تناقضا غريبا كان يدفعه بقوة لا تقاوم الى الدعوة والعمل لنصرة ما كان يعتقد ان فيه خير البشرية . وكانت تلك القوة الدافعة رغم اخلاصها لا تفتأ تعوقها بلا شك فى أغلب الاحيان نوبات مفاجئة من الاسف والنفور الساخر المتهكم . فقد بدا حينذاك

متحمسا لتعليمى كما كان يشير اليه فى تهكم وسخرية . ولما كنت احاول ربطه بى كما سبق أن قلت فقد حبذت فيـــه ذلك الاتجاه . ولـكن التجربة ما لبثت أن انتهت فى الحال تقريبا على صورة أعتقد انها جديرة بالذكر . فقد ظل يأتى لزيارتى عدة أمسيات متتالية حاملا معه بعض كتبه . وبعد أن شرح الموضوع لى باختصار أخذ يقرأ فقرة هنا وفقرة هناك . وكانت قراءته جيدة يتخلل صوته فيهـا عدد كبير متنوع من نغمات التعبير طبقا لما تتطلبه المادة التى يقرؤها. كما كان يحدوه حماس احمر له وجهه وأضفى على ملامحه حيوية غير مألوفة . ولـكننى رغم ما بذلته من جهد جهيد لم أستطع أن أفهم ما كان يقرؤه . وما لبثت أن انصرفت عن الاصغاء اليه واكتفيت بمراقبة شتى التعبيرات التى كانت تمرق عبر وجهه أثناء قراءته وكنت أجد فى ذلك متعة لا يدركها الملل قط . ولشد ما كان يستسلم لمشاعره أثناء تلك القراءات بلا خوف أو سخرية كمن يعيش فى دنياه ولم يعد يساوره الخوف من اظهار صدقه واخلاصه . وقد لفتت نظرى تلك الحقيقة لاننى كنت لا أفتأ أعتقد حتى تلك اللحظة ان الحب لا الادب هو اكثر الظروف ملاءمة لازدهار الروح البشرية . ومن الواضح ان العكس كان صحيحا فى حالة مينو . فلا شك اننى لم أر على وجهه قط ولا حتى فى لحظات حبه النادرة مارأيته حينذاك من حماس وصدق وهو يقرأ لى فقرات لـكتابه المحبوبين رافعا صوته فى نبرات جوفاء على صورة غريبة أو خافضا اياه الى مستوى الحوار . وفى مثل هذه الاوقات كان يزايله تماما مظهره المسرحى الهزلى المتكلف الذى لم يكن يفارقه قط حتى وهو فى أحرج المواقف مما يوحى الى من يراه بأنه لا يفتأ يمثل دورا ســـطحيا مقصودا . بل كنت فى كثير من الاحيـــان أرى عينيه وقد أغرورقتا بالدموع . ثم اذا به يغلق الـكتاب ويسألنى فجأة قائلا : « هل اعجبك ؟ »

وكنت أجيبه عادة بالايجاب دون تحديد السبب وهو أمر ما كان فى استطاعتى أن أفعله لاننى كما قلت قد أقلعت منذ البداية عن كل محاولة لفهم معنى ذلك الـكلام الغامض . ولـكنه ذات يوم ألح على قائلا : « أخبرينى لماذا اعجبك . فسرى لى ذلك » .

فأجبته قائلة بعد لحظة من التردد : « الحقيقة اننى لا استطيع تفسير ذلك لاننى لم افهم كلمة واحدة » .

ـ « ولم لم تخبرينى بذلك ؟ »

ـ « انى لم أفهم شيئا ـ ما خلا النذر اليسير ـ مما كنت تقرأ »

ـ « وتتركينني أواصل القراءة دون أن تنذريني ! »
ـ « رأيتك مستمتعا بالقراءة فلم أشأ أن أفسد عليك متعتك ـ ولكنني على أية حال لم أمل قط ـ فلشد ما تسرني مراقبتك أثناء القراءة » .

فوثب واقفا على قدميه وقد استبد به الغضب قائلا : « يا للشيطان ! فأنت حمقاء بلهاء . وها أنذا أبدد أنفاسي ـ مع بلهاء مثلك ! » ثم بدا وكأنه يهم بأن يقذفني بالكتاب ولكنه كبح جماح نفسه فى الوقت المناسب وظل يسبني على تلك الصورة فترة طويلة. فتركته ينفس عن غضبه بعض الوقت ثم تكلمت قائلة : « أنت تريد أن تعلمني ولكن الشرط الاول لتعليمى هو أن أتخلص من ضرورة كسب القوت بالطريقة التى أمارسها ـ فليس ثمة ما يدعونى مطلقا الى قراءة الشعر أو تأملات حول الاخلاق لكى أجتذب الرجال . بل ربما كنت أجهل القراءة والكتابة تماما ولكننى مع ذلك أتقاضى أجرى » .
فقال متهكما : « انت تبغين أن يكون لك بيت جميل وزوج وأطفال وثياب وسيارة . أليس كذلك ؟ ولكن المشكلة هى ان النساء جميعا لا يقرأن ولو كن من طبقة أسرة لوبيانكو ـ لاسباب مختلفة عما تبدين ولكنها لا تقل عنها وجاهة من وجهة نظرهن » .

فقلت فى تبرم : « لست أدرى ماذا أبغى . ولكن هذه الكتب لا تلائم ظروف حياتى . كمن يعطى سائلا قبعة باهظة الثمن ثم يتوقع منه أن يرتديها وهو فى أسماله البالية المألوفة » .
فقال : « ربما . ولكننى لن أقرأ لك بعد ذلك سطرا واحدا » .

وما ذكرت ذلك النزاع التافه الا لأنه يمثل بالضبط أسلوبه فى التفكير والسلوك . وانى لأشك فيما لو كان سيواصل جهوده لتعليمى حتى لو لم أعترف له بعجزى عن فهمه . ولا يرجع اعتقادى هذا الى تقلبه فحسب بل الى عجزه عن المثابرة على أى عمل يتطلب حماسا مخلصا مستمرا . ولعل ذلك العجز يرجع فى أصله الى ناحية جسمانية . كما ادركت ان ذلك الطابع الهزلى الذى كانت تتسم به الفاظه كثيرا ما كان يطابق فى الواقع حالته النفسية رغم انه لم يتحدث عنها قط . فكنت تراه يتحمس لأى هدف ويظل ينظر اليه كشىء محسوس يمكن الوصول اليه ما دامت جذوة حماسه لم تنطفىء . أما اذا خمدت وهو ما يحدث فجاة فانه لا يشعر بشىء سوى الملل وينتابه قبل كل شىء احساس بالسخف

المطلق . وعندئذ اما أن يسلم نفسه لنوع كئيب متبلد من اللامبالاة واما أن يسلك سلوكا تقليديا سطحيا كما لو كانت جذوة حماسه لم تنطفىء قط ـ وباختصار فانه يتظاهر . ومن المتعذر على الى حد ما أن أفسر ما كان يحدث له فى مثل هذه الازمات ـ فلعله كان يحس بتوقف مباغت فى حيويته وكأن حرارة دمه قد بردت فجأة مخلفة فى ذهنه فراغا مجدبا . كان انقطاعا فوريا تاما لا سبيل الى التنبؤ به ولا يمكن مقارنته الا بانقطاع تيار الكهرباء مما يتسبب عنه انتشار الظلمة المفاجئة فى منزل كان قبل ذلك بلحظة واحدة مضاء على صورة بهيجة أو بالمحرك الذى تنقطع عنه فجأة قوة الكهرباء فتتوقف فيه كل عجلة صغيرة عن الحركة وتظل ساكنة . وكانت حالات الحماس والفتور التى كثيرا ما كانت تنتابه فى تعاقب هى التى كشفت لى لاول مرة عن حركة المد والجزر المستمرة فى أعمق قواه الحيوية . ولكن لشد ما انكشفت لى تلك الظاهرة فى النهاية عن طريق حادث غريب لم اعلق عليه حينذاك أهمية ما . غير انه بدا لى فيما بعد عظيم الاهمية .

فقد سألنى قائلا ذات يوم على غير انتظار مطلقا : « اتبغين ان تفعلى شيئا من اجلنا ؟ »

ـ « من أجل من ؟ »

ـ « من أجل جماعتنا ، كأن تساعديننا فى توزيع منشوراتنا مثلا ؟» وكنت لا أفتأ أتحين الفرص لأقربه منى وأقوى علاقتى به .

فاجبت قائلة فى اخلاص : « بالطبع ، مرنى بما يجب أن أفعل وسأفعله » .

ـ « ألست خائفة ؟ »

ـ « ولماذا ؟ اذا كنت أنت تفعل ذلك . »

فقال : « نعم . ولكننى يجب أن أوضح لك أولا ما هو الغرض من كل هذا . فعليك أولا أن تتفهمى الافكار والمبادىء التى من أجلها تعرضين نفسك لمثل هذا الخطر » .

ـ « اذن فلتشرحها لى . »

ـ « ولكننى لا أجد منك اهتماما . »

ـ « لماذا ؟ فان اهتمامى أمر لا شك فيه ـ كما أن كل ما تفعله يهمنى ولو لم يكن لذلك من سبب سوى انك انت الذى تفعله . »

نظر الى فاذا بعينيه تلمعان فجأة واذا بوجنتيه تحمران على صورة غير متوقعة مطلقا . ثم قال فى عجلة : « حسنا . لقد تأخر

بنا الوقت اليوم ـ ولـكننى غدا سأشرح لك كل شىء بنفسى ما دمت تسأمين الـكتب . ولـكن حذار فان الامر يطول شرحه وعليك أن تنصتى وتتابعينى حتى ولو خيل اليك أحيانا انك لا تفهميننى » .

فقلت : « سأحاول أن أفهم » .

وأجابنى قائلا وكأنه يحدث نفسه : « ينبغى عليك أن تفعلى » . ثم تركنى وانصرف .

وفى اليوم التالى ظللت أنتظره ولـكنه لم يأت . ثم جاء بعد يومين وما ان دخل غرفتى حتى جلس على المتكأ عند أسفل الفراش دون أن ينبس بكلمة .

فقلت مبتهجة : « حسنا . انى على استعداد . فها أنذى أنصت اليك » .

وكنت قد لاحظت تعبيره المكتئب وعينيـــه الحزينتين ومظهره المتعب المتخاذل ولـكننى لم أشأ أن أعلق عليه بكلمة .

وأخيرا قال : « لا يجدى انصاتك لانك لن تسمعى شيئا » .

ـ « ولمـــاذا ؟ »

ـ « لهذا . »

فاحتججت قائلة : « والآن أصدقنى القول ـ انك تظن اننى من الغباوة والجهالة بحيث لا أستطيع أن أفهم بعض الامور . أليس كذلك ؟ شكرا ! » .

فقال بلهجة جادة : « كلا ، بل أنت مخطئة » .

ـ « اذن فلماذا ؟ »

وظللنا بعض الوقت على تلك الصورة فلم أفتأ ألح فى معرفة السبب ولـكنه رفض أن يدلى بشىء . وأخيرا قال : « أتبغين حقـــا أن تعرفى الســـبب ؟ لاننى الآن لا أعرف أنا نفسى كيف أعبر لكِ عن هذه الافكار » .

ـ « لم لا ؟ ـ ما دمت تفكر فيها طوال الوقت ! »

ـ « لا شك اننى افكر فيها طوال الوقت . انى أعلم ذلك . ولكن هذه الافكار صارت منذ أمس مستغلقة على ادراكى . ولا يعلم الا الله متى يزايلنى هذا الاحساس . فانى أصـــارحك بأننى لا أفهم شيئا . »

ـ « انك لا تعنى ما تقول ! »

فقال : « حاولى أن تفهمى . فمنذ يومين عندما اقترحت عليك أن تعملى من أجلنا كنت على ثقة تامة بأننى لو شرحت لك مبادئنا

لأنجزت تلك المهمة فى قوة ووضوح واقناع ولتفهمتها تماما . أما اليوم فربما جرى لسانى وشفتاى بسلسلة من الالفاظ ولكن على صورة آلية للغاية دون أن أسهم فيها بشىء » . ثم ردد كلامه مشددا على كل مقطع ينطق به قائلا : « فأنا اليوم لا أفهم شيئا » .

ــ « لا تفهم شيئا ؟ »

ــ « نعم . لا أفهم شيئا . فقد تحولت الافكار والمبادىء والحقائق والذكريات والمعتقدات بل تحول كل شىء الى كتلة ــ كتلة تملأ رأسى ثم نقر على جبهته بأصابعه قائلا : « رأسى بأكمله ــ وهى تنفرنى كما لو كانت برازا » .

فنظرت اليه فى ترقب حائر . وبدا لى ان رجفة من السخط قد سرت فى بدنه ازاء تلك النظرة . ثم صاح قائلا : « حاولى أن تفهمى فان كل شىء يبدو اليوم مستغلقا على ادراكى . كل شىء يبدو سخيفا . ليس هذا مقصورا على الافكار فحسب بل كل ما يكتب أو يقال أو يعتقد . فهل تعرفين مثلا صلاة الرب ؟ » .

ــ « نعم .. »

ــ « اذن فلتتلها .. »

فبدأت أتلو الصلاة قائلة ــ « أبانا الذى فى السماوات . »

ولكنه قاطعنى قائلا ــ « يكفى هذا . والان فكرى فقط كم من الطرق تليت بها هذه الصلاة على مدى القرون . وكم صاحبتها من العواطف المختلفة ! انى لا أفهمها مطلقا بأية صورة من الصور . اذ يمكنك تلاوتها من آخرها الى أولها ولن يغير ذلك من الأمر شيئا بالنسبة لى»

ولزم الصمت لحظة . ثم استرسل قائلا ــ « ولكن هذا التأثير لا تحدثه فى نفسى الالفاظ فحسب بل الاشياء كذلك ــ والناس . فها أنت ذى جالسة بجانبى على ذراع هذا المقعد ولعلك تعتقدين اننى أستطيع أن أراك ؟ ولكننى لا أراك لاننى لا أستطيع أن افهمك ــ بل ربما لمستك ولكننى مع ذلك لا أفهمك ــ بل انى سألمسك فى الواقع ــ » واذا به وهو يتكلم يجذب عباءتى المنزلية كاشفا عن ثديى وكأن مسا من الجنون قد أصابه فجأة . ثم عاد يقول فى غضب قابضا على ثديى بقوة على صورة لم استطع معهاان اكتم صرخة الم صغيرة ــ « فها أنذا المس ثديك . وأستشعر شكله ودفأه واستدارته وأرى لونه ورسمه . ولكننى لا افهم ما هو . فانى احدث نفسى قائلا ــ « ها هو ذا شىء مستدير دافىء لين أبيض منتفخ يتوسطه بروز صغير مستدير قاتم اللون ــ يدر اللبن وعند دغدغته يورث اللذة .

ولكننى لا أفهم شيئا . فانى أقول لنفسى انه جميل . وينبغى أن يملأنى بالرغبة غير أننى مع ذلك لا أفهم شيئا . والان أترين ماذا أعنى ؟ » ثم أطلق سراحى فى الحال وما لبث أن قال فى تأمل بعد لحظة ـ « ولعل ذلك القصور عن الفهم هو الذى يضفى القسوة على الكثيرين من الناس . فهم يحاولون الاتصال بالحقيقة عن طريق ايلام الغير . »

وساد الصمت بعد ذلك . ثم قلت ـ « اذا كانت هذه هى الحقيقة فكيف تدبر أمرك عندما يفرض عليك أن تأتى أعمالا معينة . »

ـ « مثل ماذا ؟ »

ـ « لست أدرى ـ فها أنت تكلفنى بتوزيع منشوراتكم ـ وتزعم أنك تكتبها بنفسك . ولكنك ان كنت لا تؤمن بها فكيف يمكنك كتابتها وتوزيعها ؟ »

فانفجر فى نوبة من الضحك الساخر المتهكم قائلا ـ « أتصرف وكأنى أومن بها فعلا . »

ـ « ولكن هذا محال . »

ـ « لماذا ؟ فهكذا يفعل جميع الناس تقريبا الا فى حالات معينة هى الاكل والشرب والنوم والمضاجعة . فجميع الناس تقريبا يأتون أعمالا وكأنهم يؤمنون بها . ألم تلاحظى ذلك ؟ »

ثم ضحك فى عصبية .

وأجبته قائلة ـ «كلا . لم الاحظ ذلك . »

فرد قائلا بلهجة مسيئة تقريبا ـ « انك لم تلاحظى ذلك لانك تقنعين بالاكل والشرب والنوم والمضاجعة كلما احسست بالرغبة فى ذلك . وانى أعتقد أن هذه الأمور لا ضرورة للتظاهر فيها . » وفجاة ضحك ثم صفعنى بقوة على فخذى وضمنى كعادته بين ذراعيه قائلا وهو يهصرنى ويهزنى ـ « ألا تعلمين أنه عالم « كما لو » ؟ ألا تعلمين أن الجميع ـ ابتداء من الملك حتى أحقر شحاذ يتصرفون « كما لو » ـ انه عالم « كما لو ـ كما لو ـ كما لو »

وتركته يفعل ما يشاء لاننى كنت أعلم أنه يحسن بى فى مثل هذه الاوقات ألا أظهر استيائى او احتج على سلوكه بل أنتظر حتى يزايله سخطه وتبرمه . ولكننى أخيرا قلت له فى ثبات ـ « انى أحبك ـ هذا هو كل ما أعرفه . وحسبى ذلك . »

فقال ببساطة وقد عاوده الهدوء فجأة ـ « انك على حق . »وانتهى المساء بالطريقة المعتادة دون ان نعود الى الحديث فى السياسة او الى

عجزه عن مناقشة الموضوع ·
وعندما خلوت الى نفسى مرة أخرى انتهيت بعد تفكير طويل الى أن الامور ربما كانت كما صورها · ولكن الارجح كثيرا أنه أبى أن يتحدث الى فى السياسة لانه اعتقد أننى ربما عجزت عن فهم ما يقول أو لانه خشى أن أعرضه للشبهات بسبب ما قد أرتكبه من اهمال · ولم يخطر ببالى أنه يكذب · فقد علمتنى خبرتى أن كل فرد يمر فى حياته يوم يبدو له فيه العالم وقد انهار حطاما او كما قال يقصر فيه عن فهم كل شيء حتى صلاة الرب · كما أن ذلك الاحساس نفسه تقريبا بالملل والنفور والكآبة كان يخالجنى أنا أيضا عندما ينتابنى المرض أو السخط لاى سبب من الاسباب · فمن الواضح أن ثمة دافعا اخر بلا شك دعاه الى الامتناع عن دعوتى لمشاركته ذلك الجانب الخفى من حياته الذى لشد ما أحيط بالكتمان — ذلك الدافع كما سبق أن قلت هو عدم الثقة بذكائى أو بحسن تقديرى للامور · ولم أدرك خطئى الا بعد فوات الاوان فان مثل هذه الحالات النفسية المرضية كانت عنده ذات خطورة خاصة بسبب شبابه المفتقر الى الخبرة أو بسبب ضعف شخصيته ·
ولكننى اعتقدت حينذاك أن الحكمة تملى على أن أنسحب وألا أزعجه بفضولى · وذلك هو ما فعلته ·

الفصل الثامن

لست أدرى السبب فى ذلك ولكننى ما زلت أذكر جيدا كل ما حدث حتى حالة الطقس حينذاك ٠ كان شهر فبراير قد مضى ببرده وأمطاره وظهرت مع حلول شهر مارس تباشير الجو المعتدل ٠ فكانت السماء بأسرها تغطيها شبكة كثيفة من السحب البيضاء الرقيقة التى تشبه نسيج العنكبوت والتى ما ان يواجهها المرء فى الطريق بعد خروجه من ظلام المنزل حتى تبهر بصره ٠ وكان الهواء لطيفا معتدلا ولكنه ما زال خدرا من أثر عنف الشتاء وقسوته ٠ سرت فى ذلك الضوء الرقيق الناعس الذى لم تكتمل يقظته بعد تحدونى لذة مذهولة بينما أبطىء السير مغمضة عينى من وقت لاخر أو أقف ساكنة وقد عرتنى الدهشة لاحملق فى أتفه الاشياء : فى قط راح يلعق نفسه على احدى عتبات الدور وقد اختلط بياضه بسواده ٠ أو فى غصن كان يتدلى من احدى أشجار الدفل وقد أذوته الريح ولكنه مع ذلك ربما صار مزهرا او فى ذؤابة من الكلأ الاخضر كانت تنبت بين بلاط الافريز ٠ ولقد امتلأت نفسى باحساس عميق بالطمأنينة والثقة عندما رأيت الطحلب على أثر أمطار الشهور السابقة وقد تناثر فى الفجوات هنا وهناك عند أسفل الدور فقد خطر لى أنه اذا أمكن أن يترعرع مثل ذلك المخمل الزمردى الجميل فى تلك التربة الهزيلة المتناثرة بين حزازات الصخر والزلط فان حياتى التى لم تتعمق جذورها مثلما تعمقت جذور الطحلب والتى يكفى أقل غذاء لنموها وازدهارها والتى لم تكن فى الحقيقة سوى نوع من ذلك النبت الذى ينمو عند أسفل المبانى ، هذه الحياة كان من المحتمل الى حد ما استمرارها وازدهارها ٠ فقد كنت مقتنعة بأن كل ما مررت به من تجارب بغيضة فى الماضى القريب قد انتهى الى الابد ٠ فانى لن أرى سونزونيو ولن أسمع شيئا عن جريمته مرة أخرى ٠ وأنه يمكننى من الان فصاعدا أن أستمتع بعلاقتى بمينو دون أن يزعجنى شىء ٠ وبينما كانت تتراءى لى تلك الخواطر بدا لى أننى أذوق طعم الحياة الحقيقى لاول مرة تذوقا تاما فاذا بها خليط من السأم المخفف والفرصة والامل ٠

بل بدأت أرى أمامى بوادر فرصة لتغيير أسلوب حياتى . فان حبى

لمينوكان يجعلنى أشعر فى قرارة قلبى بالفتور نحو غيره من الرجال . ولذا فانى لم أعد احس فى علاقاتى العارضة بذلك الدافع الفضولى الشهوانى . ولكننى كنت أعتقد أيضا أن سبل الحياة كلها تتساوى وانه ليس مما يستحق العناء أن يبذل المرء جهداً كبيرا لتغيير أسلوب حياته . وكنت قد قررت ألا أفعل ذلك الا اذا اكتسبت عادات وعواطف واهتمامات جديدة وأصبحت فتاة تختلف تماما عما كنت عليه حتى ذلك الوقت على أن يتم ذلك التحول دون صدمة أو انقطاع مفاجىء بل من تأثير ظروف لا دخل لارادتى فيها . وكنت لا أرى وسيلة أخرى لتغيير اسلوب حياتى . كما كنت حينذاك لا أطمح مطلقا فى تحقيق أى نجاح أو تقدم مادى . وكنت لا اعتقد اننى بتغيير أسلوب حياتى أستطيع تحسين ظروفى فى أية صورة من الصور .

وذات يوم صارحت مينو بهذه الاراء . فأصغى الى بانتباه ثم قال — « أعتقد انك تناقضين نفسك . اليس كذلك ؟ الا تقولين دائما انك تودين لو صرت غنية ولو كان لك منزل جميل وزوج وأطفال ؟ ولا شــك مطلقا فى انه ينبغى أن يكون لك ما تبغين . وربمــا تحقق لك ذلك يوما ما — ولكنك لو ظللت تفكرين بهذه الطريقة فلن تحصلى على شىء من هذا . »

فأجبته قائلة — « اننى لم أقل مطلقا أننى أبغى هذه الاشياء . بل كنت أتمنى لو كانت لى — اى انه لو اتيحــت لى حرية الاختيـــار قبل مولدى لما اخترت قطعا ان أكون كما أنا . ولكننى ولدت فى هذا المنزل ومع هذه الام وفى هذه الظروف . فأنا ما أنا رغم كل شىء . »

— « ماذا تعنين بذلك ؟ »

— « أعنى أن رغبتى فى أن أكون شخصا آخر تبدو سخيفة فى نظرى . فأنا لا أحب أن أكون شخصــا آخر الا اذا أمكننى فى نفس الوقت ان أظل محافظة على ذاتى . أى اذا أمكننى حقا أن أبتهج لما يحدث من تغيير . أما أن أصير شخصا آخر لمجرد التغيير فحسب فذلك امــر لا يستحق العناء . »

فهمس قائلا — « بل انه يستحق العناء دائما ان لم يكن من اجلك فمن أجل الآخرين »

فاسترسلت فى حديثى قائلة دون أن التفت الى مقاطعته — « كما أن الأهمية العظمى للحقائق . الا تعتقد انه كان فى امكانى العثور على عشيق موسر مثلما فعلت جيزيلا ؟ أو أن اتزوج ؟ فان كنت لم أفعل فان ذلك معناه اننى فى قرارة قلبى لم اشأ ذلك على الرغم من كل ما اقول »

فهتف قائلا وهو يعانقنى معاتبا ـ « ولكنى سأتزوجك . فأنا غنى ـ وعندما تموت جدتى وهو أمر لن يطول انتظاره الان فسوف أرث عنها أفدنة من الارض فضلا عن فيللا فى الريف وشقة فى المدينة وسوف نؤثث المنزل على صورة لائقة حيث تدعين سيدات الحى الى «لقاءاتك المنزلية » . كما ستكون لدينا طاهية وخادمة للمائدة وعربة يجرها حصان واحد أو سيارة . بل لعلنا نكتشف ذات يوم بمجهود بسيط أننا ننحدر من أصل نبيل فنحصل على لقب كونت أو ماركيز »

فقلت وأنا أدفعه بعيدا ـ « لا يمكننى بحال أن اتحدث اليك حديثا جادا . فانك تجعل من كل شيء مادة للمزاح »

وذات مساء ذهبت الى السينما فى صحبة مينو . وعند عودتنا ركبنا تراما مزدحما . فقد كان من المتفق عليه أن يعود مينو معى الى المنزل وان نتناول العشاء معا فى حانة بالقرب من اسوار المدينة . فتناول مينو البطاقتين وشق طريقه وسط الزحام الذى كان يسد مدخل الترام . وحاولت أن أكون على مقربة منه ولكنه اختفى عن بصرى عندما تمايل الزحام الى الامام . وبينما كنت أبحث عنه أثناء وقوفى مسحوقة بجانب أحد المقاعد اذا بشخص يلمس يدى . وما ان خفضت بصرى حتى رأيت سونزونيو جالسا هناك أسفل عينى مباشرة .

فشهقت واحسست بوجهى يمتقع لونه ويتغير تعبيره . كان يتطلع الى بنظرته المعهودة التى لا تحتمل . ثم نهض قليلا من مقعده وتحدث الى من بين أسنانه المطبقة قائلا :

ـ « أتريدين الجلوس ؟ »

فتلعثمت قائلة ـ « شكرا لك . ولكنى سأغادر الترام بعد قليل »

ـ « اجلسى » .

فرددت كلامى قائلة ـ « شكرا لك . » ثم جلست . ولو أننى لم أفعل ذلك لكان من المحتمل أن يغمى على .

ظل واقفا بجانبى وكأنه يحرسنى وقد أمسك بكلتا يديه ظهر مقعدى والمقعد الامامى . وكان كما هو تماما لم يطرأ عليه تغير ما . فكان لا يزال يرتدى نفس المعطف الواقى من المطر يحيط بخصره حزام محكم وفكه لا يزال يختلج بنفس الطريقة الآلية . فأغمضت عينى وحاولت مؤقتا أن أنسق أفكارى . حقا هكذا كان يبدو دائما . ولكن خيل لى عندئذ اننى أرى فى عينيه تعبيرا اشد قسوة وصرامة . وما ان تذكرت اعترافى حتى خطر لى انه لو كان القس قد أفشى السر كما

اعتقدت أنه لابد فاعل ونمى ذلك الى علم سونزونيو لما كانت لحياتى قيمة تذكر .

لم يخفنى ذلك الخاطر . ولكنه لشد ما بث الرعب فى قلبى وهو واقف هناك فى تصلب بجانبى - أو الاحرى انه كان يسحرنى ويسيطر على . وخيل لى أننى لا استطيع أن أرفض له طلبا وان ثمة رباطا اقوى بكثير مما يربطنى بمينو كان يشدنى اليه مع أنه لم يكن حبا . ولاريب أنه هو أيضا كان يشعر بذلك شعورا غريزيا . فقد كان موقفه منى دائما موقف السيطرة والسيادة . ثم ما لبث ان قال - « فلنذهب الى شقتك » .

فأجبته قائلة فى انقياد دون أقل تردد - « ان شئت » .

وأقبل مينو وهو يشق طريقه وسط الزحام فى شيء من الصعوبة ثم وقف بجانب سونزونيو تماما متشبثا بنفس المقعد الذى كان يمسك به بل كانت أصابعه الطويلة النحيلة تحتك فعلا بأصابع سونزونيو القصيرة الغليظة . واهتز الترام فارتمى كلاهما على الاخر ورجاه مينو فى أدب أن يعفو عنه لاصطدامه به . وبدأت أشعر بالضيق لرؤيتهما معا فى تقارب شديد ولكن دون أن يعرف كلاهما الاخر على الاطلاق . وفجأة استدرت نحو مينو فى تعمد على صورة لا يتخيل معها سونزونيو اننى أخاطبه قائلة - « انصت الى - لقد تذكرت الان فقط اننى على موعد مع شخص هذا المساء . فالاجدر بنا أن نفترق الان » .

- « سأصحبك الى المنزل ان شئت » .

- « كلا - فسألتقى بهذا الشخص عند موقف الترام » .

وكان ذلك أمرا مألوفا . فقد كنت لا أزال اصحب الرجال الى المنزل . وكان مينو على علم بذلك . فقال فى هدوء - « كما تشائين . اذن فسألقاك غدا » . فأومأت برأسى موافقة ثم مضى بعيدا خلال الزحام .

وبينما كنت أراقبه وهو يشق طريقه بين الناس اذا بى أتعرض لحظة لنوبة من اليأس العنيف . فقد خيل لى أننى أراه لاخر مرة ولكننى لم أدر لماذا راودنى ذلك الخاطر . فتمتمت محدثة نفسى وأنا أتابعه بعينى قائلة - «وداعا يا حبيبى» . وأردت أن أصيح لأستوقفه فيعود مرة أخرى ولكن صوتى احتبس فى حلقى . وتوقف الترام ثم خيل لى أننى أراه وهو يهبط منه . وعاد الترام فانطلق من جديد. أما سونزونيو وأنا فقد ظللنا صامتين طوال الرحلة . وقد هدأ

روعى الان قليلا وقلت لنفسى أن القس لا يمكن أن يكون قد افشى السر . ومن ناحية أخرى فانى بعد أن فكرت فى الامر قليلا لم أشعر بالاسف حقا للقائى به . اذ أننى بهذه الطريقة سوف أتخلص الى الابد من وساوسى وشكوكي ازاء ما تمخض عنه اعترافى من نتائج .

نهضت واقفة عند محطة الترام ثم هبطت منه وسرت قليلا دون أن أنظر خلفى .. كان سونزونيو بجانبى وفى امكانى رؤيته لو أدرت رأسى قليلا . وأخيرا سألته قائلة ــ «ماذا تريد منى ؟ ولماذا عدت ؟» فقال فى شيء من الدهشة ــ « لقد طلبت الى العودة أنت نفسك !»

وقد صدق فيما قال ولكننى كنت قد نسيت ذلك من شدة الرعب . ثم دنا منى وأمسك بذراعى قابضا عليه بقوة وهو يكاد يرفعنى عن الارض . فسرت الرجفة على الرغم منى فى جميع أطرافى .

ثم سألنى قائلا ــ « من هو ذلك الرجل ؟ »

ــ « أحد أصدقائى »

ــ « هل رأيت جينو مرة أخرى ؟ »

ــ « كلا . أبدا » .

فنظر حوله بسرعة ثم قال ــ « ان ثمة شعورا غريبا لا ادرى له سببا أخذ يراودنى أخيرا منذرا اياى بأن هناك من يتبعنى . ولا يوجد سوى شخصين يمكنهما أن يشيا بى أنت وجينو »

فسألته هامسة ــ « ولماذا يشى بك جينو ؟ » ولكننى أحسست بقلبى يخفق فى عنف .

ــ « كان يعلم اننى سأحمل تلك السلعة الى الصائغ . بل لقد أخبرته باسمه وهو لا يعلم بالضبط أننى قتلته . ولكنه كان فى امكانه بسهولة أن يتكهن بذلك » .

ــ « ان جينو لن يجنى شيئا من الوشاية بك ــ بل انه لو فعل لوشى بنفسه أيضا »

فتمتم قائلا ــ « ذلك هو إعتقادى »

ثم أردفت قائلة بصوت هادىء للغاية ــ « أما عنى فيمكنك ان تتأكد أننى لم أنبس بشىء . فلست حمقاء ــ اذ أننى لو فعلت لقبض على أنا أيضا » .

فأجابنى منذرا ــ «آمل ذلك من أجلك .» ثم أضاف قائلا ــ «ولقد قابلت جينو لحظة . فقال لى على سبيل المزاح انه يعرف اشياء كثيرة . وذلك هو ما يقلقنى . فهو رجل سوء »

فقلت ــ « لشد ما أسأت معاملته فى ذلك المساء . ولاشك الان

انه يكرهك » . وبينما كنت اتكلم احسست انى اكاد اتمنى لو كان جينو قد وشى به حقا .

فقال فى زهو متجهم ـ « كانت لكمة رائعة ـ وقد ظلت يدى تؤلمنى بعد ذلك مدة يومين »

فاختتمت الحديث قائلة ـ « ان جينو لن يشى بك . فذلك لايتفق مع مصلحته . وفضلا عن هذا فهو لا يجرؤ على ذلك لخوفه الشديد منك » .

كنا نسير فى الطريق ونحن نتبادل الحديث بصوت خفيض دون ان ينظر احدنا الى الاخر . وقد تلونت السماء بضوء الشفق واكتنف الاسوار القاتمة واغصان الدلب البيضاء والمنازل الضاربة الى الصفرة والمنظر النائى فى الطريق الرئيسى ضباب يميل لونه الى الزرقة . وما أن بلغنا الباب الخارجى للمنزل حتى احسست لاول مرة اننى أخون مينو بالفعل . لقد شئت أن أخدع نفسى باعتقادى ان سونزونيو لا يعدو أن يكون واحدا من بين كثيرين . ولكننى كنت أعلم ان ذلك الاعتقاد لا صحة له . فدخلت الفناء ثم جذبت الباب من خلفى . وهناك وقفت ساكنة فى الظلام ثم استدرت نحو سونزونيو قائلة :

ـ « أنصت الى ـ يحسن بك أن تنصرف » .

ـ « لماذا ؟ » .

أردت أن أصارحه بالحقيقة كلها رغم الخوف الذى انتابنى فقلت ـ « لانى أحب رجلا آخر ولا اريد أن أخونه » .

ـ « ومن هو ؟ أهو ذلك الرجل الذى كان معك فى الترام ؟ »

فأشفقت على مينو وأسرعت باجابته قائلة ـ « كلا . بل شخص آخر لا تعرفه . والان أرجو أن تتركنى ـ انصرف ؟ »

ـ « ولنفرض اننى لا أبغى الانصراف ؟ »

فبدأت أتكلم قائلة ـ « ولكن الا تعلم أن هناك أشياء معينة لايمكنك اغتصابها » غير أننى لم استطع ان اتم حديثى . ولا ادرى كيف حدث ذلك . اذ أننى دون أن أراه فى الظلام أو أرى حركاته اذا به فجأة يلطمنى بظهر يده على خدى لطمة رهيبة قائلا ـ « امضى »

فهرولت صاعدة الدرج وقد خفضت رأسى . فأمسك بى من ذراعى مرة أخرى وراح يسندنى فى كل خطوة . حتى شعرت وكأنه يكاد يرفعنى عن الارض فاطير فى الهواء . كان خدى يؤلمنى بشدة ولكن ثمة احساسا بالشؤم المنذر كان يخيفنى اكثر من اى شىء اخر . وخيل لى ان هذه اللطمة قد قطعت ما كان من نغم سعيد فى الايام الاخيرة

وظهرت فى الافق من جديد مصاعب الماضى ومخاوفه . فملأنى يأس مطلق وقررت على الفور أن أهرب من المصير الذى حدثتنى به نفسى. قررت أن أهرب يومئذ من المنزل وأن أذهب الى مكان آخر اما الى شقة جيزيلا واما الى غرفة مؤثثة .

ولشد ما أمعنت التفكير فى كل هذه الاشياء حتى أننى لم أكد الحظ اننى فى داخل الشقة وأننى قد عبرت الغرفة الخارجية الى حيث توجد غرفتى . فوجدتنى – بل اكاد اقول اننى صحوت لاجد نفسى – جالسة على حافة الفراش بينما راح سونزونيو يخلع ملابسه قطعة قطعة وهو يضعها فى نظام على أحد المقاعد بحركات دقيقة راضية لا تصدر الا عن شخص منظم فى جوهره . وكانت نوبة الغضب قد زايلته تماما . فقال فى هدوء – « كنت اود لو جئت اليك قبل ذلك. ولكننى لم استطع . ومع هذا فانني لم أفتأ أفكر فيك » .

فسألته قائلة فى آلية – « وماذا كان تفكيرك بشأنى ؟ »

– « لقد خلق كلانا للآخر . » ثم نهض واقفا وبيده صديره وأردف قائلا بلهجة غريبة – « لقد جئت فى الواقع لاطلب اليك الزواج »

– « ماذا؟»

– « عندى بعض المال . فلنذهب معا الى ميلان حيثأعرف أصدقاء كثيرين . فانى أريد أن أفتتح جراجا للسيارات . وفىميلان يمكننا أن نتزوج »

فأحسست وكأنى اذوب من الداخل . وغلبنى احساس بالضعف الشديد جعلنى أغمض عينى . فلأول مرة بعد جينو يعرض على الزواج ويكون المتقدم هو سونزونيو . لشد ما استبد بىحنينى الى الحياة الطبيعية مع زوج وأطفال وها هى ذى الان تعرض على – ولكن المظهر الطبيعى فيها ليس سوى عطاء خاو يحوى كل ما هو شاذ ومخيف . فقلت فى ضعف – «ولكن لماذا ؟ فلا يكاد كلانا يعرف الآخر . فانك لم ترنى سوى مرة واحدة »

فجلس بجانبى واضعا ذراعه حول خصرى ثم قال – « ليس ثمة من يعرفنى خيرا منك . فأنت تعرفين عنى كل شىء »

وخطر لى أن عواطفه ربما كانت مضطربة ثائرة فى اعماقه وأراد أن يظهر لى أنه يحبنى وأننى يجب أن أحبه . ولكن ذلك لم يكن سوى خيال من جانبى فقد خلا سلوكه من كل ما يؤكد ذلك الظن .

فقلت فى صوت خفيض – « أننى لا أعرف شيئا عنك . كل ما أعلمه هو انك قتلت ذلك الرجل » .

فقال وكأنه يحدث نفسه ـ « ثم انى قد سئمت الحياة وحدى . فعندما تعيشين وحدك ينتهى بك الامر الى ارتكاب عمل جنونى » .

وبعد لحظة من الصمت تكلمت مرة أخرى قائلة ـ « لا يمكننى أن أقول « نعم » أو « لا » مباشرة على هذه الصورة · اعطنى الفرصة لأفكر فى الامر »

فقال لدهشتى ـ « فكرى فى الامر · فانى لست فى عجلة · » ثم افترق عنى واستمر فى خلع ملابسه .

ولشد ما لفتت نظرى عبارته التى قال فيها ـ « لقد خلق كلانا للاخر » · وأخذت الآن اتساءل عما ان كان مع ذلك محقا فيما يقول · فمن ذا الذى اتوقع أن يتزوجنى الان سوى رجل من صنفه ؟ ثم أليس حقا أن رباطا خفيا أدركته وخشيته كان يشدنى اليه ؟ ووجدتنى أردد فى اذعان محدثة نفسى « الهرب · الهرب » · بينما لم أفتأ أهز راسى فى يأس .

ثم قلت فى صوت واضح وقد امتلأ فمى باللعاب ـ «هل اقترحت الذهاب الى ميلان ؟ الا تخشى أن يكونوا لك بالمرصاد ؟ »

ـ « قلت ذلك لانى أردت أن أقول شيئا فحسب · ولكن أحدا لا يعلم بوجودى فى الواقع »

وفجأة تلاشى ذلك الضعف الذى كان يجعل أطرافى ثقيلة كالرصاص وراودنى احساس بالقوة والتصميم . فنهضت من مكانى وخلعت سترتى ثم ذهبت لاعلقها على مشجب المعاطف . وأدرت المفتاح فى القفل كالمعتاد ثم سرت فى بطء الى النافذة لاغلق مصراعيها . وما ان وقفت منتصبة القامة أمام المرآة حتى بدأت أفك أزرار سترتى مبتدئة من أسفل . ولكننى توقفت فى الحال تقريبا ثم استدرت نحو سونزونيو وكان جالسا على حافة الفراش وقد انحنى فوق حذائه ليحل رباطه . وقلت بلهجة عارضة متكلفة ـ « استأذنك دقيقة واحدة . فقد كان المفروض أن يزورنى شخص ما هذا المساء . ولذا يجب ان اذهب لانذر أمى بالتخلص منه » فلم يحر جوابا بل انه لم يجد الفرصة لذلك · وغادرت الغرفة ثم أغلقت الباب من خلفى · ودلفت الى غرفة الجلوس .

كانت امى عاكفة على ماكينة الخياطة بالقرب من النافذة · اذ انها كانت قد عادت الى عملها منذ فترة وجيزة لكى تخفف من احساسها برتابة الحياة . فقلت لها بسرعة وبصوت هامس ـ « اتصلى بى تليفونيا فى منزل جيزيلا أو زيلندا غدا صباحا » ... وكانت زيلندا

امراة تؤجر الغرف في وسط المدينة حيث كنت اتردد أحيانا مع عشاقي . وكانت أمي تعرفها .

ـ « لماذا ؟ » .

فقلت ـ « اني ذاهبة . وعندما يسأل عني ذلك الرجل بالداخل أخبريه أنك لا تعرفين مكاني . »

فجلست أمي هناك فاغرة فاها وهي تحملق في بينما راحت تخرج كبشة من سترة فرائية كنت ارتديها قبل ذلك بعدة أعوام .

ثم أضفت قائلة ـ المهم في الامر ألا تخبريه أين ذهبت والا قتلني »

« ولكن ـ »

ـ « النقود مودعة في مكانها المألوف .. اذن فلتحذري .. لا تخبريه بشيء واتصلي بي غدا . » ثم خرجت مهرولة وعبرت الردهة على اطراف أصابعي ثم بدأت أهبط الدرج

وما ان بلغت الشارع حتى أخذت أركض . كنت أعلم أن مينو كان وقتئذ في المنزل فأردت اللحاق به قبل ان يخرج مع صديقيه بعد العشاء . ظللت أركض حتى بلغت الساحة حيث ركبت سيارة أجرة وأدليت بعنوان مينو . وبينما كانت السيارة تسرع بي أدركت فجأة انني لم أكن أهرب من سونزونيو بقدر هروبي من نفسي وذلك لاحساسي الغامض بالانجذاب نحو قوته وعنفه . وتذكرت تلك الصيحة النفاذة التي اختلط فيها الرعب باللذة والتي انتزعها مني عندما ضاجعني لاول وآخر مرة . وقلت لنفسي أنه قد غزاني يومئذ الى الابد كما لم يفعل رجل اخر منذ ذلك الحين ولا حتى مينو . فلم يسعني الا أن اخرج من ذلك بأن كلا منا قد خلق للآخر حقا ولكن كالجسد الذي قيل عنه انه خلق للهاوية التي تصيب رأسه بالدوار وتغيم لمرآها عيناه فتجذبه في النهاية أعماقها السحيقة .

وصعدت الدرج مثنى مثنى حتى اذا ما بلغت الشقة كنت مبهورة الانفاس وأدليت باسم مينو للخادمة النصف التي جاءت لتفتح لي الباب .

فبدت لي وكأن الذعر قد اخرجها عن وعيها . فتركتني على عتبة الباب ثم هرولت بعيدا دون أن تنبس بكلمة .

وخيل لي أنها ذهبت لتخبر مينو بمجيئي . فدخلت الردهة وأغلقت الباب .

ثم سمعت همسا خلف الستارة التي تفصل الردهة عن الدهليز .

وارتفعت الستارة وظهرت الارملة مدولاجي . وكنت قد نسيتها تماما منذ لقائي بهـا أول مرة . فملأني الرعب عندما رأيتهـا تنتصب أمامي بقامتها الضخمة المتشحة بالسواد ووجهها الابيض الذي يحاكي وجوه الموتى وقد علاه قناع أسود من عينيها فأحسست وكأني أمثل أمام شبح مخيف . وقفت غير بعيد مني ثم خاطبتني قائلة :

– « هل أردت مقابلة السنيور ديوداتي ؟ »

– « نعم »

– « لقد قبض عليه » .

ولم أفهم ماذا قالت في أول الامر . فقد خيل لي لسبب لا أدريه ان هناك صلة ما بين القبض عليه وجريمة سونزونيو . فتلعثمت قائلة – « قبض عليه ! ولكنه لا صلة له بما حدث » .

فقالت – « اني لا أدري شيئا مما حدث – كل ما اعلمه أنهم جاءوا هنا وفتشوا المنزل ثم قبضوا عليه »

وفهمت من تعبير وجهها الذي ينبيء بالنفور أنها لن تخبرني بشيء

ولكنني لم اتمالك نفسي من أن أسألها قائلة – « ولكن لماذا ؟ »

– « لقد قلت لك ياسيدتي انني لا أدري شيئا » .

– « الى اين اقتادوه ؟ »

– « أني لا أدري شيئا » .

– « ولكن أخبريني على الاقل ان كان قد ترك لي رسالة ما »

وعندئذ لم تحر جوابا بل ستدارت بعيدا في جلال متصلب مستاء ثم صاحت قائلة – « ديوميرا ! »

فعادت الخادمة النصف ذات النظرة المذعورة الى الظهور من جديد .

وأشارت سيدتها الى الباب قائلة وهي ترفع الستارة وتستـــدير لتذهب – « أخرجي الانسة الصغيرة » . ثم عادت الستارة الى مكانها المعهود .

ولم أدرك أن القبض على مينو وجريمة سونزونيو واقعتان منفصلتان لا صلة بينهما الا بعد أن هبطت الدرج وخرجت الى الطريق . وكان خوفي في الواقع هو الحلقة الوحيدة التي تربط بينهما . وبدا لي ذلك السيل غير المتوقع من الكوارث دليلا على سخاء القدر الذي اخـذ يغدق على كل هباته الفاجعة في وقت واحد تماما كما تنضج معا في الموسم الجيد شتى أنواع الفاكهة . فلا شك ان المتاعب لا تأتي فرادى كما يقول المثل . لم أفكر في ذلك بقدر ما أحسست به وأنا أسيرمن

شارع الى شارع وقد انحنى رأسى وكتفاى وكأنى أسير تحت وابل من البرد الوهمى .

ومن الطبيعى أن آستاريتا كان أول شخص فكرت فى اللجوء اليه . وكنت احفظ رقم تليفون مكتبه عن ظهر قلب . فدخلت اول مقهى صادفنى فى الطريق حيث اتصلت به . لم يكن رقمه مشغولا ولكننى لم أتلق جوابا . وبعد أن أدرت الرقم عدة مرات اقتنعت فى النهاية بأن آستاريتا لم يكن فى مكتبه . فلاريب انه خرج لتناول العشاء وسوف يعود بعد قليل . كنت أعلم كل ذلك ولكن الامل داودنى فى العثور عليه فى مكتبه حينذاك كاستثناء من القاعدة .

تطلعت ببصرى الى احدى الساعات فوجدتها تشير الى الثامنة مساء . وكنت أعلم أن آستاريتا لن يعود الى مكتبه قبل العاشرة . فتوقفت عند ناصية فى الطريق وقد امتد أمامى سطح جسر مقوس يتدفق فوقه سيل لا ينقطع من المشاة الذين كانوا يسيرون أحادى أو فى جماعات وهم يندفعون نحوى فى غموض مهرولين كأنهم أوراق ذابلة تدفعها ريح لا تهدأ . أما صفوف المنازل فيما وراء الجسر فكانت توحى بالهدوء والطمأنينة بكل ما فيها من نوافذ مضاءة وأناس يروحون ويغدون بين الموائد وقطع الاثاث الاخرى . وخطر لى اننى لم اكن على مسافة بعيدة من مركز الشرطة الرئيسى حيث خيل لى أن مينو لابد أن يكون قد اقتيد اليه . ومع اننى كنت أعلم انها محاولة بائسة فقد قررت أن اذهب رأسا الى هناك لاسأل عن أخباره . وكنت أعلم مقدما أننى لن أصل الى شىء ولكن ذلك لم يكن يهمنى . فقد أردت أن احس اننى أفعل شيئا من أجله .

فاتخذت طريقى فى الشوارع الجانبية وسرت بمحاذاة الجدران حتى بلغت مركز الشرطة فارتقيت الدرج ودخلت . فاذا بشرطى يجلس متكئا الى الخلف فى مقعده بغرفة البواب وهو يقرأ جريدة واضعا قدميه على مقعد آخر وقلنسوته على المنضدة يسألنى عن وجهتى . فأجبته قائلة ــ « مكتب الاجانب » وكان ذلك هو أحد الاقسام العديدة فى مركز الشرطة وقد سمعت آستاريتا يشير اليه فى احدى المناسبات ولا أذكر ماذا دعاه الى ذلك .

كنت لا أدرى الى اين أتوجه . ولكننى اخذت أصعد الدرج القذر ذا الاضاءة الخافتة بلا هدف معين . ولم أفتأ اصطدم بالكتبة أو برجال الشرطة فى زيهم الرسمى وهم يصعدون الدرج أو يهبطونه وقد امتلأت أيديهم بالاوراق ولكننى ظللت أصعد حانية الرأس فى محاذاة الجدران

حيث يتكاثف الظلام . وكنت ألمح عند كل بسطة فى الدرج دهاليز خفيضة قذرة مظلمة يروح فيها الناس ويغدون بينما اضيئت الغرف جميعها اضاءة خافتة وفتحت أبوابها . وبدا مركز الشرطة وكأنه خاية نحل مزدحمه لا تنقطع فيها الحركة ولكن النحل الذى يسكنها كان بلا شك يتجنب الزهور اذ أن عسله الذى كنت أذوقه لاول مره فى حياتى كان أسود زنخا شديد المرارة . وعندما بلغت الطابق الثالث كان يأسى قد بلغ منتهاه فوقع اختيارى جزافا على احد الدهاليز حيث لم ينظر الى أحد أو يعبأ بى مخلوق . وكانت الابواب التي فتح معظمها تتتابع على جانبى الدهليز بابا وراء باب . وفى مداخلها يجلس رجال الشرطة فى زيهم الرسمى على مقاعد خيزرانية وهم يدخنون ويثرثرون . اما منظر كل غرفة من الداخل فلم يكن يتغير أبدا — فالارفف المحملة بالملفات يعلو بعضها البعض والمنضدة يجلس خلفها الشرطى وبيده القلم . ولم يكن الدهليز مستقيما بل منحنيا حتى اننى لم البث ان ضللت طريقى . فقد كان الدهليز يفضى من آن لآخر الى دهليز ثان منخفض مما يضطرنى الى الهبوط ثلاث أو اربع درجات — أو يتقاطع مع دهاليز اخرى تشبهه فى كل معالمها . فى أضوائها وصفوف أبوابها المفتوحة وكذلك رجال الشرطة الجالسين فى المداخل . وأحسست بالحيرة . اذ خيل لى فى لحظة من اللحظات اننى اتعقب خطواتى وأننى أسير فى دهليز سبق أن عبرته قبل ذلك . ومر بى رسول ماكدت أسأله عن رئيس الشرطة حتى اشار الى دهليز مظلم قريب يقع بين بابين دون أن يتكلم ، فاتجهت نحوه وهبطت أربع درجات ثم دخلت دهليزا صغيرا خفيضا ضيقا للغاية . وفى نفس اللحظة فتح باب فى نهايته حيث كان ذلك الدهليز الشبيه بالامعاء يصنع زاوية قائمة ثم خرج منه رجلان أخذا يسيران بعيدا عنى تجاه الزاوية . وكان أحدهما يمسك بالاخرى من معصمه وخيل لى لحظة انه مينو . فصحت قائلة — « مينو ! » ثم اندفعت الى الامام نحوهما .

ولكننى لم أنجح فى اللحاق بهما لان شخصا ما امسك بذراعى . فاذا به شرطى صغير السن ذو وجه اسمر نحيل . وكانت كتلة شعره الاسود المجعد تعلوها قلنسوة أمالها جانبا .

وسألنى قائلا — « من تريدين ؟ وعمن تبحثين ؟ »

واستدار الرجلان لصيحتى فتبين لى أننى اخطأت . ولهثت قائلة — « لقد قبضوا على صديقى . فأردت أن أعلم ما اذا كانوا قد

اقتادوه الى هنا » .
فسألنى الشرطى قائلا دون أن يخلى سبيلى متخذا مظهر السلطة المطلقة – « ما اسمه ؟ »
– « جياكومو ديوداتى »
– « وما عمله ؟ »
– « أنه طالب » .
– « ومتى قبض عليه ؟ »
وفجأة أدركت أنه كان يسألنى بهذه الطريقة ليضفى على نفسه مظهر الاهمية فى حين أنه كان لا يعلم شيئا .
فأجبت قائلة فى غضب – « أخبرنى أين هو ولا تكثر من الاسئلة . »
كنا وحدنا فى الدهليز . فنظر حوله ثم دنا منى هامسا بلهجة حمقاء – « سننظر فى امر الطالب – ولكن فلتمنحينى الآن قبلة . »
فصحت قائلة فى غضب – « دعنى اذهب ! ولا تضيع وقتى ! » ثم دفعته بعيدا عنى وانطلقت أجرى حتى دخلت دهليزا آخر . وهناك رأيت بابا مفتوحا ووراء الباب غرفة أكبر من الاخريات. وكان فى نهايتها مكتب يجلس اليه رجل . فدخلت الغرفة قائلة دون أن أتوقف لالتقط أنفاسى – « أريد أن أعلم أين اقتيد الطالب ديوداتى – لقد قبض عليه هذا المساء . »
فرفع الرجل عينيه عن مكتبه حيث وضعت أمامه جريدة مفتوحة، ثم نظر الى فى دهشة قائلا – « تريدين ان تعلمى . »
– «نعم – أين اقتيد الطالب ديوداتى الذى قبض عليه هذا المساء.»
– « ولكن من أنت ؟ ومن الذى سمح لك بالدخول ؟ »
– « ليس هذا من شأنك – أخبرنى فقط أين هو . »
فصاح قائلا وهو يطرق المنضدة بقبضته – « من أنت ؟ وكيف تجسرين ؟ أتدرين أين تقفين ؟ »
وفجأة ادركت اننى لن أعرف شيئا واننى فى خطر من أن يقبض على أنا نفسى وعندئذ لا يمكننى أن اتحدث الى آستاريتا فيظل مينو مقبوضا عليه ولا يخلى سبيله .
فقلت منسحبة – « لا يهم . فقد أخطأت – وأرجو عفوك . »
ولكن اعتذاراتى أثارت غضبه أكثر من أسئلتى التى سبقتها . وكنت الآن قريبة من الباب . فصاح قائلا وهو يشير الى لافتةعلقت فوق رأسه . « عليك أن تؤدى التحية الفاشية عند دخولك هذه الغرفة أو خروجك منها . » فأومأت برأسى وكأنى أوافقه – حقا ان

التحية الفاشية ينبغى أن تؤدى عند دخول الغرفة والخروج منها • ثم غادرت الغرفة منسحبة الى الخلف • وعبرت الدهليز بطوله كاملا ثم سرت عنا وهناك بعض الوقت • وما ان عثرت على الدرج صدفة حتى أسرعت بالهبوط • فمررت بغرفة البواب ثم خرجت الى الطريق من جديد •

ولم تتمخض زيارتى الى مركز الشرطة عن شىء سوى أنها ساعدت على مضى الوقت • وقدرت اننى لو سرت فى بطء شديد تجاه وزارة آستاريتا فان ذلك يستغرق ثلاثة أرباع الساعة أو ربما ساعة بأكملها وعندما أصل الى هناك يمكننى أن أجلس فى أحد المقاهى القريبة من الوزارة حيث اتصل تليفونيا بآستاريتا بعد حوالى عشرين دقيقه آملة أن اجده هناك •

وفيما انا سائرة فى طريقى خطر لى ان القبض على مينو ربما كان نوعا من الانتقام من جانب آستاريتا . فقد كان يشغل منصبا هاما فى قوة الشرطة السياسية التى إلقت القبض على مينو • فمن الواضح انهم كانوا يراقبون مينو بلا ريب منذ بعض الوقت وكانوا على علم بعلاقتى به • ومن المرجح أن يكون آستاريتا قد اطلع على أوراقه وأصدر أمره بالقبض على مينو بدافع من الغيرة • وما ان خطر لى ذلك حتى اجتاحنى نوع من الغضب الشديد على آستاريتا . كنت أعلم انه مازال يحبنى وأحسست أنى قادرة تماما على أن أقتضى منه ثمنا باهظا مريرا جزاء فعلته القاسية اذا ما صحت ظنونى • ولكن خطر لى فى نفس الوقت أن الامر ربما لم يكن كذلك واننى كنت اتأهب بأسلحتى الضعيفة لمحاربة عدو خفى عديم الملامح وأن خواصه لا يتصف بها رجل حساس تسلطت عليه عواطفه بقدر ما يتصف بها جهاز بارع •

وعندما بلغت الوزارة عدلت عن فكرة الجلوس فى مقهى واتجهت رأسا الى التليفون . وعندئذ ما كاد الجرس يدق حتى رفع «السماعة» شخص ما واذا بصوت آستاريتا هو الذى يرد على .

فقلت فى اندفاع — « أنا آدريانا • أبغى مقابلتك • »

— « توا ؟ »

— « نعم . فى التو . فالامر عاجل . أنا هنــا خارج الوزارة . »

فسكت لحظة ليفكر ثم سمح لى بالذهاب لمقابلته • وكانت تلك هى المرة الثانية التى أصعد فيها درج وزارة آستاريتا • ولكن لشد ما اختلفت حالتى النفسية عنها فى أول مرة . فقد كنت أخشى فى اول مرة أن يبتزنى آستاريتا وأن يحبط زواجى بجينو • كنت أخشى ذلك

التهديد الغامض الذى يحس به جميع الفقراء مسلطا على رقابهم فى كل ما يتعلق بالشرطة • ولقد ذهبت الى هناك بقلب خافق وروح وجلة هيابة • أما الآن فقد وجدتنى على العكس من ذلك فى حالة نفسية عدوانية وفى نيتى أن أبتز آستاريتا بدورى عاقدة العزم على استخدام كل ما أملك من وسائل للافراج عن مينو ولكن تلك الحالة النفسية العدوانية لا يمكن أن يكون مرجعها حبى لمينــو فحسب . بل كـان احتقارى آستاريتا ووزارته وشئون السياسة ومينو نفسه من حيث اهتمامه بالسياسة بالذات من بين أسبابها أيضا الى حد ما • كنت لا أدرك شيئا من أمور السياسة • ولعل جهلى بالذات هو الذى جعل السياسة تبدو أمرا تافها مثيرا للسخرية اذا ما قورنت بحبى لمينو • وتذكرت كيف كان آستاريتا يرتج عليه ويتعثر لسانه كلما رآنى أو حتى سمع صوتى • وخالجنى الرضا عن نفسى لاقتناعى بأن لسانه لم يكن يتعثر عند ما يواجه رؤساءه أو حتى موسولينى نفسه . أخــذت تلك الخواطر تدور بذهنى وأنا أهرول خلال الدهاليز الضخمة فى الوزارة . ولاحظت أننى كنت أنظر باحتقار الى كل من صادفنى فى طريقى من الكتبة • وتاقت نفسى الى أن أخطف تلك الملفات التى كانوا يحملونها وألقيها بعيدا وأن أبعثر جميع اوراقها المملوءة بالمظالم والمحظورات لتذروها الرياح • قلت فى غطرسة للحاجب الذى أقبل نحوى فى غرفة الانتظار ـ « يجب أن أتحدث فورا الى الدكتـــور آستاريتا ـ فانى على موعد معه ولا يمكننى الانتظار • » فنظر الى فى دهشة ولكنه لم يجرؤ على الاحتجاج بل ذهب ليعلن حضورى •

وما ان رآنى آستاريتا حتى هرول نحوى وقبل يدى ثم قادنى الى أريكة فى نهاية الغرفة • وكان قد حيانى بنفس الطريقة أيضا فى أول مرة • فخيل لى أن ذلك هو مسلكه نحو جميع النساء اللائى يزرنه فى مكتبه • وكبحت جماح الغضب الذى أحسست به يتأجج فى نفسى • ثم قلت ـ « أنصت الى ـ ان كنت قد أمرت بالقبض على مينو فمر باخلاء سبيله فى الحال • والا فلن ترى وجهى مرة أخرى • »

فارتسم على وجهه تعبير ينبىء بالدهشة العميقة وقد خالطها خاطر بغيض طارىء • فأدركت أنه لم يكن يدرى شيئا عن الموضوع بأسره • اذ تلعثم قائلا ـ « مهلا • مهلا • من تقصدين بحق الشيطان ؟! من هو مينو هذا ؟ »

فقلت ـ « خلتك على علم بما حدث • » ثم رويت له فى ايجاز بقدر امكانى قصة حبى لمينو بأسرها وكيف ألقى عليه القبض ذلك المساء .

ولاحظت تغير لونه عندما كاشفته بحبى لمينو ولكننى آثرت أن أصارحه بالحقيقة لا لاننى كنت أخشى أن أضر مينو بكذبى فحسب بل لاننى كنت أتوق الى اعلان حبى لمينو على العالم أجمع . وما ان اكتشفت أن آستاريتا لم تكن له يد فى القبض على مينو حتى هدأ ذلك الغضب الذى ظل يدفعنى حتى تلك اللحظة وعاودنى احســـــاسى بالضعف الشديد والتجرد من كل سلاح . ولهذا السبب بدأت أروى قصتى بصوت ثابت منفعل وانتهيت منها وأنا على وشك البكاء . بل كانت عيناى فى الواقع تفيضان بالدموع . وقلت فى ألم شديد — « لست أدرى ماذا يفعلون له . فهو يقول انهم يضربونهم . »

فقاطعنى آستاريتا فى الحال قائلا — « لا تنزعجى . فهذا اذا كان عاملا — أما وهو طالب — »

فصحت قائلة فى لهجة باكية « ولكننى لا اريده أن يودع السجن !»

ثم خيم علينا الصمت . وحاولت أن أسيطر على عاطفتى بينما كان آستاريتا ينظر الى . وقد بدا لاول مرة محجما عن أداء صنيع أطلبه اليه . ولكن لاريب أن احجامه عن ارضائى كان مرجعه الى حد ماخيبة امله لاكتشافه أننى أهوى رجلا آخر . فقلت وأنا أضع يدى عليه — « انى أعدك لو أخليت سبيله أن أفعل كل ما تريد . »

وما أن نظر الى مترددا حتى انحنيت الى الأمام مقدمة له شفتى رغم كرهى لذلك قائلة — « حسنا . هل أديت لى هذا الصنيع ؟ »

فحملق فى بينما يصطرع فى نفسه الاغراء بتقبيلى واحساسه بمهانة القبلة المقدمة اليه كرشوة فحسب من وجه تلوثه الدموع . ثم دفعنى بعيدا وقفز واقفا على قدميه طالبا الى الانتظار ثم اختفى من الغرفة .

وعندئذ تأكدت أن آستاريتا سوف يخلى سبيل مينو . فلشــدة جهلى بهذه الامور تخيلت آستاريتا وهو يخاطب بالتليفون احد الحراس الاذلاء بلهجة غاضبة آمرا اياه بالافراج فورا عن جياكومو ديوداتى . فأخذت أحصى الدقائق فى ضجر وما ان ظهر آستاريتا حتى نهضت واقفة على قدمى معتقدة أنى سأشكره ثم أهرع للقاء مينو .

ولكن اذا بوجه آستاريتا يحمل تعبيرا بغيضا فريدا فى نوعه كان خليطا من خيبة الامل والغضب الحقود . ثم قال فى ايجاز — « ماذا تعنين بقولك انه قبض عليه ؟ لقد أطلق النار على الشرطة ثم ولى هاربا — كما أن أحد رجال الشرطة قد نقل الى المستشفى وهو يلفظ أنفاسه الاخيرة . ولو قبضوا عليه الان وهذا أمر مؤكد فلن يسعنى أن افعل شيئا ».

ووقفت هناك وأنا أشهق من الدهشـــة . وتذكرت أننى أفرغت المسدس من الرصاص . ولكنه بالطبع ربما حشاه مرة أخرى دون علمى . واذا بى بعد أن عاودت التفكير فى الامر أحس بالفرحة تملأ جوانحى . وقد أدركت فى الحال أن تلك الفـرحة مرجعها عواطف متباينة . فكانت هناك الفرحة لعلمى بأن مينو حر طليق . وكذلك الفرحة لعلمى بأنه قتل الشرطى وهو عمل ماكنت أحسبه قادرا عليه مما جعلنى أغير رأيى الذى كونته عنـــه حتى تلك اللحظـــة تغييرا عميقا . وعجبت لتلك القوة العدوانية الملحة التى صفق لهـــا قلبى اعجابا بسلوك مينو المتهور بينما عهدته يأبى جميع أشـــكال العنف ويستنكرها . كان شعورى فى الواقع لايختلف عما أحسست به من متعة لاتقاوم وأنا أتمثل فى ذهنى جريمة سونزونيو ولكن متعتى فى هذه المرة كان يصاحبها نوع من التبرير الادبى . ثم أخذت أتخيل كيف أننى لن ألبث أن أكتشف مخبأه وكيف أننا ســـنهرب معا ونختفى . بل ربما سافرنا الى الخارج حيث كان اللاجئون السياسيون يلقون ترحيبا كما كنت أعلم . وامتلأ قلبى بالامل . كما خيل لى أننى ربما كنت حقا على أبواب حياة جديدة . وقلت لنفسى أننى مدينة لمينو وشجاعته بذلك التجديد فى حياتى . فامتلأت نفسى بالعرفان والحب له . وفى تلك الاثناء كان آستاريتا يذرع الغرفة فى غضب شديد متوقفا من آن لآخر لا لسبب الا ليحرك شيئا على مكتبه .

قلت فى هدوء ــ « من الواضح أنه استجمع شجاعته بعد القبض عليه فأطلق النار ثم ولى هاربا » .

فوقف آستاريتا ساكنا وهو ينظر الى مصعرا وجهه على صورة قبيحة ثم قال ــ « أنت فرحة . أليس كذلك ؟ »

فقلت فى اخلاص ــ « لقد كان محقا فى قتل الشرطى . اذ أنه كان يحاول اقتياده الى السجن ــ ولو كنت فى مكانه لحذوت حذوه » .

فأجابنى قائلا بلهجة بغيضة ــ « لا صلة لى بالســـياسة . أما الشرطى فكان يؤدى واجبه فحسب . انه متزوج وله أطفال . »

فأجبت قائلة ــ « اذا كان مينو يشتغل بالسياسة فلاريب أن لديه أسبابا قوية . أما الشرطى فكان فى امكانه أن يعلم أن الانسان يقدم على ارتكاب اى عمل قبل أن يسلم نفسه للسجن مختارا . وبئس مايفعل ... »

واحسست بالطمأنينة فى قلبى عندما خيل لى أننى أرى مينو وهو يسير فى شوارع المدينة حرا طليقا . واخذت استمتع مقدما باللحظة

التى يستدعينى فيها من مخبئه فأراه مرة اخرى . وبدا لى أن آستاريتا عندما لاحظ هدوئى فقد كل سيطرة على نفسه وصاح قائلا ـ « ولكننا سنعثر عليه . أتحسبيننا لانستطيع ذلك ؟ »

ـ « لا أدرى شيئا عن هذا . ولكنى فرحة بهروبه . هذا هو كل ماهنالك . »

ـ « أننا سنعثر عليه وعندئذ يمكنه أن يتأكد انه لن يفلت من يد العدالة بمثل هذه السهولة » .

وبعد لحظة سألته قائلة ـ « أتعلم لماذا أنت غاضب الى هـذا الحد ؟ »

ـ « أنا لست غاضبا على الاطلاق » .

ـ « لانك كنت تتمنى لو قبض عليه حتى يمكنك أن تستعرض مروءتك نحوى ونحوه ـ ولكنه أفلت من أيديكم . هذا هو ما يغضبك »

ثم رأيته يهز كتفيه فى غضب . ودق جرس التليفون فرفع آستاريتا السماعة وقد بدا عليه الارتياح كمن وفق الى عذر يتخلص به من نقاش محرج . وما ان بلغت سمعه الكلمات الاولى من الحديث التليفونى حتى تغير تعبير وجهه فحل الصفاء محل الضيق المتجهم كما يضىء المنظر الطبيعى تدريجيا فى يوم عاصف شعاع مفاجىء من ضوء الشمس المشرقة . وفسرت ذلك على أنه نذير سيىء دون أن اعرف لذلك سببا .

وقد طال الحديث ولكن آستاريتا لم يزد قط على قوله « نعم » أو « لا » حتى لايمكننى أن اعرف موضوع الحديث . ثم قال وهو يعيد السماعة الى مكانها ـ « انى آسف من اجلك . فان البلاغ الاول الخاص بالقبض على الطالب كان خطأ . فقد ارسل المركز الرئيسى للشرطة رجاله الى منزله ومنزلك حتى يتأكدوا تماما من العثور عليه وقد قبضوا عليه فعلا فى منزل الارملة حيث يستأجر احدى الغرف . ولكنهم عثروا على شخص آخر فى شقتك وكان رجلا اشقر قصير القامة ذا لهجة شمالية ما ان طلبوا اليه اطلاعهم على أوراقه حتى اطلق النار عليهم ثم ولى هاربا . فمن الواضح أنه شخص بينه وبين الشرطة حساب عليه أن يسويه » .

واحسست انى على وشك الاغماء . اذن فمينو رهين السجن وسونزونيو مقتنع بأنى وشيت به . فذلك هو ما يتبادر الى الذهن ازاء اختفائى ثم وصول الشرطة فورا بعد ذلك . كان مينو فى السجن وسونزونيو يبحث عنى ليثأر منى . لشد ما انتابنى الذهول حتى

انه لم يسعنى الا أن أتمتم قائلة ـ « ياويلاه ! ياويلاه ! » وأنا أتجه نحو الباب .

لازيب أن وجهى قد عراه شحوب شديد اذ اختفت فى الحال نظرة الرضا الظافرة الحزينة من وجه آستاريتا ثم أقبل نحوى قائلا فى قلق ـ « اجلسى . ولنتحدث فى الامر . فكل شىء يمكن علاجه » .

فهززت رأسى ومددت يدى نحو الباب . ولكن استاريتا وقفنى قائلا فى لعثمة ـ « أنصتى الى . أعدك بأن أبذل كل ما فى وسعى ـ فسأستجوبه أنا نفسى ـ فاذا لم يكن هناك شىء خطير أطلقت سراحه فى أقرب وقت ممكن . أهذا يرضيك ؟ »

فقلت فى ذهول ـ « نعم يرضينى . » ثم أضفت قائلة فى مشقة ـ « أنت تعلم أن كل ماتفعله يقابل بالعرفان . »

وقد أدركت الآن أن آستاريتا فى الحقيقة لن يألو جهدا للافراج عن مينو كما قال . ولم تكن لى سوى رغبة واحدة ـ هى أن أذهب بعيدا وأن أترك هذه الوزارة الرهيبة فى أقرب وقت ممكن . ولكنه عاد يخاطبنى بلهجة مهنية تعبر عن قلقه ـ « وبهذه المناسبة ـ ان كان هناك مايدعوك الى الخوف من ذلك الرجل الذى عثروا عليه فى شقتك ـ فلتذكرى لى اسمه . فذلك يسهل علينا مهمة القبض عليه » .

فقلت وأنا أهم بالانصراف ـ « ولكننى لا أعرف أسمه » .

فألح قائلا ـ « على أية حال يحسن بك أن تذهبى من تلقاء نفسك الى مأمور الشرطة لتخبريه بما تعلمين ـ وسوف يطلبون اليك أن تضعى نفسك تحت تصرفهم ثم يخلون سبيلك . أما اذا لم تذهبى فان ذلك يزيد الموقف سوءا . »

فأجبته بأنى سأذهب ثم ودعته وانصرفت . ولم يغلق الباب فى الحال بل وقف يراقبنى من المدخل وأنا أعبر غرفة الانتظار .

الفصل التاسع

وما كدت أغادر مبنى الوزارة حتى هرولت مسرعة الى أقرب ميدان وكأني أولى هاربة . ولم أدرك انني لا أعرف لنفسي وجهة الا بعد أن بلغت وسط الميدان حيث أخذت أتساءل عن المكان الذي يمكنني أن آوى اليه . فكرت أول الامر في جيزيلا ولكن منزلها كان بعيدا ولم تعد ساقاى تقويان على حملي من شدة الارهاق . ومن ناحية أخرى فانني لم أكن واثقة بترحيب جيزيلا بي ورغبتها في ايوائي . فلم يبق أمامي حل آخر سوى زيلندا صاحبة المنزل التي سبق أن ذكرتها لامي عند خروجي من الدار وذلك لقرب منزلها مني فضلا عن صداقتها لي . فاستقر رأيي على الذهاب اليها .

كانت زيلندا تقيم في مبنى ضارب الى الصفرة وهو أحد المباني العديدة المتشابهة التي تقع في ميدان المحطة . وكان مما يميز ذلك المنزل الى جانب أشياء أخرى كثيرة أن درجه كان لايفتأ يغمره ظلام حالك حتى في الصباح . فلم يكن به مصعد أو نوافذ مما يتعرض معه كل من يصعد الدرج في ذلك الظلام الذي يوشك أن يكون تاما شاملا لان يصطدم بشبح شخص آخر يهبط الدرج وقد أمسك كلاهما بنفس السياج . وثمة رائحة طبخ كريهة دائمة كانت لاتفتأ تسمم الهواء . ولعلها أصناف تم طبخها منذ سنوات مضت بينما ظلت روائحها المختلفة تتحلل في الهواء البارد الرطب . وبينما كنت أصعد الدرج الذي طالما ارتقيته من قبل وفي أعقابي عاشق يتحرق شوقا أخذت ساقاى ترتعشان . فلشد ما أثقل الحزن قلبي . وقلت لزيلندا التي جاءت تفتح الباب ـ « أريد غرفة ... أقضي فيها الليل » .

كانت زيلندا امرأة بدينة تبدو أكبر من سنها بسبب بدانتها مع أنها ربما لم تكن تتجاوز منتصف العمر . اذ انها على الرغم من بدانتها المفرطة ووجنتيها السقيمتين البقعاوين وعينيها الزرقاوين البليدتين الخابيتين وشعرها الاشقر النحيل الذي كان يرى دائما أشعث ثائرا وقد تساقط في ضفائر صغيرة وكأنه مصنوع من نسالة الكتان فانها كانت لاتزال تحتفظ وخاصة في ملامحها ببعض مظاهر

الفتنة الرقيقة تماما كبعض الاشعة الوانية التى تظل منعكسة على سطح المياه الساكنة فترة وجيزة بعد غروب الشمس قالت ـ « لدى غرفة . هل أنت وحدك ؟ »

ـ « نعم وحدى » .

وما ان دلفت الى الداخل حتى أغلقت الباب . ثم سارت متعثرة أمامى بهيكلها القصير الممتلىء العريض مرتدية عباءتها المنزلية القديمة وقد تدلت على كتفيها عقيصة شعرها التى أوشكت أن تنفرط على حين برزت منها مشابك الشعر جميعا .. كانت الشقة باردة مظلمة كالدرج . ولكن رائحتها تنبىء بطعام طبخ حديثا مما يوحى بوجبة جديدة نظيفة كانت تعد آنذاك . قالت موضحة وهى تستدير نحوى مبتسمة ـ « كنت على وشك تناول العشاء » . وكانت تلك المرأة التى تؤجر الغرف بالساعة شغوفا بى ولا أدرى لذلك سببا . فطالما كانت تستبقينى هناك بعد زياراتى المعهودة لتثرثر معى مقدمة الى الحلوى و « الليكير » . كانت عزبا ولعل أحدا لم يقع قط فى حبها لان بدانتها كانت منذ طفولتها سببا فى تشويه جمالها ـ وكان مما يدل على عذريتها ما يعتريها من حياء وارتباك وفضول عندما تسألنى عن علاقاتى بالرجال . ويخيل لى أنها مادامت لاتعرف الحسد أو الحقد فانها كانت تشعر بالحسرة فى قلبها لانها لم تمارس قط ماكانت تعلم أنه يدور فى غرفها . أما عملها كصاحبة نزل تؤجر غرفه بالساعة فلم يكن يرضى حاسة العمل التجارى عندها بقدر ارضائه رغبتها اللاواعية فى تجنب الشعور باستبعادها تماما من فردوس الحب المحرم .

وكان هناك فى نهاية الدهليز بابان أعرفهما جيدا . فتحت زيلندا الباب الايسر وتقدمتنى الى داخل الغرفة حيث أضاءت الثريا ذات الفروع الثلاثة بمصابيحها الزجاجية الشبيهة بزهر الخزامى ثم ذهبت لتغلق مصراعى النافذة . كانت غرفة واسعة نظيفة . ولكن بدا لى أن نظافتها كانت تلقى ضوءا قاسيا على أثاثها الرث من السجاجيد البالية بالقرب من الفراش والغطاء القطنى ذى الرتوق والمرايا البراقة والشظايا التى تعلو الابريق والطشت . اقبلت نحوى ثم سألتنى قائلة وهى تنظر الى ـ « أمريضة أنت ؟ »

ـ « بل فى غاية الصحة » .

ـ « اذن فلم لاتنامين فى شقتك ؟ »

ـ « لا رغبة لى فى ذلك » .

فقالت فى حب وكأنها تعلم عنى كل شيء .. فلنر ان كنت أستطيع التكهن بما حدث . لقد خاب أملك — كنت تتوقعين شخصا ما فلم يحضر » .

— « ربما — » .

— « ولنر هل يصدق ظنى هذه المرة أيضا أم لا — انه ذلك الضابط الشاب الاسمر الذى كان يرافقك فى آخر مرة » .

ولم تكن تلك أول مرة تسألنى فيها زيلندا أسئلة كهذه . فأجبتها قائلة وانا أكاد أغص من شدة الالم — « انك محقة تماما — ثم ماذا ؟ »

— « لاشيء — ولكننى أفهمك فى الحال كما ترين ! فقد تكهنت بما حدث على الفور . ولكنك لايجب أن تنزعجى — فاذا كان قد تخلف عن الحضور فلابد أن هناك سببا منعه من ذلك — فان الجنود لايملكون وقتهم كما تعلمين — »

ولكننى لم أحر جوابا . فنظرت الى لحظة . ثم عادت تخاطبنى بصوتها المحب الحبى الملاطف قائلة — « أترغبين فى تناول العشـــاء معى ؟ فهناك طعام شهى » .

فأسرعت باجابتها قائلة — « كلا . شكرا . فقد تناولت عشائى »

فعادت تنظر الى وهى تربت على وجنتى مداعبة . ثم قالت وقد علا وجهها تعبير غامض يبعث الامل وكأنها عمة عجوز تخاطب فتى صغيرا أو أحد أبناء اخوتها أو اخواتها . ثم سحبت من جيبهـا مجموعة من المفاتيح واتجهت الى خزانة الملابس حيث فتحت أحد الادراج مولية ظهرها نحوى .

وكنت قد فككت أزرار سترتى ثم اتكأت على المنضدة واضـــعة احـــدى يدى على ردفى بينما رحت أراقب زيلندا وهى تنبش قاع الدرج . وتذكرت أن جيزيلا كثيرا ماكانت تأتى الى تلك الغرفة مع أصدقائها من الرجال . كما تذكرت أن زيلندا لم تكن تحب جيزيلا . أما انا فكانت تحبنى لشخصى لا لانها تحب الناس جميعا . فأحسست بالعزاء عندما خطر لى أن هناك شيئا آخر فى الوجود وأن العالم ليس مقصورا على الشرطة والوزارات والسجون ومثل هذه الاشياء القاسية التى لاتعرف الرحمة . وفى تلك الاثناء كانت زيلندا قد فرغت من تفتيش الدرج فأغلقته بعناية وأقبلت نحوى مرددة :

— « هاك .. فانك بلاشك لن ترفضى ذلك . » ثم وضعت شيئا ما على مفرش المائدة . وعندما نظرت وجدت هناك خمس سجائر من صنف جيد مذهبة الرءوس وحفنـة من الملبس الملفوف فى أوراق

ملونة وأربع ثمار صغيرة ملونة مصنوعة من عجينة اللوز . ثم سألتني قائلة وهي تربت على خدي مرة أخرى ـ « أيكفيك هذا ؟ »
فتلعثمت قائلة في ارتباك ـ « هذا جميل . شكرا .. »
ـ «عفوا. عفوا ـ اذا احتجت الى شيء فما عليك الا أن تناديني ولا تخافي»
وما ان خلوت الى نفسي مرة أخرى حتى احسست بوطأة البرودة وانتابتني حالة من التردد الشديد . كنت لا أشعر بالنعاس ولم اشأ أن أذهب الى الفراش . ولكن لم يكن هناك بد من ذلك في تلك الغرفة الباردة التي خيل لي أن برودة الشتاء ظلت محفوظة فيها سنوات عدة كما هي الحال في الكنائس والاقبية . ولم يكن على أن أواجه تلك المشكلة في المناسبات الاخرى التي كنت أقصد فيها ذلك المكان فلم يكن هناك ما نتوق اليه أنا ورفيقي سوى أن نتدثر بالملاء حيث يدفيء كلانا الاخر . ومع انني لم أكن أشعر بالحب نحو عشاقي من لقطاء الطريق فقد كانت العملية الجنسية ذاتها تستغرق انتباهي ويغشاني سحرها . أما الان فقد بدا لي من غير المصدق أن أكون قد ضاجعت وضوجعت وسط ذلك الاثاث القذر وفي مثل ذلك الجو المقرور . فلاريب ان حرارة حواسنا أنا ورفاقي كانت في كل مرة تخلق لنا جوا من الوهم يضفي على تلك الاشياء الغريبة المثيرة للسخرية الفة وجمالا . وخطر لي ان حياتي ستكون كهذه الغرفة تماما اذا ما قدر لي الا أرى مينو مرة أخرى . فلو انني نظرت الى حياتي نظرة موضوعية بعيدة عن الاوهام لوجدتها في الواقع خالية من كل جمال او الفة ولوجدت أن قوامها أشياء باردة قبيحة بالية كغرفة زيلندا . فسرت الرجفة في بدني وبدأت أخلع ثيابي في بطء .
كانت الملاء مثلجة كما بدت مبتلة من أثر الرطوبة . وخيل لي عندما تمددت في الفراش انني اطبع صورة جسدي على صلصال مبلل . وظللت مستغرقة في التفكير فترة طويلة بينما أخذ الدفء يشيع في الملاء رويدا . فقد انطلق ذهني في طريق جانبي يفكر في سونزونيو ويحلل دوافع ذلك الموضوع الغامض بأسره وما ترتب عليه من نتائج . فلاشك أن سونزونيو يعتقد الان انني وشيت به وكانت الشواهد كلها تدينني . ولكن هل هي الشواهد فحسب ؟ وتذكرت عبارته حين قال ـ « يراودني شعور غريب بأن هناك من يتبعني . »
وتساءلت عما اذا كان القس قد باح بالسر رغم كل شيء . فعلى الرغم من ان ذلك كان يبدو أمرا بعيد الاحتمال فانه لم يظهر حتى الآن ماينقضه .

وبينما كنت لا أزال أفكر فى سونزونيو بدات اتخيل ماحدث فى المنزل بعد خروجى . فتخيلت سونزونيو جالسا فى انتظار عودتى الى أن نفد صبره فارتدى ملابسه ثم تخيلت دخول الشرطيين عليه وشهره مسدسه ثم اطلاقه اياه دون انذار وفراره . وقد بعثت فى نفسى تلك الصور الخيالية لما حدث احساسا غامضا باللذة التى لاتعرف الشبع كذلك الاحساس الذى راودنى عندما استعدت فى ذهنى جريمة سونزونيو . لم أفتأ استعرض فى ذهنى مشهد اطلاق النار متريثة فى شغف لأتأمل جميع التفاصيل ولا شك اننى فى أثناء الصراع بين سونزونيو ورجال الشرطة كنت منحازة قلبا وقالبا الى جانب سونزونيو . فأخذت أرتجف من الفرح عندما رأيت الشرطى الجريح يسقط على الارض وتنفست الصعداء عندما هرب سونزونيو ثم تابعته فى قلق وهو يهبط الدرج . ولم أسترد هدوئى الا بعد أن رأيته يختفى فى ظلام الشارع الرئيسى البعيد ــ واخيرا سئمت ذلك النوع من السينما الذهنية فأطفأت الضوء .

وقد سبق أن لاحظت فى مناسبات أخرى ان الفراش كان يستند براسه الى باب يفضى الى الغرفة المجاورة . فماكدت أطفىء الضوء حتى لاحظت أن مصراعى الباب لايلتئمان تماما وأن شعاعا من الضوء كان ينفذ من خلال الفرجة . فنهضت قليلا معتمدة على الوسائد بمرفقى واخرجت راسى من بين الزخارف الحديدية القائمة فى آخر الفراش حيث اختلست النظر من خلال الشق . لم أفعل ذلك بدافع من الفضول فقد كنت على علم بما سأراه وأسمعه من خلال الشق . ولكننى كنت اخشى خواطرى ووحدتى ودفعنى خوفى الى ان أنشد الصحبة فى الغرفة المجاورة حتى ولو كنت لا أستطيع ذلك الا باستراق السمع . غير أننى ظللت انظر بعض الوقت دون أن أرى أحدا ــ فقد كانت هناك منضدة مستديرة أمام شق الباب حيث كان الضوء ينصب من الثريا . كما لمحت فيما وراء المنضدة مرآة صوان للملابس كانت تلمع فى الظلام العميق . ولكننى سمعت أصواتا ــ ذلك الحديث المعهود الذى لشد ما كان مألوفا لدى عن مسقط الرأس والعمر والاسم . وكان صوت المرأة هادئا متحفظا . اما صوت الرجل فكان عجلا مضطربا . وكانا يتبادلان الحديث فى احدى زوايا الغرفة ولعلهما كانا فى الفراش . وبدات احس بألم حاد فى عنقى من جراء حملقتى الطويلة دون أن أرى شيئا وكنت على وشك أن اشيح برأسى بعيدا عندما ظهرت المرأة أمام المرآة المعتمة فيما وراء المنضدة

وقد أولتني ظهرها . كانت تقف منتصبة القامة وهي عارية ولكنني لم استطع ان أرى من جسدها سوى ذلك الجزء الذي يبدأ من الخصر حتى الراس وذلك لان المنضدة كانت تعترض مجال بصري . كانت بلا ريب صغيرة السن للغاية . وقد بدا ظهرها تحت كتلة شعرها المجعد نحيلا يابســا قبيحا ينم بياضه عن الضعف الشـديد . ولعلها كانت دون العشرين من عمرها ولكن رخاوة صدرها وترهله كانا ينبئان بأنها ربما كانت أما بالفعل . وخطر لي أنها لابد أن تكون من بين أولئك الفتيات الصغيرات الجائعات اللائي يتسـكعن حول الفياض على مقربة من المحطـة وهن حاسرات الاذرع والرءوس في معظم الاحيان وقد ساء طلاء وجوههن ورثت ثيابهن واندست أقدامهن في احذية اسفينية ضخمة . وخطـر لي انهـا لا ريب تكشف عن لثاتها عندما تضحك . مرت بذهني كل هذه الاشياء في تلقائية تامة وبلا تفكير لان منظـر ذلك الظهر العـاري التعس كان يخفف عني فأحسست اني احبها وادرك ادراكا تاما ماكان يخالجها في تلك اللحظة من مشاعر وهي تتأمل صورتها في المرآة . ولكن صوت الرجل انبعث قائلا في خشونة ـ « ماذا تفعلين بحق السماء ؟ » فتركت المرآة . ورايتها لحظة في وضع جانبي وقد انحنى كتفاها وضمر صدرها تماما كما تخيلتها . ثم اختفت عن بصري ولم يلبث الضوء أن انطفأ بعـد ذلك بلحظة واحدة .

وانطفأ أيضا ذلك الحب الغامض الذي احسست به نحوها أثناء مشاهدتها ووجدتني مرة اخرى وحيدة في ذلك الفراش الكبير البارد وقد غمرني ظلام احتوى في طياته تلك الاشياء الباردة البالية . ومرت بذهني صورة هذين الشخصين الراقدين في النـاحية الاخرى من الحائط . فتخيلت انهما لن يلبثا أن يناما معا بعد فترة وجيزة . وأن الفتاة سترقد ملتصقة بظهر رفيقها وقد وضعت ذقنها على كتفه وتشابكت ساقاها بساقيه واحاطت ذراعها بخصره واستقرت يدها على حقوه بينما امتدت اصـابعها عبر بطنه في استرخاء ـ كالجذور التي تنشد الغذاء في أعماق الارض ـ وفجأة راودني شعور بأني كنت كالنبات الذي اقتلع من تربته والقي به على احد احجار الرصف الملساء ليذوي ويموت . وافتقدت مينو . وكنت اذا مددت يدي احس بفراغ كبير خاو متجمد يحيط بي من جميع الجهات وانا أرقد منكمشة هناك في وسط الفراش بلا صحبة أو حماية . ولشد ما كان حنيني الى عناقه حادا مؤلما . ولكنه لم يكن هناك . فراودني

احساس الزوجة التى ارملت . وبدأت أبكى وذراعى ممتدة تحت الملاء كأنى أضمه الى . واخيرا لا أدرى كيف استغرقت فى النوم .

كان نومى دائما هادئا وعميقا يشبه الشهية التى يسهل اشباعها دون جهد خاص . لذا كادت تنتابنى الدهشة عندما استيقظت فى الصباح التالى لاجد نفسى فى غرفة زيلندا متمددة فى ذلك الفراش وقد سقط على الوسادة والحائط شعاع من الشمس كان يتسلل من خلال مصراعى النافذة . ولم أكد أعى أين كنت حتى سمعت رنين التليفون فى الدهليز . فردت زيلندا وسمعتها تذكر اسمى ثم جاءت لتطرق باب غرفتى . فقفزت من الفراش وركضت نحو الباب عارية القدمين مرتدية قميص النوم .

كان الدهليز خاليا وقد وضعت سماعة التليفون على الرف . اما زيلندا فقد عادت الى المطبخ وسمعت صوت أمى فى الطرف الاخر من سلك التليفون يقول :

— « هل هذه أنت يا آدريانا ؟ »

— « نعم . »

— « ما الذى دعاك الى الرحيل ؟ ... ليتك تعلمين فقط ماذا حدث هنا ! ... كان فى امكانك ان تنذرينى ... فلشد ما انتابنى الذعر ! »

فقلت فى عجلة :

— « نعم . انى اعلم كل ما حدث . فلا جدوى من الحديث فيه » .

فأردفت قائلة :

— « لشد ما كنت قلقة عليك . ثم هناك السنيور ديوداتى . »

— « السنيور ديوداتى ؟ »

— « نعم . فقد جاء هذا الصباح فى ساعة مبكرة للغاية .. وهو يريد أن يراك فورا لامر عاجل للغاية .. ويقول انه باق هنا فى انتظارك . »

— « اخبريه اننى قادمة فى الحال . اخبريه اننى سأكون هناك بعد دقيقة او اثنتين . »

وضعت السماعة ثم ركضت الى داخل الغرفة حيث ارتديت ثيابى بأسرع ما أمكننى . لم اكن آمل ان يفرج عن مينو بهذه السرعة . ولو انه لم يفرج عنه الا بعد فترة انتظار طالت بضعة أيام او اسبوعا لزادت سعادتى عما خالجنى وقتذاك . فلم أكن مطمئنة الى مثل هذا الافراج السريع . وساورنى على الرغم منى شعور

بالخوف الغامض فكل حقيقة لها دلالتها ولكننى عجزت عن فهم ما تعنيه تلك العودة السريعة الى الحرية . غير اننى أحسست بالهدوء عندما خطر لى أن آستاريتا ربما استطاع ان يفرج عنه فورا كما وعد . وعلى أية حال فقد تاقت نفسى الى رؤيته مرة أخرى فكان ذلك الشوق رغم ايلامه الى حد ما يبعث فى نفسى احساسا لذيذا .

وما ان ارتديت ملابسى ووضعت فى حقيبتى السجائر والملبس وثمار اللوز لكيلا أجرح شعور زيلندا فأننى لم أذق منها شيئا فى الليلة السابقة حتى ذهبت الى المطبخ لتوديعها .

فسألتنى قائلة :

ـ « اتشعرين بمزيد من البهجة ؟. هل زالت عنك تلك الحالة النفسية السيئة ؟ »

ـ « كنت مرهقة . والان وداعا . »

ـ « مهلا . مهلا ! اتحسبيننى لم اسمع حديثك فى التليفون ؟ السنيور ديوداتى هه ؟ هاك . انتظرى دقيقة ـ فلتأخذى قدحا من القهوة ـ » كانت لا تزال تتكلم عندما كنت قد غادرت الشقة فعلا .

كنت وأنا جالسة على حافة المقعد فى السيارة الاجرة وحقيبتى بين يدى متحفزة للقفز الى الخارج حال وقوفها . وكنت أخشى أن أجد جمعا من الناس أمام المنزل بسبب الاعيرة النارية التى اطلقها سونزونيو . وتساءلت عما اذا كان من الحكمة أن اذهب الى المنزل ـ فربما جاء سونزونيو طلبا للانتقام منى ـ ولكننى أحسست اننى لا أعبأ بذلك . فلو شاء سونزونيو ان ينتقم منى فليفعل فقد كنت أتوق الى رؤية مينو كما استقر رأيى على الخروج من مخبئى ما دمت لم أرتكب ذنبا .

ولكننى لم أجد أحدا عند الباب أو على الدرج . فاندفعت الى داخل غرفة الجلوس حيث رأيت أمى جالسة الى ماكينة الخياطة بالقرب من النافذة بينما كانت أشعة الشمس تجاهد لتدخل من خلال زجاج النافذة القذر ورأيت القط فوق المائدة يلعق مخالبه . فتوقفت امى عن الخياطة فى الحال وهتفت قائلة :

ـ « اذن فها انت ذى ! كان فى امكانك ان تخبرينى على الاقل بأنك ذاهبة لاستدعاء الشرطة ! »

ـ « أية شرطة ؟ ماذا تعنين بحق السماء ؟ »

ـ «اذن لذهبت معك ـ ليتك تعلمين فقط مدى ماانتابنى من الذعر .

فاحتججت قائلة فى غضب :
ــ اننى لم اذهب لاستدعاء الشرطة . بل غادرت المنزل وهذا هو كل ما حدث . اما رجال الشرطة فكانوا يبحثون عن شخص آخر . ولا ريب ان هذا الرجل كان يؤرق ضميره شيء ما . »
فقالت وهى تنظر الى معاتبة ــ « اذن فأنت تأبين حتى ان تخبرينى . »
ــ « بماذا أخبرك ؟ »
ــ لا تخشى من ثرثرتى . ولكنك لن تقنعينى بأنك خرجت لغير ما غاية أو هدف . فان رجال الشرطة جاءوا بعد خروجك بدقائق. »
ــ « بيد ان هذا غير صحيح فاننى ــ »
ــ « ولكنك على أية حال محقة تماما فيما فعلت . فهناك بعض العناصر الرهيبة . أتعرفين ماذا قال أحد رجال الشرطة ؟ قال ــ « لقد رأيت هذا الوجه من قبل . »
فوجدت انه ما من سبيل لاقناعها . اذ انه كان يخيل لها اننى خرجت عمدا للوشاية بسونزونيو وأن ذلك أمر لا يقبل المناقشة ، فقاطعتها فجأة فى جفاء قائلة ــ « حسنا .. حسنا . وماذا عن الرجل المصاب ؟ كيف نقلوه ؟ »
ــ « أى مصاب ؟ »
ــ « لقد قيل لى ان هناك رجلا فى النزع الاخير ــ »
ــ « لا . لا . لقد أخطأوا فيما ادعوا . فان أحد رجال الشرطة قد أصابته رصاصة بسجح فى ذراعه وضمدتها له بنفسى . ولكنه كان على خير ما يرام عندما غادر المنزل . ومع ذلك فليتك سمعت الطلقات ! كانوا يطلقون النار على الدرج وقد ضج المنزل بأسره . وعندما سئلت عما حدث قلت اننى لا ادرى شيئا . »
ــ « وأين السنيور ديوداتى ؟ »
ــ « فى غرفتك . »
كان السبب فى تباطئى قليلا مع أمى اننى الان كدت أشعر بالاحجام عن لقاء مينو وكأنى كنت أتوقع أن أسمع أنباء سيئة تركت غرفة الجلوس واتجهت نحو غرفتى التى وجدتها غارقة فى الظلام . وقبل ان امد يدى لاشعل الضوء اذا بصوت مينو يقول
ــ « ارجو الا تشعلى الضوء . »
فلفتت نظرى نغمة غريبة فى صوته لم تكن مرحة على الاطلاق . فأغلقت الباب وتحسست طريقى الى الفراش حيث جلست على

حافته . فأحسست به مضطجعا على جنبه بالقرب منى . وسألته قائلة ـ « أمريض أنت ؟ »
ـ « بل فى تمام الصحة . »
ـ « ألست متعبا ؟ »
ـ « كلا . لست متعبا . »
كنت أتوقع لقاء يختلف عن ذلك كل الاختلاف . ولكن تلازم الفرحة مع الضوء حقيقة ثابتة . ففى ذلك الظلام بدت عيناى عاجزتين عن التألق واللمعان وبدا صوتى عاجزا عن صيحات البهجة والفرح وعجزت يداى عن التعرف على ملامحه المحبوبة . فانتظرت بعض الوقت . ثم سألته منحنية تجاهه قائلة ـ « ماذا تبغى ان تفعل ؟ أتريد ان تنام ؟ »
ـ « كلا . »
ـ « اتريدنى ان ابقى هنا بجانبك ؟ »
ـ « نعم . »
ـ « اتريدنى أن أرقد على الفراش ؟ »
ـ « نعم . »
فقلت عرضا ـ « أتريد المضاجعة ؟ »
ـ « نعم . »
وقد أدهشنى ذلك الرد لانه كما سبق ان قلت لم يراوده قط ميل حقيقى الى المضاجعة . فأحسست فجأة بالغلمة تدب فى حواسى . وسألته قائلة فى حب ـ « اتريد ان تضاجعنى ؟ »
ـ « نعم . »
ـ « وهل سترغب فى ذلك دائما من الان فصاعدا ؟ »
ـ « نعم . »
ـ « وهل سنكون دائما معا ؟ »
ـ « نعم . »
ـ « الا تريدنى أن أشعل الضوء ؟ »
ـ « كلا . »
ـ « لا يهم . فسأخلع ثيابى فى الظلام . »
وبدأت أخلع ثيابى يخالجنى احساس بالنشوة كمن أحرز نصرا حاسما . فقد خيل لى ان الليلة التى قضاها فى السجن قد أظهرت له فجأة انه يحبنى وفى حاجة الى . ولكنه كان تقديرا خاطئا كما سأذكر . فمع اننى كنت محقة فى اعتقادى ان هناك علاقة بين

القبض عليه وبين استسلامه غير المتوقع فانني لم أدرك ان التغير الذى طرأ على موقفه لم يكن فيه ما يرضى غرورى او حتى يشجعني. ولكنني من الناحية الاخرى كنت لا استطيع عندئذ ان اتبين الامور اكثر من ذلك . فقد كان جسدى يحفزنى نحوه باندفاع كحصان كبح جماحه زمنا طويلاً وكنت أتوق الى الترحيب به فى حماس وابتهاج بعد ان حال موقفه والظلام دون ذلك .

لكننى عندما اقتربت منه وانحنيت فوق الفراش لاتمدد بجانبه شعرت به فجأة يقبض على ركبتى بذراعيه ثم يعضنى فى ردفى الايسر بوحشية . فأحسست بألم حاد ولكننى فى نفس الوقت ادركت تماما انه بعضته هذه انما يعبر عما يخالجه من يأس غامض لا تفسير له . فبدا لى وكأننا روحان لعينتان فى أعماق جحيم جديد دفعتنا الكراهية والغضب والحزن الى ان يغرز كل منا اسنانه فى بدن الاخر لا عاشقان يتأهبان لممارسة الحب . وبدت لى انها عضة لا نهائية كأنه يريد ان يمزق بأسنانه فلذة من بدنى . والاخيرا لم أعد استطيع أن اتحمل الالم فدفعته بعيدا عنى مع أننى كنت أشعر ببعض الرغبة فى ذلك لما وجدته من اللذة فى عضه بينما أحسست فى نفس الوقت أنه عمل خال من الحب . فقلت له فى صوت ذليل متقطع ـ « لا . لا . ماذا تفعل ؟ انك تؤلمنى ... »

وهكذا تلاشى من ذهنى وهم النصر الذى احرزته . وبعد ذلك لم نبس بكلمة واحدة طوال الوقت الذى مارسنا فيه الحب . ولكننى مع هذا استطعت من خلال سلوكه ان اتكهن فى غموض بالمعنى الحقيقى لاستسلامه للذة . وقد فسر ذلك بالتفصيل فيما بعد . فقد ادركت أنه حتى تلك اللحظة لم يكن يرغب فى تجاهلى بقدر رغبته فى تجاهل جزء من نفسه كان يشتهينى . ولكنه اذا به الان على العكس من ذلك يطلق له العنان بعد ان ظل يقاومه حتى تلك اللحظة ـ هذا هو كل ما هنالك . اما أنا فلم يكن لى شأن بذلك ولم يزد حبه لى عما كان عليه من قبل . وسواء فى نظره ان كنت انا التى يضاجع ام اية فتاة أخرى . فلم اعد ان اكون وسيلة يتخذها ليعاقب بها نفسه أو يثيبها . ولم تكن تلك الاشياء ثمرة تفكيرى اثناء رقادنا معا فى الظلام بقدر ما كانت وليدة احساسى بها فى لحمى ودمى تماما كما احسست من قبل ان سونزونيو كان وحشا رهيبا مع أننى لم أكن أدرى شيئا عن جريمته . ولكننى أحببته وكأن حبى أقوى من معرفتى .

ومع ذلك فقد أدهشنى عنفه وجلد رغبته التى لشد ما كانت ضنينة من قبل . وكنت أعتقد دائما ان ضعف بنيته يضطره الى كبح جماح نفسه حرصا على صحته . ولذا فانه عندما بدأ يعيد الكرة مرة أخرى بعد مضاجعته اياى لم يسعنى الا ان أهمس له قائلة ـ « اما فيما يخصنى فلتفعل ما شئت . ولكن حذار ان تؤذى نفسك . »

ويخيل لى انه ضحك ثم تمتم فى اذنى قائلا ـ « لا يمكن ابدا أن يؤذينى شيء الآن . »

فبعثت فى نفسى كلمة أبدا احساسا رهيبا كاد يقضى على تلك اللذة التى كنت أشعر بها فى عناقه ومضاجعته وظللت أنتظر فى ضجر تلك اللحظة التى يمكننى أن أحدثه فيها لاعرف ما حدث بالفعل . وما كدنا ننتهى من ممارسة الحب حتى بدأ لى أنه استغرق فى اغفاءة ولكنه ربما لم ينم حقا . فانتظرت فترة معقولة قبل ان احدثه قائلة في صوت خفيض وفى مشقة أوجفت قلبى :

ـ « والان أخبرنى بما حدث . »

ـ لم يحدث شيء . »

ـ « ولكن لا ريب ان شيئا ما قد حدث . »

فسكت لحظة ثم تكلم بعد ذلك قائلا وكانه يحدث نفسه ـ «أعتقد انك أنت أيضا ينبغى أن تعلمى . حسنا . هذا هو ما حدث . ففى الساعة الحادية عشرة من مساء أمس صرت خائنا . »

فانتابتنى لهذه الكلمات رجفة باردة لا بسبب الالفاظ نفسها فحسب بل بسبب اللهجة التى قيلت بها .. فتلعثمت قائلة :

ـ « خائنا !! لماذا ! »

وكانت لهجة اجابته باردة مضحكة على صورة حزينة ـ « كان السنيور مينو معروفا بين رفاقه فى العقيدة السياسية بصلابته فى الرأى وعنفه فى رد الفعل . وكان يعتبر فى نظرهم خليقا بأن يكون زعيم المستقبل .. ولشد ما كان السنيور مينو واثقا بجدارته الخلقية فى اى ظرف من الظروف حتى أنه كاد يتمنى أن يقبض عليه لكى يوضع موضع الاختبار .. ذلك لان السنيور مينو كان يعتقد أن الاعتقال والسجن وغيرهما من وسائل التعذيب تشكل جزءا جوهريا من حياة رجل السياسة تماما كما تشكل الرحلات البحرية الطويلة والاعاصير وحوادث غرق السفن جزءا من حياة البحار . ولكن ذلك الملاح ما كاد يواجه الامواج العالية لاول مرة حتى انتابه

الفتيان كأتعس فتاة صغيرة . فما ان وجد السنيور مينو نفسه فى حضرة شرطى عادى صغير حتى باح بكل شىء دون انتظار لتهديد أو تعذيب .. وفى الواقع ـ فانه خائن .. وهكذا فمنذ أمس ودع السنيور مينو حياته السياسية واتخذ لنفسه وظيفة جديدة ـ تلك هى ـ ماذا أسميها ـ وظيفة المرشد ؟ »

فهتفت قائلة ـ « لقد انتابك الخوف ! »

فأجابنى قائلا على الفور ـ « كلا فلعلى لم اكن حتى خائفا . ولكن ما حدث لى هو بذاته الذى عرانى فى ذلك المساء عندما كنت معك ـ حين طلبت الى ان أشرح لك آرائى . فاذا بها تبدو لى فجأة وقد فقدت أهميتها تماما . فقد استهوانى ذلك الذى قام باستجوابى . كان يريد ان يعرف أشياء معينة . وعندئذ لم أعبأ باخفائها عنه فذكرتها له فى بساطة تامة كما اتحدث اليك الآن . » ثم اردفه قائلا بعد لحظة من التفكير ـ « أو بالاحرى اننى لم أذكرها بنفس هذه البساطة ـ بل بدقة وسرعة وحماس أيضا الى حد ما . ولو زاد الامر قليلا عن هذا الحد لاضطر الرجل الى تهدئة حماسى ! »

فتخيلت آستاريتا وادهشنى ان يعجب به مينو وسألته قائلة :

ـ « من الذى استجوبك ؟ »

ـ « لست أدرى . ولكنه كان شابا انيقا للغاية شاحب الوجه أصلع الراس أسود العينين . لاريب انه أحد الكبار . »

ولما تبينت من وصفه انه آستاريتا لم أتمالك نفسى من الهتاف قائلة ـ « وهل أعجبت به ؟! »

فأخذ مينو يضحك فى الظلام وفمه على اذنى قائلا ـ « مهلا . مهلا ! فانى لم أعجب بشخصه بل بوظيفته . فأنت تعلمين ـ انك عندما تتخلين عما تدركين انه من حقك ـ أو حتى لا تدركين انه من حقك ـ فان حقيقتك تطفو فوق السطح . ألست ابن أحد كبار الملاك ؟ ألم يكن ذلك الرجل يحمى مصالحى على ضوء وظيفته ؟ لقد تبين لنا ان كلينا ينتمى الى نفس الطبقة . وان قضيته فى الحقيقة هى قضيتى . ماذا خيل لك ؟ اننى اعجبت به لشخصه ؟ لا . لا . بل أعجبت بوظيفته ـ فقد ادركت اننى انا الذى ينقده أجره ليفعل ما فعل . وأننى انا الذى يدافع عنه . واننى أنا الذى يظاهره كسيده رغم مواجهتى اياه فى موقف المتهم . »

ثم ضحك أو بالاحرى انه أطلق سعلة ضاحكة صرت فى اذنى على صورة شنيعة . وكان كل ما أدركته أن أمرا فاجعا قد وقع وأنه

حياتى بأسرها صارت مهددة مرة أخرى . ثم ما لبث ان أردف قائلا — « ولكن ربما كان فى ذلك ظلم لى . فلعلى لم أتحدث الا لانه لم يعد يهمنى لو فعلت ذلك — ولان كل شىء بدا لى فجأة سخيفا عديم الاهمية ولأننى لم أعد أدرك شيئا من تلك الاشياء التى كان ينبغى على أن أومن بها . »

فرددت قائلة على صورة آلية — « ألم تعد تدرك شيئا ؟ »

— « كلا . أو الاحرى — أننى لم أعد أدرك سوى الالفاظ نفسها لا الحقائق التى تنطوى عليها . والان كيف يمكنك أن تتعذبى من أجل ألفاظ فحسب ؟ والالفاظ ما هى الا أصوات . فأكون كمن ذهب الى السجن من أجل نهيق حمار أو صرير عجلة . فالالفاظ التى سمعتها لم تعد لها قيمة اذ بدت كلها تافهة متشابهة . وكان هو يطلب منى ألفاظا فأعطيته اياها بقدر ما أراد . »

فلم يسعنى الا ان أعترض قائلة — « حسنا اذن فماذا يهم مادامت ألفاظا فحسب . »

— « نعم . ولكنها لسوء الحظ ما كادت تخـرج من فمى حتى صارت حقائق ولم تعد ألفاظا فحسب . »

— « لمـــــاذا ؟ »

— « لاننى بدأت أتعذب . فقد أسفت لقولها . ولاننى أدركت أننى بقولها صرت أنا نفسى تلك الحقيقة المعروفة بكلمة خائن . »

— « اذن فلماذا تكلمت ؟ . »

قال فى بطء — « لماذا يتكلم الناس أثناء نومهم ؟ فلعلى كنت نائما . أما الآن فقد صحوت . »

وهكذا أخذ يدور ويدور ولكنه كان لا يفتأ يعود الى نفس النقطة. فأحسست بطعنة فى قلبى وقلت فى مشقة — « ولكن لعلك مخطىء . فأنت تظن انك بحت بكل شىء — فى حين انك لم تقل شيئا بالفعل . »

فقال فى ايجاز — « كلا . لست مخطئا . »

ثم سكت لحظة فسألته قائلة — « وماذا عن صديقيك ؟ »

— « أى صديقين ؟ »

— « توليو وتوماسو . »

فقال متظاهرا عن عمد بعدم الاكتراث — « لست أدرى شيئا عنهما . ولكنهما سيقبض عليهما . »

فهتفت قائلة — « كلا . لن يقبض عليهما ! » فقد خيل لى ان آستاريتا لن يستغل ضعف مينو المؤقت . ولـكن عندما مرت بذهنى

فكرة القبض عليهما بدأت تلوح لى خطورة الامر كله .
فقال ــ « لم لا ؟ لقد أدليت باسميهما . وليس هناك ما يمنع من القبض عليهما . »
فلم يسعنى الا ان أصيح فى ألم قائلة ــ « آه يا مينو . لماذا فعلت ذلك ؟ »
ــ « هذا هو السؤال الذى لا أفتأ أوجهه الى نفسى . »
فاسترسلت قائلة بعد لحظة وأنا اتشبث بالامل الوحيد الذى لم يبق عندى سواه :
ــ « ولكنهما اذا لم يقبض عليهمـــا فلن يكون الامر خطيرا الى هذا الحد . اذ انهما لن يعلما انك ــ »
فقاطعنى قائلا ــ « ولكننى اعلم ذلك ! وسوف أعلمه دائما . سأعلم دائما اننى لم أعد ذلك الشخص الذى كان بل شخصا آخر ــ شخصا تمخضت عنه على وجه اليقين كما تتمخض الام عن طفلها ولكننى لسوء الحظ لا أحبه . وهذه هى المشكلة . فبعض الرجال يقتلون زوجاتهم لانهم لا يطيقون الحياة معهن . والآن عليك ان تتخيلى فقط كيف تكون الحال لو تقمص شخصان جسدا واحـــدا وكان احدهما يكره الآخر كرهه للموت . اما بخصوص صديقى فمن المؤكد على اية حال انهما سيقبض عليهما . »
ولم يعد فى وسعى أن أكبح جماح نفسى فقلت ــ « كان سيفرج عنك حتى لو لم تتكلم مطلقا . أما صديقاك فلا يتهددهما خطر ما . »
ثم رويت له بسرعة قصة علاقتى باستاريتا وتدخلى للافراج عنــه ووعد آستاريتا . فأنصت الى فى صمت . وأخيرا قال ــ « هـــذا أفضل وأفضل ! اذن فان الافراج عنى لا يرجع الى حماسى كمرشد بل الى علاقتك الغرامية باحد رجال الشرطة . »
ــ « لا تقل هذا يا مينو ! »
ثم أضاف قائلا بعد لحظة ــ « ولكنه مما يسرنى على اية حال ان يفلت صديقاى بسهولة من العقاب ــ فان ذلك ســـيعفينى من تأنيب ضميرى قبلهما على الاقل ! . »
فقلت فى حماس ــ « انصت الى . ماالفرق بينك وبين صديقيك ؟ فهما مدينان بحريتهما لى أيضا وللحب الذى يربط آستاريتا بى . »
ــ « ولكن معذرة ! فهناك فارق ! فهما لم يبوحا بشىء . »
ــ « وكيف تعلم ؟ »
ــ « آمل الا يفعلا من اجلهما . وعلى أية حال فلا يجدينى مطلقا

ان أكون فى نفس موقفهما . »

فألححت مرة اخرى قائلة ـ « ولكن ما عليك الا ان تتجـاهل ما حدث ـ اذهب لزيارتهما ولا تقل شيئا . فمـاذا يهمك ؟ فكل انسان معرض لان تمر به لحظة ضعف . »

فأجابنى قائلا ـ « نعم . ولكن لا يرغم كل انسان على مواصلة الحياة بعد ان يموت . أتدرين ماذا حدث لى فى تلك اللحظة عندما تكلمت ؟ لقد مت ـ مت الى الابد . »

ولم اعد أستطيع ان أتحمل الالم الذى كان يعصر قلبى فانفجرت باكية .

فسألنى قائلا ـ « لماذا تبكين ؟ »

فأجبته مجهشة بالبكاء أكثر من أى وقت قائلة ـ « لقولك انك ميت . لشد ما أنا خائفة » .

فسألنى مازحا ـ « الا تحبين صحبة المـوتى ؟ ليس الامـر مخيفا كما يبدو . بل انه فى الواقع ليس مخيفا على الاطلاق . فقد مت بطريقة خاصة للغاية . اذ أن جسدى ما زال حيا تماما . جسى لترى ان كان حيا أو ميتا » . ثم تناول يدى وجعلنى أجسه قائلا ـ « يمكنك أن تحسى أننى حى . وجذب يدى ضاغطا بها على جسده ثم سحبها الى حقوه حيث جعلنى أضغط بشدة على ذكره قائلا ـ « ها انذا حى فى جميع أجزاء جسدى . وأما فيما يخصك فاننى أكثر حياة مما كنت فى أى وقت مضى .. لا تخافى فان كنا لم نمارس الحب كثيرا أثناء حياتى فسنعوض ذلك تماما الان بعد مماتى » .

ثم ألقى يدى الباردة بعيدا عنه فى نوع من الاحتقار الغاضب . فوضعت كلتا يدى على وجهى واخذت ابكى تعاستى بصوت مسموع . أردت أن ابكى الى الابد بكاء لا ينتهى لاننى كنت أخشى اللحظة التى أتوقف فيها عن البكاء فأبقى خاوية ذاهلة فى مواجهة نفس الموقف الذى أثار بكائى . ومع ذلك فقد حانت تلك اللحظة وجففت بالملاءة وجهى المبلل بالدموع ثم اخذت أحملق فى الظـلام بعينين مفتـوحتين على سعتهما . وسمعته يخاطبنى بصوت حان رقيق وهو يسألنى قائلا :

ـ « فلنستمع الى رأيك فيما ينبغى أن أفعل » .

فاستدرت نحوه بعنف وتشبثت به بكل ما أوتيت من قوة ثم تكلمت وفمى على فمه قائلة :

ـ « فلتنس هذا الموضوع . ولا تنزعج بشأنه . فما فات مات . ذلك هو ما ينبغى أن تفعل » .

ـ « ثم ماذا ؟ »

ـ « ثم تعود الى دراستك من جديد . وتحصل على درجتك . وبعد ذلك تعود الى مسقط راسك . ولا يهمنى الا أراك مرة أخرى مادمت أعلم انك سعيد . فابدأ العمل وعندما يحين الوقت تزوج فتاة من ذلك الجزء من العالم ـ فتـــاة تحبك وتنتمى الى طبقتـــك . ما شأنك بالسياسة ؟ انك لم تخلق لها . ولقد أخطأت باشتغالك بها . أخطأت ولكن الناس جميعا يخطئون . وسيـأتى اليـــوم الذى ترى فيـــه أن اهتمامك بالسياسة كان أمرا خارجا عن المألوف . اننى أحبك حقا يا مينـــو فلو أن امرأة أخرى فى مكانى لما قبلت أن تفـــارقك . ولكن فلترحل غدا ان دعت الضرورة . ولنفترق الى الابد ان رأيت ذلك ضروريا . فمادمت سعيدا ـ » .

فقال فى صوت واضح عميق ـ « ولكننى لن أعرف السعادة مرة أخرى . فأنا مرشد » .

فأجبته قائلة فى سخط ـ « هذا كذب ! فانك لست كذلك على الاطلاق . وحتى لو كنت كذلك ففى امكانك رغم هذا أن تكون سعيدا ! فكم من الناس يبلغـــون ذروة السعادة مع انهم قد ارتكبوا جرائم . ولتتخذنى مثلا . فعندما يتكلم الناس عن بغى تجوب الشوارع فلا يعلم الا الله ماذا يجول بخاطرهم . ولكننى امرأة كغيرى من النساء وغالبا ما أنعم بالسعادة » . ثم اضفت قائلة فى مرارة :

ـ « ولشد ما تمتعت بالسعادة فى تلك الايام القليلة الماضية » .

ـ « أكنت سعيدة ؟ » .

ـ « نعم . للغاية . ولكننى كنت أعلم انها لايمكن أن تدوم وفى الواقع ـ »

وعندئذ أحسست بالرغبة فى البكاء من جديد ولكننى تمالكت نفسى ـ وأضفت قائلة ـ « كنت تتخيل نفسك فى صورة مختلفة تماما عن حقيقتك . ونحن نعلم ما حدث بعد ذلك فعليك الان أن تقبل نفسك كما أنت فى الحقيقة ليعود كل شىء الى نصابه . ان احساسك بالخجل وخوفك مما يظنه الناس وأصدقاؤك بك ازاء ما حدث . هما اللذان يشقيانك الى هذا الحد . اذن فلتقلع عن مقابلتهم . ولتجتمع بقوم آخرين فالعالم فسيح ! واذا كان شغفهم بك لا يكفى لاقناعهم بأن ما حدث لم يكن سوى لحظة ضعف فلتبق معى . فانى احبك وافهمك ولا اقف منك موقف القاضى ـ حقا ! » هكذا رحت أصيح عندئذ فى قوة واضفت قائلة ـ « حتى اذا ارتكبت ما هو أسوأ من ذلك ألف مرة فانك ستظل حبيبى مينو » .

فلزم الصمت . واسترسلت قائلة ــ « اننى أعلم أننى لست سوى فتاة فقيرة جاهلة . ولكننى أدرك بعض الامورخيرامماتدركهاأصدقاؤك بل خيرا مما تدركها انت . وقد راودنى نفس هــذا الشعور الــذى يراودك الان . فعندما التقينا لاول مرة ورفضت أن تلمسنى خيل لى أنك تحتقرنى . وفجأة فقدت كل رغبة فى مواصلة الحياة واشتد احساسى بالتعاسة والشقاء . فاردت أن أصير شخصا آخر ولكننى ادركت فى نفس الوقت أن ذلك ضرب من المحال وانه يتحتم على أن اظل كما كنت . وانتابنى احساس لزج محرق بالعار واليأس والحزن العميق فخيل لى انى تقلصت وتجمدت وشلت حركتى بــل راودتنى الرغبة فى الموت أو هكذا خيل لى أحيانا . وذات يوم خرجت للنزهة مع أمى وحدث ان دخلنا احدى الكنائس حيث تبين لى عن طريق احساسى اثناء الصلاة اننى ان كنت كما كنت فليس فى ذلك ما يدعو الى الخجل فى قرارة قلبى بل معنى ذلك أن تلك هى ارادة الله . ولا ينبغى أن اتمرد على مصيرى بل يجب أن اقبله فى اذعان وثقة وان كنت تحتقرنى فلا لوم على بل عليك . وفى الواقع فقد مرت بذهنى أشياء كثيرة واخيرا زايلنى احساسى بالمهانة وعاودنى مرحى وابتهاجى»

وبدأ يضحك ضحكة تجمدت لها أطرافى . ثم أجابنى قائلا ــ « معنى ذلك اننى يجب أن أقبل ما فعلت والا أقاومه ــ يجب أن اقبل ما فعلت وما صرت اليه والا أحكم على نفسى . حسنا مثل هذه الاشياء يمكن أن تحدث فى داخل الكنيسة . اما فى خارجها » .

فاقترحت عليــه متشبثة بأمل جـديد ــ « اذن فلتذهب الى الكنيسة » .

ــ « كلا لن اذهب اليها . فانى لا اومن بها . ولا اشعر فيها الا بالملل . وفضلا عن ذلك ــ فيالها من طريقة غريبة فى الحديث ! » ثم أخذ يضحك من جديد ولكنه توقف فجأة وامسك بى من كتفى ثم راح يهزنى فى عنف وهو يصيح قائلا ــ « الا تدركين ماذا فعلت ؟ الا تدركين ؟ الا تدركين ؟ » أخذ يهزنى فى عنف حتى ذهبت انفاسى قبل أن يلقى بنفسه الى الخلف على الفراش فى انفجار نهائى . ثم سمعته وهو يثب من الفراش ويأخذ فى ارتداء ملابسه فى الظلام . قال مهددا ــ « اياك أن تشعلى الضوء . فلا بد أن اتعود نظرة الناس الى . ولكن الوقت لم يحن بعد . فحذار أن تشعلى الضوء » .

ولم أجرؤ حتى على أن أتنفس . واخيرا سألته قائلة ــ « هل أنت ذاهب ؟ » .

فقال ويخيل لى انه ضحك مرة اخرى ـ « نعم ولكنى سأعود . لا تخشى شيئا فانى عائد . وفى الواقع فهاك خبرا سعيدا ـ فانى قادم للاقامة هنا معك » .

ـ « هنا معى ؟ » .

فاسترسل قائلا ـ « نعم . ولكنى لن أزعجك فى شىء . ففى امكانك أن تواصلى طريقتك المألوفة فى الحياة . وفى الامكان أن يعيش كلانا على ما ترسله الى أسرتى . كنت ادفع اجرا شاملا لاقامتى . ولكن هذا الاجر يكفينا نحن الاثنين اذا ما عشنا هنا فى المنزل » .

ولم يبعث البهجة فى نفسى اقتراحه الاقامة معى بقدر ما أثار الدهشة ولكنى لم أجرؤ على أن أعلق عليه بكلمة . وانتهى من ارتداء ملابسه فى ذلك الظلام الدامس وهو صامت لا يتكلم . ثم قال ـ « سأعود الليلة » . وسمعته يفتح الباب ليخرج ثم يغلقه . ورقدت هناك فى الظلام وعيناى تحملقان وقد فتحتا على سعتهما .

الفصل العاشر

وفى ذلك المســـاء نفسه توجهت الى مركز الشرطة المحلى عمــلا بنصيحة آستاريتا لادلى ببلاغ حول قضية سونزونيو . وكان يحدونى احجام شديد . اذ وجدتنى بعد ما حدث لمينو أحس برعب قاتل مميت . ازاء كل مايتصـــل بالشرطة ولو من بعيد . ولكننى الان كدت استسلم للمقادير فقد أحســست أن الحيـــاة أوشكت أن تفقد طعمها لفترة من الزمان .

وما كدت أطلع مأمور الشرطة على السبب الذى دعانى للحضور حتى قال لى ــ « كنا نتوقع مجيئك هذا الصباح » . كان رجلا دمثا فقد سبق لى أن عرفته بعض الوقت . ومع انه كان رب أسرة وكانت سنه تزيد على الخمسين فقد أدركت قبل ذلك بزمن طويل أن مشاعره نحوى لم تكن ودية فحسب بل أكثر من ذلك . ومن بين ملامحه التى ما زالت بارزة فى ذاكرتى أنفه الكبير الشبيه بالاسفنجة الذى لا يفتأ يضفى الكآبة على وجهه . وكان شعره لا يفتأ يقف فوق راسه بينما يغضى عينيه دائما وكأنه قد نهض لتوه من الفراش . وكانت عيناه الزرقاوان الحادتان تبدوان وكأنهما تختلســـان النظر من خلف قناع وجهه الاحمر المجعد الغليظ الذى يحاكي قشر البرتقال الضخم وهو نوع يظهر فى نهاية الموسم ولا يحتوى الا على ثمار يابسة متقلصة .

فقلت اننى لم استطع المجئ قبل ذلك . فرمقتنى عيناه الزرقاوان من خلف أديم وجهه الشبيه بقشر البرتقال مدة لحظة ثم خاطبنى قائلا بلهجة مؤتمنة .

ــ « حسنا . ما أسمه ؟ »

ــ «وكيف أعلم ذلك ؟ »

ــ « كفى عن هذا . فلا شك انك تعلمين : »

فقلت واضعة يدى على قلبى ــ « أقسم لك بشرفى اننى لا أعلم . فقد وقفنى فى الطريق ــ واذكر أنه خيل لى أن هناك شيئا غريبا فى شخصيته . ولكننى لم أعره اهتماما » .

ــ « ولكن كيف حدث انك تركته وحيدا فى شقتك ؟ »

ــ « كنت على موعد عاجل فتركته » .

ـ « ولكنه ظن أنك ذهبت لاستدعاء الشرطة . اتعلمين ذلك ؟ وصاح قائلا انك وشيت به » .
ـ « نعم . أعلم ذلك » .
ـ « وانه سينتقم منك » .
ـ « ثم ماذا » .
فأضاف قائلا وهو ينظر الى بامعـــان ـ « ولكن الا تدركين أنه رجل خطير وانه ربما أطلق النار عليك غدا لانك وشيت به تماما كمـا أطلق النار على رجال الشرطة » .
ـ « انى أدرك ذلك بالطبع » .
ـ « اذن فلماذا ترفضين الادلاء باسمه ؟ سنلقى القبض عليه ولا حاجة بك الى القلق بعد ذلك » .
ـ « ولكننى قلت لك أننى لا اعرف اسمه ! وهل ينبغى على ان اعرف أسماء جميع الرجال الذين أصحبهم الى المنزل ؟ » .
فاذا به يعلن فجأة قائلا بلهجة مسرحية ونبرات عالية وهو يتكىء الى الامام .
ـ « ولكننا نعلم من هو ! »
فأدركت أنه كان يتظاهر فحسب واجبته قائلة فى فتور ـ « اذا كنتم تعلمون من هو فلماذا تضايقوننى ؟ اقبضوا عليه ولتريحونا من الامر كله بعد ذلك » .
فأخذ يرمقنى لحظـــة فى صـــمت . ولاحظت ان عينيه القلقتين المضطربتين كانتا لا تتفحصان وجهى بقدر ما تتفحصـــان قوامى . وادركت ان احساسه بالواجب المهنى قد انهزم على الرغم منه أمام رغبته فى . ثم استرسل قائلا ـ « كما نعلم أنه اذا كان قد أطلق النار ثم لاذ بالفرار فلاريب أن هناك سببا قويا دعاه الى ذلك » .
ـ « آه لاشك عندى فى هذا » .
ـ « ولكنك تعلمين الاسباب التى دعته الى ذلك » .
ـ « انى لا أعلم شيئا . فان كنت لا أعرف اسمه فكيف يمكننى أن أعرف البقية ؟ » .
فقال ـ « نحن نعلم الامر كله » . صار الان يتكلم بطريقة آلية تماما وكأنه يفكر فى شىء آخر . فتأكدت انه لن يلبث أن ينهض من مكانه ويقبل نحوى . ثم أردف قائلا ـ « نحن نعلم كل ما حدث وسوف نقبض عليه . انها فقط مسألة أيام ـ ولعلها ساعات » .
ـ « انكم بذلك تحسنون صنعا » .

ثم نهض واقفا كما توقعت وسار حول المنضدة مقبلا نحوى . ثم قال لى وهو يحتفن ذقنى بيده ـ « كفى عن هذا . فأنت تعلمين كل شىء . ولكنك ترفضين مصارحتنا . فماذا تخشين ؟ » .

فأجبته قائلة ـ « انى لا أخشى شيئا . ولا أدرى شيئا . والآن ابعد يديك عنى » .

فردد قائلا ـ « كفى عن هذا » . ولكنه عاود جلسته خلف المنضدة قبل أن يسترسل قائلا :

ـ « من حسن حظك اننى احبك واعرف انك فتاة طيبة . اتعلمين ماذا يفعل أى رجل آخر فى مكانى ليرغمك على الكلام ؟ انه يحتجزك فترة طويلة أو يرسلك الى سان جاليكانو » .

فنهضت قائلة ـ « انى مشغولة ـ فاذا لم يكن لديك شىء آخر تريد أن تقوله لى ... »

ـ « اذهبى . ولكن كونى حذرة فى اختيار أصدقائك ـ من السياسيين وغيرهم » .

فتظاهرت بأننى لم أسمع تلك الكلمات الاخيرة التى قالها بقصد معين وهربت بأسرع ما أمكننى من تلك الغرف الصغيرة القذرة .

وبينما أنا سائرة فى طريقى عاودت التفكير فى سونزونيو . فقد رجح مأمور الشرطة ما سبق أن خامرنى من ظنون . اذ أن سونزونيو كان يريد أن ينتقم لنفسه منى لانه وثق بأننى وشيت به . وانتابنى الرعب لا خوفا على نفسى بل خوفا على مينو . فقد كان سونزونيو يهرف كالمجنون . ولو عثر على فى صحبة مينو لما تردد فى قتلنا نحن الاثنين . ولا يفوتنى أن أعترف بأن فكرة الموت مع مينو كانت تجذبنى على صورة غريبة . وتمثلت المشهد بأسره . فما أن يطلق سونزونيو النار حتى ألقى بنفسى أمامه لاحمى مينو فيصيبنى الرصاص بدلا منه . ومع ذلك فقد استهوانى أيضا أن يصاب مينو فى المعركة فنموت معا وتختلط دماؤنا . ولكن خيل لى أن مصرعنا معا بيد قاتل واحد وفى لحظة واحدة لن يبلغ فى روعته الانتحار معا . فقد بدا لى أن الاتفاق على الانتحار خاتمة خليقة بقصة غرام عنيف . كان أشبه باقتطاف الزهرة قبل ذبولها أو الانعزال فى مكان ساكن بعد سماع بعض الالحان السماوية . وطالما فكرت فى ذلك النوع من الانتحار الذى يوقف عجلة الزمن فيحول دون فساد الحب أو اتلافه . وهذا النوع من الانتحار لا يرجع السبب فيه الى العجز عن احتمال الالم بل يدبر عمدا نتيجة لفرط المتعة . فعندما كنت أحس أن حبى لمينو قد بلغ

من القوة حدا لن أستطيع ان أصل اليه فى المستقبل كانت فكرة الاتفاق على الانتحار تراودنى على صورة طبيعية للغاية بنفس التلقائية التى تدفعنى الى تقبيله ودغدغته . ولكننى لم أكاشفه قط بذلك الخاطر لاننى كنت أعلم أنه اذا اتفق عاشقان على الانتحار معا فلابد أن يكون حبهما متساويا . ولم يكن مينو يحبنى أو ان حبه لى لم يبلغ حد الرغبة فى أن يموت معى .

كانت كل هذه الخواطر تدور بذهنى وانا فى طريقى الى المنزل عندما فوجئت بدوار مصحوب بنوبة من الغثيان . ودب فى جميع أطرافى هزال مخيف . ولم يكد يتسع الوقت الا لدخول احد محال اللبن وكان على مقربة منى . كنت على مسافة غير بعيدة من المنزل ولكننى أدركت أننى لم أعد أقوى على قطع تلك المسافة القصيرة دون أن أسقط على الارض .

جلست الى أحد الموائد الصغيرة خلف الباب ذى الواجهة الزجاجية حيث أغمضت عينى يخالجنى احساس بالانهيار . ولم يزايلنى الدوار أو الغثيان الشديد بل زاد شعورى بهما من أثر نفثات البخار المتصاعد من ماكينة القهوة . فلشد ما أزعجتنى تلك النفثات رغم بعدها الغريب عنى . كنت أحس فى يدى وفى وجهى بدفء الغرفة الساخنة المقفلة ومع ذلك فقد سرت فى جسدى برودة شديدة . وصاح الرجل قائلا من خلف المنضدة الطويلة ـ « أتبغين قدحا من القهوة يا مس آدريانا ؟ » كان يعرفنى جيدا فأومأت له برأسى موافقة دون أن أفتح عينى .

وأخيرا ثبت الى رشدى ورشفت القهوة التى وضعها الرجل أمامى على المائدة وفى الواقع لم تكن هذه أول مرة أشعر فيها بذلك الغثيان نفسه ولكنه كان لا يفتأ ينتابنى على صورة خفيفة للغاية حتى أننى لم أكد ألحظه . ولم أعره بالا لان الاحداث الغريبة المحزنة التى استغرقتنى حالت دون ذلك . أما الان فاننى بعد التفكير فيه والربط بين شعورى بالغثيان وبين انقطاع له دلالة كان قد طرأ فى الشهر السابق على حياتى الجسمانية صرت مقتنعة بأن ذلك الشك الغامض الذى أخذ يساورنى أخيرا وكنت لا أفتأ ابعده الى اظلم بقعة فى وعيى لابد أن يكون له أساس من الواقع . ووجدتنى فجأة أحدث نفسى قائلة ـ « لا سبيل الى الشك فى الامر . فلاريب أننى حامل » .

دفعت ثمن القهوة وغادرت المكان . وعندئذ لشد ماتعقد شعورى بل أجدنى الان وقد تعذر على التعبير عن ذلك الشعور رغم مضى

تلك الفترة الطويلة من الزمن . سبق أن قلت ان الكوارث لا تأتى فرادى . اذ أن تلك الحقيقة الجديدة التى لو طالعتنى فى أى وقت آخر وفى غير تلك المناسبة لاستقبلتها بالفرحة والسعادة بدت لى فى ظل الظروف الراهنة مثلا حقيقيا لسوء الحظ . ولكننى أجد فى طبعى من الناحية الاخرى غريزة غامضة لا تقاوم تقودنى دائما الى اكتشاف ناحية جذابة حتى فى أبغض الظروف . وحينذاك لم يتعذر على مطلقا ان اجد تلك الناحية الجذابة فيما حدث . انه نفس الشعور الذى يملأ قلوب النساء جميعا بالامل والرضا عندما يعلمن أنهن حبالى . لا شك أن طفلى سيولد فى ظروف لا يمكن أن يتخيل المرء شرا منها . ولكنه مع ذلك سيكون طفلى وسأكون أنا الام التى وضعته وسأعلمه وأسعد به . وحدثت نفسى قائلة ان الطفل طفل دائما ولا يسع أية امرأة مهما اشتد فقرها وساءت ظروفها وغمض مستقبلها وانعدم احساسها بالمسئولية وافتقرت الى من يعولها الا أن تشعر بالسعادة عندما تعلم أنها سوف تضع طفلا .

وعلى اثر تلك الخواطر عاودنى هدوئى . فلم ألبث بعد لحظة من الخوف واليأس أن استعدت شعورى بالطمأنينة والثقة كطبعى دائما . وكانت عيادة ذلك الطبيب الشاب الذى سبق أن فحصنى منذ فترة وجيزة عندما سحبتنى أمى الى الصيدلية لتعرف ما اذا كنا أنا وجينو قد مارسنا الهوى لا تبعد كثيرا عن محل اللبن . فاستقر رأيى على الذهاب اليه ليفحصنى . وكان الوقت مبكرا فلم أجد أحدا فى غرفة الانتظار . وكان الطبيب يعرفنى جيدا فحيانى تحية قلبية .

ولم يكد يغلق الباب حتى أعلنت قائلة فى هدوء ـ « أكاد أكون على ثقة بأننى حامل يا دكتور » .

ولما كان على علم بمهنتى فقد أخذ يضحك ثم سألنى قائلا ـ « هل انت آسفة لذلك ؟ »

ـ « كلا مطلقا . بل انى فرحة فى الواقع » .

ـ « فلنر » .

وبعد ان وجه الى عدة أسئلة عن حالة الغثيان التى تنتابنى أرقدنى على الغطاء المشمع الذى يكسو الاريكة ثم فحصنى . وقال لى بلهجة مرحة ـ « لقد أصبت كبد الحقيقة فى هذه المرة » .

وسرنى أن تتأكد ظنونى دون أن يكون هناك مجال للشك . وكنت هادئة للغاية فقلت :

ـ « كنت أعلم ذلك وما جئت الى هنا فى الحقيقة الا لأقطع الشك باليقين »

ـ « يمكنك أن تثقى تماما بما أقول » .

وفرك يديه فى فرح وكأنه هو نفسه والد الطفل ثم اخذ يتمايل تجاهى فى مرح وهو مغتبط بى . ولكن شيئا واحدا كان يقلقنى فاردت أن أتأكد منه . وسألته قائلة ـ « وما عمر هذا الجنين ؟ »

ـ « لعله قد مضى عليه شهران تقريبا . لماذا ؟ أتريدين ان تعلمى لمن هو ؟ »

ـ « انى أعلم ذلك بالفعل » .

واتجهت نحو الباب . فقال وهو يفتح لى الباب ـ « اذا أعوزك شىء فتعالى لزيارتى . وعندما يحين الوقت سنحرص على أن يولد الطفل فى أحسن الظروف الممكنة » . ولشد ما كان مغرما بى مثل مأمور الشرطة . ولكننى كنت أبادله ذلك الشغف فى حين أننى لم أكن أميل مطلقا نحو مأمور الشرطة . ولقد سبق أن وصفته مرة . فهو شاب وسيم شديد السمرة قوى نشيط ذو شارب أسود وعينين براقتين واسنان بيضاء يمتاز بشدة مرحه وحيويته . وطالما ذهبت اليه ليفحصنى على الاقل مرة كل أسبوعين وقد سمحت له بمضاجعتى مرة أو مرتين على نفس الاريكة ذات الغطاء المشمع حيث كان يفحصنى وذلك اعترافا منى بجميله فانه لم يكن يتقاضى منى أجرا ـ ولكنه كان يمتاز بلباقته الشديدة . فانه لم يحاول قط أن يفرض رغبته على باستثناء مداعبة عابرة تصدر عنه من وقت لآخر . وكان يسدى الى النصح . كما أعتقد أنه كان يحبنى قليلا على طريقته الخاصة .

لقد قلت له اننى أعلم لمن كان ذلك الطفل . وفى الواقع فقد أحسست حينئذ اننى اعلم ذلك بغريزتى لا عن طريق عد الايام على صورة آلية ـ كان خاطرا مر بذهنى . ولكننى عندما عدت الى الطريق وأخذت أحصى الايام واعود بذاكرتى الى الماضى اذا بذلك الخاطر يصير حقيقة لا شك فيها . فما ان تذكرت صرخة الالم واللذة الطويلة الباكية التى انتزعت منى فى ظلام غرفتى بسبب ما خالجنى نحوه من رعب وافتتان حتى تأكدت أن والد الطفل لا يمكن أن يكون سوى سونزونيو . ولشد ما هالنى أن أعلم ان والد طفلى شقى متوحش سفاح مثل سونزونيو وخاصة لاننى ساكون دائما مهددة بأن يحذو الطفل حذو أبيه وأن يرث صفاته . ومن ناحية أخرى لم يسعنى الا ان احس بأن هناك وجها غريبا من العدالة فى أبوة سونزونيو . فهو وحده دون غيره من الرجال الكثيرين الذين ضاجعونى قد امتلكنى حقا فى أخص أعماق كيانى واشدها ظلمة وغموضا . أما ما انتابنى نحوه من

رعب وخوف واستسلام راغم فلن يغير شيئا من امتلاكه اياى على صورة تامة عميقة . بل الاحرى انه يؤكد تلك الحقيقة . فان ذلك الاحساس بالامتلاك الشرعى رغم مقتى اياه لم يثره فى نفسى جينو أو آستاريتا أو حتى مينو الذى كنت أشعر نحوه بعاطفة مختلفة تماما . فبدا لى كل ذلك غريبا مخيفا . ولكن هكذا الامر فى الواقع . فالمشاعر هى الشىء الوحيد الذى لا يمكن أن ينبذه المرء أو ينكره أو حتى يحلله من وجهة نظر معينة . وخرجت من ذلك بأن بعض الرجال قد خلق للحب وبعضهم للانجاب . واذا كان قد حق على أن أنجب طفلا لسونزونيو فقد حق لى أيضا وبنفس القدر أن أمقته وأهرب منه وأن أحب مينو كما كنت أفعل فى الحقيقة .

أخذت أصعد الدرج فى بطء وانا افكر فى ذلك العبء الحى الذى صرت الان أحمله فى أحشائى . وما كدت أدخل الردهة حتى سمعت أصواتا فى غرفة الجلوس فاتجهت نحو الباب وأدهشنى أن أرى مينو جالسا على رأس المائدة وهو يتحدث فى هدوء الى أمى التى جلست بالقرب منه عاكفة على الحياكة . وكان المصباح الاوسط وحده مضاء بينما غمر الظلام معظم الفرفة .

قلت فى كسل وأنا أتقدم نحوهما ـ « مساء الخير » .

فقال مينو فى صوت متردد أجش ـ « مساء الخير ـ مساء الخير »

وتطلعت الى وجهه فرأيت لمعانا شديدا فى عينيه فتأكدت أنه مخمور. وكان أحد طرفى المائدة قد بسطت عليه فوطة علتها شوك وسكاكين لشخصين . ولما كنت أعلم أن أمى تأكل دائما وحدها فى المطبخ فقد ادركت ان المكان الثانى قد اعد لمينو . ثم ردد قائلا ـ « لقد أحضرت حقائبى وهى فى الفرفة الاخرى . كما صادقت أمك . » ، ثم خاطبها قائلا ـ « فكلانا يفهم الآخر تماما . أليس كذلك ؟ »

وساورنى الخوف عندما سمعت لهجته المتهكمة وصوته العابث فى حزن وتجهم . فتهاويت على أحد المقاعد وقد اغمضت عينى لحظة . واذا بى أسمع أمى ترد عليه قائلة ـ « هذا هو ما تزعمه أنت . ولكننا لن نتفق اذا ما حاولت ان تنال من آدريانا » .

فهتف مينو قائلا وهو يتظاهر بالدهشة ـ « ولكن ماذا قلت ؟ ان آدريانا خلقت لهذه الحياة التى تحياها . وأن ادريانا ترى الحياة رائعة . أى خطأ فى ذلك ؟ »

فردت أمى قائلة ـ « هذا افتراء . فان آدريانا لم تخلق لهذه الحياة التى تحياها . بل كانت بكل ما أوتيت من جمال تستحق مصيرا

افضل بكثير • الا تعلم انها من اجمل فتيــات الحى بــل روما بأسرها ؟ فانى أرى فتيات أخريات كثيرات قد أسعدهن الحظ رغم أنهن لا يقاربنها جمالا . اما آدريانا ذات الجمال الرائع فانها دائما صفر اليدين . ولكننى أعرف السبب . »

ـ « وما هو ؟ »

ـ « لانها أطيب قلبا مما ينبغي . هذا هو السبب . لانها جميلة وطيبة ولو كانت جميلة وشريرة لرايت كيف يتغير معهــا مجرى الامور . »

فقلت يخالجنى شعور بالارتباك ازاء تلك المناقشة وخاصــة ازاء لهجةمينو لانه بدأ يسخر من أمى ـ « كفى . كفى . فانى جائعــة . ألم يعد العشاء بعد ؟ »

ـ « انه معد الآن • » ثم وضعت أمى ما بيدها على المائدة وهرولت الى خارج الغرفة . فتبعتها الى المطبخ .

وهناك دمدمت قائلة ـ « هل جعلنا من شقتنا نزلا ؟ لقــد دخل المنزل وكأنه سيده ثم وضع حقائبه فى غرفتك واعطانى نقودا لابتياع بعض الحاجيات • »

ـ « حسنا . الست مسرورة بذلك ؟»

ـ « اننى أفضل حياتنا السابقة . »

ـ « حسنا • تظاهرى بأننا خطيبان • وعلى أية حال فهو وضع مؤقت فحسب • اذ انه لن يبقى هنا سوى بضعة أيام ـ فمن المحال أن يقيم هنا الى الابد . » قلت لها شيئا أو شيئين من هذا القبيل لاطمئنها ثم ضممتها الى وعدت الى غرفة الجلوس .

ستظل تلك الوجبة الاولى التى تناولها مينو معى انا وامى فى منزلى باقية فى ذاكــرتى زمنــا طويلا . فانه لم يتــوقف عن المزاح وكانت شهيته رائعة . ولكن فكاهاته بدت ابرد من الثلج وامر من الليمون . فمن الواضح أنه لم تكن فى ذهنه سوى فكرة واحدةكانت أشبه بالشوكة المغروزة فى بدنه . ولم تزد فكاهاته على تحريــكها فيعمق مغرزها ويتجدد الما . وكان قوام تلك الفكرة هو كل ماقاله لاستاريتا . وفى الواقع فانى لم أر فى حياتى ندما عميقا على تلك الصورة . وقد علمنى القساوسة فى طفولتى أن الندم يغسل الذنوب ولكنه فى حالة مينو بدا وكأنه لا نهاية له ولم يأت بنتيجة نافعة . فقد أدركت أنه لشد ما كان يعانى فكانت معاناتى من اجله بنفس القدر وربما زادت لعجزى عن مساعدته أو تخفيف العبء عنه .

وتناولنا أول أصناف الطعام فى صمت . ثم قالت أمى شيئا عن سعر اللحم وكانت واقفة لتقوم على خدمتنا . فقال مينو رافعا رأسه — « لا تقلقى . فمن الان فصاعدا سأعمل على تزويدكما بكل ماتطلبان فانى سأحصل على وظيفة مجزية . »

وكاد الامل يراودنى عندما صرح بذلك . فسألته امى قائلة — « أية وظيفة ؟ »

فقال مينو فى جدية مبالغ فيها — « انها وظيفة فى الشرطة . وسوف يعيننى فيها صديق لادريانا — مستر آستاريتا . »

فوضعت السكين والشوكة على المائدة ورحت أحملق فيه . فاسترسل قائلا — « لقد اكتشفوا فى تلك الصفات التى ينشدونها فى رجل الشرطة » .

فقالت أمى — « ربما . ولكننى لم أحب الشرطة قط . ان ابن الغسالة التى تقيم فى الطابق السفلى شرطى أيضا . أتعلم ماذا قال له الشبان الذين يعملون فى مصنع الاسمنت المجاور لنا ؟ ابتعد عنا . فاننا لا نريد ان تكون لنا بعد ذلك صلة بك . وعلى أية حال فان العمل فى الشرطة ليس مجزيا . » ثم قطبت وجهها وغيرت صحفته مقدمة اليه طبق اللحم .

فرد مينو قائلا وهو يأخذ نصيبا منه — « ليس هذا ما أعنيه . بل أقصد وظيفة هامة دقيقة للغاية سرية للغاية . يا للشيطان ! ان دراستى لم تذهب هباء ! فقد أوشكت ان أحصل على درجتى . كما أنى ملم باللغات الحديثة . ان الفقراء من الناس هم الذين يصيرون رجال شرطة فحسب . أما امثالى فلا . »

فرددت أمى قائلة — « ربما . » ثم أضافت قائلة وهى تدفع الى صحفته بأكبر قطعة من اللحم — « خذ هذه . »

فقال مينو — « ليس ربما ، بل هو فى الحقيقة كما أقول . »

ولزم الصمت لحظة ثم قال — « ان الحكومة تعلم ان البلاد مملوءة بالمعارضين لها لا بين الفقراء فحسب بل بين الاغنياء كذلك . فهى فى حاجة الى قوم متعلمين ليتجسسوا على الاغنياء — قوم يتحدثون مثلهم ويرتدون أزياءهم ويتحلون بآدابهم كما يوحون بالثقة . هذا هو ما سأفعله . فسوف أتقاضى اجرا مجزيا واقيم فى فنادق الدرجة الاولى وأسافر فى عربات النوم وأتناول طعامى فى أفخر المطاعم ويحيك لى ثيابى خياط عصرى وارتاد الشواطىء الحديثة الراقية والمصايف الشهيرة فى الجبال . بالله ماذا حسبتنى ؟ »

عندئذ كانت أمي تحملق فيه فاغرة فاها · فقد بهرها كل هذا الترف . واخيرا قالت ــ « فى هذه الحالة ليس لدى ما أقوله » .

وكنت قد انتهيت من تناول وجبتى . وفجأة وجدتنى لا اقــوى مطلقا على الاستمرار فى مشاهدة تلك المهزلة التى تمزق نياط القلوب فقلت فى اقتضاب ــ « انى متعبة . وسأذهب الى الغرفة الاخرى . » ثم نهضت وغادرت غرفة الجلوس .

وما أن دخلت غرفتى حتى جلست على الفراش وانطــويت على نفسى ثم بدأت أبكى فى صمت من خلال اصابعى التى كانت تخفى وجهى . فكرت فى محنة مينو وفى الطفل الذى سأرزق به . فبدا لى أن المحنة والطفل كليهما كائن حى ينمو من تلقاء ذاته بعيدا عنى وعن نطاق سيطرتى وانه لم تعد لى حيلة فيهما . وما ان لحق بى مينو بعد فترة وجيزة حتى نهضت فى الحال مشيحة بوجهى بعيــدا عنه خشية ان يرى عينى الممتلئتين بالدموع قبل ان يتسع الوقت لتجفيفهما . وكان قد أشــعل سيجارة ثم اضطجع على الفراش . فجلست بجانبه قائلة :

ــ « أرجو يا مينو ــ الا تتحدث الى امى على هذه الصــورة مرة اخرى . »

ــ « لماذا ؟ »

ــ « لانها لا تفهم شيئا . ولكننى أفهم ما تقول . وكل كلمة تنطق بها تطعننى فى قلبى كالابرة » .

فلم ينبس بشىء بل أخذ يدخن فى صمت . فأخرجت من الدرج قميص نوم والتقطت ابرة وبكرة من خيوط الحرير ثم عكفت على حياكته دون ان أتكلم وأنا جالسة على حافة الفراش بالقرب مــن المصباح · لم اشـــأ ان اتكلم لاننى خشيت لو فعلت أن يأخذ فى مناقشة الموضوع المعهود . فلزمت الصمت عسى أن تهيم خواطــره فيطرد من ذهنه تلك الفكرة . والحياكة عمل يتطلب كثيرا من الانتباه كما تعلم جميع النساء اللائى يحترفنه · ولكنه يطلق العنان للذهن فبينما كنت عاكفة على الحياكة اذا بخواطرى تدور برأسى او الاحرى انى أحسست وأنا ادفع بالابرة سريعا فى الثوب الذى كان بين يدى ثم انتزعها منه وكأنى أرتق فتقا أو ألفق حاشية فى ذهنى . كما أنى شاركت مينو تلك الفكرة الثابتة فى ذهنه ولم اتمالك نفسى من التفكير فيما قاله لاستاريتا وما سوف يترتب عليه من نتائج . ولكننى لم أشأ أن افكر فى ذلك لانى خشيت لو فعلت ان ينطلق تفكيره فى نفس

الاتجاه ايضا بفعل قوة غامضة فأصير على الرغم منى مسئولة على صورة ما عن تفاقم اساه وبث الحياه فيه . لذلك فقد حاولت ان افكر فى شىء آخر ـ شىء فيه صفاء ومرح واشراق . فركزت انتباهى بكل ما أوتيت من قوة ذهنية على الطفل الذى سأرزق به ـ ذلك الحادث الذى يمثل فى الواقع الظاهرة الوحيدة السعيدة فى حياتى بعد ان ملأتها الآن الصور الاليمة المفجعة . فتخيلت شكله وهو فى عامه الثانى او الثالث وتلك اجمل مراحل النمو اذ عندها يبلغ الطفل اوج فتنته وجماله . وفيما أنا أفكر فى افعاله واقواله جميعا وفى طريقة تربيته عاودنى مرحى كمل تمنيت أن يحدث ونسيت مينو ومحنته لحظة من الزمان ـ وكنت قد انتهيت من رتق قميص النوم

وبينما كنت أتناول قطعة اخرى من الثياب اخذت افكر فى طريقة اخفف بها من ساعات التوتر الطويلة التى سأقضيها مع مينو . ففكرت فى اعداد ملابس الطفل ولوازمه . غير اننى يجب الا أطلع مينو على ما أعمل أو ألتمس له عذرا . فخطر لى أن أخبره بأننى كنت أعدها لاحدى جاراتنا وكانت بالفعل تنتظر مولودا . ولما كنت قد حدثت مينو عنها من قبل وأشرت الى فقرها فقد خيل لى انه سيكون عذرا وجيها . ولشد ما استهوتنى تلك الخواطر حتى اننى دون أن الحظ ذلك تقريبا أخذت أدندن فى هدوء .

ومع أن صوتى ليس قويا فان أذنى حساسة للغاية وحلاوة نبراتى خارجة عن المألوف حتى فى حديثى . فأخذت انشد اغنية « الفيللا الحزينة » وكانت معروفة وقتذاك . وعندما رفعت عينى لأقضم الخيط الذى كنت أحيك به اذا بمينو ينظر الى . فتوقفت عن الغناء . اذ خيل لى أنه ربما لامنى لغنائى فى فترة حرجة للغاية بالنسبة له .

فقال وهو ينظر الى ـ « استمرى فى الغناء . »

ـ « اتريدنى ان أغنى ؟. »

ـ « نعم . »

ـ « ولكننى لا احسن الغناء . »

ـ « هذا لا يهم . »

فعدت الى الحياكة من جديد واخذت أغنى له . وكنت كمعظم الفتيات اعرف عددا كبيرا من الاغانى . وكانت عندى فى الواقع حصيلة ضخمة منها وذلك لقوة ذاكرتى حتى انه كان يمكننى أن أتذكر الاغانى التى حفظتها فى طفولتى . أخذت أغنى نبذة من كل اغنية ولا أكاد انتهى من احداها حتى ابدأ فى الاخرى . وكنت أغنى أول الامر بصوت

هادىء ثم اذا بى أتحمس تدريجيا فأرفع عقيرتى بالفنـاء مستجمعة كل ما فى نفسى من مشاعر . وتوالت الاغانى احداها بعد الاخرى وقد تباينت جميعها . وكنت أثناء غنائى فى احداها افكر فى الاغنية التى تليها . وأخذ ينصت الى وقد ارتسم على وجهه تعبير جـاد فسررت لامكانى تشتيت انتباهه وابعاده عما يخالجـه من تأنيب الضمير . ولكننى تذكرت فى نفس الوقت اننى فى طفولتى ذات مرة فقدت لعبة كنت شغوفا بها للغاية . فلمـا لم استطع التوقف عن البكاء بسبب الخسارة التى حلت بى جلست امى على حافة الفراش وأخذت تنشدنى ما تعرف من أغان قليلة . فاذا بى على الرغم من سوء غنائها ونشازها أنصت اليها فى أول الامر كما انصت الى مينو ولكن ذكرى اللعبة التى فقدت منى ما لبثت ان قطرت مرارتهـا تدريجيا فى قدح النسيان الذى قدمته الى امى فتسمم كل شىء فى النهاية وصارت الخسارة لشدة التباين امرا لايمكن احتمـاله مطلقا . واذا بى فى النهاية انفجر فجأة فى البكاء من جديد واذا بأمى التى عيل صبرها تطفىء الضوء وتغادر الغرفة منصرفة عنى لابكى فى الظلام ما شاء لى البكاء . ولذا فقد كنت واثقة أن حلاوة غنائى الخداعة لا يكاد يتلاشى تأثيرها حتى يعاوده لا محالة ذلك الالم المبرح الذى سيكون لتناقضه مع تفاهة أغانى العاطفية اكثر حدة واشد قسوة . ولم أكن مخطئة فى تقديرى . فقد ظللت اغنى قرابة الساعة . واذا به يقاطعنى فجأة قائلا فى جفاء ــ « يكفى هذا . فلشد ما سئمت أغانيك . » ثم انطوى على نفسه وكأنه يريد أن ينـام مـديرا ظهره نحوى .

لم اتألم كثيرا لاننى كنت انتظر ان يكون سلوكه على تلك الصورة الوقحة . وعلى اية حال فانى حينذاك لم أكن اتوقع شـيئا سوى الشقاء . ولو حدث عكس ذلك لاثار دهشتى . فنهضت من الفراش لابعد الثياب التى اصلحتها . ثم خلعت ملابسى وانا لا ازال صامتة وانسللت الى داخل الفراش فى الجانب الذى تركه مينو خاليا . واضطجعنا قليلا فى صمت على تلك الصورة ظهرا لظهر . كنت أدرك انه ليس نائما وانه يفكر طوال الوقت فى امر واحد . وقد اثار فى ذهنى ذلك الادراك فضلا عن احساسى الحاد بعجزى عن تقديم العون اليه عاصفة من الخواطر المختلطة اليائسة . كنت راقدة على جنبى وأنا مستغرقة فى التفكير احملق امامى فى احدى زوايا الغرفة . فأمكننى ان ارى احدى الحقيبتين اللتين احضرهما مينو من منزل

السنيورا مدولاجى . وكانت حقيبة جلدية قديمة صفراء تكسوها بطاقات ملونة للفنادق المختلفة . وظهرت من بينها بطاقة رسمت عليها رقعة من البحر الازرق وصخرة حمراء ضخمة وكلمة : كابرى. وكانت تلك البقعة الزرقاء تبدو مضيئة فى ذلك الضوء الخافت وبين قطع الاثاث الكئيبة المعتمة بل تبدو اكثر من مجرد بقعة . كانت ثغرة ألمح من خلالها تلك المساحة الطويلة الضيقة من البحر البعيد . وانتابنى حنين مفاجىء الى البحر بكل ما فيه من تألق وحيوية . اذ انه مهما فسدت الاشياء وانعدم شكلها فان البحر خليق بتطهيرها وتسويتها واستكمال شكلها وتحويلها الى أشياء نظيفة جميلة . وكنت لا أفتأ أحب البحر حتى شاطىء « أوستيا » الاليف المزدحم. فكان منظر البحر يبعث فى نفسى دائما احساسا بالحرية التى تنتشى لها أذناى أكثر مما تنتشى لها عيناى وكأنى أصغى الى ألحان موسيقى رائعة خالدة لا تبرح تطفو الى الأبد فوق أمواجه . وبدأت أفكر فى البحر وقد انتابنى حنين شديد الى أمواجه الشفافة التى بدت لى انها لا تغسل الجسد فحسب بل الروح ايضا . اذ انها بملمسها السائل تحررها من أثقالها وتملؤها بالفرحة . وحدثت نفسى قائلة انه لو أمكننى ان أصحب مينو الى البحر فلعله بضخامته وحركته الدائبة وضجيجه الذى لا ينقطع يبعث فى نفسه التأثير الذى لم يستطع حبى وحده ان يحدثه .

وفجأة سألته قائلة ــ « هل زرت كابرى قط ؟ »

فقال دون أن يستدير نحوى ــ « نعم . »

ــ « هل هى جميلة ؟ »

ــ « نعم ــ للغاية . »

فقلت مستديرة نحوه فى الفراش ومحيطة عنقه بذراعى ــ «انصت الى ــ لم لا نذهب الى كابرى ؟ أو الى أى مكان اخر على شاطىء البحر ؟ فانك مادمت باقيا هنا فى روما فلن يمكنك أن تفكر فى شىء سار وانى واثقة انك مع تغيير الجو سوف ترى كل شىء فى صورة مختلفة . سنرى أشياء كثيرة مما لا تراه الآن . انى واثقة أن فى ذلك نفعا لك » .

فلم يجبنى فى الحال . وبدا لى انه يفكر فيما قلت . ثم قال ــ « لا حاجة بى لان اذهب الى البحر . اذ يمكننى حتى هنا أن أرى الاشياء فى صورة مختلفة كما تقولين . وما على الا أن أقبل ما فعلت كما نصحتنى من قبل . وعندئذ أستمتع بالسماء والارض وبك وبكل

شىء فى الحال . أتظنيننى لا أدرى أن الوجود جميل ؟ »
فقلت فى شوق ـ « حسنا . اذن فلتقبله . فماذا يكلفك ذلك ؟» ـ فأخذ يضحك قائلا ـ « كان ينبغى ان أفكر فى ذلك أولا . كان ينبغى على أن أحذو حذوك ـ فأقبل ذلك مباشرة منذ البداية . فحتى الشحاذون الذين يجلسون على عتبات الكنائس طلبا للدفء فى ضوء الشمس قد قبلوا كل شىء منذ البداية . أما الان فقد فاتنى الوقت»
ـ « ولكن لماذا ؟ »
ـ « هناك من يقبل وهناك من لا يقبل . ومن الواضح أننى انتمى الى الطائفة الثانية » .
لم أدر ماذا أقول فلزمت الصمت . ثم أضاف قائلا بعد لحظة
ـ « والان اطفئى الضوء . فسأخلع ثيابى فى الظلام . فلا ريب ان ساعة النوم قد حانت . »
فامتثلت لامره . وخلع ملابسه فى الظلام . ثم اوى الى الفراش بجانبى . واستدرت نحوه وكأنى أهم بمعانقته . ولكنه دفعنى بعيدا دون أن ينبس بكلمة ثم انكمش على حافة الفراش مديرا ظهره نحوى . فملأتنى تلك الحركة بالمرارة وانكمشت أنا أيضا فى انتظار النوم بينما كانت روحى تنتحب باكية . ولكننى عاودت التفكير فى البحر واستبد بى الحنين لاغرق نفسى فيه. فقد خيل لى ان ذلك لن يستغرق سوى لحظة واحدة من الالم . ثم لا تفتأ تنتقل جثتى الطافية من موجة الى موجة تحت الشمس دهورا طويلة . فتفقأ النوارس بمناقيرها عينى وتحرق الشمس صدرى وبطنى ويقرض السمك ظهرى . وفى النهاية أغوص فى القاع حيث يسحبنى من رأسى تيار أزرق مثلج ليجرفنى أمامه عبر قاع البحر شهورا وأعواما بين صخور القاع وأسماكه وأعشابه البحرية فتغسل الامواه الملحة الصافية جبينى وصدرى وبطنى وساقى ويتعرى بدنى من اللحم رويدا وتظل تلك المياه تسوى جسدى وتطهره الى ان تقذف بى اخيرا احدى الامواج يوما ما على شاطىء ما حيث لا أكون سوى حفنة من عظام هشة بيضاء . وراقتنى فكرة غوصى الى قاع البحر مسحوبة من شعرى . كما راقتنى فكرة تحولى يوما ما الى كومة صغيرة من العظام على أحد الشواطىء بلا شكل آدمى بين الاحجار الملساء . ولعل شخصا ما يطأ عظامى دون أن يلحظ ذلك فيسحقها ويحولها الى مسحوق أبيض .. ثم استغرقت فى النوم تراودنى تلك الخواطر الشهوانية الحزينة .

الفصل الحادى عشر

وفى اليوم التالى حاولت أن اقنع نفسى بالقوة أن النوم والراحة قد بدلا من مشاعر مينو ولكننى مع ذلك لاحظت فى الحال انه كان كما عهدته دائما . بل لقد بدا لى فى الواقع أسوأ حالا مماكان الىحدما. فقد ظلت تمر به فترات من الصمت الطويل الحزين العنيد تعقبها انفجارات من الثرثرة الهائمة المتهكمة فى موضوعات تافهة لم تفتأ تتجلى فيها مع ذلك نفس الفكرة المسيطرة كعلامة النسيج فى بعض انواع الورق . وكان تدهور حالته بقدر ما أمكننى أن ارى يتمثل بصفة رئيسية فى نوع من الجمود الارادى والبلادة وعدم الاكتراث وكلها أشياء دخيلة عليه لانه كان دائما آية فى النشاط والحيوية . كان يمارس نوعا من الانعزال التدريجى عن كل ما كان يقوم به حتى الان . وقد فتحت حقائبه ووضعت حلله وملابسه الاخرى فى صوان ملابسى . ولكننى ما ان اقترحت عليه أن أصف له كتبه التى كان يحتاج اليها فى دراسته فوق خزانة الثياب أسفل المرآة حتى اجابنىقائلا « اتركيها فى الحقيبة . فهى لم تعد تفيدنى فى شىء على أية حال » .

فسألته قائلة ـ « ولم لا ؟ أليس عليك أن تحصل على درجتك ؟ »

ـ « بل لن أحصل عليها » .

ـ « ألا تريد ان تواصل دراستك ؟ »

ـ « كلا » .

ولم ألح عليه خشية أن يعاود الحديث فى ذلك الموضوع المعهود الذى كان يحزنه، وتركت الكتب فى الحقيبة . ولاحظت انه لم يحلق ذقنه ولم يغتسل رغم ما عهدته فيه دائما من نظافة مفرطة وحرص على الاناقة . وفى اليوم التالى قضى سحابة النهار فى غرفتى تارة يضطجع على الفراش وهو يدخن وتارة يذرع الغرفة وهو مستغرق فى التفكير وقد دس يديه فى جيوبه . ولكنه عند الغداء لم يعد يتحدث الى امى كما وعدنى . وعندما أقبل المساء اخبرنى أنه سيتناول العشاء فى الخارج وغادر الدار وحده . ولم اجرؤ على أن أقترح عليه اصطحابى . ولا أدرى أين ذهب ولكننى كنت أتهيأ للنوم عندما دخل الفرفة ولاحظت فى الحال انه كان يشرب الخمر ، فعانقنى بطريقة

مضحكة فيها مغالاة، وأصر على مضاجعتي. فاضطررت الى الاستسلام له رغم ادراكي أن ممارسة الحب كانت في نظره عندئذ كمعاقرة الخمر - أمرا بغيضا يكره نفسه عليه حتى ينال منه التعب وينتابه الخدر. وقد صارحته بذلك قائلة - « يمكنك بالمثل أن تضاجع اية امرأة أخرى. » فأجابني قائلا : - « يمكنني ذلك. ولكن ها أنت ذى هنا سهلة المنال. » وقد ساءني ذلك بل جرح كبريائي أكثر مما ساءني لانه دل على نضوب عاطفته نحوى.

وفجأة لمع في ذهني وميض من الادراك. فقلت له - « انصت الي. اني أعلم أنني لست سوى فتاة تافهة مسكينة ... ولكن حاول أن تحبني. فذلك خير لك. اذ اني واثقة أنك لو أحببتني أمكنك في النهاية أن تحب نفسك ». فنظر الى ثم ردد قائلا بصوت ساخر مرتفع - « الحب. الحب. » ثم أطفأ الضوء. فرقدت هناك في الظلام بعينين محملقتين يخالجني شعور بالحيرة والمرارة. ولم أدر ماذا أفكر.

لم يطرأ تغير ما على حالته في الايام التالية بل سار كل شيء على نفس الوتيرة. ولكن بدا لي فقط أنه أخذ يكتسب عادات جديدة لتحل محل عاداته القديمة. فقد كان قبل ذلك يتابع دراسته ويذهب الى الجامعة ويلتقي بأصدقائه في أحد المقاهي ويقرأ ويطلع. أما الان فتارة يرقد على الفراش وهو يدخن وتارة يتجول في الغرفة وهو لا يفتأ يردد تلميحاته الجنونية التي لا رابط بينها وتارة يشرب الخمر حتى يسكر وتارة يمارس الحب. وفي اليوم الرابع بدأت أشعر حقا باليأس المطلق. فقد أمكنني أن أرى أن ألمه المبرح لم تقل مرارته. وخيل لي ان مواصلة الحياة على تلك الصورة ضرب من المحال. فقد بدت لي غرفتي التي لم يبرح يملؤها دخان السجائر وكأنها مصنع يعمل ليل نهار في انتاج الالم دون أن ينقطع عن ذلك لحظة واحدة. حتى أن الهواء الذي صرت أستنشقه الان كان كتلة هلامية سميكة من الخواطر الحزينة الملحة. وطالما لعنت جهلي وتفاهتي حينذاك ولعنت الظروف التي جعلت أمي أكثر مني جهلا وتفاهة. فان أول ما يخالج الانسان ساعة المحنة هو أن يتجه الى شخص يكبره سنا ويفوقه خبرة طلبا للنصيحة. ولكنني كنت لا أعرف أحدا له مثل هذه الصفات. أما أمي فكان طلب العون اليها كطلبه الى أحد الاطفال الكثيرين الذين ألفوا أن يلعبوا في فناء الدار. ومن الناحية الاخرى فقد تعذر على أن أنفذ الى أعماق أساه. اذ أن أمورا كثيرة

كانت تفوتنى ملاحظتها . ولكننى توصلت تدريجيا الى ان اعرف ان ما كان يعــذبه أكثر من أى شىء آخر هو اعتقـــاده أن كل ما قاله لآستاريتا كان مدونا فى تقرير الشرطة ومحفوظا فى السجلات كشاهد ابدى على ضعفه . وقد عززت بعض أقواله ذلك الاعتقاد الذى توصلت اليه . وذات مساء تحدثت اليه فى الامر قائلة : ـ « ان كان من دواعى أسفك انهم سجلوا كل ما قلته لآستاريتا ـ فان آستاريتا لا يرفض لى طلبا . وانى واثقة أنه سيعدم التقرير لو طلبت اليه ذلك » .

فقال وهو يرمينى بنظرة غريبة ـ « وما الذى يجعلك تعتقدين ذلك ؟ »

ـ « لقد اعترفت أنت نفسك بذلك أخيرا حين طالبتك بأن تحاول النسيان فقلت لى انك حتى لو نسيت ما حدث فان الشرطة لن تنسى»

ـ « ولكن كيف يمكنك أن تفاتحيه فى الامر ؟ »

ـ « ذلك أمر ميسور للغاية ! فانى أتصل به تليفونيا ثم أذهب لمقابلته فى الوزارة » .

ولكنه رفض أن يفصح عما يريد . فألححت قائلة ـ « حسنا ـ أتريدنى أن أطلب اليه ذلك ؟ »

ـ « أما فيما يخصنى فلتفعلى ما شئت » .

فخرجنا معا واتصلت به تليفونيا من احد محال اللبن . فرد على آستاريتا فى الحال واخبرته اننى يجب أن أتحدث اليه فى أمر ما .

ثم استأذنته فى الذهاب لمقابلته فى الوزارة . فأجابنى قائلا فى صوت غريب متلعثم ـ « أما أن نلتقى فى شقتك واما لا نلتقى مطلقا » .

فأدركت أنه يريد أن يتقاضى ثمن الصــنيع الذى سأطلبه اليه . وحاولت أن أتحاشى ذلك قائلة ـ « فليكن لقاؤنا فى أحد المقاهى » .

ـ « اما فى شقتك أولا نلتقى مطلقا » .

فقلت ـ « حسنا . اذن فليكن فى شقتى . » ثم أضفت قائلة اننى ساعود يومئذ الى المنزل فى ساعة متأخرة من المساء .

ثم قلت لمينو ونحن فى طريقنا الى المنزل عائدين ـ « انى اعرف ماذا يريد . فهو يبغى مضاجعتى ـ بيد أن أحدا لم يستطع ان يغتصب امرأة . لقد ابتزنى مرة واحدة من قبل عندما كانت تعوزنى الخبرة ولكنه لن يفلح فى ذلك مرة أخرى » .

فســألنى مينو قائلا فى غير اكتراث ـ « ولــكن لم لا تريدينه أن يضاجعك ؟ »

ـ « لانى أحبك » .

ـ « ولكنه ربما رفض أن يعدم التقارير لو ابيت ان تسمحى له بمضاجعتك . » ثم سألنى قائلا بلهجته التى مازالت عديمة الاكتراث
ـ « فكيف يكون الموقف اذن ؟ »
ـ « بل انه سيعدمها . لا تنزعج » .
ـ « ولكن لنفرض أنه ابى أن يفعل ذلك الا بشرط واحد » .

وكنا عندئذ نصعد الدرج . فوقفت ساكنة وقلت ـ « سأفعل ما تقرره أنت » .

فأحاط خصرى بذراعه قائلا فى بطء ـ « حسنا ـ هـذا هو ما اريده ـ اريدك ان تأتى بآستاريتا الى شقتك وان تصحبيه الى غرفتك بقصد المضاجعة . وسأكون أنا واقفا فى انتظاره خلف الباب فأرديه قتيلا بمسدسي لحظة دخوله . ثم ندفع بجثته تحت الفراش ونمارس الحب طوال الليل » .

كانت عيناه تلمعان . فقد انجابت عنهما لاول مرة منذ ايام تلك السحابة الثقيلة التى كانت تغشـاهما فتخبى نورهما . وانتابنى الخوف اذ امكننى أن ارى فى اقتراحه شيئا من المنطق . كما صرت الان أتوقع فى استسلام أن تنزل بى كارثة أقوى وأشد فخيل لى أنها الجريمة التى يمكن أن ترتكب بالضبط . فهتفت قائلة ـ « أستحلفك بالله يامينو الا تردد مثل هذه الاشياء ولا حتى على سبيل المزاح ! » .

فردد كلامى قائلا ـ « ولا حتى على سبيل المزاح . لقد كنت أمزح فى الواقع » .

وخطر لى انه ربما لم يكن يمزح مطلقـا . ولـكننى احسست بالطمأنينة عندما تذكرت أن المسدس الذى ربما فكر فى استخدامه كان فارغا لاننى كنت قد اخرجت منه الرصاص بنفسى . غير انه لم يكن يعلم ذلك كما سبق أن ذكرت . واسترسلت قائلة ـ « لا تنزعج . فان آستاريتا لن يرفض لى طلبا . ولكن اياك أن تتكلم على هـذه الصورة مرة أخرى . فلشد ما أخفتنى » .

فقال باستخفاف وهو يدخل الشقة ـ « أواه ! فلم يعد يمكننى حتى أن أمزح » .

وما كدنا ندخل غرفة الجلوس حتى لاحظت أن نوبة فجائية من القلق قد انتابه فأخذ يذرع الغرفة وقد دس يديه فى جيبيه كمألوف عادته . ولكنه كان يسير بطريقة مختلفة فقد دب النشاط فى حركته واكتسى وجهه بتعبير ينم عن صفاء التفكير وعمقه وعن تخلصـه من بلادته ونفوره المألوف . وعزوت ذلك التغيير الذى طرأ عليـه الى

راحته النفسية عندما علم بقرب اعدام الاوراق التى تسىء الى سمعته . فقلت له وقد بعث الامل فى صدرى من جديد ـ « سوف ترى أن الامور جميعا لن تلبث أن تستقيم » .

فانتابته رجفة عنيفة ثم نظر الى وكأنه لا يعرفنى مرددا فى آلية « نعم ـ ان الامور جميعا سوف تستقيم » .

وكنت قد ارسلت أمى الى خارج الدار بحجة ابتياع بعض الحاجيات للعشاء . وراودنى فجأة شعور بالتفاؤل . فقد خيل لى حقا ان الامور جميعا سوف تستقيم بل لعلها صارت خيرا مما كنت أتوقع . فان آستاريتا سيستجيب لما أريد . هذا اذا لم يكن قد استجاب بالفعل فيتخلص مينو يوما بعد يوم من تأنيب ضميره . ويبدأ فى التمتع بالحياة من جديد ويتطلع الى المستقبل فى ثقة . ففى وقت الشدة يقنع الناس جميعا بالبقاء فحسب . ولكن ما ان يتغير اتجاه الريح حتى يشرعوا فى وضع الخطط الطامحة ذات المدى البعيد . فقد خيل لى قبل ذلك بيومين أننى قادرة على التخلى عن مينو من اجل سعادته. ولكننى الان وقد وجدتنى مقتنعة بقدرتى على استعادة سعادته لم أتخل فقط عن كل تفكير فى الافتراق عنه بل حاولت أن أدبر وسيلة استطيع بها ان اربطه بى برباط أقوى وأشد . لم يكن عقلى هو الذى يحثنى على وضع تلك الخطط بل ان قوة غامضة طى روحى هى التى كان يعوزها الامل ولا يمكنها أن تصبر على المهانة والاسى زمنا طويلا . فقد بدا لى ازاء ظروفنا أن هناك حلين ممكنين لا ثالث لهما . فاما أن نفترق او يرتبط كلانا بالآخر مدى الحياة . ولما كنت أرفض حتى أن افكر فى الحل الاول فقد أخذت اتساءل عما اذا كانت هناك وسيلة يمكننى بها أن أصل الى تحقيق الحل الثانى . انى أكره الكذب واعتقد أنه يمكننى أن أضع ضمن صفاتى الايجابية نوعامن الصدق المغالى فيه . واذا كنت قد كذبت مينو حينذاك فان ذلك يرجع الى عدم احساسى بالكذب مطلقا . لقد بدا لى أننى أقول الصدق . فقد كان ما قلت حقيقة أصدق من الصدق ـ حقيقة روحية لا مادية . وفى الواقع فانى ما فكرت مطلقا فيما قلت بل كان نوعا من الالهام .

كان يذرع الغرفة كالمعتاد وكنت جالسة الى أحد طرفى المائدة . فاذا بى أقول فجأة ـ « انصت الى . توقف عن المسير . فهناك شىء يجب أن أخبرك به » .

ـ « وما هو ؟ »

ـ « كنت أشعر أخيرا بأنى على غير ما يرام . فذهبت لزيارة

الطبيب منذ بضعة أيام ـ وقد أخبرني بأني حامل » .
فوقف ساكنا ينظر الى ثم ردد كلامي قائلا ـ « هل أنت حامل ؟ »
ـ « نعم . واني لعلى ثقة تامة من أنك أنت والد الطفل » .

كان مينو ذكيا . فقد ادرك في الحال الفرض الحقيقي من ذلك التصريح رغم أنه لم يستطع أن يتكهن بكذبي . فتناول مقعدا وجاء ليجلس بجانبي حيث ربت على خدي في شغف قائلا ـ « اعتقد ان ذلك ينبغي أن يكون سببا آخر بل السبب الرئيس في الواقع الذي يجب أن ينسيني ما حدث ويجعلني أواصل طريقي . أليس كذلك ؟ »

فسألته متظاهرة بأني لم أفهم مقصده قائلة ـ « ماذا تعني ؟ »

فاسترسل قائلا ـ « ما دمت سأصير رب أسرة فينبغي من أجل هذا المخلوق البريء ـ كما تقلن انتن أيتها النساء ـ أن أفعل ما لا ابغي أن أفعله من أجل حبك » .
فقلت هازة كتفي ـ « أفعل ما شئت . فما كاشفتك بذلك الا لانه الحقيقة » .
فأردف قائلا وكأنه يفكر بصوت عال ـ « ان الطفل قبل كل شيء يمكن أن يكون سببا للحياة . فكثير من الناس لا يطلبون أكثر من ذلك . فوجود الطفل مبرر للحياة . حتى أنه يمكنك أن تسرقي أو تقتلي من أجل الطفل » .
فقاطعته في غضب قائلة ـ « ومن ذا الذي يريدك ان تسرق أو تقتل ؟ ما قصدت الا اسعادك . فان كان ذلك لا يسعدك ... اذن فليس ثمة ما يقال أكثر من هذا » .
فنظر الى وربت على خدي مرة أخرى في شغف قائلا ـ « ان كنت سعيدة بذلك فأنا سعيد . فهل أنت سعيدة ؟ »
فقلت في فخر وثبات ـ « نعم . أولا لاني أحب الاطفال . وثانيا لانه طفلك » . فضحك قائلا ـ « أنت امرأة ذكية » .

ـ « لماذا ؟ وما وجه الذكاء في أن أكون حاملا ؟ »
ـ « لا شيء . ولكنك يجب أن تعترفي أنها ضربة حاسمة في هذه اللحظة بالذات . اني حامل وعلى ذلك ـ ؟ »
ـ « وعلى ذلك ؟ »
وعندئذ صاح فجأة بأعلى صوته وهو يثب واقفا على قدميه وملوحا بذراعيه في جنون قائلا :
ـ « وعلى ذلك فيجب أن تقبل ما فعلت . وعلى ذلك فيجب أن تعيش . تعيش . تعيش ! »

وقد فاقت لهجته كل وصف . فأحسست بطعنة فى قلبي واغرورقت عيناى بالدموع . ثم تلعثمت قائلة ــ « افعل ما شئت . اذا شئت أن تتركني اذن فلتتركني . فاني . فاني سأرحل » .

وكان من الواضح انه أسف لانفجاره فقد جاء الى وربت على مرة أخرى قائلا : ــ « اني آسف . لا تكترثي لما أقول . فكرى فى طفلك ولا تنزعجي على » .

فتناولت يده وضغطتها على وجهى وغسلتها بدموعى وانا اتعلثم قائلة ــ « أواه يا مينو ... كيف يسعنى الا انزعج عليك ؟ »

وظللنا صامتين على تلك الصورة بعض الوقت . كان واقفا بجانبي وانا اضغط يده على خدى واقبلها باكية . ثم سمعنا فجأة رنين جرس الباب الامامى .

فابتعد عنى وقد امتقع وجهه بشدة ولكننى حينذاك لم استطع ان ادرك السبب فى ذلك . ولم أهتم بسؤاله. بل قفزت واقفة على قدمي وقلت ــ « اذهب . ها هو ذا استاريتا ! اسرع ! ابتعد . »

فغـــادر الغرفة من باب المطبخ وتركه مواربا . فجففت عيني بسرعة واعدت المقاعد الى اماكنها ثم خرجت الى الردهة . وعاودنى هدوئى التام وثقتى بنفسى . وفى ظلام الردهة خطر لى ان اخبر آستاريتا بأنى حامل . فبهذه الطريقة أتقى مضايقاته واذا لم يرغب فى أداء الصنيع الذى سأطلبه اليه بدافع من حبه لى دفعته الشفقة الى أدائه .

وما كدت افتح الباب حتى خطوت الى الخلف بسرعة . فقد رايت سونزونيو على عتبة الباب بدلا من آستاريتا .

كان يدس يديه فى جيبيه وعندما حاولت آن أغلق الباب فى وجهه بطريقة تكاد تكون آلية دفعه فى خفـــة بكتفه ففتحه على مصراعيه ودخل الشقة . فتبعته الى غرفة الجلوس حيث ذهب ليقف بجانب المائدة على مقربة من النافذة . كان حاسر الراس كعادته . وما ان دخلت الغرفة حتي احسست بعينيه الشاخصتين الملحتين مركزتين على . فأغلقت البـــاب ثم حدثته متظاهرة بعدم الاكتراث الشـــديد قائلة :

ــ « لماذا جئت ؟ »

ــ « انك ذهبت لتشى بى . أليس كذلك ؟ »

فهززت كتفى وجلست الى رأس المائدة قائلة ــ « انى لم اشِ بك . »

ـ « لقد تركتنى وذهبت لاستدعاء الشرطة . »
كنت أحس بالهدوء التام . ولو ان شعورا راودنى قط حينذاك فانه الغضب لا الخوف . اذ انه لم يعد يخيفنى . وأحسست بالغضب يغلى فى صدرى لينصب عليه وعلى كل من وقف حائلا دون سعادتى كما فعل هو . قلت ـ « لقد تركتك وذهبت لانى أحب رجلا اخر ولا اريد أن تكون لى صلة بك بعد ذلك . ولكننى لم أستدع الشرطة . فأنا لست مرشدة . بل ان رجال الشرطة جاءوا من تلقاء انفسهم للبحث عن شخص آخر . »
فأقبل على وأمسك بى من خدى ثم قرصهما بقسوة شديدة جعلتنى أفتح فاى وهو يرفع وجهى نحوه قائلا ـ «يمكنك ان تحمدى الله على انك امرأة . »
وظل يقرص خدى مما جعلنى الوى وجهى فى الم على صورة مخيفة ومضحكة فى نفس الوقت . فاستولى على الغضب وقفزت واقفة على قدمى وأنا أصيح قائلة ـ « اخرج من هنا ايها الاحمق ! »
فأعاد يديه الى جيبيه واقترب منى وهو يحملق فى عينى كالمعتاد . فصحت قائلة مرة أخرى : ـ « انك لأحمق ! بعضلاتك وعينيك الزرقاوين الصغيرتين وراسك الاصلع ! اخرج من هنا ! اغرب ايها الأبله ! »
وخيل لى أنه احمق بحق وهو واقف هناك فى صمت تعلو فمه الرقيق المعوج ابتسامة واهنة وقد دس يديه فى جيبيه وهو لا يفتأ يحملق فى مقتربا منى . فجريت نحو الطرف الاخر من المائدة حيث أمسكت بمكواة ثقيلة وصحت قائلة ـ « اخرج من هنا ايها الابله ! والا هشمت وجهك بهذه المكواة ! »
فتردد لحظة ثم وقف ساكنا . وفى نفس اللحظة فتح من خلفى باب غرفة الجلوس وظهر استاريتا فى مدخل الغرفة . وكان واضحا أنه وجد الباب مفتوحا فسار الى الداخل فاستدرت نحوه صائحة ـ « مر هذا الرجل بالخروج من هنا . فلست أدرى ماذا يريد . مره بالخروج من هنا . »
ولا أدرى لماذا كانت أناقة آستاريتا فى تلك المناسبة مبعثا لسرورى الشديد . فقد كان يرتدى معطفا رماديا ذا صفين تبدو عليه الجدة وكان يلبس قميصا من الحرير ذا خطوط حمراء على خلفية بيضاء . وقد اندس بين ثنايا حلته الزرقاء الداكنة رباط عنق رمادى بلون الفضة من الحرير المتاون . فنظر الى وانا واقفة هناك الوح بالكواة ثم نظر

الى سونزونيو قائلا فى هدوء ــ « لقد أمرتك السيدة الصغيرة بالانصراف . فماذا تنتظر ؟ »

فقال سونزونيو فى صوت عميق للغاية ــ « هناك أمور كثيرة يجب أن نتحدث فيها أنا والسيدة الصغيرة . فيحسن بك أن تنصرف . »

وكان آستاريتا قد خلع قبعته عند دخوله وهى قبعة سوداء من اللباد ذات حاشية حريرية . فوضعها فى هدوء على المائدة ثم اتجه صوب سونزونيو . وقد أدهشنى موقفه . فقد بدت عيناه تومضان فى تحفز للعراك وكانتا عادة شديدتى السواد والاكتئاب . كما التوى فمه الكبير الى أعلى مبتسما فى لذة وتحد كاشفا عن أسنانه . ثم قال مشددا على كل مقطع من مقاطع ألفاظه ــ « اذن فأنت تأبى الخروج . ولكننى أؤكد لك انك خارج من هنا وبسرعة . »

فهز سونزونيو رأسه رافضا ذلك ولكنه لدهشتى تقهقر خطوة الى الوراء . ثم تذكرت بالضبط من هو سونزونيو . وانتابنى الخوف لا على نفسى بل على آستاريتا الذى راح يستفزه بجرأة شديدة دون أن يدرى من هو . فراودنى نفس الشعور بالالم الذى كان يراودنى فى طفولتى عندما اذهب الى السيرك حيث أرى مروض الاسود الصغير ممسكا بسوط يشاكس به أسدا ضخما زأر فى وجهه . فهممت بأن أصيح قائلة ــ « حذار ! فهذا وحش سفاح ! » ولكننى لم أقو على ذلك . وعاد آستاريتا يقول له ــ « هل أنت ذاهب ــ أم لا ؟ »

فهز سونزونيو رأسه مرة أخرى وتقهقر خطوة ثانية الى الخلف . فتقدم آستاريتا خطوة واحدة حتى صارا يقفان وجها لوجه وقد تساوى ارتفاع قامتيهما . وكاد كلاهما يلمس الاخر . وسأله آستاريتا قائلا تعلو وجهه نفس التصعيرة الملتوية ــ « من انت على اية حال ؟ قل لى ماسمك ــ هيا ! »

ولكن سونزونيو لم يحر جوابا . فردد آستاريتا كلامه قائلا بلهجة تكاد تكون شهوانية وكأن صمت سونزونيو كان مبعثا للذته ــ « اذن فأنت تأبى ذلك ــ هه ؟ تأبى أن تقول لى من أنت وتأبى أن تخرج من هنا ــ هه ؟ أليس كذلك ؟ »

فانتظر لحظة ثم رفع يده وصفع سونزونيو بقوة على احدى وجنتيه ثم على الاخرى . فرفعت قبضتى الى فمى وغرزت فيها أسنانى . ثم حدثت نفسى قائلة وقد أغمضت عينى : ــ « والان سيقتله . » ولكنى سمعت صوت آستاريتا وهو يقول ــ « والآن

عليك ان تهرب . تحرك بسرعة ! » ففتحت عيني مرة اخرى لأرى آستاريتا وهو يدفع سونزونيو نحو البـــاب . كان يجره من ياقة معطفه . وقد بدا سونزونيو طيعا رغم احمـــرار وجنتيـــه من أثر الصفعات التى تلقاها . اذ انقاد له وكأنه كان يفكر فى شيء آخر . وقد دفعه آستاريتـــا الى خارج غرفة الجلوس ثم سمعت البـــاب الامامى يصفق بعنف . وعاد آستاريتا الى الظهور .

سألنى وهو يبعد فى آلية خيطا كان على صدر معطفه ـ « من هذا ؟ » ثم اخذ يتفحص هندامه وكأنه يخشى ان يكون قد أفسد أناقته بما بذله من مجهود عنيف .

فكذبت قائلة ـ « لم اعرف لقبه قط . كل ما اعرفه ان اسمه كارلو . »

فأجابنى بضحكة هازئة وهو يهـــز راســـه قائلا ـ « كارلو . » ثم اقبل نحوى . كنت واقفة فى اطار النافذة أتطلع الى الخارج من خلال الواح الزجاج . فأحاط خصرى بذراعه . ثم سألنى قائلا وقد تغير صوته وتعبيره تغيرا تاما ـ « كيف حالك ؟ »

فقلت دون أن انظر اليه ـ « على خير ما يرام . » فحملق فى ثم ضمنى اليه بقوة دون ان يتكلم . فدفعته بعيدا فى رفق ثم قلت ـ « لشد ما كنت رقيقا معى . لقد اتصلت بك تليفونيا لأســـألك صنيعا . »

فقال ـ « فلنر ماهو . » وكان لا يزال يحملـــق فىّ . ولم يبد عليه انه مصغ الى .

فبدأت أتكلم قائلة ـ « ذلك الشاب الذى استجوبته ـ »

فقاطعنى فى عبوس قائلا ـ « نعم . أنعود الى الحديث عن ذلك الشاب ؟ لقد تبين لى أنه ليس على جانب كبير من البطولة . »

فدفعنى الفضول لأن اعرف حقيقة ما حدث اثناء لقائه بمينو . فسألته قائلة :

ـ « لماذا ؟ اكان خائفا ؟ »

فهز آستاريتا رأسه قائلا ـ « لست ادرى ان كان قد انتـــابه الخوف أم لا . كل ما ادريه أنه ما ان وجه اليه أول سؤال حتى باح بكل شيء . ولو انه انكر لما امكننى أن أفعل له شيئا . فلم تــكن لدى الادلة . »

وحدثت نفسى قائلة « اذن فقد صح ما قاله مينو . وكان اعترافه نوعا من الغفلة الفجائية . كان سقطة لم تطلب اليه ولم يدفع اليها

ولا مبرر لها » . فأردفت قائلة ــ « اعتقد انك سجلت ما قال . اريد منك ان تعدم كل أثر لما دونت . »
فابتسم قائلا ــ « لقد ارسلك الى . اليس كذلك ؟ »
فأجبته قائلة ــ « كلا . انه اقتراحى . » ثم اضفت قائله بلهجة مؤثرة ــ « ليتنى أصعق الآن ان كنت كاذبة . »
ــ « انهم جميعا يتمنون لو اختفت السجلات . فان أرشيف الشرطة يمثل ضمائرهم القلقة . واذا ما اختفى السجل زايلهم أيضا تأنيب الضمير . »
قلت متذكرة مينو ــ « اتمنى لو صح ذلك . ولكننى أخشى انك مخطىء فى هذه المرة . »
فضمنى اليه مرة أخرى وهو يضغط بجسده على جسدى . ثم تلعثم قائلا وهو يرتجف بالرغبة :
ــ « وماذا تعطينى فى مقابل ذلك ؟ »
فقلت فى بساطة ــ « لا شىء . لا شىء مطلقا فى هذه المرة . »
ــ« ولنفرض اننى رفضت ؟ »
ــ « عندئذ تتسبب فى تعاستى الشديدة لانى احبه . فكل ما يحدث له يبدو وكأنه يحدث لى . »
ــ « ولكنك وعدتنى بأن تترفقى بى . »
ــ « حقا . غير اننى عدلت عن ذلك . »
ــ « لماذا ؟ »
ــ « لهذا . فليس هناك سبب معين . »
فضمنى اليه مرة أخرى ثم وضع فمه على اذنى واخذ يتلعثم متوسلا الى أن أخضع لرغبته اليائسة لاخر مرة . ولا أستطيع أن اردد كل ماقاله لانه خلط توسلاته بأقوال فاحشة لا يمكننى ان اكتبها . تلك الاقوال التى يرددها الرجال لمثيلاتى من النساء وترددها مثيلاتى من النساء لعشاقهن . أخذ يقول تلك الاشياء بتفصيل دقيق ولكن بغير تلك البهجة اللانهائية المألوفة التى تصاحب مثل هذه الانفجارات . بل فى لذة حزينة وكأنه مخبول . ولقد سمعت ذات مرة مريضا مصابا بجنون القتل يصف لمرضه صنوف العذاب التى سينزلها به لو شاءت المقادير أن يقع تحت رحمته . وكان يتكلم بنفس اللهجة الدقيقة الجادة المتزنة التى اخذ يهمس بها آستاريتا فى أذنى معبرا عن فحشائه . وكان مايقصده فى الحقيقة بذلك الوصف هو حبه لى الذى جمع بين الشهوة والحزن الفاجع . ولو كان فى مكانى اى شخص

آخر لتبادر الى ذهنه أن مايقوله لايعدو أن يكون تعبيرا عن الشهوة .
أما أنا فعلى العكس اذ أدركت انه حب عميق مطلق خالص على طريقته
كأى حب آخر . فأثار ذلك شفقتي عليه كما كان يحدث دائما لانني
استطعت أن أتكهن بما يستبطن فحشاءه من احساس بالوحدة وعجز
تام عن التخلص منه . فتركته يفرغ جعبته قبل ان اتحدث اليـه
قائلة ـ « انى لم اشأ أن أخبرك ولكنك ترغمنى على ذلك . افعل
ماشئت . ولكننى لن أستطيع أن أكون كما كنت . فانى حامل . »

فلم يدهش . اذ انه كان لايحيد لحظة واحدة عن غايته الثابتة
المحددة . بل قال :

ـ « حسنا ـ وماذا اذن ؟ »

ـ « سأغير اسلوب حياتى . سأتزوج . »

كان السبب الرئيسى الذى دفعنى الى مصارحته بحالتى هو أن
اعزيه عن رفضي طلبه . ولكننى بينما كنت اتكلم ادركت أنى اترجم
عن رأيى الحقيقى وأن الفاظى كانت نابعة من قلبى . فأردفت قائلة
وأنا اتنهد ـ « عندما عرفتني لاول مرة كنت أبغى الزواج . واذا
كنت لم افعل فذلك ليس خطئى » .

وكانت ذراعه لاتزال حول خصرى ولكنه خفف من احاطته بى .
وعندئذ انسحب بعيدا عنى وهو يقول ـ « لعنة الله على اليوم الذى
لقيتك فيه ! »

ـ « لماذا ؟ »

فبصق مشيحا براسه جانبا ثم استرسل قائلا ـ « لعنة الله على
اليوم الذى لقيتك فيه وعلى يوم مولدى . » كان يتكلم فى هدوء .
ولم يبد أنه ينفس عن أية عاطفة عنيفة . بل كان يتحدث فى هدوء
وثقة . ثم اضاف قائلا ـ « ليس هناك مايدعو صديقك الى الخوف .
فان لقائى به لم يسجل ـ والمعلومات التى ادلى بها لم يعقبها اجراء
ما . كل ماهنالك أن اسمه مدون فى سجلاتنا باعتبار أنه عنصر خطر
من الناحية السياسية . وداعا يا آدريانا . »

مكثت بجانب النافذة حيث ودعته عند رحيله كما ودعنى . ثم
التقط قبعته التى كانت على المائدة وغادر الدار دون أن يستدير
نحوى .

وفى الحال فتح الباب المؤدى الى المطبخ ودخل مينو ممسـكا
بمسدسه فى يده .. فحملقت فيه مدهوشة يخالجنى احســاس
بالفراغ والعجز عن الكلام .

ثم قال مبتسما ـ « كانت نيتى مبيتة على قتل آستاريتا . أخيل لك حقا اننى ابالى ان اختفت أوراق قضيتى أم لا ؟ »
فسألته قائلة فى صوت مذهول ـ « اذن فلم لم تقتله ؟ »
فقال وهو يهز رأسه ـ « لقد استنزل اللعنة من اعماقه على يوم مولده . فآثرت ان يواصل لعناته عاما أو عامين . »
وأحسست أن أمرا ما كان يزعجنى ولكننى عجزت عن اكتشافه رغم مابذلته من جهد مضن . فقلت ـ « على أية حال لقد حصلت على ما أريد . فليس ثمة شىء مدون . »
فقاطعنى قائلا ـ « لقد سمعته . سمعت كل شىء . فقد وقفت خلف الباب وكان مواربا . كما شاهدت ما فعل . » ثم أضاف قائلا فى غير اكتراث ـ « فهو شجاع . ان صديقك آستاريتا رجل شجاع . اذ نمت طريقته فى صفع سونزونيو عن السيطرة التامة ! فهناك طرق معينة تؤدى بها مثل هذه الاعمال حتى توجيه الصفعات . لقد ضربه وكأنه رجل عظيم يضرب مخلوقا حقيرا أو سيد يضرب خادمه . كما عجبت للطريقة التى تقبل بها سونزونيو صفعاته ! فانه لم ينطق بكلمة . » ثم ضحك وأعاد مسدسه الى جيبه .
وقد حيرني الى حد ما ثناؤه الغريب على آستاريتا . وسألته قائلة فى رجفة ـ « ماذا تتوقع ان يفعل سونزونيو ؟ »
ـ « من يعلم ؟ »
عندئذ كان الليل يوشك ان يخيم فقد شاع الظلام الحالك فى غرفة الجلوس . واتكأ مينو فوق المائدة ليشعل المصباح الاوسط . فبقى كل ماحولنا غارقا فى الظلام . وقد وضعت على المائدة نظارة أمى وأوراق اللعب الخاصة بها . فجلس مينو والتقط الورق ثم خلطه قائلا ـ « هل لك فى احدى ألعاب الورق أثناء انتظارنا العشاء ؟ »
فهتفت قائلة ـ « ياله من اقتراح ! نلعب الورق ! »
ـ « نعم . بيجار ماى نيبر Beggar My Neighbour هيا . »
فامتثلت له وجلست أمامه ثم تناولت فى آلية ماوزعه على من الورق . وكان برأسى ذهول وبيدى رجفة لا أدرى لها سببا . وبدأت اللعب فبدت لى صور الاوراق وقد اتخذت طابعا خبيثا مزعجا . فبدا الاعرج السباتى أسود شريرا بعينه السوداء ، وزهرته السوداء فى يده . وبدت البنت « الكوبة » شهوانية منفعلة معدومة الشكل . أما « الباش الديناري » فقد بدا مكترشا باردا عديم الحس غليظ

القلب . وأحسست أن الرهان بيننا فى اللعب ذو أهمية بالغة . ولكننى لم أدر ماهو . ولشد ما كنت حزينة حتى أننى أخذت أتنهد من وقت لآخر أثناء اللعب لارى ما اذا كان ذلك العبء الثقيل لايزال جاثما على صدرى . فاذا بى احس انه ليس جاثما فحسب بل زاد ثقلا .
وعندما فاز فى الشوط الاول والثانى سألنى قائلا وهو يخلط الورق ـ « ماذا دهاك ؟ انك لاتجيدين اللعب مطلقا ! »
فألقيت الورق قائلة ـ « لاتعذبنى على هذه الصورة يامينو ! فانى فى الواقع لا أشعر مطلقا بالرغبة فى اللعب . »
ـ « لماذا ؟ »
ثم نهضت واقفة وأخذت اتجول فى أرجاء الغرفة وأنا أفرك يدى فى قوة دون أن يرانى . ثم اقترحت عليه قائلة ـ « هلا ذهبنا الى الغرفة الاخرى ؟ »
ـ « ان شئت ذلك . »
فخرجنا الى الردهة . وهناك فى الظلام أحاط خصرى بذراعه ولثم عنقى . ولاول مرة فى حياتى أحسست أن الحب كان ـ كما يعتقد هو ـ وسيلة للتخدير وطرد الافكار ولكنه ليس ألذ ولا أهم من أية وسيلة أخرى . فأمسكت رأسه بيدى وقبلته فى عنف . ودخلنا الغرفة وقد تشبث كلانا بالاخر . وكانت غارقة فى الظلام ولكننى لم ألحظ ذلك . فقد ملأ عينى ضوء متألق أحمر كالدم . وكانت كل حركة من حركاتنا تتميز بروعة ألسنة اللهيب وهى تثب فى سرعة وبغتة من النار التى راحت تلتهمنا . فأحيانا تبدو اجسادنا وكأنها تملك حاسة سادسة فنألف الظلام كما نألف ضوء الشمس . ولكنها رؤيا لاتتجاوز حدود الاتصال البدنى فكان كل ما أمكننى رؤيته هو منظر جسدينا وقد انعكست صورتهما على صفحة الظلام وكأنهما جسدا غريقين ألقت بهما على الشاطىء دوامة سوداء .
وفجأة وجدتنى راقدة على الفراش وقد انعكس ضوء المصباح على بطنى العارى . فضممت فخذى بقوة ولا أدرى ان كان ذلك بسبب البرد أو الخجل . ثم سترت نفسى بيدى . فنظر الى مينو قائلا ـ « والان سيأخذ بطنك فى الانتفاخ رويدا رويدا كل شهر الى أن يأتى يوم يرغمك فيه الالم على أن تفتحى ساقيك اللتين تضمينهما الآن بقوة ثم يظهر رأس الطفل وقد كساه الشعر فتلفظينه الى ضوء النهار ليلتقطه المحيطون بك ويضعوه بين ذراعيك فتشعرين بالسعادة. وهكذا يضاف رجل آخر الى العالم. فلنأمل الا يردد ماقاله آستاريتا ـ »

ـ « وماذا قال ؟ »
ـ « لعنة الله على يوم مولدى . »
فقلت :
ـ « آستاريتا رجل تعس . ولكنى واثقة أن ابنى سيكون سعيدا مجدودا . »
ثم تدثرت بالبطانية وأعتقد أننى استغرقت فى النوم . ولكن اسم آستاريتا أيقظ فى قلبى من جديد ذلك الاحساس بالالم الذى راودنى بعد رحيله . وفجأة سمعت صوتا مجهولا يصيح فى أذنى بنبرات عالية قائلا ـ « بام . بام ! » وكأنه يقلد صوت طلقين ناريين . فنهضت من الفراش واتجهت صوب الباب لاتأكد من أنه مغلق باحكام . ولكننى اصطدمت بمينو الذى كان واقفا فى كامل هندامه يدخن بالقرب من الباب . فعدت الى الفراش حيث جلست على حافته وقد انتابنى الذهول والحيرة . وسألته قائلة ـ « مارأيك ؟ ماذا سيفعل سونزونيو ؟ »
فأجابنى قائلا وهو ينظر الى ـ « وكيف أعلم ذلك ؟ »
فقلت وقد واتتنى الالفاظ أخيرا لاعبر بها عن ألمى ـ « انى أعرفه . فانقياده له دون احتجاج وهو يدفعه الى خارج الغرفة لايعنى شيئا . فهو قادر تماما على قتله . ما رأيك ؟ »
ـ « ربما . فذلك أمر محتمل جدا . »
ـ « اتعتقد أنه سيقتله ؟ »
ـ « لو أنه فعل ذلك لما دهشت » .
فصحت قائلة وأنا أنهض من مكانى لابدأ فى ارتداء ثيابى دون مزيد من اللفظ ـ « يجب أن نحذره . أنا واثقة أنه سيقتله . آواه ! لم لم أفكر فى ذلك من قبل ؟ »
ارتديت ثيابى بسرعة أثناء حديثى عن مخاوفى وأحاسيسى الداخلية . ولم ينبس مينو بكلمة بل ظل يدخن متجولا فى أرجاء الغرفة . وأخيرا قلت ـ « انى ذاهبة الى منزل آستاريتا . فهو الآن فى داره . انتظرنى هنا . »
ـ « انى قادم معك . »
فلم أصر على ما قلت . بل فرحت من أعماقى لصحبته اذ أننى كنت فى حالة من الاضطراب يخشى معها أن ينتابنى المرض . قلت وأنا أرتدى معطفى ـ « يجب أن نستقل سيارة فى الحال » ولبس مينو معطفه أيضا ثم غادرنا المنزل .

وأخذت أهرول فى الطريق أكاد أركض . فوسع مينو خطاه لكى يلحق بى وقد شبك ذراعه بذراعى . وما لبثنا أن وجدنا سيارة فأسرعت بركوبها وأنا أصيح مدلية بعنوان آستاريتا . وكان يقطن فى أحد شوارع حى « براتى » الذى لم أره قط من قبل ولكننى كنت أعلم أنه يقع على مقربة من المحاكم .

وأخذت السيارة تستجمع سرعتها بينما لم أفتأ أتابع الطريق وكأنى مخبولة وقد اتكأت الى الامام مراقبة الشوارع من فوق كتف السائق . وفى لحظة معينة سمعت مينو يقول فى هدوء ــ « وماذا لو فعل ؟ فبذلك تكون أفعى قد التهمت أفعى . هذا هو كل ماهنالك . » ولكننى لم ألتفت اليه . وما ان وصلت السيارة الى خارج مبنى وزارة العدل حتى أمرت السائق بالوقوف . فنقده مينو أجره ثم غادرنا السيارة . وركضنا عبر الحديقة الصغيرة ذات الشكل الهندسى مجتازين ممراتها المغطاة بالحصباء فيما بين الاشجار والمقاعد . وفجأة اذا بالشارع الذى يسكنه آستاريتا يمتد امامى كالسيف طويلا مستقيما وقد أضاءه عن بعد صف من المصابيح الكبيرة البيضاء . كان شارعا ذا منازل ضخمة بنيت فى نظام وقد بدا مهجورا لخلوه من المحال التجارية . وقدرت من الرقم ان يكون منزل آستاريتا قرب نهاية الشارع الذى لشد ما ساده الهدوء حتى قلت ــ « لعلها كلها تخيلات .. ولكن لا يسعنى الا أن أفعل ذلك »

ومررنا بثلاثة مبان أو أربعة وبمثلها من مفارق الطرق ثم تكلم مينو قائلا فى هدوء : ــ « ومع ذلك فلا ريب أن شيئا قد وقع . انظرى هناك . » وما ان رفعت بصرى حتى رأيت زحاما أسود كان قد تجمع أمام أحد الابواب الامامية غير بعيد من مكاننا . فقد اصطف الناس على الافريز المواجه وهم يتطلعون بأبصارهم نحو السماء المظلمة . وتأكدت أن ذلك بلا ريب هو منزل آستاريتا فأخذت اجرى نحوه كما أعتقد أن مينو كان يجرى أيضا . ولهثت قائلة لاحد الافراد المتجمهرين حول مدخل الدار ــ « ماذا هناك ؟ ماذا حدث ؟ »

فقال الشخص الذى خاطبته وكان فتى صغيرا أشقر حاسر الرأس والذراعين يمسك بدراجة من قضبان مقودها ــ « لم ينجل الامر تماما . فقد ألقى شخص بنفسه فى بئر السلم . أو ألقى به . وصعد رجال الشرطة الى سطح المنزل للبحث عن شخص آخر . »

فشققت طريقى خلال الزحام وأفسحت لنفسى مكانا بمرفقى فى ردهة المدخل التى كانت فسيحة باهرة الاضاءة مزدحمة بالناس .

وثمة درج أبيض ذو سياج حديدى كان يرتفع فى منحنى واسع فوق رءوس الناس . وبينما كنت أشق طريقى الى الامام وأنا أكاد أرتفع عن الارض بقوتى الدافعة أمكننى أن أرى من فوق كل هذه الرءوس والمناكب مكانا مكشوفا على الارض أسفل الدرج . وثمة عمود رخامى أبيض مستدير كان يحمل تمثالا عاريا مجنحا من البرونز المذهب وقد ارتفعت احدى ذراعيه ممسكة بمشعل زجاجى أغبش ركب فى داخله مصباح كهربائى ، وفى أسفل ذلك العمود مباشرة رقد جثمان آدمى مسجى بملاءة . وكان الجميع ينظرون فى نفس الاتجاه فنظرت أنا أيضا حيث لاحظت أنهم يحملقون فى قدم بارزة من تحت الملاءة وقد انتعلت حذاء أسود . عندئذ سمعت أناسا كثيرين يصيحون قائلين بلهجة آمرة — « ابتعدوا . ابتعدوا ! » فاندفعت مع الاخرين جميعا الى الوراء حيث وجدت نفسى فى الطريق .

فقلت فى ضعف لشخص كان يقف خلفى تماما — « فلنذهب الى المنزل يامينو ! » ثم استدرت نحوه فاذا بى امام وجه مجهول أخذ ينظر الى فى دهشة . واخذ الناس يتفرقون معلقين على ماحدث بعد أن ظلوا يحتجون عبثا وهم يطرقون الباب المغلق على حين لم يفتأ قوم آخرون يفدون على المكان راكضين من اتجاهات اخرى . فقد وقفت سيارتان وعدد من راكبى الدراجات لتحرى ماحدث . واخذت أتجول خلال الزحام وقد انتابتنى حالة من القلق المتزايد فرحت اتفحص الوجوه دون أن اجرؤ على مخاطبة اصحابها . فكانت بعض الرءوس والمناكب تبدو من الخلف وكانها لمينو، فاشق طريقى باندفاع حتى أتوسط كل جماعة فاذا بعددمن الوجوه المجهولة تطالعنى فى دهشة . وكان الزحام حول مدخل الدار لايزال على أشده فقد كان الناس يعلمون بوجود جثة فى الداخل ومازالوا يأملون فى القاء نظرة عليها . وقد تزاحموا فى جد وجلد كأنهم يقفون فى صف خارج احد المسارح . وظللت أتجول هنا وهناك حتى أدركت فى لحظة معينة أننى كنت أتفحص كل وجه ولم أفتأ أطالع نفس الوجوه . وقد خيل لى أننى سمعت اسم آستاريتا يتردد فى احدى الجماعات فلاحظت أننى لم أكترث له قط بل تركز على مينو كل احساسى بالالم . واخيرا اقتنعت بأنه لا يمكن ان يكون هناك . فلا ريب أنه انصرف عندما شققت طريقى الى داخل الردهة . وخيل لى ولا أدرى لذلك سببا انه كان ينبغى على أن أتوقع هروبه . وعجبت كيف أننى لم افكر فى ذلك من قبل . وما ان استجمعت شجاعتى حتى تحاملت على نفسى الى ان

بلغت الساحة حيث ركبت سيارة وأدليت بعنوان منزلى . وخطر لى أن مينو ربما افتقدنى فى الزحام فعاد الى المنزل وحده . ولكننى كنت على يقين تقريبا من أن ذلك الاحتمال غير صحيح .

لم يكن فى المنزل ولم يعد لافى ذلك المساء ولا فى اليوم التالى فاحتبست فى غرفتى وقد استحوذ على شعور قوى بالقلق والاضطراب حتى أننى لم أستطع أن أتمالك نفسى من الرجفة فى جميع أطرافى . كانت حرارتى طبيعية ولكن بدا لى أننى أعيش خارج نفسى فى جو شاذ يتجاوز حدود طاقتى وكان كل مشهد فيه وكل صوت وكل احتكاك بالمجتمع يؤذينى ويضنينى . ولم يقو شيء على تشتيت ذهنى وصرفه عن التفكير فى مينو ولا حتى تلك الجريمة الجديدة التى ارتكبها سونزونيو وامتلات بها جميع الصحف التى كانت تحملها الى أمى . وكانت تلك الجريمة تحمل طابع سونزونيو الذى لايمكن أن يخطئه أحد . فلعلهما اشتبكا فى صراع مدة لحظة خارج الباب الامامى لشقة آستاريتا ثم حنى سونزونيو ظهر آستاريتا الى الخلف على سياج الدرج ورفعه الى أعلى ثم ألقى به فى بئر السلم . مثل هذه الوحشية كانت معبرة للغاية : ولا يمكن أن يفكر أحد فى القتل على هذه الصورة سوى سونزونيو . ولكننى كما قلت لم يكن يشغل بالى سوى خاطر واحد ولم يقو شيء على أن يثير اهتمامى ولا حتى تلك المقالات التى وصفت للناس كيف قتل سونزونيو بعد ذلك بعيار نارى فى ساعة متأخرة من الليلة نفسها أثناء هروبه كالقط عبر سطوح المنازل . فقد كانت كل صورة من صور الانشغال أو تشتيت الذهن أو حتى التأمل فى غير مينو تعافها نفسى وتماؤنى بالغثيان . ولكن التفكير فى مينو كان فى نفس الوقت يسبب لى ألما مبرحا لا يمكن احتماله . وحدث أن خطر آستاريتا على بالى مرتين أو ثلاثا وما ان تذكرت حبه لى وكآبته حتى خالجنى نحوه احساس قوى بالشفقة العاجزة وحدثت نفسى قائلة اننى لولا قلقى الشديد على مينو لبكيته وصليت على روحه التى لم تعرف السعادة قط والتى انتزعت من جسده بطريقة أشد ماتكون بغتة ووحشية .

هكذا أمضيت سحابة اليوم الاول بطوله وليله كاملا ثم نهار اليوم التالى وليله . فكنت تارة أرقد على الفراش وتارة أجلس فى المتكأ عند طرف سريرى ممسكة بين يدى باحدى سترات مينو وقد وجدتها معلقة على المشجب . وكنت بين الفينة والفينة أقبلها فى حرارة وحماس أو أعضها بأسنانى لاهدىء من قلقى . وكنت عندما ترغمنى امى على

تناول شيء من الطعام استخدم فى تناوله يدا واحدة فقط بينما أظل قابضة بيدى الاخرى فى تشنج على سترة مينو . وفى الليلة الثانية أرادت أمى أن تضعنى فى الفراش لاخلد الى النوم فتركتها تخلع لى ثيابى . ولكنها ماان حاولت تأخذالسترة منى حتى أطلقت صرخة حادة ملأتها بالرعب . وكانت أمى لا تعرف شيئا معرفة مؤكدة بل قدرت على نحو ما ان غيبة مينو عن المنزل هى التى دفعتنى الى اليأس .

وفى اليوم الثالث أمكننى ان أصل الى فكرة ما تشبثت بها فى قوة طوال الصباح رغم احساسى الغامض بمدى عيها وعدم استنادها الى أساس قوى . فقد خيل لى أن مينو قد انتابه الذعر عندما علم بحملى وأراد أن يتهرب من الواجبات الملقاة على عاتقه فرحل الى منزل أسرته فى الريف . ومع أن ذلك الفرض كان بغيضا فقد آثرت أن أظن به هذه النذالة على أن اقبل الفروض الاخرى التى لم يسعنى الا أن أتخيلها لتفسير اختفائه والتى لشد ماكانت أليمة مفجعة . وقد أوحت بها الى الظروف الملابسة لهربه .

وفى ظهر ذلك اليوم دخلت أمى غرفتى وألقت بخطاب على الفراش . فتعرفت على خط مينو ووثب قلبى من الفرح وانتظرت ريثما تغادر أمى الغرفة ثم انتظرت حتى يهدأ روعى قليلا . وبعد ذلك فتحت الخطاب وهاهو ذا نصه :

آدريانا يا أغلى حبيبة .

فى اللحظة التى تتسلمين فيها هذا الخطاب أكون قد رحلت عن هذه الدنيا . عندما فتحت المسدس ووجدته فارغا أدركت فى الحال أنك الفاعلة . واتجه تفكيرى اليك فى حب شديد . لهفى عليك يا آدريانا فانت لا تعرفين شيئا عن هذه الاسلحة . فثمة رصاصة أخرى كانت باقية فى المخزن . وقد عزز من تصميمى اغفالك اياها . وعلى أية حال فهناك طرق كثيرة للانتحار .

لقد وجدت نفسى كما قلت لك عاجزا عن قبول مافعلت . كما احسست بالحب نحوك خلال الايام القليلة الاخيرة . ولكننى لو كنت منطقيا مع نفسى لوجب على أن أكرهك . فانت تمثلين كل ما أمقته فى نفسى أشد المقت – كل ما كشفت عنه فى نفسى تلك المقابلة . فان ماحدث عندئذ فى الواقع كان انهيارا لتلك الشخصية التى ينبغى عنى ان أكونها . فتعريت الا من ذلك الرجل الذى يمثلنى فى الحقيقة . فلم يكن ماحدث جبنا او خيانة بل انقطاعا غامضا فى الارادة فحسب .

ولعله ليس غامضا الى هذا الحد ـ ولكن ذلك قد يحملني بعيدا عن الموضوع . كل ما اريد ان أقوله هوانني بانتحـــاري أضع الامـور فى نصابها الذى ينبغى أن تكون عليه .

لا تجزعى فانى لا أكزهك . بل لشد ما أحبك فى الواقع حتى أننى لا أرضى عن الحياة الا اذا فكرت فيك . ولو كان فى امكانى لواصلت الحياة ولاتخذتك زوجة لي ولكانت السعادة من نصيبنا كما تعودت أن تقولي . ولكن ذلك فى الواقع ليس فى الامكان .

كما تذكرت الطفل الذى تحملينه . فكتبت بشأنه رسالتين احداهما الى أسرتى والاخرى الى صديق محام . وهم قوم مهذبون قبـــل كل شيء . فعلى الرغم من أن مشاعرهم نحوك لايمكن أن يحوطها الغموض فانى واثق من انهم سيؤدون واجبهم . أما اذا رفضوا ـ وهذا أمر بعيد الاحتمال للغاية فلا تترددى فى اللجوء الى القانون ـ وسوف يزورك صديقى المحامى ويمكنك أن تثقى به .

اذكرينى أحيانا . وانى اقبلك .

مينو

ملحوظة : صديقى المحامى يدعى فرانســكو لاورو . ويقيم بالمنزل رقم ٣ بشارع فياكولا دى رنزو .

ما ان قرأت هذه الرسالة حتى دفنت نفسي بين أغطية الفراش حيث جذبت الملاءة فوق رأسى واخذت ابكى فى مرارة . ولايمكننى أن اذكركم طال بكائى . فكلما خيل لى أننى توقفت عن البكاء اذا بتمزق اليم حاد فى صدرى يجعلنى انفجر باكية من جديد . ولم أبك بصوت عال كما كنت اتمنى أن افعل خشية ان أجذب انتباه أمى . فرحت ابكى فى صمت . وخيل لى أننى ابكى لاخر مرة فى حياتى بأسرها . فبكيت مينو وبكيت نفسى وبكيت حياتى الماضية بأسرها وكذلك حيـــاتى المستقبلة .

واخيرا نهضت من الفراش وانا لا أزال أبكى يخالجنى احســـاس بالذهول وبلادة الذهن وبدأت أرتدى ثيابى بسرعة وقد عشيت عيناى بالدموع . ثم غسلت عينى بالماء البارد . وطليت وجهى الاحمـر المتورم بقدر ما امكننى ذلك . ثم غادرت المنزل فى هـدوء دون أن اخبر أمى .

وتوجهت الى مركز الشرطة المحلى حيث قابلت المأمور . فأنصت الى روايتى ثم قال يراوده الشك ـ « لم تصلنا فى الواقع اية معلومات فستجدينه قد فكر فى الامر مرتين . »

وتمنيت لو صح ماقال ، ولكنى ضقت به فى نفس الوقت دون أن أدرى لذلك سببا . فقلت فى حده ـ « أنت تتكلم بهذه اللهجة لانك لا تعرفه . أتحسبهم جميعا على شاكلتك ؟ »

فسألنى قائلا ـ « انصتى الى ! أتريدينه حيا أم ميتا ؟ »

فصحت قائلة ـ « أريده أن يعيش ! أريده أن يعيش ! ولكننى لشد ما أخشى أن يكون قد مات . »

ففكر قائلا ـ « تشجعى . فربما كان ينوى الانتحار عندما كتب لك هذا الخطاب . ولكن لعله عدل عن ذلك فيما بعد . فهو كائن بشرى ومن المحتمل أن يحدث ذلك لاى شخص . »

فتلعثمت قائلة ـ « نعم . انه كائن بشرى . » ولم أعد أدرى ماذا انا قائلة .

ثم ختم حديثه قائلا ـ « وعلى أية حال فلتعودى الينا هذا المساء . وعندئذ يمكننى أن أزودك ببعض الاخبار »

فخرجت من مركز الشرطة واتجهت مباشرة الى الكنيسة . وكانت هى نفس الكنيسة التى عمدت فيها ثم نصرت وتمت فيها مناولتى الاولى . كانت كنيسة عريقة فى القدم مستطيلة عارية بها صفان من الاعمدة الحجرية ذات اللون البنى المخفف وأرضية مغبرة من أحجار الرصف الرمادية . ولكن كان هناك على جانبى الكنيسة حيث يكتنف الظلام صحنيها فيما وراء صفى الاعمدة عدد من الكنائس الصغيرة المذهبة فى بذخ اشبه بالكهوف العميقة المملوءة بالكنوز . وقد كرست احدى هذه الكنائس للسيدة العذراء . فجثوت على الارض فى الظلام امام الحاجز البرونزى الذى كان يحيط بها . وقد ظهرت العذراء فى صورة كبيرة معتمة خلف عدد من اصص الزهور ، وكانت تمسك بطفلها بين ذراعيها بينما سجد عند قدميها أحد القديسين شابكا يديه وهو يبتهل اليها . فانحنيت على الارض حيث اصطدم راسى بأحجار الرصف . وفيما انا أغطى الحجر بقبلاتى رشمت علامة الصليب على تراب الارض ثم استغثت بالعذراء ونذرت على نفسى الا ادع رجلا آخر يقربنى طوال حياتى ولا حتى مينو . وكان الحب هو الشىء الوحيد الذى اكترث له فى الوجود بأسره فلم تكن لى متعة سواه . وخيل لى انها أعظم تضحية يمكننى أن أقدمها لخلاص مينو . وبعد ذلك صليت من قلبى بلا الفاظ ولا خواطر وكنت لا ازال منحنية يلامس جبينى أرض الكنيسة . ولكننى ما ان نهضت واقفة حتى انبهرت . فقد بدت لى تلك الظلمة الحالكة التى تكتنف الكنيسة

وقد انشقت فجأة بنور ساطع حيث أبصرت العذراء بوضوح وهى تنظر الى فى رقة وحنان . ولكنها مع ذلك أخذت تهز رأسها وكأنها تقول لى انها لا تقبل صلاتى . ولم تمض على ذلك لحظة واحدة حتى وجدتنى واقفة مرة أخرى أمام الحاجز المواجه للهيكل . وخالجنى لذلك احساس بأنى اقرب الى الموت منى الى الحياة . فرشمت الصليب على صدرى ثم عدت الى المنزل .

وظللت اليوم بطوله أعد الدقائق والثوانى . وما أن اقترب المساء حتى ذهبت مرة أخرى لمقابلة مأمور الشرطة . فرمانى بنظرة غريبة مما جعلنى أحس وكأنه سيفشى على فقلت بصوت لا يكاد يخرج من حلقى ـ « اذن فالخبر صحيح . لقد قتل نفسه بالفعل . »

فالتقط مأمور الشرطة صورة فوتوغرافية كانت على المنضدة ثم قدمها الى قائلا : ـ « ثمة رجل لم تعرف شخصيته بعد قتل نفسه فى أحد الفنادق بالقرب من المحطة . انظرى لترى ان كان هو صديقك . »

فتناولت الصورة وتعرفت عليه فى الحال . لقد صوروا الجزء الاعلى من جسده ابتداء من الخصر . ومن الواضح انه كان ممددا فى الفراش . وقد سالت الدماء عبر وجهه فى خطوط سوداء صغيرة منبثقة من صدغه حيث أطلق النار على نفسه . ولكن وجهه تحت هذه الخطوط كان يرتسم عليه صفاء لم اره قط خلال حياته .

أثبت شخصيته بصوت ضعيف واهن ثم نهضت واقفة . وهم الضابط بأن يقول لى شيئا ولعله اراد أن يعزينى ولكننى لم اشأ أن انصت اليه . بل غادرت الغرفة دون أن استدير نحوه .

وذهبت الى المنزل . وعندئذ ارتميت بين ذراعى أمى ولكن دون أن أبكى . كنت أعلم أنها غبية وانها لاتفهم شيئا ولكن لم يكن فى وسعى أن أأتمن سواها . ورويت لها كل شىء عن انتحار مينو وعن حبنا وعن حملى . ولكننى لم أخبرها أن سونزونيو كان والد الطفل . وأخبرتها بالنذر الذى قدمته أيضا قائلة انه قد استقر رأيى على تغيير أسلوب حياتى ومساعدتها فى حياكة القمصان أو الانخراط فى سلك الخدمة . فقالت أمى بعد أن حاولت تعزيتى بعبارات سخيفة ولكنها صادقة انه ينبغى على الا اتخذ قرارات متهورة ـ وان مايجب أن أفعله الآن هو أن أرى ما ستفعله الاسرة من اجلى .

فقلت ـ « هذا الموضوع يخص طفلى ولا يخصنى . »

وفى صباح اليوم التالى زارنى فجأة وعلى غير انتظار صديقا مينو توليو وتوماسو . فقد تسلما هما أيضا رسالة من مينو أبلغهما فيها

بخيانته وحذرهما من العواقب التى قد تترتب على ذلك بعد ان كاشفهما باعتزامه الانتحار .

قلت فى حدة ـ « لا تنزعجا . فلا حاجة بكما الى الذعر . فلن يصيبكما مكروه على الاطلاق . » ثم حدثتهما عن آستاريتا وكيف أنه وهو الشخص الوحيد الذى يعرف شيئا قد قضى نحبه وأن المقابلة التى تمت بينهما لم تسجل فى محاضر الشرطة وأنهما كانا فى أمان من الوشاية . وبدا لى أن توماسو قد أزعجه حقا مصرع مينو . أما توليو فلم يكن قد تخلص بعد من خوفه . اذ انه مالبث أن قال ـ « ومع ذلك فانه قدوضعنا فى مأزق حرج . فمن ذا الذى يمكنه أن يثق بالشرطة ؟ وما يدرينا . فما أشنعها من خيانة ! » ثم فرك يديه منفجرا فى الضحك على طريقته المعهودة المغالى فيها وكأن مايقوله شىء مسل حقا .

فنهضت واقفة فى غضب ثم قلت ـ « لم تكن شيئا من هذا القبيل ـ لقد قتل نفسه ـ فماذا تطلبان اليه اكثر من ذلك ؟ فان أحدا منكما ما كان ليجد الشجاعة التى تؤهله لان يحذو حذوه . كما يمكننى ان أقول لكما شيئا آخر ـ فأنتما وان لم تكونا خائنين لا تساويان شيئا ! أتعرفان لماذا ؟ لانكما منكودان بائسان تعسان مفلسان لن يصل الى حوزتكما مليم واحد . فاذا ما سارت معكما الامور سيرا حسنا نلتما مالم تحصلا عليه قط حتى الان فى حياتكما بأسرها ونعمتما وأسرتاكما برغد العيش . أما هو فكان غنيا اذ ولد فى أسرة ثرية . وكان سيدا مهذبا . وان كان قد انضم لحركتكم فذلك لايمانه بها لا أملا فى مأرب أو غاية . فكان الامر بالنسبة له خسارة على طول الخط أما بالنسبة لكما فالامر على العكس من ذلك كسب على طول الخط ! هذا هو مايمكننى أن أقوله لكما ـ وكان يجب أن تخجلا من مجيئكما الى هنا لتحدثانى عن الخيانة » .

ففغر توليو الضئيل فاه الضخم وكأنه يهم بالرد فمنعه توماسو بحركة من يده وقد فهم ماقلت . ثم قال لى ـ « انك على حق ـ ولكن لا تنزعجى ـ فلن أذكر مينو الا بالخير . » وبدا متأثرا فأحسست بالميل نحوه لانه من الواضح انه كان شغوفا حقا بمينو . ثم ودعانى وانصرفا .

وما ان خلوت الى نفسى من جديد حتى أحسست أن ماقلته لهذين الشخصين قد خفف الى حد مامن حزنى وأساى . فكرت فى مينو ثم فكرت فى الطفل وكيف أنه سيكون طفلا لابوين : سفاح

وبغي . ولكن كل رجل فى العالم عرضة لان يقتل شخصا ما وكل امرأة عرضة لان تبيع عرضها . ولكن أهم ما فى الامر هو أن يولد فى يسر وأن ينمو قويا سليم البنية . واستقر رأيى ان كان ذكرا على تسميته جياكومو احياء لذكرى مينو . أما اذا كان المولود انثى فسأدعوها « لتيتا » لاننى كنت اريدها أن تحظى بما لم أحظ أنا به وهو الحياة المرحة السعيدة . وكنت على ثقة بأن ذلك سيتاح لها بمساعدة أسرة مينو .

تمت

رقم الايداع : ٤٤٩٦ / ١٩٩٠
I.S.B.N
977-07-0006-7

الطباعة : مؤسسة دار الهلال ـ القاهرة

البرتومورافيا

● ولد فى مدينة روما فى ٢٨ نوفمبر عام ١٩٠٧ وتوفى فى ٢٦ سبتمبر ١٩٩٠ .

● بدأ حياته الادبية فى عام ١٩٢٩ حين نشر روايته الأولى « اللامبالـون » ثم تتابعت اعماله التى رفعته الى مصاف اكبر ادباء ايطاليا طوال ستين عاما .

● كتب ١٦ رواية .. والعديد من المجموعات القصصية والمسرحيات .

● تحولت رواية « امرأة من روما » الى فيلمين الأول عام ١٩٥٤ ، والثانى فى عام ١٩٨٧ والاثنان من بطولة جينا لولو برجيدا .

● نشـرت له روايـات الهـلال .. « المستهترون » « ١٩٣٤ » و« امـرأة مـن روما » .

● تزوج ثلاث مرات من كـاتبـات . منـهـن : السامورانته ، وكارمن ليرا .

● زار مصر والمنطقة العربية اكثر من مرة

هــذه الـروايــة

مسكينة اوريانا ..

لقد باعتها امها وهى فى السادسة عشر من عمرها الى اكثر من رجل .

اوريانا إبنة لخياطة فقيرة . بدأت امها تعرضها على الرجال .. كان اول رجل هو رسـام اتخذهـا نموذجـا وعشيقة . ثم دفعتها للعمل كفتاة ليل فى احد الكباريهات .. ثم اضطرت الفتاة المسكينة الى ان تجد الرجال فى فراشها بناء على رغبة امها .. كل ذلك من اجل ان تمتلىء بطن امها بالطعام وجذبها بالفلوس .

تقابل اوريانا تلميذا مناضلا متحمسا للقضايا الوطنية . تحبه وترتبط به . لكن الشاب ينتحر .

اوريانا نموذج انسانى يثير الشفقة . والرثاء .. كتبه البرتومورافيا فى عام ١٩٤٧ فى واحدة من أهم رواياته « امرأة من روما » . التى نشرتها روايات الهلال اول مرة فى عام ١٩٧١ فى ترجمة كاملة .

واليوم نعيد نشر هذه الـرؤية الرائعة فى جزء واحد . وفى نفس الطبعـة الكاملـة بمناسبـة رحيـل البرتومورافيا . واحد من ابرز الكتاب الايطاليين فى القرن العشرين .

امراة من روما ..

رواية الأمس .. واليوم .. والغد ..